تربية القلب

في حديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

دراسة تحليلية تربوية

الجزء الثاني

الأستاذ الدكتور
عثمان عبد المعز رسلان

تربية القلب

في حديث الرسول محمد ﷺ

دراسة تحليلية تربوية

بطاقة الكتاب

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

اسم الكتــــاب : تربية القلب في حديث الرسول محمد ﷺ

(دراسة تحليلية تربوية)

اسم المؤلف : د/ عثمان عبد المعز رسلان

موضوع الكتاب : رقائق وتزكية

الناشـــــر : مؤسسة شروق للترجمة والنشر

عدد الصفحـات : ٧٦٤

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

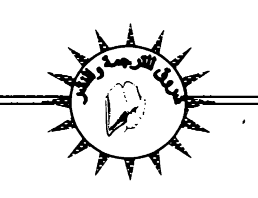
عـدد الملازم : ٤٧,٧٥

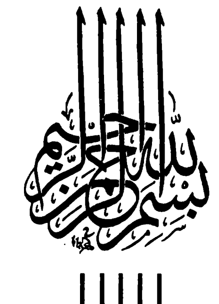
رقــم الإيداع : ١٥٤٦ / ٢٠١٢م

المنصورة – أمام مستشفى الطوارئ

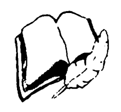
ت : ٢٢٥٢٨٦٠ / ٠٥٠

shrook.mst@gmail.com





مؤسسة
شروق للترجمة والنشر



تربية القلب

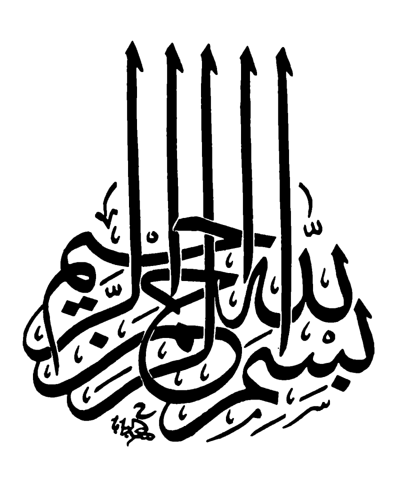
في حديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

دراسة تحليلية تربوية

الأستاذ الدكتور
عثمان عبد المعز رسلان

الجزء الثاني

مؤسسة شروق
للترجمة والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم



الفصل الثامن

تربية القلوب المصقولة



تربية القلوب المصقولة

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- أخرج الترمذي عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ في قلبه نكتة سوداء؛ فإذا هو نَزَعَ واستغفر، وتاب؛ صُقِلَ قلبه وإن عاد؛ زيد فيها حتى تعلو قلبه**»، وهو الرَّانُ الذي ذَكَرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][1].

ب- وأخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه**»، ذاك الرَّيْن الذي ذكره الله- عز وجل- في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][2].

وساقه ابن كثير من رواية أحمد، وفيه: «**فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه**»، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤][3].

جـ- ورواه الطبري في التفسير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صَقَلَتْ قلبه، فإن زاد؛ زادت حتى تُغْلِقُ قلبه**»، فذلك الران الذي قال الله-

---

(١) الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة): سنن الترمذي (وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ، ومعرفة الصحيح والمعلول، وما عليه العمل) الجزء الخامس، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، حديث رقم ٣٣٤٥، ص ٢٢٠، ٢٢١.

(٢) قال شاكر: إسناده صحيح، انظر: المسند، الجزء الثامن، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، رقم ٧٩٣٩، ص ٧١، ٧٢، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي، المسند، حديث رقم ٧٩٣٩ (من الشبكة) وكذلك قال الأرنؤوط في تخريج الإحسان لابن حبان، حديث رقم ٢٧٨٧.

(٣) إسماعيل بن كثير القريشي: تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، ص ٤٨٥.

جل ثناؤه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤](٤).

وفي النص الذي ساقه الشوكاني: «.. **وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه**..»(٥).

د- وأخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع، واستغفر؛ صُقِلَ قلبه، فإن زاد؛ زادت**»، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤](٦).

هـ- ورواه النسائي عن أبي هريرة؛ ولفظه: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب؛ صقل قلبه؛ فإن عاد؛ زِيدَ فيها حتى تعلو قلبه**»، فهو الران الذي قال الله - تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، وأورده الألباني في صحيح الجامع بلفظ: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب؛ صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه**»، وهو الران الذي ذكر الله..(٧).

و- ورواه الحاكم بلفظ: «**إذا أذنب العبد نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها؛ فإن عاد زادت حتى تَعْظُمَ في قلبه**»، فذلك الران..(٨).

---

(٤) ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء الأول، مصدر سابق، رقم ٣٠٤، ص٢٦٠، وقال الشيخ شاكر: ورواه أحمد في المسند، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والترمذي والنسائي، وابن ماجه وابن حبان، وابن المنذر وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان، هامش ص ٢٦٠.

(٥) الشوكاني: فتح القدير...ج٥، ص ٥٣٤، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٥١٧) وأخرجه البيهقي في الشعب، برقم ٧٢٠٣.

(٦) ابن ماجه: السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج٢، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، حديث رقم ٤٢٤٤، ص ١٤١٨، وقال الألباني: حسن، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، حديث رقم ٣٤٤١، ص ٣٨١.

(٧) قال الألباني: حسن، انظر: محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزياداته، الفتح الكبير، المجلد الأول، ط٣، رقم (١٦٧٠) ص ٣٤٢ ، ٣٤٣.

(٨) قال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وقد احتج مسلم بأحاديث القعقاع بن حكيم عن أبي صالح؛ انظر: المستدرك على الصحيحين، المجلد الأول، حديث رقم ٦، ورواه أيضا الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥١٧).

ز- ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ: «**إن العبد إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب صقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى يسود قلبه**»قال: فذلك قول الله - تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤][٩].

ثانيا: تقرير قانون التحول والتغير القلبي:

أ- يعطينا هذا الحديث أربع تصورات إسلامية عقدية عن القلب، هي:

١- أن القلب المؤمن يتأثر بالخطيئة أو الذنب، فيسود، أو ينكت فيه نكتة سوداء، إذا أذنب صاحبه.

٢- أن القلب يتأثر بالاستغفار والتوبة، وخلع الذنب من القلب، فينجلي، ويصفو، وينير.

٣- أن الإنسان إذا تتابع في الذنوب والخطايا، دون استغفار وتوبة فإن (الران) يغلف قلبه، ويعظم السواد في قلبه، ويحجبه عن الله في الدنيا، وفي الآخرة.

٤- أن القلب يتحول من الإيمان والعبودية لله، إلى الحجاب عن الله، طبقا لكسب الإنسان وفعله، بقدر الله - تعالى.

ب- فهذا الحديث يؤكد، ويبين بوضوح نفس قانون التحول القلبي، الذي بيناه في الفصل السابق، مع فرق واحد هو: أن حذيفة يذكر أن القلب إذا أنكر الفتنة قبل أن يرتكب الذنب، نكتت فيه نكتة بيضاء، لأنه أنكرها ولم يرتكبها، وهنا في حديث أبي هريرة نلحظ: أن المؤمن قد فعل الذنب، ونكت فيه النكتة السوداء، ولكن الحديث يحمل الأمل للمسلم، والإنسان عموما، فإذا نزع واستغفر وتاب محيت وأزيلت هذه النكتة السوداء، وجلي الصدأ والسواد عن القلب، أي: صقل، أما إذا لم يتب، وزاد في الذنب؛ فإن هذه النكتة السوداء تزداد، وتعظم حتى تغلق، وتغلف، وتحجب قلبه.

---

(٩) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، تحقيق وتعليق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، ٢٠٠٤م، رقم ١٩٨، ص ١٠٠، قال محققه: حسن، وأخرجه ابن حبان (٢/ ١٤١) (٤/ ١٩٨) والبغوي (٥/ ٨٩) في شرح السنة، والحاكم (١/ ٥٧١)، والطبري، في تفسيره، والبيهقي (١٠/ ١٨٨) في سننه.

جـ- والحديث الذي معنا- في هذا الفصل- يركز على قانون التحول من الإيمان وصفائه إلى الكفر ورانه، التحول من الإيمان (إن المؤمن إذا أذنب) ومن العبودية لله (إن العبد إذا أخطأ- إذا أذنب العبد..) إلى العبودية للهوى، حتى يطبع الله على قلب الإنسان، ويحجبه الران، عن الله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة، بعد أن كان عبدا مؤمنا بالله.

وتأمل في قول النبي ﷺ في بداية الحديث: «**إن العبد**»«**إن المؤمن..**»؛ فهو (عبد) تحقق فيه وصف العبودية لله - تعالى- أي: الخضوع والتذلل والطاعة لله، وهو (مؤمن) أي: تحقق فيه وصف الإيمان، وحده، وهو الإذعان والخضوع والانقياد لوحي الله، على سبيل التصديق الجازم بالوحي، والحق المنزل على رسول الله ﷺ.

لكنه مع التتابع والازدياد في الذنوب، دون نزوع واستغفار وتوبة، أحاطت بقلبه الخطايا، أغلق الرين قلبه، وعظم السواد فيه، وغطاه، فصنع حجابا، وغلافا، حجبه الله في الدنيا والآخرة.

فهذه سنة إلهية من سنن القلب ينبغي التنبيه لها ـ ونحن نربي قلوبنا – والعمل بمقتضاها، ونقرر هذا القانون في الصيغة التالية:

تتابع الذنوب- أو التتابع في الذنوب- دون نزوع واستغفار وتوبة يؤدي إلى تعظيم السواد، وتراكم الران على القلب، مما يؤدي إلى تكوين غطاء وغلاف وحجاب من الران على هذا القلب، فيحجبه عن الله، وعن الوحي، وعن الخير، ويبعد القلب عن كل ذلك، ويجعله في مكان بعيد.

والبيان التحليلي الشارح – التالي – هو توضيح لهذه الصيغة.

ثالثا: توضيح بعض خبراء تربية القلب لقانون التحول القلبي:

أ- يدل الحديث النبوي الذي معنا على: أن (المؤمن) (العابد لله) إذا أذنب ذنبا، أو أخطأ خطيئة ترتب على فعل الذنب نتيجة فورية هي: أن تنكت، أي:

تنقط، في قلبه نكتة سوداء، فإن استمر في ارتكاب أو فعل الذنب الذي هو الخطيئة، أو عصيان الله ـ ثانية ـ نكت في قلبه نكتة سوداء ـ ثانية ـ فتعزز النقطة السوداء الأولى، وتدعمها فتزداد قوة، وتعظم، أي: تتربى، وهكذا تستمر زيادة ونمو النقطة السوداء حتى تعلو على قلبه، أي: تحيط به من كل جانب، فيصير (مغلقًا و مغلفًا) لا ينفذ إليه هدي أو نور، ولا سبب للحياة، فتخمد أنفاسه، وتزهق روحه، ويموت، بسبب (الران) الذي يحدث له الطبع والختم، والغلق، ويلف في غلاف، وغطاء وكنان وحجاب؛ وذلك بسبب شغف الإنسان بالمعصية، وعدم إنكار القلب لها، حتى فعلها، ولم ينزع، ولم يستغفر، ولم يتب، فتتابع في الذنوب، فتراكم الران حتى أحدث تلك الآثار والنتائج.

ب- وقد أوضح بعض خبراء تربية القلب هذا القانون:

١- يقول عبد الله بن مسعود: «إن الرجل ليذنب الذنب فينكت في قلبه نكتة سوداء، ثم يذنب الذنب فتنكت أخرى؛ حتى يصير لون قلبه لون الشاة الرَّبْدَاء»(١٠) أي: مثل لون الرماد الجامع بين السواد والغبرة.

٢- ويقول ابن مسعود ﵁: «لا يزال العبد يكذب، وتنكت في قلبه نكتة سوداء، حتى يَسْوَدَّ قلبه كله، فيكتب عند الله من الكاذبين»(١١).

٣- ويقول الإمام على بن أبي طالب ﵁: «الإيمان يبدأ لَمْظَةً بيضاء في القلب، كلما ازداد الإيمان؛ ازدادت بياضا حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدأ لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق؛ ازدادت حتى يسود القلب كله، والذي نفسي بيده، لو شققتم عن قلب مؤمن وجدتموه أبيض القلب، ولو

---

(١٠) ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، في: من كنوز السنة، رسائل أربع، تحقيق وتخريج وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، رقم ٩، ص ٦، وقال الألباني: هذا الأثر عن ابن مسعود صحيح الإسناد، نفس المصدر، هامش رقم ١٤، ص ٦.

(١١) أخرجه مالك، انظر: الإمام مالك بن أنس: الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الشعب، القاهرة، ص ٦١٢ وقال عبد الباقي: موقوف، وحكمه: الرفع؛ لأنه لا مدخل فيه للرأي.

شققتم عن قلب منافق وجدتموه أسود القلب»(١٢).

وفي رواية أبي عبيد عنه: «إن الإيمان يبدأ لمظة في القلب فكلما ازداد الإيمان عِظَمًا ازداد ذلك البياض عِظَمًا»(١٣).

٤- ويقرر ميمون بن مهران نفس القانون بقوله: «إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب مُحِيَتْ من قلبه، فترى قلب المؤمن مَجْلُوًّا مثل المرآة، ما يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره، وأما الذي يتتابع في الذنوب؛ فإنه كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فلا يزال ينكت في قلبه حتى يسود قلبه، فلا يبصر الشيطان من حيث يأتيه»(١٤).

٥- وعن الأعمش قال: كنا عند مجاهد، فقال: «القلب هكذا – بسط كفه- فإذا أذنب الرجل ذنبا قال: هكذا، وعقد واحدا، ثم أذنب، وعقد اثنين، ثم ثلاثا، ثم أربعا، ثم رد الإلهام على الأصابع في الذنب الخامس، ثم يطبع على قلبه، قال مجاهد: فأيكم يرى أنه لم يطبع على قلبه؟»(١٥).

وروى الطبري مثل هذا، ثم روى عن مجاهد: قال: «القلب مثل الكف، فإذا أذنب ذنبا قبض إصبعا، حتى يقبض أصابعه كلها، وكان أصحابنا يرون أنه الران»، وروى بعده أنه قال: «نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من نواحيه، حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه: الطبع، والطبع: الختم»(١٦).

---

(١٢) قال الألباني: هذا الأثر منقطع الإسناد، انظر: ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مصدر سابق، رقم ٨، ص ٥ ، ٦ وهامش رقم ١٣، قلت: والمعنى صحيح نافذ في الحق، ولمظة مثل النكتة من البياض، انظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزء الرابع، ص ٢٧١.

(١٣) الإمام أبو عبيد، القاسم بن سلام: كتاب الإيمان ومعالمه وسننه، واستكماله ودرجاته، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، في: من كنوز السنة، رسائل أربع، مصدر سابق، ص ٦٤ ، ٦٥، وهامش رقم ٣٦.

(١٤) ابن الجوزي: صفة الصفوة، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص ١٣١.

(١٥) ابن الجوزي: صفة الصفوة، المجلد الأول، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص ١٢٤.

(١٦) ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء الأول، مصدر سابق، أرقام ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

فإذا ختم على القلب، وطبع الله عليه؛ فلا يعقل لله - تعالى - موعظة وعظه بها، ولا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه.

٦- وقال الحسن البصري، في تفسير الران: «وهو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب فيموت»(١٧)، وقال: «تدرون ما الإرانة؟ الذنب بعد الذنب، والذنب بعد الذنب، حتى يموت القلب»(١٨).

ومما سبق يتبين: أن كل ذنب يفعله الإنسان فإنه يترك أثرا سيئا في القلب، مهما كان هذا الذنب، وقد ذكرت كلام ابن مسعود عن أثر الكذب في القلب، ومما يدخل في نفس المعنى ما رواه الترمذي وغيره عن عبد الله بن أنيس الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغَمُوس، وما حلف حالف بالله يمين صَبْرٍ، فأدْخَلَ فيها مثل جناح بعوضة إلا جعلت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة**»قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب(١٩).

ويتبين صحة قانون التحول من الإيمان إلى ضده حتى ينزع الإيمان من القلب، بسبب الاستمرار في ارتكاب الخطايا، دون نزوع، واستغفار وتوبة، فيتراكم الران، ويغلق القلب، ولهذا كان عبد الله بن عمر يدعو الله- عز وجل-

---

(١٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص ٤٨٥.

(١٨) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٩٦، ص ١٠٠، قال محققه: إسناده صحيح.

(١٩) سنن الترمذي، الجزء الخامس، حديث رقم ٣٠٣١، ص ١٨، وقال الألباني: حسن، وخرجه في المشكاة، برقم (٣٧٧٧). والحديث رواه أحمد وابن حبان، والحاكم عن عبد الله بن أنيس، انظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط٣، مصدر سابق، حديث رقم ٢٢١٣، ص ٤٤٠، ٤٤١، ورواه أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المجلد السابع، ص ٣٢٧ ولفظه: «**وما حلف حالف بالله يمين بر، فأدخل فيها مثل جناح البعوضة إلا كانت نكتة سوداء في قلبه إلى يوم القيامة**».

قلت: اليمين الغموس: هي اليمين الكاذبة، الفاجرة التي يقتطع بها الحالف حق غيره، وهي غموس؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار، ويمين الصبر: هي التي يحبس صاحبها، حتى يحلف بها، فهو ملزم بها، ويحبس عليها حتى يؤديها.

بقوله: «اللهم لا تنزع مني الإيمان كما أعطيتنيه»[٢٠].

ولنتأمل فيما يلي:

١- قال سليمان التيمي: «الحسنة نور في القلب، وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب وضعف في العمل، وقال: إن الرجل ليذنب؛ فيصبح عليه مَذَلَّتُهُ»[٢١].

٢- وقال الحسن بن صالح: «العمل بالحسنة: قوة في البدن، ونور في القلب، وضوء في البصر، والعمل بالسيئة: وَهَن في البدن، وظلمة في القلب، وعَمًى في البصر[٢٢].

٣- وفي كتاب التوبة لابن أبي الدنيا: عن الحسن قال: «العمل بالحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والعمل بالسيئة ظلمة في القلب، ووهن في البدن» [إسناده حسن].

٤- وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: «إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته»[إسناده حسن][٢٣].

رابعا: مفهوم الران الذي يغلق القلب ونتائجه ودلالته التربوية:

أ- قال ابن الأثير: «الرَّانُ والرَّيْنُ سواء»[٢٤] مثل الْعَاب والعَيْب، وهكذا جاء في الحديث: الران، والرين.

وقد بين النبي ﷺ أن الران ينتج عن تراكم السواد على القلب، حتى يعلو عليه، ويغطيه، ويغلفه، وأن هذا الران هو الذي ذكره الله في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ

---

(٢٠) ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، مصدر سابق، رقم ١٥، ص ٧، وقال محققه الألباني: هذا موقوف صحيح الإسناد، هامش رقم ١٨، ص ٧.

(٢١) الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٣، ص ٣٠، ٣١.

(٢٢) المصدر السابق، ج٧، ص ٣٣٠.

(٢٣) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٩٣، ١٩٥، ص ٩٩، ١٠٠.

(٢٤) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، مصدر سابق، ص ٢٩١.

عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] أي: أن ما كسبوه من الآثام والأوزار والذنوب غَطَّى على قلوبهم، فكان حجابا حاجزًا بينها وبين هداية الله، وبينها وبين رؤية الله في الآخرة.

وسأبين ـ أولا ـ مفهوم الران، ثم أحلل مفهوم الآية السابقة.

ب- قال ابن الأثير: «وأصل الرين: الطبع والتغطية»[٢٥].

ويقول الراغب: «الرين: صدأ يعلو الشيء الجليل، قال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ ؛ أي: صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فَعَمَّى عليهم معرفة الخير من الشر»[٢٦].

وهذه نتيجة خطيرة تنتج عن تغطية الصدأ ـ الرين – للقلب، وعلوه على هذا الشيء الجليل؛ إنها عمى القلب، وهو طامة تطم الإنسان، وكارثة تكرثه، وهذه غفيرة العابدة (تعبدت، وبكت من خشية الله، حتى عميت عينها، وكانت سمعت رجلا يقول: ما أشد العمى على من كان بصيرا!) فقالت له: «يا عبد الله، عمى القلب- والله- عن الله، أشد من عمى العين عن الدنيا، والله وددت أن الله وهب لي كنه محبته وأنه لم تبق لي جارحة إلا أخذها»[٢٧].

وروى السلمي هذا الخبر عن يحيى بن بسطام قال: بكت غفيرة العابدة حتى عميت، فقال رجل: ما أشد العمى! فقالت غفيرة: الحجاب عن الله أشد، وعمى القلب عن فهم مراد الله في أوامره أشد وأشد[٢٨].

وتقول عمرة، زوجة حبيب العجمي: «وجع قلبي أشد من وجع عيني»[٢٩].

---

(٢٥) المصدر السابق نفسه.

(٢٦) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٢٠٨.

(٢٧) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٤، مصدر سابق، ص ٢٠، وغفيرة العابدة، صحبت معاذة العدوية.

(٢٨) أبو عبد الرحمن السلمي (محمد بن الحسين بن محمد): ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي، ط١، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ترجمة رقم ٩، ص ٣٩.

(٢٩) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٤، مصدر سابق، ص ٢٢.

جـ- ويقول ابن منظور: «والرين: الصدأ الذي يعلو السيف والمرآة.. والرين: كالصدأ يَغْشَى القلب، وران الذَّنْبُ على قلبه، يَرِينُ رَيْنًا ورُيُونًا: غَلَبَ عليه، وغطاه، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] أي: غلب، وطبع، وختم، وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يسوادَّ القلب (...) ورِينَ على قلبه: غُطِّي، وكل ما غَطَّى شيئا فقد ران عليه(...) وقال الفراء في الآية: كثرت المعاصي منهم والذنوب، فأحاطت قلوبهم، فذلك الرين عليها (...) وأصل الرَّيْنِ: الطبع والتغطية، وفي حديث علي ﷺ: «لتعلم أَيُّنَا المرِينُ على قلبه، والمُغَطَّى على بصره، المرِينُ: المفعول به الرين، والرين: سواد القلب، وجمعه: رِيَان (...) وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسودَّ القلب من الذنوب، والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، قال: وهو الختم، قال: والإقفال أشد من الختم، وهو أن يُقْفَل على القلب، وقال الزجاج: ران: بمعنى غَطَّى على قلوبهم، يقال: ران على قلبه الذنب؛ إذا غُشِيَ على قلبه»(٣٠).

د- ويفسر الشوكاني الآية بنفس المعاني السابقة، يقول: «قال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها، رَيْنًا ورُيُونا، وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك، وران عليك، قال الفراء: هو أنها كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها» ثم ذكر كلام الحسن، وكلام مجاهد، وقد ذكرناه من قبل(٣١).

وقال في الفتوحات الإلهية: «قوله: ﴿بَلْ رَانَ﴾؛ أي: غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم للسماء (...) والرين والران: الغشاوة على القلب؛ كالصدأ على

---

(٣٠) ابن منظور: لسان العرب، ج٣، مصدر سابق، ص ١٧٩٦، ١٧٩٧.

(٣١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية من علم التفسير، الجزء الخامس، ص ٥٣٢.

الشيء الصقيل.. والصدأ- بالهمز- وسخ الحديد، وهو شيء يعلوه؛ كالجرب»[٣٢].

هـ- فالرَّان، والرَّيْن: هو الصدأ، والسواد، والوسخ الذي يعلو القلب ويغطيه، ويغلقه، ويغلفه، فيؤدي إلى عمى القلب، وإلى الطبع، والختم عليه، وإلى تغلف القلب في غلاف وكنان، وحجاب من الصدأ، الذي يحجبه عن الرؤية بالبصيرة، التي أصيبت بالعمى، فلا يبصر الحق، ويحجبه عن الله، فيتوحش قلبه، ويقسو، وهذه أقسى العقوبات في الدنيا والآخرة؛ إذ إنهم لما حجبت قلوبهم عن الله في الدنيا حجبت عيونهم عن رؤية الله - عز وجل - في الآخرة، فهم، كما قال ابن كثير[٣٣]: «محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم، قال الإمام أبو عبد الله الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه- عز وجل- يومئذ، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي- رحمه الله- في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وكما دلت ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة، في رؤية المؤمنين ربهم- عز وجل- في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار، في عرصات القيامة، وفي روضات الجنان الفاخرة،.. عن الحسن في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قال: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية، أو كلاما هذا معناه»، وروى الدارقطني هذا الأثر، ونصه: «قال: إذا كان يوم القيامة يبرز - عز وجل- فيراه جميع الخلائق، ثم يحتجب عن الكفار، فلا يرونه أبدا، فذلك قوله ـ عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ

---

(٣٢) سليمان بن عمر العجيلي، الشهير بالجمل: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الجزء الثامن، ص ٢٨٠.

(٣٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص ٤٨٥، ٤٨٦.

﴿يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. قال أبو إسحق إبراهيم بن حماد: وبمثل ذلك احتج مالك بن أنس في تثبيت الرؤية؛ لقول الله - عز وجل- في الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥][٣٤].

و- إذن، الران يحجب القلب عن الله، ويعميه، ويغطيه بالصدأ، ويغلقه، ويختم عليه، ويُشرْنِقُه في غلاف.

وكان يمكن للإنسان- من البداية- أن يُحَصِّنَ نفسه ضد هذا المصير، لكن صاحب هذه النتائج القلبية تمادى وتتابع في الذنوب؛ ولم يرب قلبه: إيمانا ومحبة.. لله، لينكر هذه الفتن، ولم يمارس العمليات التربوية الآتية التي نبه إليها النبي ﷺ وهي النزع، والاستغفار، والتوبة.

والتحليل السابق مقوم أساسي في التصور الإسلامي للقلب في حالة ارتكابه للذنوب، وتتابعه فيها دون استدراك؛ دون نزع واستغفار وتوبة، فالذنوب تضر القلب، وبالتالي: الكيان الإنساني كله، فهي تؤثر على عقله وبصيرته، وعلى شعوره وإحساسه، وعلى حساسيته للحق.. وللناس.

ومن ثم فإن اكتساب المسلم لهذا التصور عن تأثير الذنوب في القلوب هو عامل مهم لينزع، ويستغفر ويتوب، ليجلي قلبه، ويصقله، فترى بصيرته، ويرق قلبه، ويتأثر بالحق، ويشعر بالآخرين.. شعورا ناجعا.

واكتساب المسلم لهذا التصور يتم بالمدارسة لهذه المعطيات السابقة، مدارسة ذاتية أو جماعية، وعبر الدروس والخطب، والقراءة، والاستماع للأشرطة... إلخ؛ ليتكون، وينمو، في وعيه هذا التصور عن الذنوب وآثارها الخطيرة في القلب والعقل، والخلق، وبناء هذا التصور هو أساس بغض

---

(٣٤) الإمام الحافظ علي بن عمر الدارقطني: رؤية الله جل وعلا، تحقيق مبروك إسماعيل مبروك، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٩١م، رقم ٢٤٢، ص ١٦٢ (في هذا الكتاب ٢٥٢ نصا عن رؤية الله بالأبصار في الآخرة).

الذنوب، وحب طاعة الله، وفعل الخير، ورقة المشاعر، وبالتالي هو أساس قلبي نفسي للنزع والاستغفار والتوبة.

ومن ثم فإن مخططي التربية القلبية عليهم أن يضمنوها، دورة، أو برنامجا عن آثار الذنوب في قلب الإنسان، تنبني على هذا التصور.

خامسا: أساليب الخلاص من رين القلب:

- النزع المربي:

أ- إن إدراك الإنسان لآثار الذنوب في قلبه - كما تبين في الفقرات السابقة، وفي الفصل السابق - وإيمان القلب اليقيني بهذا التصور ينمي فيه شعورا بالحاجة للإقلاع عن الذنوب، وشهوة للنزع والاستغفار والتوبة – أي أنه يوجد إرادة التصحيح من داخل القلب، فيتجه نحو ممارسة أساليب صقل القلب وتجليته، وإحيائه من جديد، وطبقا للحديث النبوي تتحدد هذه الأساليب في:

- تطبيق مفهوم الإنكار القلبي للفتن، كما حددناه في الفصل السابق.
- وتطبيق مفهوم النزع، ومفهوم الاستغفار، ومفهوم التوبة.

وفي هذه الفقرة أتناول مفهوم (النزع): فالنبي قد حدد الخلاص من رين القلوب بقوله: «**فإن هو نَزَعَ، واستغفر، وتاب: صُقِل قلبُه**»، «**فإن تاب ونزع واستغفر صقلت قلبَه**»أي: هذه العمليات الثلاث هي التي تصقل قلبه، «**فإن تاب صقل منها**» أي: جُلِّي منها، وأعيد صفاؤه وشفافيته.

وقبل أن نبين مفهوم النزع، نقول: إن هذه العمليات، عمليات إرادية، في مقدور الإنسان، وممارستها تحتاج لإرادته واتجاهه نحوها.. وتكوين الدافع القلبي، والاشتهاء الشغوف لممارستها، وهذا هو الذي قررناه وأكدنا ضرورة تنمية الإدراك والتصور الصحيح للآثار الخطرة لارتكاب الذنوب على القلب.. وهذه خطة تربوية، لكل مسلم، ولكل حركة بعث إسلامي صحيحة.

ب- وهذه العمليات الثلاثة هي التي تصقل القلب؛ والصقل هو: الجلاء، صَقَلَ الشيءَ يَصْقُلُه صَقْلا، وصِقَالا، فهو مَصْقُول وصَقِيل: جَلَاه، والاسم: الصِّقَال(٣٥). فقول النبي ﷺ : «صُقِلَ قلبه» معناه: جُلِيَ عنه الصدأ والسواد، أو النكتة السوداء.

فالصَّقْلُ: عملية تنظيف للقلب، ومحو وإزالة للنقطة السوداء التي نقطت في القلب بسبب فعل الذنب، فمن أراد واشتهى أن يكون قلبه مجلوا، فإن عليه أن يمارس الأفعال الثلاثة الآتية: النزع والاستغفار والتوبة.

وهذه العمليات هي أساس ركن التطهير والتخلي في عملية تربية القلب، كما أوضحنا في مفهوم تربية القلب في الفصل الأول.

جـ- **والفعل الأول**: نَزَعَ، يتضمن جملة مهمة من المفهومات، سأكتفي منها بأربعة ترتبط بحركة القلب ضد الخطيئة والذنوب، والنكتة السوداء الناتجة عن فعلها.

١- المفهوم الأول للنزع: الجذب والقلع، والخلع والإخراج:

تقول: نزع الشيء: جذبه من مقره، وقلعه، وأزاله عن موضعه، وأخرجه، يقول ابن منظور: «نزع الشيء يَنْزِعه نَزْعًا فهو منزوع، ونزيع، وانتزعه فانْتَزَعَ: اقتلعه فاقتلع، (...) ونزع: حول الشيء عن موضعه (...) وأصل النَّزْع: الجذب والقلع»(٣٦).

فالمفهوم الأول لقول النبي ﷺ: «فإن هو نَزَعَ» أي: جذب المعصية وحبها، من قلبه، وقلعها وأخرجها، وأزالها وحَوَّلها بعيدا عن قلبه، وبذلك الفعل ينجلي القلب، ويتنظف، ويصقل من جديد، ويمحى أثر الذنب.

---

(٣٥) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، مصدر سابق، ص ٢٤٧٣.

(٣٦) المصدر السابق، ج٦، ص ٤٣٩٥، وانظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٥، مصدر سابق، ص ٤١. الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٤٨٧.

وهذه العملية حركة إرادية مدفوعة بحب واشتهاء نظافة القلب، وبِبُغْضِ الـذنب وأثـره في القلـب، إنهـا (انتفاضـة) القلـب المـشتهي للحيـاة والرقـة والشفافية، ضد الظلمة والسكون والغلظة، فيخلع الذنب، ويقلعـه.. ويـرين بعيدا.. ليحيا ويشرق، ومنبع ذلك هو فعل التربية: الـدرس والتفكـر في آثـار الذنوب على القلب، وتنمية الإيمان بالله، وحبه، وحب مـا يحـب، وبغـض مـا يبغض.

٢- المفهوم الثاني للنزع: الكف عن الشيء:

قال الراغب: «والنزع عن الشيء: الكف عنه»[٣٧]. ويقـول ابـن منظـور: «ونزع عن الصبي والأمر يَنْزِعُ نزوعا: كَفَّ وانتهى، وربما قالوا: نَزْعًا»[٣٨].

فالمفهوم الثاني لقول النبي ﷺ «نزع»؛ أي: نزع عن المعصية، أي: كف عن حبها، وكف عن فعلها، وأقلع، وانتهى عن ذلك.

وهذه ـ أيضا ـ حركة إرادية، تحتاج لقوة العزم والتصميم، وإرادة المقاومة، من أجل أن يكف، ويمتنع، وينتهي.

٣- المفهوم الثالث للنزع: البعد والهجرة والمفارقة، والاغتراب عن الشيء، أو المكان:

يقول ابن منظور: «والنزيع والنـازع: الغريـب، وهـو أيـضا: البعيـد(...) ونُزَّاعُ القبائل: غرباؤهم الذين يجاورون قبائـل لـيسوا مـنهم، الواحـد: نزيـع ونازع، والنزائع والنُّزَّاعُ: الغرباء... هو الذي نزع عن أهله وعشيرته؛ أي: بَعُدَ وغاب»[٣٩].

فقول النبي ﷺ «نزع» يعني أيضا: نزع عن المعصية: بَعُـدَ عنهـا، وغـاب، وهجرها بقلبه، وبدنه، إنه ارتحال قلبي، حركـة القلـب بعيـدا عـن المعـصية،

---

(٣٧) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر السابق، ص ٤٨٨.
(٣٨، ٣٩) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، مصدر سابق، ص ٤٣٩٥.

والاغتراب الصحيح عنها، إنه: مفاصلة شعورية نفسية للجاهلية؛ للانحراف عن منهج الله، واغتراب عنها، فطوبى للغرباء، إنه سَيْرُ القلب الذي يقرب المسلم إلى الله.

وهذا المفهوم يتطلب مفهوما آخر هو الحنين للعبادة لله، وطاعته، ومحبة ذلك، وهذا هو المفهوم الرابع للنزع.

٤- المفهوم الرابع للنزع: الحنين والاشتياق:

يقول الراغب: «والنزوع: الاشتياق الشديد»(٤٠) وفي لسان العرب: «نزع الإنسان إلى أهله.. يَنْزِعُ نِزَاعًا ونُزُوعًا: حَنَّ واشتاق»(٤١).

فقول النبي ﷺ: «نزع»؛ أي: نَزَع إلى؛ أي: حن إلى حب الله، والأنس بطاعته، وإلى نور الطاعة.. وحلاوة الإيمان والتعبد لله، واشتاق للطهر، والنظافة والنقاء وجلاء القلب.

وهذا المعنى هو أساس التحول القلبي نحو الطاعة لله؛ أي: أن يحن القلب ويشتاق للطهر القلبي والروحي، ونظافة الضمير، والخلاص من سواد القلب وظلمته، أي: هو أساس نفسي للتوبة، فالذي يخاف من طغيان الران على قلبه، يحن إلى تحرر الحسنات، ونقاء النفس، وخلاصها من قيود وأسر الخطيئة، وبدون هذا الحنين والاشتياق والاشتهاء، لا يتوب الإنسان - حقا - من قلبه، ولنتأمل في المقولة الآتية:

يقول الحارث المحاسبي: «ما قلت قط: اللهم إني أسألك التوبة، ولكني أقول: أسألك شهوة التوبة»(٤٢).

فاشتهاء التوبة؛ أي: إرادتها والرغبة القوية فيها، والحنين والاشتياق إليها،

---

(٤٠) الراغب الأصفهاني: المفردات، مصدر سابق، ص ٤٨٩.

(٤١) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، مصدر سابق، ص ٤٣٩٥.

(٤٢) أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، ط٢، مكتبة الحلبي، بمصر، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م، ص ٥١.

هو أساس فعل التوبة، فنقطة البدء في تربية أية قيمة، وكل قيمة، هي تربية إرادة الاتصاف والالتزام بها، أي: أن يكون في القلب (هوى؛ حبا) للقيمة، كما يقول شاعر حكيم:

إنما تنجح المقالة في المرء   إذا صادفت هوى في الفؤاد

وبناء هذه الشهوة، والمحبة، والشغف والحنين والاشتياق لرضا الله، وطاعته، وتقواه، هو أساس في تربية القلب التائب المصقول؛ إذن مبدأ تربية القلب المصقول هو أن يكتسب محبة وعشقا، واشتهاء وحنينا للإقلاع والابتعاد عن الذنب، والتوبة منه، وذلك بعمليتين تربويتين متلازمتين:

- تربية الإيمان بالله والولاء له، ومحبة ما يحب وبغض ما يبغض.

- تربية الوعي بآثار المعاصي في القلوب (من خلال التفكر في آثارها والدرس الجاد لذلك.. والتفاعل الوجداني مع المعرفة المتحصلة من هذا الدرس والتعلم الذاتي والجماعي).

وهكذا يمكن ترتيب مفهوم النزع، المؤدي إلى التخلص من سواد القلب وظلمته، من الران الناتج عن فعل الذنب في الهرم الآتي:

- تصور وإدراك صحيح واضح للذنوب وآثارها في القلوب، والاقتناع العميق بذلك.

- اشتهاء وحنين واشتياق لطاعة الله، والتطهر من الآثام.

- كف عن الذنوب، وإقلاع عنها.

- مفاصلة شعورية، وبُعْدٌ وهجرة، ومفارقة للذنوب.

- جذب وقلع وإخراج لحب الذنب من القلب، وقلع للذنب نفسه ورميه بعيدًا.

- محو للسواد، وتجلية للقلب، وتصفية، ورجوع للشفافية في البصيرة، والرقة في الشعور.

- زيادة للإيمان في القلب - تربية للقلب.

وهذه كلها عمليات داخل الذات، جهاد قلبي، ونفسي، وتثقيف ذاتي.

سادسا: أساليب الخلاص من رين القلب:

- الاستغفار المربي:

هذه هي العملية الثانية لتجلية القلب، المذكورة في قول النبي ﷺ: «**فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه..**»وهي عملية إرادية ذاتية يشارك فيها القلب والإرادة والمشاعر واللسان، والوعي.. وسأبين في هذه الفقرة مفهوم الاستغفار، وبيان الرسول ﷺ لفضله، وأثره في القلب، وكيف نستغفر، وكيف نكتسبه ونمارسه بحب ووعي وإخلاص، لنربي الصفاء في قلوبنا؛ ابتغاء وجه الله.

أ- مفهوم الاستغفار وحقيقته:

١ - الاستغفار: طلب المغفرة والغَفْر والغفران من الله تعالى، يقول ابن منظور(٤٣): «وأصل الغَفْر: التغطية والستر، غفر الله ذنوبه؛ أي: سترها، والغَفْر: الغُفْران (...) وقد غَفَرَهُ يَغْفِرُ، غَفْرًا: سَتَرَه، وكل شيء سترته: فقد غَفَرْتَه (...) ومنه: غفر الله ذنوبه؛ أي: سترها.. والغفر والمغفرة: التغطية على الذنوب، والعفو عنها (...) واستغفر الله من ذنبه، ولذنبه؛ بمعنًى، فَغَفَر له ذنبه مغفرة، وغَفْرًا وغُفْرانًا (...) واستغفر اللهَ ذنبَه - على حذف الحرف - طلب منه غَفْرَه، أنشد سيبويه:

أستغفر الله ذنبا لستُ مُحْصِيه رَبَّ العباد؛ إليه القَوْلُ والعَمَلُ

(...) والغُفْرَة: ما يُغَطَّى به الشيءُ».

فالمدلول الأول للاستغفار: أن يطلب المذنب من الله، أن يستر عليه ما فعله من الذنوب، وألا يفضحه بكشفها.

---

(٤٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، مصدر سابق، ص ٣٢٧٣ - ٣٢٧٤.

والاستغفار يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: اعتراف المذنب بأنه مذنب.

الثاني: اعترافه أن له ربًّا غفورًا رحيمًا، يغفر الذنوب.

الثالث: شعوره بشدة الحاجة إلى هذه المغفرة؛ بمعنى التغطية والستر، والعفو؛ لأنه لما أذنب؛ تَعَرَّتْ نفسُه، فلما رأى نفسه عارية مفضوحه؛ طلب التغطية والسترة ليغطي على القبيح، ففزع إلى الله، ونزع إليه، وطلب ستر عريه- فتوجه بقلبه إلى الله، يطلب منه بتضرع، وخشوع، وتذلل، أن يغفر هذا الذنب، أي: أن يستره، ويستر عري نفسه، ولا يفضحه.

فالاستغفار هو طلب صيانة الذات، وطلب الستر والغطاء، والصيانة عن الدنس، والتعري القبيح، والانكشاف، وطلب ستر القلب وستر النفس بما يجب أن تستر به. إن الطلب من الله أن يستر عوراتنا وعيوبنا، ولا يكشفها، فيفضحنا في الدنيا والآخرة، فيغطيها بفضله؛ وذلك بأن يوفقنا لطاعته.

والستر أنواع: ستر في أيام الحياة الدنيا، وستر في يوم العرض، وستر عند الميزان، وستر عن الملائكة، وستر عند المرور على الصراط، وستر عندما يخلو به ربه، ليس بينه وبينه ترجمان.

والستر درجات: ستر عن الآخرين، وستر الذنب وحجبه عن النفس؛ بإشغال المؤمن بطاعته، والأنس به، حتى إذا ذكر الذنب ذكر أنه أورثه طاعة، وأنسا بالله، حين ندم عليه، ورجع إلى الله(٤٤).

ويقول القرطبي: «والستر يكون في الحال، وفي المآل، وينقسم إلى ستر يقترن بالعفو وإسقاط الحق، وإلى تغطية القبيح عن إطلاع الغير إليه (...) قال

---

(٤٤) الحكيم الترمذي (أبو عبد الله محمد..): نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، الجزء الأول، تحقيق وتعليق د. أحمد عبد الرحيم السايح، و د. السيد الجميلي، ط١، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٦٥٥، ٦٥٦.

الحليمي: الغفار: هو المبالغ في الستر، فلا يُشَهَّر في الدنيا ولا في الآخرة»(٤٥).

وأخرج البخاري ومسلم عن صفوان بن مُحْرِز أن رجلا سأل ابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «**يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كَنَفَهُ عليه، فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرره، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»(٤٦) (كنفه: ستره) وهذا لفظ البخاري.

٢- لكن الاستغفار لا يعني طلب ستر الذنب وتغطيته ـ فقط ـ بل يعني ـ أساسا ـ طلب محو الذنب وإزالة أثره، وإصلاح ما أفسده الذنب في القلب، يقول ابن القيم: «فالاستغفار المُفْرَدُ (إذا جاء مفردا)، كالتوبة ـ بل هو التوبة بعينها ـ مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو: محو الذنب وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس؛ أنها (يعني: المغفرة) الستر (...) ولكن الستر لازم مسماها، أو جزؤه، فدلالتها عليه، إما بالتضمين، وإما باللزوم، وحقيقتها: وقاية شر الذنب ومنه: المِغْفَر؛ لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى (...) فلابد في لفظ المغفر من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فإن الله لا يعذب مستغفرا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته؛ فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار؛ وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى (كما في حديث هذا الفصل) فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع، وطلب وقاية شر ما

(٤٥) الإمام أبو عبد الله القرطبي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، المجلد الأول، تحقيق د. محمد حسن جبل، وزملائه، ط١، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ص ١٥٥.

(٤٦) انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري.. ج١٣، مصدر سابق، حديث رقم ٧٥١٤، ص ٤٧٥.

يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى، والاستغفار منه، طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه؛ فالتوبة: العزم على ألاَّ يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله (...).

«وأيضا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة: طلب جلب المنفعة، فالمغفرة: أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له- بعد هذه الوقاية- ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر، عند إفراده»(٤٧).

فالاستغفار: أن تطلب من الله أن يمحو، ويزيل أثر الذنب من قلبك، وأن يقيك شره، وأن يزيل ضرره، وهذا يعني: طلب إصلاح ما أفسده الذنب في القلب والنفس، وهذا أحد المعاني التي ذكرها ابن منظور؛ يقول: «وغَفَر الأمرَ بِغُفْرَتِه وغَفِيرَتِه: أصلحه بما ينبغي أن يُصْلَحَ به»(٤٨)، فهو طلب المؤمن من الله أن يصلح القلب؛ من الخلل والعيب الناتج عن فعل الذنب، كما أنها طلب من الغفار أن يتجاوز عن هذا الذنب. وأن يلبس المذنب لباس عفوه(٤٩).

ب- والاستغفار المُرَبِّي ليس أن يقول المذنب باللسان، وبحكم العادة، وعن رأس الغفلة: أستغفر الله، من غير أن يستغفر القلب ويتأثر، ويتمعن العقل في كلمة الاستغفار، فالاستغفار فعل قلبي وعقلي وشعوري قبل أن يكون فعلا لسانيا، فحركة اللسان وحدها لا جدوى منها، «فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى، وابتهاله في سؤال المغفرة؛ عن صدق إرادة،

---

(٤٧) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الجزء الأول، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٤٨) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، مصدر سابق، ص ٣٢٧٤.

(٤٩) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزء الثالث، ص ٣٧٣.

وخلوص نية ورغبة، فهذه حسنة في نفسها، فتصلح لأن تدفع بها السيئة،.. وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب»(٥٠).

جـ- فحقيقة الاستغفار- إذن- توجه القلب إلى الله بطلب الستر على الذنب، ومحوه، وإزالة أثره، وإصلاح ما نتج عن هذا الذنب من خلل وسواد، وتضرع القلب إلى الله بنية مخلصة، وبصدق أن يزيل سواد الذنب من القلب، وأن يلبس المذنب لباس العفو، وأن يستره يوم القيامة، فإذا فعل ذلك بصدق، وردد بقلبه وعقله ولسانه الصيغ المأثورة في الاستغفار؛ صقل قلبه، ومحي السواد منه، ونقطت نكتة بيضاء، مكان السوداء، فيعود القلب أبيض صافيا، يرى الأشياء على حقيقتها، ويفهم عن الله، وعن رسوله ﷺ، ويأنس إلى الطاعة، ومن هنا نفهم ما روي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد؛ وجلاؤه الاستغفار**»(٥١).

وفي الوابل الصيب: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله - عز وجل.

وذكر البيهقي- مرفوعا- من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله عز وجل..**»، ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ (...) وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر(٥٢).

---

(٥٠) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، الجزء الثالث، ص ٢١٤٦، ٢١٤٧.

(٥١) أبو عبد الله محمد الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج١، مصدر سابق، ص ٦٥٦.

(٥٢) ابن قيم الجوزية: الوابل الصيب من الكلم الطيب، ط١، دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ٦٠.

فالاستغفار المربي الذي يصقل القلب فعل قلبي شعوري عقلي، لساني، معا، وله تأثير فعال في تجلية القلب وصقله، وإزالة الران والصدأ الناتج عن ارتكاب الذنب والخطيئة، ويوضحه ما يأتي:

د- أخرج الإمام مسلم عن الأغَرِّ المُزَنِي - وكانت له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»، وأخرج- أيضا- عن أبي بردة قال: سمعت الأغر - وكان من أصحاب النبي ﷺ- يحدث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله؛ فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»(٥٣).

وأخرج أبو داود الحديث الأول بلفظ: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة**»(٥٤).

وأخرجه أحمد- أيضا- عن الأغر، أغر مزينة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله مائة مرة**»(٥٥).

وهذا الحديث يبين، بجلاء: أن الاستغفار علاج فاعل مزيل للغَيْنِ عن القلب، فما الغين؟

١ - قال ابن الأثير: «الغَيْنُ: الغَيْمُ، وغِينَتِ السماءُ تُغَانُ؛ إذا أطبق عليها الغيم (...) أراد: ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر؛ لأن قلبه أبدًا

---

(٥٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٧، ص ٢٣- ٢٤، وفي إكمال المعلم: فإني أتوب - في اليوم- إليه مائة مرة، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والإكثار منه، ج٨، رقم ٢٧٠٢ ص ١٩٧، ١٩٨.

(٥٤) الحافظ أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) سنن أبي داود، الجزء الأول، رقم ١٥١٥، ص ٥٦٢، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، مصدر سابق، رقم ٢٤١٥، ص ٤٧٥.

وأخرجه ابن أبي الدنيا، كتاب التوبة، رقم١٧٥، ص ٩٣- ٩٤ وقال محققه: صحيح.

(٥٥) إسناده صحيح، المسند، شرحه وصنع فهارسه حمزة أحمد الزين، ج١٣، رقم ١٧٧٧٥، ص ٥٢٥، ورواه أيضا برقم ١٧٧٧٤، ص ٥٢٥، وبرقم ١٨٢٠٧، ص ١٢٧.

كان مشغولا بالله تعالى، فإن عرض له - وقتا ما - عارض بشري يشغله؛ في أمور الأمة والملة ومصالحها، عُدَّ ذلك ذنبا وتقصيرا، فيفزع إلى الاستغفار»(٥٦).

وقال ابن منظور: «والْغَيْنُ لغة في الغَيْم، وهو السحاب (...) وقيل: غِينَ على قلبه: غُطِّيَ عليه، وأُلْبِسَ (...) وفي الحديث: إنه ليغان على قلبي... (ثم نقل كلام ابن الأثير، ثم قال): قال أبو عبيدة: يعني: أنه يَتَغَشَّى القلبَ ما يُلْبِسُه، وكذلك كل شيء يَغْشَي شيئا حتى يلبسه، فقد غِينَ عليه»(٥٧).

٢- وفي إكمال المعلم، قال القاضي: «قيل: ذلك (يعني: الغَيْن) عبارة عن الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان دأبه، فيستغفر منه؛ إذ كان أبدا فيمن يُدْمِنُ ذلك، فرأى الغفلة عنه ذنبا، وقيل: ذلك الغَيْن: هَمَّه بسبب أمته، وما اطلع عليه من أحوالها بعده، حتى يستغفر لهم، وقيل: إن ذلك لما يشغله من عظيم مقامه! من النظر في أمور أمته ومصالحهم، ومجاهدة عدوه، ومداراتهم للاستئلاف، فيرى شغله لذلك - وإن كان من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال - نزولا من عَلِيِّ درجته، ورفيع مقامه؛ من حضوره بهمه كله مع الله، ومشاهدته عنده، وفراغه عن غيره إليه، وخلوصه له عمن سواه، فيستغفر لذلك، وقيل: قد يكون هذا الغَيْن: السكينة التي تغشَى قلبه، (...) واستغفاره: إظهار للعبودية والافتقار، وملازمة الخضوع؛ شكرا لما أولاه به (...)، وقيل: يحتمل أن يكون حال خشية وإعظام يغشى القلب، ويكون استغفاره هذا - على ما تقدم - شكرا وإعظاما (...) وقيل: هو شيء يعتري القلوب الصافية، مما يحدث في النفس من اللمم وحديثها، أو الغفلة فيشوش بها»(٥٨).

---

(٥٦) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، مصدر سابق، ص ٤٠٣.

(٥٧) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، مصدر سابق، ص ٣٣٣٠- ٣٣٣١.

(٥٨) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، ص ١٩٧ - ١٩٨.

وقد نقل النووي كلام القاضي، ثم أضاف بعد كلام: «ونحن إلى الاستغفار والتوبة أحوج»[٥٩].

والذي أراه في هذا الحديث أن النبي ﷺ قد قرر أنه يغان على قلبه، أي: يصيب قلبه الغين، وأن علاج ذلك هو الاستغفار الكثير، أما سبب هذا الغين فقد جاء فيه أقوال كثيرة، ذكرت جملتها عن القاضي عياض، ولعل السبب الثالث هو الراجح الوحيد، الذي يؤدي إلى هذا الغين، وهو ما أشار إليه ابن حجر بقوله:

«ويحتمل أن يكون لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع، أو نوم، أو راحة، أو لمخاطبة الناس والنظر في مصالحهم، ومحاربة عدوهم تارة، ومداراته أخرى، وتأليف المؤلفة، وغير ذلك، مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله، والتضرع إليه، ومشاهدته، ومراقبته، فيرى ذلك ذنبا بالنسبة إلى المقام العلي وهو الحضور في حظيرة القدس»[٦٠]، وأشار إلى أن الاستغفار إعانة للقلب لكي يترقى في درجات القرب من الله؛ فالاستغفار عبادة وعبودة وترق دائما إلى الله، إنه تربية للقلب؛ تنمية لمشاعر العبودية لله وحده، ومشاعر التحرر من غيره، وعن الذنب، تربية للإيمان بأنه المعبود وحده، الذي ندعوه، ونستغفره وحده، وأنه القادر على الغفران، ونحن مقصرون، وجئنا إليه ليمسح تقصيرنا ويرقي قلوبنا.

والحاصل: أن الاستغفار عبادة، وتربية تصقل القلب.

هـ- هذا عن مفهوم وحقيقة الاستغفار، وأثره المغير في القلب: وإدراك هذه الحقيقة، بوعي صحيح، يولد إرادة الاستغفار، طبقا للقاعدة الكلية التربوية عند أهل السنة والجماعة: «إن الإرادة عند أهل السنة تابعة للعلم»[٦١].

---

(٥٩) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٧، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٦٠) الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١١، ص١٠٢.

(٦١) المصدر السابق ج١٣، ص ٤٤٩.

فتحصيل العلم الصحيح ينشئ إدراكا صحيحا، وهو بدوره ينشئ إرادة وطلبا لهذا الشيء، وهذا بدوره يدفع الإنسان لممارسة هذا الشيء، فالاستغفار فعل، وممارسته تتطلب بناء أمرين في القلب والعقل:

الأول: علم صحيح بالاستغفار مفهوما وحقيقة، وأثرا، وأهمية، وهذا سبيله: الدرس، والتعلم، والقراءة، والتفكر، والاستماع لكل ما يولد هذا الإدراك.

والثاني: إرادة الاستغفار، أي: الرغبة فيه، واشتهاؤه، ومحبته، وكلا الأمرين يولد الدافع والداعي للاستغفار، فيندفع المسلم إذا حصل ذلك، وتأثر به، وانفعل، لممارسة حقيقة الاستغفار.

ومما يُرَبِّى الإدراك الحقيقي للاستغفار وأثره في القلب والسلوك، ويربي إرادة الاستغفار، ومحبته بشغف، ويدفع الإنسان ليستغفر بخشوع وتضرع للرب الكريم الحليم، أن يتأمل المسلم مجموعة الأحاديث الصحيحة التي رغب بها النبي ﷺ في الاستغفار، وحث بها المسلمين على كثرة الاستغفار، ليُرَبُّوا قلوبهم، ويصقلوها، لتبصر، وتفهم، وتتقدس، وسوف نورد منها مجموعة لنتأملها، ونتذوقها، ونمارسها، بعد قليل.

ومما يدفع المسلم لفعل الاستغفار عمق إدراكه بإنسانيته وآدميته، وطبيعته الإنسانية، فكما فيه استعداد للخير، فيه استعداد للشر والخطأ.. وخلق الله الإنسان بهذا الازدواج: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[الشمس: ٨]، وهذا ضعفه البشري، أن يضعف عزمه- أحيانا- فيرتكب الإثم: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ [طه: ١١٥] .. ولكن الله يريد أن يطهره، وأن يخفف عنه ثقل الإحساس بالإثم، ففتح له كل أبواب التطهر، والترقي، والتقدس.. والرسول ﷺ يفجر ينابيع النقاء، والصفاء في قلوب المسلمين ليقبلوا على غسل قلوبهم، وصقلها، من جديد.

١- أخرج الإمام مسلم: عن أبي أيوب أنه قال- حين حضرته الوفاة- كنت كتمت عنكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون يغفر لهم**»، وأخرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**».

فطبيعة الإنسان أنه يذنب، لكن فيه طاقة الترقي الروحي، وإرادة الخير، فيستغفر، والله يحب الإنسان كذلك، وهذا من فضل الله العظيم، وكرمه الجسيم، ورحمته بضعفنا، وجبره لكسرنا.

٢- والله اسمه الغفار، والغفور، وهو غافر الذنب، وهذه الأسماء تتضمن صفات لله، ولها مقتضياتها وآثارها في العالم، إذن تعبدنا بهذه الأسماء.. وتذوقنا لها يدفعنا للاستغفار بحب.

أخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه - عز وجل - قال: «**أذنب عبد ذنبا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت، فقد غفرت لك**»[٦٢].

وهكذا: ما دام المسلم يلتزم الاستغفار المبني على العلم واليقين بربوبية الله، وأنه يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، أي: يعاقب على فعله، فإن الله يغفر له، وفي فتح الباري: «قال القرطبي في المفهم: يدل هذا الحديث على عظيم فائدة

---

(٦٢) المصدر السابق، حديث رقم ٢٧٥٨، ص ٢٦٠.

وروى قريبا منه البخاري: انظر: فتح الباري، ج١٣، كتاب التوحيد، حديث رقم ٧٥٠٧، ص ٤٦٦، ورواه أحمد برقم ٧٩٣٥.

الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب، مقارنا للسان، لينحل به عقد الإصرار ويحصل معه الندم (...) وقوله: «**اعمل ما شئت**» معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك»(٦٣).

٣- ويشترط النبي ﷺ أن يكون الاستغفار نابعا من القلب، بيقين وتثبت من الأعماق، وشعور وجداني، قال الإمام البخاري: «باب أفضل الاستغفار، وقوله تعالى: ﴿**ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا**﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]: حدثنا أبو معمر (وساق السند)، حدثني بشير بن كعب العدوى قال: حدثني شداد بن أوس- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار؛ موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل؛ وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»(٦٤).

وفي رواية «**وأبوء لك بذنبي فاغفر لي..**» وجاء في شرحه: «وجاء في حديث جابر عند النسائي: «**تعلموا سيد الاستغفار**» أبوء: أعترف موقنا بها: «مخلصا من قلبه، مصدقا بثوابها»(٦٥).

---

(٦٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ج١٣، مصدر سابق، ص ٤٧١، ٤٧٢.
(٦٤) المصدر السابق، ج١١، رقم ٦٣٠٦، ص ٩٧ - ٩٨، ورواه برقم ٦٣٢٣، ص ١٣٠.
(٦٥) المصدر السابق، ص ٩٨ - ١٠٠.

٤- وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه صيغا للاستغفار مثل الصيغة السابقة، وكانوا يفعلون ما يعلمهم.. ليربُّوا قلوبهم.. ويصقلوها، وإدراك هذا، وتيقنه يدفعنا للتأسي بهم؛ لأن قلوبهم أفضل وأصلح من قلوبنا، ومع ذلك فلنتأمل فيما يأتي، ونحن أولى بالاستغفار:

في صحيح مسلم عن ابن مالك الأشجعي عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلم من أسلم بقول: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني**». وأخرجه من طريق آخر عنه عن أبيه قال: كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهم اغفر لي وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني**»(٦٦).

وأخرج مسلم عن أبي بكر أنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: قل: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كبيرا**- وقال قتيبة: **كثيرا**- **ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم**»، وفي رواية لمسلم: إن أبا بكر الصديق قال لرسول الله ﷺ: علمني يا رسول الله دعاء أدعو به في صلاتي، وفي بيتي.. ثم ذكر بمثل حديث الليث (السابق) غير أنه قال: «**ظلما كثيرا**»(٦٧).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وأبو داود، وابن ماجه، وابن المبارك وغيرهم عن علي؛ قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني غيري عنه، استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مؤمن يذنب ذنبا، فيتوضأ، فيحسن الطهور، ثم يصلي ركعتين، فيستغفر**

---

(٦٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، مصدر سابق، رقم ٢٦٩٧، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٦٧) المصدر السابق، رقم ٢٧٠٥، ص ٢٠٠- ٢٠١، ورواه البخاري، انظر: فتح الباري، ج١١، رقم ٦٣٢٦، ص ١٣١، ج١٣، كتاب التوحيد، رقم ٧٣٨٨، ص ٣٧٢ مع اختلاف يسير، والحديث رواه أحمد بأسانيد وطرق في مسند أبي بكر الصديق، من المسند.

الله إلا غفر الله له»، ثم تلا: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، هذه رواية للإمام أحمد(٦٨).

وأخرج ابن أبي الدنيا والطبراني عن الأسود وعلقمة، عن عبد الله قال: «إني لأعلم آيتين في كتاب الله لا يقرؤهما عبد، عند ذنب يصيبه، ثم يستغفر الله؛ إلا غفر له، قلنا: أي آيتين في كتاب الله؟ فلم يخبرنا، ففتحنا المصحف، فقرأنا البقرة، فلم نصب شيئا، ثم قرأنا النساء (...) فانتهينا إلى هذه الآية: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] قلت: أمسك هذه، ثم انتهينا في آل عمران إلى هذه التي يذكر فيها: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] إلى آخرها؛ ثم أطبقنا المصحف، وأخبرنا بهما عبد الله؛ فقال: هما هاتان»(٦٩).

---

(٦٨) قال شاكر: إسناده صحيح، انظر: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل: المسند، الجزء الأول، حديث رقم ٥٦، ص ١٨٩، وأخرجه بأرقام ٢، ٤٧، ٤٨، ٥٦ بأسانيد صحيحة، وقال شعيب الأرنؤوط في الحديث رقم (٢): إسناده صحيح (من الشبكة الدولية).

وأخرجه الترمذي، برقم ٤٠٦، وقال: حديث علي حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه،.. قال: أحمد محمد شاكر: وهذا الحديث حديث صحيح، ثم قال: أطال الكلام عليه الحافظ ابن حجر، في التهذيب، في ترجمة أسماء بن الحكم، وقال: هذا الحديث جيد الإسناد، وذكر أن ابن حبان أخرجه في صحيحه.

انظر: سنن الترمذي، الجزء الأول، حديث رقم ٤٠٦، ص ٤١٥ مع تحقيق الشيخ أحمد شاكر.

وأخرجه الترمذي أيضا في التفسير، وقال محققه: إسناده حسن،.. سنن الترمذي، الجزء الخامس، رقم ٣٠١٧، ص ١٠.

وأخرجه أبو داود، انظر: سنن أبي داود، حديث رقم ١٥٢١، حديث رقم ١٥٢١، ص ٥٦٣.

وأخرجه ابن ماجه، وقال الألباني: حسن، وذكر أنه خرجه في صحيح أبي داود (رقم ١٣٦١)، انظر: محمد ناصر الدين الألباني: صحيح سنن ابن ماجه للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، المجلد الأول، رقم ١١٥٢، ص ٤١٦ وأخرجه ابن المبارك: كتاب الزهد..، حديث رقم ١٠٨٨، ص ٣٨٥.

ورواه ابن خزيمة في صحيحه، والطبري في التفسير برقم ٧٨٥٣، ٧٨٥٤، وصححه أحمد شاكر في: عمدة التفسير، انظر: أحمد محمد شاكر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (مختصر تفسير ابن كثير المسمى: عمدة التفسير..) الجزء الأول، ص ٣٧٠ – ٣٧١ هامش رقم (١).

(٦٩) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٢٠، ص ٣٠– ٣١، قال محققه: إسناده صحيح.. إلخ. والطبراني: المعجم الكبير، ج٩، حديث رقم ٩٠٣٥، ص ٢١٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١١): ورجاله رجال الصحيح.

وقال حذيفة- رضي الله عنه: يا رسول الله، إني ذَرِبُ اللسان، وإن عامة ذلك على أهلي، فقال: «**أين أنت من الاستغفار؟**»، فقال: إني لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرة»[٧٠].

وفي رواية لأبي نعيم: قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن لي لسانا ذربا على أهلي، قد خشيت أن يدخلني النار، قال: «**فأين أنت من الاستغفار..**»[٧١].

قال رباني الأمة: «فمن أحس بتقصير في قوله، أو حاله، أو رزقه، أو تقلب قلب، فعليه بالتوحيد والاستغفار، ففيهما الشفاء؛ إذا كانا بصدق وإخلاص، وكذلك إذا وجد العبد تقصيرا في حقوق القرابة والأهل والأولاد، والجيران والإخوان، فعليه بالدعاء لهم، والاستغفار، قال حذيفة بن اليمان، للنبي: إن لي لسانا ذربا على أهلي، فقال له: «**أين أنت من الاستغفار؟..**»[٧٢].

٥- ومما يبني إرادة الاستغفار، ويربيها في قلب المسلم أن يقتدي برسول الله ﷺ، فمع أنه كان خير البشر وأفضلهم، إلا أنه كان ﷺ كثير الاستغفار، تعبدا لله، باسمه الغفار، وتربيه لأصحابه بالإشعاع السلوكي، وحب المسلم لرسول الله، كاف لبعث إرادة الاستغفار، وإنهاضها في قلبه، ويكفيه إدراك ما يأتي:

أخرج الإمام أحمد عن ابن عمر: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس، يقول: «**رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور**»مائة مرة[٧٣].

---

(٧٠) إسناده صحيح، المسند، الجزء السادس عشر، رقم ٢٣٢٥٥، ص ٦٠٤ - ٦٠٥، ورواه أحمد بإسناد ضعيف، المسند، ج١٦، حديث رقم ٢٣٢٦٤، ص ٦٠٧، ورواه ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٧٦، ص ٩٤ وفيه: شكوت إلى رسول الله ﷺ ذرب لساني..، مثله، قال محققه: صحيح، وإسناده ضعيف.. إلخ.

(٧١) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ٢٧٦.

(٧٢) شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية: مجموع الفتاوى، المجلد الحادي عشر، ص ٣٨٠، ٣٨١.

(٧٣) إسناده صحيح، كما قال شاكر، انظر: المسند، الجزء الرابع، حديث رقم ٤٧٢٦، ص ٣٧٤، وأخرجه ابن ماجه، وفيه: .. التواب الرحيم، قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، المجلد الثالث؛ رقم ٣٠٩٠، ص ٢٤٨، وأورده في الصحيحة (٥٥٦) وفي صحيح أبي داود (١٣٥٧).

وفي رواية الترمذي : كان يعد لرسول ﷺ في المجلس الواحد... مائة مرة قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب على؛ إنك أنت التواب الغفور**»قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب(٧٤).

وقد أخرج البخاري عن ابن أبي موسي عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي، وجهلي وجدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير**». وفي رواية للبخاري عن أبي موسي الأشعري عن النبي أنه كان يدعو: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي**»(٧٥).

و- هذا هو الاستغفار الذي جعله النبي ﷺ علاجا فعالا يصقل القلب، ويمحو أثر الذنوب منه، وإن العلم بما سبق، وحسن إدراكه، وتيقنه، والتفكر فيه، يولد إرادة الاستغفار، ويدفع المؤمن به إلى التوجه إلى الله، مستغفرا، وخصوصا في الصلوات، وبعد صلاة ركعتين، وبالأخص في جوف الليل؛ أخرج البخاري عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**يتنزل ربنا- تبارك وتعالى كل ليلة، إلى سماء الدنيا؛ حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»(٧٦).

هذا هو وقت السحر، وقت تجافي الجنوب عن المضاجع، وقت الراحلين إلى الله، المستغفرين بالأسحار، وقت كتائب الرحمن.

---

(٧٤) سنن الترمذي، الجزء الخامس، رقم ٣٤٣٤، ص ٢٧٣، ٢٧٤.
(٧٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١١، حديث رقم ٦٣٩٨، ورقم ٦٣٩٩، ص ١٩٦، ١٩٧.
(٧٦) المصدر السابق، حديث رقم ٦٣٢١، ص ١٢٨.

قال ابن بطال: «هو وقت شريف، خصه الله بالتنزيل فيه، فيتفضل على عباده بإجابة دعائهم، وإعطاء سؤالهم، وغفران ذنوبهم، وهو وقت غفلة، وخلوة، واستغراق في النوم واستلذاذ له، ومفارقة اللذة والدعة صعب، لاسيما أهل الرفاهية، وفي زمن البرد، وكذا أهل التعب، ولا سيما في قصر الليل، فمن آثر القيام لمناجاة ربه والتضرع إليه، مع ذلك، دل على خلوص نيته، وصحة رغبته فيما عند ربه، فلذلك نبه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا.. ليستشعر العبد الجد، والإخلاص لربه»(٧٧).

فمن يستجيب لنداء الله في السحر: «**من يستغفرني فأغفر له؟**»، هل من مجيب يقول بقلبه وكيانه كله: أنا، يا رباه، أنا المذنب، اغفر لي خطئي وعمدي، وكل ذلك عندي..؟!

لنختم هذا المبحث بحديث مبشر: عن عبد الله بن بسر قال: قال النبي ﷺ «**طُوبَى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرا**»(٧٨).

فإذا تحقق المسلم – ذكرا وأنثى – بحقيقة الاستغفار، وجمع قلبه وعقله، وهمه، ومشاعره، ولسانه، واستغفر الله، متأسيا برسول الله، ، فإن الله يمحو السواد والظلمة من قلبه، ويجلوه، وينوره، ويصقله، ويزيد فهمه وبصيرته.

ز- خلاصة للاستغفار المربي:

ولكي نمارس الاستغفار المربي، المغير لقلوبنا، فإننا نركز هنا على ما بثثناه في الفقرات السابقة:

١- بناء التصور الصحيح للاستغفار، بحيث ندرك بوضوح معناه وحقيقته، وآثاره، وصيغه، وفضله وثوابه.

---

(٧٧) نفس المصدر السابق، حديث رقم ٦٣٢١، ص ١٢٨.

(٧٨) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، المجلد الثالث، حديث (٣٠٢٣)، ص ٢٤٩.

وسبيل **ذلك**: الدرس والتعلم للمعطيات السابقة، ولآيات القرآن عن الاستغفار، ولباقي أحاديث النبي عنه، (أبواب الاستغفار من كتب الحديث، ومن صحيح الترغيب.. إلخ)، دراسة ذاتية، أو جماعية، أو سماع أشرطة.. أو خطب، أو دروس في المساجد أو البيوت.. إلخ، أو عقد دورة تربوية عن الاستغفار المربي للقلب لمدة ليلة واحدة يصلى فيها بآيات في الاستغفار، ويتدارس فيها المبحث السابق، وفي الأسحار يجلس الحاضرون للاستغفار بالصيغ المأثورة.. مع تطبيق شروط الاستغفار المربي، مثل اليقين فيه، الإخلاص، التثبيت في القلب، الصدق، الافتقار لله، الشعور بالذنب، والشعور بربوبية الله، والشعور بعبودية الإنسان لربه.. الخ.

٢- **بناء إرادة الاستغفار**: وهي تتولد من خلال تحويل العلم السابق إلى ذوق، وشعور، أي: بالتأثر، وإشعار القلب المعاني السابقة، من خلال أسلوب تعليمي- تعلمي، مؤثر، ومن خلال إشعاع المعلم على أصحابه، وتأثره الحقيقي بما يعلم.. من الآيات والأحاديث والشرح السابق، أو ما يماثله؛ لبناء (الرغبة) في الاستغفار، والتوجه المحب الشغوف للاستغفار، وقد ذكرنا أساليب عدة لبناء هذه الرغبة والإرادة والعشق وإدراك فضل وآثار الاستغفار في القلب والنفس، إدراك حرص الصحابة، مع فضلهم، على تعلم الاستغفار وممارسته، إدراك كثرة استغفار النبي، مع صدق وكمال عبوديته لله تعالى.. التعرف إلى الله باسمه الغفار والغفور، وغافر الذنب، والتعلق به، والتعبد به.

كل ذلك يشع على قلب المسلم المتذوق له، فيؤثر فيه، ويتفاعل معه، فإذا اجتمع مع ذلك- شعور المسلم بتقصيره، وتفكره في اليوم الآخر، وأنه مجازي بالعدل- فإن داعي الاستغفار سينبعث بقوة من أعماق قلبه.

وتربية إرادة الاستغفار، وشهوته تكون من خلال تربية التصور الصحيح، الذي ذكرته في النقطة السابقة، فالعلم يسبق الإرادة والمحبة، وهما أساس الفعل والممارسة.

٣- الصحبة المربية ضرورية.. للشروع في الاستغفار المربي، فالمشاعر معدية، ونحن نلتقط مشاعرنا من بعضنا، فإذا كان صاحبي رقيقا، يستغفر الله، بوعي، وعمق، وأنا أحبه، وأقدره، وأشعر بتقصيري، فإنني أنفعل معه، وأقتدي به، وأشرع في الاستغفار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الصحبة السليمة تشكل بيئة اجتماعية ثقافية ذات جو خاص، يتشربه المسلم، ويتثقف به، ويتأثر به، فصحبة المستغفرين تبعث على الاستغفار الذي يصقل القلب.

٤- تعود الاستغفار، بأن يرتب المسلم لنفسه ورد استغفار، يلتزم فيه بالاقتداء بالرسول ، فيستغفر في الصباح والمساء، وفي مجالسه.. ويكثر منه، بقدر المستطاع، بيقين، وتفكر، وإشعار للقلب، حتى يتعود ذلك، ويصبح خلقا دائما له.

ومن الناحية التربوية يمكن للأب، والأم، والمعلم، وشيخ التربية في حركات البعث الإسلامي أن يوجهوا أبناءهم وأصحابهم للاستغفار مائة مرة كل يوم، وأن يحاسب بعضهم بعضا على ذلك، كل أسبوع مثلا، حتى يترسخ خلق الاستغفار في القلب والعقل، والسلوك، مع تبين أهمية ذلك في تربية القلب المصقول.

وتأمل في توجيه الحسن البصري، يقول: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، أينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة».

وفي قول لقمان لابنه: «أي بني، عَوِّدْ لسانك: اللهم اغفر لي، فإن لله ساعات لا يرد فيهن سائلا».

وفي قول بكر بن عبد الله المزني: «إنكم تكثرون من الذنوب، فاستكثروا من الاستغفار، فإن العبد إذا وجد يوم القيامة بين كل سطرين من كتابه استغفارًا سره مكان ذلك».

وقال رياح القيسي: «لي نيف وأربعون ذنبا، استغفرت لكل ذنب مائة مرة»(٧٩).

٥- فإذا اجتمع الاستغفار المربي، مع النزع المربي، فقد استكمل المسلم أسلوبين رئيسين لتربية قلبه، واندفع بعمق نحو ممارسة الأسلوب الأكبر، والقيمة الكبرى لتربية القلب المصقول، وهي: التوبة، ونخصص لها الفقرات الآتية كلها، لنبين حقيقتها ودورها التربوي، وأساليب تربيتها هي في قلوبنا.

سابعا: أساليب الخلاص من رين القلب:

- التوبة المربية:

طبقا لحديث النبي الذي نتدارسه في هذا الفصل، فإن الأسلوب الثالث لإزالة الران، وصقل القلب هو التوبة؛ «**فإن نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه**». وأتناول هذا الأصل الكبير، مبينا كيف تكون التوبة صقلا وتجلية للقلب، وكيف نربي (التوبة في قلوبنا).

إن أساس ذلك أمران:

الأول: التصور الصحيح الواضح لمفهوم التوبة، ومقوماتها، وحقيقتها وأثرها في القلب والسلوك، وفضلها وثوابها عند الله.

والثاني: هو إرادة التوبة، ومحبتها والاندفاع لممارستها.

وما يأتي هو بيان لهذين الأمرين، طبقا لمنهجنا التحليلي الشارح.

أ- مفهوم التوبة: تعديل للسلوك وتغيير للأنفس:

١- يقول ابن منظور: «التوبة: الرجوع عن الذنب (...) والتَّوْبُ: مثله (...) وتاب إلى الله، يتوب، توبا، وتوبة، ومتابا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة (...) وتاب الله عليه: وَفَّقَهُ لها.. وقال أبو منصور: أصل تاب: عاد إلى الله، ورجع وأناب، وتاب الله عليه: أي: عاد عليه بالمغفرة، وقوله تعالى:

---

(٧٩) أورد هذه الآثار: ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٥٨، ١٥٩، ص ٨٨ ورقم ١٧٩، بإسناد حسن، ص ٩٥.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]؛ أي: عودوا إلى طاعته، وأنيبوا إليه، والله التواب: يتوب على عبده بفضله؛ إذا تاب إليه من ذنبه»[٨٠].

٢- ويبين الراغب حقيقة التوبة على أساس مفهوم الترك، يقول: «التَّوْبُ: ترك الذنب على أجمل الوجوه (...) والتوبة- في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال؛ بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع: فقد كمل شرائط التوبة، وتاب إلى الله: تَذَكَّر ما يقتضي الإنابة (...)، وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١] ؛ أي: التوبة التامة؛ وهو الجمع بين ترك القبيح، وتحري الجميل»[٨١].

فالتوبة = ترك القبح + الندم + العزم على فعل الصلاح + تدارك ما فات + تذكر+ إنابة.

فالتوبة مُوَلِّدة للإنابة، وهي تنبع وتتولد من التذكر، والوعي بقبح الذنب، وهذا أصل مهم في دفع القلب ليتوب، أن يتذكر ما يولد التوبة، وهو هذه المعطيات، ورحمة الله، وقدرته، والحساب يوم القيامة.. وأن يعي قبح المعاصي.

وهذا وذاك ينشآن بالدرس، والتفكر.

٣- يقول القشيري: وحقيقة التوبة في لغة العرب: الرجوع، يقال: تاب؛ أي: رجع.

فالتوبة: الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيه، وقال النبي ﷺ: **«الندم توبة»**[٨٢].

---

(٨٠) ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٤٥٤.

(٨١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٧٦.

(٨٢) ستأتي روايات لهذا الحديث في الفقرة التالية، ونكتفي هنا بالتخريج الآتي: أخرجه الإمام ابن ماجه بسنده عن ابن معقل قال: دخلت مع أبي على عبد الله (يعني: ابن مسعود) فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: « **الندم توبة** »، فقال له أبي: أنت سمعت النبي يقول: «**الندم توبة؟**»قال: نعم. قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، مصدر سابق، ٣٤٤٨، ص ٣٨٣.

فأرباب الأصول من أهل السنة قالوا: شرط التوبة حتى تصح، ثلاثة أشياء: الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي، فهذه الأركان لا بد منها حتى تصح توبته، قال هؤلاء: وما في الخبر أن (الندم توبة)؛ إنما نص على معظمه، كما قال ﷺ: «**الحج عرفة**»، أي: معظم أركانه: عرفة (...) كذلك قوله: «**الندم توبة**»، أي: معظم أركانها: الندم(٨٣).

فتعريف القشيري يشترك مع التحديد السابق في الشروط الثلاثة، ويجعل للترك هدفا؛ وهو الرجوع إلى فعل المحمود في الشرع الإلهي.

٤- أما الحارث المحاسبي فيعطي إضافة لمفهوم التوبة، وشروط صحتها، فيقول: «ولا تصح التوبة إلا بأربعة أشياء: حَلُّ إصرار القلب عن المعاودة، والاستغفار بالندم، ورد التبعات والمظالم، وحفظ الجوارح من الحواس السبع: السمع، والبصر، واللسان، والشم، واليدان، والرجلان، والقلب؛ وهو أميرها، وبه صلاح الجسد وفساده»(٨٤).

وما أدق، وما أحسن هذا التعريف؛ إنه يجعل من شروط صحة التوبة: حل عقدة الإصرار على الذنب، من القلب، ورد- يعني: إرجاع- الحقوق لأصحابها، وحفظ الجوارح من معاودة الذنب، وحفظ القلب بصفة خاصة.

٥- فالتوبة: عملية تطهير وتصفية للذات، وتحرير لها من معتقلات المعصية، من جهة، واكتساب للخيرات من جهة أخرى، فهي عملية ضرورية للغاية لتربية الشخصية المسلمة؛ ومن هنا يقول المحاسبي: «وإنما هو التطهير، ثم العمل، والتطهير أولى بنا من العمل، والتطهير هو الانتقال عن الشر، إلى الأساس الذي

---

(٨٣) أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٨٤) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري: رسالة المسترشدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الفتاح أبو غدة، ط٤، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، حلب، سورية، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ص ١١٣.

يبنى عليه الخير، وقد يمكن أن يسقط البناء، ويبقى الأساس، ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء، ومن لم يتطهر قبل العمل؛ فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير، فترك الشر أولى بالعبد، ثم يطلب الخير بعد»(٨٥).

٦- ولأبي حامد الغزالي تحليل نفسي صحيح لعملية التوبة، يقول: «التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل: فالعلم: الأول، والحال: الثاني، والفعل: الثالث، والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت»(٨٦).

أما العلم: فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة، بيقين غالب على قلبه؛ ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب؛ فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله؛ تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه: ندما، فإذا غلب هذا الألم على القلب، واستولى؛ انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال، وبالماضي، وبالاستقبال.

أما تعلقه بالحال؛ فبالترك للذنب الذي كان ملابسا، وأما بالاستقبال؛ فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي؛ فبتلافي ما فات؛ بالخير، والقضاء؛ إن كان قابلا..

فالعلم هو الأول، وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم: الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين:

---

(٨٥) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: آداب النفوس، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٦١ – ٦٢.

(٨٦) لاحظ أن تربية أية قيمة لابد أن تمر عبر هذه الثلاثة، بنفس الترتيب (١) العلم بالقيمة لتكوين التصور الصحيح الواضح، والإقناع. (٢) إرادة القيمة، وحبها والميل لها بشغف. (٣) ممارستها.. وهذا ما قلناه سابقا: (الإرادة تابعة.. للعلم)... إلخ.

عبارة عن تأكد هذا التصديق، وانتفاء الشك عنه، واستيلائه على القلب، فيثمر نور الإيمان، مهما أشرق على القلب، نار الندم، فيتألم بها القلب، حيث يبصر - بإشراق نور الإيمان - أنه صار محجوبا عن محبوبه، (...) وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك.

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي: ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها.

وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال الرسول ﷺ: «**الندم توبة**» إذ لا يخلو الندم من علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفا بطرفيه، أعني: ثمرته ومُثْمِرَهُ، وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة: إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ؛ فإن هذا يعرض لمجرد الألم، ولذلك قيل: هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب، وباعتبار معنى الترك (...). قال سهل بن عبد الله التستري: التوبة: تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة، والصمت، وأكل الحلال، وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة.

والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر، وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتَلازُمَها وترتيبها؛ عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها.

«وطلب العلم بحقائق الأمور أهمُّ من طلب الألفاظ المجردة»(٨٧).

ويضيف أبو حامد: «ومن معانيها: ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه»(٨٨).

---

(٨٧) الإمام أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٢٠٧٢ - ٢٠٧٣.

(٨٨) المصدر السابق، ص ٢٠٧٦.

ويمكن صياغة قانون التوبة في الآتي:

معرفة وإيمان ويقين- يتعلق بالتوبة- يستولي على القلب ← نار التأسف والندم ← انبعاث الإرادة والقصد إلى الفعل الصالح المغير ← ترك الذنب في الحال ← والعزم على تركه إلى آخر العمر ← تلافي ما فات من تقصير؛ بفعل الخير وقضاء الفوائت، ورد التبعات.

٧- أما ابن القيم فيضيف بعدا مهما لمفهوم التوبة، يحدد حقيقتها، يقول: «فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة؛ فإنه في ذلك الوقت: يندم، ويقلع، ويعزم؛ فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة»(٨٩).

ويشرح ابن القيم هذه القاعدة التغييرية المهمة- أعني: أن التوبة رجوع إلى العبودية لله وحده؛ إعادة تربية للذات المسلمة؛ لتلتزم بمنهج الله- يقول: وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على ألا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، إن كان في حق آدمي: فلا بد من أمر رابع؛ وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مُسَمَّى (التوبة)، بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله، كما تتضمن ذلك، تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون لمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبا؛ حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين (...).

فإن حقيقة (التوبة): الرجوع إلى الله؛ بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علق - سبحانه - الفلاح المطلق على

---

(٨٩) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ١٣٩ .

فعل المأمور، وترك المحظور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] ، فتارك المأمور: ظالم، كما أن فاعل المحظور: ظالم، وزوال اسم الظلم عنه، إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين.

فالناس قسمان: تائب وظالم؛ ليس إلا، فالتائبون: هم ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، فحفظ حدود الله؛ جزء التوبة، والتوبة: هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائبا؛ لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم (...).

فإذن، التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا، إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا، ويدخل في مسماها: الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، كما تقدم، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق، والأمر، والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم، الذي عليه بناؤها (...) ولم يجعل الله- تعالى- محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

«ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان؛ لم يكن الرب- تعالى- يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها»[٩٠].

٨- إذن، التوبة رجوع إلى التحقق بالعبودية والتوحيد، إنها عملية تجديد إنساني، ضرورية للتغيير القلبي والخلقي، وتعديل السلوك.

---

(٩٠) المصدر السابق، ص ٢٣٠، ٢٣١.

إن التوبة إقبال بالقلب إلى الله، وإلى فعل ما يحبه، وترك ما يبغضه، لنتأمل هذا الحديث:

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد. فقبضته ملائكة الرحمة**». قال قتاده: فقال الحسن: ذُكِرَ لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره[٩١].

فهذا الرجل أراد الرجوع إلى الله فجاء مقبلا بقلبه، أي: محبا ميالا منعطفا بشعوره إلى الله؛ فقبل الله توبته، وقبضه إلى رحمته حين جاء الموت، وهذا هو مبعث التوبة. وهذا ما قرره الشيخ القدوة، والأستاذ المربي عبد القادر الجيلاني؛ بتعبيرات مثيرة للتأمل، فلنتدبر أقواله التالية[٩٢]:

«تب عن ذنوبك، وهَرْوِل عنها إلى مولاك- عز وجل. إذا تُبْتَ فَلْيَتُبْ ظاهرك وباطنك.

---

(٩١) إكمال المعلم، ج٨، رقم٢٧٦٦، ص٢٦٩- ٢٧٠.

(٩٢) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، مصدر سابق، ص ٧، ٨، ٨٤.

والتوبة: قلب دولة، اخلع ثياب المعاصي بالتوبة الخالصة والحياء من الله- عز وجل- حقيقة، لا مجازا.

توبوا بقلوبكم، ثم بألسنتكم، التوبة قلب دولة، تقلب دولة نفسك وهواك وشيطانك، وأقرانك السوء، إذا تبت فليتب سمعك وبصرك، ولسانك وقلبك، وجميع جوارحك، وتصفي طعامك وشرابك، من كدر الحرام والشبهة، وتتورع في معيشتك وبيعك وشرائك، وتجعل كل همك: مولاك- عز وجل- تزيل العادة، وتترك مكانها العبادة، تزيل المعصية، وتترك مكانها الطاعة».

ويضيف: «التوبة: قلب دولة، من تاب، ولم يغير ما كان عليه قبل التوبة؛ فقد كذب في توبته، إذا غَيَّرْتَ غَيَّرَ عليك، قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ**﴾ [الرعد: ١١]».

وهكذا يساوي الأستاذ عبد القادر بين التوبة وتغيير ما بالأنفس، وما بالأنفس: هو مركب من عالم الأفكار والمعتقدات والتصورات، وعالم القيم والأخلاق التي نضمرها في قلوبنا، وتوجه سلوكنا، وعالم الميول والعواطف والمشاعر والاتجاهات والرغبات والإرادات، والانتماءات، والولاءات، وعالم العادات والتصرفات والسلوكيات والعلاقات والاختيارات بين البدائل، والتوبة تعني تغيير ذلك كله إذا كان مخالفا لشريعة الله المنزلة، وإحلال - مكان ذلك كله- ما يقابله مما يرضي الله ويحبه، إذ إن «حقيقة التوبة: تعظيم أمر الحق- عز وجل- في جميع الأحوال»[٩٣].

إن التوبة - إذن - عملية تغيير نفسي شاملة، تمثل الأساس الرئيسي للتغيير الاجتماعي كله.

فالتوبة (راجعية) عقدية وخلقية ووجدانية وشعورية وعقلية، وسلوكية، إلى الله تعالى: «التائب إلى الله: هو الراجع إليه، وقوله- عز وجل: ﴿**وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ**

---

(٩٣) المصدر السابق، ص ٨٢.

رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] أي: ارجعوا إلى ربكم، بمعنى: ارجعوا، سلموا الكل إليه، سلموا نفوسكم إليه، واطرحوها بين يدي قضائه وقدره، وأمره ونهيه، (...) واطرحوا قلوبكم بين يديه، (...) بلا كيف، ولا لم، ولا منازعة، بلا مخالفة، بل بموافقة وتصديق، قولوا: صدق الأمر، صدق القدر (...) إذا كنتم هكذا؛ لا جرم تكون قلوبكم منيبة إليه، مشاهدة له»[٩٤].

٩- وأختم بيان حقيقة التوبة المربية، المغيرة للكينونة الإنسانية من الأعماق، بقول سيد قطب: «والتوبة: شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقي، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك؛ فهي طهارة وزكاة، وتوجه وصلاح»[٩٥].

ويقول: «والتوبة ليست كلمة تقال؛ إنما هي عزيمة في القلب، يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع، فإذا وقعت التوبة وصح الإيمان، وصدقه العمل؛ فهنا يأخذ الإنسان في الطريق، على هدي من الإيمان، وعلى ضمانة من العمل الصالح»[٩٦].

١٠- هذا هو مفهوم التوبة، وحقيقتها؛ ومبعثها، وأثرها في الشخصية الإنسانية: تغيير وتعديل للنشاط الإنساني كله، هذا هو الذي يلزم العلم به، وإدراكه، ودرسه، واستيعابه في كل المستويات التربوية، لتحريك إرادة التوبة، وفي الفقرة التالية نبين كيف أن التوبة التامة: تغيير مستمر نحو الأحسن: عقديا وخلقيا.. وشعوريا.

ب- التوبة التامة: تغيير مستمر نحو الأحسن:

تبين مما سبق أن التوبة فعل يتركب من معرفة، وندم، وعزم وإرادة، وقصد، وترك، وعمل صالح، ولكي تكون التوبة تامة؛ أي: تحقق أهدافها في

---

(٩٤) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٩٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٣، ص ١٧١٩.

(٩٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٣٤٦.

التطهير والتغيير السلوكي الشامل الصحيح، فإن كلا من هذه الأركان لا بد أن يتصف بجملة من العلامات والمقومات؛ إذا تم الالتزام بها، حدث التحول الإيماني الخلقي في الشخصية الإنسانية، وسأتناول في هذه الفقرة: أولا الندم، ثم القصد، ثم العزم، مركزا على البعد التربوي لكل منها.

١ - الندم المربي ومقوماته:

١-١: أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مَعْقِل بن مُقَرِّن قال: دخلت مع أبي عبد الله بن مسعود، فقال: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «**الندم توبة**»؟ قال: نعم، وقال – مرة: سمعته يقول: «**الندم توبة**»(٩٧). ورواه أحمد عنه قال: كان أبي عند عبد الله بن مسعود، فسمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الندم توبة**»(٩٨). وأخرجه ابن ماجه، وقد ذكرناه من قبل(٩٩).

وأخرج ابن المبارك عن ابن مسعود قال: «من أذنب ذنبا فندم فهي توبته»(١٠٠).

---

(٩٧) قال شاكر: إسناده صحيح، انظر: المسند، ج٣، حديث رقم ٣٥٦٨، ص ٤٨٩ (وانظر تخريجه هناك، فهو مهم).

(٩٨) قال شاكر: إسناده صحيح، انظر: المسند، ج٤، رقم ٤٠١٢، ورواه برقم ٤٠١٤ ورقم ٤٠١٦ بإسنادين صحيحين، نفس الجزء، ص ١١٦، ١١٧.

(٩٩) وقال الشهاب البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، رواه الحاكم في المستدرك. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، قلت: رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (...) ورواه الإمام أحمد في مسنده (...) ورواه أبو يعلى الموصلي فصرح فيه بالتحديث... وله شاهد من حديث أنس، رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم أيضا». انظر: الشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج٣، تحقيق وتعليق موسى محمد علي، و د. عزت علي عطية، ط١، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، حديث رقم ١٥٢٢، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، المجلد الثالث، مصدر سابق، رقم ٣٤٤٨، ص ٣٨٣. وأخرج قريبا منه ابن المبارك: كتاب الزهد، ويليه كتاب الرقائق، حققه وعلق عليه حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، رقم ١٠٤٤، ص ٣٦٨.

(١٠٠) ابن المبارك: كتاب الرقائق، رقم ١٠٤٨، ص ٣٦٩.

فالندم ركن ركين في حدوث وتحقق التوبة، فما الندم؟ وكيف نكوّنه؟ وكيف يكون توبة؟ كيف يُحدِث الندمُ فعلَ التوبة؟

١-٢: يقول عبد القادر الجيلاني: «شجرة اليقظة والمعرفة تربى بماء الفكر، وشجرة التوبة تربى بماء الندامة»[١٠١]، أي: أن الندم فعل ضروري لتربية التوبة، وبدونه تجف شجرتها وتنشف.

ويوضح المحاسبي أن (صدق الندم) من شروط صحة التوبة وإنتاجها لآثارها في القلب والسلوك، فهو يجيب عن سؤال: من أرجى الناس لقبول التوبة منهم؟ قال: «أشدهم خوفا، وأصدقهم ندامة على ما كان منه، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله، وخطله، وطول غفلته، ودوام إعراضه، وأحسنهم تحفظا فيما يستقبل، وإن استووا في ذلك؛ فأشدهم اجتهادا في العمل.

لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب:

شدة التحفظ فيما بقي من العمر، ومواثبة الطاعة بالجد والاجتهاد، واستقلال كثير الطاعة، واستكثار قليل النعمة، مع رقة القلب، وصفائه وطهارته، ودوام الحزن فيه، وكثرة البكاء، والتفويض إلى الله- تعالى- في جميع الأمور، والتبري إليه من الحول والقوة، ثم الصبر، بعد ذلك، على أحكام الله- عز وجل، والرضا عنه في جميعها، والتسليم لأموره كلها»[١٠٢].

إذن، الندم فعل مُوَلِّد للتغيير النفسي والخلقي الصحيح؛ أي: أنه فعل تربوي للقلب.

١-٣: ويوضح الغزالي ذلك، فيقول: «ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم: دوام وتمام، ولتمامها علامة،

---

(١٠١) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، مصدر سابق، ص ٨٧.
(١٠٢) أبو عبد الله حارث بن أسد المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ٨٧.

ولدوامها شروط؛ فلا بد من بيانها (...). وأما الندم، فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته: طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده، أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز عليه من نفسه، وأي عقوبة أشد من النار، وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ (...) فألم الندم كلما كان أشد، كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم: رقة القلب وغزارة الدمع (...) ومن علامته: أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا من حلاوتها؛ فيستبدل بالميل: كراهية، وبالرغبة نفرة، (...) وذلك لعلمه بأن كل ذنب، فذوقه ذوق العسل، وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان، ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون (...)، فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب»[١٠٣]؛ لأن الذنب، مهما كان، هو مخالفة لأمر الله العظيم المحبوب.

وبتحليل هذا النص نجد أن الندم، الصحيح التام، يحدث تحويلا جذريا في الميول النفسية، فبدل الحب للمعصية والخطيئة في القلب، تحدث الكراهية لها وتحل في القلب، فيبغض القلب المعصية، وينفر منها، وينكرها، ويشتهي الطاعة، وهذا أساس التغيير النفسي كله، ما هو؟

إن هذا الندم المربي يولد وينمي (إرادة) الطاعة لله، وفعل الخيرات الصالحات.

وهنا الندم يتولد من العلم بقبح الذنب، والإيمان، والتأثر - كما شرحنا- ويولد هو الإرادة والقصد للتغيير.

---

(١٠٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٢٤ – ٢١٢٥.

فأساس الفعل التربوي المغير - هنا - هو: الدرس والتعلم والتفكر، والتأمل، ومراجعة الذات، طبقا لهذا.

٢ - القصد المربي، وإرادة التدارك وتصحيح الذات:

إذا تحقق الندم في القلب؛ تولد منه القصد؛ وهو إرادة التصحيح والتدارك، إرادة فعل للخير، وعمل الصالحات، ابتغاء مرضاة الله.

٢-١: وهذا أصل تربوي مهم جدا في تربية أية قيمة، واكتساب أي خلق، أعني: أن نبدأ بتربية إرادة الاتصاف بالقيمة، والتخلق بها، أولا: مثلا: مهما تحدثنا وخطبنا وكتبنا، وتعلمنا.. وعلمنا عن (قيمة الحرية) فإن أحدا لن يتصف بالحرية، ولن يكون حرا - فعلا - إلا إذا (أراد) أن يكون حرا، من داخله، هذه هي نقطة البدء في التربية: أن نربي إرادة أن نكون أحرارا، إرادة أن نكون صادقين، إرادة أن نكون أمناء، إرادة أن نكون تائبين..،..،..

ومن هنا ندرك قيمة المقولة المذكورة سابقا: «شجرة التوبة تربى بماء الندامة»؛ لأن الندم القلبي الصحيح يولد القصد الصحيح، أي: إرادة فعل الخير، والتوجه إليه بعزم، و(القصدية) هي إرادة تنبعث في القلب والنفس لترك شيء، أو لفعل شيء.

ويمكن أن نقول: إن شجرة الإيمان، ومكارم ومعالي الأخلاق تربى بماء الإرادة والقصد والعزم، ويبين المحاسبي في نص مثير ودقيق خطورة الإرادة، فيقول: «فلو كان يمكن أن يكون قبل المعرفة شيء؛ لكانت الإرادة قبل المعرفة، ولو استغنى عن المعرفة بشيء لاستغنت الإرادة عن المعرفة، فالمعرفة قبل كل شيء، وأصل كل شيء، ثم الإرادة، وهي منها، وهي تحقيق الترك، وتحقيق العمل، والأخذ والإعطاء، والحب والكره، في الأعمال كلها، وهي ولية عقد منافع أهل الأعمال في أعمالهم»(١٠٤).

---

(١٠٤) أبو عبد الله حارث بن أسد المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ١٦٢.

فبدون القصد والإرادة لا يكون عمل خلقي.

فالمعرفة تولد الإرادة، وهي التي تعقد العزم على العمل، وتدفع إليه.

٢-٢: ويبين أبو حامد حركة القصد، والإرادة- إرادة التدارك- على مُتَّصَل الزمن: الماضي، الحاضر، المستقبل، وتأثيرها في السلوك، يقول(١٠٥): «وأما القصد الذي ينبعث منه؛ وهو إرادة التدارك؛ فله تعلق بالحال؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو مُتَوَجِّه عليه في الحال، وله تعلق بالماضي: وهو تدارك ما فَرَّطَ، وبالمستقبل: وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية، إلى الموت».

وتدارك ما فرط فيه سابقا، يعني: أن يفتش في عمره الماضي منذ أن بلغ، وينظر إلى ما قصر فيه من الطاعات المفروضة عليه، فيستدركها، بالقضاء على حسب غالبِ ظنه، أو بالإكثار من النوافل، فإن ترك صوما أداه وقضاه.. وهكذا..

ويقول الغزالي: «وأما المعاصي: فيجب أن يفتش عن أول بلوغه، عن سمعه، وبصره، ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها (...) ثم ينظر فيها: فما كان من ذلك بينه وبين الله - تعالى - من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد - كنظر إلى غير محرم.. ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة.. وسماع مَلَاهٍ، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد؛ فالتوبة عنها: بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها؛ من حيث الكبر، ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات»، آخذًا من قول رسول الله ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها..**»(١٠٦).

---

(١٠٥) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٢٥.

(١٠٦) جزء من حديث رواه أبو داود وأحمد والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب، عن أبي ذر، ورواه أحمد والترمذي والبيهقي في الشعب عن معاذ، وابن عساكر عن أنس، قال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، مصدر سابق، حديث رقم ٩٧، ص ٨١، وسيأتي تخريج إضافي لهذا الحديث، في هذا الفصل بإذن الله.

وعَدّ جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود: سلوك الطريق المضادة، فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية؛ فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها (...).

وأما مظالم العباد؛ ففيها- أيضا- معصية وجناية على حق الله- تعالى - فإن الله- تعالى- نهى عن ظلم العباد أيضا، فما يتعلق بحق الله- تعالى - تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها؛ فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم؛ بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرفه من خصال الخير من أقرانه وأمثاله.

ثم إذا فعل ذلك كله لم يُنْجِه ولم يَكْفِهِ، ما لم يَخْرُجْ عن مظالم العباد.

ومظالم العباد: إما في النفوس أو الأموال، أو الأعراض، أو القلوب، أعني به: الإيذاء المحض»(١٠٧).

٢-٣: فرد الحقوق لأصحابها ركن في التوبة، يقول الجنيد: «التوبة على ثلاثة معان، **أولها** الندم، **والثاني**: العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عنه، **والثالث**: السعي في أداء المظالم»(١٠٨).

وتأمل في فتوى الإمام أحمد: «قال عبد الله: سألت أبي عن رجل اختان من رجل مالا، ثم إنه أنفقه وأتلفه، ثم إنه ندم على ما فعل، وتاب، وليس عنده ما يؤدى، فهل يكون في ندمه وتوبته ما يرجي له به- إن مات على فقره- خلاص مما عليه؟ فقال أبي: لا بد لهذا الرجل من أن يؤدي الحق، وإن مات؛ فهو واجب عليه.

(١٠٧) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٢٦ - ٢١٢٩.
(١٠٨) أبو القاسم القشيري: الرسالة، مصدر سابق، ص ٥٠، ٥١.

وقال- في رواية محمد بن الحكم، فيمن غصب أرضا: لا يكون تائبا حتى يردها على صاحبها، وإن علم شيئا باقيا من السرقة؛ ردها عليه أيضا.

وقال؛ فيمن أخذ من طريق المسلمين، توبته أن يرد ما أخذ، فإن ورثه رجل فقال في موضع: لا يكون عدلا حتى يرد ما أخذ، وقال في موضع: هذا أهون، ليس هو أخذه، وأعجب إلى أن يرد.

وقال أحمد- في رواية صالح- فيمن ترك الصلاة - وسأله صالح: توبته أن يصلي؟ قال: نعم»(١٠٩).

٢-٤: وإنما قصدت- هنا- أن أضرب أمثلة لما يجب رده من المظالم وحقوق الناس، وهناك بعض المظالم تكون التوبة منها فيما بين العبد وبين الله، وهذا أصل مهم في العلاقات بين المسلمين، وبين الناس، يقول ابن القيم عن التوبة: ومن أحكامها: أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمي: أن يخرج التائب إليه، منه، إما بأدائه، أو استحلاله منه، بعد إعلامه به، وإن كان حقا ماليا، أو جناية على بدنه، أو بدن موروثه، كما ثبت عن النبي أنه قال: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عِرْض، فليتحلله اليوم حتى ألا يكون دينار ولا درهم، إلا الحسنات والسيئات**»(١١٠).

وروى البخاري الحديث المذكور عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأخيه من عِرْضِه، أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم؛ إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»(١١١).

---

(١٠٩) ابن مفلح (شمس الدين محمد أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي): الآداب الشرعية، والمنح المرعية، تحقيق: عامر الجزار، وأنور الباز، ج١، ط١، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص٦٧.

(١١٠) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين،.. ج١، مصدر سابق، ص ٢١٩، والحديث رواه البخاري، وأحمد، مع اختلاف في اللفظ، وانظر تفصيل هذا الأصل الخلقي في: ابن مفلح: الآداب الشرعية،.. المصدر السابق، ص ٦٧ - ٧٣.

(١١١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٥، حديث رقم ٢٤٤٩، ص١٠١.

ورواه في كتاب الرقاق بلفظ: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه؛ فليتحلله منها، فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات؛ أخذ من سيئات أخيه، فطرحت عليه**»(١١٢).

وذلك باستثناء ما يؤدي إلى مفسدة أكبر؛ مثل الغيبة أو القذف، أو الزنى بزوجة إنسان؛ فإعلامه مفسدة محضة، فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقا وغما، ولذلك قال بعض فقهاء التربية والشريعة:

«إنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب المقذوف في مواضع غيبته وقذفه، بضد ما ذكره به من الغيبة؛ فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وقذفه = بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه، وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية قدس الله روحه»(١١٣).

٢-٥: والاستحلال ورد الحقوق لأصحابها يحتاج إلى عزيمة وَثَّابَة مؤمنة، وإلى صدق في التوبة، كما أن المسلم المظلوم يحتاج إلى عزيمة قوية ليعفو، ويحل من ظلمه، ولنتأمل في عزيمة الإمام أحمد- رحمة الله عليه- فقد سجن وعذب، وأهين، وخلع بالمخالع، ولكن ماذا فعل؟ يا له من بطل تقي !!

قال صالح ابن الإمام أحمد: «وسمعت أبي يقول: والله لقد أعطيت المجهود من نفسي، ووددت أني أنجو من هذا الأمر كفافًا، لا عَلَيَّ ولا لي، ودخلت على أبي يومًا فقلت له: بلغني أن رجلا جاء إلى فضل الأنماطي فقال له: اجعلني في حل؛ إذ لم أقم بنصرتك، فقال فضل: لا جعلت أحدا في حل، فتبسم أبي وسكت، فلما كان بعد أيام قال: مررت بهذه الآية: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فنظرت في تفسيرها فإذا هو ما حدثني أبو النضر،

(١١٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري..ج١١، مصدر سابق، رقم ٦٥٣٤، ص ٣٩٥.
(١١٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين..ج١، مصدر سابق، ص ٢١٩.

حدثنا ابن فضالة؛ المبارك، حدثني من سمع الحسن يقول: إذا جثت الأمم بين يدي رب العالمين، نودوا، ليقم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا، قال أبي: فجعلت الميت في حل من ضربه إياي، ثم جعل يقول: وما على رجل ألا يعذب الله بسببه أحدا.

«وسمعته يقول: كل من ذكرني: في حل، إلا مبتدع، وقد جعلت أبا إسحق- يعني المعتصم- في حل، ورأيت الله- تعالى - يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قصة مسطح، قال أبو عبد الله: العفو أفضل، وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم في سببك (...)، وجاء رجل فقال: تلطف لي بالإذن عليه، فإني قد حضرت ضربه يوم الدار، وأريد أن أستحله، فقلت له: فأمسك، فلم أزل به حتى قال: أدخله، فأدخلته، فقام بين يديه وجعل يبكي، وقال: يا أبا عبد الله، أنا كنت ممن حضر ضربك يوم الدار، وقد أتيتك؛ فإن أحببت القصاص فأنا بين يديك، وإن رأيت أن تحلني فعلت، فقال: على ألا تعود لمثل ذلك؟ قال: نعم، قال: فإني قد جعلتك في حل، فخرج يبكي، وبكى من حضر من الناس»(١١٤).

٢-٦: فالاستحلال، والإحلال سلوك إسلامي عظيم.

ويعطينا أبو حامد الغزالي إجراء تربويا لتحقيق هذا الركن: ركن الإرادة والقصد والإصلاح، فيقول: «وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق (جمع دانق، من الأوزان، وهو سدس دينار - أراد: الشيء التافه الحقير)، من أول يوم حياته، إلى يوم توبته، قبل أن يحاسب في القيامة، ولْيُنَاقِش قبل أن يُنَاقَش،

---

(١١٤) ذكر ذلك الذهبي في ترجمة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل في: تاريخ الإسلام، ونقلها كلها الشيخ أحمد محمد شاكر في: طلائع المسند، انظر: المسند، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ١١٣، ١١٤، ١٣٥، ١٣٦، وانظر: أبا الفضل صالح بن أحمد بن حنبل: سيرة الإمام أحمد بن حنبل، ط٢، دار الدعوة، الإسكندرية، تحقيق المستشار الدكتور: فؤاد عبد المنعم أحمد، ص ٦٥، ١٢٥ – وانظر: ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج١، مصدر سابق، ص ٧٥.

فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا؛ طال في الآخرة حسابه، فإن حَصَّلَ مجموع ما عليه بظنٍّ غالب ونوع من الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامي أصحاب المظالم، واحدا واحدا (...) وليطلبهم، وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم(...) فإن عجز؛ فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ من حسناته، وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه؛ فإنه: إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك بسيئات غيره، فهذا طريق كل تائب في رد المظالم، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر، بحسب طول مدة الظلم»(١١٥).

٢-٧: إذن، القصد، وإرادة التدارك المتعلقة بسيئات وخطايا الزمن الماضي والحاضر، هي عملية تطهير شاملة للنفس، وتصفية للقلب، والوجدان، من ظلمات وأثقال الخطايا، فيقوى القلب، وتشتد إرادة فعل الخير فيه، ويندفع لاكتساب أنوار الخيرات، وبناء (إرادة التدارك) هي تحرير للذات من معتقلات الإثم، وإصلاح للعلاقات بين الناس.

وتربية القصد المربي تكون بإكساب العقل والقلب هذا التصور، والإيمان به، بيقين، والانفعال العميق، وإشعار القلب بمضمونه، وآثاره.

٣- العَزْمُ المستقبلي:

٣-١: يقول الغزالي: «وأما العزم المرتبط بالاستقبال: فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا، ويعاهده بعهد وثيق: ألا يعود إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها»(١١٦).

ومع هذا العهد الوثيق ينوي الخير بقلبه- دائما- قال ابن مفلح: «قال عبد الله ابن الإمام أحمد لأبيه يومًا: أوصني يا أبت، فقال: (يا بني، انو الخير؛ فإنك لا تزال

---

(١١٥) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٢٩.
(١١٦) المصدر السابق، ص ٢١٣١.

بخير ما نويت الخير). وهذه وصية عظيمة سهلة على المسؤول، سهلة الفهم والامتثال على السائل، وفاعلها، ثوابه دائم، مستمر؛ لدوامها واستمرارها، وهي صادقة على جميع أعمال القلوب المطلوبة شرعا، سواء تعلقت بالخالق أو بالمخلوق، وأنها يثاب عليها، ولم أجد في الثواب عليها خلافا (...) فيا لها من وصية!!

ما أشد وقعها! وما أعظم نفعها! فلنسأل الله- تعالى - لنا ولإخواننا المسلمين العمل بها والتوفيق لها، ولما يحبه ويرضاه آمين، فبمثل هذا تكون وصايا أئمة المسلمين ﷺأجمعين»[١١٧].

٣-٢: فإذا استمر التائب في عهده مع الله، ونية الخير، فإنه يتمم توبته، لتصبح توبة نصوحا، أي: تكون في قلبه واعظا كثير النصح بالخير له، أي: تتحول لضمير خلقي حي يقظ، لنتأمل:

أخرج الطبراني- بإسناد حسن- كما قال الهيثمي: «عن عوف بن مالك؛ قال: ما من ذنب إلا وأنا أعرف توبته، قيل: وما توبته؟ قال: أن يتركه ثم لا يعود»[١١٨].

وهذا أصل في التوبة النصوح؛ التي هي فرض على الأعيان، أي: التوبة الصادقة الخالصة، قال الحسن: «التوبة النصوح: أن يبغض الذنب الذي أحبه، ويستغفر منه إذا ذكره، (...) التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والاطمئنان على ألا يعود (...)، عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب سئل عن التوبة النصوح؛ قال: أن يتوب.. من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبدا»[١١٩].

---

(١١٧) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج١، مصدر سابق، ص ١٠٢.
(١١٨) الطبراني: المعجم الكبير، مجلد ١٨، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، حديث رقم ٧٣، ص ٤٢.
(١١٩) الشوكاني: فتح القدير.. ج٥، ص ٣٣٧ - ٣٣٨، وقول عمر بن الخطاب رواه ابن جرير، وصححه الحاكم (٢/ ٤٩٥) ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الشعب، ط. دار الكتب العلمية (رقم ٧٠٣٤)، وأورده ابن حجر في المطالب العالية (رقم ٣٧٨٥) وعزاه لأحمد بن معين، وقال: إسناده صحيح موقوف، وتابعه البوصيري.

ويقول سيد قطب: «هذا هو الطريق.. توبة نصوح.. توبة تنصح القلب وتخلصه، ثم لا تغشه ولا تخدعه، توبة من الذنب والمعصية: تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي- عندئذ- تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها، وتحضه على العمل الصالح بعدها، فهذه هي التوبة النصوح، التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها، وتنصحه؛ فلا يعود إلى الذنوب»(١٢٠). وسيأتي بيان أوسع للتوبة النصوح، في الفقرة (د) بعد التالية، بإذن الله وتوفيقه.

جـ- تمام التوبة: يقظة، ومعرفة، وتطهير، والتزام للصيانة: (إجراءات ومداخل تربوية):

إذا أردنا تمام التوبة، وهي التوبة النصوح، فإن فعل ما سبق من معرفة، وندم، وقصد، وعزم، يستلزم إجراءات تربوية، يلزم ممارستها، ولا بد منها، وهي:

١- آلية التفقه في الذنوب، وتعلم ما يجب تركه، وما يجب فعله؛ تعلم سبيل المؤمنين، وسبيل المجرمين:

١-١: أي: تعلم منظومة القيم الإسلامية الملزمة، واجبة الفعل، ومنظومة القيم السلبية، واجبة الترك، وهذا شرط تربوي لتحقيق الاستقامة الخلقية، يقول أبو حامد: «ومن مهمات التائب- إذا لم يكن عالما- أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم، حتى يمكنه الاستقامة»(١٢١). وهذا مهم جدا، فالتوبة تعني: ترك الشيء؛ «ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة؛ كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا، فمعرفة الذنوب- إذن- واجبة، والذنب: عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله - تعالى- في ترك أو فعل»(١٢٢).

---

(١٢٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد السادس، ٢٠٠٢م، ص ٣٦١٨.
(١٢١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٣١.
(١٢٢) المصدر السابق، ص ٢٠٩٣.

ويوضح هذا ابن القيم فيقول: «الهداية التامة إلى الصراط المستقيم: لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها؛ فإن الأول: جهل ينافي الهدى، والثاني: غي ينافي قصده وإرادته، فكذلك: لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه، أولا وآخرا»(١٢٣).

ويبين المحاسبي هذا الأصل التربوي ونتيجته، بقوله: «ليس شيء أولى بالعبد- بعد معرفة الله- من معرفة ما يكره الله؛ وهو الذي نهاه عنه، وتقدم فيه بالوعيد والزجر والتحذير، ثم معرفة ما أحبه الله، وهو الذي أمر به، ورغب فيه، فأبلغ الأعمال إلى رضوان الله: مفارقة ما يكره الله، ثم مباشرة ما يحب الله- تعالى، وما رغب فيه؛ فانظر- يا أخي- إذا أصبحت، فلا يكن شيء أهم إليك من أن تميت خصلة تهواها نفسك؛ مما يكره الله- تعالى- فإنه يحيا لك- مكانها- خصلة مما يحب الله، ولك بعد ذلك، التضعيف من النور الساطع في قلبك، والفهم»(١٢٤).

١-٢: ومعرفة ما يكره الله وما يحرمه، هو معرفة وتبين سبيل المجرمين، وهذا ملمح أساسي في منهج التربية القرآني، إن هذا المنهج لا يعني ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين، فحسب، إنما يعني كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين- أيضا- إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق!.

«**إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله - سبحانه - ليتعامل مع النفوس البشرية.. ذلك أن الله**- سبحانه- يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر، والتأكد من أن هذا باطل

(١٢٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ١٣٧.
(١٢٤) المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ١٦٣، ١٦٤.

ممحض وشر خالص، وأن ذلك حق ممحض وخير خالص.. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على حق، ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل، وأنه يسلك سبيل المجرمين... إلخ»(١٢٥).

فمعرفة سبيل المجرمين وهي مخالفة شرع الله، وارتكاب ما يبغضه: عقديا وخلقيا- تنشئ في النفس إدراكا، ببطلان هذا السبيل، وشعورا قويا ببغضها، واندفاعا قويا نحو تركها، والتوبة منها.

١-٣: وهذه المعرفة، والاستبانة - التي تحدث الندم، وترك القلب ليبدأ حركة التصحيح الذاتي، هي نوعان متكاملان:

الأول: معرفة آثار المعاصي والذنوب في القلب والجوارح، وفي الدنيا والآخرة:

فهذه المعرفة اليقينية، التي يؤمن بها الإنسان، عامل تربوي فعال، يولد اليقظة والتنبه من رقدة الغفلة، وتوجه القلب للندم، وترك الذنب للتخلص من آثاره الخطرة، وهي تَعَقُّل لعاقبة المعاصي، واعتبار بَصِيرٍ لآثارها ونتائجها في الذات والمجتمع وحركة التاريخ.

والراغب المشتاق للتوبة يلزمه تعلم ذلك ليستبين سبيل المجرمين، ولهذا فصلها الله ورسوله، وأساتذة التربية القلبية، باعتبار تعلم واستبانة ذلك والتفكر فيه، آلية تربوية أساسية في تخلق المسلم بالتوبة، فالمحاسبي يقول: «واعلم- يا أخي- أن الذنوب تورث الغفلة، والغفلة تورث القسوة، والقسوة تورث البعد من الله، والبعد من الله يورث النار، وإنما يتفكر في هذا: الأحياء»(١٢٦).

---

(١٢٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد٢، ص ١١٠٥ وادرسه حتى ص ١١٠٧.

(١٢٦) المحاسبي: رسالة المسترشدين، مصدر سابق، ص ١٥٥.

وقد حلل ابن القيم آثار الذنوب في أكثر من مائة صفحة من كتابه المهم: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، وقد لخصها (أبو غدة) من قول ابن القيم- رحمه الله- يقول ابن القيم: «فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا بد، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟»(١٢٧).

وبعد أن ساق أحاديث وأخبارا كثيرة قال:

«وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، والمضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله:

فمنها: حرمان العلم، ومنها: حرمان الرزق، ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، والوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، ومنها: تعسير أموره عليه، ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة، ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن، ومنها: حرمان الطاعة، ومَحْق بركة العمر، ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، ومنها: أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية.. ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة، ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه، ويصغر في قلبه، ومنها: أن يحترق هو وغيره بشؤم الذنوب، ومنها: أنها تورثه الذل، وتفسد العقل، وإذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، وتدخل صاحبها تحت لعنة رسول الله ﷺ، وتحرمه دعوة رسول الله ﷺ، ودعوة الملائكة لمن امتثل أمر الله.

---

(١٢٧) ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، ص٦٥.

وهي: سبب لعقوبات البرزخ والآخرة، وتحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن، وتطفئ من القلب نار الغيرة، وتذهب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وتضعف في القلب تعظيم الرب، وتستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وتخرج العبد من دائرة الإحسان، وتحرمه ثواب المحسنين.

فهي سبب لفوات الخير، وتضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، وتعوقه، أو توقفه وتعطله عن السير، وتزيل النعم وتحل النقم، وتوجب إلقاء الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفا مرعوبا، وتوقع الوحشة العظيمة في القلب، وتصرفه عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فيصير القلب مريضا، أو ميتا، وتعمي البصيرة، وتطمس نور القلب، وتصغر النفس وتحقرها، وتدخله معتقل الشيطان وسجن الشهوات، وقيود الهوى، وتسقط جاهه وكرامته عند الله، وعند الخلق، وتؤثر في نقصان العقل، وتمحق بركة العلم والعمل والعمر، والرزق، وبركة الدين والدنيا، وتجعل صاحبها من السفلة، وتجرئ على صاحبها من لم يكن يتجرأ عليه، وتعمي القلب، وتضعفه أمام عدوه، وتنسي العبد نفسه، وتستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته، وتؤثر في القلب.

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله - سبحانه وتعالى - على الذنوب، وجوز وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه:

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والإقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وترك إرادة تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقا حرجا، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضا على مرضها،

وجعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطلق به، أعمى لا يراه، ومنها الخسف بالقلب، ومسخ القلب، وحجاب القلب عن الرب في الدنيا والآخرة، والخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة...إلخ»(١٢٨).

ودراسة هذا بالتفصيل- مع الإيمان، واليقين- تولد معرفة صادقة.. وبدورها تولد الندم، وتربي الإرادة الخيرة.. وقصد التدارك والإصلاح.

الثاني: معرفة الذنوب: من حيث درجاتها، وأنواعها، وما ورد في شرع الله عن كل منها:

فمن الذنوب: الذنب الأكبر: وهو الكفر والشرك، والذنوب التي هي كبائر، وهي المعاصي التي ثبت فيها الوعيد بالعذاب، أو باللعنة، أو قرر لها حد عقابي، أو نص الوحي على أنها كبيرة، وهي إما كبائر ومعاصي قلوب؛ مثل: الرياء، والكبر، والحسد، والغش القلبي، والغل، والحقد، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، ونية الشر والأذى لخلق الله،.. إلخ وهذا كله من (باطن الإثم) وإما كبائر ومعاصي الجوارح، مثل: الكذب، وأكل الربا، وشتم الناس، والزنى، والسرقة، وعقوق الوالدين، وإساءة الجوار، والفساد في الأرض، والظلم، والقسوة على المخلوقات، وشرب الخمر، والحشيش.. وغير ذلك من أجناس الذنوب، وهي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، بأنواعه، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم والعدوان، والفحشاء والمنكر والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين..

وهناك محقرات الذنوب اللاتي يجتمعن على العبد حتى يهلكنه، وهي الصغائر التي يحتقرها الإنسان، ولا يبالي بها، وتتحول إلى مهلكات، بالإصرار عليها والتتابع فيها.

---

(١٢٨) المصدر السابق، مختصرا من ص ٨٥ – ١٨٥، وما كتبه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في رسالة المسترشدين، للمحاسبي، مصدر سابق، هامش ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومُحَقِّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ضرب لهن مثلا؛ كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة (صحراء) فحضر صنيع القوم (الطعام يصنع) فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا، فأججوا نارا، وأنضجوا ما قذفوا فيها**»(١٢٩).

وأخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**»(١٣٠).

وأخرجه ابن أبي الدنيا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإن مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنتجوا خبزا لهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها يهلك**»(١٣١).

وأخرج أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله- عز وجل- طالبا**»(١٣٢).

---

(١٢٩) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٤، مصدر سابق، حديث رقم ٣٨١٨، ص ٤٦، ٤٧، وأشار إليه في: عمدة التفسير، ج١، وقال: وإسناده صحيح، ص ١١٩، هامش رقم (٢).

(١٣٠) قال ابن حجر في الفتح: أخرجه أحمد بسند حسن، انظر: ابن حجر: فتح الباري.. ج١١، ص ٣٢٩، وبينه وبين النص المثبت في المسند بعض اختلاف وبعض زيادة في الألفاظ، انظر: المسند، ج١٦، حديث رقم ٢٢٧٠٧، ص٤٣٣، قال محققه: إسناده صحيح.

(١٣١) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٣، ص ٢٠، ٢١، قال محققه: إسناده صحيح، ورواه أيضا برقم ٤٣، ص ٤٢ مع بعض اختلاف في الألفاظ.

(١٣٢) قال محقق المسند: إسناده صحيح، المسند، ج١٧، تحقيق: حمزة أحمد الزين، رقم ٢٤٢٩٦، ص٣٢٤، ٣٢٥.

ورواه ابن ماجه عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، إياك ومحقرات الأعمال؛ فإن لها من الله طالبا**»(١٣٣).

قال البخاري: «باب ما يتقى من محقرات الذنوب (...) عن أنس ﷺ قال: إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ: الموبقات. قال أبو عبد الله: يعني بذلك: المهلكات»(١٣٤).

قال في الفتح: «هي أدق.. إشارة إلى تحقيرها وتهوينها.. أي: تعملون أعمالا تحسبونها هينة، وهي عظيمة، أو تؤول إلى العِظَمِ، (...) وقال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كبارا، مع الإصرار، وقد أخرج أسد بن موسى عن أبي أيوب الأنصاري قال: إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها، وينسى المحقرات، فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة، فلا يزال منها شفقا، حتى يلقى الله آمنا»(١٣٥).

وقد روى ابن أبي الدنيا هذا الأثر عن أبي أيوب الأنصاري يقول: «إن الرجل ليعمل بالحسنة فيتكل عليها، ويعمل بالمحقرات حتى يأتي الله وقد أحطن به، وإن الرجل ليعمل بالسيئة فيفرق منها حتى يلقى الله آمنا»(١٣٦).

١-٤: وإنما بينت هذا لأن تربية التوبة لا تكون بدون تربية الندم، وهما لا يكونان بدون تربية التصور العقدي الإيماني الصحيح عن الذنوب، بحيث نعرف بدقة ماهية الذنوب وأنواعها، وآثارها في القلب والسلوك والحياة والتاريخ فإن معرفة ذلك باليقين، والإيمان به ينشئ داعية ترك الذنوب.

---

(١٣٣) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، مصدر سابق، حديث رقم ٣٤٤٠، ص ٣٨١، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات.. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج٣، رقم ١٥١٧، ص ٣٠٦.

(١٣٤) ابن حجر: فتح الباري.. ج١١، مصدر سابق، رقم ٦٤٩٢، ص ٣٣٩.

(١٣٥) المصدر السابق، ص ٣٣٠.

(١٣٦) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٢٠٨، ص ١٠٣، قال محققه: إسناده صحيح، أخرجه ابن المبارك، (١٦٣) في الزهد عن حيوة..إلخ.

فمدارسة ذلك واجب، وإجراء تربوي ضروري لاكتساب هـذه المعرفـة التي تولد اليقظـة والـصحوة العقليـة، وانتفاضـة القلـب وانتباهـة الـشعور، وحرقة القلب حرقة تؤجج نار الندم، فتحرق الـذنوب والمعـاصي في القلـب والجوارح.

والمدارسة لما سبق هي مدارسة ذاتية أولا، من خلال برنـامج تثقيـف ذاتي يدرس فيه التائب - إن شاء الله - كتاب ابن القيم: (الداء والـدواء، ويـسمى أيضا: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) وكتاب المحاسبي: (رسـالة المسترشدين) وكتاب الخرائطـي: (مـساوئ الأخـلاق ومـذمومها)، وكتـاب الحكيم الترمذي: (كتاب المنهيات) (مكتبة القرآن) وربع المهلكات من (إحياء علوم الدين) -بشرط التخلص من الأحاديث الضعيفة والموضـوعة- أو مـن (المستخلص في تزكية الأنفـس) لـسعيد حـوى، وبـاب التوبـة مـن (مـدارج السالكين) لابن القيم، وكتاب (التوبة إلى الله) ليوسف القرضـاوي، وأبـواب التوبة من كتـب الحـديث، و(المنتقـي مـن الترغيـب والترهيـب)، وصـحيح الترغيب، و(الزواجر عن اقتراف الكبائر) لابن حجر الهيثمي.

يدرس ذلك، أو بعضه، مفصلًا أو مختصرًا.. بالتفكر، والتأثر، والتـصديق اليقيني لآيات الله، وأحاديث النبي ﷺ وإجـراء ذلـك عـلى قلبـه، وافـتراض وقوع ذلك بالنفس، وماذا تفعل يوم لقاء الله؟

ومع المدارسة الذاتية، مدارسة جماعية، عـبر حلقـات المـساجد، والمنـازل، وعبر الاستماع لأشرطة، أو لمواعظ.. إلخ.

كل ذلك يولد معرفة مربية للتوبة في القلب، فإذا خطط لدورة تربوية عـن آثار الذنوب، وانتظم فيها عدد وراء عدد لمدة ثلاثة أيام.. يـدرس فيهـا آيـات القرآن عن الذنوب، ويصلى بها، وتفسر في حلقة تفسير، وتدرس فيهـا بعـض الأحاديث الصحيحة عن الذنوب، وملخصا لتحليـل ابـن القـيم المهـم عـن

ذلك، وتختم باستغفار، وتجديد للتوبة – لكان ذلك عاملا تربويا مؤثرا بمعطياته وروحه وجوه.

١-٥: إن ذلك هو الذي يشكل (البداية المحرقة)، وحُسْن ابتداء السير إلى الله، وسلامته؛ إذ إنه«من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة». وهذه هي القَوْمَة التي ذكرها الأستاذ أبو علي الدقاق: «من لم يكن له في بدايته قومة؛ لم يكن له في نهايته جلسة»(١٣٧)، يقصد بالقومة: القيام على النفس بالمجاهدة، ولن تكون له قومة حتى يكون له معرفة بآثار الذنوب وأنواعها، وهذه هي الأوائل التي تفني حب الذنب من القلب، وتحرقه، تقول أم الحسين القرشية: «من لم تكن له أوائل تفنيه، لم تكن له أواخر تبقيه»(١٣٨).

فهذه الدروس هي دروس التفقه في الذنوب، لمعرفة سبيل المجرمين، لنقوم على أنفسنا قومة الفرسان، نزهق بها نفوس الذنوب الخبيثة.

وذلك لأن المسلم إذا علم أن الذنوب تبعده عن الله، وتحجبه عنه، وتقسي قلبه،... إلخ فإن هذا العلم يثمر تألم القلب، وتوجعه، فيندم، فيرجع عن الذنوب، إلى طاعة الله، لله، لينال رضاه، فيفلح.

٢- آلية التوهم والاستشعار؛ تصور الذنب وعاقبته في مخيلته وقلبه، وشعوره به:

أي: أن يتصور الذنب ونتيجته، في مخيلته، وفي قلبه، ويتمثله، ويجعله بين عينيه، ويشعر قلبه آثار ارتكابه، ويستعظمه، ويتخيل ما يحدث له؛ بسبب هذا الذنب الذي يراه، ويتخيل آثاره، ويعتبر مآله عند الموت، وفي القبر، ويوم الحساب، الذي هو يوم الدينونة، ويشتغل بالتفكر في ذلك، ومحاسبة نفسه عليه، ومراجعة ذاته، بناء على ذلك التصور والمحاسبة، فيا لها من وسيلة

---

(١٣٧) أبو القاسم القشيري: الرسالة، مصدر سابق، ص ٥٢.

(١٣٨) أبو عبد الرحمن السلمي: ذكر النسوة المتعبدات...، مصدر سابق، ترجمة رقم ٨٠، ص ١٢٠.

تربوية ذاتية، أو جماعية منتجة لتغيير السلوك البشري، يقول الغزالي: «تصور الذنب وذكره، والتفجع عليه، كمال في حق المبتدئ»(١٣٩). أقول: وفي حق السائر إلى الله كذلك؛ فما يُؤَمِّنُ المسلمَ؟ أليس يقول الله - تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقد أشار ابن مسعود - فيما أخرجه البخاري وأحمد - إلى أن هذا التصور، وهذه الرؤية للذنب، خاصية مميزة للمؤمن: التصور والشعور العميق بخطورة الذنب وآثاره، أخرج البخاري عن الحارث بن سويد «حدثنا عبد الله ابن مسعود حديثين؛ أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا- قال أبو شهاب- بيده فوق أنفه.. الحديث»(١٤٠)، يعني: نحاه بيده، أو دفعه. قال ابن بطال: «يؤخذ منه: أنه ينبغي أن يكون المؤمن عظيم الخوف من الله - تعالى - من كل ذنب، صغيرا كان أو كبيرا»(١٤١).

وخوف الذنب إنما يكون بعد تصوره، ومعرفة آثاره، والتيقن فيها، والشعور بها، وتوهم أنها تحدث للنفس، وأن الله يحاسبه عليها، فإذا استمر خوف الذنب في القلب، حتى حلول الأجل، مع وجود الرجاء في رحمة الله، فإن الله يعطيه ما يرجو، ويؤمنه مما يخاف.

أخرج ابن ماجه عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟»قال: أرجو الله، يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال

---

(١٣٩) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٣٦.
(١٤٠) ابن حجر: فتح الباري.. ج١١، حديث رقم ٦٣٠٨، ص ١٠٢، وأخرجه أحمد بثلاثة أسانيد صحاح، المسند، ج٣، أرقام ٣٦٢٧، ٣٦٢٨، ٣٦٢٩، ص ٥١٩، ٥٢٠، وأخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ انظر: أبا عيسى محمد بن عيسى بن سورة (الترمذي): سنن الترمذي، ج٤، حديث رقم ٢٥٠٥، ص ٢٢٤، وروى مثله ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٤، ص٢٦.
(١٤١) ابن حجر: فتح الباري،.. ج١١، مصدر سابق، ص ١٠٦.

رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف**»(١٤٢).

وهذا التصور والتخيل، والتمثل، والاستشعار يمكن أن يكون فرديا، بعد دراسة كل ذنب وآثاره، أو عند خطور ذنب على القلب، أو عند برنامج الدراسة في الآلية الأولى، مصاحبا لكل درس، أو دورة، حيث يترك ربع ساعة - مثلا - ليتمثل كل مشارك الذنب وآثاره وخطورته عليه.. وهكذا.. ثم تأمل في قول علي بن فضيل (ثقة، عابد): ويحي من يوم ليس كالأيام، ثم قال: أوه، كم من نتيجة تكشفها القيامة غدًا(١٤٣).

٣- آلية المحو: ممارسة فعل الحسنات لتدعيم ترك الذنب ومحو أثره:

٣-١ : إذا عرف الإنسان خطورة الذنب، وتصور نتائجه، وأشعرها قلبه، واستعظمها، فإنه ينبعث إلى فعل التوبة، وممارسة فعل الحسنات، فالذي يريد تمام التوبة؛ يمارس – على الفور – أفعال الطاعات التي يحبها الله؛ ليمحو السيئة، وآثارها من القلب، «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**».

وهذه الممارسة للحسنات هي تربية خلقية للقلب والنفس بالتعويد والانخراط المباشر في العمل، فتعلم السباحة هو بممارسة السباحة، وتعلم الكتابة هو بممارسة الكتابة، وتعلم الحب هو بممارسة الحب، وتعلم أي عمل صالح هو بممارسته، فيحدث للطاعة وحب الحسنات وفعل الخير، وإرادته رسوخ في القلب، فيشرق فيه نور الهداية الذي يمحو الظلمة، وسواد المعصية.

وهذا الأصل مبني على حديث نبوي صحيح: أخرج أحمد عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس**

---

(١٤٢) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، مصدر سابق، حديث رقم ٣٤٥٥، ص ٣٨٥.

(١٤٣) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٧١، ص ٥٣ قال محققه: إسناده حسن.

بخلق حسن»(١٤٤).

وأخرجه عنه بلفظ: «**اتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة فاعمل حسنة تمحها**»(١٤٥).

وأخرجه الترمذي بنص رواية أحمد الأولى، وقال: هذا حديث حسن صحيح(١٤٦).

فمن أراد أن يمحو الذنب- السيئة- وأن يزيل آثاره، فعليه أن يتبع هذا الذنب بفعل حسنة من جنسها أو حسنة عامة، مثل أن يستغفر، أو يصلي، أو ينتظر الصلاة بعد الصلاة، أو يصوم، أو ينفق على يتيم، أو يسعى في حاجة محتاج حتى يقضيها له، أو يصل رحمه، أو يزيل الأذى عن الطريق... إلخ.

٣-٢: ومن ضمن شروح كثيرة لهذا الحديث(١٤٧) نقتبس من شرح الشيخ حسن البنا له، يقول: «**اتق الله حيثما كنت!**»: خف الله- تبارك وتعالى- وراقبه، واجعل بينك وبين غضبه حاجزا، حتى لا تتعدى حدوده، ولا تتخطى أوامره، ولا ترتكب ما نهى عنه، فيحل عليك بذلك غضبه (...) واجعل هذه التقوى وهذه المراقبة صفتك اللازمة في أي مكان، وفي أي زمان، وفي أي عمل»، (.. ثم بعد بيانه الدقيق لمفهوم التقوى ومنبعها،) قال: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**» في الجملة الأولى: أمرنا بالتقوى، والتقوى - كما عرفت، عاطفة نفسية تترقى في النفس، وتنمو بدوام المعرفة، وإنما يكون ذلك عن جهاد النفس، وكفها عن الشرور، وتوجيهها إلى الخيرات، والإنسان في هذه

---

(١٤٤) إسناده صحيح، المسند، ج١٥، حديث رقم ٢١٢٥١، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(١٤٥) إسناده صحيح، المسند، ج١٦، مصدر سابق، حديث رقم ٢١٤٢٨، ص ١٤.

(١٤٦) سنن الترمذي، ج٣، حديث رقم ١٩٩٤، ص ٣٩٧ – ٣٩٨.

(١٤٧) انظر، وادرس الشرح الممتاز لهذا الحديث في: ابن رجب البغدادي: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجى، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، الحديث رقم ١٨، ص ١٨٩ – ٢٢١.

الحال، في حرب مع نوازع الشر في نفسه، وفي مصادمة لعوامل الإثم، ودواعي الشهوات، والحرب - كما يقولون - سجال، يوم لك، ويوم عليك، لهذا أرشدنا الرسول الأعظم، والهادي الأكرم رسول الله، إلى أفضل الوسائل إلى النصر (...) ووضع لذلك قاعدة عامة؛ تلك هي: أن يبادر الإنسان إلى الخيرات إذا أحس بوقوعه في السيئات، فإذا فعل ذلك محا الله إثم السيئة وعارها، وأذهب من قلبه أثرها وأثابه على ما قدم من حسنة، فإذا ثابر على تلك الخطة القويمة، والطريقة الحكيمة، في مجاهدة نفسه؛ أنتجت هذه المثابرة قوة في العزيمة، ومحت من نفسه صفة الضعف، فطهرت بذلك نفسه، وقضى على صفات الشر فيها، فيكون المحو - حينئذ- محوين: محو الأثر والعقوبة، ومحو الصفة والتخلق، وألست ترى في هذه القاعدة إلماما معجبا بما يقول أحدث علماء النفس في قوانين تكوين العادات؟

والناس في هذا أقسام أربعة:

قسم، إذا كَبَتْ به نَفْسُه، وزَلَّتْ قدمُه، وهَوَتْ به نوازع الشر؛ فتورط في العصيان؛ استحلى ذلك، واستعذبه، وأقام عليه، وأخذ في أسبابه، فأولئك هلكوا، والعياذ بالله، وباؤوا بالخسران المبين (...).

وقسم تجمح به شهواته؛ فيظلم نفسه بمقارنة العصيان، فإذا استشعر ذلك؛ استشعر معه ندما يملأ أقطار نفسه، وهَمًّا يأخذ بنياط قلبه، فيذكر رحمة الله التي وسعت كل شيء، فيلجأ إلى مولاه تائبا من ذنبه، نادما على فعلته، فتكون تلك حسنة تمحي بها سيئته، وتقوى بها على الخير نفسه، ويستحق بها فضل الله وكرمه جميل المثوبة (...).

وقسم ثالث: تنصهر نفسه بلهيب هذا الندم؛ فيحذر المعصية، ويمقتها، ويخاف من شجها، ويهرب من دواعيها ووسائلها، فإذا برقت له بوارقها، وازينت أمامه مواطنها؛ ذكر رقابة الله عليه، واستحضر ذنبه السابق، وتمثل

ندمه المُمِضَّ، فنجا بنفسه، وهرب من فوره، وفر إلى الله، ونعم المولى ونعم النصير (...).

وقسم رابع: دامت به هذه المراقبة، وصارت طبيعة تلازمه، وسجية لا تفارقه، فحجزته عن المعاصي، وحالت بينه وبين المخالفات، وحفظته حفظا أحاط بكل جوانبه، ولعل أولئك الذين أشارت إليهم الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥] (...).

وحسبي أن أقول لك: ليس من مراتب أهل الإيمان: القسم الأول: وأول مراتبهم القسم الثاني: وهذه الأقسام يتصل بعضها ببعض في طريق الجهاد النفسي والتربية الروحية، فإذا كنت من أبناء القسم الثاني: فأدم ذكر الله، ومراقبته: لترقى إلى القسم الثالث، فإذا كنت من أهله؛ فأدم ذلك لترقى في مدارج القسم الرابع؛ وحينئذ تكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. إلخ [١٤٨].

٣-٣: ويضيف القرضاوي قاعدة مهمة (سلوك طريق المضادة)، فبعد تقرير أن الأفعال تصدر عن القلوب، وتتأثر بها؛ فإذا فعل سيئة فقد تمكن في القلب اختيارها، فإذا أتبعها حسنة، نشأت عن اختيار في القلب، فتمحو ذلك، قال القرضاوي: «وأفضل ما تكون الحسنة بعد السيئة إذا كانت من جنسها؛ فمن كانت سيئته الغيبة لشخص معين؛ فالحسنة ينبغي أن تكون مدحه أمام من اغتابه، عنده، أو الاستغفار له من الله، ومن كانت سيئته السخرية بالناس؛ فلتكن حسنته توقيرهم، وإكرامهم، وذكرهم بخير، ومن كانت سيئته قراءة كتب السوء، فلتكن حسنته قراءة القرآن، وكتب الحديث، وعلوم الإسلام، ومن كانت سيئته عقوق الوالدين فلتكن حسنته المبالغة في برهما وإكرامهما،

---

(١٤٨) حسن البنا: من تراث الإمام حسن البنا، الكتاب الأول؛ العقيدة والحديث، ص ٢٤٨ - ٢٥٤ وقد اختصرته، فارجع لهذا الشرح، فإنه مهم.

والإحسان إليهما، وخصوصا في حالة الكبر (...)، ومن كانت سيئته العمل في الصحافة المعادية للإسلام ودعاته، فلتكن حسنته العمل في الصحافة المضادة لها، بنشر الخبر الصادق، والرأي السديد، ومن كانت سيئته تأليف الكتب المضللة الداعية إلى المنكر في القول والعمل، والمحرضة على إثارة الشبهات في الفكر، والشهوات في السلوك، فلتكن حسنته تأليف كتب مناقضة لها في الاتجاه، داعية إلى الخير(...) ومن كانت سيئته ظلم الناس والعدوان على الضعفاء وعلى حرماتهم، وحقوقهم المادية والأدبية، فلتكن حسنته الحرص على إقامة العدل، وإنصاف المظلومين، والوقوف بجانب المستضعفين، والدفاع عنهم، ورد ما أمكن من الحقوق إليهم (...) وهكذا ينبغي أن تكون الحسنة التي يمحو بها التائب سيئته- ما استطاع- مناقضة لها، مزيلة لأثرها، مطهرة للنفس من رواسبها؛ وذلك بسلوك طريق المضادة..إلخ(١٤٩).

٣-٤: والحسنات الماحية للسيئات، تكون: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالجوارح الأخرى، وتكون: إما بين العبد وربه، أو تكون منفعتها متعدية لخلق الله تعالى؛ يقول الغزالي:

«فأما بالقلب: فليكفره (يعني: الذنب) بالتضرع إلى الله - تعالى- في سؤال المغفرة والعفو، ويتذلل، (...) وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين، والعزم على الطاعات.

وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم، والاستغفار (...) وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات، وأنواع العبادات (...) فعلى الأحوال كلها: ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع سيئاته، ويجتهد في دفعها بالحسنات»(١٥٠).

---

(١٤٩) يوسف القرضاوي: التوبة إلى الله، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص٦٢ ، ٦٣.

(١٥٠) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٤٤ – ٢١٤٦.

وتأمل في المثل الذي ضربه النبي محمد ﷺ لمن يعمل الحسنات بعد السيئات؛ عن عقبة بن عامر؛ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذي يعمل السيئات، ويعمل الحسنات: كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة، قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل أخرى، فانفكت أخرى، حتى يخرج إلى الأرض**»(١٥١). فالحسنة تحرر المسلم وتطلقه في العالم.

وأذكر هنا حديثين عن أبي ذر، قال: قيل: يا رسول الله ﷺ، ذهب أهل الدُّثُورِ (الأغنياء) بالأجور، يُصَلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال: «**أو ليس قد جعل الله لكم ما تَصَدَّقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وبكل تكبيرة صدقة، وبكل تهليلة صدقة، وبكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بُضْعِ أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ فقال: «**أرأيتم لو وضعها في الحرام، أليس كان يكون عليه وزر، أو: الوزر؟**» قالوا: بلى، قال: «**فكذلك، إذا وضعها في الحلال يكون له الأجر**»(١٥٢).

وأخرج أحمد عن أبي ذر(١٥٣): قلت: يا رسول الله، من أين أتصدق، وليس لنا أموال؟ قال: «**لأنَّ من أبواب الصدقة: التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس، والعظم والحجر، وتهدي الأعمى، وتسمع الأصم، والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل**

---

(١٥١) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٣٧، ص ٧٨ – ٧٩، قال محققه إسناده صحيح..إلخ.

(١٥٢) أخرجه أحمد بإسناد صحيح، المسند، ج١٥، رقم ٢١٣٧٤، ص ٥٤١ – ٥٤٢، ورواه مسلم.

(١٥٣) أخرجه أحمد، المسند، ج١٥، رقم ٢١٣٧٦، ص ٥٤٢، وفي سماع أبي سلام من أبي ذر كلام، ولكن يشهد له الحديث السابق، «فائدة: تأمل في قول الحسن البصري: (يقول أحدهم: أحج، أحج، قد حججت صل رحما، نَفِّس عن مغموم، أحسن إلى جار)»، أخرجه أحمد في الزهد، ص٢٥٠.

ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك، ولـك في جماعـك زوجتـك أجـر» الحديث.

فـالنبي ﷺ يفجـر في قلـب التائـب ينـابيع الخـير، في كـل اتجـاه، ليفعـل الحسنات، ويمحو بها السيئات، فهل من متسابق، وهل من مشمر؟!

إذن، آلية المحو هي تربية بتعود فعل الخير لمحو حب الـذنب، وأثـره، مـن القلب، وللتخلق بالخلق الصالح.

٤- آلية الالتزام: أن يلتزم بعلامات التوبة الصحيحة:

هذا هو الركن الرابع لتحقيق تمام التوبة، وقد بينه ابـن القـيم في المـدارج؛ قال: «فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات: منها: أن يكون بعد التوبة خـيرا مما كان قبلها، ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبا له، لا يـأمن مكـر الله طرفـة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسـل لقـبض روحـه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخـوف. ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه؛ ندما وخوفا.. وهذا حقيقة التوبة؛ لأنـه ينقطـع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفا سوء عاقبته.

ومن موجبات التوبة الصحيحة - أيضا - كِسْرَةٌ خاصة تحصل للقلب، لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حـب مجرد، وإنما هي أمر وراء ذلك كله، تكسر القلب بين يدي الرب كـسرة تامـة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألْقَتْه بين يدي ربه، ذليلا خاشعا كسرة وذلـة وخضوع، ما أنفعها للعبد! وما أجدى عائدتها عليه، ! وما أعظـم جـبره بهـا! وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزتك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك وفقري إليك، هذه ناصيتي، الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سـواي كثـير،

وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

فهذا وأمثاله، من آثار التوبة المقبولة.

فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها»(١٥٤).

إذن، يتبين لنا أن التوبة التامة عملية تطهير، وتغيير خلقي، مستمرة، إنها آلية أساسية في تربية شخصية المسلم الحق، وهي - في نفس الوقت - قيمة ملزمة، ولإدراك ذلك بوعي صحيح نعقد الفقرة الآتية، فتحصيل ذلك شرط تربوي لممارسة التوبة.

د- التوبة النصوح قيمة ملزمة؛ على الفور، والعموم، والدوام:

ليست التوبة أسلوبا لمحو السواد والران الناتج عن الذنب، في القلب، فقط، بل هي - كما رأينا - عملية تغيير شاملة للنفس الإنسانية، وهي قيمة ملزمة فورا، ودائما، وعلى العموم.

١ - فالتوبة قيمة واجبة ملزمة، بجميع أركانها وشروطها، وعلاماتها السابقة؛ لأن الله أمر بها، وعلق الفلاح على فعلها، ولأن الرسول ﷺ أمر بها، فهي واجبة بنص القرآن، وبنص الحديث الصحيح، فالله التواب الرحيم يأمر بها، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

يقول ابن القيم: «علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجي؛ إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا

(١٥٤) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ١٤٢، ١٤٣.

يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم»(١٥٥).

ويقول تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، فالله- تعالى- قسم العباد إلى تائب وظالم؛ وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه، وبحقه، وبعيب نفسه، وآفات أعماله(١٥٦).

ويقول ربنا - جل وعز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨]، فهذا أمر ملزم من الله- تعالى - لكل مؤمن أن يتوب إليه توبة نصوحا، وعلق تكفير السيئات وإدخال الجنات على تحقيق النصح في التوبة.

فالتوبة النصوح واجبة، فما معنى النصوح؟

٢- ذكرنا في نهاية الفقرة قبل السابقة تحليلا مختصرا يرتبط بالسياق هناك، وهنا نستكمل تحليل هذا المفهوم الأساسي.

يشتمل معنى النصح - هنا - على أربعة معان، يقول ابن منظور: «نَصَحَ الشيءُ: خلص، والناصح: الخالص،.. وكل شيء خَلَصَ: فقد نصح (...) وأصل النُّصْح: الخُلُوص.. ورجل ناصح الجيب: نَقِيُّ الصدر، ناصح القلب: لا غش فيه»(١٥٧).

فالمعنى الأول للنَّصُوح: الخلاص والنقاء من أي شيء، أو عيب، أو فساد، أو رجوع إلى الذنب، فهي توبة خالصة لله، لا رياء فيها، ولا رجوع عنها.

فنصحت التوبة، أي: خلصت لله، وهي على وزن فعول، وهي صيغة مبالغة، تقع على الذكر والأنثى، «فكأن الإنسان بالغ في نصح نفسه بها»(١٥٨).

---

(١٥٥) المصدر السابق، ص ١٣٦.
(١٥٦) نفس المصدر السابق، ص ١٣٧.
(١٥٧) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص ٤٤٣٨.
(١٥٨) المصدر السابق، ص ٤٤٣٨.

ويقول ابن منظور: «والنُّصْح: نقيض الغش»[١٥٩].

فالتوبة النصوح هي: التوبة الخالصة من الغش والزيف والكذب، وهذا يتطابق مع ما قاله أبو زيد: «نَصَحْتُه؛ أي: صدقته، ومنه التوبة النصوح: وهي الصادقة»[١٦٠]. وفي البخاري: «قال قتادة: توبة نصوحا: الصادقة، الناصحة»[١٦١].

وقال في مدارج السالكين[١٦٢]: «والنصوح: على وزن فعول، المعدول به عن (فاعل) ؛ قصدا للمبالغة كالشكور والصبور، وأصل مادة (ن- ص- ح)، لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة (...) فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح: ضد الغش» هذا هو **المعنى الثاني للنصح**.

أما المعنى الثالث: فهو الإحكام، ورتق المنقطع، ورَفْو المتمزق، تقول: نَصَحْتُ الجلدَ: خطْتَهُ، والناصح: الخياط، والنِّصَاح: الخيط [١٦٣]. وقال ابن منظور: «والنصح: مصدر قولك: نصحت الثوب: إذا خطته، قال الجوهري: ومنه التوبة النَّصُوح.. ونَصَحَ الثوبَ والقميصَ، يَنْصَحه نُصْحًا: خاطه»[١٦٤].

فالتوبة النصوح: هي التوبة المحكمة، التي لا قطع فيها ولا تمزق، وهي التي تلم شعث التائب، وتخيط ما تمزق من إيمانه، وتجبر ما انكسر في قلبه، وتجمع شظاياه؛ إذ إنه لما عصى الله؛ تَشَظَّى، وتبعثر، وانشطر، فلما تاب؛ توحد وتجمع، وأصبح كائنا إنسانيا متوحدا منسجما، متكاملا، له وجهة واحدة، هي العمل برضا الله وحده.

---

(١٥٩) المصدر السابق نفسه.

(١٦٠) المصدر السابق، ص ٤٤٣٩، وهو بنصه في: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٥، ص ٦٣.

(١٦١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١١، مصدر سابق، ص ١٠٢.

(١٦٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين.. ج١، مصدر سابق، ص ٢٣٢ – ٢٣٣.

(١٦٣) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٤٩٤.

(١٦٤) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، مصدر سابق، ص ٤٤٣٩.

والمعنى الرابع للنُّصْح؛ من قولهم: أرض مَنْصُوحَة، وهي الأرض المتصلة النبات بعضه ببعض، فلم يكن فيه فضاء ولا خلل، ومن هذا المعنى: نَصَحَ الغيثُ الأرضَ: جعل نباتها نَضِرًا متصلا، حيث جادها الغيث ورواها، ومنه قولهم: نَصَحَ الرجلُ الرِّيَّ نَصْحًا؛ إذا شرب حتى رَوِي(١٦٥).

فالتوبة النصوح هي: التوبة الدائمة الخضرة والنضارة، فتروي ظمأ القلب لمعرفة الله، وطاعة أمره، وتجعل الإيمان في القلب غضا طريا، مخضوضرا، مثمرا، دون انقطاع.

وقد قدمنا **معنى خامسا** هو: أنها تنصح القلب، أي: أنها قويت وصحت في القلب حتى تحولت إلى ضمير حي، فعال، يقوم بالنُّصْح والإرشاد والرقابة من داخل الإنسان.

٣- وما قرره المفسرون والفقهاء كثير طيب نقتبس منه ما يتعلق بموضوعنا قال ابن كثير: «أي: توبة صادقة، جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب، وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات»(١٦٦).

ثم نقل قول الحسن في التوبة النصوح، ونقل ابن مفلح قولا للحسن البصري يحددها بقوله: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار ألا يعود(١٦٧) أي: أن ينوي ويعزم في قلبه ألا يعود للذنب.

وفي فتح الباري: «وحكى القرطبي المفسر أنه اجتمع له من أقوال العلماء في تفسير التوبة النصوح ثلاثة وعشرون قولا: **الأول**: قول عمر: أن يذنب الذنب ثم لا يرجع: وفي لفظ: ثم لا يعود فيه، أخرجه الطبري بسند صحيح عن ابن مسعود، مثله (...) **الثاني**: أن يبغض الذنب، ويستغفر منه كلما ذكره،..

---

(١٦٥) المصدر السابق نفسه.

(١٦٦) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٣٩١.

(١٦٧) ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج١، مصدر سابق، ص ٨٧.

الثالث: قول قتادة، المذكور قبل، **الرابع**: أن يخلص فيها، **الخامس**: أن يصير من عدم قبولها على وجل، **السادس**: ألا يحتاج معها إلى توبة أخرى، **السابع**: أن يشتمل على خوف ورجاء، ويدمن الطاعة، **الثامن**: مثله، وزاد: أن يهاجر من أعانه عليه، **التاسع**: أن يكون ذنبه بين عينيه، **العاشر**:.. ثم سرد بقية الأقوال، بعبارات مختلفة، ومعان مجتمعة، ترجع إلى ما تقدم وجميع ذلك من المكملات، لا من شرائط الصحة»(١٦٨).

٤- وكلام ابن القيم التالي يحتاج إلى تركيز عقل، وانتباه، واهتمام عاطفي أكثر، يقول:

«النصح في التوبة: يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب، واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم، ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته، مبادرا إليها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله - عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، **والثالث**: يتعلق بمن يتوب إليه، **والأوسط**: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة: الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها.

---

(١٦٨) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١١، مصدر سابق، ص ١٠٤.

ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار، وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة.. والله المستعان»(١٦٩).

٥- هذه التوبة النصوح، واجبة، ملزمة كما هو مقتضى الأمر الإلهي بها، والأمر النبوي: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة**»(١٧٠)، وإذا كان النبي ﷺ يتوب في اليوم - إلى الله - مائة مرة، فنحن «إلى الاستغفار والتوبة أحوج»(١٧١).

٦- وإذا تحقق الإنسان بالتوبة، واتصف بها أحبه الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفرح الله به (فرحة) إحسان، وبر، ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها(١٧٢).

أخرج البخاري ومسلم- واللفظ لمسلم- عن الحارث بن سويد؛ قال: دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض، فحدثنا بحديثين؛ حديثا عن نفسه، وحديثا عن رسول الله : قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية** (صحراء، فلاة) **مهلكة** (تهلك سالكها بغير زاد ولا ماء ولا راحلة)، **معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام، فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، وعليها زاده، وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**»(١٧٣).

---

(١٦٩) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ج١، مصدر سابق، ص ٢٣٣.

(١٧٠) رواه مسلم عن الأغر المزني، صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٧، مصدر سابق، ص ٢٤.

(١٧١) المصدر السابق، ص ٢٥، وانظر في وجوب التوبة وضرورتها: يوسف القرضاوي: التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص ١٣ – ٢٢، ص ٣٨، ٣٩.

(١٧٢) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ج١، مصدر سابق، ص ١٤٩.

(١٧٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، مصدر سابق، رقم ٢٧٤٤، ص ٢٤٢، ٢٤٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١١، مصدر سابق، رقم ٦٣٠٨، ص ١٠٢، وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي، ج٤، حديث رقم ٢٥٠٦، ص ٢٤٤.

وأخرج مسلم عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف تقولون بفرح رجل انفلتت منه راحلته، تجر زمامها بأرض قَفْرٍ، ليس بها طعام ولا شراب، وعليها له طعام وشراب، فطلبها حتى شَقَّ عليه، ثم مرت بَجِذْلِ شجرة فتعلق زمامها، فوجدها متعلقة به؟**» قلنا: شديدًا يا رسول الله، فقال رسول الله: «**أما والله، لله أشد فرحا بتوبة عبده من الرجل براحلته**»(١٧٤).

وأخرج مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحا بتوبة عبده، حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك؛ إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»(١٧٥).

إن إدراك المسلم، وإيمانه بذلك، وتذوقه الوجداني له، يحرك في قلبه داعية التوبة.. ويدفعه – بحب ورغبة – للتخلق بها، ولهذا فإن عقد دروس وندوات وخطب، ومحاضرات، ودورات لإكساب المسلم هذه الحقائق، هو أمر واجب.

٧- فالتوبة : «فرض لازم؛ على كل من علم من نفسه مخالفة لله تعالى، صغرت أو كبرت، وهي من جملة أمهات الفرائض اللازمة (...) والتوبة نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة»(١٧٦).

وهي واجبة على الفور، وواجبة في عموم الذنوب، يقول ابن القيم: «إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها؛ عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب؛ بقي عليه توبة أخرى؛ وهي

---

(١٧٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، مصدر سابق، رقم ٢٧٤٦، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

(١٧٥) المصدر السابق، رقم ٢٧٤٧، ص ٢٤٥ – ٢٤٦.

(١٧٦) المصدر السابق، ص ٢٤٢.

توبته من تأخير التوبة، وقَلَّ أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه، ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله- إذا كان متمكنا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد، وفي صحيح ابن حبان: أن النبي ﷺ قال: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل**»، فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: «**أن تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**».

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه كان يدعو في صلاته: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطأي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني..**»، وفي الحديث الآخر: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، خطأه وعمده، سره وعلانيته، أوله وآخره..**» فهذا التعميم وهذا الشمول؛ لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه، وما لم يعلمه(١٧٧).

٨- والتوبة (واجبة على الدوام) وفي كل حال؛ لأن الإنسان - في الغالب- لا يخلو من معصية بجوارحه، أو عن هم القلب بمعصية، أو عن وسوسة شيطان يلقي خاطر سوء يذهل القلب عن ذكر الله، أو لا يخلو عن غفلة، أو قصور في معرفة الله.. وكل ذلك يجب الرجوع عنه إلى الله، والتوبة هي ترك هذا القصور، والرجوع عنه إلى الله، لله، رجوعا يمحو الذنب.

وإذا كان كل ذنب- صغر أو كبر- ينتج ظلمة أو سوادا في القلب، وإذا كان

---

(١٧٧) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

الموت يأتي ولا يعلم الإنسان متى يأتيه، ولا أين، ولا كيف؟ فإن التوبة واجبة على الفور، حتى يضمن الإنسان أن يموت منيبا، فيرجع إلى الله طيبا نظيفا، عاملا بهذه الآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، «ومعناه: عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها، ويمحو أثرها، بحسنة يردفها بها، قبل أن يتراكم الرين على القلب، فلا يقبل المحو (...) قال لقمان لابنه: يا بني، لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف؛ كان بين خطرين عظيمين: **أحدهما**: أن تتراكم الظلمة على قلبه؛ من المعاصي، حتى يصير رينا وطبعا، فلا يقبل المحو، **الثاني**: أن يعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو.. فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب؛ نقدا، وجلاؤه بالطاعة نسيئة؛ إلى أن يختطفه الموت، فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم»(١٧٨).

٩- هذه هي التوبة: قيمة.. إذا تحقق بها المذنب، صقل الله قلبه وجلاه، وسلمه، وعافاه، وأصلح باطنه، وظاهره، إنها منهجية للتغيير الشامل من العمق، من القلب.

هـ- الأساليب التربوية لاكتساب قيمة التوبة:

إذا كانت التوبة بهذه المكانة العظيمة في تجديد القلب، وتغيير السلوك الإنساني، فإن سؤالنا الآن هو: كيف نكتسب قيمة التوبة؟ ما الأساليب التربوية التي إذا مارسناها اكتسبنا التوبة، وتخلقنا بها- بكل حقائقها السابقة؟

إن مبادئ تربية أية قيمة هي: معرفة القيمة وإدراكها بوضوح، واقتناع – الإيمان بذلك، والتصديق اليقيني، محبة القيمة وعشقها والاتجاه النفسي نحوها، وإرادتها، واختيارها، وفعلها، وممارستها للتعود عليها، توفر بيئة مساعدة؛ ثقافيا واجتماعيا، على الالتزام بها.

---

(١٧٨) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢٠٨٧ ، ٢٠٨٨.

والأساليب الآتية هي بيان وتحقيق لهذه المبادئ، ونقدم لها بنص ملهم لسيد قطب عن طبيعة التربية يقول:

«والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثر وانفعال، بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع، والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة، بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد، إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج في مراقيه، رويدا رويدا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئا فشيئا، فلا تَجْفُل (تشرد) منه، كما تَجْفُل لو قدم لها ضخما ثقيلا عسيرا، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية، فتصبح في اليوم التالي أكثر استعدادا للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها، والتلذاذ بها»(١٧٩).

فالتربية كلمة وبلاغ وتعليم وإشعاع سلوكي، يتلقاه من يتربى باستماع، وفهم، وتأثر وانفعال، فيؤدي إلى حركة تحول، في الضمير والواقع، تحول عملي، ورغبة في التنفيذ، والتكيف وفق ما تعلمه، وتلقاه.

بعد هذا البيان الموجز يتبين آليات تربية القلب التائب المصقول.

١ - آلية التنبه والتيقظ العقلي والقلبي، لخطورة الذنوب:

مما يؤدي إلى (الشعور) بعظمة الجناية والذنب، في نفسه، فإنه إذا استهان بها، لم يندم عليها، وعلى قدر الشعور بخطورتها؛ يكون ندمه على ارتكابها: «وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر، والتصديق بالجزاء»(١٨٠).

إذن يتوجب عقديا وتربويا، أن نحصل اليقين، وهو الإيمان الجازم المبني على معرفة صادقة مبرهن عليها بما لا يقبل الشك، أن نحصل اليقين بخطورة وعظم الذنوب، واليقين بعظمة الله الذي أمر ونهى، واليقين بالجزاء والحساب يوم القيامة، بعد البعث.

---

(١٧٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٥٦٢.

(١٨٠) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص١٤١.

واليقين الأول: يتحصل بمدارسة الذنوب وآثارها، كما بينا من قبل.

والثاني: يتحصل بمدارسة صفات الله، ونعمه وأفعاله، وأيامه (وسنفصل ذلك في فصل تجديد الإيمان في القلب).

والثالث: يتحصل بمدارسة عقائد الإيمان بما بعد الموت، وبالبعث، والحشر، والحساب، والميزان، وأخذ الكتب، والجزاء، والقصاص، ونعيم الجنة، وعذاب النار.

وتعميق ذلك بالبراهين، والأدلة في القلب، والعقل، حتى تثمر المعرفة بذلك، (وَجَلًا) و(ندما) وشوقا إلى التوبة، والإنابة إلى الله.

وهذا التيقظ، والتنبه يسميه بعض أساتذة تربية القلب: «انتباه القلب من رقدة الغفلة»(١٨١).

ويقول المحاسبي: «التيقظ: أصل كل خير، كما أن الغفلة: أصل كل شر(...)، واعلم أن أبين علامات التيقظ: الهم والحزن، ثم حسن الاستعداد لما اهتم له، وحزن عليه (...) قال: التيقظ: تقريب الأجل، ومراقبة الموت، والفكر فيما يصير إليه العبد من بعد الموت، ومن هذا يفتتح لك باب العمل، فتبتدر إليه، قبل أن يبتدر إليك الموت، وتستغنم كل ساعة من حياتك، قبل انقضاء الأجل، فإن رزق العبد الدوام عليه نبع من ذلك ينابيع الخير، إن شاء الله- عز وجل»(١٨٢).

ويعرف ابن القيم اليقظة بأنها «انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله، ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها وخطرها! وما أشد إعانتها على السلوك!»(١٨٣).

---

(١٨١) أبو القاسم القشيري: الرسالة، مصدر سابق، ص٤٩.

(١٨٢) المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ١١٧ ، ١١٨.

(١٨٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ٩٤.

فاليقظة التي هي نتاج التيقظ، هي قومة، ونهضة، وانتفاضة القلب والعقل من رقدة الغفلة، والنهوض لله- تعالى.

وذلك يحدث – تربويا – بثلاثة أشياء:

الأول: يدرس؛ ليعرف، نعم الله عليه (ويقايس) فعله عليها، فيعرف أنه مقصر عن شكرها عاجز عن عدها؛ فيوجب له ذلك: محبة المنعم، وذكره وخضوعه له، وإزراءه على نفسه؛ لتقصيره في الشكر، فصار متحققا بـ «أبوء- أي: أقر وأعترف- لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي..».

الثاني: مطالعة الذنوب والجنايات، والوقوف على مخاطرها، والتشمير للتحرر منها، ومن رقها.

الثالث: الانتباه لمعرفة ما معه من الحسنات والسيئات، فيتدارك ما فاته، في بقية عمره، ويبخل بساعاته، ولا يضيعها في غير ما يقربه إلى الله - تعالى، وينفع به الناس(١٨٤).

وهذه اليقظة والانتباه، والنهوض القلبي، والتزلزل الشعوري؛ يثمر في القلب والعقل: التبصر؛ وذلك: بالتبصر في أسماء الله وصفاته، فيشهد قلبه كل صفة من صفات الجلال والجمال والكمال الإلهي، ويشعر بها، ثم التبصر في الأمر والنهي، افعل ولا تفعل، أي: في المنهج، ثم التبصر في الوعد والوعيد.

فإذا تبصر- بعد يقظته وانتفاضته، ونهضته، وانبعاثه الحي- أحدث ذلك (عزما) وهذا هو (القصد) أي: إرادة السفر والهجرة إلى الله - تعالى- عن علم ويقين وإيمان، وهو يكدح في الأرض، فإذا استحكم (القصد) صار (عزما جازما) مستلزما للشروع في السير والسفر، فالعزم: هو القصد الجازم المتصل بالفعل واستجماع قوى الإرادة على الفعل، وهو هنا: الدخول في طريق الله، والسير في قافلة الصالحين(١٨٥).

---

(١٨٤) المصدر السابق، ص ١٠٨ – ١١٠.

(١٨٥) تفصيل ذلك في المصدر السابق، ص ٩٤ – ١٠٨.

فالأساس النفسي والقلبي والعقلي للتوبة هو: اليقظة والتبصر، والقصد، والعزم.

وبناء هذا الأساس يبدأ بالدرس العميق لما تبناه: من خلال برنامج تعلم ذاتي وجماعي، هادئ وعميق، مطبقين فيه طبيعة المنهج التربوي الإسلامي، كما أشرنا إليه في أول هذه الفقرة.

دورة عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، ونعمه، دورة عن عظم الذنوب، دورة عن الجزاء والبعث.. دورة عن حقيقة التوبة.. وهكذا.

٢- آلية التخويف المربي:

وهو باعث أساسي للتوبة، وحل (عقدة الإصرار) على الذنب.

والله- سبحانه وتعالى- خلق الإنسان، ويعلم أنه بطبعه، لا يترك المحرمات والمعاصي، وهي ضارة به، ومفسدة للمجتمع والعمران البشري والكوني، ولا يتحمل مكاره الطاعات لله، ولا يرغب في لذة السير إلى الله إلا بتخوف لما خُوِّف، ورجاء لما رَجَّي، فخوف عباده – بحق – ليهربوا، ويفروا من الذنوب؛ رحمة بهم، ليرحمهم ويغفر لهم.

والتخويف: ينشأ عن تعميق المعرفة وتعظيمها بعظم قدر الله، وعظم قدر الوعد والوعيد.

وهذه المعرفة تكتسب بالتخويف لشدة العذاب، وخطورة آثار الذنوب، والترجي لعظيم الثواب.

وهذا التخويف ينشأ في القلب والشعور بالفكر في العاقبة والمصير، والتذكر لشدة غضب الله، وأليم عذابه لمن عصاه بلا متاب، وبالتذكر ليوم المعاد والجزاء، والتنبه لذلك.

فالذي ينال به الخوف: معرفة عظيم قدر العذاب، والذي يعظم به معرفة عظيم قدر العذاب التخويف، والتخويف: ينال بالفكر في المعاد، والفكر ينال

بالذكر، والذكر بالتيقظ من الغفلة (...).

«فإذا أراد.. المُصِرُّ أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه، ويبعثه على التوبة من ذنوبه؛ فَلْيُعْنَ بطلب الخوف؛ بالتخويف؛ بالفكر في المعاد وهجوم الموت، وعظيم حق الله - عز وجل - وواجب طاعته، ودوام تضييعه لأمره، وركوبه لنهيه»(١٨٦).

والذي يخفف (عملية الفكر) على القلب والعقل هو (العناية)، وتوبيخ النفس على ترك الفكر في المجالات السابقة.

والذي يفتح باب الفكر المؤدي إلى التخويف المربي هو «اجتماع الهَمِّ، مع المطالبة بالعقل، والتوكل على الرب، لا على العقل، فحضور العقل باجتماع الهم(...) فإذا اجتمع الهم؛ حضر العقل ولم يعزب (يغب) عن الفكر فيما أحب الله، وكذلك روي عن أبي العالية؛ قيل له: ما يفتح عليَّ الفكر؟ قال: اجتماع الهم؛ لأن العبد إذا اجتمع همه؛ تفكر، وإذا تفكر؛ نظر؛ وإذا نظر؛ أبصر»(١٨٧).

وجمع الهَمِّ هو: حصر الانتباه، والاهتمام الشعوري، في الموضوع الذي نريد التفكر فيه.

«فإذا تفكر في المعاد، بتخويف نفسه عِظَمَ قَدْرِ العذاب عنده، فإذا عَظُمَ قدر العذاب عنده، هاج في قلبه الخوفُ حتى لا يملكه، فما مثل التخويف في جنب الخوف إلا كمثل الوقود في جنب الغليان، كالموقد يوقد تحت القدر المملوءة، فكلما أدام الوقود اشتد الغليان، فكذلك العبد، كلما أدام الفكر - بالتخويف - في ذكر العقاب، وكثرة الأهوال، وعظيم السؤال، مع المعرفة بِعِظَم حَقِّ الله- جل وعز- وواجب طاعته وأنه لعامة ذلك مُضَيِّع - هاج

---

(١٨٦) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٦٢، ٦٣.

(١٨٧) المصدر السابق، ص ٦٥.

الخوف؛ فإذا هاج الخوف؛ قذف القلب بالإصرار على الذنوب، وسَخا عنها نفسا، فندم وتاب، وخشع وأناب، وكذلك الوقود: كلما اشتد دوام الوقود؛ اشتد الغليان، فإذا اشتد الغليان قذفت القدر ببعض ما فيها، فمن أدمن الفكر، بالتخويف لنفسه - فيما تهدده ربه وتوعده به- هاج خوفه، فأطفأ نار شهواته التي أصر عليها، فسخا بترك الإصرار نفسا، وأقلع عن الذنوب، وخاف عاقبتها، ولا سيما إذا أدمن الفكرة وهو يتلو كتاب الله- عز وجل- فيتفكر في وعده، ووعيده، وأهوال القيامة، وشدائدها، وتلك أنجع الفكرة إذا كانت بتلاوة كتاب الله- عز وجل(...)، فإذا أدمن المصر الفكر؛ بالتخويف، سخت نفسه بالتوبة (...) إلا أنه يحتاج- أيضا- إلى الدوام على الفكر (...) حتى تسخو نفسه بالتوبة، ويندم على جملة ما عمل من الذنوب، وينوي ألا يعود»[١٨٨].

التفكر- في أثناء تلاوة القرآن- وجمع الهم، والتأثر والانفعال بما نقرأ... من وعد ووعيد، ومشاهد القيامة، والنعم الإلهية..

والتفكر في العاقبة، والجزاء.. يؤدي إلى الشعور بالندم، لكنه يحتاج لآلية تربوية ذاتية مساعدة، وهي: تذكر ذنوب الإنسان الماضية، وساعات عمره، فهذا التذكر يثمر معرفة تعين على الفكر، قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت، «والتذكر: تفعل من الذكر، وهو ضد النسيان، وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب، واختير له بناء التفعل؛ لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصر، والتفهم والتعلم»[١٨٩].

---

(١٨٨) المصدر السابق، ص ٦٧ – ٧٠.

(١٨٩) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ٣٣٢، ونص الحسن في نفس المصدر والصفحة، وادرس باقي شرح التذكر وثمراته في نفس المصدر، ص ٣٣٢ – ٣٣٨ فهو مهم جدا في الفعل التربوي.

فمن يريد تربية التوبة لإصلاح نفسه وتطهيرها، وتغيير خلقها للأحسن عليه أن يتذكر - قبل لقاء الله - تعالى - يتذكر ذنوبه، وأعماله الصالحة، وكيف كان قلبه فيها، وماذا كان يبعثه عليها، ويتذكر أعماله القلبية، وحقوق الله عليه، وحقوق الناس، التي ضيعها، ويتفكر في مصيره إذا لقي الله وهو كذلك، وكلما ذكر حقا ضيعه- وهو يتفكر ويتخوف- هاج الندم من قلبه، وعزم على عدم العودة.

وهكذا يظل (يفتش) نفسه، ويتذكر أحواله (ويتفقد) عيوبه، حتى يعلم حاجته وفقره، فيفزع قلبه إلى الله، الغفار، الكريم، الحنان، المنان، الغني، فينبعث الرجاء في رحمة الله، فيرغب إليه في المعونة من عنده، على رعاية حقوقه، وأداء حقوق الناس، حتى يتحقق (عَزْم التوبة) في قلبه، بعد (مراجعة) ذنوبه فيما مضى من عمره، وبعد إزالة العجب من نفسه، وإلزام قلبه حسن الظن بالله، فهو حينئذ تائب مُقْلِع، منيب، خاشع، معترف أن توبته كانت بمنة الله عليه، لا بقوته، فيشكر الله، فيزيده من طاعته وبره(١٩٠).

إذن، التخويف المربي لعزم التوبة يستلزم:

١- مدارسة عقيدة اليوم الآخر- تفصيلا- والإيمان اليقيني بها، والتفكر فيها.

٢- تذكر ما مضى، ومراجعة الذات مراجعة دقيقة في جميع الأمور، وسأبين هذا بعد قليل لأهميته.

٣- تفقد أحوال النفس ومحاسبتها، وسأشير لهذا الأصل - تفصيلا بعد الفقرة التالية.

فإذا رأى وأبصر من يريد التوبة والصلاح ما عليه من سوء الحال، وفكر بقلبه في سوء ما يصنعه، وأبصر قبيح أفعاله، وسكن التخويف قلبه، ونهض من رقدة الغفلة «سَنَح في قلبه إرادة التوبة، والإقلاع عن قبيح المعاملة، فيمده

---

(١٩٠) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص ٦٩ - ٧٤.

الحق- سبحانه- بتصحيح العزيمة، والأخذ في جميل الرجعى، والتأهب لأسباب التوبة»[١٩١].

٣- آلية المراجعة:

ولم أجد أفضل من نص المحاسبي فيها، يقول:

«فاجعل المراجعة شغلا لازما، وكن وَقَّافًا، كما قال الأول: المؤمن وقاف وليس كحاطب ليل.

فقف وطالع زوايا ضميرك، بعين حديدة النظر، نافذة البصر، فإذا رأيت أمرا محمودا؛ فاحمد الله، وامْضِ، وإذا رأيت مكروها؛ دَارَكْتَهُ بحسن المراجعة، واستقصيت فيه، (فإنك) تجد الخير الكثير في ميزانك يوم القيامة؛ بصدق المراجعة، ومبادرتها قبل أن تبرد عنك حلاوتها؛ فإنها موهبة عظيمة من مواهب الله- تعالى - أكرم بها أهل خاصته، وعَظَّمَ النعمة عليهم فيها؛ فإن عِظَمَ النعمة على قدر الحاجة.

فانظر؛ هل راجعت نفسك، وأمْرَك، إلا وقد وجدت فيه موضع مَرَمَّة، ومصلحة، أو وجدت مفسودا بعينه، فلو لم تلحقه بالمراجعة؛ لكان ذاهبا إلى يوم القيامة.

واعلم أني إنما أكثر عليك وعلى نفسي من ذكر المراجعة؛ لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة إليها، فلو قد تَعَلَّقْتَ بشيء من الخير؛ فبها يكون (...) وإلا فلا.. وما تَرْكُكَ لها إلا كالمستأنس لعدوه، والمسلِّم نفسه إليه، فهلكت وأنت لا تشعر.

وإن كنت متهاونا بما أقوله لك؛ فإن أكثر حاجتك إليها في صلاة الفريضة، ثم بعدها، وهلم جرا، في جميع أمورك.

---

(١٩١) أبو القاسم القشيري: الرسالة، مصدر سابق، ص ٤٩.

ولو كنت ممن يتفقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة؛ حيث فارقتك المراجعة، في صلاة الفريضة؛ فلم تدر: ماذا قرأ إمامك؟ ولم تدر: أفي فرض كنت أم في نافلة؟ في صلاة كنت أم في غيرها، وأنت في رأي العين ممن يناجي ربه؟

فاعتن الآن بتعاهد هذه المراجعة، على قدر ما عرفت من حاجتك إليها، فإنما لك من عمرك: تيقظك، وتيقظك: مراجعة ما فيه منفعتك وقربتك، والمصير إليه بالعقل، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان إلى شهوة فيها غليان قلبك، وفي ذلك موافقة نفسك الإمارة بالسوء، والهوى المضل عن سبيل الله(...).

قال مالك بن دينار: «قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر، وقلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور»، فتعاهد أمرك بالمراجعة: فإن رأيت مكروها؛ أصلحته وتحولت عنه، وإن رأيت غير ذلك؛ حمدت الله، وكانت عنايتك بذلك، زيادة لك، أو قربة.

وإذا رأيت لك عناية بالمراجعة فاعلم أنها نعمة وقربة من أعظم نعم الله، وأحق من أحسنت صحبته، نعم الله، التي مفتاح خزائنها رحمة الله»(١٩٢).

فالمراجعة جهد ذاتي لتصحيح الذات، وتربيتها، وهي مبنية على الآليات السابقة، وهي: رجوع إلى النفس، وتفقد لأعمالها، وتدقيق النظر إلى كل عمل؛ هل هو موافق لمنهج الله، أم لا؟ إنها تقويم ذاتي، وهو جزء من المحاسبة التي أتناولها في الفقرة الآتية، ويمكن عقد مجلس تقويم ذاتي يطبق فيه كل مسلم ومسلمة هذه الآلية.

٤- آلية المحاسبة:

٤-١: مفهوم المحاسبة وعلاقتها بالتوبة:

يقول ابن القيم: «هي (التمييز) بين ما له وما عليه، فيستصحب ما له،

---

(١٩٢) المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ٨١ – ٨٥.

ويؤدي ما عليه؛ لأنه مسافر سفر من لا يعود، ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبة؛ لأنه إذا حاسب نفسه؛ عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه، وهي حقيقة التوبة (...) وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر: ١٨]، فأمر- سبحانه- العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك؛ والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به، أو لا يصلح ؟»[١٩٣].

ويقول المحاسبي: «وأصل التقوى: محاسبة النفس (...) قلت: وما المحاسبة؟ قال: النظر، والتثبت بالتمييز لما كره الله- عز وجل- مما أحب»[١٩٤].

فالمحاسبة تعني: التمييز القائم على التفكر المتروي، بين ما أحبه الله، وما كرهه، مما يفعله الإنسان، وبين ما للإنسان، وما عليه، فيعمل المحبوب وهو الذي له، ويتجنب المكروه، وهو الذي عليه.

وهي (مفاعلة) مأخوذة من الحَسْبِ، وهو العد والإحصاء، والحَسْبُ: قدر الشيء، وحسب الشيء يحسبه: عَدَّه[١٩٥]. أي: أن المحاسبة تعني: عد الأفعال والخطرات، وإحصاءها، وتقديرها، ووزنها، والحكم عليها؛ هل هي صحيحة مقبولة أم لا؟ ومعيار الحكم: هو ما أحله الله وما حرمه.

وقال ابن منظور: «وإنه لَحَسَنُ الحِسْبَة في الأمر، أي: حَسَنُ التدبير والنظر فيه (...) واحتسبتُ فلانا؛ اختبرت ما عنده »[١٩٦]. فالمحاسبة تعني- أيضا - اختبار ما في القلب والنفس، والبحث في أعمالها، والتفكر فيه، وتدبره؛ أي: النظر في عواقبه.

---

(١٩٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ١٣٠.

(١٩٤) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص ٤٧ ، ٤٨.

(١٩٥) ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص ٨٦٤، ٨٦٥.

(١٩٦) المصدر السابق، ص ٨٦٧.

وقال ابن منظور: «واحتسب فلان على فلان؛ أنكر عليه قَبِيح عمله»(١٩٧).

فالمحاسبة- في التحليل اللغوي- هي عد الأعمال والأفكار، وإحصاؤها، وتقدير كل منها، والنظر فيه، وتدبره، ووزنه بميزان شرع الله، وتمييز الحسن من القبيح، والإنكار على القبيح، وتغييره.

وما قرره ابن القيم والمحاسبي يتفق، ويتطابق، في التحليل الأخير، مع ما يقرره علماء اللغة.

٤-٢: المحاسبة خاصية للمؤمن الصحيح العاقل:

المحاسبة: فعل ذاتي يدل على العقل المتبصر، الناظر في العواقب، وهي خاصية المؤمن، وآلية من آلياته الأساسية في تصحيح ذاته، وتربيتها، وتكميلها، وقد كتب ابن أبي الدنيا كتابا جامعا خاصا بمحاسبة النفس أقطف منه ما يوضح المعنى المقصود هنا.

أخرج ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون، لا تخفى منكم خافية»(١٩٨).

وذكره الترمذي عنه بلفظ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»(١٩٩).

---

(١٩٧) المصدر السابق، ص ٨٦٨.

(١٩٨) الحافظ ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، خبر رقم (٢)، ص ٢٩، ٣٠.

(١٩٩) سنن الترمذي، ج٤، مصدر سابق، تابع للحديث رقم ٢٤٦٧، ص ٢٠٨، وأخرجه ابن المبارك في: الزهد، رقم ٣٠٦، ص ١٠٣ باختلاف في اللفظ، والمعنى واحد.

وأخرج ابن أبي الدنيا أن عمر بن الخطاب ﷺ، كتب إلى بعض عماله، فكان في آخر كتابه: «أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة؛ عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته، وشغلته أهواؤه؛ عاد أمره إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به؛ لكي ما تنهى عما ينهى عنه، وتكون عند التذكرة والعظة من أولي النهى»(٢٠٠).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران (الثقة الفقيه)، قال: «لا يكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وأخرج عنه قال: التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص، ومن شريك شحيح»(٢٠١).

وذكره الترمذي عنه؛ قال: «لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه: من أين مطعمه وملبسه؟»(٢٠٢).

وأخرجه الذهبي عنه بلفظ: «لا يكون الرجل تقيا؛ حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم، من أين ملبسه، ومطعمه، ومشربه؟»(٢٠٣).

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن المبارك، وأبو نعيم في الحلية، عن الحسن البصري، قال: «إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله - عز وجل- وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبته.

إن المؤمن يفجأه (يأتيه فجأة، من غير توقع وانتظار) الشيء يعجبه؛ فيقول: والله، إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن، والله، ما من صلة إليك، هيهات! هيهات!.

---

(٢٠٠) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، مصدر سابق، خبر رقم ١٦، ص ٣٨.

(٢٠١) المصدر السابق، خبر رقم ٧، ٩، ص ٣٣، ٣٤.

(٢٠٢) سنن الترمذي، ج٤، مصدر سابق، ص ٢٠٨.

(٢٠٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء الخامس، ص ٧٤.

حيل بيني وبينك، ويفرط (يصدر منه) منه الشيء، فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدا، إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوثقهم (عند ابن أبي الدنيا: أوقفهم) القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم.

إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه، في سمعه، في بصره، في لسانه، في جوارحه، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله»[٢٠٤].

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن؛ قال: «أيسر الناس حسابا يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم؛ فإن كان الذي هموا به لهم؛ مضوا، وإن كان عليهم؛ أمسكوا، قال: وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا، أخذوها من غير محاسبة، فوجدوا الله- عز وجل- قد أحصى عليهم مثاقيل الذر، وقرأ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[الكهف: ٤٩] »[٢٠٥].

وأخرج أحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا عن قرة بن خالد، سمعت الحسن، في قوله - عز وجل: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: «إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه؛ يقول: ما أردت بكلمتي؟ يقول: ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ فلا تراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدما فلا يعاتب نفسه»[٢٠٦].

---

(٢٠٤) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ١٦، ص ٣٨، ٣٩ (باختلاف يسير في اللفظ)، ابن المبارك: الزهد والرقائق، رقم ٣٠٧، ص ١٠٣ (وهذا لفظه)، أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٢، ص ١٥٧.

(٢٠٥) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ١٥١، ص ٩٤.

(٢٠٦) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، مصدر سابق، ص ٢٦٨، ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ٤، ص ٣١، ٣٢.

فالمحاسبة- بمفهومها السابق- صفة أساسية للمؤمن التقي، وآلية تربوية تساعده على تصحيح نفسه، وتقويم ذاته قبل لقاء الله، وخطوة مهمة لتيسير الحساب يوم القيامة والجزاء.

٤-٣: المحاسبة مرحلتان: محاسبة قبل العمل، ومحاسبة بعد العمل:

النوع الأول: محاسبة في مستقبل الأعمال: يقول المحاسبي: «وهي: النظر بالتثبت قبل الزلل؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه على علم؛ فمن اتقى العجلة وتثبت قبل فعله، واستدل بالعلم؛ أبصر ما يضره مما ينفعه قبل العمل بهما»[٢٠٧]. فالمحاسبة قبل العمل: تفكر في المآل، أي: أنه إذا أراد أن يبتدئ العمل؛ رَوَّاهُ في نفسه، وقدره، ومثله في وهمه، وصوره في العاقبة: كيف يكون إذا عمله وفرغ منه؟ فإذا تمثل في وهمه على ما يريد من الإحكام والتمام ابتدأ فيه، فهو يتثبت قبل العمل، ويعتبر مآله، ويدرس نتيجة العمل، ويستشرف مصيره، قبل الشروع فيه.

ويبين ابن القيم هذه المحاسبة، يقول: «هو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه»[٢٠٨].

ويتم هذا النوع بأن يجيب – بعلم – عن هذه الأسئلة، حين يهم بعمل من الأعمال:

الأول: هل العمل مقدور له، أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورا؟ فلا يقدم عليه.

الثاني: إن كان مقدورا؛ وقف ونظر؛ وسأل: هل فعله خير له من تركه؟ أو تركه خير له من فعله؟

---

(٢٠٧) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص ٥٠.

(٢٠٨) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ٩٧.

فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول؛ وقف وقفة ثالثة، ونظر، وسأل السؤال الثالث.

الثالث: هل الباعث على العمل إرادة وجه الله - عز وجل، وثوابه، أو إرادة الجاه، والثناء والمال من المخلوق؟ أي: هل حركته وفعله: لله أم للهوى؟ فإن كان للهوى، لم يقدم؛ لئلا تعتاد النفس على الشرك، وإن كان لله وقف وقفة رابعة، ونظر، وسأل.

الرابع: هل هو معان عليه، وله أعوان يساعدونه ويناصرونه، إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا ؟ فإن وجده معانا عليه، فليقدم عليه فإنه منصور(٢٠٩).

ويضيف الغزالي نظرا خامسا، وهو سؤال كيف؟ «وذلك بتفقد كيفية العمل، ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه»(٢١٠) حسب الكيفية التي أقرها شرع الله.

وهذا النوع من المحاسبة هو الذي ذكره الحسن البصري: قال: «كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة؛ نظر وتثبت، فإن كانت لله - جل وعز- أمضاها، وقال الحسن: رحم الله عبدا وقف عند همه؛ فليس يعمل عبد حتى يهم؛ فإن كان له مضى، وإن كان عليه تأخر، وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان الفارسي، فقال: اتق الله عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، قال الحسن: رحم الله القوم، كانوا فقهاء، علموا أنه لا يكون عمل حتى يكون بدؤه هما، وكذلك المؤمن هو الوقاف»(٢١١).

ولا شك أن المسلم إذا حاسب نفسه هذه المحاسبة، واعتبر مآلات أفعاله؛ فإنه يتبين له ما يقدم عليه، وما يحجم عنه، وهذا الاعتبار واجب في كل أمر على الإطلاق.

---

(٢٠٩) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٢١٠) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٢٧٥٤.

(٢١١) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص ٤٩.

ويحتاج هذا النوع لتدريب ذاتي، وجماعي، لاكتساب هذه القيمة العقلية النافعة في ترك الخطايا، وفعل الحسنات.

النوع الثاني: محاسبة في مستدبر الأعمال:

أي: اعتراض العمل، بعد أن يعمل، أو بعد أن يعمل مرحلة منه، ليعرف: هل أخطأ فيه، أو فرط في حكم الله فيه، أو في شروط إحسانه؟ أي: النظر في العمل بعد الفراغ منه، لينظر ثلاثة أنظار:

الأول: إذا عمل الإنسان طاعة: هل عملها على الوجه الذي ينبغي، وهل وفَّى حق الله فيها؟.

وحق الله- تعالى- في الطاعة ستة أمور (...) هي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه، بعد ذلك كله، فيحاسب نفسه، هل وفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل: كان تركه خيرا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؛ فيخسر ذلك الربح..؟(٢١٢).

وفي كتاب التوبة لابن أبي الدنيا ورد النص الآتي: «أي أخي، انشر أعمالك على نفسك، ثم قبحها جهدك لعقلك؛ لعله يدعوك تقبيحها إلى ترك معاودتها واعلم أنك وإن قبحتها بجهدك؛ فليس يبلغ غاية قبحها عند ربك، فاسأله أن يمن عليك بعفوه، وتمام ستره»(٢١٣).

---

(٢١٢) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، ج١، مصدر سابق، ص ٩٨، ٩٩.
(٢١٣) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٤٨، ص ٤٤.

وبهذا النوع من المحاسبة: يعرف الإنسان عيب نفسه، وتقصيرها، فيرجع إلى الله، ويتوب إليه، فهذه المحاسبة باعثة على التوبة والإنابة، لأنه يعرف حق الله عليه، وتقصيره في هذا الحق، وأنه غير مؤد له كما ينبغي، فيخضع ويذل بين يدي الله، ويطلب عفوه، ومغفرته، ورحمته، «فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولا، ثم نظره: هل قام به كما ينبغي ثانيا؟ وأفضل الفكر: الفكر في ذلك؛ فإنه يُسَيِّرُ القلبَ إلى الله»[٢١٤] فصلاح القلب وجلاؤه يبدأ بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها.

وهذا النوع من المحاسبة يتممه أن تقايس بين نعم الله عليك، وما فعلته من ذنب وجناية، فتعمل مقايسة بين ما هو من الله، وما هو منك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، فتقبل عليه بشعور المذنب في حق ربه المنعم عليه[٢١٥].

٤-٤: تطبيقات عملية في محاسبة النفس بعد العمل:

إن التطبيق يكشف حقيقة المفهوم النظري، ولهذا فإني أثبت هنا جملة من التطبيقات التي تمت فعلا، ورواها ابن أبي الدنيا، ومنها[٢١٦]:

- قال إبراهيم التيمي- من العباد الزهاد: مَثَّلْتُ نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار: آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي: شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا، فأعمل صالحا، قال: قلت: فأنت في الأمنية، فاعملي.

---

(٢١٤) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٢١٥) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ١٣٠ ، ١٣١.

(٢١٦) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، مصدر سابق، رقم ١٠ ص ٣٤ رقم ١٣ ص ٣٦ ورقم ٢٢، ص٤٢، ورقم ٧٦، ص ٦٧.

- قال صاحب للأحنف بن قيس- ثقة من سادات التابعين: كنت أصحبه، فكان عامة صلاته: الدعاء، وكان يجيء المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: حِسّ، ثم يقول: يا حُنَيْف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

- مر حسان بن أبي سنان بغرفة، فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها.

- كان توبة بن الصمة، بالرقة، وكان محاسبا لنفسه، فحسب، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ، وقال: يا ويلتي! ألقى المليك بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خر مغشيا عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلا يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى!.

فالمسلم، صاحب هذا الميراث في فقه المحاسبة ينبغي أن يتدرب ويتعود على محاسبة نفسه قبل العمل، وفي أثنائه، وبعده، في أي عمل، كان، فإنه إن كان حيا راغبا في السفر إلى الله، فسوف ينهض من رقدة الغفلة، ويصحو على نداء الحق: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وهناك الآن جداول للمحاسبة يمكن أن يطبق المسلم هذه القيمة عليها، محاسبة يومية قبل النوم، ومحاسبة أسبوعية، ومحاسبة شهرية، ومحاسبة سنوية.

ويمكن أن يراجع المسلم هذه الجداول مع نفسه، ويقومها تقويما ذاتيا، ويصلح نفسه، ويمكن أن تراجع مع مجموعة محدودة، من أجل تطوير الذات نحو الأحسن.

وهذه الآلية مهمة جدا، ومجربة، في دفع الإنسان ليصقل قلبه بالاستغفار والتوبة.

٥- آلية الاشتهاء، وإرادة التوبة:

يقول الجنيد: «سمعت الحارث يقول: ما قلت قط: اللهم إني أسألك التوبة، ولكني أقول: أسألك شهوة التوبة»(٢١٧). ويشير الحارث المحاسبي بهذا إلى أصل تربوي مهم وخطير، وأساس لاكتساب أية قيمة، هذا الأصل هو أن يشتهي الإنسان أن يتصف بالقيمة، فيحبها أولا، ويرغب فيها بعشق، ويهتم عاطفيا وشعوريا بالاتصاف بها، ويفرح بممارستها، ويتلذذ بها تلذذا يجد الملامة في هواها لذيذة؛ حبا لهذه القيمة واعتزازا بها، وإذا تحقق هذا الاشتهاء في القلب والنفس؛ فإن الإنسان سيندفع - من داخله - من عمق شعوره، ليكتسب هذه القيمة.

ونتناول الآن بعض الأساليب التربوية التي (يمكن) أن تحقق هذا الاشتهاء في القلب، والنفس، ومنها:

٥-١ : أن يكتسب المعرفة: التي تبعثه على اشتهاء التوبة، فالعلم سابق للإرادة، ومُوَلِّد لها، وهذه المعرفة أنواع تتحصل بالتثقيف الذاتي المهتم، الجاد، أو بالمدارسة الجماعية مع راغب، أو راغبين في التوبة، أو بحضور حلقات علمية، أو (دورات تربوية روحية) تهدف إلى إكساب هذه المعرفة المربية الباعثة، مع القراءة بتعقل، والاستماع بتفهم، وقلب شاهد حاضر.

وحدود هذه المعرفة هي:

- تدبر ما في القرآن- بتأثر، وتمثل- من آيات التوبة والاستغفار، وآيات عفو الله ورحمته، وغفرانه للذنوب جميعا، وآيات التخويف للمذنبين والعاصين، وتدبر ما ورد في الأحاديث الصحيحة والآثار، عن ذلك (مثال: دورة تربوية روحية لتدارس آيات: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وآيات: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾

(٢١٧) أبو القاسم القشيري: الرسالة، ص ٥١.

[الزمر: ٥٣]، وآيات سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] من تفسير الطبري، وابن كثير والشوكاني وفي ظلال القرآن، مع التركيز على المعاني، والصلاة بهذه الآيات، بتخشع، وتفكر وانفعال، لترسخ في القلب، فإذا وقع القرآن في القلب، فرسخ فيه؛ نفع، ودراسة صحيح الأحاديث الواردة في البخاري ومسلم، وصحيح الترغيب والترهيب، في ذلك.

- مدارسة حكايات بعض الأنبياء والصالحين، وما جرى عليهم بسبب ذنوبهم، أو بسبب حرصهم على طاعة الله، وعلى التطهر والاستغفار؛ فذلك شديد الوقع على النفس، ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل حال سيدنا آدم وتوبته، وما ترتب على كليهما، وحال سيدنا داود، وحال سيدنا محمد في حرصه على الاستغفار والتوبة، مع أنه المعصوم المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ شكرا لله - تعالى، ومثل حكايات توبة المذنبين، وغفران الله لهم.

«وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر (...) فهذا- أيضا- ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة»(٢١٨) وتكوين حبها في القلب، بحيث يغلي بها صدر المذنب، ويمكن أن يكون ذلك في (خلال) الدورة التربوية المشار إليها سابقا، أو عقد ليلة تربوية لمدارسة قصص الذي قتل ٩٩، وحديث الكفل من بني إسرائيل..إلخ من كتاب التوبة من صحيحي البخاري، ومسلم.. وأحاديث وحكايات التوبة من مسند أحمد...إلخ.

- مدارسة الآثار الخطرة للذنوب، عموما- كما أشرنا سابقا- مدارسة تؤدي إلى أن يستشعر بقلبه ضررها، مما يعمق فيه اليقين بخطورتها على القلب والسلوك، وعند الموت، وفي القبر، ويوم القيامة، مما يبعث شهوة التوبة في قلبه، فيستبشع الذنب، وهذا أول طريق التغيير نحو الأحسن، مع التأمل

(٢١٨) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢١٥٦.

العقلي والانفعال بمثل النصوص الآتية[٢١٩]:

- قال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعد يقول: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عَصَيْتَ.

- قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لَنَفْسُ المؤمن أشد ارتكاضا (اضطرابا واهتزازا وارتعاشا) من الخطيئة؛ من العصفور حين يُقْذَف به (حين يصطاد).

- قال سليمان بن حبيب: إن الله إذا أراد بعبد خيرا جعل الإثم عليه وبيلا (ثقيلا، وخيما، يخاف سوء عاقبته)، فإذا أراد بعبد شرا خَضَّرَ له (أي: حسنه في عينه وقلبه).

في الدورة التي تعقد لهذا يدرس ما جاء في الداء والدواء، والزهد والرقائق لابن المبارك، وكتاب التوبة لابن أبي الدنيا، عن ذلك.

- مدارسة ثواب ما أعده الله للتائبين في الدنيا والآخرة، مع مدارسة حكايات وأقوال التائبين، فإن الخبرة والتجربة أثبتت أنه يبعث على الرغبة في التوبة والحنين للاتصاف بحقيقتها، مثلما حدث لي عندما درست صفة الصفوة لابن الجوزي، وكتاب الزهد للإمام أحمد، وغيرهما.

- مدارسة ثمرات التوبة؛ مثل تجديد الإيمان، صقل القلب، تبديل السيئات حسنات، انكسار القلب لله، محبة الله للعبد التائب، فرح الله به، بحسب المغفرة، دخول الجنة.. وقد أشرنا لهذا سابقا، فيجمع ذلك، ويتأمله، مع الرجوع للقرآن والسنة الصحيحة، وكتب أهل العلم[٢٢٠].

---

(٢١٩) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد والرقائق، مصدر سابق، أرقام ٧٠، ٧١، ٧٢، ص ٢٣، ٢٤.

(٢٢٠) مثلا: يوسف القرضاوي: التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص ٢١٥ – ٢٤١.

ومن آثار التوبة: أن القلب يرق، ويحيا، ويقبل على ذكر الله بحب، وانظر: ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٩، ص ٢٣، ٢٤ (وترك الذنوب حياة القلوب..) ورقم ٨٢، ص ٥٧ (إذا) طهر القلب من المعاصي لم يشبع من ذكر الله، ورقم ١٨٥، ص ٩٧ (التائب أسرع دمعة وأرق قلبا).

- مدارسة ما وقع من عقوبات، وما ورد في الصحيح، على الذنب المعين الذي فعله، أو يفعله، ومدارسة عميقة، مدارسة كل ذنب بخصوصه، مثل: الكبر، والحسد، والكذب، والقسوة، والشرك، ..إلخ، وأن يتمثل ذلك بعقله، وشعوره، ويغرسه ويزرعه في قلبه، ويرويه بماء العلم والتفكر، ودمع الندم، فيدرس ما ورد في الزواجر من اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمي، والإحياء للغزالي، والترغيب للمنذري، والآداب الشرعية لابن مفلح، أو تعقد دورات تربوية، يلخص فيها، بالتتابع ما ورد في هذه الذنوب، واحدا واحدا.

- مدارسة ما ورد من صحيح السنة عن ثواب كل طاعة لله بخصوصها، مما يرغب في القيام بها، والتخلق بها، مثل: التوحيد، والتواضع، وإقامة الصلاة، وبر الوالدين، والرحمة، وحسن الجوار...إلخ من الأدب المفرد للبخاري وكتاب الأدب من صحيحه، وكتاب الإيمان وكتاب البر والصلة والآداب من صحيح مسلم، وكتب ابن أبي الدنيا، ومكارم الأخلاق للخرائطي.. إلخ.

- القراءة بتفهم، واتعاظ في كتب المختصين في تربية القلب، مثل: كتاب الرعاية لحقوق الله، والرقائق لابن المبارك، وكتاب الرقاق، والفتن من صحيح البخاري، وحلية الأولياء لأبي نعيم، ومدارج السالكين لابن القيم.

- أن يجالس بعض التائبين الصادقين، حديثا، كما سيأتي في آلية الصحبة المربية.

- أن يدرس فقه التوبة، بحب وتأثر، فيدرس هذا المبحث، بعمق، وآيات وأحاديث التوبة، وأقوال الصالحين منها، و(منزلة التوبة) من مدارج السالكين، و(بدء من أناب إلى الله) للمحاسبي، و(كتاب التوبة) لابن أبي الدنيا، و(التوبة إلى الله) للقرضاوي، وهو نافع جدًا.

٥-٢: **أن يتيقن؛ أن يكتسب اليقين:** أنه مخلوق والله خالقه، أنه مربوب

والله ربه، أنه عبد والله مالكه، أنه مستخلف والله مستخلفه، أنه ميت والله محاسبه، أنه مبعوث وراجع إلى الله، والله مجازيه على كل ما فعله.

وحسب تجربتي الخاصة فإن هذا الذي قدمناه يربي محبة وإرادة وشهوة التوبة في القلب، ويولد ويبعث اتجاها شعوريا قويا جدا نحو التوبة، والتطهير، ويجعل القلب يغلي بأعمال البر، والخير والمعروف.

٦- آلية التجنب:

أعني: أن يبتعد، ويغترب شعوريا وحسيا، عن جميع الأسباب المهيجة لشهوة الذنب، وهي: إما أسباب خارج الذات؛ مثل: مخالطة فتيات، أو فتيان بالنسبة للنساء، أو مشاهدة أفلام جنسية أو إباحية، أو مشاركة صحبة فاسدة، أو قراءة ما يحرك دواعي المعصية؛ من قصص، وأشعار، أو مجلات، أو كتب.

وإما أن تكون أسبابا داخل الذات، مثل: الميل إلى الأكل الكثير، من لذيذ الأطعمة.. والاسترسال مع خواطر الذنب، ووشوشات الهوى بالمعصية، وأحلام اليقظة.

وإنجاز آلية التجنب يستلزم تحقيق ثلاثة أمور:

الأول: التخلص من البيئة الثقافية الفاسدة المساعدة على فعل الذنوب، والبحث عن - والانخراط في - بيئة ثقافية صالحة معينة على الخير، مناسبة، لتوفير محضن تربوي آمن، ومعين، وهذه مهمة من مهمات الحركة الإسلامية.

الثاني: إنشاء بيئة نفسية شعورية داخل الذات، تجعل الفرد حريصا على طاعة الله، حذرا من معصيته، (انظر فصل تربية واعظ الله في قلب كل مؤمن)، أي: تربية ضمير خلقي حي، جواني، صالح، يأمر بالخير، وينهى عن الشر، من داخل القلب الإنساني، وعمل عزلة شعورية وجدانية: تحول بين المسلم وبين التأثر بسلبيات البيئة الثقافية في الوسط الذي يعيش فيه، يقول القشيري، في بعض ذلك: «فأول ذلك: هجران إخوان السوء؛ فإنهم هم الذين يحملون

على رد هذا القصد، ويشوشون عليه صحة هذا العزم، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة على المشاهدة التي تزيد رغبته في التوبة، وتوفر دواعيه على إتمام ما عزم عليه..»(٢٢١).

الثالث: تجنب موانع التوبة؛ مثل: الاستهانة بالذنوب، طول الأمد، طول الأمل، الاتكال على أمنيات العفو الإلهي دون توبة حقيقية، الجهل بالمعاصي وآثارها، اليأس من غفران الذنوب، صحبة السوء، قسوة القلب(٢٢٢).

وآلية التجنب يمارسها المسلم مع نفسه، ويقوم المربي الولي المرشد بتوجيه صاحبه لممارستها في محلها وبكيفيتها الصحيحة.

٧- آلية الممارسة والتعود:

أي: أن ينخرط في أعمال التوبة، فورا، ويتكلف أداء الطاعات، وفعل الخيرات، في البداية، ويحض نفسه ويحرض قلبه على ذلك، حتى يتعود عليها، ويذوق حلاوتها، وييسر الله فعلها على قلبه، دون عناء، وينيله السرور بالعبادة؛ عبادة الله، ويذيقه طعم الإيمان ولذة الخير.

تأمل في قول الحسن البصري: «الخير عادة، والشر لجاجة»(٢٢٣)، فالاتصاف بالخير يتحقق في شخصية المسلم إذا تعود عليه، أي: تربى بالتعود، بأن يبدأ فورا بفعل الخير، فتعلُّم التوبة هو بأن يتوب، وتعلم الكتابة هو بأن نكتب – وهكذا، والعادة تثبت بمرة، فما بالك بثلاثين مرة؟ ويقول قتادة: «لم ير أعطى (أسخى وأسهل) من نفس؛ إذا عودت، ولا أضعف منها إذا لم تعود»(٢٢٤).

---

(٢٢١) أبو القاسم القشيري: الرسالة، ص ٤٩ – ٥٠.

(٢٢٢) انظر: يوسف القرضاوي: التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص ٢٤٥ – ٢٥٩.

(٢٢٣) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، مصدر سابق، ص ٢٦٨، وسيأتي بإسناد صحيح عن عبد الله ابن مسعود، في مواضع أخرى من الكتاب، بإذن الله.

(٢٢٤) الحافظ ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، مصدر سابق، رقم ١٢٢، ص ٨٥.

فلننهض، ونباشر أعمال التوبة، والبر، ونكافح، حتى نتعود، ونتخلق بأخلاقها وحقائقها.

وتأمل في قول مطرف: «إن الحسنة أثقل ما يكون عليك وأنت تعملها، فإذا فرغت منها؛ ذهب ثقلها، ويبقى سرورها، فكيف بك إذا قرأتها بين يدي الله - عز وجل - ورأيت ثوابها؟»(٢٢٥).

فتحمل في الأول، وتفكر في الثمرة، فستنشط في الطاعة، وتفرح، وتذوق حلاوة الإيمان.

٨- آلية مراعاة الطبيعة الإنسانية:

أعني: أن يتيقن أنه (إنسان) غير معصوم، وأنه ابن آدم الذي عصى ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه، وهدى، وأن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون(٢٢٦)، وذلك أن له طبيعة مزدوجة، ففيه ثنائية الطين والروح، والفجور والتقوى، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وله نفس تأمره بالسوء، وشيطان يريد أن يغويه ويضله، وفيه رغبة التسامي الروحي؛ وأشواق الروح، فإن نقض العهد مع الله مرة، أو تراخى في عمل الطاعة.. فلا ييأس، ولا يقطع الرجاء في التزكي، والترقي، والنهوض، والتسامي.

يقول سيد قطب: «إن الله رحيم بعباده، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق،.. وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث، ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه، وأنه مسكين، سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه، والعروة التي تشده،

---

(٢٢٥) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص ٨١.

(٢٢٦) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٤٤٧، ص ٣٨٣.

وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات؛ سرعان ما ينحرف عن التوازن، فيشط به هنا أو هناك، ويوقعه في المعصية، وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

«يعلم الله - سبحانه - عن هذا المخلوق كل هذا، فيمد له في العون، ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصيته، حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه، ويقيم خطاه على الصراط..إلخ»(٢٢٧).

فالإنسان يخطئ، ولكنه قادر - بما ركب في فطرته - على الصعود والتسامي.

وهذا الوعي بالطبيعة الإنسانية يلزم تفعيله، في التعامل مع أنفسنا ومع من نربيهم، ولنتأمل بدقة في هذه الوقائع الدالة على فهم عميق للطبيعة الإنسانية، وحسن تربوي صائب:

٨-١: «قيل: إن أبا عمرو بن نُجَيْد، في ابتداء أمره، اختلف إلى مجلس أبي عثمان، فأثر في قلبه كلامُه، فتاب، ثم إنه وقعت له فَتْرَةٌ (كسل وتراخ عن طاعة الله، وعمل البر)، فكان يهرب من أبي عثمان، إذا رآه، ويتأخر عن مجلسه، فاستقبله أبو عثمان يومًا، فحاد أبو عمرو عن طريقه، وسلك طريقًا أخرى، فتبعه أبو عثمان، فما زال يقفو أثره حتى لحقه، فقال له: يا بني، لا تصحب من لا يُحِبُّكَ إلا معصومًا، إنما ينفعك أبو عثمان في مثل هذه الحالة، قال: فتاب أبو عمرو بن نجيد، وعاد إلى الإرادة، ونفذ فيها»(٢٢٨).

ما أروع هذا المربي الفاهم للطبيعة الإنسانية، فأنت غير معصوم، وأنا، وتأمل في حرص المربي الأستاذ على تلميذه، وشفقته عليه، فأين المربي المشفق الذي يأخذ المذنب، أو المقصر، بوعي المربي، وحنانه، إلى ساحات الله؟.

٨-٢: وفي تفسير ابن كثير(٢٢٩): «قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحق

---

(٢٢٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٥، ص ٣٠٥٨.

(٢٢٨) أبو القاسم القشيري: الرسالة، ص ٥٠.

(٢٢٩) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، مصدر سابق، ص ٧٠.

السبيعي يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلت، فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ١ - ٣] وقال: اعمل، ولا تيأس، رواه ابن أبي حاتم، واللفظ له، وابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم (...) عن يزيد بن الأصم؛ قال: كان رجل من أهل الشام، ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب، ﷺ، ففقده عمر، فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع في هذا الشراب، قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إلا هو إليه المصير، ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر ﷺ؛ جعل يقرؤه، ويردده، ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب؛ قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، ورواه الحافظ أبو نعيم.. وزاد: فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع، فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل زلة، فسددوه، ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه».

٨-٣: وأخرج ابن المبارك عن يعقوب بن غضبان العجلي، يقول: أتى رجل ابن مسعود، وقد أَلَمَّ بذنب، فسأله، فأعرض عنه، فلحظه عبد الله، أو التفت إليه، فإذا عيناه تذرفان (تدمعان) وقال: هذا أوان همك ما جئت له؟ إن للجنة سبعة أبواب، كلها تفتح وتغلق إلى يوم القيامة، إلا باب التوبة، فإن به ملكا موكلا، فاعمل ولا تيأس(٢٣٠). فالله رحيم بعباده الضعفاء، فتح لهم باب التوبة، فلا يغلق إلى يوم القيامة.

---

(٢٣٠) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد، ويليه كتاب الرقائق، مصدر سابق، رقم ١٠٤٢، ص ٣٦٨.

وفي الحلية عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: إذا رأيتم أخاكم قارف ذنبا، فلا تكونوا أعوانا للشيطان عليه؛ تقولوا: اللهم أخزه، اللهم العنه، ولكن سلوا الله العافية؛ فإنا أصحاب النبي محمد ﷺ، كنا لا نقول في أحد شيئا، حتى نعلم على ما يموت، فإن ختم له بخبر علمنا أنه قد أصاب خيرا، وإن ختم له بشر خفنا عليه.

وفي الحلية: كان رجل على حال حسنة، فأحدث، أو أذنب ذنبا، فرفضه أصحابه، ونبذوه، فبلغ إبراهيم النخعي ذلك، فقال: تداركوه، وعظوه، ولا تدعوه(٢٣١).

وعن ثابت البناني أن عبيد الله بن زياد قطع لصا، فجعل الناس يدعون عليه، فقال أبو برزة الأسلمي وعائذ بن عمرو: «يا أيها الناس، لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم، واحمدوا الله الذي عافاكم»(٢٣٢).

ومن طبيعة النفس الإنسانية أنها إذا ابتدأت عملا؛ اندفعت فيه بنشاط، وحدة، ثم يحدث كسل وتراخ، وفتور، ثم يحدث لها اتجاه نحو العمل من جديد، وهذه الطبيعة قد قررها النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- فقد قال له في حديث: «**إن لكل عمل شِرَّةً، ولكل شرة فَتْرَةٌ فمن كانت شرته إلى سنتي؛ فقد أفلح، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**»(٢٣٣).

وأخرجه أحمد بلفظ: «**فإن لكل عابد شرة، ولكل شرة فترة، فإما إلى سنة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**»(٢٣٤).

---

(٢٣١) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المجلد الرابع، ص٢٠٥، ٢٢٣، وقول ابن مسعود رواه ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١١٤، ص ٦٩ وفي سنده انقطاع.

(٢٣٢) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١١٥، ص ٦٩ قال محققه: إسناده حسن.

(٢٣٣) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٦، رقم ٦٧٦٤، ص ٢٢٩ – ٢٣٠.

(٢٣٤) إسناده صحيح، المصدر السابق، رقم ٦٤٧٧، ص ٣٢.

وروواه أحمد بلفظ: «**لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك**»(٢٣٥).

وهو عند ابن المبارك عن مجاهد مرسلا بلفظ: «**إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير سنة فقد ضل**»(٢٣٦).

فالإنسان - حين يتوب ويعبد الله - يكون مندفعا، في المرحلة الأولى؛ وهي مرحلة (الشرة) وهي: النشاط والرغبة، والحرص، والاندفاع، ثم تأتي مرحلة (الفترة) أي: الفتور، والتراخي، والسكون بعد الحدة، ثم تأتي مرحلة (الحسم)؛ فإما أن يتجه الإنسان بعد فتوره إلى اتباع سنة النبي ﷺ، وهذه هي الهداية، وإما أن يأخذه الكل والفتور بعيدا عن منهج الله، فيضل.

هذه طبيعة إنسانية ينبغي أن يتنبه لها المربون، ويتفاعلوا معها بذكاء.

والحديث السابق مهم في تقرير هذه القاعدة، فله رواية أخرى مهمة عن عبد الله بن عمرو قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجال يجتهدون في العبادة اجتهادا شديدا؛ فقال: «**تلك ضَرَاوَةُ الإسلام، وشِرَّتُه، ولكل ضراوة شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى اقتصاد وسنة، فَلِأُمٍّ ما هو، ومن كانت فترته إلى المعاصي؛ فذلك الهالك**»(٢٣٧).

ورواه أحمد عن طريق آخر عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجال ينصبون في العبادة - من أصحابه - نصبًا شديدًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**تلك ضراوة الإسلام وشرته، ولكل ضراوة شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى الكتاب والسنة؛ فَلِأُمٍّ ما هو، ومن كانت فترته إلى معاصي الله؛ فذلك الهالك**»(٢٣٨).

---

(٢٣٥) إساده صحيح، المصدر السابق، رقم ٦٩٥٨، ص ٤٢٠، وانظر: المسند، ج١٧، رقم ٢٣٣٦٦، ص ٧.
(٢٣٦) عبد الله بن المبارك: الزهد والرقائق، رقم ١١٠٢، ص ٣٨٩.
(٢٣٧) إسناده صحيح، المسند، ج٦، رقم ٦٥٣٩، ص ١١١.
(٢٣٨) إسناده صحيح، المصدر السابق، رقم ٦٥٤٠، ص ١١٢.

فهذه الرواية توضح هذه الطبيعة؛ فالإنسان حين يتوب، ويعبد الله، تحدث له ضراوة (من قولهم؛ ضَرِيَ؛ من باب تعب) أي: وَلَعٌ، وحب شديد، ولـزوم للشيء، ويؤدي هذا الولع إلى شرة، ثم الشرة إلى فتور، وهنا نـصل إلى مفـترق طريقين: إما إلى اتباع الكتاب والسنة، فمن فعل ذلك (فلأم ما هـو) أي: فإنـه يرجع، ويؤم، ويقصد إلى أصل عظيم ثابت، وهو منهج الله، وإما أن تتجـه بـه فترته إلى الانفلات، والنكوص إلى المعاصي، فذلك الهالك.

هذه سنة من سنن الله في الطبيعة الإنسانية.

وهذا بعض ما نعنيه بمراعاة الطبيعة الإنسانية وقوانينها في سلوكنا مع الله، وتوبتنا إليه، وفي توجيه من نربيهم حسب مقتضياتها.

٩- آلية الصحبة المربية:

٩-١ : أعني: أن يصاحب المسلم التائب، ويـؤاخي، ويجـالس، ويعـايش، من يعينه على التوبة، والاستمرار فيهـا، فـصحبة التائـب تبعـث عـلى التوبـة، وصحبة القاسي تبعث عـلى القـسوة، فـأخلاق القلـوب وانفعالاتهـا معديـة، ونحن نتثاقف في المشاعر والانفعالات، ونلتقط مشاعرنا من بعضنا، فـصحبة الصالحين التائبين باعث على شهوة التوبة، ومعين عليهـا، وتعـود عـلى طاعـة الله، فالنفس الإنسانية تنشط، وتتقـوى، مـن خـلال مـا تتـشربه مـن وسـطها الاجتماعي الثقـافي، مـن خـلال مـصاحبة النـشيط القـوي الـشجاع في الخـير والمعروف، وتأمل في قول النبي ﷺ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالط**». وفي رواية: «**من يخالل**»[٢٣٩]. وعند الترمذي وأبي داود: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[٢٤٠].

فالشخص الذي تصاحبه، وتخالطه، تعقد معه صـداقة حميمـة، تتـأثر بـه،

(٢٣٩) إسناده صحيح، المصدر السابق، ج٧، رقم ٨٠١٥، ص ١٣٠.

(٢٤٠) قال أبو عيسي: هذا حديث حسن غريب، سنن الترمذي، ج٤، رقم ٢٣٨٥، ص ١٦٧، سنن أبي داود: ج٤، رقم ٤٨٣٣، ص ٢٧٩.

وتؤثر فيه، وتباطنه ويباطنك، بحيث تكون أنت على دينه، أو هو على دينك، وهذا معنى بديع، وتوضيح دقيق لتأثير الصحبة في الخلق والسلوك.

لقد أوضح النبي ﷺ هذا المعنى في حديث أخرجه مسلم عن أبي موسى؛ عن النبي ﷺ قال: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك؛ إما أن يُحْذِيَك (يعطيك) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة**»(٢٤١).

قال المازري: «فيه تجنب خلطاء السوء، ومجالسة الأشرار، وأهل البيع والمغتابين للناس؛ لأن جميع هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جليسهم، والحض على مجالسة أهل الخير والتقى والعلم والأدب، وحسن الهدي والأخلاق الحميدة»(٢٤٢).

وأخرج أبو داود عن أنس: «**مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك، إن لم يصبك منه شيء، أصابك من ريحه، ومثل جليس السوء كمثل صاحب الكير، إن لم يصبك من سواده، أصابك من دخانه**»(٢٤٣).

ولأن الصاحب، والخليل، والصديق، يؤثر في صاحبه، وينفذ أثره الخلقي فيه، قال النبي ﷺ: «**لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**» هذا لفظ الترمذي وأبي داود(٢٤٤).

فالصحبة المؤمنة تربي الإيمان، لأنها تشكل محضنا تربويا، يتفاعل فيه

---

(٢٤١) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم: ج٨، مصدر سابق، رقم ٢٦٢٨، ص ١٠٨.
(٢٤٢) المصدر السابق، ص ١٠٨، وصحيح مسلم بشرح النووي، ج١٧، مصدر سابق، ص ١٧٨.
(٢٤٣) الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود، ج٤، رقم ٤٨٢٩، ص ٢٧٨.
(٢٤٤) رواه أحمد بلفظ: لا تصاحب إلا مؤمنا، وإسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١١٢٧٦، ص١٢٣، سنن الترمذي: ج٤، رقم ٢٤٠٣، ص ١٧٧، ١٧٨ وقال: هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه، وأخرجه أبو داود، السنن، ج٤، رقم ٤٨٣٢، ص ٢٧٩.

الأصحاب على سجياتهم، وبتلقائية، تسمح بالتفاعل الجواني، والمحاكاة الداخلية الشعورية، فتنتقل الأخلاق والانفعالات.

من هنا حرص الإسلام على الصحبة المؤمنة الصالحة.. والانتماء لجماعة صالحة تحفظ إيمان المؤمن، وتربيه.

٩-٢: وإذا كانت النفس ضعيفة، في حالة انفرادها، وفي بداية توبتها إلى الله، فإن مصاحبة أهل التوبة من أفضل المعينات على عبادة الله تعالى، ومن هنا ندرك أهمية نصيحة الرجل الواعي للشخص الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، وأراد التوبة إلى الله، إذ نصحه أن يذهب إلى بيئة ثقافية اجتماعية صالحة تعينه على عبادة الله، ليتأسي بهم، وليتشجع، وليقتبس من هممهم وأخلاقهم وانفعالاتهم.

ولهذا الحديث روايات عدة، منها ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل؛ قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض؛ فَدُلَّ على راهب؛ فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة، فقال: انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن فيها أناسا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق، حتى إذا بلغ نَصَفَ الطريق، أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم؛ فقال: قيسوا ما بين الأرضين؛ فإلى أيتهما كان أدنى؛ فهو له، فقاسوه، فوجده أدنى (أقرب) إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة**» قال قتادة: فقال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت؛ نأى بصدره[٢٤٥]. «نهض

---

(٢٤٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، رقم ٢٧٦٦، ص ٢٦٩ – ٢٧٠.

وتقدم ليقرب من الأرض التي فيها الصالحون».

وفي رواية لمسلم: «.. **ثم خرج من قرية إلى قرية فيها قوم صالحون، فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت، فنأى بصدره، ثم مات (...) فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فجعل من أهلها**»(٢٤٦).

يؤكد هذا الحديث ما نقرره- نحن المختصين- في التربية من ضرورة توفر المحضن التربوي السليم، والبيئة الاجتماعية الصالحة الخيرة النظيفة التي تعين على التطهر والتزكي، وعلى مقاومة التكتل الشيطاني لإفساد القلب، يؤكد على ضرورة وجود المناخ الثقافي السليم الذي يتشرب فيه الإنسان الأخلاق الصالحة، ويجد معاونين على فعل الخير، وخصوصا في مرحلة التكوين، وإذا كان الإنسان يعاني ضعفا في الإرادة، في بدء سلوكه الصالح.

وهذا أصل تربوي ثقافي اجتماعي استثمره هذا العالم المربي، حين نصح التائب الذي أقبل بقلبه تائبا إلى الله، نصحه أن يفاصل التجمع السيئ، وأن يهجره، ليذهب إلى تجمع إسلامي يعبد الله، فيعبد الله معهم، وألاَّ يرجع إلى قريته؛ لأنها أرض سوء، فالإنسان يتأثر بالبيئة الثقافية المحيطة، لأن يتشرب ثقافتها، صالحة، أو سيئة، يقول ابن تيمية: «فكم من الناس لم يرد خيرا ولا شرا، حتى رأى غيره، لاسيما إن كان نظيره يفعله، ففعله، فإن الناس كأسراب القطا، مجبرون على تشبه بعضهم ببعض»(٢٤٧).

إذن، فمن الشروط التربوية ليتوب الإنسان - بحق - أنه لابد من تغيير البيئة والصحبة المنحرفة التي يعيش فيها، إلى بيئة وصحبة نظيفة طاهرة، سليمة من الانحرافات(٢٤٨).

---

(٢٤٦) المصدر السابق، ج٨، ص ٢٧٠.

(٢٤٧) ابن تيمية (شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام): الاستقامة، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ٣٧٧.

(٢٤٨) يوسف القرضاوي: التوبة إلى الله، مرجع سابق، ص ٥٩ - ٦١.

٩-٣: والموقف التربوي الإسلامي - هنا - هو أن يصاحب الإنسان من يعينه على التوبة، وفعل الخير، وتحقيق العبادة لله وحده، وأن يعيش في وسط ثقافي اجتماعي خَيِّر، يقول المازري في شرحه للحديث السابق: «فيه الحض على مفارقة الإنسان المواضع التي أصاب فيها الذنوب، والأقران الذين ساعدوه عليها، ومعاداتهم لله - تعالى - مبالغة في التوبة،.. والاستبدال بذلك: صحبة أهل الخير والصلاح ومن يقتدى به، ويتأكد بمشاهدته توبته»(٢٤٩).

وهذا فقه تربوي سليم يقرر ضرورة وجود الإنسان التائب لله في محضن تربوي، تجمع إسلامي عضوي، خير، معين، مشجع على التخلق بأخلاق الإسلام، تجمع يفرح بطاعته لله، ويستاء من فعله للذنوب، ويستنكرها، مع الشفقة عليه، فيكون هذا وذاك عاملين مهمين في تقويمه، ودفعه للاستمرار في طريق الصلاح، وعاملا نفسيا اجتماعيا مؤثرا في اتجاهاته النفسية، ومن هنا ندرك الأهمية التربوية للنصوص والخبرات الآتية:

- أخرج ابن المبارك عن عون بن عبد الله؛ يقول: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اجلسوا إلى التوابين، فإنهم أرق شيء أفئدة»(٢٥٠).

وفي صفة الصفوة؛ قال عون بن عبد الله: «جالسوا التوابين فإنهم أرق الناس قلوبا»(٢٥١).

وقال في تخريج الإحياء: «رواه ابن أبي الدنيا في التوبة، قال: جالسوا التوابين؛ فإن رحمة الله إلى النادم أقرب، وقال أيضا: فالموعظة إلى قلوبهم أسرع، وهم إلى الرقة أقرب، وقال أيضا: التائب أسرع دمعة وأرق قلبا»(٢٥٢)،

---

(٢٤٩) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، ص ٢٦٩.

(٢٥٠) عبد الله بن المبارك: الزهد والرقائق، رقم ١٣٢، ص ٤٢، وهو في الحلية (١/ ٥١)، وفي الإحياء، ج٣، ص ٢٠٩١.

(٢٥١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٣، ص ٤٩.

(٢٥٢) إحياء علوم الدين، ج٣، ص ٢١٢٤، هامش رقم (١)، ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٨٢، ص ٩٦ ورقم ١٨٥، ص ٩٧ بإسنادين ضعيفين.

وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل القادم بعون الله.

فالموقف التربوي؛ إذن، هو أن يصاحب ويجالس الراغب في التوبة قوما صالحين، يزورهم، ويزورونه، ويتجالسون، ويتباذلون، ويتثاقفون، ويتدارسون، ويتعلم بعضهم من بعض عقليا وشعوريا، ويستمع منهم أخبار توبتهم، وإلى قراءتهم للقرآن، إذا كان أحدهم يجيد التلاوة بحسن الصوت، وخشوع قلب؛ فهذا في ذاته باعث مهم قوي للتوبة من عمق الشعور القلبي. يقول فضل الرُّقَّاشي: «كل قلب لا يجيب على حسن الصوت بالقرآن؛ فهو قلب ميت»(٢٥٣).

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى: ذَكِّرْنا ربنا، فيقرأ عنده(٢٥٤).

وقد سأل المغيرة بن مخادش (ثقة) الحسنَ؛ فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام ها هنا، يحدثوننا حتى تكاد قلوبنا أن تطير؟ قال: أيها الشيخ، إنك والله، لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تدرك أمنا؛ خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف(٢٥٥).

والمهم أن تكون الصحبة، في الله، داعمة لسلوك الخير، مشجعة على عبادة الله وحده، ومن الصحبة الممكنة اليوم: صحبة الكتب النافعة، والاستماع للأشرطة النافعة، وصحبة الطبيعة الحية، وصحبة كتاب الله، وصحبة حديث رسول الله، وصحبة الصالحين في سيرهم وتراجمهم، وصحبة العاملين في حركات البعث الإسلامي، مع استصحاب شعور الأخوة في الله، وإذا كان مع صحبة هؤلاء صلاة مشتركة، أو مدارسة مشتركة، أو تفكر وبحث مشترك، أو محاسبة مشتركة لتقويم الذات، أو طعام مشترك، أو رياضة بدنية مشتركة، أو رحلة مشتركة، أو

---

(٢٥٣) ابن أبي الدنيا (أبو بكر عبد الله بن محمد..): الرقة والبكاء، رقم ٨٠، ص ٩٤.
(٢٥٤) المصدر السابق، رقم ٨١، ص ٩٤، ٩٥.
(٢٥٥) عبد الله بن المبارك: الزهد والرقائق، رقم ٣٠٣، ص ١٠٢.

معاونة على مصلحة لأحدهم، أو تناصح بالمعروف، فقد كملت الصحبة المربية، وأثمرت ثمراتها الخلقية، ونفذ المسلم في التائبين العابدين.

ومن الضروري - تربويا - أن توفر الحركات الإسلامية هذه الصحبة، الحركية، التربوية لجميع مستويات الأعمار، وللذكور، والإناث، فهذه ضرورة تربوية ليجد المسلم التائب معاونين له على توبته، في وسط خضم من أخلاق الجاهلية تتناوشه من كل اتجاه.

١٠ - آلية التدعيم: تقوية وتعزيز سلوك التوبة:

أعني: تقوية سلوك التوبة، ليس فقط بممارسة أفعال الخير وصنائع المعروف، وذلك يؤدي فعلا لقوة إرادة الخير، ونماء السلوك الخلقى الصالح، وزيادة الإيمان، ولكن - أيضا - بإثابة النفس إذا فعلت خيرا، والفرح بالحسنات، وبالتوبة إلى الله، والاستبشار بها، مما يعزز السلوك الصالح، ويمده بمدد إضافي، ينميه، وهذا الفرح هو بفضل الله ورحمته، وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «**من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**»(٢٥٦).

وفي رواية الترمذي: «**فذلكم المؤمن**»(٢٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية لأحمد: «**ومن كان منكم تسره حسنته، وتسوؤه سيئته فهو مؤمن**»(٢٥٨).

---

(٢٥٦) إسناده صحيح، أخرجه أحمد، المسند، الجزء الأول، رقم ١١٤، ص ٢١٥، ورواه الشافعي مرسلا، في الرسالة، وصححه أحمد شاكر، انظر: الإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، ص ٤٧٤، وانظر: تخريجه هناك، حديث رقم ١٣١٥، ص ٤٧٤، ٤٧٥.

(٢٥٧) سنن الترمذي، ج٤، رقم ٢١٧٢، ص ٦٧، ٦٨، وروى هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ، ورواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح، انظر: كتاب الإيمان، تحقيق الألباني، مصدر سابق، ص ٢٦.

(٢٥٨) إسناده صحيح، المسند، ج١، رقم ١٧٧، ص ٢٣٩ وقال الذهبي: هذا حديث صحيح، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ١٠٢، ١٠٣ قال محققه ما ملخصه: أخرجه أحمد والطيالسي، والترمذي، وابن ماجه، وسنده قوي، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، نفس المصدر هامش ص ١٠٢.

فإذا فعل المؤمن التائب حسنة، فإنه يفرح، ويسر، فما تركته النفس طوعا حمد الله الذي مَنَّ عليه بذلك، وفرح به.

لكن النفس قد تنازعه إلى معاودة الذنب، فيسوؤه ذلك، ويغتم، فيمارس التعزيز السلبي بأن يعاتب نفسه برفق، ويداوم على موعظتها، ويذكرها بالله، فإن لم تستجب عاقبها، مثلا بالصوم يوما، أو قيام ليلة حتى تخشع وتلين، فإن أرادت الحرام، أو الميل له؛ عاود عليها التخويف المربي، والتذكير وبصرها سوء فعلها، وهددها بإنزال عقوبة عليها، مثلا بأن يمنعها من بعض مشتهياتها الحلال، أو بأن يتصدق بمال من ملكه الحلال،..

فهذه العقوبات التأديبية إذا نزلت بالنفس زادتها نورا في القلب، ونشاطا في التقرب إلى ربها المحبوب.

فما يزال يؤدبها بمثل ذلك؛ حتى تبتعد عن كل سبب يباعدها من الله - عز وجل، وتستقيم على طاعته، ولكنه يخشى من معاودتها للذنوب، فيخفف من كثرة الطعام، وامتلاء البطن،.. ليكسر شهوتها، ويخلو قلبه، ومع ذلك كله (يتوهم) أحوال الآخرة، وأعاجيبها، وشدائدها، وثوابها وعقابها، وجنتها ونارها، وأنها لا تصل إلى الجنة إلا بعد النجاة من النار، فهنا تسخو نفسه بترك الذنب، خوفا أن يورثها الركون إلى ذلك: ما لا صبر لها عليه، فتفارق الذنوب، أو الميل إلى الذنب، بسخاء نفس، ومحبة، ورضا، فتستعمل ما كانت تشمئز منه، وتأنس بما كانت تنفر منه(٢٥٩).

وهكذا، فإن عمليات التدعيم تهدف إلى التغيير الوجداني، تغيير الاتجاه نحو الذنب، ونحو التوبة، فيتدعم سلوك التوبة، فيسير القلب إلى الله، سالكا منازل العابدين لله، بتشمير واجتهاد، ودون سآمة، أو ملل، لما في الصدر من

(٢٥٩) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: بدء من أناب إلى الله (مطبوع باسم: التوبة)، تحقيق عبد القادر عطا، دار الإصلاح، ص ٢٤ - ٣٩، وادرس رسالة أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: معاتبة النفس، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٤٢ - ٨٢.

جلال الله، وهيبته لربه، ومحبته له، فيبادر إلى الطاعات، ويستمر فيها، ويتنعم بها، ويحسن الظن بالله، راضيا بقضائه، مسلما لأمره، لا يرى عزا إلا التعزز به، ولا شرفا إلا في الإقبال عليه، فيرجو الله، ويشكره على نعمه عليه(٢٦٠).

١١- آلية الاستمداد:

أي: أن يستمد العون، ويطلب المدد من الله وحده، ويتضرع إليه أن يتوب عليه، ليوفقه إلى التوبة، يقول ابن القيم:

«وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه: قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا؛ إذنا وتوفيقا، وإلهاما، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا؛ قبولا وإثابة.

قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، فأخبر- سبحانه- أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته (...) وهذا القدر من سر اسميه (الأول والآخر) فهو المُعِدُّ، وهو الممد، ومنه السبب والمسبب (...) والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده، بعد الإباق (الفرار- الهرب) وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد(٢٦١).

فالاستمداد لمن يشتهي التوبة أن يطلب من الله أن يتوب عليه، أن يسأله، ويدعوه، أن يوفقه لها، وأن يأذن له بها، ويلهمه إياها، ويقبل بقلبه تائبا إليه، فهو الذي أيده بمعونته، وأمده بمدده «وهو الذي ابتدأ تنبيهه، وحرك قلبه للنظر إلى نفسه، وعرفه سوء رغبتها، وقلة مبالاتها بآخرتها، فلما استقر في قلبه ما وهبه الله - سبحانه - من نور طاعته، والسرور بما هم به؛ حيي قلبه، وقوي عزمه، وَقَهَرتْ أنوار الطاعة هواه»(٢٦٢) فتاب إلى الله متابا.

---

(٢٦٠) المحاسبي: بدء من أناب إلى الله، مصدر سابق، ص ٣٩ - ٤١.
(٢٦١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج١، مصدر سابق، ص ٣٥.
(٢٦٢) المحاسبي: بدء من أناب إلى الله (التوبة)، مصدر سابق، ص ٢٨، ٢٩.

والمقصد هنا: أن الدعاء، عبادة، ووسيلة تربوية لتأكيد وتثبيت طلب القلب للتوبة، فيه، وطلب المعونة على التوبة من الله، بالتضرع، وتوجه القلب إلى الله، بمثل هذه الأدعية: اللهم أقبل بقلوبنا إليك حتى نعرفك حسنا، وحتى نعبدك حسنا، وحتى نرعى عهدك حسنا، اللهم نق قلبي من الخطايا.. واغسله، واصقله من الران الذي غشاه، وأقبل بقلوبنا حتى نتوب إليك توبة نصوحا، اللهم أقمنا على طريق آدم وداود ومحمد.

يا من يرى مَدَّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأَلْيَلِ
ويري مَنَاط عروقها في لحمها ... والمخ من تلك العظام النُّحَّلِ
ويرى، ويسمع حِسَّ ما هو دونها ... في قاع بحر مظلم مُتَهَوِّلِ
امنن عليَّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مني في الزمان الأولِ

ويمكن طلب الدعاء ممن يرجى أن يقبل الله دعاءه، ويمكن الدعاء في الصلاة، وفي السحر، المهم أن ندعو بيقين، وإثبات من القلب، أن يرزقنا الله محبة التوبة، والالتزام بحقيقتها. وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك.

وكان داود عليه السلام يقول: «**سبحان خالق النور، إلهي، إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إليَّ روحي، سبحان خالق النور، إلهي، خرجت أسأل أطباء عبادك؛ أن يداووا لي خطيئتي، فكلهم عليك يدلني، سبحان خالق النور، إلهي، ويل لمن أخطأ خطيئة: حصادها عذابك؛ إن لم تغفرها له**».

وقال حسين الجعفي (ثقة، عابد): كنت أسمع محمد بن سوقة (أبو بكر، الغنوي، العابد الثقة)، كثيرا يقول: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأسأله توبة نصوحا»[(٢٦٣)].

---

(٢٦٣) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٥٥، ص ٤٧، ورقم ٥٨، ص ٤٨ وإسناده لا بأس به، ورقم ١٠٥، ص ٦٥ وإسناده لا بأس به.

و - خاتمة لمبحث التوبة:

١- إن التوبة عملية تصحيح، وتغيير، وتنمية شاملة للذات الإنسانية، لكي تكون نفسا آدمية حقا، مسلمة لله فعلا، فالتوبة تصحيح لنسبتنا لآدم، إنها عملية (أنسنة) حقيقية للإنسان «فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم؛ بملازمة حد الإنسان، والمصر على الطغيان: مسجل على نفسه بنسب الشيطان»(٢٦٤).

فالتوبة هي (أنسنة)، أي: إرجاع التائب للخاصة الإنسانية، بعد أن انحرف إلى دائرة الإبليسية، أو البهيمية، فهي تخليص لجوهر الإنسان؛ لقلبه وروحه وإرادته، وعقله، ووجدانه، وسلوكياته كلها من جميع أنواع الهبوط والانحطاط، والخبائث، إنها تطهير وتصفية، وتجلية للذات الإنسانية، إنها صقل للقلب، وتنوير له، ليكون صافيا، شفافا، نقيا، رقيقا، حساسا، يليق أن يكون سائرا إلى الله.

٢- فالتوبة قيمة شاملة، للقلب والجوارح، وقد بينا كيف نكتسبها، وفي الأخير نتأمل قول الشيخ القدوة: «تب، واثبت على توبتك، فليس الشأن في توبتك، الشأن في ثبوتك عليها، ليس الشأن في غرسك، الشأن في ثبوته، وتغصينه وثمرته»(٢٦٥).

فلنغرس شجرة التوبة في أصل قلوبنا، ونربيها بالدرس، والحب، والإرادة والعلم والعمل.

ويقول أبو حازم: «عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر»(٢٦٦).

٣- وقد رأينا أن تربية القلب التائب المصقول هي فعل إنساني ذاتي، فردي

---

(٢٦٤) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٣، مصدر سابق، ص ٢٠٧١.
(٢٦٥) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، مصدر سابق، ص ٢٢.
(٢٦٦) الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٣، ص ٢٣٠.

وجماعي، يتطلب جهدا وممارسات تنشأ عن مبادرة ذاتية، وعن تخطيط جماعي، وممارسات فردية، وجماعية، من صحبة، ومدارسة، وعبادة مخلصة لله.

وتربية قيمة التوبة، ومن قبلها الاستغفار، يدل على الطبيعة الخاصة لتربية القلب، من جهة، كما يدل على وجهة التربية الإسلامية التي تبدأ من تربية القلب التائب المصقول، فتغيره من العمق، وتعيد صياغته، صياغة إسلامية شاملة.

ثامنا: خاتمة الفصل الثامن: استنتاجات:

نستنتج من هذا الفصل ما يأتي:

١- إن الإنسان المؤمن العابد لله وحده، إذا أذنب، واستمر في ارتكاب الآثام، والمحرمات، فإنه قد يحجب عن الله، وينزع منه الإيمان، فيمتلئ قلبه سوادا، ورانا، فيطبع عليه، ويحجب عن الله في الدنيا والآخرة، وهذا قانون من قوانين حركة القلب الأساسية في تصور المربي المسلم، يجعله على حذر من أي ذنب، فيبادر بالاستغفار، والنزع، والتوبة.

٢- إن القلب الذي خالطه سواد وران، قد يصقل، ويجلى، إذا نزع الإنسان، واستغفر وتاب.

وهذا قانون آخر من قوانين حركة القلب، التي يلزم مراعاتها في تربيته.

٣- إن صقل القلب قيمة من قيم تربية القلب، وصقل القلب محدد بممارسة آليات أربعة:

أ- الإنكار: فينكر القلب الذنب حين يعرض عليه، ويبغضه، ويرفضه، فيكتسب نورا وقوة.

ب- إذا لم يفعل ذلك، وارتكب الذنب فعليه أن ينزع.

جـ- وأن يستغفر.

د- وأن يتوب.

فإذا تحقق ذلك بمعانيه وشروطه السابقة؛ صقل القلب، وصفا العقل، فرأى الحق حقا، والباطل باطلا.

٤- إذن، فإن من أهداف تربية القلب أن يكون تائبا، مستغفرا، مصقولا؛ ممارسا لذلك، متجها إلى الله.

وقد بينا أساليب ذلك، فلا نعيده.

٥- إن طبيعة تربية قيمة التوبة والاستغفار والنزع، لصقل القلب، أنها تربية تقوم على الجهد الذاتي أساسا، وعلى تثقيف الذات، وممارساتها ومبادراتها الذاتية، طبقا لما بيناه في الآليات، في الاستغفار والتوبة، وهي جهد مستمر.. لتربية شجرة المعرفة والمحبة، والإرادة، والاستغفار، والتوبة، حتى تبسق وتنبع وتثمر.

وهي جهد من الرجال والنساء، لكنها- أيضا- جهد جماعي، من خلال المدارسة المشتركة، والمحاسبة المشتركة، والصحبة المربية، والدورات التربوية الجماعية.

ومن هنا فإن إكساب المسلم قيمة صقل القلب، بالنزع والاستغفار والتوبة، هي جزء من أهداف الاستراتيجية التربوية الإسلامية للحركة الإسلامية؛ لأنها بآلياتها عملية تغيير جذري للنفس الإنسانية، التي هي أساس التغيير الاجتماعي، وإخراج الصف المسلم، التجمع العضوي الطليعي الذي يقود، ويمارس، عملية التغيير الجذري الشاملة.

تاسعا: أسئلة وتطبيقات لزيادة الفهم وتسهيل الممارسة:

١- في هذا الفصل قانونان لحركة القلب وتحوله، وضحهما بأسلوبك، مبينا أهميتهما في تربية القلب، وإكمال تصور المربي المسلم عن موضوع تربيته.

٢- حلل مفهوم الران، ووضح كيف يتحول إلى حجاب عن الله، ثم بين نتائج هذا الران على القلب.

٣- ما الأساليب الأربعة للتخلص من الران، وصقل القلب؟

٤- صقل القلب قيمة للقلب، فما المقصود به؟

٥- إذا ارتكبت ذنبا - مثل القسوة على أمك، أو إيذاء جارك، أو ترك صلاة، فحدد نتائج وآثار هذا الذنب في قلبك، موظفا ما قرره ابن القيم، وما جاء في هذا الحديث، ثم بين كيف تنزع منه، وتستغفر، وتتوب؟

٦- ماذا تصنع إذا أذنب أخ لك في الله ذنبا؟

٧- حلل مفهوم النزع، هل جاء هذا التحليل المذكور في هذا الفصل بجديد عما تعرف؟

٨- اذكر معاني الاستغفار، ثم بين طريقة تختارها له، وصل ركعتين مقبلا بقلبك فيهما، ثم استغفر بالصيغ الواردة في هذا الفصل.

٩- هل ترى أنني أطلت في تحليل حقيقة التوبة؟ لماذا؟

١٠- ما الأساليب التربوية لاكتساب قيمة الاستغفار؟

١١- ما مفهوم التوبة؟ هل هي فعلا عملية إصلاح شاملة للذات الإنسانية؟ كيف؟

١٢- ما الآليات التربوية لاكتساب قيمة التوبة؟ اذكرها بالتفصيل.

١٣- وضح أثر النزع والاستغفار والتوبة في تربية القلب المصقول.

١٤- ما الهدف التربوي الذي تستنبطه من هذا الحديث؟

١٥- ادرس قول محمد الوراق:

قدم لنفسك توبة مَرْجُـــوَّة قبل المات، وقبل حَبْسِ الألسن

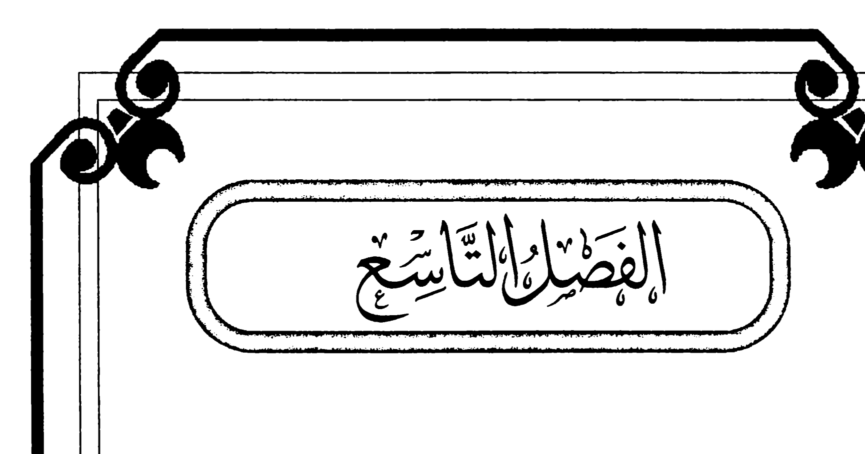
بادر بها غَلْقَ النفوس فإنها زُخْرٌ وَغُنْمٌ للمُنِيب المحسن

١٦- احفظ النص الآتي: من شعر الإمام السهيلي صاحب (الروض الأنف) في السيرة النبوية، واستخدمه في آلية الاستمداد:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المُعَدُّ لكل ما يُتَوقَعُ
يا من يرجَّى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزعُ
يا من خزائن رزقه في قول (كُنْ) ... امنن فإن الخير عندك أجمعُ
ما لي سوى فقري إليك وسيلةٌ ... فلئن رددت فأي باب أقْرَعُ
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يُمنعُ
حاشا لمجدك أن تُقَنِّط عاصيا ... الفضلُ أجزلُ والمواهب أوْسَعُ

١٧- قم بإعداد ثلاث دورات تربوية، كل دورة ليلة واحدة، دورة عن الاستغفار، ودورتين عن التوبة، ونفذها، بحيث تجمع كل دورة: المدارسة، وصلاة القيام، والمحاسبة، والتفكر.

١٨- قم بإعداد بعض الدروس من هذا الفصل، ودرسها، أو وجهها لبعض الدعاة، والمربين.



الفصل التاسع

تربية القلب الحي السليم الصالح

تربية القلب الحي السليم الصالح
(القلب مركز الصلاح أو الفساد في الشخصية الإنسانية)

أولا : نص الخطاب النبوي:

أ- قال البخاري : حدثنا أبو نُعَيْم؛ حَدّثنا زكرياء؛ عن عامر؛ قال: سمعت النعمانَ بنَ بشير يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**الحلالُ بَيِّنٌ والحرام بين، وبينهما مُشَبَّهات لا يعلمها كثير مِن الناسِ، فمن اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ؛ اسْتَبْرَأ لدينه وعِرْضِهِ، ومَنْ وقع في الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يرعى حول الحِمَى يُوشِكُ أن يُوَاقِعَهُ، أَلَا وإن لكل مَلِك حِمىً، ألا وإن حِمَى الله في أَرْضِهِ مَحَارِمُه، أَلَا وإن في الجسَدِ مُضْغَةً؛ إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدت فَسَدَ الجسَدُ كله؛ ألا وهي القَلْبُ**»[1].

ورواه البخاري في كتاب البيوع (باب الحَلال بين، والحرام بين ، وبينهما مشتبهات)؛ مِن أربع طرق عن الشَّعْبِيِّ؛ عن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**الحَلالُ بَيِّن والحَرَامُ بَيِّن، وبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَة، فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، ومَنِ اجْتَرَأَ على ما يشك فيه مِنَ الإثم أَوْشَكَ أن يواقع ما استبانَ، والمعاصي حِمى الله، مَن يَرْتَعْ حَوْل الحِمَى يوشك أن يواقِعَهُ**»[2].

ب- وأخرجه مسلم مِنْ طريق الشعبي ، عن النعمان بن بشير؛ قال: سمعتُه يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول - وأَهْوَى النعمان بِإِصْبَعَيْهِ إلى أُذُنَيْهِ: «**إن الحَلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات، لا يعلمهن كثير مِنَ**

(١) فتح الباري، كتاب الإيمان، حديث رقم ٥٢، ج١ ، ص ١٢٦.
(٢) فتح الباري، ج ٤، رقم ٢٠٥١، ص ٢٩٠.

الناس، فمن اتقى الشبُهَاتِ استبرأ لدينه وعِرْضِه، ومَن وقع في الشبهات؛ وقع في الحرام، كالراعي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل مَلِكٍ حِمًى، أَلا وإن حمى الله محارمُه، ألا وإن في الجسَدِ مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كُله، وإذا فَسَدَت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٣).

جـ- وأخرجه ابن ماجه(٤)؛ عن النعمان بن بشير؛ قال على المِنْبَرِ، وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مُشْتَبِهات لا يعلمها كثير من الناسِ..» وساق مثل حديث مسلم السابق بتمامه، إلا أنه قال: «كالراعي حَوْلَ الحِمَى..».

د- وأخرجه أحمد؛ مِن طريق عاصم، عن خَيْثَمَةَ، ومن طريق زكرياء، ومجالد، عن الشعبي، فرواه عن عاصم عن خيثمة والشعبي؛ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ: «حَلالٌ بين، وحَرَام بين، وشبهات بين ذلك، مَنْ ترك الشبهات فهو للحرام أتْرَكُ، وَمَحَارِمُ الله حِمى ، فَمَنْ أَرْتَعَ حَوْلَ الحِمَى؛ كَانَ قَمِنًا أنْ يُرْتِعَ فِيهِ»(٥).

ورواه عن زكريا؛ قال : حدثنا عامر؛ قال : سمعتُ النعمان بن بشير يخطب، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَثل المؤمنين في توادهم (...)» وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير مِنَ الناسِ، فمن اتقى الشبهات استبرأ فِيهِ لدينه وعِرْضِهِ، ومَنْ واقَعَها؛ واقَعَ الحرام؛ كالراعي يرعى حَوْلَ الحِمَى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكُل مَلِك حِمى، وإن حمى الله ما حَرَّم، ألا وإن في الإنْسَانِ مضغة، إذا صلحت؛ صَلَحَ الجَسَدُ كله، وإذا فَسَدَت؛ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه، أَلا وهي القَلْبُ»(٦).

---

(٣) إكمال المعلم، ج ٥، حديث رقم ١٥٩٩، ص ٢٨٤- ٢٨٨، وصحيح مسلم بشرح النووي، ج ١١، مؤسسة مناهل العرفان، دمشق، ص ٢٦- ٢٨.
(٤) قال الألباني : صحيح ، انظر : صحيح سُنَنِ ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٢٣٤، ص ٣٠٥.
(٥) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٦٣، ص ١٤٦.
(٦) المصدر السابق، ج ١٤، رقم ١٨٢٨٨، ص ١٥٤.

وقال أحمد: حدثنا سفيان؛ عن مُجَالِدٍ؛ ثنا الشعبي، سمعه من النعمان بن بشير؛ سمعت رسولَ الله ﷺ وكُنْتُ إذا سمعته يقول : سمعت رسولَ الله ﷺ؛ ظَنَنْتُ ألا أسمع أحَدًا على المنبر يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : «**إن في الإنسانِ مُضْغَةً، إذا سَلِمَتْ وصَحَّتْ؛ سَلِم سائرُ الجَسَدِ وَصَحَّ، وإذا سَقُمَتْ؛ سَقُم سائِرُ الجَسَدِ وفَسَدَ؛ ألا وهي القَلْبُ**»(٧).

هـ- وأخرجه عبد الرزاق؛ قال : أخبرنا مَعْمَر، عن الأعمش، عن خيثمة، عن النعمان بن بشير؛ عن النبي ﷺ قال : «**في الإنسان مضغة، إذا صحت صَحّ سائر جسده، وإذا فَسَدَت؛ فَسَدَ سائر جَسَدِه؛ يَعْني : القلب**»(٨).

و-وأخرجه البيهقي، في السنن الصغير، وفيه: «**ألا وإن في الجسَدِ مضغة إذا صَلَحَتْ؛ صَلَح الجسد كله، وإنْ فَسَدَت فَسَدَ الجسَدُ كله، ألا وهي القَلْبُ**»(٩).

ثانيا: أهمية هذا الحديث:

هذا الحديث أحد أركانِ العِلم الشرعي، عَظَّمَ مَوْقِعَهُ في بيان الدين، أئمةُ الإسلام وشُرَّاحُ الحديث النبوي؛ يقول المازريُّ : «هذا الحديث جليل الموقع، عظيم النفع في الشرع، حتى قال بعضُ الناسِ بأنه ثلث الإسلام(...)».

---

(٧) إسناده حسن، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٣٢٥، ص ١٦٥، وهذا الحديث رواه الترمذي، عن مجالد، عن الشعبي؛ عن النعمان بن بشير، وليس فيه: «**ألا وإن في الإنسان مضغة..**» وقال: هذا حديث حسن صحيح، فالترمذي صحح لمجالد، هنا، خصوصا أن له مُتَابعا، انظر: سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٢٠٩، ص ٣، ورواه النّسَائي؛ من طريق ابن عَوْن عن الشعبي، وليس فيه: «**ألا وإن في الجسد مضغة**» سنن النسائي، ج ٧، رقم ٤٤٥٣، ص ١٧٣، ١٧٤، ورواه أبو داود من طريق ابن عون، مثل رواية النسائي، سنن أبي داود، ج ٣ ، رقم ٣٣٢٩، ص ٢٠٦، ورواه أيضا من طريق زكريا عن عامر الشعبي، نفس المصدر، رقم ٣٣٣٠ ص٢٠٧. وأخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء، من طريق ابن عون، وليس فيه الفقرة الأخيرة، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٣٧٢.

(٨) عبد الرزاق الصنعاني : المصنف، كتاب الجامع، ج ١١، رقم ٢٠٣٧٦، ص ٢٢١.

(٩) البيهقي: كتاب السنن الصغير، ج ١، رقم ١٩١٧، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

قال الإمام: «وإنما نَبَّه أَهْلُ العلم على عِظَمِ هذا الحديث؛ لأن الإنسانَ إنما يُعْتَبَرُ بطهارة قلبه وجسده، فأكثر الـمَذَامّ والمحظورات إنما تنبعث مِنَ القلب، فأشار ﷺ لإصلاحِه؛ على أن صلاحه هو صلاح الجسد، وأنه الأَصْلُ، وهذا صحيح، يؤمن به حتى من لا يؤمن بالشرع، وقد نَصَّ عليه الفلاسفة والأطباء»(١٠).

ويقول النووي: «أجمع العلماء على عِظَمِ موقع هذا الحديث، وكثرة فوائده، وأنه أَحَدُ الأحاديث التي عَلَيْها مَدَارُ الإسلام، قال جماعة: هو ثلث الإسلام، وأن الإسلامَ يدور عليه، وعلى حديث: «**الأعمال بالنية**»، وحديث: «**مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يَعْنيهِ**»، وقال أبو داود: يدور على أربعة أحاديث؛ هذه الثلاثة، وحديث : «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لِنَفْسِهِ**»، وقيل: حديث: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس؛ يحبك الناس**».

قال العلماء: وسبب عِظَمِ موقعه: أنه ﷺ نَبَّهَ فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس، وغيرها، وأنه ينبغي ترك المشتبهات؛ فإنه سبب لحماية دِينه، وعِرضه، وحَذّر من مواقعة الشبهات، وأوضح ذلك بضرب المثل بالحِمَى، ثم بَيَّن أَهَمَّ الأمور: وهو مراعاة القلب، فقال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة**»، إلى آخره، فبين ﷺ أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد، وبفساده يفسد باقيه»(١١).

وقال الخطابي: «هذا الحديث أَصْل في الوَرَع، وفيما يلزم الإنسان اجتنابُه مِنِ الشبهة والريْبِ»(١٢).

ويقول ابن حجر: «وفد عَظَّمَ العُلَماء أمْرَ هذا الحديث، فعدوه رابع أربعة تدور عليها الأحكام، كما نُقِلَ عن أبي داود، وفيه البيتان المشهوران، وهما:

---

(١٠) إكمال المعلم، ج ٥، ص ٢٨٥.

(١١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١١، ص ٢٧.

(١٢) الإمام أبو سليمان الخطابي البُسْتِي: معالم السُّنَنِ، ج ٣، ط ٢، المكتبة العِلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ. ١٩٨١م، ص ٥٦.

عمـدة الـدين عنـدنا كلـمات مُـسْنَدَات مِـن قـولِ خَـيْرِ البريـهْ
اتـق الشـبهات ، وازهـد، وَدَعْ مـا لـيس يَعْنيـك، واعْمَلَـنْ بنيـهْ

وأشار ابن العربي إلى أنه يمكن أن يُنْتَزَعَ منه وحـده جميـع الأحكـام. قـال القرطبي: لأنه اشتمل على التفصيل بـين الحـلال وغـيره، وعـلى تعلـق جميـع الأعمال بالقلب، فمِن هُنَا يمكن أن تُرَدَّ جَمِيعُ الأحكام إليه»[١٣]، فَهُوَ حـديث عظيم الموقع، وأحدُ أسْبَابِ عِظَمِ موقعِـه هـو أنـه يبـين أهـم الأمـور وأصـل الأصولِ، وهو مراعاة القلب وإصلاحه .

وقد بنى أبو طالب المكي فَصلا من أجـود فـصول كتابـه قـوت القلـوب، جعل أصله هذا الحديث، قـال في أولـه: ذكـر تفـصيل الحَـلاَل مـن الـشبهة: الأصـل في ذلـك حـديث الـنعمان بـن بـشير عــن النبـي ﷺ: «الحـلال بين(...)»[١٤] إلخ.

ولأن موضوع هذا الكتاب هـو تربيـة القلـب في الحـديث النبـوي، فإننـا سنهتم جدًّا بجزئه الأخير المتعلق بالقلب، لكن باقي الحـديث شـديد الـصلة بالقلب، فهناك مُنَاسبة قوية بين محاور الحديث، والمحور القلبي فيه، يقول ابنُ حجر: «ومناسبتُها لِمَا قبلها: بالنظر إلى أن الأصل في الاتقاء والوقوع هـو مـا كان بالقلب؛ لأنه عماد البدن»[١٥].

بل إن أبا طالب المكي يعرف الحلال والحرام والشبهة باعتبـار علاقـة كـل منها بالقلب، يقول : «والحَلاَل: ما ظهر وتبَين وكُنْتَ على يقين منـه، واطمـأن

---

(١٣) فتح الباري، ج ١، ص ١٢٩، وقد أثبتُّ رواية القاضي عياض للبيت الثاني، بدلا مـن روايـة ابـن حجر، والبيت الأول عنده هكذا: عمدة الدين عندنا كلمات أربع مـن كـلام خـير البريـة، انظـر: إكمال المعلم، ج ٥، ص ٢٨٤ . حاشية السيوطي على سنن النسائي، ج ٧ ، ص ١٧٣ حيـث نقـل كلام المازري وعياض ، تقريبا .

(١٤) أبو طالب المكي: قـوت القلـوب، ج ٤ ، ط الهيئـة المـصرية العامـة للكتـاب، القـاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥٣٦ - ٥٦٢.

(١٥) فتح الباري، ج ١ ، ص ١٢٩ .

قَلْبُ المؤمن العالم، والحرام ضده، فهو أيضا ما تبين وانكشف على يقين منه، ولم يختلف أحد من المسلمين فيه، ونفر قلب المؤمن واشمأز منه. وقد تطمئن بعض القلوب إلى شيء؛ لقلة ورعها، وقد تنفر بعض القلوب من شيء لقصور علمها، وليس يقع بمثل هذين القلبين اعتبار، وإنما الاعتبار بالقلب المعيار، الذي جعل كالمحك، يختبر به معادن الملكوت، وهو قلب المؤمن الموقن العالم... إلخ»[(١٦)] .

وسيأتي بيان أوسع لهذا فيما بعد، ومن هنا فإني أقدم - أولا - شرحًا مُوجَزًا لهذا الحديث، ثم أفصل الأصول التربوية المتعلقة بالجزء الخاص بالقلب، والله المستعان.

ثالثا : شرح موجَز لِحَدِيث «الحَلال بَيِّن وَالْحرَامُ بَيِّن»:

١ - يقول النبي ﷺ : «**الحَلاَل بين والحرام بين**». وفي رواية مسلم: «**إن الحلال بين، وإن الحرام بين**» أي : الحَلاَلُ: الذي لا إثم عليكم في فعله، وليس بمحْظُور عليكم، ولا بممنوع أن تفعلوه؛ بَيِّن: واضح، ظاهر، مُحَدَّدٌ لا لَبْسَ فيه، ولا اشتباه في ذاته، ولا في وصفه؛ فالحَلاَل المحض، الخالص، لا اشتباه فيه، ولا غموض، وقد انحلت الآثام عنه، وانحلت المطالبة عنه، وقد نص الوَحْي على طلبه، مع الوعيد على تركه، وهو حَلاَل بتحليل الله له، فالله حكم بأنه حَلاَل، وقرر ذلك ببيان ظاهر واضح لا غموض فيه ولا التباس، فالحَلاَل واضح لا يخفى حِلُّه؛ كالخبز والفواكه، والزيت، والعسل، والسمن ولبن مأكولِ اللحم وبيضه، وغير ذلك من المطعومات، وكذلك الكلام، والنظر والمشي، وغير ذلك من التصرفات، فيها حلال بين واضح لا شك فيه، وذلك مثل أكل الطيبات من الزروع والثمار، وبهيمة الأنعام، وشرب الأشربة الطيبة ولباس ما يحتاج إليه من القطن والكتان، أو الصوف، وكالنكاح بعقد

---

(١٦) المكي : قوت القلوب، ج ٤، ص ٥٣٧.

صحيح، واكتساب المال بِعَقْدٍ صحيح؛ كالبيع، أو بميراث، أو هبة، أو غنيمة في حرب مشروعة.. إلخ .

وقوله : «**الحلال بين**»؛ يعني- أيضًا، من حيث الحكم: تبين بأنه لا يضر تناوله، ولا يفسد القلبَ، أو الخلق، أو العلاقات الاجتماعية. فأكل الحلال، ولبس الحلال، وفعل الحَلاَل، هو صَلاحٌ للقلب، وإرضاء للرب.

وكذلك الحرام، الذي نص الله على حرمته، ومنعه، هو واضح كذلك في ذاته ووصفه، لا اشتباه فيه، ولا التباس، وقد نص الوحي على منعه وتركه، مع الوعيد على فعله، وهو حرام بتحريم الله له، وحرمته ثابتة لا تتغير، مثل أكل الخبائث، والميتة، والدم ولحم الخنزير، وشرب الخمر، وكل مسكر، ونكاح المحارم، ولبس الحرير، والذهب للرجال، وأكل الربا، وتبرج النساء، والزنى والسرقة، والغصب، والرشوة، والكذب، والنميمة، والغيبة، والنظر إلى المرأة الأجنبية، وأشباه ذلك .

وقوله : «**الحرام بين**» يعني- أيضًا : بين واضح أنه يضر فعله، بالقلب، فهو يقسي القلب، وبالأخلاق، وبالعلاقات في المجتمع، وبالبيئة المحيطة، فبين أن فعل الحرام يفسد القلب، ويسقمه، ويفسد الأرض(١٧).

ففعل الحلال وتعاطيه، وترك الحرام، واجتنابه، هو صلاح للقلب، وتحقيق للورع، وتكميل للإيمان الواجب، وقد بين الله- تعالى- في القرآن، وبين الرسول ﷺ في السنة ما أمر الله به من الحلال، وما حرمه الله- تعالى - وتوفي رسول الله ﷺ وقد ترك الأمة إلى يوم القيامة على منهاج واضح نقي، خالٍ من الغموض، مبين، كله نور، فَلَيْله كنهاره.

«وفي الجملة؛ فما ترك الله ورسولهُ حلالًا إلا مُبيّنًا، ولا حراما إلا مبينا،

---

(١٧) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١١، ص ٢٧ فتح الباري، ج ١، ص ١٢٧، وفتح الباري، ج ٤ ، ص ٢٩١، ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٨٦ ، ٨٧، حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي؛ ج ٧، ص ١٧٣، أبو طالب المكي: قوت القلوب، ج ٤، ص ٥٢٥-٥٣٧.

ولكن بعضه كان أظهر بيانا من بعض، فما ظهر بيانُه واشتهر، وعلم من الدين بالضرورة، مِن ذلك، لم يبق فيه شك، ولا يُعْذَرُ فيه أحَد بجهله، في بلد يظهر فيه الإسلام»(١٨).

ب- ويقول النبي ﷺ: «**وبينهما مُشَبَّهات لا يعلمها كثير من الناس**»، وفي رواية للبخاري: «**وبينهما أمور مشتبهة**»، وفي رواية مسلم: «**وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس**»، وعند ابن ماجه: «**لا يعلمها كثير من الناس**» وفي الترمذي: «**وبين ذلك أمور مشتبهات**» لا يدري كثير من الناس: أمِن الحَلاَل هي أم من الحرام . وفي أبي داود: «**وبينهما أمور متشابهات**، أحيانا يقول: **مشتبهة**». وفي رواية النسائي: «**وإن بين ذلك أمورًا مشتبهات**»، وربما قال : «**وإن بين ذلك أمورًا مشتبهة**»: فالمشُبَّهات أو المشتبهات، أو المتشابهات- في سياقنا هذا- تفسرها رواية الترمذي: لا يدري كثير من الناسِ: أمِن الحلال هي : أمْ مِنَ الحرام؟ فالمشتبهات هي الأمور التي : «ليست بواضحة الحل ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس، ولا يعلمون حكمها، وأما العلماء فيعرفون حكمها؛ بنص أو قياس، أو استصحاب ، أو غير ذلك»(١٩).

وقد فَصَّلَ المازرِيُّ في هذه النقطة، فيقول: «والأحكام والعبادات التي يتصرف الإنسان عليها بقلبِه وجسمه، تقع فيها مشكلات وأمور ملتبسات، التساهُلُ فيها، وتعويدُ النفسِ الجرأةَ عليها يُكْسِبُ فساد الدين والعِرض، فنبه ﷺ على توقي هذه (...) بقي أن نتكلم على هذه المشتبهات (...) ونحن نبهكم على أمثل طريقة؛ فاعلم أن الاشتباه هو الالتباس، وإنما يُطْلَقُ - في مقتضى هذه التسمية ها هنا- على أمر - ما - أَشْبَه أصْلًا ما - ولكنه- مع هذا - يشبه أصْلًا آخر، يُنَاقِض الأصل الآخر، فكأنه كَثُرَتْ أشبَاهُه، وقيل: اشتبه؛ بمعنى: اختلط، حتى كأنه شيء واحد مِن شيئين مختلفين، وإذا أحطت بهذا

(١٨) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٨٧.
(١٩) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١١، ص ٢٧، ٢٨ .

عِلْمًا، فيجب أن تطلب هذه الحقيقة، فنقول : قد تكون أصول الشرع المختلفة تتجاذب فرعا واحِدًا، تجاذبا متساويا، في حق بعض العلماء، ولا يمكن تصور ترجيح، ورده لبعض الأصول يوجب تحريمه، ورده لبعضها يوجب تحليله، فلا شك أن الأحوط تجنب هذا، ومَنْ تجنَّبَه وُصِفَ بالورَع والتحفظ في الدين(...)، ومِن هذا المعنى : أن يعلم أَصْلَ الحكم، ولكنه يلتبس بوجود شرط الإباحة، حتى يتردد بينه وبين شرط التحريم، (...) وهذا إذا كان الاشتباه من جهة أصول الشرع، بَعْدَ نظرٍ صحيحٍ فيها، أو في القسم الأخير الذي ذكرناه، مع فقد أصول ترد إليها، وعدم أمارات وظنون يُعَوَّل عليها. وأما إذا كان الأَمْرُ خلاف ذلك؛ فليس من الورع التوقف، بل ربما خرج بعضُه إلى ما يُكْرَه»[٢٠]. مثل الشكوك التي ليس لها مستند، أو لها مستند، ولكن الشرع عَفَا عَنْه لِعظَمِ الضرورة ..إلخ ، ثم يقول : «هذه المسائل التي نصصنا على بعضها، وأشرنا إلى بقيتها، تختلف طرق الاشتباه، وتضعف، فيكون الاجتناب، حينئذ، مستحبا، غير واجب، ولكنه ﷺ أتى بلفظ دال على استحباب التوقي، ولا شك أن اسْتِحسَانَ التوقي يعم جميعها، ما لم تكن من الشكوك الفاسدة التي أشرنا إليها»[٢١].

فالمشتبهات هي الملتبسات المختلطات التي لا يدري الإنسانُ: هَلْ هي حرام أم حلال؟ فهي أمور شُبِّهَتْ بغيرها، مما لم يتبين به حكمها على التعيين؛ أي: لها وجهان متعارضان؛ فلا يعلم كثير من الناسِ حكمها؛ فالاشتباه إنما يكون عند الجاهل بالأحكام، أَمَّا العلماء المجتهدون فيعلمون حكمها؛ قال ابن حجر: «ومفهوم قول: «كثير»؛ أن معرفة حكمها ممكن، لكن للقليل من الناسِ، وهم المجتهدون، فالشبهات - على هذا - في حق غيرهم»[٢٢].

---

(٢٠) إكمال المعلم، ج ٥، ص ٢٨٥- ٢٨٦.

(٢١) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(٢٢) فتح الباري، ج ١ ، ص ١٢٧.

فالمشتبهات- إذن- هي ما اخْتُلِفَ في تحليله وتحريمه، لأسبابٍ؛ ولكن لا بد في الأمة مِنْ عالِمٍ يُوافِقُ قولُه الحق، فيكون هو العالم بهذا الحكم، وغيره يكون الأمْرُ مشتبها عليه، ولا يكون عالِمًا بهذا، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالةٍ، ولا يظهر أهل باطلها على أهل حقها، فلا يكون الحق مهجورًا غير معمولٍ به في جميع الأمصار والأعصار، ولهذا قال رسول الله ﷺ في المشتبهات: «**لا يعلمهن كثير من الناس**».

فدل على أن من الناسِ من يعلمها، وإنما هي مشتبهة على مَنْ لَمْ يَعْلَمْها، وليست مشتبهة في نفس الأمْرِ، فهذا هو السبب المقتضي لاشتباه بعض الأشياء على كثير من العلماء[٢٣]، «وقد فسر الإمام أحمد الشبهة بأنها منزلة بين الحلال والحرام؛ يعني: الحَلاَلَ المحض، والحرام المحض، وقال: من اتقاها فقد استبرأ لدينه، وفسرها- تارة- باختلاط الحلال والحرام»[٢٤].

ويقول أبو طالب المكي: «والشبهات على وجوه: أَحَدُها: ما أشبه الحلالَ مِنْ وَجْهٍ، وما أشبه الحرامَ من وجه، وما اختلط- أيضًا- بها، فاشتبه؛ فلم يتميز منها، والشبهة أيضا: ما دل ظاهر العلم على تحليله، وهو حلال الحكم، وأظهر باطن الورع الوقوف عنه (...) والشبهة : ما اختلف فيه لخفاء أدلته، أو لتكافئها بالسوية، وما لم تره عينك فتقطع على غيبة عينه، والحلال والحرام ما أجمعوا عليه، وظهرت الأدلة فيه، والشبهة- أيضًا- ما جهل سببه، وصودف فيه حُكم، إلا أن عينه مجهولة غير متيقن بتحليلها، (...) ثم تختلف نفس الشبهة، فيكون ذلك شبهة الحلال، وتكون شبهة الحرام، وتكون شبهة كدرة، وتكون شبهة مقاربة (...) فأما الحرام فطعمة الفاسقين، أكله فسق، وطلبه فسق، وإطعامه فسق، والمعاونة عليه فسق، والمعين عليه فاسق، وهو من

---

(٢٣) ابن رجب : جامع العلوم والحكم، ص ٨٨، ولبيان أسباب الاشتباه وأنواعه، انظر : نفس المرجع، ص ٨٧- ٩١، أبو طالب المكي: قوت القلوب، ج ٤ ، ص ٥٣٧- ٥٤٠.

(٢٤) ابن رجب : جامع العلوم والحكم، ص ٨٩.

الكبائر وليس من حاجة المسلمين، ولا بغيتهم، والحَلاَل هو ما أحله الكتاب والسنة، وحللته الأحكام والعلوم من سائر الأسباب والمعاني المطلقة المباحة للتصريف (والحلال) هو بغية المؤمنين، وطعمة المتقين، ومقام الصالحين، طلبه جهاد، وإطعامه بر، والمعاونة عليه تقوى، وأكله عبادة. والمدمن عليه مؤمن تقي، والشبهة ما اختلف العلماء فيه.. أو ما التبس باطنه واشتبه، وخفي الاستدلال، فلم يكن بينا، ولم يجمع أهل الباطن والورع عليه، كما قال ﷺ: «**لا يعلمه كثير من الناس**»(...) فإن ابتليت بهذه فخذ منها حاجتك وضرورتك من كل شيء تكن بذلك فاضلًا ، ويصح لك مقام في الورع، والاستكثار منه والاقتناء مكروه، وتركه إذا أمكن أفضل لأن في الخبر: من تركه فقد استبرأ لدينه وعرضه، أي: تنزه، وتنصف وتفقد دينه واحتاط له(...) وفَصْلُ الخِطَابِ أنه ليس على المرء أكثر من جهده وطاقته، وأن يعمل في دينه بمبلغ علمه، وما يؤدي إليه اجتهاده ووسعه (...) ولا يرخص لنفسه بهواه رخصة، فإن قصر علمه استعان بعلم غيره، فما أخطأ حقيقة وراء ذلك فهو معفو الخطأ..إلخ»[٢٥].

فالأمر المشتبه: إما هو مشتبه بسبب تجاذب الأصول المبني عليها الحكم بالحل والحرمة في هذا الأمر، وهذا يعلمه بعض العلماء من خلال الاجتهاد؛ «فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة، ولم يكن فيه نص، ولا وإجماع؛ اجتهد فيه المجتهد، فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا ألحقه به (أي: بالحلال) صار حَلاَلا، وقد يكون دليلُه غَيْرَ خَالٍ عن الاحتمال البَيّن؛ فيكون الورَعُ تركَه، ويكون داخلا في قوله ﷺ : «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**» وما لم يظهر للمجتهد فيه شيء ، وهو مشتبه؛ فهل يؤخذ بحِله، أم بمحرمته؟ أم يتوقف؟ فيه ثلاثة مذاهب (...)، الأصح أنه لا يحكم بحل ولا حرمة، ولا

(٢٥) أبو طالب المكي: قوت القلوب، ج ٤ ، ص ٥٣٧- ٥٤١ .

إباحة ولا غيرها؛ لأن التكليف عند أهل الحق لا يثبت إلا بالشرع[٢٦].

هذا إذا كان الاشتباه بسبب الالتباسِ الراجع لتجاذب الأدلة؛ أما إذا كان الاشتباه راجعًا لاختلاط الحَلاَل بالحرام، ولا يمكن فصلهما: فالورع: تركه، وتجنبه؛ لأنه يجتذبه جَانِبا الفعل والترك، وهذا هو الذي يُسَمّى (شبهة) ، وأحيانًا يُسَمّى (مكروها) ، قال ابن حجر: «ونقل ابنُ المنير في مناقب شيْخه القَبّاري، أنه كان يقول: المكروه: عقبة بين العبد والحرام، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام ، والمباح عَقَبَة بينه وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه، وهو منزع حسن، ويؤيده رواية ابن حِبان من طريق ذكر مسلم إسنادها، ولم يَسُقْ لفظها، فيها من الزيادة : «**اجعلوا بينكم وبين الحرام سُترة من الحلال، مَنْ فَعَل ذلك؛ استبرأ لِعِرضه ودينه، ومَنْ أرتَع فيه؛ كان كالمرتع إلى جَنْبِ الحِمَى، يوشك أن يقع فيه**» والمعنى: «إن الحلال – حيث يُخْشَى أن يؤول فِعْلُه مطلقا إلى مكروه، أو محرم، ينبغي اجتنابه»[٢٧].

قلت : هذا يحتاج لضبط، فالحلال بين، ولا يضر فعله، لكنه إذا آل الحَلاَل إلى مكروه، وتحققنا من هذا؛ فيستحب تركه، وإذا آل الحَلاَل إلى محرم، وتحققنا من هذا؛ وَجبَ تركه.

وقال الخَطَّابِي[٢٨]: «هذا الحديث: أصل في الورع، وفيما يلزم الإنسان اجتنابه من الشبهة والريْب.

ومعنى قولِهِ : «**وبينهما أمور مشتبهات**» أي: أنها تشتبه على بعض الناسِ دون بعض وليس أنها في ذوات أنفسها مشتبهة لا بيان لها في جملة أصول الشريعة، فإن الله لم يترك شيئا يجب له فيه حكم إلا وقد جعل فيه بيانا، ونصب

(٢٦) صحيح مسلم، بشرح النووي، ج ١١، ص ٢٨.
(٢٧) فتح الباري، ج١، ص١٢٧.
(٢٨) الإمام الخطابي: معالم السنن، ج ٣ ، ص ٥٦– ٥٨ .

عليه دليلا، ولكن البيان ضربان: بيان جلي، يعرفه عامة الناس كافة، وبيان خفي لا يعرفه إلا الخاص من العلماء الذين عُنُوا بِعلم الأصولِ، فاستدركوا معاني النصوص، وعرفوا طرق القياس، والاستنباط، ورد الشيء إلى المثل والنظير(...)، فإذا صار معلومًا عند بعضهم فليس بمشتَبَه في نفسِهِ، ولكن الواجب على من اشتبه عليه أن يتوقف (...) ولا يقدم إلا على بصيرة، فإنه إن أقدم على الشيء قبل التثبت والتبين، لم يأمن أن يقع في المحرم عليه، وذلك معنى : الحِمَى، وضربه المثَل به .

وقوله: «**الحلال بين والحرام بين**»: أصل كبير في كثير من الأمور والأحكام إذا وقعت فيها الشبهة؛ أوْ عَرَض فيها الشك؛ ومهما كان ذلك: فإن الواجبَ أن يَنْظُرَ: فإذا كان للشيء أصل في التحريم والتحليل؛ فإنه يتمسك به ولا يُفَارِقه باعتراضِ الشك، حتى يزيلَه عَنْ يقين العلم؛ فالمثال في الحَلاَل: ..الماء، يكون عنده، وأصله الطهارة، فيشك ؛ هل وقعت فيه نجاسة أم لا؟ فهو على أصل الطهارة حتى يتيقن أنْ قد حَلّتْهُ نجاسَة، وكالرجل يتطهر للصلاة ثم يشك في الحَدَث، فإنه يصلي؛ ما لم يعلم الحدث يقينا (...).

وأما الشيء : إذا كان أصله الحَظْرَ، وإنما يُسْتَبَاحُ على شرائط وعلى هيئات معلومة؛ كالفروج لا تحل إلا بعد نِكَاح.. كالشاة لا يحل لحمها إلا بزكاة، فإنه مهما شك في وجود تلك الشرائط، وحصولها يقينًا، على الصفة التي جُعِلت عَلَمًا للتحليل؛ كان باقيا على أصْل الحَظْرِ والتحريم؛ وعلى هذا المثال: فلو اختلطت.. مذكاة بميتات، ولم يميزها بعينها، وجب عليه أن يجتنبها كلها ولا يقربها، وهذان القِسْمَان: حكمهما: الوجوب واللزوم، وها هنا قسم ثالث: وَهُوَ أن يوُجَدَ الشيء، ولا يعرف له أصل متقدم في التحليل ولا في التحريم، وقد استوى وجه الإمكان فيه؛ حِلًا وحُرْمَة؛ فإن الورع، فيما هذا سبيله: الترك، والاجتناب، وهو غير واجب عليه وجوب النوع الأول (...) فَعَلَى

هذه الوجوه الثلاثة يجري الأمر فيها ذَكَرْتُه لك».

فالأمر إذا اشتبه على الإنسان؛ فهو شبهة، أو مُشْتَبِه. والورَعُ: تركه، وبعد تفصيل يقول ابن رجب: «وبكل حالٍ: فالأمور المشتبهة التي لا يتبين أنها حلال ولا حرام لكثير من الناسِ، كما أخبر النبي ﷺ قد يتبين لبعض الناسِ أنها حلال أوْ حرام؛ لما عنده مِن مَزيد عِلْم. وكلام النبي ﷺ، يدل على أن هذه المشتبهات: مِن الناس مَن يَعْلَمُها، وكثير منهم لا يعلمها، فدخل فيمن لا يعلمها نوعان: أحدهما : مَنْ يتوقف فيها؛ لاشتباهها عليه، والثاني: من يعتقدها على غير ما هي عليه.

ودل كلامُه على أن غير هؤلاء يعلمها. ومُرَادُهُ: أنه يعلمها على ما هي عليه؛ في نفس الأمر، من تحليل أو تحريم»(٢٩).

هذه المُشَبَّهات، والملتبسات، أو المختلطات، يضر فِعْلَها بالقلب، لأنها قد تجر إلى الحرام، وتربي إرادة فعل الشر فيه، كَمَا سيأتي .

ويمكن القول: إن المشبهات: «ما أشبهت الحَلاَلَ مِن وجه»(٣٠) فأحدث هذا شَكًّا هل هي حلال أم حرام؟ والورع : ترك ذلك، والتنزه عنه، قال البخاري: «باب تفسير المشبهات، وقال حَسّان بن أبي سنان: ما رأيتُ شيئا أهْوَنَ مِنَ الورع؛ دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك»(٣١). وفي الفتح أن حَسَّانًا قال: ما عالجت شيئًا أهون عَلَيّ منه؛ يعني: الورع، قال : تركت ما يريبني إلى ما لا يريبني، فاسترحت، وقد ورد قوله: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» مَرْفوعا، أخرجه الترمذي، والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم مِن حديث الحَسَن بن علي، ومعنى الحديث: اترك ما تشك فيه، وما تتردد في حكمه، والمعنى : إذا

---

(٢٩) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٩١، ٩٢.
(٣٠) فتح الباري، ج ٤، ص ٢٩٣.
(٣١) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩١ .

شككت في شيء شكا مبْنِيا على أساس صحيح، وليس مُجَرَّدَ وسوسة أوْ ظن لا برهان عليه؛ فاتركه. وترك ما يُشَكُ فيه أصل عظيم في الورع[٣٢].

وهذا أصل في تربية القلب الورع.

جـ- والمؤمنون أمام المشتبهات ثلاثة أقسام:

الأول : الذين يعلمون حُكْمَها، ويتبعون ما دلهم عِلمهم عليه، في حكم تلك الشبهات المشتبهات، بِحِل أو بحرمة، بفعل أو بترك.

والقسم الثاني: هو المتقي للشبهات لاشتباهها عليه، والتباسها، أو اختلاطها بحلال وحرام، فيحذر منها ويخاف فعلها، ويجتنبها، ويبتعد عنها بقلبه، وإرادته، وسلوكه، وجوارحه، يقول النبي ﷺ في رواية البخاري: «**فمن اتقى المشتبهات استبرأ لدينه وعِرْضه**». وفي رواية مسلم : «**فمن اتقى الشبهات؛ استبرأ لدينه وعِرضه**»: وفي رواية لأبي داود : «**استبرأ دينَه وعِرْضَهُ**» اتقى: أي: علم أنها شبهة مُلْتَبِسَة، وحَذِر منها، وخاف فعلها، فاجتنبها، وتركها، وهذا ما توضحه رواية البخاري: «**فمن تَرَكَ ما شُبّه عليه مِنَ الإثم؛ كَان لما استبان أتْرَك**»، أي: أشد تركا للحرام والمكروه وهو الذي استبان، أي: ظهر ووضح تحريمه أو كراهيته. وفي رواية البيهقي: «**وبين ذلك أمور مشتبهة فمن ترك ما اشتبه عليه كان لما استبان له أترك ومَن اجترأ على ما يَشُكُّ فيه أَوْشَكَ أن يُواقِعَ ما اسْتَبان له..**»[٣٣] فهو قد تدرب، وتربى على ترك الشبهات، فبالأولى، والأحرى يترك ما استبان حرمته وهذا ما ذكره في رواية الإمام أحمد: «**من ترك الشبهات فهو للحرام أَتْرَك**».

وإذا فعل ذلك، وتعود عليه، وتربى عليه، فإنه يكون «**استبرأ لدينه وعرضه**»؛ لأنه اجتنب الحرام، واجتنب المشتبهات، فسَلِمَ دينَه، وسلم عِرضُه.

---

(٣٢) المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(٣٣) صحيح، انظر : السنن الكبرى للبيهقي ، الجزء الخامس، حديث رقم ١٠٤٠١، ص ٥٧٥.

سَلِم قلبه، وسلم خلقه، وسلم شرفه، ومعنى: «**استبرأ لدينه وعرضه**»؛ أي: «طلب البراءة لدينه وعرضه من النقص والشَّيْن. والعِرْضُ: هو موضع المدحِ والذَّمِ من الإنسان، وما يحصل له؛ بذكره بالجميل: مَدْحٌ، وبذكره بالقبيح: قَدْحٌ. وقد يكون ذلك؛ تارة، في نفس الإنسان، وتارة في سَلَفِهِ، أو في أهله. فمن اتقى الأمور المشتبهة واجتنبها فقد حَصَّن عِرْضَه من القدح والشيْن الداخِلِ على من لا يجتنبها- وفي هذا دليل على أن من ارتكب الشبهات؛ فقد عَرَّضَ نفسَه للقدح فيه والطعن، كما قال بعض السلف: «من عرض نفسه للتهم فلا يَلُومَنَّ مَنْ أساء به الظن»، وفي رواية للترمذي: «**فمن تركها؛ استبرأ لدينه وعِرْضِهِ؛ فقد سَلِمَ**»، والمعنى: «أنه يتركها بهذا القصد، وهو براءة دينهِ وعرضه من النقص، لا لغرض آخر فاسد؛ مِن رياء، ونحوه. وفيه دليل على أن طلب البراءة للعِرْض مَمْدُوحٌ؛ كطلب البراءة للدين (...) وهذا إذا كان تركه؛ تَحَرزًا من الإثم، فأمّا مَنْ يقصد التصنع للناسِ؛ فإنه لا يترك إلا ما يظن أنه ممدوح عندهم تركه»(٣٤).

فترك المشتبهات، التي تحققنا أنها مشتبهات، يعني: الحذرَ منها والخوفَ مِن الوقوع فيها، وتجنبها، والتنزه عنها، وهذا الاتقاء والتنزه يؤدي إلى سلامة القلب وسلامة الخلق وسلامة الدين وسلامة العِرْض، وبراءة كل ذلك من النقص والشيْن، الذي يؤدى إلى الذم، والقَدْح والعيب، وانتقاص الشخصية، ونقص المروءة.

فالمسلم: سليم القلب، يتشبه- في موقفه من الشبهات- بعمر الفاروق؛ سئل ابنُ عباس عن عمر، فقال: «كَانَ كالطير الحَذِرِ؛ الذي يرى أنه له في كل طريق شَرَكًا يأخذه»(٣٥)، ويتشبه بحسان بن أبي سنان؛ فيدع ما يريبه إلى ما لا

---

(٣٤) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٩١، ٩٢.
(٣٥) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ١، ص ٣٩٧.

يريبه؛ فيستريح، ويتربَّى، وإنما يستريح؛ لأنه يتربى؛ يربي قَلْبَه، بالتعود على ترك المشتبهات؛ على ترك الحَرَام المحض، فتتحقق له البراءة والسلامة والنزاهة .

وترك المشتبهات يبدأ من القلب، فيتصور خطر الوقوع في المشتبه، على قلبه، وسلوكه، كما سيأتي، فتنشأ داعِية لترك المشتبهات والحذر منها.

أما القسم الثالث؛ فهو المذكور المحدد في قول النبي ﷺ: «**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**». وفي رواية: «**ومن واقعها واقَع الحرام**» أي: الذي يواقع، أي: يقعَ في الشبهة- التي تحقق أنها شبهة؛ فيفعلها، مع كونها مشتبهة عنده، أو مع كونها تشتمل على جانب حرمة، أو كراهة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الذي يأتي الشبهات- مع اشتباهها عليه- قد وقع في الحرام. وهذا يُفَسَّرُ بمعنيين: باعتبار المآل والنتيجة المترتبة على مواقعة الشبهات؛ أي: أن يكون ارتكابه للشبهة، مع اعتقاده أنها شبهة، ذريعة ووسيلة إلى ارتكاب الحرام، الذي يعتقد أنه حرام، بالتدريج، والتسامح؛ فإن ارتكاب الشبهات هو ممارسة تربوية تعود الإنسان، وتكسبه الجسارة على فعل الحرام.

يقول الخطابي(٣٦): «يريد أنه إذا اعتادها واستمر عليها أدته إلى الوقوع في الحرام بأن يتجاسَر عليه فيواقعه (...) فليتق الشبهة ليسلم من الوقوع في المحرم» فارتكاب الشبهات يكسب النفس التعود عَلَيْهَا والجسارة على الحرام.

ورواية البخاري تعطي إضاءة لهذا المعنى؛ وفيها: «**وَمَن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم؛ أَوْشَكَ أن يواقع ما استبان**»؛ أي: أن من اجترأ على فعل وممارسة الشبهات؛اكتسب جرأة وقوة قلب على مواقعة الحرام الواضح الظاهر، الذي استبان له. فالاجتراء على فعل المشتبهات يجعل النفس متعودة، جسورة، لا تهاب شيئا، ولا تراقب أحدًا، وهذا أصل تربوي يتعلق بأثر الممارسة والتعود،

---

(٣٦) الإمام الخطابي: معالم السنن، ج ٣،ص ٥٨.

وتكرار الأفعال،في القلب، سواء في فعل المتشبهات أو المحرمات، أو الحلال.. ففعل المشتبهات أو المحقرات يجرئ ويقوي القلب على فعل الكبائر، لأن كل فعل للشبهة هو تعزيز وتدعيم وتقوية لسلوك الشبهة والحرام ..إن الوقوع المتكرر هو تغذية متكررة تقوي إرادة الحرام.

وهذا المعنى واضح جدًّا في رواية النسائي وأبي داود : «**وإن مَنْ يخالط الريبة يوشك أن يَجْسُرَ**»، وعند أبي داود: «وإنه..» قال السّنْدي : «يوشك؛ أي: يقرب، لأنه يتعود به التساهل،ويتمرن عليه، ويَجْسُرُ على شبهة أخرى أغلظ منها، وهكذا حتى يقع في الحرام»(٣٧).

وقال ابن رجب: «أي: يقرب أن يُقْدِم على الحرام المحض. والجَسُور: المِقْدَام الذي لا يهاب شيئًا، ولا يراقب أحَدًا .

ورواه بَعْضُهم: (يَجْشُر) ؛ بالشين المعجمة، أي : يَرْتَعُ، والجَشْرُ: الرَّعْي(...)، ومِن مراسيل أبي المتوكل الناجي عن النبي ﷺ: «**مَنْ يرعى بجنبات الحرام؛ يوشك أن يخالطه، ومَنْ تَهَاوَنَ بالمحقرات يوشك أن يخالط الكبائر**»(٣٨).

ويضيف ابنُ حَجَر: «لأن متعاطي الشبهات قد يصادف الحرام، وإن لم يتعمده، أو يقع فيه؛لاعتياده التساهل»(٣٩).

ويذكر النووي: «أنه يَعْتاد التساهل، ويتمرن عليه، ويجسر على شبهة، ثم شبهة أغلظ منها، ثم أخرى أغلظ، وهكذا حتى يقع في الحرام عَمْدًا»(٤٠).

لقد رباه إبليس بالتدريج، والتعويد، على ارتكاب الحرام. ويقول ابن رجب: «والمعنى الثاني: أنه مَنْ أقدم على ما هو مشتبه عنده؛ لا يدري: أهو

---

(٣٧) حاشية السندي على سنن النسائي، ج ٧، ص ١٧٤ .

(٣٨) ابن رجب : جامع العلوم والحكم، ص ٩٢، ٩٣.

(٣٩) فتح الباري، ج ٤، ص ٢٩١.

(٤٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١١، ص ٢٩.

حلال أو حرام؛ فإنه لا يأمن أن يكون حَرَاما في نفس الأمر ، فيصادف الحرام، وهو لا يدري أنه حَرام، وقد رُوِي مِن حديث ابن عمر؛ عن النبي ﷺ قال: «**فمن اتقاها؛ كَان أَنْزَه لدينه وعِرْضِهِ، ومَنْ وقع في الشبهات أَوْشَكَ أن يقع في الحرام؛ كالمرتع حول الحِمَى، يُوشِك أن يواقع الحمَى، وهو لا يشعر**» خرجه الطبراني وغيره»(٤١).

د- والمؤمِنُ، صَالِحُ القلب، يتحنن الله عليه بترك هذه المشتبهات، وقد أوضَح النبي ﷺ ذلك بطريقة تربوية تقوم على التمثيل الذي يظهر المعنى في شكل محسوس؛ «لتكون النفس له أشد تصورًا، والعقل أعظم قبولا»(٤٢).

ففي الحديث ضرب النبي ﷺ ، مَثلا لمن وقع في الشبهات، فتعود عليها حتى أَوْشَكَ أن يقع في الحرام؛ بصِفِة راع يَرْعَى حَوْلَ حِمًى، محمي محرم عليه أن يرعى فيه، فهذا الراعي حين يقترب مِن حدود الحمَى المحرم ، ويعتاد هذا الاقتراب؛ فإنه يوشك أن يَرْعَى في الحمَى المحرم، كما أنه لا يأمَنُ أن يَرْتَعِيَ؛ أي: أن يأكل بَعْضُ غنمِهِ من الحِمَى المحرم. فالواقع في المشتبهات مثل الراعي حول الحِمَى، وبجواره، والحرامُ والمعاصي: هي حِمَى الله، حيث منع اللهُ خَلْقَهُ أن يدخلوه، وأن يرتعوا فيه؛ فمن رَعَى حول الحِمَى؛ أي: من فعل المشتبهات؛ دَخَل في الحِمَى، أي : فعل المحرم، حَالًا، أو مَآلا؛ ففي رواية للبخاري: «**والمعاصي حِمَى الله، مَنْ يَرْتع حول الحِمَى يوشكْ أن يواقعه**». وفي رواية له: «**كَرَاعٍ يرعى حول الحِمَى يوشك أن يواقعه، ألاَ وإن لكل ملِك حِمًى ، ألا وإن حِمى الله في أرضه محارمُه**». وفي رواية مسلم: «**كالراعي يرعى حول الحِمَى، يوشك أن يَرْتَعَ فيه، ألا وإن لكل ملك حِمى، ألا وإن حِمَى الله محارمه**». وفي رواية لأحمد: «**ومحارمُ الله: حِمى، وإن حِمَى الله محارمُه، وإنَّهُ مَنْ يَرْعَى حول**

---

(٤١) ابن رجب : جامع العلوم والحكم ، ص ٩٣.
(٤٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٥، ص ٢٨٥.

الحِمَى يوشك أن يخالطه، وإنه مَن يخالط الريبة يوشك أن يَجْسُرَ». وفي رواية الترمذي: «**ومَنْ واقع شيئًا منها يوشك أن يواقع الحرام؛ كما أنه من يرعى حول الحِمَى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل مَلِكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه**». وفي رواية لمسلم: «**يوشك أن يقع فيه**»(٤٣).

يوشك: يُسْرِع، ويقرب؛ وهذا مثال؛ للتنبيه بالشاهد على الغائب، والحِمَى: المحمي من المَرْعَى؛ الذي تحميه الملوكُ وغيرهم، من ذوي السلطان النافذ، ويمنعون غيرهم من قربانه، ويتوعدون مَنْ يرعى فها، بغير إذنهم، بالعقوبة الشديدة، فجعل النبيُّ ﷺ مثل المحرمات التي حرمها الله مثل الحِمَى؛ فالمعاصي والذنوب: حِمَى الله، والله هو الملِك الحق، «والله - عز وجل - حَمَى هذه المحرمات، ومنع عِبَادَهُ مِن قُربانِها، وسمّاها حدوده؛ فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وهذا فيه بيان أنه حَدَّ لهم ما أحل لهم وما حَرّم عليهم، فلا يقربوا الحرام، ولا يَتَعَدَّوْا الحلال.. وجعل مَنْ يرعى حول الحِمَى، وقريبًا منه، جديرًا بأن يدخل الحِمَى، ويرتَعَ فيه، فكذلك مَنْ تعدى الحلال، ووقع في الشبهات؛ فإنه قد قارب الحَرَام غاية المقاربة، فما أَخْلَقَهُ بأن يخالط الحرام المحض، ويقع فيه، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي التباعد عن المحرمات، وأن يجعل الإنسانُ بينه وبينها حاجزًا»(٤٤).

ويقول النووي: «ولله- تعالى - أيضًا، حِمىً؛ وهي محارمُه،أي: المعاصي التي حَرّمها الله؛ كالقتل، والزنى، والسرقة، والقذف، والخمر، والكذب، والغيبة، والنميمة، وأكل المال بالباطل، وأشباه ذلك؛ فكل هذا حِمِى الله- تعالى - مَنْ دخله، بِارْتِكَابِهِ شيئا مِن المعاصي؛ استحق العقوبة، ومَنْ قاربه ؛ يوشك أن

---

(٤٣) المصدر السابق، ص ٢٩٠.

(٤٤) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٩٣ .

يقع فيه، فمن احتاط لنفسِهِ؛ لم يقاربه، ولا يتعلق بشيء يقربه من المعصية فلا يدخل في شيء مِنَ الشبهات»(٤٥).

ويقول سفيان بن عُيَيْنَة: «لا يصيب عَبْدٌ حقيقة الإيمانِ حتى يجعلَ بينه وبين الحرام حَاجِزًا من الحَلال، وحتى يَدَعَ الإثم، وَمَا تشابَهَ مِنْهُ»(٤٦).

ويقول ابن حجر، عن جملة التمثيل: «وَرَدَتْ على سبيل التمثيل؛ للتنبيه بالشاهد على الغائب، والحِمَى: المحمي؛ أطلق المصدر على اسم المفعول، وفي اختصاص التمثيل بذلك نُكْتَة؛ وهي أن ملوك العَرَبِ كانوا يحمون، لمراعي مَوَاشيهم، أماكن مخصوصة، يتوعدون مَن يرعى فيها، بغير إذنِهِم، وبالعقوبة الشديدة، فَمَثَّلَ لَهُمُ النبي ﷺ بما هو مشهور عندهم، فالخائف مِن العقوبة، المُرَاقِبُ لِرِضَا المَلِك،يَبْعُد من ذلك الحِمى؛ خشية أن تقع مواشيه في شيء منه، فَبُعْدُه أَسْلَمُ له، ولا اشتد حَذَرُه، وغير الخائف المراقب؛ يقرب منه، ويرعى من جوانبه، فلا يأمَنُ أن تَنْفَرِدَ الفَاذَّةُ، فتقع فيه بغير اختياره، أو يُمْحِلَ (يُجْدِب) المكان الذي هو فيه، ويقع الخِصْبُ في الحِمَى؛ فلا يملك نفسَه أن يقع فيه، فالله- سبحانه وتعالى- هو المَلِكُ حقًّا، وحماه: مَحَارِمُه»(٤٧).

قلت: ولا يختص التمثيل بحمى الملوك العرب، بل الحِمَى هو كل محمي، ومحمية، في أي أرض، فهناك محميات طبيعية، تحميها الحكومات، ومحميات بحرية (المياه الإقليمية)، وغير ذلك؛ فكل من رعى، أو اصطاد، حَول الحِمَى، أوشك أن يرتع فيه.

فمعنى المثَل: أن مَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام، مثل الراعي الذي يرعى بجانب وحول الحمى المحرم عليه، فإنه يوشك أن يرتَعَ فيه، «والرتع:

---

(٤٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١١، ص ٢٨.
(٤٦) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٩٤ .
(٤٧) فتح الباري، ج ١ ، ص ١٢٨.

أصله: أكل البهائم»(٤٨).

أي: أن يدخل غنمه لتأكل في حِمى ممنوع عليه، ومحرم عليه دخولُه، فكذلك الذي يرتكب الشبهات؛ فإنه يوشك، ويقرب، أن يرتكب المحرمات، فإن حِمَى الله في أرضه، محارمُه، أي: فعل المنهي الحرام، أو تَرك المأمور الواجب.

فالمؤمن القوي الإيمان، السليم القلب، يجتنب كل ذريعة إلى الحرام.

هـ- علاقة ما سبق في الحديث بالقلب: ما الذي يجعل الإنسان يتَّقي الشبهات، وبالأَوْلَى والأَحْرَى- يتقي المحرمات؟ وما الذي يجعله يرتكب الشبهات ويجسر على المعاصي والمحرمات؟ ما الذي يحركه، ويدفعه لهذا أو لهذا؟ إنه القلب، القيادة الموجهة المحركة، الداعية، إنه أمير البدن، وقائد الجوارح، والنافذ السلطة فيها، فإن «الأصل في الاتقاء والوقوع هو ما كان بالقلب؛ لأنه عماد البدن»(٤٩).

ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب**»، ويوضح ابن رجب علاقة هذه الفقرة مِن الحديث النبوي، بما سبق، يقول: «وقوله ﷺ: «**ألا وإن (...) وهي القلب**»: فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه للمحرمات، واتقاءه للشبهات؛ بحسب صلاح حركة قلبه؛ فإن كان قَلْبُه سليمًا ليس فيه إلا محبة الله، ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله، وخشية الوقوع فيما يكرهه؛ صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك: اجتناب المحرمات كلها، وتوقِّي الشبهات؛ حَذَرًا مِن الوقوع في المحرمات.

«وإن كان القلبُ فاسِدًا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه، ولو

(٤٨) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ١٨٦.
(٤٩) ابن حجر: فتح الباري، ج ١، ص ١٢٩.

كرهه الله؛ فَسَدَت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات؛ بحسب اتباع هَوَى القلب»[٥٠].

وفي شرح ابن رجب لكتاب الإيمان من صحيح البخاري يقول في نفس المعنى: ثم ذكر النبي ﷺ كلمة جامعة لصلاح حركات ابن آدم وفسادها، وأن ذلك كله بحسب صلاح القلب وفساده، فإذا صلح القلب؛ صلحت إرادته، وصلحت جميع الجوارح؛ فلم تنبعث إلا إلى طاعة الله، واجتناب سَخَطِهِ، فقنعت بالحلال عن الحرام.

وإذا فسد القلب؛ فسدت إرادتُه، ففسدت الجوارح كلها، وانبعثت في معاصي الله- عز وجل- وما فيه سَخَطُهُ، ولم تقنع بالحلالِ، بل أسرعت في الحرام، بحسب هَوَى القلبِ وميلِه عن الحق.

فالقلب الصالح: هو القلب السليم، الذي لا ينفع يوم القيامة- عند الله- غيره، وهو أن يكون سليمًا مِن جميع ما يكرهه الله؛ من إرادة ما يكرهه الله ويَسْخَطه، ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادتِه، ومحبة ما يحبه الله؛ وإرادة ذلك، وكراهة ما يكرهه الله، والنفور منه .

«والقَلْب الفاسد: هو القلب الذي فيه الميل إلى الأهواء المضلة، والشهوات المحرمة، وليس فيه مِن خشية الله ما يكف الجوارح عن اتباع هَوَى النفس».

«فالقَلبُ مَلِكُ الجوارح وسلطانُها، والجوارح جنودُه ورعيتُه المطيعة له، المنقادة لأوامره؛ فإذا صَلَح المِلك؛ صلحت رعاياه وجنودُه (...) وإذا فَسَدَ الملك فَسَدت جنوده ورعاياه المطيعة له، المنقادة لأوامره ونواهيه»[٥١].

فصلاح القلب وسلامته يدفعان إلى فعل الحَلاَلِ والصلاح والخير، واتقاء

---

(٥٠) ابن رجب : جامع العلوم والحكم ، ص ٩٤، ٩٥.

(٥١) ابن رجب : كتاب الإيمان من شرحه: فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ص ١٢٧، ١٢٨.

الشبهات، واجتناب المحرمات، التي هي شرور وفساد وخراب في العالم. وفساد القلب، ومرضه، يدفعان إلى فعل الشر، وارتكاب الشبهات والمحرمات. فالداعي من القلب، والدافع من القلب، والمحرك والموجّه من القلب ، للخير أو الشر، للحلال أو الحرام أو المشتبهات، فسائر حركات الإنسان تصلح إذا صلحت حركة القلب وعالم عقائده وقيمه ورغباته، وتفسد إذا فسد القلب وقيمه ورغباته.

فالنبي ﷺ «أخبر أن صلاح القلب مستلزم لصلاح سائر الجَسَدِ، وفَسَادُهُ مُسْتَلْزِمٌ لِفَسَادِ سَائِرِ الجسد، فإذا رأى ظاهر الجسد فاسدًا غير صالح؛ علم أن القلب ليس بصالح، بل فاسد ، ويمتنع فساد الظاهر مع صلاح الباطن، كما يمتنع صلاح الظاهر مع فساد الباطن؛ إذ كان صلاح الظاهر وفساده مُلاَزِما لصلاح الباطن وفَسَادِه»(٥٢).

و- وهذا الجزء- من الحديث - مروي بروايات؛ منها رواية أحمد في المسند، بإسناد صحيح: «**أَلاَ وإن في الإنسان مُضْغَةً؛ إذا صلحت صلح الجسد كله..**».

ومنها رواية أحمد بإسناد حسن: «**إن في الإنسان مضغةً إذا سلمت وصحت؛ سلم سائر الجسد وصح، وإذا سقمت؛ سقم سائر الجسد وفسد؛ ألا وهي القلب**».

فالقلب مكون رئيس من مكونات الطبيعة الإنسانية، وهو مصدر الصلاح والسلامة والصحة في الإنسان؛ إذا صَلَحَ وسلم وصح؛ صلحت، وسلمت وصحت جميع حركات وسلوكيات الإنسان، والعكس صحيح، فَفِعْلُ الحلالِ واجتناب المشتبهات، وتجنب المحرمات هو نتاج صلاح القلب وسلامته، وصحته، والعكس صحيح.

وتدل الروايات على أن القلب يصلح، ويفسد، ويسلم، ويمرض، ويصح،

---

(٥٢) ابن مُفلح : الآداب الشرعية والمِنَح المرعية، ج ١ ، ص ١٢٤.

وأنه مهمين على السلوك الإنساني، فهو الأصل .

وسأتناول في الفقرات الآتية: مفهوم القلب، وسُلْطَتَهُ على السلوك الإنساني، وأولوية تربية القلب؛ لإصلاحه وتحقيق سلامته وصحته، وكيفية ذلك؛ مِن خلال تربية القلب، وتأثيره في السلوك الإنساني.

رابعًا : مفهوم القلب في الحديث:

هل مَفْهُومُ القلب مفهوم غامِض غير محدد؟ كما يقول على بن سهل الأصفهاني: «مِنْ وقت آدم إلى قيام الساعة، الناسُ يقولون: القلب ، القلب: وأنا أحب أن أرى رَجُلا يَصِفُ لي: إيش القلب؟ وكيف القلب؟ فلا أرى»(٥٣).

والحق أن الأحاديث النبوية الصحيحة، ومن قبلها آيات القرآن الكريم، تحدد لنا مفهوم القلب، وسوف يأتي ذلك، تِبَاعًا .

١ - فالقلب كيان يشبه المضغة، في الإنسان؛ أي : «قدر ما يُمْضَعُ، وعَبَّر بها هنا عن مقدار القلب في الرؤية»(٥٤).

ويقول عياض: «المضغة: القطعة من اللحم، وسُمّيَتْ في الحديث مُضْغَةً؛ إشارة إلى تصغير هذا العضو؛ لأن أصل المضغة: قدر ما يمضغه الإنسان في فيه، كَالأُكْلَةِ للقمة، تصغير هذا العضو بهذا اللفظ لإضافته إلى سائر الجسد»(٥٥).

فالقلب: كيان موجود في الإنسان. أين؟

يقول الله تعالى : ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فالقلوب تَعْمَى، وهي في الصدور، وفي صحيح مسلم، من حديث عبد الله بن عامر بن كريز، يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله لا ينظر إلى**

---

(٥٣) أبو عبدالرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص٢٣٥.

(٥٤) فتح الباري، ج١، ص ١٢٨ .

(٥٥) إكمال المُعْلِم، ج ٥ ، ص ٢٨٨.

أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار بأصابعه إلى صَدْرِهِ(٥٦).

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، وفيه: «**ولكن ينظر إلى قلوبكم، التقوى ها هنا**» وأشار إلى صدره(٥٧).

وفي رواية لِمُسْلِمٍ؛ «**التقوى ها هنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات(٥٨).

وأخرج أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المسلم على المسلم حرام..**» وذكر الحديث، وفيه: «**والتقوى ها هنا**»، وأومأ بيده إلى القلب..(٥٩).

وأخرجه أحمد عن شيخ صحابي مِنْ بني سليط ﷺ قال: سَمِعْتُه يقول؛ وهو يشير بأصبعه: «**المسلم أخو المسلم (...) التقوى ها هنا، التقوى ها هنا**» يقول أي: في القلب(٦٠).

وأخرج أحمد عن واثلة عن أنس، قال: كان رسول ﷺ يقول: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات. قال: ثم يقول: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»(٦١).

فهذه الآية، وآيات قرآنيه سواها، والأحاديث تبرهن على أن القلب المذكور هو في الصدر؛ صدر الإنسان، وأن هذا القَلْبَ وعاء للإيمان والتقوى، والبصر العقلي، والبصيرة الباطنة.

٣-يقول ابن حجر: «وسُمّى القَلْبُ قلبا؛ لتقلبه في الأمور، أو لأنه خالص

---

(٥٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٦٤، ص ٣١، ٣٢.

(٥٧) الإمام البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ٦٠٥، ٦٠٦.

(٥٨) إكمال المعلم؛ ج ٨، رقم ٢٥٦٤، ص ٣١.

(٥٩) إسناده صحيح، المسند،ج١٣، رقم ١٦٥٧٧، ص ٩٥.

(٦٠) المصدر السابق، ج١٣ ، رقم ١٦٥٧٧، ص ٩٥.

(٦١) إسناده حسن، المصدر السابق، ج ١٠، رقم ١٢٣٢٢، ص ٤٣٧، ٤٣٨.

ما في البدن، وخالِصُ كُلّ شيء : قَلْبُه»[٦٢].

وفي لسان العرب: «القلب: تحويل الشيء عن وجهه ؛ وقَلَّبهُ : حَوّل ظهرا لبطن .. والقَلْبُ- أيضا-: صَرْفك إنسانا؛ تقلبه عن وجهه الذي يريده، وقَلّبَ الأمور: بحثها، ونظر في عواقبها.. وقَلَّبه عن وجهه: صَرْفه.. والقَلْبُ: مضغة من الفؤاد.. القلب: الفؤاد.. وقد يعبر بالقلب عن العقل ، قال الفَرَّاءُ؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧] : أي: عقل. وقال غيره: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾: أي: تفهم وتدبر. وقال بعضهم: سُمّي القلب قلبًا لتقلبه. وقلب النخلة وقُلْبُها، وقِلْبُها: لُبُّها.. وهي هَنَة رَخْصَة بيضاء.. وقلوب الشجر: ما رخص (لان) مِنْ أجوافها، وعروقها التي تقودها.. وقلوب الشجر، يعني : الذي يَنْبُتُ في وسطها غضا طريا. وقلب النخلة : جُمّارها.. وقلب كل شيء: لُبّه وخالصُه ومَحْضُهُ»[٦٣].

فالقلب هو الكيان الباطن الذي يعقل، ويفهم ويتدبر، ويتقلب، وهو لُبّ الإنسان، وقائده، وخالصه، وصميمه وهو فؤاده. قال الراغب: «يعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح، والعلم، والشجاعة ، وغير ذلك»[٦٤].

والفؤاد هو القلب؛ إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي التوقد[٦٥].

قال ابن منظور: «والتفؤد: التوقد، والفؤاد: القلب؛ لتفؤده وتوقده..»[٦٦].

فالقلب هو محل ووعاء العواطف الحارة، فهو وعاء الحب، والعطف والميول، وقد ورد في القرآن عشر مرات، فالقلب ذو انفعالية عاطفية؛ وفي

(٦٢) فتح الباري، ج ١ ، ص ١٢٨ .
(٦٣) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٧١٣، ٣٧١٤.
(٦٤) المفردات في غريب القرآن، كتاب القاف، ص ٤١١ .
(٦٥) السابق، ص ٣٨٦ .
(٦٦) لسان العرب، ج٥ ، ص ٣٣٣٤.

معجم أكسفورد: «قلب : مركز العواطف، وخصوصا: الحب، الجزء الأعمق في طبيعة الإنسان، المشاعر، العواطف الأعمق، الرغبات، الإرادات الاهتمامات، الجزء المركزي.. الجوهر، العمق.. الإحساس المشاعر»(٦٧).

وفي معجم لونجمان: « جزء في بدنك.. يشعر بالعواطف القوية، والمشاعر»(٦٨).

وفي مختصره: «عواطفك الأكثر قوة، ومشاعرك الحقيقية، المركز، أو الجزء الأكثر أهمية في الشيء»(٦٩).

فالقلب هو الذكاء العاطفي، أو هو وعاء المشاعر والانفعالات، والعواطف، وفي المورد: «القلب: شخصية المرء، (بما تشتمل عليه، من سمات عقلية وعاطفية) طبيعة المرء العاطفية أو الأخلاقية، حنان، مزاج، حب، عواطف، شجاعة، ميل، رغبة، رغبة ثابتة، هَمّ، لب ، لباب»(٧٠) العمق.

وله وظيفة عَقلية معرفية إدراكية، فالقلب يُلهم الخير، والحق، والصواب، كما يلهم الشر، ويعي، ويفقه، ويرتاب ويتيقن، ويرى، ويبصر، ويعمى، ويحكم، وينكر، ويتيقظ، ويصحو، ويغفل، ويعلم، ويجهل، ويهتدي، ويُفْتِى، ويذكر، ويتدبر ، ويسمع، ويتعمد، ويزيغ، فالقلب ذو وظيفة معرفية ، بل هو مركز تضاد في البنية المعرفية للإنسان، وهو وجود معرفي، حامل معرفة.

وله وظيفة إيمانية اعتقادية؛ فهذا القلب الذي في الصدر: يؤمن ويكفر، ويتقي ويفجر، ويصلح ويفسد، ويبصر ويعمى، ويفقه ويجهل، ويصح ويمرض، وينير ويظلم، ويتوب ويأثم، ويصدق، وينافق...إلخ .

---

(٦٧) A.S.Hornby Oxford Adnanced Leanner,s Dictionary of cunnent Englisl Oxford Uninesity Press Great Britain ١٩٥٨,p.٣٩٧

(٦٨) Dictionary of Contemporary Engfish,٣ rd Edi.١٩٩٥,Fangnan Groul Ltd, England, p ٦٦٢.

(٦٩) Longman: Actinity study, p.p ٣١١،٣٢٩

(٧٠) منير البعلبكي: المورد، ط ٣٥ ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص ٤١٨ .

٤- وهكذا نجد القلب الذي في الصدر، الإنساني، ذا وظائف: عاطفية شعورية انفعالية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤ ، ١٥] «**ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم**» .. رواه الترمذي وقال: حديث حسن «**رحيم رقيق القلب**» «**والقلب يهوى ويتمنى**» «**إن القلب ليحزن..**» «**إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب**» «**ويقذف في قلوبكم الوهن.. حب الدنيا وكراهية الموت..**» وهكذا: يحب ويبغض، ويشكر، ويكفر، ويتواضع ويتحير، ويريد، ويرفض، ويتقلب في العواطف والانفعالات أشد من تقلب الماء عند الغليان كما سيأتي، في فصل مستقل، ونجده ذا وظائف معرفية إدراكية، وذا وظائف إيمانية اعتقادية، فيؤمن، ويكفر، ويصدق، وينافق، ويهتدي، ويضل، ويرتاب، ويتيقن، ويعقل..إلخ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، «**إن القلب يسكن للحلال..**» «**ما أنكر قلبك فدعه**» «**إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم (...) فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم (...) ،فأنا أبعدكم منه**». [قال الهيثمي : رواه أحمد والبزار، ورجاله رجال الصحيح][(٧١)].

٥-تبين لنا، حتى الآن، أن القلب مضغة، وكيان، في صدر الإنسان، وأنه وعاء عاطفي، ومعرفي، واعتقادي ومصدر عموم السلوك الإنساني، والكيان المركزي في الإنسان، والقائد الموجه، وأنه يتقلب..إلخ، ولكن هل هذا القلب المذكور هنا، هو ذلك اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر؟ يجيب الغزالي بأنه ليس ذلك اللحم بعينه، فهذا عضو من عالم الشهادة يختص بدراسته وعلاجه - إذا مرض أطباء القلب[(٧٢)]. فما هو ، إذن؟

---

(٧١) نور الدين علي بن أبى بكر الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١، دار الفكر، رقم ٦٦٧، ص ٣٧٧.

(٧٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٣٤٣.

القلب المذكور: هو الكيان الجواني للإنسان؛ كما قال الفارسي، فقد أخرج نعيم بن حماد في زياداته على كتاب الزهد لابن المبارك من طريق سفيان عن عطاء بن السائب عن أبي البختري عن سلمان قال: إن لكل امرئ جوَّانيا وبَرَّانِيًّا، ومن يفسد جوانيه يفسد الله جوانيه(٧٣).

وأخرجه أبو نعيم بلفظ: «**لكل امرئ جواني وبراني، فمن يصلح جوانبه يصلح الله برانيه..إلخ**»(٧٤).

قال مجد الدين بن الأثير الجزري في النهاية: «وفى حديث سلمان ﷺ: «إن لكل امرئ جَوّانيا وبرَّانيا (...) أي: باطنًا وظاهرًا، وسرًّا وعلانية، وهو مَنْسُوبٌ إلى جَوِّ البيت، وهو داخله، وزيادة الألف والنون: للتأكيد»(٧٥).

وقال أيضا: «وفى حديث سلمان: «**من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه**» أراد بالبراني: العلانية، والألف والنون من زيادات النسب»(٧٦).

وقد ذكر منظور كلام ابن الأثير ثم قال: «وجَوّ كل شيء: بطنه وداخله»(٧٧).

فالقلب هو جَوّاني الإنسان: أي: باطنه، وداخله، وسِرُّه، أو سريرته، فهو الكيان الباطني، الداخلي، للإنسان يقول ابن تيمية: «وقد يراد بالقلب: باطن الإنسان مطلقا، فإن قلب الشيء: باطنه، كقلب الحنطة، واللوزة، والجوز، ونحو ذلك»(٧٨).

فالقلب هو الكيان الجواني الباطن، في الإنسان، هو السريرة التي تقابل

---

(٧٣) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد، خبر رقم ٧٢ من زيادات نعيم بن حماد، ص١٧.
(٧٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، ص ٢٠٣، وقال: رواه الثوري ووهب، وخالد عن عطاء، مثله.
(٧٥) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ٣٠٩.
(٧٦) المصدر السابق، ص ١١٧.
(٧٧) ابن منظور: لسان العرب، ج١، دار المعارف، ص ٧٣٤.
(٧٨) أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى، ج ٩، ص ١٦٢.

العلانية، والتي تصدر عنها العلانية، يقول عون بن عبد الله: «كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث، ويكتب بذلك بَعْضُهم إلى بعض: من عمل لآخرته كفاه الله دنياه، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس»(٧٩).

وذكره الذهبي: «يقول ذو النون: كان العلماء يتواعظون بثلاث، ويكتب بعضهم إلى بعض: من أحسن سريرته، أحسن الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته، أصلح الله أمر دنياه»(٨٠).

فالسريرة هي الجوانية، هي الباطن، هي القلب، الذي منه تنشأ الأفعال كما تتفرع الفروع من جذر الشجرة، وهو عرقها. ويقول وَهْب: «ولا تظنَّن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجر مع عَرْقها؛ العلانية: وَرَقُها، والسريرة : عِرْقها. إن نَخَر العِرْقُ؛ هلكت الشجرة كُلُّها: ثمرها وورقها. فلا يزال ما ظهر مِنَ الشجرة في خير؛ ما كان عِرْقُها مُسْتَخْفِيًا لا يُرَى مِنْهُ شيء، كذلك الدين؛ لا يزال صالحا ما كان له سريرة صالحة يُصَدِّقُ اللهُ بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة؛ كما ينفع عِرْقُ الشجرة صَلاَحَ فَرْعِها، وإن كان حياتها مِنْ قِبَلِ عرقها؛ فإن فرعها: زينتها وجمالها. وإن كانت السريرة هي مِلاك الدين، فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رِضَاء ربه - عز وجل»(٨١).

فالقلب - إذًا - هو هذه السريرة التي تخفى من الناس، فهي الباطن، الجواني، الداخلي، الذي منه تنشأ الأفعال والسلوكيات، فهذا القلب هو بمثابة الجذر الذي تتفرع منه الفروع والأوراق، والثمرات، كَمَا شرح وهب بن منبه، وهو ثقة.

---

(٧٩) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ٤ ، ص ٢٤٧.

(٨٠) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ١٤١.

(٨١) أبو نعيم : حليه الأولياء، وطبقات الأصفياء، ج ٤، ص ٦٩ ، ٧٠.

٦-هذا الكيان الجواني للإنسان هو القلب؛ يقول الراغب: «ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك ..»(٨٢).

فهو الكيان الجواني، الداخلي، الباطن الذي يدرك ويعرف، ويفقه، ويجهل، ويغفل، ويبصر ويعمى، ويستيقظ ويعي، ويحب، ويكره، ويبغض، ويتكبر ويتواضع، ويرق ويرحم، ويصفو، ويكدر، ويغلظ ويقسو، ويريد ويأمر، ويَعظ ويوجه، ويحيا، ويمرض، ويموت، ويصح، ويسلم، ويهتدي ويضل، ويسلم، ويكفر، ويؤمن وينافق، ويتقي ويفجر، ويصلح ويفسد، ويستنير ويظلم، ويبيض، ويسود، ويعرف الله، ويتيقن، ويجحد، ويستقيم، ويضل عن الهدى، إنه هو هذا الكيان الجواني، الذي نشعر به، يفعل كل ذلك، أو بعضه، وله تعلق حقيقي بالقلب الذي في الصدر، كما نصت الآية القرآنية، والأحاديث النبوية، فالقلب الذي يقصده النبي ﷺ في الحديث، والذي نقصده في كتابنا هذا هو «حقيقة الإنسان، وهو المُدرِْك العالِم العارف في الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب، والمعاتب والمطالب، وله بهذا القلب الجسماني تَعَلُّق»(٨٣).

ولكننا لا ندرك كنه هذا التعلق، ولا حقيقة هذا الكيان الجواني الذي نشعر بوجوده داخلنا، وإنما نستطيع أن ندرك أعْراضه، وأحواله، وأوصافه في حال استقامته، وصلاحه، أو في حال انحرافه وفساده.

خامسًا: سُلطة القلب في الإنسان وكيف تتحقق:

أ- إن هذا الكيان الجواني الذي نَحُسُّ بوجوده، له سلطة التحكم والتوجيه في جميع جوارح الجسد الإنساني، وفي أخلاقه، وسلوكياته، فَهُو أمير نافذ السلطة على جميع الجوارح والأعمال، والسلوكيات، يدبرها ويديرها، أي:

---

(٨٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤١٣.

(٨٣) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين، ج٢ ، ص ١٣٤٤.

أنه يمثل (البنية التحتية) لجميع سلوكيات الإنسان الظاهرة والباطنة، أي: أنه القيادة الموجهة المهيمنة على سلوك الإنسان كله؛ سلوكه الاقتصادي والسياسي، والثقافي، والقرابي، والاجتماعي العام، والبيئي الدنيوي، والأخروي «**إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله..**» فهذا المفْهوم يعطينا رؤية تفسيرية للأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية والروحية والخلفية للإنسان، رؤية بديلة للتفسير المادي التاريخي الذي يُعَمى على هذا المفهوم، إن البنية التحتية التي تفسر، وتعلل، وتُعَيّن جميع الأوضاع والأحوال الثقافية والاقتصادية للإنسان هي ما في قلبه من عقائد، وقيم، واتجاهات وإرادات ومحبوبات ومكروهات، هي الْعَالَمُ الذي يستقر في القلب.

فالقلب هو منطلق السلوك، ومنبعه، وهو القائد له، والموجه، المهيمن، ولهذا شبه السلف الصالح القلب بالملك، وبالأمير وشَبَّهُوا الجوارح والأعمال بالجنود المطيعة، يقول ابن القيم: «ولما كان اللب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكسب منه الاستقامة والزيغ، وَتتبعُهُ فيما يعقده من العزم، أو يحله، قال النبي ﷺ : «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب**» فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسؤول عَنْها كلها؛ لأن كل راع مسؤول عن رعيته، كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده، أوْلَى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون»(٨٤).

ويقول ابن حجر في شرح قول النبي ﷺ : «..**إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله..**»: «وخص القلب بذلك؛ لأنه أمير البدن،

---

(٨٤) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ج١ ، ص ١٠ .

وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفسَاده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه»(٨٥).

ويقول ابن رجب: «ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء: جنوده، وهُمْ مع هذا جنود طائعون له، مُنْبعثون في طاعته، وتَنْفِيذِ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا، كانت جنوده بهذه المثابة، فاسدة، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم»(٨٦).

وقد جاء في تشبيه بليغ صحيح المعنى: «الإنسان، عيناه: هاد، وأذناه: قمع، ولسانه ترجمان، ويداه جناحان، ورجلاه بريد، والقلب منه مَلِك؛ فإذا طاب الملك طابت جنوده»(٨٧).

وفى منتخب كنز العمال والمصُنف، عن أبي هريرة: «**القلب ملك وله جنود، فإذا صلح الملك صلح جنوده، وإذا فسد الملك فسدت جنوده**»(٨٨).

وفيه عن أبي سعيد وعن عائشة: «**العينان دليلان، والقلب ملك؛ فإذا صلح الملك صلحت رعيته، وإذا فسد الملك فسدت رعيته**»(٨٩).

فالعلاقة بين القلب والجوارح والسلوكيات هي مثل علاقة الأمير النَّافِذِ

---

(٨٥) فتح الباري، ج١ ، ص ١٢٨.

(٨٦) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٩٤- ٩٥.

(٨٧) انظر : أبا حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص ١٣٥٥، وهو تشبيه سليم.

(٨٨) المتقى الهندي: منتخب كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال، على هامش مسند أحمد (غير المحقق) ، ص ١١٩، وأشار إلى أن البيهقي أخرجه في الشعب، عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج١١ كتاب الجامع، رقم ٢٠٣٧٥، ص ٢٢١ وإسناده صحيح.

(٨٩) المصدر السابق، ص ١١٩ وأشار إلى أنه رواه أبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم في الطب عن أبي سعيد، والحكيم عن عائشة. وقد أورد ابن تيمية في التحفة العراقية قولا لأبي هريرة: «القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده» .

انظر : تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني: التحفة العراقية في الأعمال القلبية، في: مجموع الفتاوى، ج ١٠، دار الوفاء.

السلطة والجنود المطيعين، وهي صورة تشبيهية بليغة توضح (حقيقة) أن القلب هو القوة الجوانية، الباطنة الموجهة للسلوك الإنساني الباطن والظاهر، والحاكمة له، فالقلب هو القائد الموجه النافذ الأمر، والأعضاء جنوُده، «وهو الذي يحركها ويستعملها، والإرادة والقوى والحركة، الاختيارية تنبعث منه»(٩٠).

فالانبعاث للخير يستلزم إرادة داعية له، والانبعاث للشر يستلزم إرادة داعية له، وتيسير الله للإنسان فعل الخير، وصرفه فعل الشر «متضمنًا إلقاء داعية الفعل في القلب، أو إلقاء داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل، وداعية الترك امتنع الفعل»(٩١).

وهكذا فالفعل أو السلوك الإنساني: «موقوف على الداعي، فإذا انضمت القدرة إليه، وجب الفعل بمجموع الأمرين»(٩٢).

وهذا الداعي؛ يعني: الدافع لمحرك للفعل والسلوك والحركة، قد يكون غَلَطًا، أو جهلا، أو وهمًا، فيفعل الإنسان على حسب ما يتوهم أن فيه مصلحته، صادفها أو لم يصادفها، فالداعي لا ينحصر في العالم الصحيح خاصة، فالإنسان له داعية إلى الفعل، يتصورها، وله إرادة يقصد بها، وقدرة ينفذ بها، وإن كان داعية نوعا آخر غير واعي العاقل العالم بما يفعله، فلابد أن يتصور ما في الفعل من الغرض، ثم يريده ويفعله، والدواعي والإرادات تختلف، والإرادة شيء والشعور بها شيء آخر وبالجملةِ : فإن تصدر القلب للغرض والمنفعة من العمل يبعث على إرادته، وقصده، وهذا يحرك الإنسان للفعل»(٩٣).

---

(٩٠) ابن القيم : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المكتبة التوفيقية ص ١٩٤. وهى طبعة مليئة بالأخطاء والتصحيفات، فليتنبه لذلك.

(٩١) المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(٩٣) ملخصًا من المصدر السابق، ص ٢٩٨.

والله- سبحانه وتعالى : «أجرى العادة بخلق الفعل عند القدرة والداعي – لا بهما»[٩٤].

والإرادة هي حركة النفس، وهى تصدر عن تصور للمنفعة من الفعل، أي تصور العلة الغائية، وهى «التي تجعل المريد مريدا، فإنه إذا علم بمصلحة الفعل ونفعه، وغايته، انبعثت إرادته إليه، فإذا لم يعلم في الفعل مصلحة، ولا كان له فيه غَرَضٌ صحيح، ولا داع يدعوه إليه، فلا يقع منه إلا على سبيلِ العَبَث، هذا الذي لا يعقل العقلاء سواه»[٩٥].

ب- أما أبو حامد الغزالي فيجعل هذه العلاقة بين القلب والجوارح والسلوكيات الظاهرة، والأعمال- كلها- تحليلا جيدا نافعا، فيذكر أن للقلب نوعين في الجنود «جند يُرَى بالأبصار، وجند لا يرى إلا بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخَدَمِ والأعوان (...) فأما جنده المشاهد بالعين: فهو اليد والرجل، والعين، والأذن، واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة، فإن جميعها خادمة للقلب، ومُسَخرة له، فهو المتصرف فيها، والمدبر لها، وقد خلقت مجْبُولَةً على طاعته، ولا تستطيع له خلافا..»[٩٦].

والجند الذي لا يرى إلا بالبصائر هو الإدراكات والحواس، والشهوات والميول، ويضيف الغزالي: «فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف: صنف باعث ومُسْتَحِث؛ إما: إلى جلب النافع الموافق، كالشهوة، وإما إلى دفع الضار المنافي، كالغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة .

«والثاني : هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة. وهى جنود مبثوثة في سائر الأعضاء (...) والثالث : هو المدرك

(٩٤) المصدر السابق، ص ٣١٤.
(٩٥) المصدر السابق، ص ٤٠٤.
(٩٦) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٣٤٧ .

المتصرف للأشياء (...) وهى قوة البصر والسمع والشم، والذوق، واللمس ، وهى مبثوثة في أعضاء معينة، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك»[٩٧].

وهذا الصنف الثالث ينقسم إلى الحواس الظاهرة، وإلى القدرات العقلية مثل الخيال، والتذكر، والتفكر، والحس المشترك[٩٨].

فالقلب له جنود مطيعة هي:

١ - **الشهوات والمحبوبات المرغوبات**، أو: الميول، وهى: إما أن تكون في خدمة الأهداف العليا للقلب (عبادة الله- تعالى)، أو أن تتمرد عليه لِتكون في خِدْمَةِ ذاتها. فجند الغضب وجند الشهوات «قد ينقادان للقلب انقيادا تاما؛ فيعينه ذلك على طريقه الذي يَسْلُكُه، وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده (سفر القلب وسيره إلى الله، ومحبوباته)، وقد يَسْتَعْصِيان عليه استعصاء بَغْي وتمرد، حتى يملكاه ويَسْتعبداه، وفيه هلاكه، وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد»[٩٩].

فإذا لم يستعن القلب بجنوده الآخرين، الذين هم حزب الله، وهم جند العلم والتفكر والحكمة، تسلط عليه جند الشهوات والرغبات والأهواء، وخسر خسرانا مبينا، فيدخل بهذا تحت حكم الموت، أو يكون في غُلاَفِ (الهوى)، واعتقال (المزاج) .

٢- **العلم والحكمة والتفكير والإدراك**: وهى : معرفة الله، ومعرفة الوحي، والدين، ومعرفة الدار الآخرة، ومعرفة الدنيا..فإذا عرف القلب ذلك، وتصدر غايات هذه المعرفة، انبعث من ذاته (شَوْقٌ) إلى جهة المصلحة وإلى تَعَاطِي أسبابها، والتهمم بها و(إرادتها)، وهذا هو الجند الثالث.

---

(٩٧) المصدر السابق، ص ١٣٤٨ .

(٩٨) المصدر السابق، ص ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ .

(٩٩) المصدر السابق، ص ١٣٤٩ .

٣- **الإرادة**: أي : الباعث المحرك للأعضاء، للعمل، على مقتضى المعرفة والعلم، وتوجيه الشهوات والميول والقدرات، وتوظيفها للعمل طبقا لمعرفة القلب، من هنا يبدأ الإنسان في التحرك، والسفر إلى الله، ومراداته الشرعية الدينية. فبدء إصلاح القلب، هو تربية (تكوين وتنمية) (عالم أفكار) صالح، فالإنسان يحتاج إلى تعلم واكتساب المعارف التي تحرك بواعثه، وإرادته ليتحرك ويسير في طريق الخير، طريق الله، وذلك بالتعرض لآيات الله في القرآن والسنة الصحيحة، والآفاق، في النفس والكون، والتقرب إلى الله، والاشتغال بمعرفته.

فإذا كانت خاصية الإنسان هي العلم والحكمة والإرادة، وإذا كان أرقى أنواع المعرفة هو معرفة الله، لأن بها كمال الإنسان، وسعادته في الدنيا والآخرة، فإن عليه أن يتجه لهذا المعرفة، وإرادتها بقلبه، وبهذا يطيب القلب، ويصلح، ويأمر ويوجه جنوده إلى ما توجه هو إليه، أعني: ومعرفة الله وعبادته، ويحكم جنوده، ويضبطهم بمنظومة قيم الإيمان بلا إله إلا الله محمد رسول الله[١٠٠]، فيصير لها سلطان على القلب. فانبعاث الخير والشر، والتحرك لفعلهما، ينشآن من القلب، فإرادة فعل الخير، وإرادة فعل شر، تنشآن من تصورات القلب، ومعرفته، وحبه، وبغضه؛ ويقرر ابن تيمية هذه الحقيقة بقول: «الإرادة هي عمل القلب الذي هو ملك الجسد»[١٠١].

والإرادة هي هَمٌّ مصرّ على الفعل، ويشير مالك بن دينار لذلك بقوله الدقيق: «إن الأبرار لتغلي قلوبهم بأعمال البر، وإن الفجار لتغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فانظروا همومكم رحمكم الله»[١٠٢].

وذلك الغليان هو انبعاث إرادة فعل الخير، وإرادة فعل الشر، والهم المصر

---

(١٠٠) المصدر السابق، ص ١٣٤٩- ١٣٥٥.

(١٠١) تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى، مجلد ١٠، ص ٤١٢.

(١٠٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ١٦٤.

على ذلك، وذلك يحدث؛ لأن للقلب نوافذ من خارج وهى الحواس، ومن داخل وهى جملة ما يسمى (المزاج)، فإذا «أدرك بالحواس شيئا حصل مِنْهُ أثر في القلب»[١٠٣]. وكذلك يؤثر الهوى والمزاج في القلب، حتى وإن كف عن الإحساس بالخارج.

«وأَخَصُّ الآثار الحاصلة في القلب: هو الخواطر، وأعنى بالخواطر: ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار، وأعنى به: إدراكاته علومًا، إما على سبيل التجدد، وإما على سبيل التذكر، فإنها تسمى خواطر، من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها، والخواطر: هي المحركات للإرادات، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خُطُورِ المنوي بالبال، لا محالة، فمبدأ الأفعال: الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء. والخواطر المحركة للرغبة: تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر، أعنى: إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما يدعو إلى الخير، أعنى: إلى ما ينفع في الدار الآخرة»[١٠٤].

فما يدخل القلب من عالم الأفكار والإدراكات: إما أن يلهم الخير، وإما أن يوسوس بالشر، والخاطر الملهم بالخير، هو من الله، والثاني من الشيطان، بتقدير الله تعالى، كما روى عن ابن مسعود قال : قال النبي ﷺ: «**في القلب لـمَّتان: لَمَّةٌ من الملك؛ إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه، وليحمد الله، ولمة من العدو: إيعاد بالشر وتكذيب بالحق، ونهيٌ عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم**»[١٠٥].

---

(١٠٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢ ص ١٣٨٤ - ١٣٨٥.

(١٠٤) المصدر السابق، ص ١٣٨٤ - ١٣٨٥.

(١٠٥) قال العراقي: أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى، هامش : إحياء علوم الدين، ج٢، ص ١٣٨٦. قلت: الحديث ضعيف الإسناد وروى موقوفا على ابن مسعود بغير هذا اللفظ بإسناد صحيح.
انظر: تخريج الشيخ شعيب الأرناؤوط لكتاب ابن القيم (زاد المعاد) ج٢ ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٤٢١. وانظر الطبري: جامع البيان، ج٣، ط. دار الفكر، بيروت، ص١١١ - ١١٣.

وقال الحسن البصري: «إنما هُمّا هَمّان يجولان في القلب؛ هَمٌّ من الله تعالى، وهَمٌّ من العدو، فرحم الله عبدًا وقف عند همه: فما كان من الله- تعالى- أَمْضَاه، وما كان من عدوه جاهده»(١٠٦).

والقلب صالح لقبول هذا وهذا، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى، والانقياد لوسوسة الشيطان، أو بمجاهدة ذلك واتباع منهج الله. والله الموفق للقلوب .

إذًا، أول ما يرد على القلب: الخاطر ثم الفكرة ثم هيجان الرغبة والميل إلى ما خطر في القلب، ثم الاعتقاد وحكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل، ثم الهم بالفعل، ثم تصميم العزم على الفعل وجزم النية فيه، ونهضة القلب. وقصده إلى الفعل، ثم تأكد هذا الهم وصيرورته إرادة جازمة عازمة تحرك إلى أداء الفعل في الواقع(١٠٧). فإذا أدي الفعل، وكرر أداؤُه؛ رسخ وأصبح عادة وخلقا؟

فالأصل في أداء الأفعال هو ما في القلب من أفكار، ورغبات، واعتقادات، وهموم، وعزوم، وإرادات، فإن صلح هذا كله، صلح العمل، باطنًا وظاهرًا، فأصل الصلاح: أن يتعرض القلب لخواطر الخير، وأفكار الرشد والصلاح والاستقامة الخلقية، والإعمار في العالم، وإلهامات الله له ، فيطيع داعي الخير، ويستجيب له ، وسيأتي بيان مفهوم الصلاح والصحة والسلامة في فقرة تالية.

والذي نريد تقريره: أن النبي ﷺ جعل صلاح الجسد، مترتبا على صلاح القلب، وفساده على فساده، فدل ذلك على صحة ما قررناه من أن القلب هو القيادة الموجهة، والحاكمة للسلوك الإنساني كله، وأنه يمارس هذه السلطة التوجيهية والتنفيذية من خلال قوى وقدرات وجنود هي التي تنفذ إرادته.

---

(١٠٦) المصدر السابق، ص ١٣٨٦.
(١٠٧) المصدر السابق، ص ١٤١١، ١٤١٢.

التي تنشأ عن الرغبات التي تتولد عن الأفكار والخواطر.

وقد أخرج ابن الجوزي عن أحمد بن خضرويه مقولة دالة في هـذا المعنـى، قال: «القلوب أوعية، فإذا امـتلأت مـن الحـق أظهـرت زِيـادَة أنوارهـا عـلى الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح»(١٠٨).

سادسا: الأصل الأول: أولوية تربية القلب ليتصف بالصلاح والسلامة والصحة:

أ- بما أن القلب هو البنية الجوانية الباطنة للسلوك الإنساني، وأن صـلاحه هو الشرط الأساسي لصلاح السلوك الصادر عن جوارح الإنسان وأعـضائه، أيا كان، والعكس صحيح، بما أن الأمر كـذلك، فـإن تربيتـه تربيـة صـحيحة ليتـصف بالـصلاح والـسلامة، والـصحة تمثـل (الأولويـة الأولى) في سـلم أولويات التربية الإسلامية لإخراج الإنسان المسلم.

وقد عبر أئمة الإسلام عن هـذه الأولويـة بأسـلوب كـل مـنهم تعبـيرات ذوات دلالة، فقد نقلنا عن القـاضي عيـاض قـول المـازري عـن القلـب: «أن صلاحه هو صلاح الجسد، وأنه الأصل» وقول النووي: أن الحديث «بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب». وقول ابن القـيم: أن الاهـتمام بتـصحيح القلـب وتسديده: «أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه، وعلاجها أهـم ما تنسك به الناسكون» ويقول الحكيم الترمـذي: وتربيـة القلـوب تـؤدي إلى منازل القربة»(١٠٩).

والذي يربى ليس هو المضغة اللحمية، إنما هو عالم الأفكـار والتـصورات الإيمانية، وعالم الرغبات في الخير المعروف، وعالم النيـات والإرادات المحركـة للاتصاف بالأخلاق الحسنة، والباعثة لممارسة أفعال الخير، إن الذي يربى هـو شجرة الإيمان ، بِتَعْبِـير الحكـيم الترمـذي: «لأن الإيـمان شـجرة أنبتهـا الله في

---

(١٠٨) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٥٨.

(١٠٩) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ٩٤.

قلوب أصفيائه؛ للتربية، فالمؤمن في جميع عمره، يربيها حتى ترسخ عروقها في جميع جسده، ويغلظ ساقُها، وتتفرع فروعها باسقة، صاعدة إلى السماء: الفروع، وثمرة الفروع، وهى أعمال الجوارح (...) ولذلك قال على رضي الله عنه: الإيمان يبدو لُمظة (نقطة بيضاء) بيضاء ، فلا يزال يَفْشُو ويعظم حتى يأخذ القلب كله. ففشوه: من تربية العبد، كما تربى الشجرة إذا غرست وهى دقيقة؛ بالماء والتراب، حتى تتربى وترسخ عروقها، وتبسُق فروعها، وتنتج ثمارها؛ فكذلك تُرَبَّى شجرة الإيمان؛ فماؤها: العلم ، وترابها: العمل، وتحفظ وتحرس حتى لا تيبس من تناول الدواب في أيام غرسها، وتنقى من النبات الذي يحتويها ويحتوى عليها. فكذلك يحرس إيمان القلب من الآفات، فإذا تمكنت هذه الشجرة من الأرض ؛ رسوخا، وتمكنت في الجو فُرُوعُها، وزكت ثمرتها حَلّت منْ مَالِكِها محلا يحبها، ويشفق عليها، ويحوطها. وإن كانت هذه الشجرة من الأشجار التي تحمل في السنة مرتين؛ أقبل عليها مالكها بالمحبة لها، والإشفاق عليها. وإن كانت – مع ذلك، بِحَالٍ لا يضرها شتاء ولا صيفًا، ولا ينقطع ثمرها؛ فهي مخضرة في الشتاء والصيف، وغير منقطعة ثمارها في الشتاء والصيف، فعين صاحبها عليها، من بين الأشجار، فلا يعدل بها شجرة، وهى سُرَّة بُسْتَانه، فحلت منه محلا، إنما يمسك ذلك البستان ويَسْقِيه، ويعمره من أجلها، فكذلك المؤمن إذا كانت طاعته لا تنقطع من السماء، وذكر الله لا ينقطع من قلبه، فهو في جميع حالاته: مريد لله، إن صلى أو نام، أو أكل، أو شرب، أو صمت، أو تكلم، أو قام، أو قعد، أو تناول أو ترك، ذلك كله من أجل الله، فهذا عبد خادم لله، جميع أعماله طاعة وعبادة، وقلبه مع الله في جميع أحواله لا يسهو عنه، فهذا كشجرة لا ينقطع ثمرها، ولا ييبس ورقها، فهي خضراء ناعمة، هو ولي الله، والله وليه، به يعمر الأرض، وعين الله عليه ترعاه،

مشتاق إلى الله، والله إليه أشوق»[١١٠].

فأهم تربية هي تربية الإيمان في القلب، ورعايته وإصلاحه.

ب- وقد عبر الأئمة عن هذا المعنى بتعبيرات تحتاج إلى تأمل وإعمال عقل:

١ - يقول المحاسبي: «على العامل أن يَعْقِلَ ما على القلب، وما على الجوارح، فإن القلب هو الأصل، والجوارح أغصان، ولا تقوم الأغصان إلا بالأصل»[١١١].

وفي حديث له عن تربية صدق اليقين يقول المحاسبي: «وتعلم الأصل من الفرع، فيكون الشغل في إثبات الصدق من وجه الأصل، وانتفاء ضده من وجه الأصل؛ فإن الأصل يأتي على الفروع . وما دام العبد يشتغل بالأصل عن الفرع فليس لشغله فناء، ما دام الأصل ثابتًا، كلما ذهب فرع أخلف فرعا آخر بدله»[١١٢].

فالقلب هو الأصل، الذي تنبت منه الفروع، والثمار، وهو مبدأ العمل، الذي يجب تربيته أولًا، ويبين المحاسبي منظومة القيم التي يجب أن يربيها الإنسان في قلبه، ويلخصها بقوله: «إن الله أوجب على العباد حقوقًا في القلب، دون أعمال الجوارح، فجملتها ثلاثة:

أولها: اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر.

والثانية: اعتقاد السنة، ومجانبة البدعة.

والثالثة: اعتقاد الطاعة، ومجانبة الإصرار على ما كره الله- عز وجل.

ثم تفترق هذه الخصال الثلاث إلى فروع لا تحصى من أعمال القلب خاصة، ومن هموم القلب بأعمال الجوارح»[١١٣].

---

(١١٠) المصدر السابق، ص ١٨٧ - ١٨٩.

(١١١) المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ١٧٩.

(١١٢) المصدر السابق ، ص ١٠٣.

(١١٣) الحارث بن أسد المحاسبي : المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص ١٢٧.

ثم عَدَّد ما يلي من أعمال القلوب خاصة؛ اعتقاد التواضع ونفي الكبر، ونفي العُجب، واعتقاد النصح للعباد، وحب الخير لهم، واعتقاد الكراهية لنزول البلاء بالمسلمين؛ نصحا لهم، واتقاء الشماتة، واعتقاد الخوف من الله، ونفى الأمن والغفلة عنه، واعتقاد الحذر والشفقة والوجل من العمل الصالح، ونفي الغِرة بالله، واعتقاد السلامة للعباد، ونفي الحقد وتمنى البلاء لهم، واعتقاد الصبر ونفي الجزع، واعتقاد الرضا ونفي السخط، واعتقاد اليأس مما في أيدي الناس، يقينًا بالمقدور، ونفي الطمع، واعتقاد الثقة بالله، والتوكل عليه، يقينًا بأنه المالك، لا مالك غيره.. واعتقاد اليقين ونفي الخوف والرجاء من المخلوقين، واعتقاد الإخلاص ونفي الرياء، وكظم الغيظ إن استعمله فيما كرهه الله بقلبه دون جوارحه، والتيقظ، ومراقبة الله، وطلب مرضاته، ونفي الغفلة عنه وطلب مرضاة المخلوقين وذكر الله، وتأمل آياته، والشوق إلى لقائه، ومحبة الرحمن، والتفويض إليه في كل الأمور(١١٤).

ثم بين خطورة الغفلة عن هذا الأصل، وبعدها آفة تصيب الإنسان الذي يريد التحقق بمقامات الإيمان والإسلام(١١٥).

٢- وقد قرر ابن تيمية هذا الأصل، فيقول في التحفة العراقية في الأعمال القلبية: «أعمال القلوب، التي قد تسمى المقامات والأحوال» وهى من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك (...) هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق»(١١٦).

ثم يقول : «إن أصل الدين- في الحقيقة- هو الأمور الباطنة من العلوم

---

(١١٤) المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص ١٢٧.
(١١٥) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(١١٦) أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ٥-٧.

والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها (...) وهذه الأعمال الباطنة (...) كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محمودا في حال أحد، وإن ارتقى مقامه (...) فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق»(١١٧).

ويبين ابن تيمية ضرورة تربية القلب ليزكو وينمو في الصالحات، كما سيأتي، ولكن أُثْبت هنا فتوى لشيخ الإسلام ابن تيمية تقرر أولوية تربية القلب والاهتمام به.

سُئِل:أيهما أولى: معالجة ما يكره الله من قلبك، مثل الحسد، والحقد، والغل، والكبر، والرياء، والسمعة، ورؤية الأعمال، وقسوة القلب، وغير ذلك، مما يختص بالقلب مِن دَرَنِه وخُبْثه؟ أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة؛ من الصلاة والصيام وأنواع القربات: من النوافل والمنذورات، مع وجود تلك الأمور في قلبه؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب - رحمه الله: «الحمد لله، من ذلك: ما هو عليه واجب، وأن للأوجب فَضْلًا وزيادة، كما قال- تعالى- فيما رويه عنه رسوله ﷺ : «**وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه**» ثم قال : «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحِبَّه**» والأعمالُ الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب. فإن القلب ملك، والأعضاء جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله..**» وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر في عمل الجسد.

وإذا كان المقدَّم هو الأوجب سواء سُمِّى باطنًا أو ظاهرًا، فقد يكون ما يسمى باطنًا أوجبَ مثلُ ترك الحسد والكبر، فإنه أوجبَ عليه من نوافل الصيام، وقد يكون ما سُمِّى ظاهرًا أفضلَ مثل قيام الليل. فإن أفضل من

---

(١١٧) المصدر السابق، ص ١٣، ١٤.

مُجَرَّد تَرْكٍ بعض الخواطر التي تخطر في القلب، من جنس الغبطة ونحوها، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر . والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتورث الخشوع، ونحو ذلك من الآثار العظيمة، هي أفضل الأعمال، والصدقة. والله أعلم»(١١٨).

فالاهتمام بتربية القلب لإصلاحه هو أصل الدين، ومركز العملية التربوية الإسلامية، وهو أوجب الأعمال.

ويقول ابن القيم: «فالخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه، والطيب: يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه»(١١٩).

٣- وقبل أن أثبت مقولات المربي القدوة عبد القادر الجيلاني في تقرير هذا الأصل، أثبت هنا مقولات لأئمة التربية القلبية لنُدرك بوضوح أن هذا الأصل، هو مقرر تربوي عام في الخطاب الإسلامي، مبنى على الحديث النبوي في صلاح القلب وفساده.

أخرج ابن المبارك عن الحسن البصري: «إن لك قولًا وعملًا، فعملك أحق بك من قَوْلِك، وإن لك سريرة وعلانية، فسريرتك أحق بك من علانيتك، وإن لك عاجلة وعاقبة، فعاقبتك أحق بك من عاجلتك»(١٢٠).

وقال الحسن لرجل: «دَاوِ قلبك، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم»(١٢١).

ويقول أبو حفص: «ما ظهرت حالة عالية إلا من ملازمة أصل صحيح»(١٢٢). ويقول: «حُسْنُ آداب الظاهر عنوان حسن أدب

---

(١١٨) المصدر السابق، ج ٩، ص ٢٠٨.
(١١٩) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ١، ص ٦٧.
(١٢٠) ابن المبارك: كتاب الزهد والرقائق، رقم ٧٧، ص٢٦، وأخرج قريبا منه أحمد في الزهد، ص٢٦٩.
(١٢١) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، مصدر سابق، ص ٩٥.
(١٢٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٤، ص ٨١.

الباطن»(١٢٣).

وفى طبقات الصوفية للسلمي جاءت هذه الأقوال :

- يقول على بن سهل الأصفهاني: «من لم يصحح مبادئ إرادته؛ لا يَسْلَمُ في مُنْتهى عواقبه» .

- ويقول أبو العباس بن مسروق الطوسي: «من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه» .

- ويقول أبو على الثقفي: والفروع الصحيحة لا تتفرع إلا من أصل صحيح، فمن أراد أن تصح له أفعاله على السنة فليصحح الإخلاص من قلبه، فإن تصحيح ظواهر الأعمال بصحة بواطن الإخلاص» .

- ويقول أبو يعقوب النهرجوري: «مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب».

- ويقول أبو إسحق إبراهيم بن المولد: «الفترة بعد المجاهدة مِنْ فساد الابتداء».

- ويقول أبو عمرو بن نُجَيْد، حين سُئل: من أين تتولد الدعاوى؟: «إنما تتولد الدعاوى من فساد الابتداء، فمن صحت بدايته؛ تصح له النهاية، ومن فسدت بدايته؛ فإنه يهلك في أرجاء أحوال، وقتًا ما، قال الله- تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٩]»(١٢٤).

وفى حلية الأولياء، قال أبو عبد الله محمد بن يوسف بن معدان المعروف بالبناء: «أفضل الأعمال: رعاية القلب»(١٢٥).

---

(١٢٣) ابن الجوزي: صفة الصفوة ، ج٤ ، ص ٨١.

(١٢٤) أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص ٢٣٤، ٢٤٠، ٣٦٤، ٣٧٩، ٤١٣، ٤٥٦ .

(١٢٥) أبو نعيم : حلية الأولياء، ج ١٠، ص ٤٠٣.

يقول محمد بن أبى الورد: «..وإنما مُنعوا الوصول بتضييع الأصول»(١٢٦).

وقال على بن زيد: رآني سعيد بن المسيّب، وعليَّ جبة خَزّ، فقال: إنك لجيد الجبة، قلت: وما تغنى عنى وقد أفسدها عَلَيَّ سالمٌ، فقال سعيد: أصلح قلبك، والبس ما شئت»(١٢٧).

وأخرج أبو نعيم عن ميمون بن مهران قال: نزل حذيفة وسلمان- رضي الله عنهما- على نبطية، فقالا لها : هل ها هنا مكان طاهر نصلى فيه؟ فقالت النبطية: طهّر قلبك، فقال أحدهما للآخر: خذها حكمة من قلب كافر. وأخرج عن نافع بن جبير بن مطعم أن سلمان الفارسي ﷺ كان يلتمس مكانًا يصلى فيه، فقالت له عِلْجَة: التمس قلبًا طاهرًا وصَلِّ حيث شئت. فقال: فقهت(١٢٨).

وقيل ليزيد بن عبد الله بن الشخير: ألا تسقف مسجدنا؟ قال: أصلحوا قلوبكم يكفكم مسجدكم(١٢٩).

وعن أبي سعيد المؤدب قال: جاء رجل إلى العمري، فقال: عظني. فقال: فأخذ حصاة من الأرض، فقال: «زِنِةُ هذه من الورع يَدْخُلُ قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض»(١٣٠).

وقال أبو تراب النخشبي: «ليس من العبادات شيء أنْفَع من إصلاح خواطر القلوب»(١٣١).

٤- أما المربي القدوة عبد القادر الجيلاني فيقرر هذا الأصل التربوي

---

(١٢٦) المصدر السابق، ص ٣١٦.
(١٢٧) المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٣.
(١٢٨) المصدر السابق، ج١ ، ص ٢٠٦.
(١٢٩) المصدر السابق، ج٢ ، ص ٢١٢.
(١٣٠) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٢ ، ص ١٠٧ .
(١٣١) ابن الجوزي : ذم الهوى، ص ٥٨.

بمقولات تحتاج منا لتركيز عقلي، وتأمل، وأجمع هذه المقولات في التسلسل الآتي، يقول[١٣٢]:

«فقه اللسان بلا عَمَلِ القلب لا يُخْطيكَ إلى الحق خطوة، السَّيْرُ: سَيْرُ القلب. القربُ: قُرْبُ الأسرار، العمل: عملُ المعاني، مع حفظ حدود الشرع بالجوارح والتواضع لله- عز وجل- ولعباده، من جعل لنفسه وزنا فلا وزن له، من أظهر أعماله للخلق فلا عمل له(...) قد سبق تفريطك في إحكامك للأساس، ما ينفعك إحكامك للبناء الذي فوقه، إذا تغير البناء والأساس محكم: قَدَرْتَ أن تَجْبُرَ البناء. أساس الأعمال: التوحيد والإخلاص، فمن لا توحيد له ولا إخلاص له؛ لا عمل له. أحكم أساس عملك بالتوحيد والإخلاص، ثم ابْنِ الأعمال بحول الله - عز وجل - وقوته لا بحولك ولا قوتك. يد التوحيد هي البانية لا هي الشرك والنفاق. الموحد هو الذي يرتفع قدر عمله، أما المنافق فلا (...) أنت لسانك ورع وقلبك فاجر. لسانك يحمد الله- عز وجل- وقلبك يعترض عليه، ظاهرك مسلم وباطنك كافر، ظاهرك موحد وباطنك مشرك، زهدك على ظاهرك، دينك على ظاهرك، وباطنك خراب ، كبياضٍ على بيت الماء- أي: الخلاء- وقفل علَى مزبلة، إذا كنت هكذا؛ خيم الشيطان على قلبك، وجعله مَسْكَنًا له. المؤمن يبتدئ بعمارة باطنه، ثم بعمارة: ظاهره؛ كالذي يعمل دارا: فينفق على الداخل منها مبالغ من المال، وبابها خراب، فإذا كمّل عمارتها؛ بعد ذلك يعمل بابها، هكذا البداية بالله - عز وجل - ورضاه، ثم الالتفات إلى الخلق بإذنه، البداية بتحصيل الآخرة ثم تتناول الأقْسَام من الدنيا(...) الدائرة على صحة قلبك وسرك، وصفائهما. إنهما يصفوان بتعلم العلم والعمل به، والإخلاص في العمل، والصدق في طلب الحق - عز وجل(...) كل الدواء في التسليم إلى الحق- عز وجل -

---

(١٣٢) سأورد نصوصه مجتمعة، كأنها نص واحد، ثم أوثقها في نهاية الاقتباس .

وخلع الأرباب، من حيث قلبك، الدواء في توحيد الله - عز وجل - بالقلب، لا باللسان فحسب، التوحيد والزهد لا يكونان على الجسد واللسان، التوحيد في القلب، والزهد في القلب، والتقوى في القلب، والمعرفة في القلب، والعلم بالحق - عز وجل - في القلب. ومحبة الله- عز وجل - في القلب، والقرب مِنه في القلب. كُنْ عاقلا، لا تتهوس، ولا تتصنع، ولا تتكلف، أنت في هوس، وتصنع وتكَلُّف، وكذب ورياء، ونفاق، كل همك استجلاب الخلق إليك، أما تعلم أنك كلما حظوت بقلبك حظوة إلى الخلق بعدت من الحق - عز وجل؟ تَدَّعى أنك طالب الحق- عز وجل - وأنت طالب الخلق، مِثلك مثل من قال : أريد أن أمضي إلى مكة، وتوجه إلى خراسان، فبعد عن مكة، تَدَّعي أن قلبك قد خرج من الخلق وأنت تخافهم وترجوهم؟ ظاهرك الزهد، وباطنك الرغْبَة، ظاهرك الحق، وباطنك الخلق. هذا أمر لا يجيء بقلقلة اللسان، هذه الحالة ليس فيها خلق ولا دنيا ولا آخرة، ولا ما سوى الله - عز وجل - في الجملة، هو واحد، ولا يقبل إلا واحد، واحد لا يقبل الشريك (...).

القلب: هو المؤمن، هو الموحد، هو المخلص، هو المتقى، هو الورع، هو الزاهد، هو الموقن، هو العارف هو العامل، هو الأمير، ومن سواه جنوده وأتباعه، إذا قلت: لا إله إلا الله، فقل أولا بقلبك، ثم بلسانك، والكل عليه، واعتمد عليه دون غيره (...) إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى القلب والنفس والجوارح والمأكول والملبوس، وتعدى إلى جميع أحوالك. أول ما يعمر داخل الدار؛ فإذا كَملت عمارتها، أخرج إلى عمارة الباب، لا كان ظاهر بلا باطنْ، لا كان الخلق بلا خالق، لا كان باب بلا دار، لا كان قفل على خَرِبة، يا دنيا بلا آخرة، يا خلقا بلا خالق، جميع ما أنت فيه لا يَنْفَعُكَ يوم القيامة، بل يضرك(...) يا أهل الأرض، اعجنوا أعمالكم بلا ملح، تعالوا خذوا له ملحا، يا شاري الملح، تقدم، يا منافقين ، عجينكم بلا ملح، فطير، هو محتاج إلى خمير

العِلم وملح الإخلاص، يا منافق أنت معجون بالنفاق، عن قريب ينقلب عليك نفاقَك نارا.

اخلص قلبك من النفاق، وقد تَخَلَّص، إذا أخلص القلب أخلصت الجوارح وتخلصت ، القلب راعى الجوارح، فإذا استقام استقامت، إذا استقام القلب والجوارح كما أمر المؤمن، وصار راعيا مع أهله وجيرانه، وأهل بلده، ويرتفع حاله على قدر قوّة إيمانه وتقربه من مولاه (...) كيف تقول: لا إله إلا الله – وفى قلبك كم إله؟ كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صَنمك، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب، لا ينفعك طهارة القالب مع نجاسة القلب (...) العمل بالعلم يصحح القلب ويطهره، فإذا صح القلب صحت الجوارح، وإذا طهر القلب طهرت الجوارح..إذا صلحت المضغة صحت البنية، صحة القلب من صحة السّرّ الذي بين الآدمي وبين ربه- عز وجل. السر: طائر، والقلب: قفصه، والقلب طائر، والبنية قفصه، والبنية طائر، والقبر قفصها، وهو قفص القلب الذي لا بد لهم من الدخول إليه (...).

أسرع إلى الأساس، فإذا أحكمته أَسْرِع إلى البناء، ما الأساس؟ الفقه في الدين، فقه القلب، لا فقه اللسان، فقه القلب يقربك إلى الحق - عز وجل، وفقه اللسان يقربك إلى الخلق وملوكهم، فقه القلب يتركك في صدر مجلس القرب من الحق- عز وجل - يصدرك، ويرفَعُك، ويقرب خطاك إلى ربك - عز وجل(...) كيف تدعو الناس إلى بيتك وما هيأت لهم طعامًا؟ هذا الأمر يحتاج إلى أساس ، ثم يكون بعد ذلك البناء، احفر أرض قلبك إلى أن ينبع فيه ماء الحكمة، ثم ابن بالإخلاص والمجاهدات، والأعمال الصالحات إلى أن يرتفع قصرك، ثم ادع الناس إليه بعد ذلك، اللهم أحي أجساد أعمالِنا بروح إخلاصك، تنفعك الخلوة عن الخلق والخلق في قلبك؟(...) اشتغل بطهارة قلبك أولًا، فإنه فريضة، ثم تعرض للمعرفة، إذا ضيعت الأصل لا يقبل منك الاشتغال بالفرع، لا تنفع طهارة الجوارح مع نجاسة القلب، طهر جوارحك

بالسنة، وقلبك بالعمل بالقرآن. احفظ قلبك حتى تنحفظ جوارحك، كل إناء ينضح بما فيه، أي شيء كان في قلبك ينضح منك على جوارحك (...).

القلب الصحيح: ممتلئ توحيدًا وتوكلًا، وتوفيقا، وعلمًا، وإيمانًا، ومن الله- عز وجل- قربًا، يرى الخلق كلهم بعين العجز والذل والفقر، ومع ذلك لا يتكبر على طفل صغير منهم (...)، من خاف أدلج، لا يستقل مكانًا واحدًا، بل يسير غاية أسفار القوم: قرب الحق، السير سير القلوب (...). إن في حفظ القلب لشغلًا شاغلًا. ذرة من أعمال القلب خير من أعمال الظاهر ألف مرة، ما دامت الفرائض والسنة مُبْقاة عليك، لا ضير (...)، فتوى القلب تقضى على فتوى الفقيه؛ لأن الفقيه يفتى بنوع اجتهاده، والقلب لا يفتي إلا بالعزيمة»(١٣٣).

جـ- ونخلص من ذلك إلى أن أساس تربية الصلاح الخلقي، وسلامة الإيمان والأخلاق والأعمال، هو تربية القلب، أولًا، فهي أول ، وأهم، وأولى مجالات التربية، كما قرر الرسول ﷺ وكما بين فقهاء تربية القلب، من أن صلاح القلب وسلامته، يثمر صلاح الأعمال والأخلاق، وسلامتها، فصلاح الظاهر نتاج لصلاح الباطن، وسريرة القلب تظهر في علانية السلوك، ولا بد، وهذا أحد إشارات قول الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: أن السمت الحسن والخشوع، والتواضع إنما هو من أثر السجود لله - عز وجل - وخصوصًا سجود القلب لله.

جاء في تفسير ابن كثير: «عن منصور عن مجاهد ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون (...)، وقال أمير المؤمنين عثمان

---

(١٣٣) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، مصدر سابق، ص ٢٩، ٣٢، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٦، ٨٦، ١٠٨، ١٢٣، ١٣٤، ١٤١، ١٧١، ٢٠٧، ٢٥٧، ٢٨٠، ٢٨٣.

ﷺ: ما أسرَّ أحد سُريرة إلا أبداها الله - تعالى - على صفحات وجهه وفلتات لسانه. والغرض: أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله - تعالى - أصلح الله - عز وجل - ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله - تعالى- علانيته»(١٣٤).

إذًا؛ إصلاح الجوانية يثمر إصلاح البرانية، ليتحقق استواء الصلاح القلبي، والصلاح السلوكي الظاهر، يقول مطرف بن عبد الله: «إن العبد إذا استوت سريرته وعلانيته؛ قال الله - عز وجل: هذا عبدي حقًا»(١٣٥).

د- والحديث الصحيح بروايتيه عن مسلم والبخاري، وأحمد يقرر أن غاية تربية القلب، التي هي الأولوية رقم واحد في منظومة تربية الإنسان المسلم، والمقدمة الأساسية للتغيير الخلقي، والتغيير الاجتماعي، هذه الغاية تتحدد في ثلاثة محاور حددها الحديث الصحيح هي: الصلاح، والسلامة، والصحة، أي: أن يكون القلب متصفًا بالإيمان والحياة والاستنارة والتوحيد والرحمة...إلخ. كما سيأتي، ومتصفا بالتوحيد واتباع الوحي وسنة الرسول ﷺ، ومُحْتميا من النفاق والشرك، واتباع الشبهات، وشهوات الغي، أن يكون مقبلا على الله، نقيًا..إلخ.

سابعًا : مَعَالِم صلاح القلب وسلامته وصحته:

أ- فأما صلاح القلب، أي : صلاح جوانية الإنسان، فتتحقق بمراقبة، وإصلاح الخواطر والأفكار الموجهة أي: عالم الأفكار والتصورات، والقيم التي تشكل رغبات القلب وميوله، وبالتالي تصبغ اتجاهاته ونزوعاته وإراداته صبغة معنية، مراقبة ذلك بحيث لا يصل إلى القلب إلا خواطر الإيمان بالله

---

(١٣٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص، ٢٠٤ وانظر أيضا في نفس المعنى: ابن مفلح: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج١، ص ١٢٤.

(١٣٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢ ، ص ٢٠٥.

وحبه ورضاه، وحب الانقياد لـذلك، والتحقـق بـه؛ رغبـةً ومـيلًا، واتجاهـا، ونزوعا، وهما، وإرادة للعمل المرضي لله.

١- يقول ابن رجب: «فـلا صـلاح للقلـوب حتـى تـستقر فيهـا معرفـة الله وعظمته، ومحبته، وخشيته ومهابته، ورجاؤه، والتوكل عليه، وتمتلئ مـن ذلـك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى (لا إله إلا الله) ؛ فلا صلاح للقلوب حتـى يكون إلهها الذي تألهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو الله وحده، لا شريك له، ولو كان في السموات والأرض إله يؤلـه (يُعْبَـد) سـوى الله لفسدت بـذلك الـسموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢].

فعلم بذلك أنـه لا صـلاح للعـالم العلـوي والـسفلي، معـا، حتـى تكـون حركات أهلها كلها لله، وحركات الجسد تابعة لحركـة القلـب وإرادتـه، فـإن كانت حركته وإرادته لله وحده؛ فقد صلَح، وصلَحت حركـات الجـسد كلـه، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله - تعـالى؛ فـسد، وفـسدت حركـات الجسد بِحَسْبِ فساد حركة القلب.

وروى الليث عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام: ١٥١]: قال: لا تحبوا غيري (...) قال الحسن: اعلـم أنـك لـن تحـب الله حتـى تحـب طاعته. وسئل ذو النون: متى أحب ربى؟ قال: إذا كان ما يبغـضه عنـدك أمـرّ من الصبر.. وقال أبو يعقوب النهرجوري: كل من ادعى محبة الله- عز وجل- ولم يوافق الله في أمره، فدعواه: باطلة. وقـال رويـم: المحبـة: الموافقـة في كـل الأحوال (...).

وفى السنن عن النبي ﷺ قال: «**من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله ، وأبغض لله، فقد استكمل الإيمان**» ومعنى هذا: أن حركات القلب والجـوارح إذا كانـت كلها لله فقد كمل إيمان العبد بذلك؛ ظاهرا وباطنا، ويلزم من صـلاح حركـات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحا لـيس فيـه إلا إرادة الله

وإرادة ما يريده؛ لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده الله، فَسَارَعَتْ إلى ما فيه رضاه، وكَفَّتْ عما يكرهه، وعما يخشى أن يكون مما يكرهه، وإن لم يتيقن ذلك.

قال الحسن: ما نظرت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي ولا نهضت على قدمي حتى أنظر: على طاعةٍ أو على معصية؟ فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت (...) فهؤلاء القوم - لما صلحت قلوبهم، فلم يبق فيها إرادة لغير الله- عز وجل- صلحت جوارحهم، فلم تتحرك إلا لله- عز وجل- وبما فيه رضاه»[١٣٦].

فصلاح القلب أن يكون موحدًا لله، محبا لله، مطيعًا، موافقا لمنهجه، يحب ما يحبه، ويبغض ما يبغضه، ويريد ما يريده، وبكلمة: أن يكون مؤمنًا والقلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه، كما قرر ابن تيمية»[١٣٧].

٢- وقد فصل ابن تيمية وابن القيم مفهوم صلاح القلب، يقول ابن تيمية: إن الله- سبحانه وتعالى- خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء، كما خلق له العين يرى بها الأشياء، والأذن يسمع بها الأشياء، كما خلق- سبحانه- كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور، وعمل من الأعمال (...) فإذا استعمل الإنسان العضو فيما خلق له، وأعد لأجله؛ فذلك هو الحق القائم، والعدل الذي قامت به السموات والأرض، وكان ذلك خيرًا وصلاحًا لذلك العضو، ولربه وللشيء الذي استعمل فيه، وذلك الإنسان الصالح الذي استقام حاله و﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. وإذا لم يستعمل العضو في حقه بل ترك بطالًا؛ فذلك خسران، وصاحبه مغبون، وإن استعمل في خلاف ما خلق له؛ فهو الضلال والهلاك، وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفرًا .

«وإذ قد خُلِق القلب لأن يُعْلَم به فتوجهه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها، هو الفكر والنظر، كما أن إقبال الأذن على الكلام ابتغاء سمعه؛ هو الإصغاء

---

(١٣٦) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٩٥، ٩٦.

(١٣٧) ابن تيمية: فصل في تزكية النفس، في مجموع الفتاوى، ج ٩ ، ص ٦٣٧ .

والاستماع، وانصراف الطرف (العين) إلى الأشياء طلبًا لرؤيتها، هو النظر، فالفكر للقلب، كالإصغاء للأذن، (...) وإذا علم ما نظر فيه فذلك مطلوبه(...) وكم من ناظر مفكر لم يحصل العلم، ولم ينله (...) .

فصلاح القلب وحقه الذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء، لا أقول: أن يعلمها فقط فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلا له، بل غافلًا عنه، ملغيًا له، والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده، ويضبطه، ويعيه، ويثبته في قلبه، فيكون في وقت الحاجة إليه غنيًا، فيطابق عملُه قوله، وباطنه ظاهره، وذلك هو الذي أوتي الحكمة (...) ثم إذا كان حق القلب أن يعلم الحق، فإن الله هو الحق المبين ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٢]، فقد استبان أن القلب إنما خلق لذكر الله- سبحانه (...)، فإذا كان القلب مشغولًا بالله، عاقلًا للحق، متفكرًا في العالم، فقد وضع في موضعه (...)، أما إذا لم يصرف إلى العلم، ولم يُوعَ فيه الحق، فقد نسي ربه، فلم يوضع في موضعه، بل هو ضائع، ولا يحتاج أن نقول: قد وضع في موضع غير موضعه، بل لم يوضع أصلًا، فإن موضعه هو الحق، وما سوى الحق باطل، فإذا لم يوضع في الحق، لم يبق إلا الباطل، والباطل ليس بشيء أصلًا، وما ليس بشيء أَحْرَى ألا يكون موضعًا.

والقلب هو نفسه لا يقبل إلا الحق، فإذا لم يوضع فيه، فإنه لا يقبل غير ما خلق له (...) وهو مع ذلك ليس بمتروك مُخَلًّى، فإنه لا يزال في أودية الأفكار، وأفكار الأماني (...) هذا إذا صرف في الباطل، فأما لو ترك وحاله التي فطر عليها، فارغًا عن كل ذكر، خاليًا عن كل فكر، فقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه، ويرى الحق الذي لا ريب فيه، فيؤمن بربه، ويُنيب إليه، فإن كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانِه (...).

وإنما يحول بينه وبين الحق- في غالب الحال- شغله بغيره من فتن الدنيا، ومطالب الجسد، وشهوات النفس، (...) أو هو يميل إليه فيصده الهوى عن

اتباع الحق، ويكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء .

ثم الهوى قد يتعرض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه، فلا يتبين له الحق، كما قيل: «حبك الشيء يعمي ويصم» (...) وكثيرًا ما يكون ذلك عن كبر يمنعه عن أن يطلب الحق، ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢] وقد يعرض له الهوى بعد أن عرف الحق، فيجحده، ويُعرض عنه (...) .

ثم القلب للعلم كالإناء للماء، والوعاء للعسل، والوادي للسيل، كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا...﴾[الرعد: ١٧].

وقال النبي ﷺ: «**إن مثل ما بعثني الله به- عز وجل- من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجاوب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقُه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعَلِم، وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**» (البخاري، ومسلم، وهذا لفظه) وفي حديث كميل بن زياد عن علي رضي الله عنه قال: القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، وبلغنا عن بعض السلف قال : القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إلى الله – تعالى: أرقها وأصفاها. وهذا مَثَلٌ حَسَن، فإن القلب إذا كان رقيقًا لينًا كان قبوله للعلم سهلًا يسيرًا، ورسخ العلم فيه، وثبت، وأثّر، وإن كان قاسيًا غليظًا كان قبوله للعلم صعبًا عسيرًا .

ولا بد مع ذلك أن يكون زكيًا صافيًا سليمًا، حتى يزكو فيه العلم ويثمر ثمرًا طيبًا، وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلمَ ، وكان كالدَّغَلِ في الزرع، إن لم يمنع الحبَّ من أن ينبت؟ منعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بَيّن لأولي الأبصار.

وتلخيص هذه الجملة؛ أنه إذا استعمل في الحق فله وجهان: وجه مقبل على الحق، ومن هذا الوجه يقال له : دعاء، وإناء، لأن ذلك يستوجب ما يوعى فيه، ويوضع فيه، وهذه الصفة صفة وجود وثبوت. ووجه معرض عن الباطل، ومن هذا الوجه يقال له: زكي، وسليم، وطاهر، لأن هذه الأسماء تدل على عدم الشر، وانتفاء الخبث، والدَّغَل، وهذه الصفة صفة عدم ونفي..»(١٣٨).

إن هذا النص يحدد أن صلاح القلب يتكون من: أن يستعمل القلب فيما خلق له، وذلك بأن يعلم الحق الذي أوحاه الله - تعالى - فيعقله، ويعمل به، ويحبه ويعرفه ويعبده، ويطيعه، وأن يكون زكيًا سليمًا طاهرًا، بنفي الخبث عنه، والشر، فهناك عمليتان: تقبل الحق، والعمل به، والتخلص من الباطل، والهوى المضل.

٣- وهذه هي تزكية القلب وتربيته كما سيأتي، وفي موضع آخر يقرر رباني الأمة ابن تيمية قاعدة مهمة في مفهوم صلاح القلب، يقول : «وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] ، والقلب الحي المنور، فإنه لما فيه من النور: يسمع ويبصر ويعقل . والقلب الميت، فإنه لا يسمع ولا يبصر.

حياة العبد بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم (...) واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية، أو مجرد العلم والقدرة.. بل الحياة صفة قائمة بالموصوف، وهي شرط في العلم والإرادة. والقدرة على الأفعال الاختيارية، وهي أيضًا مستلزمة لذلك، فكل حي له شعور وإرادة، وعمل ، اختياري، بقدرة، وكل ما له علم وإرادة ، وعمل

---

(١٣٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٩ ، ص ١٦٢- ١٦٨.

اختياري فهو حي.

والحياءُ مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيًا، فيه حياء يمنعه من القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب(...) ولهذا كان الحيي يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل القبح، بخلاف الوقح، الذي ليس يحييّ، فلا حياء معه، ولا إيمان يزجره عن ذلك..»(١٣٩).

فصلاح القلب يعني أيضًا : أن يكون القلب حيًا مستنيرًا، ذا إحساس جمالي، وشعور وتأثر بالقبح، والخير والجمال، فيزيد الخير، والجمال، ويمتنع عن القبح والشر.

٤- وقد فصل ابن القيم مفهوم صلاح القلب في أماكن من كتبه، ويتبلور ما قرره في صلاح القلب فيما يلي:

٤-١: صَلاَحْ القلب يعني: أن يكون القلب حيًا مشرقًا، فحياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وظلمته مادة كل شر فيه، فكمال حياة القلب ونوره أصل كل خير وسعادة للإنسان «فالحياة والنور مادة الخير كله ، قال الله - تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجمع بين الأصلين، الحياة، والنور، فالحياة تكون قوته، وسمعه، وبصره وحياؤه وعفته، وشجاعته، وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة. ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حيَاته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عُرِضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها، ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «هلك من لم

(١٣٩) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ٦٥، ٦٨.

يكن له قلب يعرف به المعروف، وينكر به المنكر» (...) وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه: انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حسن الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح، وقد ذكر -سبحانه وتعالى- هذين الأصلين في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين؛ فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق له»(١٤٠).

٤-٢: ويقول في شفاء العليل: «إن القلب الحي هو الذي يعرف الحق، ويقبله، ويحبه، ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس، ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق، وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت، لا يحس بلذة الطعام والشراب، وألم فقدهما»(١٤١).

وحياة القلب، ونوره يتحققان بالاستجابة لما يدعونا إليه الله ورسوله، من العلم والإيمان، والعمل الصالح بما يحبه الله ويرضاه، أي: أن حياة القلب وصلاح نوره، كل ذلك يتحقق بانشراح القلب للإسلام(١٤٢).

٤-٣: ويقول في زاد المعاد(١٤٣): «فأما طب القلوب فمُسَلّم إلى الرسل- صلوات الله عليهم- ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم، وعلى أيديهم، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابه متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا

(١٤٠) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٢٧، ٢٨.
(١٤١) ابن قيم الجوزية: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، والحكمة والتعليل، ص ٢١٦.
(١٤٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٤، ص٧٥.
(١٤٣) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، ج ١، ص٣٢-٣٤.

صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل».

٤-٤: ويقول في الإغاثة: «إن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركًا للحق، مريدًا له، مؤثرا له على غيره» ويفصل ذلك في باب كامل، يقول: «لما كان في القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله : باستعمال قوة العلم في إدراك الحق، ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة، والمحبة في طلب الحق، ومحبته، وإيثاره على الباطل . فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو مُنْعَم عليه(...) وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به ، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان: حارث همام بالطبع (...) فالحارث: الكاسبُ العامل ، والهمام: المريد، فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون متصورًا لها، متميزًا عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته، وأرادته، ولابد»[١٤٤].

وينتهي ابن القيم إلى النتيجة الآتية : «إنه لا سعادة للقلب، ولا نعيم، ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده، وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه»[١٤٥] .

٤-٥: إن صلاح القلب يستلزم تخلصه من الشبهات المضلة، والشهوات المغوية، والقرآن الكريم متضمن لشفاء القلب وتطهره منهما - معًا - فالقرآن

---

(١٤٤) المصدر السابق، ص ٣٢- ٣٤.

(١٤٥) المصدر السابق ص ٣٥.

شفاء من الشبهات بما فيه من البينات والبراهين العظيمة التي تبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، في مجالات التوحيد، والنبوات، والمعاد، بأتم الوجوه، وأحسنها، وأقربها إلى المعقول، وذلك بشرط معرفة المراد من الآيات، وفهمها، والتسليم لمطياتها، وقبولها.

وهو شفاء لشهوات الغي بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة، والترغيب، والترهيب، والأمثال والقصص، التي فيها أنواع العبر و الاستبصار فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عَمَّا يضره، فيصير القلب محبًا للرشد، ومبغضًا للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فُطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية «فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده، ويفرحه، ويسره، وينشطه..كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه. وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له، والحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن (...) وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يقال: زكا الزرع وكمل»(١٤٦).

ويقول ابن القيم: «فإن صلاح القلوب أن تكون : عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمَرْضاته ومحابه، متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة - البتة - إلا بذلك.

---

(١٤٦) المصدر السابق ، ص ٥٨، والمعطيات السابقة، ص ٥٨ ، ٥٩.

ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل، وما يُظَن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم، فغلط ممن يظن ذلك»(١٤٧).

نخلص من ذلك إلى: أن صلاح القلب مفهوم مركب من حياته، ونوره، وتحققه بالإيمان، وقبول القرآن ، وتدبره، وعبادة الله وحده، وتخلصه وتطهره من الباطل والشبهات والشهوات، وأن الطريق لذلك، هو أن يتربى القلب، ويتزكى.

ب- وأما سلامة القلب وصحته، فتعني: أن يكون القلب (سليمًا) من أمراض الشبهات المضلة، وشهوات الغي.

أي: صارت السلامة صفة له، ثابتة، وهو ضد المريض والسليم والعليل، وهو القلب الصحيح، الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩]، يقول ابن كثير: «..عن عوف ؛ قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال الحسن: سليم من الشرك»(١٤٨). وقال: «أي سالم من الدنس والشرك. وقال ابن عباس: ..القلب السليم: أن يشهد أن لا إله إلا الله.. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض.. قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة»(١٤٩).

وفي فتح القدير للشوكاني: «..وقال الضحاك: السليم: الخالص(...) قال الرازي: أصح الأقوال: أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق

---

(١٤٧) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، الجزء الرابع، ط ٤، ص ٧٠.
(١٤٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ١٢ .
(١٤٩) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ .

الرذيلة..»(١٥٠).

وقد حلل ابن القيم هذا المفهوم ثم قال: «والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه،وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله، مع تحكيمه لرسوله في خوفه، ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال ، والتباعد عن سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده .

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته لله - تعالى: إرادة ومحبة، وتوكلًا، وإنابة، وإخباتا، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله: فإن أحب أحب في الله ، وإن أبغض أبغض في الله، وأن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل مَنْ عدا رسوله ﷺ، فيعقد قلبه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال، من أقوال القلب؛ وهي العقائد، وأقوال اللسان، وهي الخبر عما في القلب ، وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة، والكراهة، وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله ؛ دقه وجله، هو ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل»(١٥١).

جـ- والدي نخلص إليه هو: أن صلاح القلب، وسلامة القلب تتحققان حين يكون عالم المعتقدات والتصورات والمفاهيم، والأفكار، التي يَعتقدها القلب، صالحة سليمة، بتأسيها على الوحي الإلهي، وانطلاقها منه، وحين ينشأ عن ذلك المعتقد الإيماني عالم القيم والموجهة للسلوكيات والتصرفات

---

(١٥٠) محمد بن على بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج ٤، ص ١٤١ .

(١٥١) ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان، ج ١، ص ١٣، ١٤ .

والاختبارات، بحيث تتأسس مع الإيمان الصحيح السليم، فتتحقق بالصحة والصلاح ، والسلامة، فينشأ من ذلك أخلاق واتجاهات، وعادات، وتصرفات صالحة، سليمة، وتتحقق مواقف وعلامات وانتماءات صالحه سليمة موافقة لما في القلب من إيمان صالح سليم.

د- فإذا تحقق القلب بالصلاح، والصحة والسلامة، تحققت الأخلاق بالصلاح والصحة والسلامة، وتحققت أعمال الجوارح بالصلاح والصحة والسلامة، فمنطلق، الإصلاح الخلقي والإصلاح السلوكي، وإصلاح التصرفات، والمعاملات، والعادات هو إصلاح القلب، والعكس صحيح، كما قرر الحديث النبوي في هذا الفصل؛ لأن القلب هو الحاكم والموجه للجوارح والتصرفات، فإذا صلح، صلحت، وإذا سلم سلمت، وإذا فسد فسدت.

هـ-إن طريق إصلاح القلب وتحققه بالسلامة؛ وما يشتمل عليه هذان المفهومان من تصورات وقيم هو التربية ، التي تسمي أيضا . تزكية القلب.

ثامنًا: طريق الوصول لصلاح القلب وسلامته: تربية القلب وتزكيته:

أ- قررنا- نقلا عن ابن القيم- أن القلب «محتاج إلى أن يتربى حتى ينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح». وأن عملية التربية هذه تتطلب أمرين

الأول: إعطاؤه ما ينفعه، كي يتغذى، وينمو، ويتم صلاحه، ويزيد، ويكمل.

والثاني: منع ما يضره، وتخليصه من معوقات النمو، أي: من الفواحش والشبهات والشهوات.

وهذا بعينه هو مفهوم «تزكية القلب»، وسأكتفي بعرض تحليل ابن تيمية لهذا المفهوم، وإضافات تلميذه ابن القيم لهذا المفهوم، وقد فصلناه في الفصل الأول من هذا الكتاب .

ب- ذكرت من قبل الصلاح القلبي يستلزم: زكاة القلب، يقول ابن تيمية[١٥٢]: «زكاة القلبِ مثل نماء البدن، والزكاة - في اللغة - النماء والزيادة

(١٥٢) ابن تيمية : فصل في مرض القلوب وشفائها، في : مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ٦٠، ٦١.

في الصلاح؛ يقال: زَكَا الشيء؛ إذا نما في الصلاح. فالقلب يَحْتَاج أن يتربى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يُرَبَّى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك؛ مِنْ مَنْع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه، ومنع ما يضره، كذلك القلب: لا يزكو؛ فينمو ويتم صلاحُه- إلا بحصول ما ينفعه، ومنع ما يضره، وكذلك الزرع؛ لا يزكو إلا بهذا (...) .

وزكاته مَعْنًى زائد على طهارته من الذنب (...)، وكذلك ترك الفواحش، يزكو بها القلب، وكذلك ترك المعاصي، فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدَّغَلِ في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة،كاستخراج الدم الزائد؛ تخلصت القوة الطبيعية واستراحت، فينمو البدن، وكذلك القلب؛ إذا تاب من الذنوب؛ تخلصت قوة القلب، وإرادته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الجواذب، الفاسدة التي كانت فيه، فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل (...) فالتزكية، وإن كان أصلها النماء والبركة، وزيادة الخير؛ فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا. وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[فصلت: ٦-٧]، وهي التوحيد والإيمان، الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن: نَفْيَ إلهيةِ ما سوى الحق، من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وهذا أصل ما تزكو به القلوب. والتزكية جعل الشيء زكيًا» .

جـ- ويبسط ابن القيم نفس المعنى ، فيقول: «الزكاة في اللغة هي: النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء» ثم يبين أن التزكية تستلزم التطهر والتخلص والتخلي من الفواحش، والشرك والمعاصي، يقول : «القَلْبُ؛ إذا تخلص من الذنوب - بالتوبة - فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة؛ زكا ونما، وقوي واشتد، (...) ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل

له إلى زكاته؛ إلا بعد طهارته»(١٥٣).

ويستدل ابن تيمية وابنُ القيم بآيات القرآن، مثل : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، فينقل ابن القيم عن قتادة: «مَنْ عَمِلَ خيرا زَكَّاها بطاعة الله- عز وجل»، وقال أيضًا: «قد أفلح من زكى نَفْسَه بعمل صالح» .

وقال الحسن: «قد أفلح مَنْ زكى نفسه فأصلحها وحَمَلَها على طاعة الله- تعالى - وقد خاب مَنْ أهلكها، وحملها على معصية الله- تعالى»، قال ابن قتيبة: «يريد أفلح مَنْ زكى نفسه، أي: نَمَّاها وأعْلاها بالطاعة والبِر والصدقة، واصطناع المعروف»، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ ؛ أي: نَقَصَها وأخفاها بترك عمل البر، وركوبِ المعاصي»(١٥٤).

وينقل ابنُ تيمية شيئًا مما سبق؛ ويضيف: «وأصل الزكاة: الزيادة في الخير، ومنه يقال : زَكَا الزرع، وزكا المالُ ؛ إذا نما، ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يُزَالَ عَنْهُ الدَّغَل. فكذلك النفسُ والأعمال؛ لا تزكو حتى يُزَال عَنها ما يناقضُها، ولا يكون الرجل مُتزكيا إلا مع ترك الشر؛ فإنه يُدَنِّسُ النفسَ، ويدسيها، قال الزجاج: «﴿دَسَّىٰهَا﴾: جعلها ذليلة حقيرة خسيسة» ، النفس إذا زكاها صاحبها؛ ارتفعت واتسعت وكبرت، ونَبُلَتْ، (...) ومعنى الزاكي: النامي الكثير، (...) ما يتزكى به الإنسان: التوحيد والأعمال الصالحة (...) إن الزكاة تَسْتَلْزِم الطهارة»(١٥٥).

وتزكية القلب، وتربيتُه، في الخير، تستلزم المجاهدة، مجاهدة النفس؛ بوعظها والإنكار عليها حتى لا تتبع الهوى المضاد للإيمان، فهذا فرض عين

---

(١٥٣) ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان، ج١، ص ٥٩.

(١٥٤) المصدر السابق ، ص ٦٥.

(١٥٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ١٠، ص ٣٥٤- ٣٥٦.

عليه، والصبر فيه من أفضل الأعمال[١٥٦].

كما تستلزم تفريغ القلب مما لا يحبه الله، وأن يملأه بما يحبه الله[١٥٧].

د- إذن، تربية القلب، وتزكيته، عملية تتركب من:

١- إمداده بالأغذية العلمية والعملية، الصالحة، التي تزكيه، وتكبره، وتبلغه الصلاح والسلامة والكمال، بمعرفة الله، والإيمان به، وتوحيده، وقراءة القرآن، وذكر الله، والصلاة..إلخ، أي: تنمية عالم عقائد، وأفكار، وقيم، وعواطف صالحة منطلقة من وحي الله في القرآن وصحيح السنة النبوية.

٢- تطهير القلب، وحمايته، من الشر والمعصية، وتفريغه من الفواحش، والذنوب، وسوء الأخلاق، بالتوبة، وإنكار الفتن، وهذا شرط لنماء الخير في القلب، وصلاحه، وسلامته، ويشتمل الشر ما يدخل في عالم المعتقدات، والأفكار، والقيم، والعواطف، والاتجاهات، والعادات، والعلاقات، والتصرفات.

٣- وهاتان العمليتان الكُبْرَيَانِ تتطلبان القيام بجهاد القلب، وجهاد النفس، أي: بذل الجهد لإكسابِ القلب قيم الحياة والصلاح، والسلامة، والاستنارة؛ الإيمان، والتوبة، والمحبة، والإخلاص، والرحمة، والرقة، ..إلخ، والتطهر من معاصي القلوب، وتحمل النفس للمكاره، في سبيل هذه المجاهدة. وهذا فرض عين على المسلم والمسلمة، كما نقلنا عن رباني الأمة: أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية - رحمه الله.

هـ- وقد شرحنا- في الفصل الأول من هذا الكتاب- كل ما يتعلق بماهية تربية القلب، وتربية الإيمان وباقي قيم القلب الصالح السليم، الحي، المنور، الرحيم، الرقيق، الحر... إلخ، قد تناولناها في فصول هذا الكتاب، وبينا كيف

---

(١٥٦) المصدر السابق، ص ٣٥٧.

(١٥٧) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

يمكن تربيتها وتزكية القلب بها . والحمد لله .

تاسعًا: صلاح القلب وصلاح الأخلاق، وفساد القلب وفساد الأخلاق:

ونخلص مما سبق إلى أن صلاح القلب وسلامته يستلزمان تربيته وتزكيته، فبهذا يصلح القلب، وينمو في الخير والصلاح والتقوى، فتصلح الأخلاق، والأعمال، والنيات والمقاصد، فيجتنب المسلم الحرام المحض، ويتقي الشبهات، ويفعل ما يحبه الله من الأخلاق والعادات والتصرفات؛ باطنًا وظاهرًا؛ لأن الإنسان، بذلك، قد أصبح ذا ضمير حي، مؤمن، يقظ، تربى في قلبه واعظ الله الذي يأمره بالخير، وينهاه عن الشر، كما شرحنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

والقلب الذي صلح وسلم، هو قلب يعرف الله - تعالى - ويؤمن به، ويوحده، ويتعبد له بمعاني أسمائه الحُسْنَى ويخشع له، ويسجد لعظمته، ويتوكل عليه، ويثق به في جميع أحواله، ويحبه، ويأنس به، ويفوض أموره إليه، ناظرا إلى تدبيره، مراقبا له، قابلًا لأحكامه، مؤتمرا بأمره، مطمئنا به، يستطيب نسيم قربهِ وينشرح صدره بنوره، فيتواضع له، ويعظم أمره، ويحفظ حدوده، ويتذلل لربوبيته، ويسارع في مرضاته، ويهاجر إليه بكليته، ويتحرر مما سواه، فإذا كان كذلك؛ فإنه تكون فيه الرأفة بالخلق، والرحمة لهم، واللين، والحلم، وسعة الصدر، وتعظيم أمر الله، والإخلاص له، وحراسة القلب، ودوام الفكر، والرضا بالله، والإنابة إليه، والسكون له، والذكر الدائم، واليقظة في الأمور، والمعاينة لها، والرزانة، والتأني، والصيانة، والشفقة، والعطف، والأنس بالله - تعالى - والرجاء فيه ، والسرور به، والخشية منه، والسخاء، والجود، والبشاشة، وسلامة الصدر.. فهذا قلب قد امتلأ خيرا، فامتلأت جوارحه من هذا الخير .

والقلب الذي لم يصلح، ولم يسلم، ولم يصح، هو قلب فاسد، وهو القلب الذي لم يعرف الله معرفة حقة، ولم يظهر فيه نور وحيه، ولا حل بقلبه عظمته،

ولا طالع مَجْدَهُ، ولا عاين مِنَّتَهُ وإحسانه، ولا فهم تدبيره، ولطفه، ولا شرب من شراب محبته، ولا اشتقاق إليه، ولا انشرح صدره للإسلام له، ولا استلذ طاعته، ولا سجد لكبريائه وعظمته، فظاهِرُهُ مُقِر بالإيمان؛ قولا، ويصلي ويصوم بلا روح، ولا قلب، فإذا نظرت إلى باطنه؛ وجدت خوف الرزق على قلبه كالجبالِ، يكاد يموت مِن هَمّهِ، وخوف الخلق، وسقوط منزلته من قلوبهم، يجد الفرح بمدح الخلق له، وحب الرياسة، وطلب العلو، والتَّبَصْبُص للأغنياء وذوي السلطة، واستحقار الفقراء والأنَفَةِ منهم، نجده مستكبرا في موضع الحق، حاقدا على أخيه المسلم، مُتَّصِفا بالعداوة، والبغضة، يترك الحق مخافة ذل ينزل به، يقول بالرغبة والهوى، يتصف بالشح والبخل والأشر والبطر، والغل والغش، والمباهاةِ والمداهنة، والرياء الاجتماعي، والاشتغال بعيوب الناس، والإعجاب بالنفس، والتزين للمخلوقين، والصلف والتجبر، والقسوة والفظاظة، وغلظ القلب، وضيق الصدر، وسوء الخلق، والجفاء، والمراء في الكلام، والطيش وقلة الرحمة، وقلة الحياء، وطلب العِز الدنيوي، والتماس المغالبة، والانتصار للنفس- لا للحق، وتعظيم الأغنياء وذوي السلطة لأجل غناهم، والاستهانة بالفقراء لأجل فقرهم، والغيبة والحسد، والنميمة، والظلم، والعدوان .

فهذه كلها مَزَابل قد انضمت عليها طويات صدره، ابتداء، فظهرت على علانيته أنواع الأقذار الخلقية القبيحة.

فصاحب هذا القلب يحتاج - بإلحاح - أن يصلح قلبه، ليصلح خُلُقَه وسلوكه؛ «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١٥٨)، وذلك بالشروع في عمليات

---

(١٥٨) المعطيات السابقة، بتصرف من : الحكيم الترمذي : نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، المجلد ١، ص ١٩٢، ١٩٣.

تربية القلب وتزكيته، التي أشرنا إليها في هذا الفصل، وفصلناها في الفصل الأول، ليكتسب قيم الصلاح والسلامة والاستقامة، والصحة، والاستنارة والرحمة...إلخ، فإذا انصلح القلب وتطهر فنما الخير فيه، فيتحَنَّنُ الله على صاحبه، فتصلح علانيته كلها، ويوفقه، يقول أحمد بن جعفر بن ماهان: «إذا سكنت الخشية في القلب، رُؤِيَ عَلَمُ التوفيق في الجوارح»(١٥٩).

ويقول أحمد بن خضرويه: «القلوب أوعية؛ فإذا امتلأت من الحق؛ أظهرت زيادةَ أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت مِنَ الباطل؛ أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح» وقال أبو حفص: ما ظهرت حالة عالية إلا من ملازمة أصل صحيح. ويقول السري: لسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآة قلبك، يبين على الوجه ما تضمر القلوب(١٦٠).

عاشرا: خاتمة واستنتاجات:

١- يَتَضَمَّنُ حديثُ الفَصْلِ بيانا لمبرر من مبررات الاهتمام بتربية القلب، إذ أنه يقرر أن صلاح القلب هو أصل صلاح الجسد والجوارح والأعمال، وأن رعايته وتربيته أهم الأمور؛ لأن جميع الأعمال تتعلق بالقلب، فهو إذا صلح اتجه الإنسان لفعل الخير، والحلال، وإذا فسد اتجه لفعل الحرام، وارتكب المشتبهات، فالأصل في الاتقاء والوقوع هو القلب؛ لأنه منطلق الأعمال والأخلاق.

٢- إن القلب هو باطن الإنسان وسريرتُه، وكيانه الجواني الداخلي، وهو مركز العواطف والمشاعر، وله وظيفة معرفية، ومركز الإيمان والاعتقاد، ويدرك، ويفقه..إلخ، وهو حقيقة الإنسان، ومنشأ الأفعال، وله بالعضو الجسماني نوع تعلق.

٣- إن هذا القلب له سلطة التحكم والتوجيه، على جميع جوارح الإنسان،

---

(١٥٩) أبو نعيم : حلية الأولياء، مجلد ١٠، ص ٤٠٥.

(١٦٠) السلمي : طبقات الصوفية، ص٥٣، ١٠٥، ١٢١.

وأخلاقه، وسلوكياته، فهو يمثل الربان، والملك، والأمير، والقائد الموجه المهيمن على سلوك الإنسان كله؛ وهو يمارس هذه السلطة من خلال قوى فعالة مطيعة له؛ كالشهوات، والرغبات، والتفكير، والإرادة..وقد أكد فقهاء القلوب هذه الحقيقة مرارا، وتكرارا، وقد تركنا أقوال جمهورهم(١٦١)، حتى لا نطيل كتابنا أكثر مما طال ، والأمر لله.

٤- ولمّا كان الأمر كذلك فإن الأولوية التربوية الكبرى للمسلم هي تربية قلبه ليتصف بالصلاح والسلامة والصحة والاستنارة، وما ينشأ عنها من قيم. وقد عبر أئمة التربية القلبية عن هذا المعنى بتعبيرات دالة، تُبين أهمية تربية وتزكية القلب، وأنه أصل العمل كله.

٥- إن الطريق للوصول إلى صلاح القلب وسلامته وصحته، هو تربيته وتزكيته؛ فإذا اتصف بقيم الصلاح والسلامة والصحة: اتصفت الأخلاق والأعمال كلها بالصلاح والخير. والعكس صحيح.

٦- إن هذا الحديث يحول وجهة تفكيرنا وحركتنا في قضية التغيير الخُلُقي، والتغيير الاجتماعي الشامل، فطريق الإصلاح الاجتماعي، والخلقي، والسياسي.. إنما يبدأ بإصلاح القلب، أي: أن حركة التغيير الاجتماعي تبدأ بتغير القلب؛ أي: عالم الأفكار والعواطف والمشاعر والقيم، أولا، بتربية القلب ليتصف في كل ذلك بالإيمان، والنور، والتقوى والصلاح، والرحمة والرقة...إلخ، فيتغير ما بأنفسنا، فإذا انصلح القلب، انصلحت الأخلاق والجوارح، والتصرفات والسلوكيات والعلاقات، وهكذا مع فردٍ فردٍ، ومع تمدد هذه العملية، واستمرارها، واتساع شبكة العلاقات الصالحة.. تحدث

---

(١٦١) انظر مثلا : عبد الرؤوف المنياوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٥، ص ٧٢٨، ٧٢٩، أبو طالب محمد بن على بن عطية المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج٢، ص ٧٧- ١٢٧.

تحولات جذرية في عوالم أفكارنا، ومعتقداتنا، وعوالم قيمنا، وعواطفنا، ومشاعرنا، واتجاهاتنا، وعوالم عاداتنا وعلاقاتنا، وتصرفاتنا- بالتالي تتجه حركة التغيير نحو كل شبكات العلاقات الاجتماعية.

إن هذا الحديث ينبهنا إلى ضرورة إعادة النظر في منهجيتنا التغييرية الحركية التربوية، لنركز- ضمن ما نركز عليه- على تربية القلوب بمنهجية واعية وشاملة.

٧- إن هذا الحديث، ومعطياته السابقة، يتطلب منا أن نخصص (دورة تربوية) لدراسته، وفحص دلالاته التربوية والحركية، ومذاكرته، وتقويم أنفسنا؛ تربويا وحركيا، في ضوئه، وصبغ وصياغة أنفسنا من جديد حسب معطياته.

حادي عشر: أسئلة وأنشطة لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١- ما دلالة قول النبي ﷺ: «**إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت الجسد كله..**»؟

٢- ما مفهوم صلاح القلب؟ وسلامته؟ استخرج من التحليل السابق منظومة قيم الصلاح والسلامة.

٣- ما مفهوم القلب؟ وما وظائفه؟ وكيف يمارس سلطته في الإنسان؟

٤- لخص مقولات المربي القدوة عبد القادر الجيلاني في بيان أهمية السير القلبي؟

٥- ابتدأ شخص سيره والتزامه بإطلاق لحيته، والاهتمام بثوبه وتقصيره.. وبالصلاة، دون أن يربي قلبه الذي يمتلئ بالقسوة، وحب المنظرة، ما رأيك في هذا الموقف؟ هل تنطبق عليه فتوى ابن تيمية؟

٦- هل سألت نفسك، وقد أخذت من قلبك مسافة: هل قلبي سليم، صالح؟ هل ربيتُه وزكيته؟ احكم على موقفك.

٧- اعمل قائمة بقيم صلاح القلب، وقائمة بقيم فساد القلب، واعرض نفسك عليها.

٨- مَنْ من الدعاة والعلماء المعاصرين اهتم بتربية القلب وتزكيته؟ وما مدى إفادتك منه؟

٩- هل الحركة الإسلامية التي تنتمي إليها تسهم في تربية قلبك؟ أم تشغلك بأمور ثانوية؟

١٠- قم بعمل بحث ميداني عن مدى اهتمام أئمة المساجد في بلدك، أوْحَيّك، بتربية القلب، ثم استخدم نتيجة بحثك في تخطيط مشروع تربوي يستدرك به الأئمة، النقص، إن كان موجودا.

١١- إذا كنت أبا- ماذا تعمل مع أطفالِك لتربي قلوبهم؟

١٢- كُلّفْتَ بتنظيم دورة تربوية عن: القلب: مركز الصلاح أو الفساد، حَدّدْ أهداف الدورة، وأنشطتها التربوية: العلمية، والروحية..إلخ، واشرع في تنفيذها.

١٣- في ضوء دراستك لهذا الفصل: ما مسوغ الاهتمام بتربية القلب؟

١٤- حلل مفهوم تربية القلب عند الحكيم الترمذي، وابن تيمية، وابن القيم، مبينا وجهة نظرك.

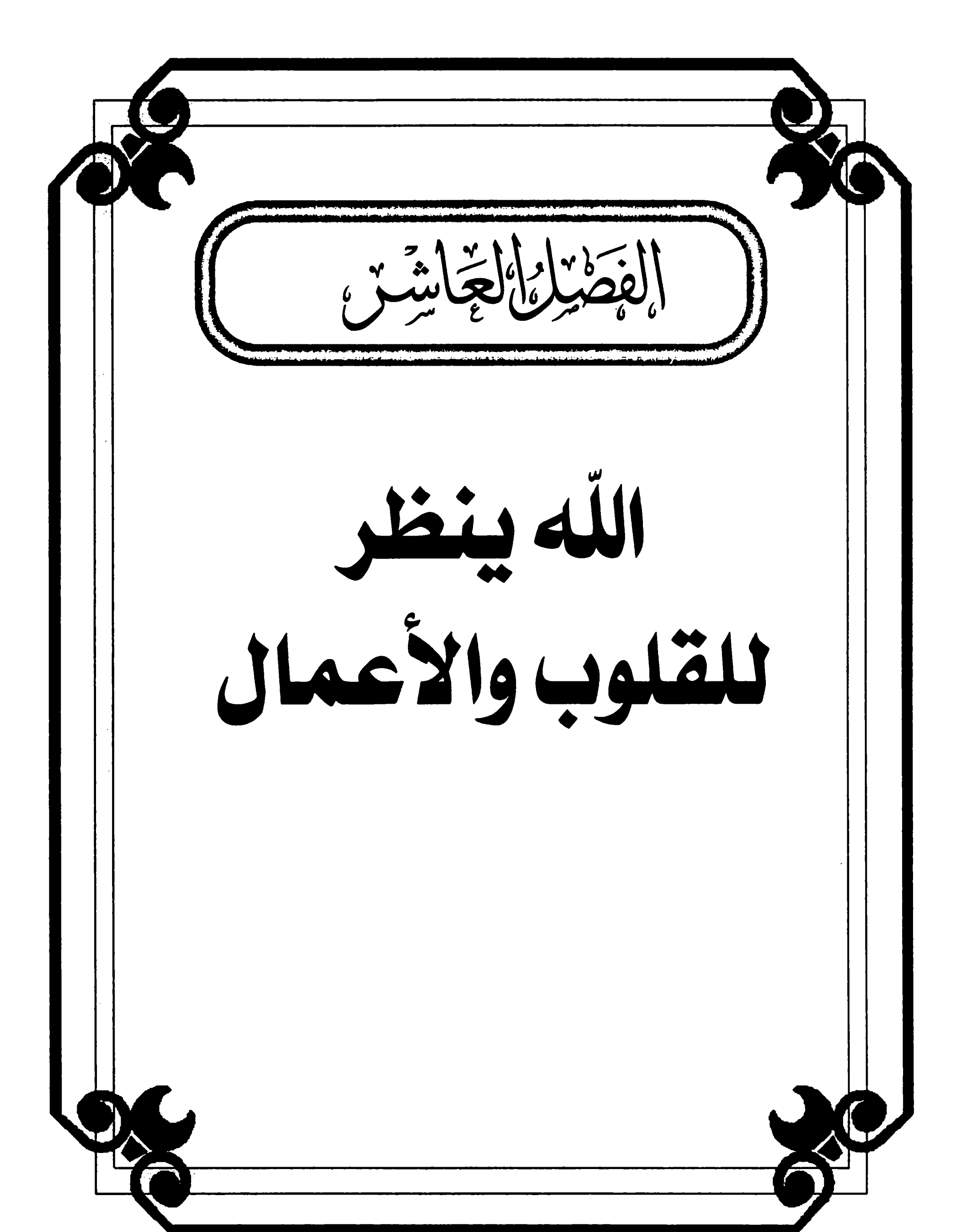
١٥- اكتب حديث الفصل برواياته، مع شرح مختصر، في صفحة فلوسكاب واحدة، وانسخها نسختين علق واحدة في بيتك؛ حجرة نومك، وأعط الأخرى لإمام مسجد، أو مدرس للتربية الإسلامية.

١٦- اشرح قول الحبيب: «**إن الله - تعالى - يُخْلِص إلى القلوب مِن بِرِّهِ حَسْبَ ما خلصت القلوب إليه من ذكر، فانظر ماذا خالط قلبك؟**» [الحلية، جـ١٠، ص ٢٧٩].

وقول مثميط بن عجلان: «قد أفلح مَنْ جعل الله- تعالى- له عينين بصيرتين، ولسانًا فصيحًا، وقلبًا واعيًا، يعي الخير، ويعمل به» (الحلية، ج ٣، ص ١٣١).

١٧- ما أحسن قول في أهمية ومركزية القلب، في هذا الفصل بعد الحديث النبوي؟ ولماذا؟

١٨- ما رأيك في هذا الفصل؟ قوِّم كتابة المؤلف له : منهجيًا، وموضوعيًا.



الفصل العاشر

الله ينظر للقلوب والأعمال

الله ينظر للقلوب والأعمال

أولا: نص الخطاب النبوي:

أ- أخرج الإمام مسلم، عن أبي سعيد- مولى عبد الله بن عامر بن كُرَيْز- يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**» وأشار بأصابعه إلى صدره[1].

ب- وأخرجه البيهقي عنه، يقول: سمعت رسول الله ﷺ، في حديث ذكره: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، التقوى ها هنا**»، وأشار إلى صدره[2].

جـ- وأخرج الإمام مسلم عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[3].

د- وأخرجه أحمد في المسند عن أبي هريرة مثل رواية مسلم عن يزيد بن الأصم، وفيه: «**إن الله -عز وجل..**»[4].

ورواه أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن الله - عز وجل - لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[5].

هـ- وأخرجه البيهقي مثل رواية مسلم الثانية، ورواه من طريق سفيان الثوري عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، حديث رقم ٢٥٦٤، ص ٣١ - ٣٢.

(٢) الإمام البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، دار الكتب العلمية، ص ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، رقم ٢٥٦٤، ص ٣٢.

(٤) قال شاكر: إسناده صحيح، انظر: المسند، ج٧، رقم ٧٨١٤، ص ٤٩٥.

(٥) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج٩، رقم ١٠٩٠٢، ص ٦١٧.

قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أحسابكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٦].

و- ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم**»[٧].

ز- وقال الحافظ ابن كثير: جاء في الصحيح: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٨].

وذكره الحكيم الترمذي عن أبي هريرة بلفظ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وأحسابكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٩].

ثانيا: مفهوم النظر في الحديث ودلالته:

إن هذا الحديث يعد مسوغا أساسيا للاهتمام بتربية القلب وتزكيته، فهو الذي ينظر الله إليه، وإلى ما يصدر عنه من أعمال، فهو الذي يعتد به، وهو محل نظر الله- تعالى: أي أن عالم المعتقدات الإيمانية، وعالم الأفكار والتصورات التي يؤمن بها القلب، وعالم القيم، والمشاعر، والاتجاهات والرغبات، التي في القلب، وعالم النيات والقصود، والهموم، التي يهم بها القلب الإنساني، وعالم التصرفات والأعمال، هي العوالم التي يعبأ الله بها، ويرحم على أساسها، أو يعاقب، ويزن بها الإنسان، فالاهتمام بهذه العوالم، وتوجيهها نحو الخير، والصلاح، والتقوى، بحيث تتوجه حسب مراد الله الديني، في ذلك كله، وتنمية هذا التوجه في القلب، وتعظيمه، والتطهر من كل شر وفاحشة في ذلك كله، هو الذي يجعل القلب مستأهلا لرحمة الله، وإحسانه، وفضله وفيضه،

---

(٦) الإمام البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ٦٠٦.
(٧) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٣٥٩، ص ٣٥٦، وهو في الصحيحة برقم ٢٦٥٦، وفي صحيح الجامع الصغير، ج٢، رقم ١٨٥٨، ص ١٤٠، وقال صحيح.
(٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٢٢٤.
(٩) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج٢، ص ٥٢٣.

فالاهتمام بتربية القلب يمثل، إذًا، أولوية أساسية، لأنه محل نظر الله -تعالى- نظر الرحمة، والإنعام، وفي هذه الفقرة نبين مفهوم النظر في هذا الحديث، ثم نبين دلالات نظر الله إلى القلوب والأعمال.

أ- النظر - في اللغة العربية - يطلق على معان:

١- النظر، يطلق على نظر العين، ونظر القلب، وتقليب البصر، أو البصيرة، لإدراك الشيء ورؤيته.

٢- والنظر تأمل الشيء بالعين، وتقول: نظرت إلى كذا؛ إذا مددت طرفك (عينك) إليه، رأيته أو لم تره.

٣- وتقول: نظرت في كذا؛ أي: تدبرته، وتأملت حكمته، والنظر: الفكر في الشيء، تقدره، وتقيسه منك، فالنظر يعني: التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص.

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] أي: تأملوا.

ويستعمل النظر في البصر أكثر من استعماله في بصيرة القلب، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] أي: تبصره وتراه بالعين.

٤- والنظر: المشاهدة، والنظر: الانتظار، والنظر: مقابلة الشيء للشيء.

٥- والنظرة: الرحمة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] أي: لا يرحمهم، ونظر الله إلى عباده: إحسانه إليهم، وإفاضته نعمه عليهم[١٠].

ب- ونظر الله - سبحانه - إلى قلب إنسان أو إلى عمله يعني: رؤيته له، ومشاهدته، ورحمته، ولطفه به، وإنعامه عليه، يقول النووي: «ونظره - سبحانه وتعالى - لعباده: رحمته ولطفه بهم»[١١]، وفي النهاية لابن الأثير: «معنى النظر -

---

(١٠) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤٩٨. ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٤٤٦٥ - ٤٤٦٧.

(١١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص ١١٦.

ها هنا: الاختيار، والرحمة والعطف؛ لأن النظر في الشاهد دليل المحبة وترك النظر دليل البغض والكراهة، وميل الناس إلى الصور المعجبة والأموال الفائقة، والله يتقدس عن تشبه المخلوقين، فجعل نظره إلى ما هو السر واللب، وهو القلب، والعمل»(١٢).

جـ- يقول النووي: «ومعنى نظر الله - هنا: مجازاته ومحاسبته، أي: إنما يكون ذلك على ما في القلب، دون الصور الظاهرة، ونظر الله - رؤيته - محيط بكل شيء، ومقصود الحديث: أن الاعتبار في هذا كله بالقلب»(١٣).

وجاء في الفتح عند شرح حديث: «**لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء**»(١٤) أي: تكبرا ناشئا عن إعجاب بالنفس، قال: أي: لا يرحمه، فالنظر إذا أضيف إلى الله كان مجازًا، وإذا أضيف إلى المخلوق كان كناية، ويحتمل أن يكون المراد: لا ينظر الله إليه نظر رحمة، وقال شيخنا في «شرح الترمذي»: وعبر عن المعنى الكائن عند النظر بالنظر؛ لأن من نظر إلى متواضع رحمه، ومن نظر إلى متكبر مقته، فالرحمة والمقت متسببان عن النظر، وقال الكرماني: نسبة النظر لمن يجوز عليه النظر: كناية؛ لأن من اعتد بالشخص التفت إليه، ثم كثر حتى صار عبارة عن الإحسان، وإن لم يكن هناك نظر، ولمن لا يجوز عليه حقيقة النظر - وهو تقليب الحدقة، والله منزه عن ذلك، فهو بمعنى الإحسان، مجاز عما وقع في حق غيره؛ كناية (...) ويؤيد ما ذكر؛ من حمل النظر على الرحمة أو المقت، ما أخرجه الطبراني، وأصله في أبي داود من حديث: «**إن رجلا ممن كان قبلكم لبس بردة فتبختر فيها، فنظر الله إليه فمقته، فأمر الأرض فأخذته..**» الحديث(١٥).

---

(١٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٥، ص ٧٧، ونقله بلفظه ابن منظور في لسان العرب، ج٦، ص ٤٤٦٧.

(١٣) صحيح مسلم، بشرح النووي، ج١٦، ص ١٢١.

(١٤) فتح الباري، ج١٠، رقم ٥٧٨٣، ص ٢٥٢.

(١٥) المصدر السابق، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

د- ومن الحق أن نقول: إن ما نقلناه عن النووي وابن حجر يوحي بتأويل (النظر) ليجعله من المجاز، على معنى الإحسان، واللطف والرحمة، هنا، ولكنا نقرر في هذه النقطة ما يلي، تعليقا على نص ابن حجر:

١- إن (النظر) صفة ثابتة لله- تعالى- بنصوص القرآن الكريم وبنصوص السنة الصحيحة(١٦)، ونحن نثبت لله- تعالى- ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله محمد ﷺ بالنص الصحيح، من غير تأويل- أي: صرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي محتمل - ولا تمثيل، ولا تشبيه، ولا تكييف، ولا تعطيل، فَنَصِفُه بما وصف به نفسه، في الوحي، يقول ابن خزيمة: «لأنا لا نصف معبودنا إلا بما وصف به نفسه، إما في كتاب الله أو على لسان نبيه محمد ﷺ، بنقل العدل، موصولا إليه، لا نحتج بالمراسل، ولا بالأخبار الواهية، ولا نحتج- أيضا- في صفات معبودنا بالآراء وبالمقاييس»(١٧) فنؤمن بالنظر، وأن الله ينظر، على مراد الله، ونقول: إن الله يرى ويشاهد، وينظر، فنثبت ذلك من كلام الله معبودنا، وأحاديث نبيه المعصوم، الصحيحة، الثابتة عنه بنقل العدل عن العدل، فالله ينظر إلى القلوب وينظر إلى الأعمال، أي: يراها، ويشاهدها، على كيفية لا نحيط بها علما.

٢- لكن هذا الأصل لا ينفي ما يدل عليه نظر الله للقلوب والأعمال، من أنه نظر الرحمة، فهذا احتمال قوي جدا، فالله يرحم القلب الصالح، ويرحم صاحب العمل الصالح، إذا نظر إلى قلبه وعمله فرآه أهلا لذلك، وبهذا ورد تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] أي: لا يرحمهم.

وفي هذا الإطار جاء في «كتاب الأسماء والصفات» للبيهقي: النظر في كلام

---

(١٦) انظر: البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، باب ما جاء في النظر، ص ٦٠٥ – ٦٠٨.

محمد بن إسحاق بن خزيمة – إمام الأئمة: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، دار الدعوة السلفية، ١٣٨٨ هـ، ص ٤٢ – ٥٣.

(١٧) ابن خزيمة: المصدر السابق، ص ٥٩.

العرب منصرف على وجوه (منها): نظر عيان، (ومنها): نظر انتظار، (ومنها): نظر الدلائل والاعتبار، (ومنها): نظر التعطف والرحمة، فمعنى قوله ﷺ: «**لا ينظر إليهم**» أي: لا يرحمهم، والنظر من الله- تعالى- لعباده في هذا الموضع رحمته لهم، ورأفته بهم، وعائدته عليهم، فمن ذلك قول القائل: انظر إلي؛ نظر الله إليك، أي: ارحمني؛ رحمك الله[18].

٣- والقاعدة السابقة لا تتنافى مع حقيقة أن النظر يطلق- أحيانا- ويراد به المعنى الناتج عن النظر؛ أي: الرحمة، أو المقت، كما جاء في النص السابق، ومن هذا المعنى جاء الحديث النبوي المذكور في آخره، والحديث الصحيح: «**وإن الله نظر إلى أهل الأرض.. فمقتهم.. عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**» (رواه مسلم وأحمد) فنظر الله إلى القلب يعني- بحسب هذه القاعدة أمرين:

الأول: أن الله ينظر إلى القلب نظرا يليق به، فيرى، ويشاهد، ويعلم كل خفاياها، وأسرارها، وعللها، وأسباب ما يصدر عنها من أعمال، باطنة وظاهرة.

والثاني: أن الله يرحم القلب الصالح، ويتحنَّن عليه، ويلطف به، ويمده بإنعامه، وألطافه، وأنواره، وإحسانه، ويمقت القلب الفاسد، ويحجبه عنه، وهذا ما أشار إليه النووي من أن معنى النظر - هنا - مجازاة الله ومحاسبته، على أساس ما في القلب، لا على أساس الظاهر والشكل.

٤- إن قول الكرماني: «من اعتد بالشخص التفت إليه» - قول مهم جدا، في بيان دلالة النظر - هنا - فإن هذا القول يحدد لب، وصلب مفهوم النظر هنا، فالله لا ينظر إلى الأجساد، والأموال، والصور- أي: أشكال الناس - والأحساب، والألوان؛ لأنه لا يعتد بها، ولا يعبأ بها، ولا يجعل لها قيمة في

---

(١٨) البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ٦٠٧ – ٦٠٨.

وزن الناس، وتقويمهم، والحكم عليهم، وإنما يعتد بالقلوب وبالأعمال، ويعبأ بها، ويجعل لعالم المعتقدات والنيات والقيم والأفكار والاتجاهات والأعمال، الموجودة في القلب، والصادرة عنه، كل القيمة في الحكم على الإنسان، ووزنه، إيجابا أو سلبا، أي: أن الاعتداد والأولوية والأهمية هي للقلب، والعمل، فالله يرحم أو يمقت على أساس هذا المعيار، القلبي السلوكي، لا على أساس المظهر، أو المنظر، أو الشكل، إن العبرة بالجواني والبراني المبني على الجواني.

هـ- والذي نخلص إليه: أن النظر إلى القلوب والأعمال - في هذا الحديث- يعني، تحديدا:

١- أنه لا يعبأ، ولا يعتد، ولا يهتم بصوركم وألوانكم، وأجسادكم وأموالكم، وأحسابكم، لأنها ليست بذوات قيم عنده، وإنما قلت: لا يعتد، ولا يعبأ؛ لأن نظر الله، أي: رؤيته ومشاهدته، محيطة بكل شيء فهو ينظر، ويرى الأحساب والأموال، والأجساد، أي: يراها، ويشاهدها، وينفذها البصر، ولكنها ليست بذات قيمة عنده، ولا يعبأ بها، ولا يعتد بها، لأن معيار، ومناط الاعتداد عنده هو القلب والعمل.

٢- أن الذي يعتد به، ويعبأ به، ويؤاخذ فيه - على النقير والقطمير هو القلب، والعمل: أي: عالم الإيمان، والأفكار، والقيم الموجهة، والقصد، والنية، والعواطف، والإرادة، والتصرفات الاختيارية، والسلوكيات والعلاقات مع الناس، ومع الأشياء.

٣- إن مجازاة الله ومحاسبته للإنسان لا تكون على أساس صورته، أو لونه، أو جسده، أو حسبه، أو كمية المال، الذي يقتنيه أو لا يقتنيه.. لا.. بل إنها الاعتبار، والمرجعية، في المجازاة، والحساب هو بحسب ما يراه الله في القلوب، والأعمال.

٤- إن الله يرحم القلوب المؤمنة المخلصة له والتقية، الصالحة السليمة، الحية، الشاعرة، الرقيقة، اللينة، الرحيمة، الصافية في اليقين،.. النقية من الغل

والحسد، والكبرياء على الناس،.. إلخ، ويتعطف عليها، ويفيض عليها من نعمه، وألطافه، ويحسن إليها، ويؤنسها، وينورها، ويجعلها تعيش في عيش طيب، عيش الأنس به، والشوق إلى لقائه، والاستنارة بنوره، وجنة معرفته، وحبه، فيغنيها به.

أما القلوب الفاسدة، المستكبرة، الطاغية، فإن الله يمقتها، ولا يرحمها، جزاء وفاقا، وتأمل فيما رواه البخاري ومسلم، ومالك، والبيهقي عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء**»(١٩) أي: تكبرا، وإعجابا بالنفس والثوب، وإلى ما أخرجه البخاري عنه، عن النبي قال: «**من جر ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»(٢٠)، وإلى ما أخرجه البخاري ومالك؛ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الله يوم القيامة إلى من يجر إزاره بطرًا**»(٢١) أي: تكبرا وطغيانا.

فإذا كان الله يمقت من يجر ثوبه بطرًا أو خيلاء، ولا يرحمه، فماذا يكون عقاب الله لمن كان قلبه مشركا، به، جبارا، متكبرا، طاغيا، فاسقا، نجسا، قاسيا، مرائيا،منافقا..؟ ألا يستحق الأمر أن نحرس قلوبنا حتى لا تسكنها هذه الأقذار، حتى ينظر الله إلى قلوبنا نظر رحمة، وإنعام وتحنن، فيفيض عليها رحمته، ولطفه؟!.

٥- إن الله يخص القلوب والأعمال بنظره، فينفذه كل شيء في القلب والعمل، فهو يرى القلوب والأعمال، ويبصرها، ويراقبها، ويعلم كل شيء

---

(١٩) فتح الباري، ج١٠، رقم ٥٧٨٣، ص ٢٥٢، الإمام مالك: الموطأ، باب ما جاء في إسبال الرجل ثوبه حديث رقم ٧، ص ٥٧٠، إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٦، رقم ٢٠٨٥، ص٣٠٤، البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ٦٠٧، وللحديث روايات كثيرة صحيحة.

(٢٠) فتح الباري، ج١٠، رقم ٥٧٨٤، ص ٢٥٤.

(٢١) فتح الباري، ج١٠، رقم ٥٧٨٨، ص ٢٥٧، ٢٥٨، الموطأ: باب ما جاء في إسبال الرجل ثوبه، حديث رقم ٩، ص ٥٧٠.

فيها، والمؤمن يؤمن بهذا، وينقاد له، ويعمل بمقتضاه، فيعبد الله على المشاهدة والحياء من نظر الله إليه أن يطلع الله عليه، وهو على معصية بالقلب أو بالجوارح، واقع في باطن الإثم، أو ظاهره، فهذا هو الإحسان في العبادة، كما فسره النبي ﷺ في حديث جبريل عندما سأل النبي ﷺ : ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إلا تراه، فإنه يراك**»، وفي رواية: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراكِ**»، وفي رواية: قال: «**أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إلا تكن تراه، فإنه يراك**»[٢٢]، فالله يرى العبد، سواء كان العبد واعيا بهذه الحقيقة أم لا، وعبادة الله، ومعاملته على أساس اليقين بأنه يرى العبد، تجعله في درجة الإحسان، يقول ابن رجب: «فقوله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه... إلخ**» يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي استحضار قربه، وأنه بين يديه، كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف، والهيبة والتعظيم (...) ويوجب- أيضا- النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها، وإكمالها»[٢٣].

هذا هو مقام المشاهدة، «وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان»[٢٤].

وهذا مقام التحديق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده، ومعيته معه حتى كأن العبد يراه.

وقوله ﷺ: «**فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»، أي: يطلع على سرك، وعلانيتك، وباطنك وظاهرك، ولا يخفى عليه شيء من أمرك، فيستحي العبد من نظر الله إليه، فيخلص له عمله، وهذا هو مقام الإخلاص «وهو أن يعمل العبد على

---

(٢٢) إكمال المعلم، ج١، حديث رقم (١)، ص ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٠.
(٢٣) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، مصدر سابق، ص ٤٩.
(٢٤) المصدر السابق، ص ٥٠.

استحضار مشاهدة الله إياه، واطلاعه عليه، وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله، وعمل عليه، فهو مخلص لله، لأن استحضاره ذلك في عمله؛ يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل»[٢٥].

وهذا الإخلاص هو نتاج المراقبة، وهي «دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق- سبحانه وتعالى- على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة، وهي ثمرة عمله بأن الله- سبحانه- رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت، وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، وكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟(...) وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه – لا غير(...) وقيل: المراقبة: مراعاة القلب لملاحظة الحق، مع كل خطرة، وخطوة (...) وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك، ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك (...) والمراقبة هي التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة»[٢٦].

أقول: والتعبد بقول النبي ﷺ: **«ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»** يثمر هذه الثمرة المهمة: المراقبة، وهذا أصل لتربية القلب تربية صالحة «ما تزكية المرء نفسه؟ قال: **أن يعلم العبد أن الله معه حيث كان**»[٢٧]، فالله ينظر إلى **القلوب وإلى الأعمال**، وأنت في أي مكان، وأي زمان، وعلى أي حال تكون، هو **ينظر إلى قلبك، وعملك**، فمن استحضر نظر الله، فإنه يراقبه، ويستحي أن يطلع عليه، وهو يريد سواه، **أو يحقد** على أحد، أو يهم بمعصية، أو أن يكون

---

(٢٥) المصدر السابق، ص ٥٠.
(٢٦) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج٢، ص ٦٧ – ٦٩.
(٢٧) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٥٠.

فيه شرك، أو فكرة قاتلة.. إلخ، فمن استحضر نظر الله إلى قلبه استحلى طاعته، وأنس بالله، وتلذذ بمناجاته وأصاب راحة قلبه(٢٨).

٦- وعلى هذا المعنى جاء نصح أم الفضل الوَهَطية لتلامذتها: «.. وطالب العلم هو العامل به، وليس العمل بالعلم كثرة الصوم والصدقة والصلاة، وإنما العمل بالعلم: إخلاص العمل لله؛ بصحة النية ومراقبة نظر الله- تعالى- إليه، إن لم يكن هو ناظرا إلى ربه، ومشاهدا له»(٢٩). وجاء قول أم الحسين بنت أحمد بن حمدان: «إن الله- تعالى- لم يجعل لأنفس المؤمنين ثمنا إلا الجنة، وجعل قلوبهم محلًا لنظره، فلا تبيعوا أنفسكم بالدون من العروض، وطالعوا موضع نظر الله- تعالى- أن يكون مصونا عما لا يرضاه»(٣٠) أي: لكي يكون..، أي: طالعوا القلب، وراجعوه، فنقوه، ونظفوه، وطهروه، لكي يكون مصونا عن أي خاطر، أو رغبة، أو تصور، أو مفهوم، أو خلق، لا يرضاه الله، ولا يحبه.

و- فدلالة نظر الله إلى القلوب والأعمال أنهما هما اللذان يعبأ بهما الله، ويعتد، وعلى أساسهما يحاسب، فيرحم، أو يمقت، وأن المسلم عليه أن يطالع قلبه، وعمله، فيراقب الله فيهما، لأن الله ينظر إليهما، وعليه أن يهتم بهما، فيربي قلبه، ويزكيه، ليثمر عملا صالحا، وعليه أن يركز على هذه الدائرة التربوية: تربية القلب وتزكيته.

ثالثا: لماذا ينظر الله إلى القلوب والأعمال؟

أ- ينظر الله إلى القلوب، لأن القلب هو منشأ الأعمال، ومبتدؤها(٣١)، ولأنه السلطة المهيمنة على الجوارح والسلوكيات، فهو القيادة المطاعة، فبصلاحه ينصلح كل العمل، والعكس صحيح.

---

(٢٨) المصدر السابق، ص ٥١ - ٥٢.

(٢٩) أبو عبد الرحمن السلمي: ذكر النسوة المتعبدات، ص ١٠٦.

(٣٠) المصدر السابق، ترجمة رقم ٧٤، ص ١١٣.

(٣١) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول ج٢، ص ٥٢٣.

وإذا كان الأمر حقيقة، كذلك، والله ينظر إلى قلوبنا، فإن هذا يلفت انتباهنا إلى القلب لنربيه، ليزكو، ويخلص لإلهية الله وحده، لنُعَبِّدَه لله، وحده، فنحرره من رق الأغيار، واستعباد السِّوَى، فإذا تحقق ذلك للقلب، فإنه يتحقق – تبعا– للجوارح، والأعمال، فتصفى لله، وتتحرر من رق الدنيا، ورق الشهوة، ورق السوى (غير الله)؛ فالحرية: حرية القلب، والعبودية عبودية القلب.

ب– ينظر الله إلى القلوب؛ لأنها أوعية لله، وآنيته في الأرض، كما فصلنا في فصل سابق، وقد ذكر الحكيم الترمذي رواية لحديث آنية الله، قال: «عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله– تعالى– في الأرض، أواني، ألا وهي القلوب، فأحبها إلى الله: أرقها، وأصفاها، وأصلبها، أرقها للإخوان، وأصفاها من الذنوب، وأصلبها في ذات الله، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه**»[٣٢].

فالقلوب أواني الله، هي التي يفيض فيها توحيده، ونوره، ورحمته، والأنس به، ومحبته، ومعرفته، وخشيته، ويفتح بصيرته للقرب منه، والأنس به، والشوق إليه، والرقة بالمخلوقات، والشفقة عليهم..إلخ، فهي محل عطاءات الله، هي محل الكنوز الإلهية، فإذا رجع المسلم إلى هذا المعنى، وتعقله، اتجه إلى نفسه «فقام على الساق متشمرا في تصفية قلبه، وتطهيره، ليرق، ويجلى، فإن المرآة إذا جليت فقابلها نور الشمس تولد من بينهما إشراق يضيء البيت منه؛ فكذلك القلب، إذا جلي، ثم يلاحظ نور الملكوت، أضاء الصدر، وامتلأ من شعاعه؛ فأبصرت عينا الفؤاد باطن أمور الله في خلقه (...) فصار قلبه موضع نظر الله من بين خلقه، فكلما نظر إلى قلبه زاده به فرحا، وله حبا، ومنه قربا، واكتنفه بالرحمة»[٣٣].

جـ– وينظر الله إلى القلوب، وإلى الأعمال، ويخبرنا رسوله ﷺ بذلك، ليوجه أنظارنا وعقولنا، واهتمامنا إلى ما ينبغي أن نهتم به، جدًّا، ونجعله في

(٣٢،٣٣) المصدر السابق، ص ٥٢٩.

رأس سلم أولوياتنا التربوية والحركية،.. فالله- جل وعز- لا يعبأ بالصور (المناظر الشكلية)، ومظاهر الأجسام والثياب، وأحجامها، وألوانها، ولا يعبأ بالأحساب والأموال، ولا بكل ما يتعلق بهذه الجوانب، إنما يعبأ ويعتد بالقلب والعمل، وهذا ما ينبغي أن نركز عليه، فنصلح قلوبنا، نربيها ونزكيها، ونصلح أعمالنا، لتكون كلها على نهج الله- تعالى - باطنا، وظاهرا، جوانيا وبرانيا، ونجعل هذا قضيتنا مع أنفسنا، ومع غيرنا، فالقضية هي تغيير ما في القلوب وما في الأنفس، تغييرا إيجابيا صحيحا، أي: تغيير عالم المعتقدات والإيمانيات، وعالم الأفكار والتصورات، ومنهج التفكير ذاته، وتغيير عالم القيم الموجهة والمعايير، وعالم الاتجاهات والرغبات والعواطف، وعالم العادات والسلوكيات، والتصرفات، والعلاقات، لينطلق ذلك من مرجعية الوحي الإلهي، ويتحاكم إليه، ويهتدي بنوره، ولا يتحقق ذلك إلا بعمليات التربية القلبية التي نفصلها في هذا الكتاب، وبهذا نخرج إنسانا ذا قلب صالح، وعمل صالح، هذا الإنسان هو الذي ركز عليه رسول الله، الإنسان الذي زرع الله الإيمان في قلبه، وغرس فيه التقوى، فأثمر وردا، وثمرا طيبا، فصاحب القلب الصالح الزكي، والعمل النقي، الخير، هو خير من ملء الأرض من صاحب المظهر المبهر، والمال الكثير، والحسب، مع خلو القلب، وفراغه من الصلاح والخير، وخلو العمل، من النية الصالحة، والالتزام المنهجي بتوجيه الله.

إن هذه الحقيقة تجعلنا نصحح سلم القيم عندنا، في تصوراتنا، فما قيم القمة، وما قيم القاع؟ ما قيم رأس السلم، وأعلاه، وما قيم أسفل السلم، وأدناه؟ هذا الحديث يوجهنا لتعديل سلم القيم في تصورنا: فالله ينظر للقلوب والأعمال، ولا ينظر للصور والأجساد والأموال، والألوان، والأحساب، فالقيم المربية للقلب، والمصلحة للأعمال، هي التي يعبأ بها الله ويعبأ بها المؤمنون به، أولا، وابتداء، أي: أن نبدأ بالتربية، والتغيير من تحت، من البنية

التحتية، من أعماق القلب، ولعل هذا هو ما يشير إليه رسولنا محمد ﷺ «عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال كالوعاء؛ إذا طاب أسفله، طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه**»(٣٤).

وهذا قانون تربوي، وقانون من قوانين التغيير الاجتماعي الراشد، أترك القارئ ليتأمله، بنفسه، ونسوق حديثا يبين أن معيار الخيرية والكرامة ليس بالمنظر، والمال، دون القلب، والعمل الصالح:

عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري، إن خطب ألاَّ ينكح، وإن شفع ألاَّ يشفع، وإن قال ألاَّ يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا**»(٣٥).

ورواه ابن ماجه عن سهل، وفيه: مر على رسول الله ﷺ رجل، فقال النبي ﷺ: «**ما تقولون في هذا الرجل؟**» قالوا: رأيك في هذا، نقول: هذا من أشرف الناس، هذا حري إن خطب أن يخطب، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع لقوله، فسكت النبي ، ومر رجل آخر: فقال النبي ﷺ: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: نقول: والله يا رسول الله، هذا من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب لم ينكح، وإن شفع لا يشفع، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال النبي ﷺ: « **لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»(٣٦).

---

(٣٤) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٤٠٤، ص ٣٧٠.
(٣٥) فتح الباري، ج١١، حديث رقم ٦٤٤٧، ص ٢٧٣.
(٣٦) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٣٤٢، ص ٣٥٠.

وأخرج أحمد عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، انظر أرفع رجل في المسجد**»، قال: فنظرت فإذا رجل عليه حلة، قال: قلت: هذا، قال: قال لي: «**انظر أوضع رجل في المسجد**»، قال: فنظرت فإذا رجل عليه أخلاق (ثياب قديمة) قال: قلت: هذا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لهذا عند الله أخير يوم القيامة من ملء الأرض من مثل هذا**»(٣٧).

فهذان موقفان تربويان يريد النبي أن يغير معيار تقويم الناس، من خلال هذا الحوار، فالصحابة كانوا قبل هذه التربية، يقوّمون الناس بمعيار المنظر، والمال، والملابس، فأراد النبي أن يكون لهم معيار رفيع، صحيح، هو أن يقوموا الناس، ويقيسوهم على أساس الإيمان، والتقوى، والعمل الصالح؛ لأن الله لا ينظر، ولا يعبأ، ولا يعتد، بالمناظر، الخالية من المضمون الإنساني، الصحيح، وإنما ينظر إلى القلوب، والأعمال، فالغنى: غنى القلب، وغنى النفس، وغنى المشاعر، وغنى العمل الصالح.. كما سنفصل في فصل مستقل.

إن تعميق هذه الدلالة يثري قلوبنا، ويجعل شخصياتنا ثرية، غنية، مليئة، عميقة، لا تغرها المظاهر، والأشكال البراقة الخالية من المعنى الصحيح، إن هذا كله ليس بذي قيمة حقيقية عند المؤمن، لأنه يؤمن أن «**من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**» (رواه مسلم)، وأن **الله ينظر للقلوب والأعمال**، وبدلالة هذه الأحاديث، نقول: من بطأ به قلبه، وعمله، لم يسرع به منظره، وشكله، ولبسه، وماله، ونسبه، إذ «السير: سير القلب».

د- **إذًا، العمل بهذا الحديث يربي فينا**: المعيار الإلهي لوزن وتقويم الناس، ونحن منهم، فصاحب الوزن الثقيل، هو صاحب القلب الصالح، والعمل الخير النافع في الأرض، وإن كان صاحب جسم أو منظر، أو مال، فقير. وصاحب الوزن الخفيف، أو الذي لا وزن له، هو فارغ القلب والعمل من

---

(٣٧) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج١٥، رقم ٢١٢٩٠، ص ٥١٣، ٥١٤.

الإيمان والتقوى، والخير، والصلاح، وإن كان حسيبا، مبهر المنظر، عليه ثياب فخام، وله مال، وجاه دنيوي، فميزان التقويم ليس هو المظهر، ولا كل ما يدخل في مضمون الرياء الاجتماعي الكذاب.

هـ- **وهكذا يكون معيار التقويم التربوي**: فالتربية التي تستهدف تنمية الاهتمام بالمنظر، والمظهر، والشكليات والغنى المادي، دون تنمية عالم الإيمان والمعتقد، والفكر، والقيم القلبية والعملية، هي تربية شكلية ناقصة، وربما تكون ضارة، فالتربية السليمة هي التربية التي تعتد وتهتم وتبالي بالقلب، والعمل، كما تهتم بالمظهر والغنى المادي وأكثر، إن هذا يجعلنا نعيد النظر في تربية أنفسنا، وفي التربية القائمة في مجتمعنا.

وهكذا يكون معيار تقويم الثقافات والحضارات، فكل حضارة لها منظومة قيم، وكل منظومة قيم، لها سلم قيمي، وهنا تتمايز الحضارات، فهناك حضارة تهتم بقيم الشكل والمنظر، والمتاع الجسدي، والاقتناء المادي، أكثر من أي شيء آخر، وهناك حضارة تهتم بقيم الكينونة الإنسانية الثرية، قيم القلب الصالح، والعمل الصالح، والعلم النافع.. ولا تهمل قيم المتاع الدنيوي، والمنظر الجسماني، فأيهما أحسن، وأفضل؟ إن الحضارة التي يعتد بها الله، هي التي تقوم على منظومة قيم الكينونة الإنسانية، بكل مقوماتها، قيم القلب، الصالح، والعمل الصالح، في كل محاوره وغصونه.

وهكذا، فالأمة المسلمة، وهي تكدح في الأرض، وتسعى لتنمية ذاتها، وتأسيس حضارتها، في الواقع المعاصر، ينبغي أن تكون أمة ثقيلة الوزن، أمة العمق الإنساني، قلوب أعضائها غنية، موارة، زاخرة بالإيمان الصحيح، والأفكار الفاعلة، والخير، والقصود البانية، الراقية، وأعمال أفرادها: ملأى بالصلاح، والنفع، والتعمير في الأرض، إنها حينئذ تؤسس وتشيد حضارة الصلاح والخير، والكينونة الإنسانية المطمئنة، لا حضارة المظاهر، والرياء الاجتماعي، والنفخة الكذابة، والقسوة على بني الإنسان والحيوان، والجماد.

و- لماذا ينظر الله إلى قلوبنا وأعمالنا - أيضا؟

ينظر الله إلى قلبك لتفرغ قلبك له، ولا تريد إلا هو، وما يريد هـو، وتخـرج ما سوى ذلك منه، وتنقيه وتكسبه أخـلاق لا إلـه إلا الله، أخـلاق التقـوى، ليحب الإيمان الجميل، وتنمو فيه تقـوى الله، التـي محلهـا أساسـا في القلـب: «التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، يقول: أي: في القلب»(٣٨).

قال أبو سليمان الداراني، وقد سئل: ما أقـرب مـا يتقـرب بـه إلى الله- عـز وجل؟ فبكى أبو سليمان ثم قال: مثلي يسأل عن هذا؟ أقرب ما تتقرب به إليـه أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو. وقـال يحيـى بـن معاذ: النسك هو العناية بالسرائر، وإخراج مـا سـوى الله- عـز وجـل- مـن القلب. وقال سهل بن عبد الله: ما من ساعة إلا والله- عز وجل- مطلع عـلى قلوب العباد، فأي قلب رأى فيه غيره سلط عليه إبليس(٣٩).

وكلمة سهل لها رواية تقول: «ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلـع عليهـا في ساعات الليل والنهار، فأيما قلب أو نفس رأى فيه حاجـة إلى سـواه سـلط عليه إبليس»(٤٠).

فالله يغار، فلا أحد أغير من الله، من أجل ذلـك حـرم الفـواحش، بـاطن الإثم وظاهره، فلا يحب أن يرى في قلب عبده أحدا سواه، وسوى ما يريد.

وإنما ينظر الله إلى الأعـمال لكـي تحسنها، وتنقيهـا، وتـصفيها، وتجملهـا، وتجردها لـه، وتغرسـها في القلـب، وتؤسـسها عـلى التوحيـد، والإخـلاص، والمراقبة، لكي تكون لائقة بنظر الله إليها، فإن الله جميل يحب الجمال، وطيب لا

---

(٣٨) إسناده صحيح، المسند، ج١٣، رقم ١٦٥٧٧، ص ٩٥، وروى أحمد عن واثلـة بـن الأسـقع، مـن حديث: «والتقوى ها هنا» وأومأ بيده إلى القلب.. إسناده صحيح، المسند، ج١٢، رقـم ١٥٩٦١، ص ٤١٧، ٤١٨.

(٣٩) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٩.

(٤٠) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٢٠٨.

يقبل إلا طيبا، وابتغي به وجهه.

ورعاية القلب عن الالتفات إلى الهوى هي أفضل الأعمال.

رابعا: خاتمة واستنتاجات:

١- إن نظر الله إلى القلوب والأعمال، يعني: أن يعتد بها، ويعبأ بها، لأنها الأهم، والأولى، وعدم نظره للأجساد والأموال والألوان، والأحساب، يعني: أنها ليست بذوات قيم مقدرة عنده.

٢- هذه الحقيقة تجعلنا نهتم بالقلب، والعمل، فهي مسوغ قوي لجعل تربية القلب في رأس أولوياتنا التربوية والحركية.

٣- إن دلالة نظر الله للقلوب والأعمال، هي أن نراقب الله، ونهتم بها لتزكيتها؛ حتى تكون محلا لرحمة الله.

٤- إن هذا الحديث يكسبنا معيارا لوزن نفوسنا، وغيرنا، وأعمالنا، وتربيتنا، وحضارتنا وحضارات العالم.

٥- يشير الحديث إلى أن التقوى في القلب، وسوف نفصل هذا المعنى في فصل (تربية القلب المخموم)، بإذن الله.

٦- وبعد تأمل ما سبق نرجع إلى الحديث لنعيش معه:

- «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم..**».
- «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم..**».
- «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أحسابكم..**».
- «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم..**».

فهو لا يعبأ، ولا يعتد بالأجساد، والصور والأموال، والأحساب، والألوان، وإنما هو جل وعز: «**ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» فمن هنا نبدأ.

خامسا: أسئلة وأنشطة لتعميق الفهم، وتسهيل الممارسة:

١- بين الدلالة التربوية لهذا الحديث.

٢- حلل مفهوم النظر في هذا الحديث.

٣- ما علاقة هذا الحديث بحديث «.. **ألا وهي القلب..**»؟

٤- يقول النووي: «ومعنى نظر الله هنا: مجازاته ومحاسبته، أي: إنما يكون ذلك على ما في القلب، دون الصور الظاهرة» هل ترى أن هذا هو المعنى الوحيد للنظر هنا؟

٥- ما أثر الإيمان بهذا الحديث في سلم قيمنا، وفي معيارنا الثقافي والحضاري؟

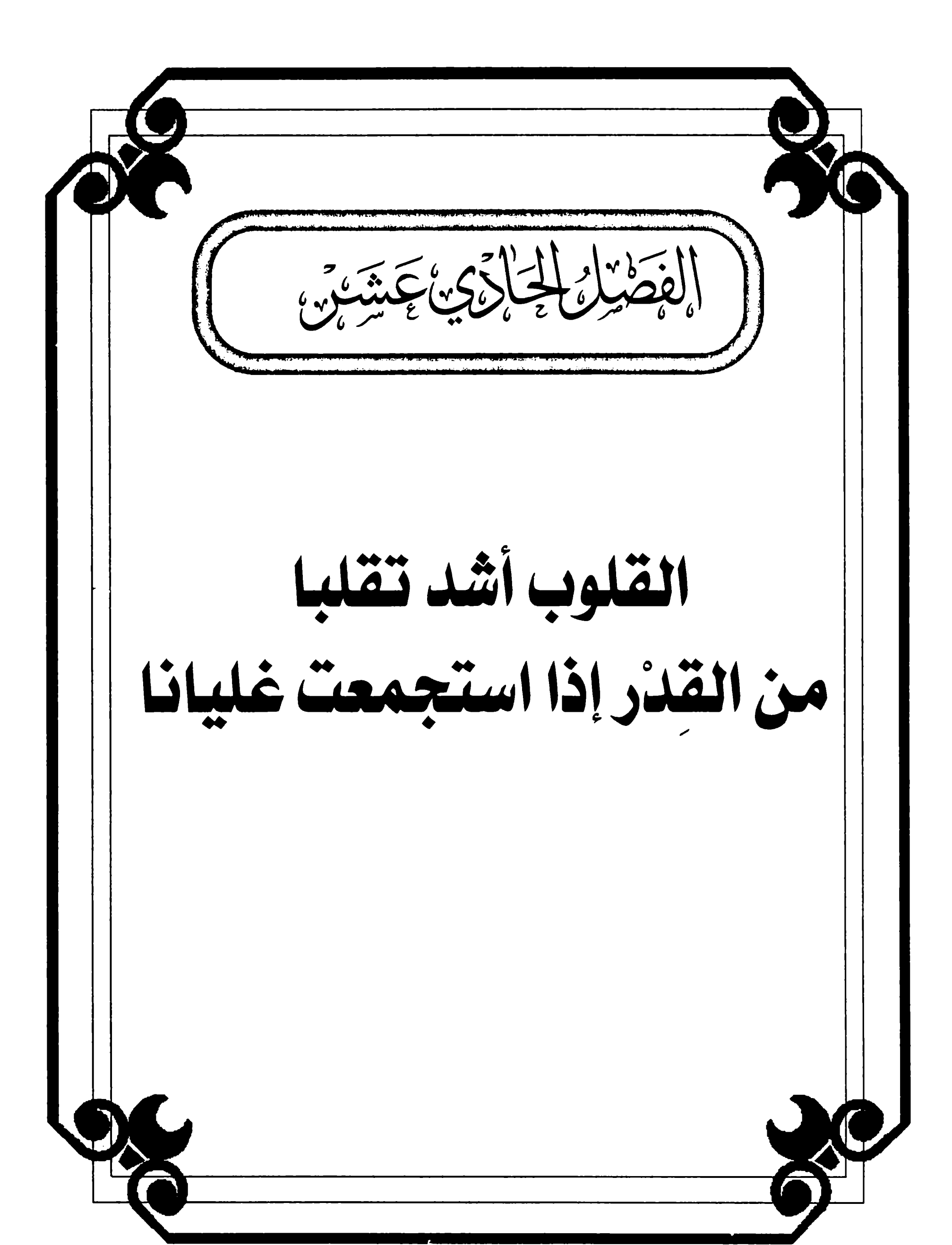
٦- في ضوء هذا الحديث، قم بتقويم تربيتك لنفسك، والتربية القائمة الآن في المسجد الذي تصلي فيه.

٧- هل الحركات الإسلامية تعمل بهذا الحديث الآن؟ هل محور التركيز هو: القلب والعمل أم المنظر والشكل؟ كيف نوفق بين الاثنين؟

٨- قم بتخصيص ليلة تربوية لمدارسة هذا الفصل مع صديق لك.

٩- طلب منك تنظيم دورة تربوية ليوم واحد، تخصص لهذا المفهوم (الله ينظر للقلوب والأعمال لا للمظاهر والأشكال) حدد أهداف الدورة العلمية، والعملية، وأنشطتها الدراسية، والعبادية الروحية.

١٠- اكتب روايات هذا الحديث، مع شرح مختصر لها، على صفحة واحدة، وانسخ منه عدة نسخ، ووزعها على بعض أئمة المساجد، والمعلمين، والأصدقاء، وعلق واحدة في قلبك.



الفصل الحادي عشر

القلوب أشد تقلبا من القِدْر إذا استجمعت غليانا

القلوب أشد تقلبا
من القدر إذا استجمعت غليانا

أتناول في هذا الفصل أربع مجموعات من الأحاديث النبوية تبين كلها حقيقة تقلب القلب، هذا أولا، ثم أبين مفهوم التقلب، ثم العوامل المؤثرة في هذا التقلب.

أولا: تقلب القلب كما يبينه الخطاب النبوي:

أ- المجموعة الأولى:

أخرج الإمام أحمد عن أبي كبشة قال: سمعت أبا موسى يقول على المنبر: قال رسول الله ﷺ - وساق الحديث - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهرا لبطن**»[1].

ورواه أحمد عن غنيم بن قيس عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض، يقيمها الريح ظهرا لبطن**»[2].

وأخرجه ابن أبي عاصم عنه بلفظ: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة، تقلبها الريح ظهرا لبطن**»[3]. وأخرجه عنه بلفظ: «**مثل القلب مثل ريشة تقلبها الريح بفلاة من الأرض**»[4].

وأخرجه الطبراني عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «**إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب مثل ريشة بالفلاة، فعلقت في أصل شجرة، يقلبها الريح**

---

(١) إسناده صحيح، المسند، ج١٤، رقم ١٩٥٥٠، ص ٥٤٠ - ٥٤١.

(٢) إسناده صحيح، المسند، ج١٥، رقم ١٩٦٤٥، ص ٢٦.

(٣) قال الألباني: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات، على شرط مسلم، انظر: ظلال الجنة مع كتاب السنة لابن أبي عاصم؛ رقم ٢٢٧، ص ١١٧.

(٤) قال الألباني: حديث صحيح بما قبله، المصدر السابق، رقم ٢٢٨، ص ١١٧.

ظهرا لبطن»(٥).

وأخرج ابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل القلب مثل الريشة، تقلبها الريح بفلاة**»(٦).

وأخرج الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة، تقلبها الرياح ظهرا لبطن**»(٧).

وأورده ابن الجوزي في ذم الهوى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة، تقلبها الرياح**»(٨).

وقال أبو موسى الأشعري في خطبة له: «**ألا وإنما سمي القلب من تقلبه، وإن مثل القلب كمثل ريشة، بأرض فضاء، تضربها الريح ظهرا لبطن**»(٩).

هذه المجموعة من الأحاديث تبين أن القلب يتقلب، وأنه مثل الريشة المعلقة بجذر شجرة تقع في أرض فضاء، وتهب عليها الريح، والرياح، فتقلبها ظهرا لبطن، **ومن هذه الأحاديث يتبين ما يأتي:**

١- **أن النبي ﷺ جعل تقلب القلب هو علة تسميته بالقلب، فالتقلب** خاصية فارقة محددة لهوية (القلب)، فهو إذا يحدد ملمحا، وقسمة من قسمات التصور الإسلامي للقلب؛ أعني: أنه كيان متقلب، أي: متحول، متغير، وليس كيانا جامدا ثابتا.

٢- إن هذا التقلب شديد، وسريع، ومستمر، مثل تقلب ريشة متعلقة في

---

(٥) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، ج ٢، رقم ٢٣٦١، ص ٢٨٩.

(٦) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٧١، ص ٤٨، وأيضا: صحيح الجامع الصغير وزيادته، مجلد ٥، رقم ٥٧٠٩، ص ١٩٧.

(٧) إسناده حسن، الحافظ العراقي: المغني عن حمل الأسفار، على هامش إحياء علوم الدين، مجلد ٢، ص ١٤٢٠.

(٨) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٦.

(٩) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج١، ص ٢٤٤.

جذر شجرة، في أرض فضاء، أو صحراء، وتهب عليها ريح أو رياح فتقلبها ظهرا لبطن، وهذه صورة تمثيلية توضيحية لبيان حال القلب، فالقلب مكشوف للمؤثرات الخيرة، والشريرة، وهو يتأثر بها، فيتغير حسب هذه المؤثرات، كما تتقلب الريشة بفعل هبوب الرياح، أو الريح عليها.

٣- إن القلب يتعرض لمؤثرات متنوعة، وهي التي تحدث فيه، أو تسبب فيه التقلب، والتغير، وهذه المؤثرات يشبهها الحديث بالرياح، مرة، وبالريح، مرة، حسب تنوع الروايات، وهذا مهم، فالرياح فيها خير: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢] ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] فالرياح مقدمة لرحمة الله، تبشر بالمطر النافع، والغيث المغيث، وتحمل حبوب اللقاح ليحدث التكاثر، والتلقيح، والإثمار في النباتات.

وأما الريح فهي التي تعصف، ويكون فيها التدمير، والعواصف، فالريح: عقيم، وقد تدمر.

وبين الريح والرياح فرق، وقول النبي : (تقلبها الرياح) غير قوله: (يقلبها الريح) أو (يقيمها الريح) ظهرا لبطن.

فالرياح مثال لمؤثرات الخير، في القلب، مثل قراءة وسماع القرآن بالتفكر، قراءة كتاب علمي ثري بالأفكار الفعالة، الاستماع لعالم مصلح، إلقاء خواطر الخير في القلب..الخ.

والريح مثال لمؤثرات الشر في القلب، مثل حديث النفس الأمارة بالسوء، وإلقاء خواطر الشيطان في القلب، والإصغاء لقوى الاستحمار الثقافي.. إلخ.

فالتقلب هنا ليس شرا دائما، وإنما هو محكوم بنوع المؤثر هل هو رياح، لواقح، أم ريح عاصف؟ هل هي مؤثرات الخير، من العلوم والأفكار النافعة الخيرة أم مؤثرات الشر، من الأفكار القاتلة، والميتة؟!

فإذا أراد المسلم أن يكون قلبه على خير، مؤمنا، تقيا، صالحا، فليعرض قلبه

لمؤثرات الرحمة ولأفكار الحق، والخير، ويحمي قلبه من الانكشاف والتعرض لمؤثرات الشر، للريح العقيم السموم.

كما أن التقلب محكوم بغاية التقلب: نحن نريد أن تتقلب قلوبنا، لماذا؟ لتصل إلى الإيمان، والتقوى.

٤- قد تكون للريشة حالة ثبات نسبي، وذلك إذا لم تكن معلقة في أصل شجرة، ولم تكن في فضاء، ولم تهب عليها الريح، وكذلك القلب، يمكن أن يصل لحالة استقرار نسبي، وطمأنينة، وهي حالة ممكنة ولذلك جاء في الدعاء الصحيح: «**يا مثبت القلوب، ثبت قلبي على دينك**» كما سيأتي في الفصل التالي بعون الله.

فإذا كان القلب يتعرض - في الأغلب الأعم - لمؤثرات الإيمان والعمل الصالح، وعالم الأفكار الفعالة، من خلال مدارسة القرآن، والحديث الصحيح، ومصاحبة أهل الصلاح..إلخ؛ فإن التقلب يتجه إلى غاية الإيمان، إنه يصبح تقلبا في الخير، في التقوى.. ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] فالله- تعالى- يرى محمدا ﷺ حين يقوم للصلاة، وللدعوة، ويرى تقلبه في الساجدين، فهو يتقلب، يتحول ويترقي، ويتنامى، ولكن في الساجدين لله، العابدين له، إنه يترقى، وينتقل من حال إيماني إلى حال إيماني.. يتقلب.. دائما، ولكن في اتجاه الخير، والنماء.

إننا هنا مع قلب يتعرض باستمرار لمؤثرات الإيمان وخواطر الحق، والخير، فيطمئن بالإيمان، لكنه يترقى، ويتقلب في الساجدين، المطيعين لله، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧] إذا فرغت من عمل خير، فانصب وارتقب في عمل آخر، وهكذا في ديناميكية إسلامية مترقية دائما.

لكن القلب ضعيف الإيمان، المتعرض لمؤثرات الشر، تميله الريح، وتقيمه، وتقلبه، بعيدا عن الخير، أما المؤمن القوي فلا تقلبه ريح الأهواء والأفكار

الميتة، بل تقلبه رياح الخير، في الساجدين.

ولعل هذا ما يشير إليه أبو هريرة فيما رواه ابن أبي شيبة عن يحيى بن سعيد عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة قال: مثل المؤمن الضعيف كمثل الخامة من الزرع، تميلها الريح، وتقيمها مرة أخرى قال: قلت: يا أبا الشعثاء (كنية بشير ابن نهيك، والقائل هو يحيى بن سعيد) فالمؤمن القوي؟ قال: مثل النخلة، تؤتي أكلها كل حين، (...) ولا تقلبها الريح[١٠].

٥- والدلالة التربوية التي نستنبطها من أحاديث هذه المجموعة هي: أن نؤمن بأن القلب يتقلب، وأنه يتقلب بفعل المؤثرات التي يتعرض لها سواء من خارج الذات أو من داخلها، وهي إما مؤثرات إيمان وتقوى، وصلاح وخير، وحق، وجمال وهدى، وإما العكس، فإذا أردنا أن يتقلب القلب في الإيمان والطاعة لله، فالطريق هو تربية القلب تربية إيمانية بتعريضه لمؤثرات الإيمان...إلخ، حتى يقوى ويطمئن به، ويثبت عليه ثباتا لا يحول دون ترقيه، وتقلبه في الساجدين.

ب- المجموعة الثانية:

أخرج الإمام أحمد عن سليمان بن سليم قال: قال المقداد بن الأسود: لا أقول في رجل خيرا ولا شرا حتى أنظر ما يختم له- يعني بعد شيء سمعته من النبي ﷺ، قيل: وما سمعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لقلب ابن آدم أشد انقلابا من القدر إذا اجتمعت غَلْيًا**»[١١]. وأخرجه الحاكم وصححه بلفظ: «**لقلب ابن آدم أشد انقلابا من القدر إذا استجمعت غليانا**»[١٢].

---

(١٠) قال الألباني: وإسناده صحيح، انظر: الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة: كتاب الإيمان، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، حديث رقم ٨٨، وهامش رقم ٨٣، ص ٣٠.

(١١) إسناده صحيح، رجاله ثقات، كما قال الهيثمي، انظر: المسند، ج١٧، رقم ٢٣٧٠٦، ص ١٣٥-١٣٦.

(١٢) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، وزيادته، ج ٥، رقم ٥٠٢٣، ص ٣٣، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ١٧٧٢، وفي منتخب كنز العمال للمتقي الهندي، ج١، ص ١٢٠ (على هامش مسند أحمد).

وأخرجه أبو نعيم في الحلية مثل رواية أحمد، وفيه: «**لقلب ابن آدم أسرع انقلابا من القدر إذا استجمعت غليا**»[١٣].

وأخرجه ابن أبي عاصم عن المقداد بن الأسود؛ قال: ما آمن على أحد بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «**لقلب ابن آدم أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا**»[١٤]. ورواه الطبراني في المعجم الكبير بروايات عن المقداد قال: «وايم الله، لا أشهد لأحد من أهل الجنة حتى أعلم ما يموت عليه، بعد حديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لقلب ابن آدم أسرع انقلابا من القدر إذا استجمعت غليا**» ورواه بلفظ: «**لقلب ابن آدم أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليا**»[١٥].

وأخرجه ابن الجوزي في ذم الهوى، بلفظ: «**لقلب ابن آدم أسرع انقلابا من القدر إذا استجمعت غليانا**»[١٦]. وذكره العراقي في المغني بلفظ: «**قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر في غليانها**»[١٧].

وذكر الحكيم الترمذي في نوادر الأصول «عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: كان عبد الله بن رواحه إذا لقيني، قال: اجلس يا عويمر، هذا مجلس الإيمان، إن مثل الإيمان ومثلك مثل قميص؛ بين أنت لبسته إذ نزعته، يا عويمر، القلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليا»[١٨].

يبين حديث هذه المجموعة أن القلوب تتقلب، بشدة وبسرعة، وأنها في

---

(١٣) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، ص ١٧٢.

(١٤) قال الألباني: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات...إلخ، كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة، رقم ٢٢٦، ص ١١٦.

(١٥) الطبراني: المعجم الكبير، حققه حمدي عبد المجيد السلفي، ج٢٠، دار إحياء التراث العربي، رقم ٥٩٨، ورقم ٥٩٩، وانظر تخريجات المحقق هناك، والإسنادان صحيحان، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

(١٦) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٦.

(١٧) هامش: إحياء علوم الدين، مجلد٢، ص ١٣٧٢.

(١٨) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج١، ص ٣٩٤.

ذلك أشد تقلبا من غليان القدر.

ويكشف هذا الحديث عن حقائق عقدية تخص القلب هي:

١- أن قلب الإنسان شديد التقلب، وسريع التقلب، أشد وأسرع تقلبا من القدر (الحلة الكبيرة، أو الإناء الذي يطبخ فيه، أو يغلي فيه الماء) حين توضع القدر على النار فتظل تغلي وتغلي، وتستجمع كل قوة غليانها، والقدر ذاتها لا تغلي، وإنما الماء الذي فيها هو الذي يغلي، فأطلق المحل، وأراد الحال، فالقلب مثل القدر، والذي يتقلب هو ما في القلب من إيمان، وأفكار، وأخلاق، وعواطف ومشاعر.

٢- إن الماء في القدر، لا يغلي بدون النار، أي: لا بد من مؤثر يؤدي إلى الغليان، وكذلك ما في القلب لا يتقلب، بدون مؤثر يؤدي لذلك التقلب الشديد والسريع، فتعرض القلب لنار الحرام والأفكار المميتة، تجعل القلب يغلي بأعمال الفجور والشر، وتعرضه لنار الإيمان، والأفكار الفعالة تجعله يغلي بأعمال البر، والخير، والرحمة، وهو متقلب على كل حال، فهو يغلي، كما يغلي الماء، يقول مالك بن دينار: «إن صدور المؤمنين تغلي بأعمال البر، وإن صدور الفجار تغلي بأعمال الفجور..»[١٩]. وهذا الغليان هو نتاج المؤثرات التربوية، فتعريض القلب لأفكار ورغبات البر والخير، والرحمة، يؤدي إلى أن يغلي القلب بشهوة البر والخير والرحمة، فَيَهِمُّ بعمل البر، ويعزم عليه.

٣- لما كان القلب سريع وشديد التقلب بسبب قوة المؤثرات الداخلية والخارجية عليه، فإن الإنسان الواعي بهذه الحقيقة يصاب بالحذر، والخوف من سوء العاقبة، والمآل، ويتخذ الإجراءات والاحتياطات التي تجنبه سوء المصير، وتدخله في الساجدين لله، المؤمنين به، وهذا ما نلمحه في موقف

---

(١٩) الإمام أحمد: كتاب الزهد، ص ٣٠٦، وله روايات في: أبي نعيم: حلية الأولياء، ج٢، ص ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٣.

المقداد وقوله: «لا أقول في رجل خيرا ولا شرا حتى أنظر ما يختم له..» ثم ساق الحديث السابق، فقد يسلب الإنسان الإيمان، وينزع من قلبه، يقول أبو أيوب الأنصاري: «ليأتين على الرجل أحايين وما في قلبه موضع إبرة من النفاق، وليأتين عليه أحايين وما في قلبه موضع إبرة من الإيمان»[٢٠]، ولهذا كان ابن عمر يدعو الله بهذا الدعاء: «اللهم لا تنزع مني الإيمان كما أعطيتنيه»[٢١].

فإذا أراد المسلم، وأرادت المسلمة حسن الخاتمة، وأن يحيا على الإيمان، ويلقى الله على الإيمان، ويقطع مفاوز السفر إلى الله – بقلبه، فيصل إليه، فليكن حذرا جدا، وليتمثل شخصية عمر بن الخطاب كما وصفها ابن عباس: «كان كالطير الحذر الذي يرى أن له في كل طريق شركا يأخذه»[٢٢].

فيخاف المؤمن، وتخاف المؤمنة، ويحذر، أن يمسخ إيمانه، فيكون على قدم الحذر، والخوف المربي، مع الذين وصفهم الشيخ القدوة عبد القادر الجيلاني: «يخافون تقليب الأغيار، في تغير الأحوال، والزوال عن المقام، يخافون مسخ القلوب، يخافون أن تمسخ قلوبهم، وأن تنكسف شموسهم وأقمارهم، وأن تزل أقدامهم، يتعلقون أبدا بحلقة باب قربه، ويتمسكون بذيل رحمته، يناشدونه: ربنا نريد العفو والعافية في الدين، نريد بقاء الإيمان والمعرفة، تصدق علينا بذلك، قد تمسكنا بذيل رحمتك، فلا تخيب ظننا فيك، كَوِّن لنا ذلك؛ فإنك إذا أردت أمرا قلت له: كن، فيكون(...) القوم على قدم الطاعة، وقلوبهم وجلة، وأنتم على قدم المعصية، وقلوبكم آمنة، هذا هو عين الاغترار(...) هذه العبادة: صنعة، وصالحوا أهلها: المخلصون في الأعمال، العاملون بالحكم العاملون به(...) لا

---

(٢٠) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج١، ص ٣٩٤.

(٢١) قال الألباني: هذا موقوف صحيح الإسناد، رواه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان، رقم ١٥، ص ٧، هامش ١٨.

(٢٢) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج١، ص ٣٩٧.

يزالون على ذلك حتى تتربى قلوبهم وتقوى أجنحتهم، وتطير إلى السماء، علت هممهم، وطارت قلوبهم، وصارت عند الحق- عز وجل- فصاروا من الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]»(٢٣).

وهكذا فالإيمان بحقيقة تقلب القلب بسرعة، وبشدة، والوعي بهذه الحقيقة يجعلنا حذرين، خائفين، (ومن خاف أدلج) أي: سار مسرعا في أول الوقت، سار إلى الله، يربي قلبه، ويقوي الإيمان فيه حتى يصل إلى الله بسلام.

٤- والوعي بحقيقة تقلب القلب هو الذي جعل ابن رواحة يحرص على مجالس التزكية، التي تزيد الإيمان، أي: أنه يتخذ ويسلك إجراء تربويا ينمي الإيمان في القلب، ويجعله متقلبا في الخير، وليس في الشر؛ فهو يتخذ من تقلب القلب علة، ودافعا لِتخصيص مجلس لتربية الإيمان، أي: تعريض القلب لمؤثرات الإيمان من قراءة قرآن، أو ذكر لله... إلخ، فيقول أبو الدرداء: «اجلس يا عويمر، هذا مجلس الإيمان..».

وهذه سنة تربوية مهمة: الحرص على مجالس تربية الإيمان، والمشي فيها، وإليها، قال البخاري: «كتاب الإيمان.. وهو قول وفعل، يزيد وينقص(...) وقال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة»(٢٤). قال في الفتح: «والتعليق المذكور وصله أحمد وأبو بكر أيضا بسند صحيح إلى الأسود بن هلال قال: قال لي معاذ بن جبل: اجلس بنا نؤمن ساعة، وفي رواية لهما: كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه: اجلس بنا نؤمن ساعة، فيجلسان فيذكران الله- تعالى- ويحمدانه»(٢٥).

---

(٢٣) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢٤) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٤٥.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٤٨ وقال الألباني في سند أبي بكر عن أبي شيبة: إسناده صحيح، على شرط الشيخين، انظر: ابن أبي شيبة؛ كتاب الإيمان: حديث رقم ١٠٧، وهامش رقم ٩٩، ص ٣٥.

وأخرجه ابن أبي شيبة، قال معاذ: اجلسوا بنا نؤمن ساعة، يعني: نذكر الله تعالى[٢٦].

ورواه أبو عبيد، القاسم بن سلام عن الأسود بن هلال قال: قال معاذ بن جبل لرجل: «اجلس بنا نؤمن ساعة، يعني نذكر الله»[٢٧].

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم عن علقمة أنه كان يقول لأصحابه: «امشوا بنا نزداد إيمانا»[٢٨].

فهؤلاء كانوا يحرصون على تربية قلوبهم، أي: تنمية الإيمان في قلوبهم لتزداد خيرا، ولكي تكون متجهة للإيمان والعمل الصالح، وذلك بالحرص على المشي في الطريق الذي يزيد الإيمان، والجلوس في مجالس الإيمان، يذكرون الله، ويتعلمون الخير النافع، ويتفكرون، ويتجددون، ويترقون، ويتقلبون في المطيعين لله، حتى يلقوا الله، وقلوبهم سائرة إليه وحده.

جـ- المجموعة الثالثة:

أخرج الطبراني في الأوسط عن عليّ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينما القمر يضيء، إذ علته سحابة، فأظلم إذ تَجَلَّتْ**»[٢٩].

وأخرج أبو نعيم من طريق عبد الرحمن بن مغراء قال: ثنا أزهر بن عبد الله

---

(٢٦) إسناده صحيح على شرط الشيخين، انظر: كتاب الإيمان لابن أبي شيبة، حديث رقم ١٠٥، هامش رقم ٩٧، ص ٣٥.

(٢٧) قال الألباني: إسناده صحيح على شرط الشيخين؛ انظر: الإمام أبا عبيد القاسم بن سلام: كتاب الإيمان ومعالم وسننه، واستكماله، ودرجاته، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، حديث رقم ٢٠، وهامش رقم ٤٥، ص ٧٢.

(٢٨) قال الألباني: إسناده حسن، وعلقمة هو: ابن قيس النخعي، الكوفي، ثقة، ثبت، فقيه، عابد، من أصحاب ابن مسعود. انظر هامش رقم ٩٧ من كتاب الإيمان لابن أبي شيبة، رقم ١٠٤، ص ٣٥.

(٢٩) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٥، رقم ٥٥٥٨، ص ١٥٧، وفي الصحيحة برقم ٢٢٦٨، وفي منتخب كنز العمال للمتقي الهندي، ج١، ص ١١٩.

عن محمد بن عجلان عن سالم بن عبد الله عن أبيه، قال: قال عمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب- رضي الله تعالى عنهما- ربما شهدت وغبنا، وربما غبت وشهدنا، فهل عندك علم بالرجل يحدث بالحديث إذا نسيه استذكره؟ فقال علي- رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينما القمر مضيء، إذ علته سحابة فأظلم، إذ تجلت عنه فأضاء، وبينما الرجل يُحَدِّث إذ علته سحابة فنسي، إذا تَجَلَّتْ عنه فذكره**»(٣٠).

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإشراف عن الزهري، أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - قال لأصحابه: ما تقولون في الرجل لا يحضره أحيانا ذهنه، ولا عقله، ولا حفظه، وأحيانا يحضره ذهنه وعقله؟ قالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، قال عمر: «إن للقلب طَخَاءً كطخاء القمر، فإذا غَشَّى ذلك القلبَ؛ ذهب ذِهْنُه، وعقله، وحِفْظُه، فإذا تجلى عن قلبه؛ أتاه ذهنه وعقله، وحفظه»(٣١).

وذكر الحكيم الترمذي عن عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال لعمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين، مم يذكر الرجل ومم ينسى؟ فقال: «إن على القلب طخاءة كطخاءة القمر، فإذا تغشت القلب نسي ابن آدم ما كان يذكر، وإذا تجلت ذكر ما كان ينسى»(٣٢).

يبين حديث هذه المجموعة أن القلب يشبه القمر، في الإضاءة، وأن له

---

(٣٠) قال أبو نعيم: هذا حديث غريب من حديث محمد بن عجلان عن سالم، تفرد به عبد الرحمن بن مغراء، عن أزهر، انظر: حلية الأولياء، ج١، ص ١٩٦.

(٣١) ابن أبي الدنيا: الإشراف في منازل الأشراف، تحقيق وتعليق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، ٢٠٠٢م، رقم ٥، ص ١٦ قال محققه: إسناده مرسل.
انظر: منتخب كنز العمال، للمتقي الهندي، ج١، ص ١٢٠ – ١٢١.

(٣٢) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج١، ص ٣٠٠.

سحابة، وطخـاءة، تتغـشاه وتغطيـه، فيتحـول مـن حـال الإضـاءة إلى حالـة الظلمة، فإذا غطته السحابة، والطخاءة، أظلم، ونسي، وذهب عقله، وحفظه، وإذا تجلت عنه، وذهبت، وانكشفت، أضاء القلب، وتذكر، ورجع إليه وعيه، وعقله، وحفظه، **ونبين دلالات هذه المجموعة فيما يلي:**

١- إن كل قلب إنساني له هذه الخاصية، يقول الحديث: «**ما مـن القلـوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر**» أي: ليس يوجد قلب إنساني إلا وله مثـل هذه السحابة، وذلك أن القلب الإنساني لا يوجد في فراغ، بـل فيـه، وحولـه، المشاعر، والهموم، والمـؤثرات الثقافيـة المختلفـة، والـشهوات، والـدعايات، والانشغالات الدنيوية المتشعبة.. والقلب الإنساني متعرض لذلك كلـه، فـإذا تعرض لواحد منها، شغل القلب، وغطي على ما فيـه - وهكـذا يـشكل هـذا الانشغال القلبي سحابة تغطي عليه، كما تغطي السحابة ضوء القمر.

٢- يشبه النبي ﷺ قلب المـؤمن بـالقمر المـضيء، والغـشاوة التـي تغطـي القلب بالسحابة التي تغطي وجه القمر، وبينما القمر يضيء، إذ علتـه سـحابة، أي: أحاطت به وغطته فحجبت نوره، وكذلك الغشاوة إذا علت القلب، فإنها تغطيه، وتحجب نوره، وتغيب وعيه الراشد، هذه الغشاوة؛ أنواع متعددة: فقد تكون اندفاعا في شهوة محرمة، وقد تكون انشغالا بِهَمٍّ من الهموم، وقد تكـون إلقاء مزخرفا من مفكر أو جهاز إعلامي، وقد تكون طرحا فكريا من صديق، وقد تكون انخراطا في إثم باطن أو ظاهر، مثل هذه الغشاوات والسواد الناتج عن هذه المؤثرات، تغطي ضوء القلـب، وتحجبـه، فيغفـل، وينـسى، ويغيـب رشده، (فأظلم إذ تجلت) أي: أظلم القلب إذ تجلت عليـه الـسحابة، وعلتـه، وغطته، مثل القمر حين تتجلى عليه سحابة معتمة، فيظلم القمـر (مـن معـاني جلا: علا، ومن معاني تجلى: ظهر، وبان، وتجلى: غطى، وغـشى، وتجـلى فـلان مكان كذا: علاه، والتجلي: التجلل..).

٣- فالقلب يتقلب من حال الإضاءة، إلى حال الإظلام، ومن حال الظلمة إلى حال التنوُّرِ، بحسب المؤثر عليه، فإذا علته، وغطته مؤثرات الإظلام، أظلم، فإذا أزاح الإنسان ستائر الظلمة، أضاء القلب، وذلك بالاستغفار، والتعرض لمصادر النور العقلي، والإيمان.

٤- وحديث عمر يبين أن القلب يتحول من حال الوعي، واليقظة، والتذكر، والصحو الفعلي، إلى حال النسيان، والغفلة بسبب طخاءة القلب، التي تعلوه، وتتغشاه فينسى، ويذهب عنه عقله، وحفظه، فإذا تجلت عنه - أي: انجلت، وانكشفت، وراحت بعيدا عنه - ذكر، ما كان ينسى، وعاد إليه عقله، ووعيه، كما يعود إليه نوره.

٥- يشبه عمر طخاء القلب، بطخاء القمر، فما معنى: طَخَاء، وطخاءة؟

يقول ابن الأثير: الطَّخَاء: ثِقَلُ وغَشْيٌ، وأصل الطَّخَاء والطُّخية: الظلمة والغيم.

ومنه الحديث: «**إن للقلب طخاء كطخاء القمر**» أي: ما يغشيه من غيم يغطي نوره(٣٣).

ويقول ابن منظور: «طخا الليل طَخْوًا وطُخُوًّا: أظلم، والطَّخْوة: السحابة الرقيقة(...) والطَّخَاء: السحاب الرقيق المرتفع، يقال: ما في السماء طخاء؛ أي: سحاب وظلمة، واحدته: طَخَاءَة، وكل شيء ألبس شيئا: طَخَاءٌ، وعلى قلبه طَخَاء وطَخَاءة، أي: غَشْيَة وكرب (...) الطخاءة.. من الغيم: كل قطعة مستديرة تسد ضوء القمر، وتغطي نوره..»(٣٤).

فالقلب الإنساني له مثل هذه الطخاءة: التي تطخو القلب فتسد ضوءه، وتغطي نوره، وهي الهموم والانشغالات، والأفكار التي تغطي القلب،

---

(٣٣) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، ص ١١٦ - ١١٧.

(٣٤) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص ٢٦٤٨.

وتؤثر عليه، وتتسلط عليه، فينسى غيرها، ويذهب عنه الوعي بسواها، فإذا تجلت عنه، صحا القلب، وأفاق، وعاد له الوعي، واليقظة، والانتباه والإشراق.

٦- فالقلب يتقلب من حال الصحو والتذكر، والتعقل، إلى حال الغفلة والنسيان بتأثير ما يتغشى القلب من هموم وإلقاءات، ويتقلب من حال الغفلة إلى حال التيقظ، والصحو، إذا تجلت عنه هذه الطخاءة، أي: انكشفت، وراحت بعيدا، وخَلَّتْ بين القلب، والنور.

٧- والإنسان يمر بذلك، وهو أمر طبعي، وثقافي، لكن الخطر هو أن يستمر الإنسان في حالة الخمود والجمود تحت طخاءة القلب، وسحابته، وغشاوته، فيستمر في الظلمة، والغفلة، وإرادة الخروج من هذا الخطر هي المقدمة الضرورية ليعيش الإنسان في النور، واليقظة القلبية، وذلك بأن يتعرض لمؤثرات النور، والحياة المشرقة، بحضور تربوي فاعل: قراءة، ومدارسة، وتفكرا، وذكرا لله، ومجالسة لأصحاب القلوب الحية، والأفكار الفعالة.

إن هذه الإرادة تتطلب منا أن ننفض قلوبنا كما ينفض العصفور أجنحته وريشه، حين يستحم على شاطئ النهر.

د- المجموعة الرابعة:

أخرج الحاكم في المستدرك عن أبي عبيدة بن الجراح أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل القلب مثل العصفور، يتقلب في كل ساعة**»(٣٥). وأخرجه البيهقي في الشعب عنه بلفظ: «**قلب ابن آدم مثل العصفور، يتقلب في اليوم سبع مرات**»(٣٦).

---

(٣٥) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، انظر الحافظ العراقي: المغني، على هامش الإحياء، ج٢، ص ١٤١٩.

(٣٦) المتقي الهندي: منتخب كنز العمال، ج١، ص ١٢٠.

يبين هذا النص أن القلب يتقلب مثل تقلب العصفور، وتقلب العصفور قد يكون تقلبا نافعا، فقد يتقلب العصفور، لأنه ينفض عنه قذرا، أو حين ينزل عليه مطر، أو يستحم على شاطئ ماء، فإنه ينثره على جسمه كله، وينتفض، هذا تقلب نافع، مثمر، منشط، فالقلب حين يتقلب مثل هذا التقلب فإنما ينتفض انتفاضة الحياة، والتطهر، والنشاط المنتج النافع، إنه ينتفض من النوم وينثر على نفسه قطرات الندي، وقطرات الماء، ونسائم الصباح.

وقد ينتفض العصفور، انتفاضة الفزع والضيق حين يحبس، أو حين يقبض عليه شخص، وقد ينتفض على غصن الشجر، أو وهو يلاعب صغاره..إلخ والقلب يتقلب، وينتفض سواء للخير، أو للشر.

وفي حالة الخير، يتقلب القلب، وينتفض ليركض إلى الله بالتقى، والنور، والرشد.

هـ- **من مجموعات الأحاديث السابقة يتبين:** أن القلب الإنساني يتقلب باستمرار، وقد أوضح الرسول ﷺ أنه يشبه في تقلبه تقلب الريشة المعلقة في جذر شجرة في الفضاء، وتهب عليها الريح، والرياح، وهو يشبه غليان القدر، وتقلب الماء، حين يكون القِدْر فوق النار، وهو يشبه العصفور، في تقلبه، وانتفاضاته، كما أن للقلب سحابة، وطخاءة، تغشيه، فيظلم، وينسى، ويغفل.

وهذا التقلب، لا يحمل- دائما- معنى سلبيا، بل قد يكون تقلبا في الخير، وانتقالا من عبادة لعبادة، ومن مقام لمقام، ومن معصية لطاعة، أو العكس.

وتقلب القلب له مؤثرات وأسباب، فكما أن تقلب الريشة يرجع لهبوب الريح، أو الرياح، وتقلب الماء في القدر يرجع للنار التي تحته، وتحول القمر من النور للظلمة بسبب تغطية السحابة عليه، والعكس صحيح، فكذلك لتقلب القلب أسباب ومؤثرات سأشير إليها في فقرة تالية، وهي إما مؤثرات تربوية إيجابية: مثل تفكر راشد في آية قرآنية أو حديث صحيح، أو فكرة فعالة، أو ذكر

لله،..إلخ، وإما مؤثرات تربوية سلبية كمشاهدة فتاة ناهدة في حالة إغرائية، أو الإصغاء لإلقاءات قوى الاستحمار الثقافي التغريبي أو العولمي.

وبالتالي فإن التقلب محكوم بعملية التربية وكيفيتها وهدفها، ومحكوم بالوسط الثقافي المؤثر في القلب الإنساني، إيجابا وسلبا.

فالتقلب قد يكون لغرض هداية، وإقامة للقلب في طاعة الله، وتقليب له في الساجدين لله، وقد يكون بغرض إزاغة هذا القلب، وصرفه عن منهج طاعة الله، كما سيأتي في الفصل التالي.

ثانيا: مفهوم تقلب القلب:

أ- نخلص من ذلك التحليل إلى أن القلب يتقلب، ويجول، هذا وصف لهويته الذاتية، يقول أحمد بن خضرويه: «القلوب جوالة، إما تجول حول العرش، وإما أن تجول حول الحُشِّ»(٣٧)، فالقلب يجول، ويتحرك، ويتقلب بسرعة، وبشدة، حتى يثبته الله- تعالى- في مقامات الإيمان، ويصرفه عن معصيته، كما سيأتي.

ب- وتقلب القلب له مفهوم، من أجله سمي القلب: قلبا.

١- يقول ابن منظور: «القلب: تحويل الشيء عن وجهه (...) وقَلَّبَ الشيء، وقَلَّبَه: حَوَّلَه، ظهرا لبطن (...) والقلب أيضا: صرفك إنسانا، تقلبه عن وجهه الذي يريده (...) وتقلب:.. تحول (...) وقلبت القوم، كما تقول: صَرَفْتُ الصبيان، وقَلَّبَ المعلم الصبيان، يقلبهم: أرسلهم، ورجعهم إلى منازلهم،(...) وفي حديث أبي هريرة: أنه كان يقال لمعلم الصبيان: اقلبهم، أي: اصرفهم إلى منازلهم، والانقلاب إلى الله عز وجل: المصير إليه والتحول (...) والانقلاب: الرجوع مطلقا»(٣٨)، فتقلّب القلب: تحوّله، وانصرافه من حال

---

(٣٧) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٦ – أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص ١٠٤.
(٣٨) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص ٣٧١٣.

لحال، ومن وجه لوجه، ورجوعه من شيء لشيء، وتقليب القلب: تحويله من وجه إلى وجه.

٢- وتَقَلُّب القلب يعني: تغير صفة القلب، وتحوله وانصرافه من مقام لمقام، ومن خاطر لخاطر، فمثلا: بدل أن يؤثر الإيمان بالله، يتحول إلى إيثار الكفر، وعكس ذلك، فالمراد بتقليب القلوب: «تقليب أعراضها، وأحوالها لا تقليب ذات القلب»(٣٩). فالكيان الجواني للإنسان، كيان متقلب، متحول، جوال، رجاع، من حال لحال، من معتقد لمعتقد، من قيمة لقيمة، من عاطفة لعاطفة، من وصف لوصف، من الرقة للقسوة، أو العكس: من النور للظلمة، من المعرفة للجهل، من فكرة لفكرة.. وهكذا، يتغير، ويتحول.. في الوصف، والحال، والموقف، قد يصبح مؤمنا، ويمسى كافرا، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا.

٣- وهذا التغير والتحول يعطي الإنسان إمكانا مهما للتطور، والترقي، والنمو، كما يعطيه إمكانا خطرا للارتكاس، والانحطاط.. وذلك بحسب تعرض القلب للمؤثرات التربوية الثقافية، وبحسب الهدف النهائي للإنسان، وبحسب أخذه بزمام المبادرة لتغيير قلبه تغييرا إيجابيا، ليصير مؤمنا تقيا عابدا لله، فكرا، وقيما، وسلوكا، وسعيا في الأرض.

ثالثا: العوامل المؤثرة في تقلب القلب (البيئة المربية):

من خلال الخطاب النبوي السابق تبين أن القلب يتقلب مثل الماء في القدر، أو الريشة في مهب الريح، والرياح.

أي أن هناك مسببات مؤثرة، خيرا، أو شرا، في تقلب القلب.. وهي أسباب ومؤثرات قدرها الله- تعالى - وأراد أن تكون كذلك، ابتلاء للإنسان: من يحسن العمل؟ وسوف أتناول هذه الحقيقة في الفصل التالي، وهي أن المقلب، والمصرف والمثبت للقلب هو الله وحده، فهو (فاعل، وخالق) التقلب

(٣٩) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١١، ص ٥٢٧.

في القلب، وهو يفعل ذلك بأسباب قدرها، كما أنه يخلق الجنين، ويخلق الزهرة،.. إلخ بأسباب قدرها، فإن وجدت الأسباب، قدر الله حدوث النتيجة، وخلقها، فالله يخلق التقلب في القلب نحو الإيمان، حين يتجه الإنسان ليؤمن، ويتخذ أسباب ذلك.. وهكذا.. هناك أسباب وعوامل، يحدث الله بها تقلب القلب، نحو الهدى، أو الضلال.

وهناك عوامل تؤثر في تقلب القلب، ترجع أساسا لتوفيق الله، أو إلى خذلانه، للإنسان، ونتعرف في هذه الفقرة إلى بعض هذه العوامل، ومنها: دعوة الشيطان ووسوسته، والنفس الأمارة بالسوء، وإلهام الملك بالخير، عبر لمة الملك في القلب، ومحمولات الحواس للعقل والقلب: أي: كل ما يشكل الوسط الثقافي المربي للإنسان، الوسط الذي يتشربه الإنسان فيؤثر في قلبه، ويغيره، وهذا الوسط الثقافي يعمل من داخل الإنسان، إذا قبله الإنسان، وسوف أبين في الفقرة الآتية بعض ما يتعلق بهذه المؤثرات.

أ- استراتيجية الشيطان في تقليب القلوب:

ذكرت في فصل (قلوب تنكر الفتن) أن الشيطان عدو الإنسان من أول آدم إلى آخر بشر على الأرض، ومن أول ما يولد الإنسان حتى يموت، وأنه ذئب الإنسان، وأن لكل إنسان شيطانا يحضره- دائما- عند كل شيء من شأنه، وأن هناك غرفة عمليات، ومركز قيادة حربية يرأسه إبليس لتسيير العمليات الحربية التي ينفذها جنود إبليس لنشر الفتن، فيبعث سراياه يفتنون الناس، وأن إبليس وجنوده مصرون على تنفيذ استراتيجيتهم، وأن الله قد كشف للمؤمنين أبعاد وتفصيلات هذه الاستراتيجية الحربية ضد الإنسان: التي يهدف منها إبليس إلى إضلال الإنسان، والكفر بالله، وأن الشيطان ينفذ خطته، ويحقق أهدافه عن طريق مجموعة متنوعة من الأساليب والتكتيكات.

ومن هذه الأساليب: أسلوب التسويل والتزيين، والتقرير، والخداع

بالكلام المزخرف، والصور المغرية، وأسلوب الوسوسة والإيحاء الخفي والحديث الباطني للعقل، والقلب، وأسلوب تجميل العمل السيئ وتزيينه حتى يراه القلب حسنا، فيتحول إليه، وأسلوب الإلقاء المباشر للأفكار والخواطر في القلب، وأسلوب توظيف المشاعر والرغبات والغرائز الإنسانية، لإقناع الإنسان بما يريده، ليضله، ويستحمره، وأسلوب الخطوات التدريجية البطيئة الأكيدة المفعول.

وفي هذا الفصل أشير إلى جملة آيات، وأحاديث وأقوال تكمل رؤيتنا لاستراتيجية الشيطان، الذي يوظف كل الإمكانات الحضارية من أجل تحقيقها، وإنجاز أهدافها:

١ - قال الله- تعالى: ﴿ **ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وهو يعد ويأمر من خلال الوسوسة، والدعوة، والإلقاء في القلب، والتزيين.

وقد روى ابن أبي الدنيا، والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للشيطان لَمَّة** (إلمامة بالقلب، ووسوسة) **بابن آدم، وللملك لَمَّة** (إلهام)، **فأما لَمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لَمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان**»، ثم قرأ: ﴿ **ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ** ﴾ الآية، «**فإذا أصغى القلب للمَّةِ الشيطان اشتهى الشر، وإذا أصغى للمَّةِ الملك اشتهى الخير**»(٤٠).

---

(٤٠) الحافظ ابن أبي الدنيا: مكائد الشيطان، جمع وتحقيق وتعليق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، رقم ٤١، ص ٦١ – ٦٢ قال محققه: إسناده ضعيف، الإمام الترمذي: سنن الترمذي: ج٤، رقم ٢٩٩٩ وقال: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص، لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبي الأحوص، ص ٤٦٤.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣].

أي: كما ابتليناك بالكفرة، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء، صفتهم أنهم شياطين الإنس والجن، يوسوس بعضهم إلى بعض؛ خفية بكلام مموه، مزخرف، مزين، باطل، وهذا بمشيئة الله وقدره، ولو شاء أن يمنعهم من الإيحاء بالقول المزخرف والتغرير بالباطل لما فعلوا ذلك، فاتركهم، وإنما يوحي بعضهم إلى بعض ليغروهم، وليزينوا لهم الإثم، ولتميل إليه قلوب المنكرين للبعث، وليرضوه، وليكتسبوا ما هم مكتسبون من المعصية والإثم(٤١)، فمقصود الإيحاء المذكور هو أربعة أمور: غرور من يوحون إليه، وإصغاء أفئدتهم إليهم، ومحبتهم لذلك، وانفعالهم عنده بالاقتراف(٤٢).

٣- أخرج مسلم والبخاري وأحمد وابن ماجه وغيرهم من حديث أم المؤمنين صفية بنت حيي، أن رسول الله ﷺ قال للرجلين اللذين رأياه معها: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم شرًّا، أو شيئًا**».

فالشيطان يقذف الشر في القلب، «فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه،

(٤١) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص ٦٧ - ٧٠.
(٤٢) ابن القيم: شفاء العليل، ص ٣٧٧.

ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له، ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فتصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل، ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا لهم وعونا، فإن سكنوا حركهم، وإن ولوا أزعجهم كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] فالخطرة، ثم الفكرة، ثم الشهوة، ثم الإرادة، ثم العزيمة الجارفة، ثم الذنب»(٤٣).

٤- أخرج الإمام أحمد عن سبرة عن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم، وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه، فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول؟ قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: هو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة، ويقسم المال، قال: فعصاه، فجاهد**»، فقال رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو قتل، كان حقا على الله- عز وجل- أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصَتْه دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة**»(٤٤).

وهكذا فالشيطان قعد بكل طريق خير، يصد عنه المسلم، والإنسان عموما، والراشد هو من يعصيه، ويحرز نفسه منه، بذكر الله، والالتجاء إلى الله، أخرج الإمام أحمد والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، من حديث

---

(٤٣) رفاعي سرور: عندما ترعى الذئاب الغنم، ص ٩٤ – ٩٥.

(٤٤) إسناده حسن، مسند أحمد، ج١٢، رقم ١٥٩٠٠ ص ٣٩٠ – ٣٩١، وأخرجه النسائي: المجتبى من السنن الكبرى، ج٦، رقم ٣١٣٤، ص ١٧ – ١٨.

الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله- سبحانه وتعالى- أمر يحيى ابن زكريا- عليهما السلام- بخمس كلمات** - وساق الحديث وذكر منها - **وأمركم أن تذكروا الله- تعالى- فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في إثره، سراعا، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله- تعالى**..»(٤٥).

وأخرج المديني عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما، وكنا في صفة بالمدينة، فقام علينا فقال: «**إني رأيت البارحة عجبا** (وساق الحديث، وفيه..) **ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله- عز وجل- فطرد الشيطان عنه**»، قال المديني: هذا حديث حسن جدا.. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يعظم شأن هذا الحديث، وكان يقول: شواهد الصحة عليه(٤٦).

فالشياطين تقطع الطرق على الإنسان، وتطارده، وتحتوشه - تحاصره - وتريد أن تحتنكه - تأكله أكلا - وتستولي على قلبه تماما، تريد أن تقلبه بعيدا عن الله.

وأختم هذه الفقرة بقول أبي الجوزاء: «والذي نفسي بيده، إن الشيطان لازم بالقلب، ما يستطيع صاحبه أن يذكر الله- تعالى- أما ترونهم في مجالسهم وأسواقهم؛ يأتي على أحدهم عامة يومه لا يذكر الله- تعالى- إلا حالفا، ما له من القلب طَرْد إلا قوله: لا إله إلا الله»(٤٧).

وبقول عمر بن عبد العزيز ﷺ: سأل رجل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فلما كان في الحول رأى فيما يرى النائم جسدًا يشبه البلور، يرى داخله من خارجه، ورأى الشيطان في صورة ضفدع، قاعد عند منكبه

---

(٤٥) قال ابن القيم عن هذا الحديث: (ينبغي لكل مسلم حفظه وتعقله)، الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص ١٧ - ١٨.

(٤٦) ابن القيم: الوابل الصيب، ص ١١٣.

(٤٧) الحافظ ابن أبي الدنيا: مكائد الشيطان، رقم ٢٣، ص ٤٤، قال محققه: إسناده حسن.

الأيسر، بين منكبه وأذنه، له خرطوم طويل رقيق، قد أدخله من منكبه الأيسر، إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله- عز وجل- خنس [٤٨]، وهذه صورة توضيحية تبين علاقة الشيطان بالإنسان، وقال خالد بن معدان: «ما من إنسان إلا والشيطان مُبطِّن فقار ظهره، لاوٍ عنقه على عاتقه، فاغر فاه على قلبه» [٤٩].

ب- النفس الأمارة بالسوء:

وهي قوة داخلية تأمر القلب بالسوء، وتحسنه له، وتزينه، لتحوله عن طاعة الله، إلى طاعة الشيطان والهوى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] ، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] ، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٠] .

جـ- ما تحمله الحواس للقلب من معطيات الوسط الثقافي:

فالبصر ينقل للقلب مرئيات، والسمع ينقل مسموعات.. وهي إما تهدي وإما تضل، فما نسمعه، وما نبصره، وما نحسه، وما نتخيله، ينقل للقلب رؤى وأفكارًا، وتخيلات، وخواطر، وينشئ أفكارًا، ورغبات، خيرة أو شريرة، تؤثر في القلب، وقد تحوله وتقلبه، حسب قوة تأثيرها، وحسب موقف الإنسان منها، بالاسترسال والقبول، أو بالإنكار والرفض.

فالإنسان يعيش في وسط مربي.. ما يراه، وما يسمعه، وما يشعر به، وما يتخيله، كل هذا ينشئ خواطر، ويحرك القلب، يربيه: تربية خيرة، أو شريرة، بحسب مضمون هذا المركب الثقافي الذي يتشربه القلب.

وأنقل هنا نصا لابن الجوزي يتعلق بالتفاعل بين الإنسان وما يلقى في القلب من محتوى ثقافي، بصري، مخالف لمنهج الله، فقد عقد بابا «في معالجة الهم، والفكر المتولد عن النظر» قال فيه: «اعلم- وفقك الله- أنك إذا امتثلت

---

(٤٨) المصدر السابق، رقم ٧٩، ص ٩٨.

(٤٩) ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ٩٣، ص ٦٢، قال محققه: إسناده صحيح.

المأمور به من غض البصر عند أول نظرة- سلمت من آفات لا تحصى، فإذا كررت النظر؛ لم تأمن أن يزرع في قلبك زرعا يصعب قلعه، فإن كان قد حصل ذلك؛ فعلاجه: الحمية بالغض فيما بعد، وقطع مواد الفكر؛ بسد باب النظر، (يعني: المحرم) فحينئذ يسهل علاج الحاصل في القلب؛ لأنه إذا اجتمع سيل فَسُدَّ مجراه سَهُل نزف الحاصل، ولا علاج للحاصل في القلب أقوى من قطع أسبابه، ثم زجر الاهتمام به؛ خوفا من عقوبة الله- عز وجل- فمتى شرعت في استعمال هذا الدواء رُجِيَ لك قرب السلامة، وإن ساكنت الهَمَّ؛ تَرَقَّى إلى درجة العزم، ثم حرك الجوارح (...) سمعت أبا تراب النخشبي يقول: احفظ همك، فإنه مقدمة الأشياء، فمن صح له همه؛ صح له ما بعد ذلك من أفعاله وأحواله (...) قيل لبعض الحكماء: ما سبب الذنب؟ قال: الخَطْرَة، فإن تداركت الخطرة بالرجوع إلى الله، ذَهَبَتْ، وإن لم تفعل تولدت عنها الفكرة، فإن تداركتها بالرجوع إلى الله، بطلت، وإلا فعند ذلك تخالط الوسوسة الفكرة، فتولد عنها الشهوة، وكل ذلك- بَعْدُ- باطن في القلب، لم يظهر على الجوارح، فإن استدركت الشهوة؛ وإلا تولد منها الطلب، فإن تداركت الطلب، وإلا تولد منه الفعل.

فإن قال قائل: كيف أقدر على دفع خطرات تخطر لا أملكها؟ فالجواب: أنها ما لم تكن عزما؛ لا تضر، (...) ومتى تحققت جوارحك ولم تعزم على الخطايا بقلبك، فقد عفى لك عن الوسواس والخواطر، فإذا زجرتها بالخوف فقد بالغت في النظافة (...)، قال أبو العباس بن مسروق: من راقب الله في خطرات قلبه، عصمه الله في حركات جوارحه»(٥٠).

---

(٥٠) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ١٢٠ - ١٢١، والنص المذكور من أول قوله: قيل لبعض الحكماء.. إلى قوله: (وإلا تولد منه الفعل) ذكره ابن أبي الدنيا: كتاب التوبة، رقم ١٢٢، ص ٧٢، مع بعض اختلاف في بعض الألفاظ.

إن هذا النص يمكن تعميمه على كل مسموع، ومتخيل.. يـزرع في القلـب زرعا، أي: ينشئ خاطرًا، فإذا اهتم به الإنسان تحول إلى فكرة، فـإذا اهـتم بهـا وانشغل، وحدث قلبه ونفسه بها تحولت إلى شهوة، واتجاه نفسي قـوي، فـإذا انقاد لها تحولت إلى هم وعزم وطلب، يتولد منه الفعل الـسلوكي الخـارجي.. وهكذا يحدث التحول سلبا وإيجابا.

إذا يتقلب القلب بتأثير المعطيات الثقافية، والوجدانيـة الواصـلة إليـه مـن خارج الذات أو داخلها، وذلك حين يـستجيب القلـب للخـاطر، والفكـرة، ويعشقها، ويعزم على العمل طبقا لها، سواء كـان الـسبب هـو إلهـام الله، عـن طريق الملك أو عن طريق عالم، أو مرب صالح، أو عـن طريـق لمـة الـشيطان، وأمر النفس أو عن طريق المحمول الثقـافي المنقـول إلى القلـب، مـن الوسـط الثقافي المحيط.

وكل هذا هو بقدر الله، فالله- تعـالى- أراد أن يكـون القلـب متقلبـا لهـذه الأسباب الخيرة، أو الشريرة.

د- إذًا، تتجه للقلب- بقدر الله- مؤثرات عديدة ومتنوعـة، فهنـاك تـأثير الحواس النافذة إلى القلب، حاملة معلومات وخواطر، ومدركات عن كل مـا تـراه، وتـسمعه، وتتخيلـه، المخيلـة، وهنـاك تـأثير دواعـي الـشهوة والمـزاج الإنساني، وتأثير الشيطان وجنوده، وما يبثه في القلب من خواطر، وأفكار وما يزينه في القلب من أفعال محرمة، وهناك تأثير القراءة، وتـأثير التفكـر، وتـأثير الإلهام، وتأثير الخيال، والتوهمات والأحلام، ومـا يبثـه ذلـك في القلـب مـن صور، تقوي شهوة الخير، أو الشر، وهناك تأثير انـدماج الإنـسان في المواقـف الاجتماعية، وحواراته، والتأثير الناتج عن تفاعل هذه المـؤثرات جميعـا، تـأثير توجيه الآباء، والمربين، والإعـلام، والرفقـاء..إلـخ، وتـأثير دواعـي الحكمـة والتعقل والفطرة السليمة، وتأثير دواعي الصداقة.. هذه هـي البيئـة الثقافيـة

المربية التي يتشربها القلب، ويتفاعل معها حين يتعرض لها، فإذا تعرض لأي من هذه المؤثرات، وقبلها، حسب التسلسل الذي ذكرته عن ابن الجوزي، فإنه تتغير صفته وحاله، وينصرف إلى ما يدعو إليه هذا المؤثر أو ذاك، فيهتم به، ويريده، ويشتهيه، ويعزم عليه، ويتحرك إليه، لتمارسه الجوارح، فيتقلب القلب، وتتقلب معه الجوارح، وذلك بحسب المضمون الفكري والقيمي لهذه المؤثرات، فمرة يتقلب باتجاه داعي الخاطر الرحماني الديني الصحيح، داعي الخير، والبر، ومرة يتجه إلى داعي الخاطر الشيطاني.. داعي ما حرم الله في الفكر والخلق، والسلوك.. وهكذا.. يتربى القلب في الخير، أو في الشر.. بينما القلب في حالة صلاح، ونور، وحياة، إذ بمؤثر فاسد شيطاني، على شكل صورة، أو فكرة، أو خلق سيئ- يعرض للقلب، مزينا، مغريا، فيقبله، ويحبه، ويشتهي فعله، فيتحول- بقدر الله - إلى حال ظلمة، وفساد، وقسوة.. وقد يكون القلب في حالة إظلام، وقسوة وبعد عن الله، ومنهجه، فيتأمل آية كونية، أو آية قرآنية أو حديثا صحيحا، أو يفكر في نفسه، أو يستمع لفكرة فعالة، فيقبل ذلك، فيدخل نور ذلك في قلبه، وتهب عليه (رياح) الإيمان، والرقة، والرحمة، والخير.. فيتحول لذلك.

وهكذا يتحول القلب، ويتقلب بحسب رياح، أو ريح الدواعي التي تهب عليه من وسطه الثقافي، وبيئته المربية، الداخلية، أو المحيطة به، فيتعرض لها، ويتشربها، ويتقبلها، ويتمثلها، فيخلق الله في قلبه إرادة الخير، أو إرادة الشر.

وإذا كان الإنسان حريصا على السير إلى الله، والوصول بقلبه إليه، والعمل بإرادته الدينية، فإنه يتوجب عليه الحذر الدائم من أن يتقلب قلبه باتجاه المؤثرات التربوية الثقافية المضادة لمنهج الله، والعمل الدائم على تعريض قلبه للمؤثرات الثقافية التربوية المربية لإرادة الالتزام بمنهج الله، وهذا يتطلب (جهادًا) قلبيا، ونفسيا، وتوجها إلى الله الذي يقلب القلوب، ليصرفها إلى

المنهجية الإسلامية الصحيحة، ويثبتها على ذلك، ويصرفها على طاعته، فهو وحده، في البدء والمنتهى هو المالك لهذا والفاعل له.

وهذا هو موضوع الفصل القادم بعون الله.

رابعا: خاتمة واستنتاجات:

١- إن القلب سمي قلبا لتقلبه، فالتقلب خاصية محددة لهوية الجوانية الإنسانية.

٢- إن الخطاب النبوي يقرر هذه الحقيقة من خلال تمثيل القلب بِقِدْر يغلي، وبريشة في جذر شجرة في فضاء، تقلبها الرياح، أو الريح، وبعصفور يتقلب، وبقمر تغطية سحابة، أو تتجلى عنه، وكل هذا البيان النبوي يوضح أن القلب يتقلب سواء نحو الخير، أو نحو الشر.

٣- للتقلب أسباب وعوامل نفسية وثقافية، محسوسة أو غيبية، تسبب هذا التقلب، وهذه الأسباب والعوامل هي ما يكون البيئة الثقافية المؤثرة في القلب، المربية له، فتوجهه لوجهة الخير، أو لوجهة الشر.

٤- إن التقلب يعني تغير وصف القلب، وتحوله من وجهة لوجهة، ومن حال لحال، ومن فكرة لفكرة، ومن خلق لخلق، إيجابا أو سلبا، وذلك حسب طبيعة المؤثر الثقافي الموجه للقلب، وهدفه.

٥- إن من يريد أن ينصرف قلبه، ويتغير تغيرا إيجابيا نحو الإيمان والخير، والعمل الصالح، يلزمه أن يعرض قلبه للمؤثرات الثقافية المربية لهذه الوجهة، ويحمي نفسه من المؤثرات الثقافية الداعية للشر، والفاحشة والفساد، وهكذا فالفعل التربوي هو الإمكان الإنساني الذي يجعلنا نتخذ زمام القيادة لقلوبنا نحو الإيمان الفعال.

٦- إن الحقائق السابقة تشكل مبررا قويا للاهتمام بتربية القلب، تربية صحيحة، تحقق منظومة الأفكار والقيم الإسلامية الصحيحة المنتجة للخير،

والهداية ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد: ١٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١].

٧- فالله يقلب قلوبنا، ويصرفها على الهداية والتقوى، حين نهتدي نحن، ونغير عالم تصوراتنا، وأفكارنا، وعالم قيمنا، وعالم اتجاهاتنا وشهواتنا، وعالم عاداتنا، وتصرفاتنا، وعلاقاتنا، حين نتحول بذلك كله إليه، ونضبط ذلك كله بمنهجه، فإن فعلنا ذلك، غَيَّرَ الله ما بنا، وما بواقع مجتمعنا، فكما أنه مقلب القلوب، هو أيضا مقلب المجتمعات.

خامسا: أسئلة وتطبيقات لتعميق الفهم، وتسهيل الممارسة:

١- ما مفهوم تقلب القلب؟ وما طبيعته؟

٢- ما دلالة هذا التقلب بخصوص تربية القلب؟

٣- كيف يبين النبي ﷺ طبيعة هذا التقلب؟ حدد هذا البيان من خلال التشبيهات الأربعة المذكورة لتقلب القلب.

٤- ما العوامل المؤثرة في تقلب القلب؟ حدد طبيعتها من المنظار التربوي، وبين دلالتها التربوية.

٥- كيف تحدث تلك المؤثرات تحولا في القلب؟

٦- حلل خبرتك الذاتية بخصوص بعض التحولات القلبية التي حدثت لك: ما نوعها؟ ما اتجاهها؟ هل كانت تحولا للصلاح أم للشر؟ هل يحدث لك تحول يومي، من حب لكره؟ من غضب لحلم؟ من معرفة لجهل.. أو العكس؟... إلخ.

٧- استخلص - من دراستك للعهد المكي في السيرة النبوية - صورا لتقلب القلب: عمر بن الخطاب - عثمان بن مظعون - مثلًا - وعمرو بن العاص.

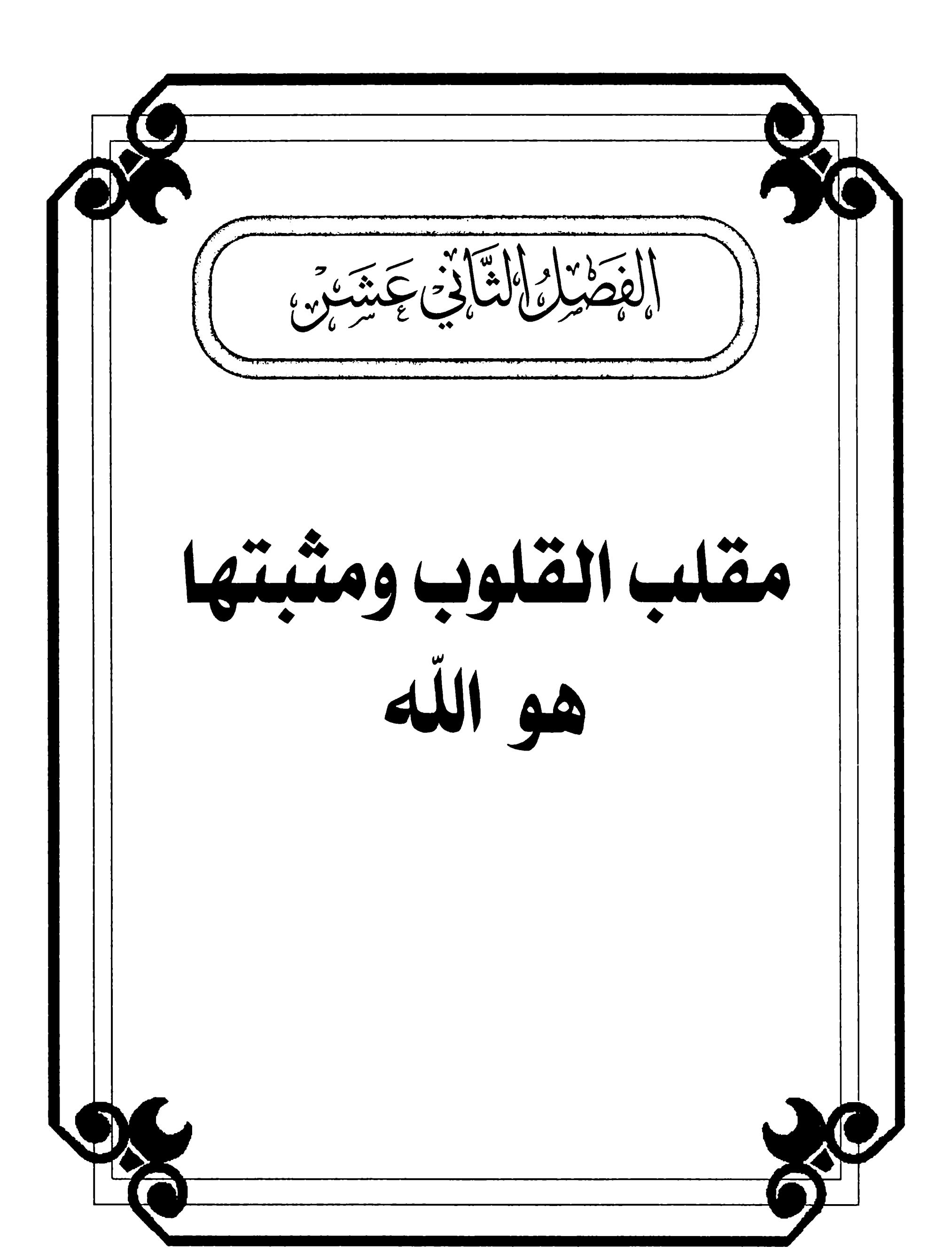
٨- طلب منك أن تنجز دورة تربوية لمعرفة خاصية تقلب القلب، وحسن

التعامل معها، حدد أهداف هذه الدورة، وأنشطتها المعرفية، والتعبدية، وضع نموذجا لتقويمها.

٩- كيف نحسن التعامل مع خاصية تقلب القلب، إيجابا، وسلبا؟ حدد أمثلة تربوية عملية لتشريب القلب تصورات وقيما وأفكارا فعالة صالحة.

١٠- أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**» (إسناده حسن، المسند، ج١٠، رقم ١١١٧٨، ص ٩٣ – ٩٤) ما دلالة هذا الحديث في موضوع الفصل؟

١١- ما نوع التقلب في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا، ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» (شرح مسلم، إكمال المعلم، ج١، رقم ١٨٦، ص ٤٠٥) هل يمكن أن يحدث تحول مضاد؟ كيف؟



الفصل الثّاني عشر

مقلب القلوب ومثبتها هو اللّه

مقلب القلوب ومثبتها هو الله

أتناول في هذا الفصل مجموعتين من الأحاديث النبوية الصحيحة، تقرران حقائق خاصة بتقليب القلب. واستجابة المؤمن لهذه الحقيقة.

أولا: المجموعة الأولى: الله يقلب القلوب ويصرفها:

أ- أخرج البخاري: في (باب: يحول بين المرء وقلبه) عن سالم عن عبد الله قال: كثيرًا ما كان النبي ﷺ يحلف: «**لا، ومقلب القلوب**»[1]. وأخرجه في (باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ) عن ابن عمر قال: كانت يمين النبي ﷺ: «**لا، ومقلب القلوب**»[2]. وأخرجه في كتاب التوحيد (باب: مقلب القلوب وقول الله- تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ عن سالم عن عبد الله قال: أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «**لا ، ومقلب القلوب**»[3].

وأخرجه الترمذي عنه، قال: كثير ما كان رسول الله ﷺ يحلف بهذه اليمين: «**لا ومقلب القلوب**»[4].

وأخرجه أحمد عنه بلفظ: أكثر ما كان رسول الله ﷺ يحلف بهذه اليمين، يقول: «**لا ومقلب القلوب**»[5].

ورواه بلفظ: «أكثر ما كان رسول الله ﷺ يحلف بهذه اليمين، يقول: «**لا ومقلب القلوب**»[6].

وأخرجه النسائي عنه قال: كانت يمين يحلف عليها رسول الله ﷺ: «**لا**

(١) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٦١٧، ص ٥١٣.
(٢) المصدر السابق ، رقم ٦٦٢٨، ص ٥٢٣.
(٣) المصدر السابق، ج ١٣، رقم ١٥٤٥، ص ١٨٨.
(٤) قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح. انظر : سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٥٤٥، ص ١٨٨.
(٥) قال شاكر : إسناده صحيح، المسند، ج ٤ رقم ٤٧٨٨، ص ٣٩٩.
(٦) إسناده صحيح، المسند، ج ٥، رقم ٥٣٤٧، ص ٢٨، ورواه أيضًا برقم ٥٣٦٨، ص ٣٨، وبرقم ٦١٠٩ وإسنادهما صحيح، ص ٣٧٨، ٣٧٩.

ومقلب القلوب»[٧].

ب-وأخرجه ابن ماجه عن ابن عمر؛ قال: كانت أكثر أيمان رسول الله ﷺ التي يحلف بها: «**لا ، ومصرف القلوب**»[٨].

وأخرجه ابن ماجه عن ابن عمر؛ قال: كانت أكثر أيمان رسول الله ﷺ: «**لا، ومصرف القلوب**»[٩].

وأخرج ابن أبي عاصم عن ابن عمر قال: كان أكثر أيمان النبي ﷺ: «**لا ، ومصرف القلوب**»، ورواه عنه بلفظ: كان يمين النبي ﷺ كثيرًا أسمعه، يقولها: «**لا ، ومقلب القلوب**»[١٠] .

جـ- يتبين من هذا الحديث بصيغتيه أن النبي ﷺ كان يحلف، أكثر ما يحلف بهذه اليمين: «**لا ومقلب القلوب**»، أو: «**لا ومصرف القلوب**». واليمين: هو المحلوف به، وكلمة: لا، لتوكيد القسم، أو لنفى ما تقدم من الكلام عليها، مثل أن يقال له: هل الأمر كذا، فيقول: «لا، ومقلب القلوب».

ويدل هذا اليمين، وكثرة حلف النبي به على ما يأتي:

١- قوله: «**مقلب القلوب، ومصرف القلوب**»: صفة من صفات الله- تعالى- صفة فعل من أفعاله، فهو موصوف بأنه مقلب، ومصرف القلوب، وتقليبها وتصريفها فعل من أفعاله. ونحن - نؤمن بهذه الصفة ونثبتها له، دون تأويل يصرف اللفظ عن معناه الظاهر، دون دليل، ودون حاجة، وبدون تشبيه، وبدون تكييف؛ فلا نسأل: كيف يقلبها؟ ودون تعطيل بل نثبت له ما

---

(٧) سنن النسائي، ج ٧، رقم ٣٧٦١، ص ٣.

(٨) المصدر السابق، رقم ٣٧٨- ٣٧٩.

(٩) قال الألباني: حسن، وهو في الصحيحة برقم (٢٠٩٠) انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ١٧١٥، ص ١٩٤.

(١٠) قال الألباني عن الأول: إسناده حسن، وعن الثاني: حديث صحيح، انظر: ابن أبى عاصم: كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة للألباني، ط٤ ، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، رقم ٢٣٤، ٢٣٥، ص ١١٩، ١٢٠.

أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ.

٢- في هذا الحديث دليل على «جواز تسمية الله- تعالى - بما ثبت من صفاته على الوجه الذي يليق به».

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «في الحديث جواز الحلف بأفعال الله، إذا وصف بها، ولم يذكر اسمه»[(١١)].

٣- الحلف بهذه اليمين سنة مؤكدة عن النبي ﷺ؛ لكثر ما كان يحلف بها.

د- ولماذا كان يحلف كثيرًا، بل أكثر ما سمعه ابن عمر يحلف بهذه اليمين؟

أقول - والله أعلم:

١- إن هذا راجع لقول النبي ﷺ: « **أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له**»، فهو أكثر البشر علمًا به سبحانه، فاطلع على عجيب فعل الله في قلوب الناس، وهو تقليبها وتصريفها، بين الهداية والضلال، والإيمان والكفر، والرحمة والقسوة، واللين والغلظة والشدة، والحب والبغض... إلخ .

فلكثرة شهوده ﷺ لهذه الصفة الإلهية، وأعاجيب فعل الله في قلوب الناس، انفعل بها، فكان كثيرًا ما يحلف بها، لشهود قلبه لها، وحضوره معها، فكان يعمل بمقتضى هذا العلم والشهود، يعمل بدلالة هذه الصفة، فيحلف بها كثيرًا، ويسأل الله أن يصرف قلبه على دينه، وطاعته، ويثبته على دينه .

كما سيأتي في المجموعة الثانية بعون الله .

٢- ولكثرة حلفه ﷺ بهذه الصفة دلالة تربوية؛ فكثرة الحلف بها،وكثرة سماع الصحابة لهذه الصفة، هو تعليم لهم بأن هذه صفة لله، تتطلب الوعي بها، والعمل بمقتضاها، إن كثرة ترديدها مع أسماع الصحابة، هو تربية لهم، ولكل مؤمن، على الحذر، إنه يريد أن ينبه قلوبهم إلى أن الله يقلب القلوب، ويصرفها،

---

(١١) فتح الباري، ج ١١، ص ٥٢٧ .

حتى يحذروا أن يقلب قلوبهم على حال لا يرضاه، فيتوجهوا إلى الله ليرزقهم الإيمان الذي يحبه، ويفتح قفل القلب له .

وهذا قد حدث للصحابة عندما سمعوه يكثر من دعاء: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**» كما سيأتي.

إذا، كثرة حلف النبي ﷺ بهذه اليمين يدل على أنه كان يتعبد لله بهذا الحلف، وكان يربى أصحابه بكثرة إسماعهم لها. فعلموا أنها صفة لله، وعملوا بمقتضى الإيمان بها ، وهو الحذر، والخشية، والتوجه إلى الله.

هـ- وما معنى تقليب الله للقلوب، وتصريفه لها؟

١- ترجم الإمام البخاري لهذا الحديث، وصدره بقول: (باب: يحول بين المرء وقلبه) أي: أن البخاري يشير إلى أن التقليب في الحديث يعنى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال السُّدّي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه، أي: بمشيئته ا.هـ، والقلب موضع الفكر، وهو بيد الله، واختيار الطبري: أن يكون ذلك إخبارا من الله- عز وجل- بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يدرك الإنسان شيئًا إلا بمشيئة الله- عز وجل(١٢).

وقال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله(١٣).

قال ابن حجر: «كأنه أشار إلى تفسير الحيلولة التي في الآية بالتقليب الذي في الخبر، أشار إلى ذلك الراغب، وقال: المراد أنه يلقى في قلب الإنسان ما يصرفه عن مواده؛ لحكمة تقتضى ذلك، (...) قال ابن بطال ما حاصله: مناسبة حديث ابن عمر للترجمة: أن الآية نص في أن الله خلق الكفر والإيمان،

---

(١٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، ج ٧ ، ص ٣٩٠- ٣٩١ .

(١٣) الشوكاني: فتح القدير، ج ٢، ص ٤٣٢.

وأنه يحول بين قلب الكافر وبين الإيمان الذي أمره به، فلا يكسبه إن لم يقدره عليه، بل أقدره على ضده، وهو الكفر. وكذا في المؤمن؛ بعكسه، فتضمنت الآية أنه خالق جميع أفعال العباد؛ خيرها وشرها. وهو معنى قوله: «مقلب القلوب» ؛ لأن معناه: تقليب قلب عبده: من إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر، وعكسه، قال: وكل فعل الله عدل فيمن أضله وخذله؛ لأنه لم يمنعهم حقًا وجب لهم عليه»(١٤).

ويضيف ابن حجر: «وفى الحديث دلالة على أن أعمال القلب من الإرادات والدواعي وسائر الأعراض: بخلق الله - تعالى»(١٥).

فالله- تعالى - يلقي داعية الفعل في القلب، أو داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل حصل الفعل، وداعية الترك حصل الترك(١٦).

وفى كتاب (الأسماء والصفات) تعليل لتخصيص القلوب بالذكر، فحكي عن أبى حاتم الخطيب قوله: «وفائدة تخصيصها بالذكر أن الله- تعالى- جعل القلوب محلًا للخواطر والإرادات والعزوم والنيات، وهم مقدمات الأفعال، ثم جعل سائر الجوارح تابعة لها في الحركات والسكنات، ودل بذلك على أن أفعالنا مقدورة لله- تعالى- مخلوقة، ولا يقع شيء دون الله وإرادته»(١٧).

فالله يقلب القلوب بخلق دواعي الأفعال، ودواعي الترك في القلوب، فالأفعال القلبية مخلوقة لله، والإنسان يفعلها، ويكتسبها باختياره، الذي لا يخرج عن مشيئة الله التكوينية.

٢-كما ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب: مقلب القلوب وقول الله تعالي: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فهو يفسر الحديث بالآية،

---

(١٤) ابن حجر : فتح الباري، ج ١١ ، ص ٥١٤.
(١٥) المصدر السابق، ص ٥٢٧.
(١٦) ابن القيم : شفاء العليل..ص ٢٢٧.
(١٧) البيهقي: كتاب الأسماء والصفات ، ص ٤٢٨- ٤٢٩.

قال في الفتح: «قال الراغب: تقليب الشيء: تغييره من حال إلى حال، والتقليب: التصرف، وتقليب الله القلوبَ والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي. وقال الكِرْماني: (...) ويستفاد منه: أن أعراض القلب؛ كالإرادة، وغيرها، بخلق الله تعالى، وهي من الصفات الفعلية، ومرجعها إلى القدرة (...) ومعنى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾: نصرفها بما شئنا (...) فمعنى الحديث: «أن الله يتصرف في قلوب عباده بما شاء، لا يمتنع عليه شيء منها ولا تفوته إرادة»[١٨] .

ويقول أبو جعفر الطبري في تفسير آية ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾: «وأَوْلَى التأويلات في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن هؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها: أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم، ويصرفها كيف شاء، وأن ذلك بيده، يقيمه إذا شاء، ويزيغه إذا أراد، وأن قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دليل على محذوف من الكلام، أي: قوله: كما، تشبيه ما بعده بشيء قبله.

فإذا كان ذلك كذلك، فالواجب أن يكون الكلام ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾: فنزيغها عن الإيمان، وأبصارهم، عن رؤية الحق ومعرفة موضع الحجة، وإن جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسوله، وما جاء به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليبنا إياها قبل مجيئها مرة، قبل ذلك»[١٩].

٣- والمقصد أن الله يقلب القلوب، ويغيرها، وأن معنى تقليبه للقلوب: أنه يغير أحوالها، وإراداتها، ويلقى فيها ما يريد من خواطر ودواعي الإيمان أو الزيغ والضلال، وهذه إرادته الكونية، سبحانه ، دون أن يجبر أحدًا على شيء، فهناك أسباب وعوامل تؤثر في القلب، والإنسان يقبل أو يرفض ، ويفعل أو لا يفعل، فإذا قبل فإن الله يخلق في قلبه داعي القبول أو الرفض.. فالله خالق

(١٨) ابن حجر : فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٧٧.
(١٩) تفسير الطبري : جامع البيان، ج ١٢، ص ٤٥.

دواعي الإيمان، ودواعي الكفر، وخالق إرادة الخير، وإرادة الشر. وهذا ليس فيه أي إجبار للإنسان، فإيمان الإنسان بالله راجع لاختيار المؤمن، لكن الله وفقه لذلك، وخلق داعي الإيمان في قلبه. والكافر اختار الكفر، ورضيه بحريته، فخلق الله داعي الكفر في قلبه.

والحقيقة التي نريد تقريرها الآن هي: أن الله - فعلًا - هو مقلب القلوب، كما سنزيدها في الفقرة التالية.

والمطلوب: هو تذوق هذه الحقيقة، فقلوبنا يقلبها الله، فماذا يجب علينا أن نفعل؟

ثانيًا: المجموعة الثانية والثالثة: القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك:

أ -أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب، صَرِّف قلوبنا على طاعتك**»[٢٠].

ورواه البيهقي في الأسماء والصفات، وفيه: «**صرف قلوبنا إلى طاعتك**»[٢١].

ورواه الطبري بلفظ: «**إن قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرف كيف يشاء**»، ثم يقول رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صَرِّفْ قلوبنا إلى طاعتك**»[٢٢]. ورواه ابن أبى عاصم عنه، بلفظ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلب،**

---

(٢٠) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، رقم ٢٦٥٧ ، ص ١٤٢.

(٢١) البيهقي: الأسماء والصفات، ص ٤٢٨، ورواه الطبري اللالكائي: انظر : أبا القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الأول، تخريج نشأت بن كمال المصري، دار البصيرة، إسكندرية، رقم ٧١٠، ص ٣٤٧.

(٢٢) الطبري : جامع البيان.. مجلد ٣ ، ج ٣ ، ص ٢٣٢، حديث رقم ٥٢٣٢.

ويصرف، كيف شاء»(٢٣). ورواه أحمد وفيه: « **اللهم مصرف القلوب، اصرف قلوبنا إلى طَاعَتِكِ**»(٢٤).

ب- وأخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك؛ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**». فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله، أتخاف علينا، وقد آمنا بك، وبما جئت به ؟ قال: «**إن القلوب بيد الله- عز وجل- يقلبها**»(٢٥).

وفى لفظ: قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: «**نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها**»(٢٦).

وأخرجه ابن أبى شيبة عن أنس: قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». قالوا: يا رسول الله، آمنا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها**»(٢٧).

وأخرجه الترمذي عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول مثله، وفى آخره: فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله**

---

(٢٣) وقال الألباني: حديث صحيح وإسناده حسن، وانظر باقي التخريج في: الحافظ أبى بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني : كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم محمد ناصر الدين الألباني ط ٤ ، المكتب الإسلامي، بيروت..، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، حديث رقم ٢٢٢، ص ١١٤ – ١١٥.

(٢٤) إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٥٦٩، ص ١٤١ – ١٤٢، والحديث صححه الألباني، انظر: صحيح الجامع، مجلد ١، ط٣، رقم ٢١٤١، ص ٤١٩، وفي السلسلة الصحيحة برقم ١٦٨٩.

(٢٥) حديث صحيح، وإسناده فيه ضعف، لكنه متابع، فصح الإسناد، وانظر: المسند ج ١١، رقم ١٣٦٣٠، ص ٢٥٠ وكتاب السنة، حديث رقم ٢٢٥، ص ١١٦.

(٢٦) إسناده صحيح، توبع عليه، المسند، ج ١٠، رقم ١٢٠٤٦، ص ٣٦٠.

(٢٧) قال الألباني : هذا إسناد صحيح على شرط مسلم، انظر: كتاب الإيمان لابن أبى شيبة، رقم ٥٥، ص ١٧٠، هامش رقم ٤٧.

يقلبها كيف يشاء». وهذا حديث حسن(٢٨).

وأخرجه ابن ماجه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**اللهم، ثبت قلبي على دينك**» فقال رجل: يا رسول الله، تخاف علينا، وقد آمنا بك، وصدقناك بما جئت به؟ فقال: «**إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، عز وجل، يقلبها**» وأشار الأعمش بإصبعيه(٢٩).

وأخرجه الطبري في التفسير قال: «كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقول: **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**. قلنا: يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقنا بما جئت فتخاف علينا؟ قال: **نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها تبارك وتعالى**»(٣٠). ورواه البخاري في الأدب المفرد بلفظ: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك**»(٣١).

جـ- أخرج الترمذي وأحمد عن أبى كعب صاحب الحرير قال: حدثني شَهْر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: «يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاءِ رسول الله ﷺ إذا كان عندكِ؟ قالت :كان أكثر دعائه: «**يا مقلب القلوب ثبّتْ قلبي على دينك**». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»؟ قال: «**يا أم سلمة، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ**» فتلا معاذٌ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.. قال: هذا حديث حسن(٣٢). هذا لفظ الترمذي.

وأخرج أحمد في المسند والطبراني في الكبير، والطبري في التفسير، وابن

---

(٢٨) سنن الترمذي، ج٤، رقم٢١٤٧، ص٥٥.

(٢٩) قال الألباني : صحيح. صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣١٠٧ ص ٢٥٤- ٢٥٥.

(٣٠) الطبري: جامع البيان، ج٣، رقم ٥٢٢٩، ص٢٣١، ورواه الحاكم، وصححه هو والذهبي.

(٣١) قال الألباني : صحيح، انظر: الأدب المفرد، رقم ٦٨٣، ص ٢٣٥.

(٣٢) سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٥٣٣، ص ٣٠٩- ٣١٠؛ وفى المسند: «قال عبد الله: سألت أبى عن أبي كعب، فقال : ثقة ، واسمه عبد ربه بن عبيد»، المسند ج ١٨، رقم ٢٦٥٥٨، ص ٢٩٥ - ٢٩٦. وإسناده حسن، ورواه ابن أبى شيبة : كتاب الإيمان، رقم ٥٦، ص ١٧ -١٨، وقال الألباني: صحيح، انظر : صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢ ، ط ٣، رقم ٤٨٠١ ص ٨٧١.

خزيمة في التوحيد، وهذا لفظ أحمد، عن شهر بن حوشب قال: سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن يقول: «**اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» قلت: يا رسول الله، أَوَ إن القلوب لتتقلب، قال: «**نعم، ما مِنْ خلق الله من بني آدم، من بشر، إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإن شاء الله عز وجل أقامه، وإن شاء الله أزاغه، فنسأل الله ربنا ألاَّ يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب**» قالت: قلت يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسِي؟ قال: «**بلى، قولي: اللهم رب محمد النبي اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتنا**»(٣٣).

وفى المعجم الكبير كذلك وفيه: «**ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله(...)**»، وليس فيه: «**ما أحييتنا**»(٣٤). وفي تفسير الطبري: «**إن القلب ليقلب ؟ قال: نعم..**»(٣٥) الحديث.

وأخرجه ابن أبي عاصم عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أم سلمة، ما من آدمي أو حي إلا قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن، ما شاء أقامه، وما شاء أزاغه**»(٣٦).

---

(٣٣) إسناده حسن، المسند، ج ١٨ رقم ٢٦٤٥٥ص ٢٦٦- ٢٦٧، وقال شاكر : إسناداه صحيحان، انظر : أحمد شاكر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، ج ١، ص ٣١٧، هامش رقم (١) وأخرجه الطبري؛ أرقام ٦٦٥٠ - ٦٦٥٢، ٦٦٥٨ بتفصيل وقال شعيب الأرنؤوط : « بعضه صحيح بشواهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وبقية رجاله رجال الشيخين»، المسند، حديث رقم ٢٦٦١٨ بتحقيق الأرنؤوط .

قلت : شهر ليس فيه سوى أنه سيئ الحفظ، وحديثه حسن في الشواهد، وصحح له أحمد شاكر.

(٣٤) الطبراني: المعجم الكبير، مصدر سابق، مجلد ٢٣، رقم ٧٨٥، ص ٣٣٨.

(٣٥) الطبري : جامع البيان، ج ٣ ، رقم ٥٢٢٧، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

وانظر : محمد بن إسحق بن خزيمة: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، مصدر سابق، ص ٨١ إلى قوله : «إنه هو الوهاب» .

(٣٦) قال الألباني : حديث صحيح، رجال إسناده ثقات، غير شهر بن حوشب، فإنه سيئ الحفظ، ولا بأس به في الشواهد. انظر: كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة، رقم ٢٢٣، ص ١١٥.

وأخرج أحمد والطبراني في الكبير وابن أبى عاصم عن أم سلمة، أن النبي ﷺ كان يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»(٣٧).

د- وأخرج أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك**»، فقيل له: يا رسول الله – قال عفان: فقالت له عائشة: إنك تكثر أن تقول:«**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك وطاعتك**». قال: «**وما يؤمننى، وإنما قلوب العباد بين أصبعي الرحمن، إنه إذا أراد أن يقلب قلب عبد قلبه**»، قال عفان: بين أصبعين من أصابع الله- عز وجل(٣٨).

وأخرجه ابن أبى عاصم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، فإذا أراد أن يقلب قلب عبد قلبه**».

ورواه عنها بلفظ آخر، وفيه: قلت: يا رسول الله، إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فهل تخاف؟ قال: «**نعم، وما يؤمنني، أي عائشة، وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن**» .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» قلت: يا رسول الله، إنك لتدعو بهذا الدعاء؟ قال: «**يا عائشة، أوَ ما علمتِ أن قلب ابنِ آدم بين إصبعي الله، إذا شاء أن يقلبه إلى هدى قلبه، وإن شاء أن يقلبه إلى ضلالة قلبه**»(٣٩).

---

(٣٧) إسناده حسن، المسند، ج ١٨، رقم ٢٦٣٩٩، ص ٢٤٧ والطبراني: المعجم الكبير ج ٢٣، رقم ٧٧٢، ص٣٣٤. وقال محققه: وله شواهد كثيرة، وقال الألباني: حديث صحيح، انظر: كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة، رقم ٢٣٢، ص ١١٨ – ١١٩ بلفظ: «إن أكثر دعاء رسول الله..» وانظر الطبري، البيان، ج٦ من طبعة دار المعارف، رقم ٦٦٥٠، ص٢١٣، وقال شاكر: هذا إسناد صحيح، يعني: إسناد الطبري، وفيه بعد الدعاء: ثم قرأ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا...﴾ إلى آخر الآية.

(٣٨) إسناده حسن، المسند، ج ١٨، رقم ٢٦٠١١ ص ١٤٣، وصححه الألباني، بشواهده، كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة رقم ٢٢٤ ص ١١٥، رقم ٢٣٣، ص ١١٩، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ وهما الحديثان التاليان في المتن.

(٣٩) كتاب الإيمان، وسكت عنه الألباني، رقم ٥٧، ص ١٨ .

هـ- أخرج ابن ماجه عن النواس بن سمعان الكِلابي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**».

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك**».

قال: «**والميزان بيد الرحمن، يرفع أقوامًا، ويخفض آخرين، إلى يوم القيامة**»(٤٠).

وفى التوحيد لابن خزيمة عنه بلفظ: «**ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الله تعالى، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**»، وكان رسول الله ﷺ يقول: **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، والميزان بيد الرحمن يخفض ويرفع**»(٤١).

وأخرجه أحمد عنه بلفظ: «**ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين..**»(٤٢).

وأورده الألباني في صحيح الجامع بلفظ: «**ما من قلب إلا وهو معلق بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، والميزان بيد الرحمن...إلخ**»(٤٣).

وأخرجه ابن أبى عاصم عنه بلفظ: «**ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه**»(٤٤).

---

(٤٠) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١٦٦، ص ٨٦، وأخرجه الطبري في جامع البيان، ج ٣، رقم ٢٣٠، ص ٢٣١.

(٤١) ابن خزيمة: كتاب التوحيد، ص٨٠ ورواه البيهقي في الأسماء والصفات، مع تقديم وتأخير، ص ٤٢٨، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، ص ١٥٢.

(٤٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٥٦٢، ص ٤٤٤.

قلت : هذا حديث صحيح، صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأخرجه الآجري في الشريعة.

(٤٣) الألباني: صحيح الجامع الصغير .. مجلد ٢ ، ط ٣، رقم ٥٧٤٧، ص ١٠٠٢.

(٤٤) كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة، للألباني، وصححه، رقم ٢١٩، ص ١١٣.

وأخرج أيضًا عنه قال: « كان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»(٤٥).

و- أخرج الطبراني في الكبير والطبري في التفسير عن سَبْرة بن فاتك الأسدي وكان من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**الموازين بيد الله، يرفع أقوامًا ويضع أقوامًا، وقلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أزاغه، وإن شاء أقامه**»(٤٦).

ورواه ابن أبى عاصم بلفظ: «**قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه**»(٤٧).

ز- من كل الروايات الحديثية الصحيحة السابقة نخرج بالحقائق والمفهومات العقدية الآتية:

١-إن كل قلب من قلوب بني آدم يتقلب ويتحول ويتصرف من هدى إلى ضلال، ومن إقبال على الله إلى بعد عنه، وهكذا فالقلوب تتقلب. إن الذي يقلب ويصرف، ويهدى، ويضل، ويقيم على الحق، ويزيغ ويميل إلى الباطل، هو الله، وهذا هو صريح قول الرسول ﷺ الذي يقرر «**أن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها**»، فالقلوب معلقة بين إصبعين من أصابع ربنا عز وجل، وقد عرفنا سابقًا معنى التقليب والتصريف.

٢- إن هذه الأحاديث تثبت صفة من صفات ذات الله- تعالى- وهى أن له - جل وعلا - أصابع، ويدا، وأن القلوب بين إصبعين من أصابعه، وبيده، ونحن نؤمن بهذا، ونثبته له، دون تأويل، ودون تشبيه، فإنه

---

(٤٥) قال الألباني: حديث صحيح، انظر: المصدر السابق، رقم ٢٣، ص ١١٨.

(٤٦) هذا لفظ الطبري، في جامع البيان، ج ٣، رقم ٥٢٣١، ص ٢٣٢، وانظر : الطبراني: المعجم الكبير، ج ٧، رقم ٦٥٥٧، ص ١١٧، قال محققه حمدي السلفي: « قال في المجمع (٧/ ٢١١): ورجاله ثقات».

(٤٧) قال الألباني : حديث صحيح ،.. السنة ومعه ظلال الجنة، رقم ٢٢٠، ص ١١٣ ، ١١٤.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ودون تعطيل ودون تكييف ودون تمثيل . ونُمِرّ الحديث على ظاهره، ولا نعلم كيفية ذلك ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾، ونؤمن مع ذلك أن الله تعالى هو الذي يهدى القلوب، ويقيمها على الحق، أو يضلها، ويقيمها على الضلال، فقد شاء ذلك ، وقدره، وهذا يلقى علينا مسؤولية خطيرة نحو قلوبنا، فإذا كان الله هو الذي يختم على القلوب ويطبع عليها، كما سيأتي مفصلا، فإن الله- تعالى- قد أمكننا من أن نتخذ الأسباب لفتح القلوب، لهداياته عز وجل، وهذا قانون تربوي، سيأتي مفصلا بعون الله .

٣-إن النبي ﷺ كان يخاف على نفسه وكان يخاف على أصحابه، من تحول القلوب وتقلبها، كما صرح في الأحاديث السابقة، فالقلوب لا تكف عن الحركة، والعمل، فإن لم تعمل في رضا الله، فإنها - عائذًا بالله من ذلك - تعمل في سخطه، فكان النبي ﷺ يخاف على نفسه، وعلى أصحابه من أن يزيغ الله القلوب، أي: يميلها، ويحرفها عن الهدى، ويسلبها الإيمان به، بعد أن أعطاهم هذا الإيمان ، فإن الله (إذا أراد أن يقلب قلب عبد قَلَبَه) .

يقول ابن حجر: «وفى دعائه ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» إشارة إلى شمول ذلك للعباد، حتى الأنبياء، ورفع توهم من يتوهم أنهم يستثنون من ذلك، وخَصَّ نفسه بالذكر؛ إعلامًا بأن نفسه الزكية إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجأ إلى الله سبحانه، فافتقار غيرها، ممن هو دونه – أحق بذلك»(٤٨).

٤- إن النبي ﷺ ، إدراكا منه لحقيقة هذا التصور القلبي العقدي، وهو أن القلوب تتقلب، ولا تكف عن الحركة ، والفعل ، والتحول ، وأن الله هو الذي يقلبها، ويصرفها ، فهي معلقة بيده، سبحانه، إدارِكًا، ووعيًا حيًّا لهذا التصور-

(٤٨) ابن حجر : فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٧٧.

فإنه ﷺ ترجم خوفه من هذا التقلب، ومن فعل الله في القلوب، إلى أدعية وتضرعات لله، الذي بيده هذا القلب، كان يدعو بها كثيرًا، وكما ذكر الصحابة- رضي الله عنهم- في الأحاديث السابقة، وخصوصًا أم سلمة، وعائشة، وأنس ﷺ ، ونحن أولى بهذه الدعوات والتضرعات:

- **اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**، وفي رواية: **اصرف قلوبنا إلى طاعتك** .

- **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.**

- **اللهم ثبت قلبي على دينك.**

- **اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.**

- **اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.**

- **نسأل الله ربنا أن لا يزغ قلوبنا بعد إذا هدانا...**

- **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك .**

- **يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك.**

- **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**، ثم قرأ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] .

وهذه الدعوات والتضرعات هي الفعل السديد من كل قلب يؤمن بأن الله يقلب القلوب، ويقيمها، ويزيغها، ويثبتها، فهذا هو الفعل الإيماني المرغوب المنشود من المؤمن بهذا التصور، الفعل الإيماني هنا هو: التضرع إلى الله أن يثبت قلوبنا على الإيمان، وأن لا يصرفها عن هدايته.

يقول الطبري في تفسير الدعاء السابق: «يا ربنا لا تجعلنا مثل هؤلاء الذين زاغت قلوبهم عن الحق، فصدوا عن سبيلك، ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾: لا تملها، فتصرفها عن هداك، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ له، فوفقتنا للإيمان لمحكم كتابك ومتشابهه، ﴿وَهَبْ لَنَا﴾

يا ربنا ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ يعنى: من عندك رحمة، يعنى بذلك: هب لنا من عندك توفيقًا وثباتًا للذي نحن عليه من الإقرار بمحكم كتابك ومتشابهه؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾؛ يعنى: إنك أنت المعطي عبادك التوفيق والسَّدَادَ، للثباتِ على دينك، وتصديق كتابك ورسلك..»(٤٩). ثم قال الطبري: «إن عدلًا من الله- عز وجل- إزاغة من أزاغ قلبه من عباده عن طاعته، فلذلك استحق المدحَ مَنْ رَغِب إليه في ألاَّ يزيغه؛ لتوجيهه الرغبة إلى أهلها، ووضعه مسألته موضعها»(٥٠).

ويقول ابن كثير: «أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتَها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ..ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيمانًا وإيقانًا؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾»(٥١).

ويقول سيد قطب(٥٢): «هذا هو حال الراسخين في العلم مع ربهم، وهو الحال اللائق بالإيمان، المنبثق من الطمأنينة لقول الله ووعده، والثقة بكلمته وعهده، والمعرفة برحمته وفضله؛ والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم، وقدره المغيب؛ والتقوى والحساسية واليقظة التي يفرضها الإيمان على قلوب أهله، فلا تَغْفُل، ولا تغتر، ولا تنسى في ليل أو نهار .

والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال، قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش، قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة، قيمة الطمأنينة للحق بعد الأرجحة ، قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبودية لله وحده، قيمة الاهتمامات الرفيعة الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة، .. ويدرك أن الله

(٤٩) الطبري: جامع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٩، ٢٣٠ بالتوالي (ط . دار الفكر).
(٥٠) المصدر السابق نفسه.
(٥١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٤٨.
(٥٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٣٧٠ – ٣٧١.

منحه بالإيمان كل هذا الزاد .. ومن ثم يشفق من العودة إلى الضلال، كما يشفق السائر في الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التخبط في المنعرجات المظلمة، وكما يشفق من ذاق نداوة الظلال أن يعود إلى الهجير القائظ، والشواظ، وفى بشاشة الإيمان حلاوة لا يدركها إلا من ذاق جفاف الإلحاد وشقاوته المريرة(...) ومن ثم يتجه المؤمنون إلى ربهم بذلك الدعاء الخاشع: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (...) وهم - بوحي إيمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا بفضل الله ورحمته، وأنهم لا يملكون قلوبهم، فهي في يد الله».. فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة».

٥-إن الصحابة الذين استمعوا لهذه التصورات الإيمانية، والدعوات الضارعة لله، مالك القلوب ، انفعلوا بها، وتنبهوا إلى أن النبي ﷺ يخاف على نفسه، وعليهم، من تقلب القلوب، وتقليب الله لها، فسألوه: هل يخاف، ويخاف عليهم، فقال: نعم، وبين سبب هذا الخوف وهو أن القلوب بيد الله ، فهو مالكها، والمتصرف فيها، وإذا شاء أن يقلب قلب إنسان، قلبه نحو الضلال أو نحو الهدى، كيف شاء: إن شاء نحو الهدى، فيقيمه عليه، ويثبته، ويصرفه على طاعته، وإن شاء العكس، فيحول بينها وبين الإيمان والطاعة، ويثبتها على النفاق أو المعصية، أو الشرك والضلال، وأن الله - بعدله وحكمته- يخفض أقوامًا، ويرفع آخرين. وأن فاعلية الله في القلوب قائمة إلى يوم القيامة.

فالنبي ﷺ قرر هذه الحقائق في وعى أصحابه، ليدركوها إدراكًا صحيحًا، ليتضرعوا - معه - إلى الله، ألاَّ يزيغ قلوبهم، وأن يثبت قلوبهم على دينه، وأن يصرفها إلى وعلى طاعته، وأن يجيرهم من مضلات الفتن ، طول حياتهم كما عَلَّمَ أم سلمة رضي الله عنها .

٦- فالمؤمن يدخل في تصوراته القلبية الصحيحة هذه المفهومات:

- القلب يتقلب - الذي يقلب القلوب هو الله: الذي يقيمها على الحق، أو يزيغها عنه، والذي يثبتها على الهوى، أو على الضلال، والذي يصرفها إلى الطاعة أو إلى المعصية.

- الله هو مالك القلب وخالق الإيمان والهدى فيه ، أو خالق الكفر والمعصية فيه ، وهو الذي يشاء ذلك، فقلب الإنسان- في الحقيقة- ليس ملكه، ليس بيده ، وإنما هو بيد الله، فمحمد بن سيرين يقول: «إن قلبي ليس بيدي»(٥٣). وهكذا قال الأعمش: «ليس قلبي في يدي»(٥٤).

ويقول مطرف بن عبد الله: «لو أخرج قلبي فوضع في يدي هذه اليسار، وجيء بالخير فجعل في هذه اليمني، ما استطعت أن أولج (أُدْخِلَ) قلبي منه شيئًا، حتى يكون الله تعالى يضعه»(٥٥).

- وما دام القلب ملك الله، وبيده، والمتصرف فيه ، فالمؤمن بالله ، يتجه إليه ويتضرع له أن يثبته على الإيمان بدينه، ويصرف قلبه على العمل به، وأن يوفقه دائما، وأن يقبل بقلبه إليه.

إذًا، هذه الأحاديث تقرر جملة تصورات صحيحة عن قلب الإنسان، فالله له المشيئة المطلقة عليه، يهدى من يشاء فيقيمه على الدين القويم، ويضل من يشاء فيزيغ قلبه عنه، وليس في هذا الأصل أي إكراهٍ للإنسان، فالإنسان أيضًا له مشيئة على قلبه، والذي يزيغ الله قلبه هو الذي اختار بحريته، هذا الزيغ، فالله يهدي ويضِل، ويقيم ويزيغ دون ظلم لأحد، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فالذي يختار طريق الصواب في الفكر والاعتقاد والخلق،

---

(٥٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٥ ، دار الفكر ١٤١٤هـ - ١٩٩٤هـ - ١٩٩٤م ، ص ٢٤٢.

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٢٩٩.

(٥٥) أبو نعيم : حلية الأولياء، ج١، ص ٢٠١.

والسلوك، ييسره الله لذلك، والعكس صحيح فهذا بقضائه وإرادته، وهذا بقضائه وقدرته، ولا يظلم ربك أحدا [٥٦].

٧-إن لفظ: «**ثَبّت قلبي على دينك**» ولفظ: «**يا مثبت القلوب**» يدلان بوضوح، على أن الله كما أنه يقلب القلوب، ويصرفها، فهو أيضًا (يثبتها): أي يجعلها راسخة ثابتة لا تتزعزع، ولا تؤثر فيها عوامل الإمالة، والتجريف، والتحريف، فهو الذي (يثبت) القلوب؛ يمكنها في الإيمان، ويرسخها في الخير، أو يثبتها في الكفر أو الخطأ، أو النفاق، هذا هو تصور المؤمن بالله- لقلبه، ولفعل الله فيه، ولهذا ورد الدعاء النبوي السابق بلفظ (التثبيت) ست عشرة مرة، وبلفظ (التصريف) أربع مرات، فالمؤمن بالله- عز وجل- إذا دعا وتضرع بهذا الدعاء، وقدم، وفعل، أسباب التثبيت القلبية والحركية: من الإيمان وفعل مقوياته،ومنمياته وهى فعل واجبات الإيمان، بالمسارعة إلى الخيرات والطاعات، والبعد عن المعاصي، فإن الله يثبت الإيمان في قلبه، ويقيم قلبه على الطاعة لله، ويختم له بذلك؛ لأن قلبه نمت فيه شجرة الإيمان، ورسخت، جذورها، وفَرَّعت للأعلى، وأثمرت فكانت كالنخلة لا تقلبها الريح. وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

فالمؤمن - الذي يريد أن يُثبت الله قلبه على الإيمان والطاعة والخير- مطلوب منه أن يربي شجرة الإيمان في قلبه، أي: أن يغرس الإيمان في قلبه ، يدخله في القلب، ويرسخه فيه، ويرويه، ويغذيه بالعلم النافع، والعمل الخير الصالح، ويرعاه، ويحميه من الآفات والمعوقات ، ويستمر على ذلك حتى يكبر ويعلو ، ويتفرع ، ويترعرع، ويزهر، ويثمر، كل أفعال وأقوال الخير التي تصعد إلى الله، وتنفع وتمكث في الأرض .

---

(٥٦) انظر تفصيل ذلك: في ابن القيم : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المكتبة التوفيقية، ص ١٢٠، ١٨١ - ١٩٠، ٢٠٧، ٢٤٧، ٢٩٨.

فحقيقة أن القلوب بيد الله، لا تعني تجريد المؤمن من الفعل والإرادة، إرادة الإيمان وتربيته، وفعل الخير بإرادته، وإنما تعنى أن الله من وراء فعل كل فاعل، ومن وراء صنعة كل صانع، وأنه خالق الخير والشر، والهادي والمضل، لأنه أراد ذلك إرادة كونية قدرية، وعلم ذلك، وخلق القلب الإيماني على ذلك، فمن فعل الخير فبتوفيق الله وإرادته، ومن فعل الشر فبخذلان الله، وإرادته ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

إذا، مع أن القلوب بيد الله، فإن الإنسان بيده أن يختار نوع القلب، ونوع العمل الذي يريده.

ونتأمل في قول ابن مسعود: «لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ويثبت البر في قلبه، ولا يكون للفجور في قلبه موضع إبرة ليستقر فيها، ألا وإياكم والكذب(...) ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا، ويستقر الفجور في قلبه، فلا يكون في قلبه موضع إبره ليستقر بها»(٥٧).

فالصدق بكل معانيه القلبية واللسانية والعملية طريق لتثبيت البر في القلب، وفي إمكان الإنسان أن يختاره وأن يفعله، فإذا فعله فإن الله يعطيه البر في قلبه.

ثالثا: خاتمة واستنتاجات:

من هذا الفصل نخلص إلى الحقائق الآتية:

١- القلب يتقلب، ويتحول ، ويتغير من حال إلى حال، وأن الذى يقلب القلوب، ويحولها، ويصرفها، إلى الطاعة أو المعصية، إلى الحق أو الضلال، هو الله، مقلب القلوب .

---

(٥٧) الطبراني : المعجم الكبير، مجلد ٦، رقم ٨٥٢٧، ص ٩٩.

٢- إن القلب- كل قلب- هو بيد الله، يصرفه، ويقلبه، كيف شاء، فالقلب الإنساني ملك لله وحده، إن شاء أقامه على الحق، وصرفه إلى الطاعة، وثبته على الدين، وإن شاء فعل به غير ذلك، وهذا يعنى أن المصدر الأعلى لحركة القلب هو بيد الله، فمفاتيح القلوب بيد الله، إن شاء فتح قفل القلب بالإيمان والبر، وإن شاء ختم على القلب، وأغلقه، وغلّفه، وجعل عليه حجابا ، وطبع عليه فلا يعلم ولا يقبل ولا يؤمن ولا يهتدي.

وهذه حقيقة كبرى كان النبي ﷺ يدركها تماما ، ويعلمها لأصحابه، وينفعل بها، ففي سنن ابن ماجه عن جابر - من حديث وفيه: «ثم أقبل بوجهه للأفق» ثم قال: «**اللهم أَقبل بقلوبهم** »(٥٨).

وأخرج الترمذي عن زيد بن ثابت: أن النبي ﷺ نظر قبل اليمن، فقال: «**اللهم أقبل بقلوبهم..**» الحديث، قال أبو عيسي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث زيد بن ثابت لا نعرفه إلا من حديث عمران القطان(٥٩).

وأخرج الطبراني قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي، ثنا عبد الرحمن بن مهدى، ثنا عمران القطان، عن قتادة، عن أنس بن مالك ، عن زيد بن ثابت قال: نظر رسول الله ﷺ قِبَل اليمن فقال: «**اللهم أقبل بقلوبهم**»، ونظر قبل العراق فقال: «**اللهم أقبل بقلوبهم**»، ونظر قبل الشام فقال: «**اللهم أقبل بقلوبهم، وبارك لنا في صاعنا ومُدنا**»(٦٠).

فهذا النموذج يبين أن النبي ﷺ ؛ إداركًا لحقيقة أن الله هو الذي يتصرف في القلوب، وأنه هو المالك لمفاتيحها، دعا للشعوب أن يُقبِل الله بقلوبها إليه،

---

(٥٨) قال الألباني : صحيح، انظر : صحيح سنن ابن ماجه ج ٣ ، رقم ٢٣٧٤ ص ١٤.

(٥٩) سنن الترمذي ، ج٥، رقم ٣٩٦٠، ص ٤٨٩؛ وعمران القطان : صدوق يهم، ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٥ ، رقم ٤٧٨٩، ص ١١٦ .

(٦٠) المعجم الكبير ، ج ٥ ، رقم ٤٧٩٠، ص ١١٦ .

وإلى دينه، اللهم أقبل بقلوبهم، فإذا أقبل الله بقلب إنسان فتح قفله للإيمان، وهداه، وطيبه .

واتباعا لهذا الأصل كان الثقة مالك بن دينار يقول في دعائه: «اللهم أقبل بقلوبنا إليك حتى نعرفَك حَسَنًا، وحتى نرعى عَهْدَك حسنا، وحتى نحفظ وصيتَك حسنا»[٦١]، فالله هو الذي يُقْبل بالقلوب إليه.

وهو الذي يفتح القلوب كما قال المقداد بن الأسود، في حديث طويل: «والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبي قط، في فترة وجاهلية، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرّق به بين الوالد وولده ، حتى أن كان الرجل ليرى والده أو ولده، أو أخاه كافرا، وقد فتح الله قفل قلبه بالإيمان، ويعلم أنه: إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه، وهو يعلم أن حبيبه في النار..»[٦٢] .

وفى رواية أحمد: «وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان»[٦٣].

وفى رواية الطبراني « قد فتح الله له قفل قلبه بالإيمان»[٦٤] والله هو الذي يفتح القلوب الغُلْف بالتوحيد، وهو الذي يفتح قفل القلب بالإيمان، وهو الذي يقبل بالقلوب، وهو الذي يقلبها ، ويصرفها.

وموقفنا هو أن نؤمن بهذه الحقيقة، وأن ننفعل بها، وأن نسلك السلوك الصحيح نحوها، وهو أن ندعو الله لأنفسنا، ولقلوب الآخرين، إن هذا ليس موقفًا تربويًا وتعبديا فقط، بل هو موقف حركي أيضًا .

---

(٦١) الإمام أحمد : كتاب الزهد ، ص ٣٠٧، ومالك بن دينار معدود في ثقات التابعين ، ومن أعيان كتبة المصاحف، وثقه النسائي وغيره، واستشهد به البخاري، وحديثه في درجة الحسن. انظر : الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥ ، ص ٣٦٢ (ط الرسالة بتحقيق الأرنؤوط) .

(٦٢) قال الألباني: صحيح، انظر : الأدب المفرد ، حديث رقم ٨٧، ص ٤٢ – ٤٣.

(٦٣) إسناده صحيح ، المسند ، ج ١٧ رقم ٢٣٧ ، ص ١٣٢ .

(٦٤) حديث صحيح، انظر: المعجم الكبير ، ج ٢٠ ، رقم ٦٠٠، ص ٢٥٣ – ٢٥٤.

٣ -إننا - إيمانًا بهذه الأحاديث والآيات القرآنية - ندخل في تصوراتنا جملة المفهومات السابقة عن طبيعة القلب ، الذي نربيه، فهو يتقلب، والله يقلبه..إلخ، والنتيجة السليمة لذلك التصور هو أن نتوجه إلى مالك (المفتاح) والممسك به، وهو الله، نتوجه إليه بالدعاء، ليقبل بقلوبنا إليه، ويصرفها إلى طاعته ، ويثبتها على دينه، وأن ندعو للآخرين كذلك . اللهم أقبل بقلوبنا وقلوب المسلمين جميعًا إليك ، يا مثبت القلوب.

٤- إن هذا التصور السابق ليس تصورًا خاصًا بالمؤمنين، بل هو تصور عام عن طبيعة قلب الإنسان، قلب ابن آدم - كما صرحت أحاديث سابقة - فهو تصور له صفة العمومية، تصور عالمي ينسجم مع حقيقة أن الله هو خالق الناس جميعًا ، فهو أيضًا بيده قلوبهم جميعًا .

رابعًا: أسئلة وتطبيقات لتعميق الفهم:

١- ما طبيعة القلب- كما تصوره أحاديث هذا الفصل؟

٢- ما المفهومات العقدية التي تقررها أحاديث وآيات هذا الفصل؟

٣- حدد موقف الرسول ﷺ والصحابة من حقيقة تقلب القلوب، وأنها بيد الله.

٤- ما الوقف العملي الذي ينبغي للمؤمن بهذه الأحاديث؟

٥- وضح العلاقة بين المفهومات التي تقررها أحاديث هذا الفصل، بين بعضها من جانب، وبينها وبين أحاديث الفصل السابق (القلوب أشد تقلبًا من القِدْر...).

٦- استخرج الأدعية التي دعا بها سيدنا محمد ﷺ، ثم تضرع بها في صلاة خاشعة لله.

٧- ما الدعاء القلبي المتعلق بحركة الدعوة إلى الله- في هذا الفصل؟ وما الدلالة الحركية له ؟

٨- طُلِبَ منك أن تخطط، وتنفذ لدورة تربوية لتشريب مفهومات هذه الأحاديث للمشتركين فيها، حدد الأهداف المعرفية، والقلبية لهذه الدورة ، واذكر الأنشطة المعرفية، والتعبدية لها.

٩- في القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بمفهومات هذا الفصل، استخرجها، واقرأ تفسيرها في جامع البيان للطبري، وتفسير القرآن لابن كثير وفى ظلال القرآن لسيد قطب.

١٠-هل أدخلت، وغرست هذه المفهومات في قلبك ؟

١١-هل تؤمن - حقا- بأن الله يقلب قلبك، وأن قلبك بيده وحده ؟

١٢-هل تقلب قلبك في هذا اليوم؟ حلل خبرتك في ٢٤ ساعة فقط .



القلوب أربعة

تربية القلب:

- المؤمن
- السليم
- المنير
- المزهر

القلوب أربعة

(تربية القلب: المؤمن السليم المنير المزهر)

أولا: نص الخطاب النبوي :

أ- في مسند أحمد: حدثنا أبو النضر، ثنا أبو معاوية، يعنى: شيبان، عن ليث، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يَزْهَرُ، وقلب أغلف؛ مربوط على غلافِهِ، وقلب منكوس، وقلب مُصْفَح، فأما القلب الأجرد؛ فقلب المؤمن؛ سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف؛ فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس؛ فقلب المنافق؛ عَرَفَ ثم أنكر، وأما القلب المُصْفح؛ فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة؛ يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المدتين غلبت على الأخرى غَلَبَتْ عليه**»(١)، وقد ساقه ابن كثير بهذا السند عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ، وساق الحديث مع اختلافات أربعة، في اللفظ:

١- (فسراجه) بدل: سراجه.

٢- (فقلب المنافق الخالص) بدل: فقلب المنافق.

---

(١) قال محققه حمزة الزين: إسناده صحيح. قلت: بل في إسناده ليث بن أبي سليم، يخطئ، لكنه توبع من الأعمش، في رواية عن حذيفة موقوفا، بإسناد صحيح، فصح الحديث والحمد لله، بهذا الشاهد عند ابن أبى شيبة في الإيمان، وأبى نعيم في الحلية (١/ ٣٨٥) والطبراني في الصغير. ولهذا قال ابن كثير، بعدما ساق رواية أحمد بالسند المذكور أعلاه: «وهذا إسناد جيد حسن»، تفسير ابن كثير (١/ ٥٦) . وقد ذكره الهيثمي في المجمع وقال: رجال أحمد رجال الصحيح . وانظر: المسند، ج١٠، رقم ١١٠٧١، ص٥٨.

وقال الشيخ الأرنؤوط: «إسناده ضعيف لضعف ليث، وهو ابن أبى سليم، ولانقطاعه ؛ أبو البختري لم يدرك أبا سعيد الخدري، وباقي رجاله، رجال الشيخين . وأورده ابن كثير في تفسيره(...) والسيوطي في الدر عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ...﴾ [البقرة: ٨٨] وجَوَّدَ إسناده». انظر: المسند بتحقيقه، في الحديث رقم ١١١٤٥.

٣-(فمثل الإيمان) بدل: ومثل الإيمان.

٤- (فأي المادتين) بدل: (فأي المدتين) وقال: «وهذا إسناد جيد حسن»[٢]، قلت: والنص الذي ساقه ابن كثير هو الذي أعتمد عليه في هذا الفصل، بشكل رئيسي، ورد في تفسير سورة النور، وقال: «إسناده جيد، ولم يخرجوه»[٣].

ب - وأخرج أبو نعيم في الحلية عن طريق جرير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبى البختري، عن حذيفة، قال: «**القلوب أربعة: قلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب مُصْفَح، فذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه سراج يزهر، فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان؛ فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل القرحة يمدها قيح ودم، فأيهما ما غلب عليه؛ غَلَب**»[٤]. وأخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان عن حذيفة قال: «**القلوب أربعة: قلب مُصْفَح، فذلك قلب المنافق، وقلب أَغْلَق، فذاك قلب الكافر، وقلب أجرد كأن فيه (سراجًا) يزهر، فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثله مثل قرحة يمدها قيح ودم، ومثله مثل شجرة يسقيها ماء خبيث وطيب، فأيما غلب عليها؛ غلب**»[٥].

وأخرجه الطبري عن طريق عمرو بن قيس الملائي؛ عن عمرو بن مرة

---

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٦) : وفى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: «وإسناده جيد حسن»، وقال شاكر: «وأشرنا إليه في تخريج أحاديث الطبري (١٤٩٧) وبينا أن إسناده صحيح» عمدة التفسير (١/ ٨٤)، هامش (١) وقال في ص١٢٣: «رواه أحمد في المسند (١١١٤٦) بإسناد صحيح».

وقال الشوكاني : وأخرج أحمد بسند جيد عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة». انظر : الشوكاني، فتح القدير (١/ ٢٣٠).

(٣) المصدر السابق(٣/ ٢٩٢)

(٤) إسناده صحيح، حلية الأولياء، (١ / ٢٧٦) .

(٥) قال الألباني : حديث موقوف صحيح. كتاب الإيمان لابن أبى شيبة، رقم ٥٤، ص١٧ .

الجملي، عن أبي البختري، عن حذيفة، قال: القلوب أربعة، ثم ذكرها، فقال فيما ذكر: «**وقلب أغلف؛ معصوب عليه، فذلك قلب الكافر**»(٦).

وقال ابن القيم: صح عن حذيفة بن اليمان: «**القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف؛ فذلك قلب الكافر وقلب منكوس؛ فذلك قلب المنافق؛ عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمى، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما**»(٧).

قلت: حديث حذيفة إسناده صحيح، وهو موقوف في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال من جهة الرأي، فهو شاهد قوى لحديث أبى سعيد المرفوع، فحديث أبى سعيد: حديث حسن .

ثانيا: تمهيد: مرآة القلوب:

هذا الحديث مرآة تكشف للإنسان حقيقة قلبه، فيرى فيها صورته: هل هو قلب أجرد، سليم منير؟ أم هو قلب أغلف أغلق،مظلم، ميت؟ أم هو قلب منافق منكوس، معتم؟ أم هو قلب مختلط، مصفح مريض؟

فإذا حدد الإنسان موقف قلبه؛ وأراد النمو في الخير، شرع في اتخاذ الإجراء المناسب لحال قلبه؛ فإن كان أجرد منيرًا سليمًا ازداد من منابع النور والسلامة والطيبة، وحمد ربه وشكره، وإن كان أغلف أغلق معصوبًا عليه؛ سعى فورا، في فك الغلاف والقفل، والختم، والطبع، من على قلبه، وإزاحة الغطاء؛ ليدخل الماء الطيب والنور، والهواء النظيف، إلى هذا القلب، فتتغذى شجرة الإيمان والخير، وتربو، وتزيد، وتنمو، وتثمر.

وكذا يفعل إن كان قلبه منكوسا، فيعدله، ويقيمه على الوضع الصحيح، ويتخلص من عوامل تنكيس القلب، وهى النفاق، وإنكار الحق .

---

(٦) ابن جرير الطبري : جامع البيان ،ج١، رقم ١٢٣٨، ص ٥٢٢ .

(٧) ابن القيم : إغاثة اللهفان، ص ١٧، ١٨ .

وأما إن كان قلبه فيه مادتان: الإيمان، والنفاق، فإن الإجراء الفوري هنا: هو أن يغلق مجرى مادة النفاق إلى القلب، وأن يعالج قرحة النفاق، وأن يوسع مجرى مادة الإيمان: وهو الماء الطيب، فتنمو شجرة الإيمان، وتزهر، وتثمر، أي: يربى الإيمان في القلب تربية صالحة.

فقوله: **(القلوب أربعة)**: يعنى: أن هذه أحوال أربع قد يكون على واحد منها القلب الإنساني، فربما يكون القلب أغلق، أغلف، منكوسا، ثم يتحول إلى مصفح، ثم يتحول إلى أجرد سليم مستقيم، منير، وقد يحدث العكس، كما بينا في فصل (القلوب تنكر الفتن) وفصل (القلوب المصقولة)، وكما سيأتي مزيد بيان.

وهذا مثلما نقول: النفوس ثلاثة: نفس أمارة بالسوء، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة. لا نعنى: أن لك ثلاثة أنفس، بل نعنى: أن نفسك الواحدة تكون أمارة بالسوء، وذلك في حال انتكاسها، أو تكون لوامة، وهذا حال صلاح لها، أو تكون مطمئنة، وهذا حال استقرار اليقين في القلب، فتسكن النفس لوحي الله.

فما الحال الذي عليه قلبي وقلبك؟

يستدعينا هذا الحديث أن نفصل كل حال، لتكون رؤيتنا لقلوبنا - في ضوء البيان المفصل- رؤية واضحة، حتى نسرع في اتخاذ الموقف الصحيح، والإجراء التربوي السليم الموفق نحو قلوبنا.

ثالثا: حال القلب الأجرد المنير المؤمن:

هنا ثلاثة أوصافٍ لهذا القلب: أنه مؤمن، أنه أجرد، أنه فيه مثل السراج، يزهر، أي ينير.

أ - فهذا القلب هو قلب المؤمن؛ أي: أن الإيمان دخل فيه، واستقر، ببشاشته؛ حلاوته، وإشراقه، فهو قلب حشي إيمانا، وأما أنه مؤمن فمعناه: أنه تحقق فيه حد الإيمان، وحقيقة الإسلام، أي: التصديق اليقيني بالوحي الإلهي المنزل على محمد رسول الله، تصديقا يستلزم الخضوع له، والإذعان والانقياد

له، والاستسلام والطاعة له، فيتحقق بكل مقومات الإيمان، كما سنبينها في فصل: تجديد الإيمان في القلب.

فإذا تحقق فيه وصف الإيمان: تحققت سلامته، وتجرده، واستنار، وهطلت عليه أنوار التوحيد، وأنوار التقوى، وأنوار الإمداد الإلهي له، كما سيأتي، فتنور واستنار، وأنار، فكان نورا يهدى في ظلمات الجهل، والأمية، والشرك، والعصيان، وافتقاد الدليل الحسي الموضوعي، ويصبح القلب مصدرا من مصادر المعرفة للإنسان المؤمن .

ب - وأما كونه أجرد، فهذا يحتاج مِنا- هنا- إلى بيان يكشف بوضوح عن حقيقة هذه الصفة:

١- يقول ابن منظور: «وجَرَدَ الجلدَ يجرُده، جردا: نزع عنه الشعر، وكذلك: جَرَّدَه (...) والجُرْدَةُ بالضم: أرض مستوية متجردة.. وأرض جرداء.. كذلك (...) ورجل أجرد: لا شعر على جسده (...) وتجرد من ثوبه، وانجرد: تَعَرَّى (...) والتجريد: التشذيب، والتجرد: التعري(...) وجَرَّدَ السيف من غمده: سلّه، وتجردت السنبلة، وانجردت: خرجت من لفائفها، وكذلك النَّوْرُ عَنْ كِمَامِهِ، (...) ومن قول عبد الله بن مسعود: جردوا القرآن ليربوَ فيه صغيركم، ولا ينأى عنه كبيركم، ولا تلبسوا به شيئا ليس منه(...) وتجرَّد الفرس؛ وانجرد: تقدم الحلبة (...) وفى الحديث: «**القلوب أربعة، قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر**» أي: ليس فيه غل ولا غش، فهو على أصل الفطرة، فَنُورُ الإيمان فيه يُزْهِر»[٨].

وفى المفردات: «جردوا القرآن: أي: لا تلبسوه شيئًا آخر ينافيه»[٩].

---

(٨) ابن منظور : لسان العرب، ج١، ص ٥٨٧ - ٥٩٠ .

(٩) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن، ص ٩٠، وانظر : ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ج١، ص٢٥٦.

فالأجرد: هو المستوى، المشرق، المهذب، المتعري من الأذى، المتفتح، الخالص، السليم، وتجرد للشيء: خلص له، وسلم له، ولم يشركه فيه أحد آخر.

يقول ابن القيم: «فقوله: (قلب أجرد): أي: متجرد مما سوى الله ورسوله، فقد تجرد، وسلم، مما سوى الحق»(١٠) . فالقلب الأجرد: هو القلب السليم، الخالص لله، الصحيح، الحي، المهذب، المستوى، المشرق، النقي الفطرة، الذي ليس فيه غل ولا غش، المنور بنور الإيمان.

٢- وهذا القلب الأجرد، المتجرد لله، الخالص له، السليم المستوى الخالي من النتوءات والمنخفضات، هو مناط النجاة يوم القيامة من الخزي، والفضيحة، والنار، وهو الذي ينفع صاحبه هناك، يقول الله- تعالى- حاكيا عن دعاء سيدنا إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧، ٨٩] .

يقول الطبري: وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ يقول: ولا تذلني بعقابك إياي؛ يوم تبعث عبادك في قبورهم لموقف القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ يقول: لا تخزني يوم لا ينفع من كفر بك وعصاك في الدنيا: مال كان له في الدنيا، ولا بنوه الذين كانوا له فيها، فيدفع ذلك عنه عقاب الله إذا عاقبه، ولا ينجيه منه. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يقول: ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع إلا القلب السليم.

والذي عنى به من سلامة القلب في هذا الموضع: هو سلامة القلب من الشك في توحيد الله، والبعث بعد الممات»(١١) .

---

(١٠) ابن القيم : إغاثة اللهفان، ص ١٨.

(١١) الطبري : جامع البيان، مجلد ١١، دار الفكر، ص ٩٤، ٩٥.

ويقول ابن كثير: «أي: أجرني من الخزي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق، أولهم وآخرهم (...) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لا يقي المرء من عذاب الله: ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أي: ولو افتدى بمن على الأرض جميعا، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبرى من الشرك، وأهله، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١٢]». والخزي: هو الإهانة والمهانة، أي: لا تهني، يوم يبعث العباد، يوم لا ينفع فيه مال، وإن كان مصروفا في وجوه البر، ولا بنون وإن كانوا صلحاء متأهلين للشفاعة، إلا من أتى الله بقلب سليم، فإنه ينفع[١٣].

ويقول سيد قطب: «فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص، إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض، وصفائه من الشهوات والانحرافات، وخلوه من التعلق بغير الله، فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزنا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨] ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض، وهى لا تزن شيئا في الميزان الأخير»[١٤].

٣- وتجرد القلب، وسلامته، وصفاؤه لله تعالى، ميراث صالح من مواريث الحنيفية السمحة، أي: مقوم من مقومات ملة إبراهيم، وشخصيته الإيمانية ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]، فالقلب السليم- وهو الأجرد - سبب المجيء لله، والوصول إليه، وهو المحرك له، لينكر الشرك على المشركين، فصفة سلامة القلب مقوم رئيسي في شخصية إبراهيم، وفى ملته، يقول سيد قطب: «يبرز من صفة إبراهيم: سلامة القلب، وصحة العقيدة وخلوص الضمير: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وهى صورة الاستسلام الخالص، تتمثل في محبته لربه،

(١٢، ١٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٣٣٨، ٣٣٩.

(١٤) سيد قطب : في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٦٠٤، ٢٦٠٥.

وصورة النقاء، والطهارة، والبراءة، والاستقامة، تتمثل في سلامة قلبه.

والتعبير بالسلامة، تعبير موح مصور لمدلوله (...) ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة، والإخلاص والاستقامة، إلا أنه يبدو بسيطا غير معقد(...) وبهذا القلب السليم: استنكر ما عليه قومه، واستبشعه»(١٥).

والأمة المسلمة - ذكورا وإناثا - مأمورة باتباع ملة إبراهيم: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [آل عمران: ٩٥].

٤- فسلامة القلب، وتجرده، لله، مقوم أساسي لشخصية المسلم والمسلمة، فصارت سلامة القلب صفة ثابتة لهذه الشخصية.

فما مفهوم القلب السليم؟ حتى نتحقق به، ونتخلق، ونتصف به، إذ إن وضوح مفهوم القيمة، شرط أساسي للتخلق السليم بها .

لنتأمل في هذه التحديدات التي تشكل - في مجموعها - أهدافا إجرائية لتربية القلب المسلم السليم:

- عن عون قال: «قلت: لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور». قلت: وهذا بيان للأصل، والجذر الذي تنبثق منه سلامة القلب.

- عن مجاهد، قال: «ليس فيه شك في الحق». وعن قتادة قال: «سليم من الشرك». وعن الضحاك، قال: «هو الخالص».

- وقال ابن عباس: القلب السليم: «أن يشهد أن لا إله إلا الله». أي: يتحقق بالتوحيد، والخضوع لله.

- وقال سعيد بن المسيب: «هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن

---

(١٥) سيد قطب: المصدر السابق، ص ٢٩٩٢.

قلب الكافر والمنافق مريض».

– وقال أبو عثمان النيسابوري: «هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة».

– وقال عروة: «لا يكون لعانا»(١٦). وهو سلامته من الجهل والأخلاق الرذيلة، وهو المخلص من الشرك والشك، وهو الناصح لله في خلقه.

– وقال الداراني: «القلب السليم: هو الذي ليس فيه غير الله تعالى».

– وقال الراغب: «والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، قال: (بقلب سليم): «أي: متعر من الدغل، فهذا في الباطن»(١٧). وهذا التعريف لسلامة القلب، هو نفسه تعريف للأجرد، فدل على أن الأجرد هو السليم، كما أشرنا سابقا.

– وتقول أخت لرابعة (امرأة أحمد بن أبي الحواري): «القلب السليم: الذي يلقى الله، وليس فيه شيء غير الله»(١٨).

وهذه تعريفات متضايفة للقلب السليم، والأمر الجامع لذلك - كما قال ابن القيم:

«أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله، مع تحكيم رسوله، في خوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

---

(١٦) التعريفات السابقة: في: الطبري: جامع البيان، المجلد الحادي عشر، ج١٩، ص ٩٥ والمجلد الثاني عشر، ج ٢٣، ص ٧٤ – ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٣٣٩، وج٤، ص ١٢. والشوكاني، فتح القدير، ج٤، ص ١٤١ وص ٥٢٨.

(١٧) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن، ص ٢٣٩.

(١٨) ابن الجو زى : صفة الصفوة، ج٢، ص ١٢٩.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك، بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة، ومحبة، وتوكلًا، وإنابة، وإخباتا، وخشية، ورجاء. وخلص عمله لله؛ فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الإتمام به وحده، دون كل أحد، في الأقوال والأعمال؛ من أقوال القلب: وهى العقائد، وأقوال اللسان، وهى تخبر عما في القلب، وأعمال القلب؛ وهى: الإرادة والمحبة والكرامة، وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله - دقه وجله - هو ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة، ولا قول، ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. قال بعض السلف: ما من فعلة، وإن صغرت، إلا ينشر لها ديوانان: لم ؟ وكيف؟ أي: لم فعلت ؟ وكيف فعلت؟

فالأول: سؤال في علة الفعل: القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى، وابتغاء الوسيلة إليه ؟

ومحل هذا السؤال: أنه: هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك ؟

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - في ذلك التعبد: أي: هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: عن المتابعة. فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة. وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع، فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة»[١٩].

فالقلب الأجرد السليم هو الذي:

- سلم من مقومات الشرك بالله، في التصورات، والأفكار، والأخلاق، والاتجاهات ، وطهر من ذلك كلية.

- سلم من شهوة المعصية والإصرار على الحرام.

- سلم من هوى المخالفة للرسول محمد ﷺ، ومن النزوع للبدع المخالفة لشرعه المنزل من الله تعالى.

- سلم من كبائر القلوب وآثامها، كالقسوة، والغلظة، والغل، والحسد، والحقد، والغش، والخداع، والرياء، وجبروت القلب، والخوف والجبن، والحب لغير الله، والبغض لغير الله، بل لمجرد المصلحة الذاتية، والتشيطن، وموالاة استراتيجية الشيطان، والركون إلى الذين ظلموا، واستبدوا في الأمم، ومن ضعف إرادة المقاومة لكل ذلك.

وتربية القلب السليم تعنى: عمليات التغذية العلمية والثقافية والعملية، والإمداد الفكري لتنمية وتزويد وتعظيم توحيد الله، والتخلص من الشرك في القلب، وتجريد المتابعة للرسول محمد ﷺ، والتخلص من كل البدع المخالفة لمنهجه، وتطهير القلب وتخليصه من كبائر القلوب، وتحرك القلب نحو الله تعالى، ليكون قلبًا طاهرًا، خالصًا لله، نظيفًا، متحررًا من الحجب والأغلفة والأغطية التي تحجب عنه الرؤية الصحيحة للأشياء، وتحجبه عن الله،

---

(١٩) ابن القيم : إغاثة اللهفان، ص ١٣، ١٤.

وتسبب له الغفلة عن الله، وعما بعد الموت، وعن المصير الأخروي.

وسلامة القلب- إذًا- غاية تربوية من غايات تربية قلب الإنسان، ومقصد تربوي كان النبي ﷺ يسعى للتحقق به، ومن أساليب ذلك: سرد قصة إبراهيم الخليل، وتأملها، وكيف أنه كان ذا قلب سليم، ومن أساليب ذلك: التوجه إلى الله بالدعاء، وتعليم الصحابة أدعية تتعلق بسلامة القلب، وتخلصه من كبائر القلوب؛ ومنها:

- ما أخرجه ابن ماجه، والبخاري في الأدب المفرد، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**رب أعنى، ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ، رب اجعلني لك شكّارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطيعا، إليك مخبتنا** (خاشعا متواضعا) **إليك أواها** (متضرعا) **منيبا، رب تقبل توبتي، واغسل حَوْبَتي** (إثمي) **وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سَخِيمَة قلبي** (وانزع حقد قلبي، وسواده»). قال أبو الحسن الطنافسي: قلت لوكيع: أقوله في قنوت الوتر ؟ قال: نعم[٢٠] .

وأخرج أحمد والنسائي والترمذي عن شداد بن أوس: أن رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، ولسانا صادقا**»[٢١].

هذا هو المعلم الثاني للقلب الأجرد، أما المعلم الثالث: فهو النور،

---

(٢٠) قال الألباني : صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، مجلد ٣، رقم ٣١٠٣، ص ٢٥٣ – الأدب المفرد، بتحقيق الألباني، ص ٢٢٩، رقم ٦٦٥، ورواه أحمد في المسند، قال : شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٢، رقم ١٩٩٧، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(٢١) هذه رواية النسائي، المجتبى من مسند النسائي، دار الكتب العلمية، ج٣، رقم ١٣٠٤، ص ٣٨، وانظر: المسند: ج ١٣، رقم ١٧٠٥٠، ص ٢٦٨، وقال محققه : إسناده صحيح.

والإشراق، والاستنارة، والإنارة .

جـ- القلب الأجرد هو قلب فيه نور الإيمان والتوحيد، ونور المتابعة للرسول محمد، وأنوار التعبد بأسماء الله تعالى، وصفاته، الحسنى، وأنوار التقوى، وأنوار القرآن، والحديث النبوي (الصحيح) وأنوار العقل، وأنوار الفطرة السليمة. فالقلب المؤمن الأجرد قلب منير بذلك كله، مستنير، فيه سراج - مصباح - يزهر، يضيء، إنه مصباح هدى، يمشى في الأنوار، في الدنيا، وفى الآخرة، لأنه، يتعلم، ويقرأ، ويفكر، ويدرس، ويتعبد لله تعالى، إن لسان حاله القلبي يقول:

الناس في لجج الظلام ونحن في ضوء النهار

فقوله: «**فيه سراج يزهر**»، «**فيه مثل السراج يزهر**» أي: مثل المصباح، يضيء، وينور «وأشار بحصول السراج فيه إلى إشراقه، واستنارته بنور العلم والإيمان»[٢٢]. «**سراجه فيه: نورُه**». فالسراج هو النور الذي في قلب المؤمن، النور الذي يمشى به في الناس، ويتمه الله له في الدار الآخرة.

فما هذا النور ؟ وكيف نلتمسه ؟ وما مصادره ؟ وما نتائج هذا النور في قلب المؤمن؟

إن المسلم ليس مستنير العقل فقط، بل هو قبل ذلك مستنير القلب؛ بالوحي الإلهي، ومتابعة أحاديث الرسول، وبأنوار العمل الصالح، وبإعمال العقل، والتفهم، فالفهم نور، كما قال الحكيم الترمذي[٢٣]، وبصقل فطرة القلب، هذا القلب المشرق المستنير، المهتدى، السائر في النور، يصبح مصدرًا ومرجعية ومحكا للتمييز بين الإثم والبر، ويصبح مرجعية للفتوى في الدنيا ومجريات شؤونها، وفى الآخرة يتم الله له النور، فيسعى نور صاحبه بين يديه.

---

(٢٢) ابن القيم : إغاثة اللهفان، ص ١٨.
(٢٣) الحكيم الترمذي : نوادر الأصول، ج ١، ص ٣١٢.

هذه النقاط سوف نتناولها في تتابع، مؤصل، في الفقرات الآتية :

١ - مفهوم النور :

يقول ابن منظور: «والظاهر في نفسه؛ المظهر لغيره؛ يسمى نورا (...) والنور: الضياء، والنور: ضد الظلمة، وفي المحكم: النور: الضوء، أيا كان، وقيل: هو شعاعه وسطوعه (...) وقد نار، نورا، وأنار، واستنار، ونور.. بمعنى واحد؛ أي: أضاء.. واستنار به: استمد شعاعه (...). والتنوير: الإنارة، والتنوير: الإسفار (...) وأنار المكان: وضع فيه النور»(...). وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ أي: اتبعوا الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور في العيون. قال: والنور: هو الذي يبين الأشياء ويرى الأبصار حقيقتها، قال: فمثل ما أتى به النبي ﷺ، في القلوب - في بيانه، وكشفه الظلمات - كمثل النور، ..»[٢٤].

فالنور - إذًا - الضياء، والبيان الذي يبين غيره، ويكشف الظلمة.

ويقول الراغب: «النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار»[٢٥]، وهو نوعان: نور معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية، كنور العقل، ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة، كالشمس والقمر[٢٦]، فالنور هو ما يعين القلب والعقل على البصر، وتبين الأشياء. والنور، كما يعرفه الغزالي: عبارة عما يبصر بنفسه، ويبصر به غيره، وهو الظهور للإدراك، وهو الظاهر بنفسه، المظهر لغيره، الذي به ندرك الأشياء، ونبصرها بالعين أو بالعقل، أو بالقلب، فالنور: شرط للإدراك الحسي والعقلي، والقلبي، أي الإدراك الحدسي، أو الإلهام الصائب، واسم النور يطلق

---

(٢٤) ابن منظور : لسان العرب، ج ٦، دار المعارف، ص ٤٥٧١، ٤٥٧٢، وانظر : ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٥، دار الفكر، بيروت، ص ١٢٤.

(٢٥، ٢٦) الراغب الأصفهاني : المفردات، ص ٥٠٨.

أيضًا على أداة الإدراك، وعلى الشيء الذي ندرك به، فالبصر في العين يسمى نورا، والعقل أولى باسم النور من العين، ومن النور المحسوس. ونعني بالعقل: المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع، وعن المجنون(٢٧).

إذا النور هو الإدراك والتبين.

ويقول القرطبي: «يقال منه: نار في نفسه يَنُور واستنار يستنير؛ فهو نَيِّر، ومستنير، إذا ضاء وأشرق، وأنار غيره؛ يُنِيره، فهو مُنَوِّر، ومُنِير، (...) وقد يقال: أنار الشيءُ: أضاء ونَوَّر، أيضًا، (...) فالنور قد يستعمل في المحسوس والمعقول، ويقال لذي النور: نور»(٢٨). وقال: «روح النور: البيان والظهور»(٢٩). وقال: «النور، يطلق على ما يظهر في ذاته فقط، أو يظهر في ذاته، ويظهر غيره، (...) ويسمى العلم نورا، والقرآن نورا، لاستنارة القلوب به، ويسمى النبي ﷺ نورا؛ لأنه منير في ذاته، ويستنير به غيره، والمنير في ذاته؛ بنوره الذاتي، والمنير غيره؛ بنوره الفعلي: هو الله وحده»(٣٠).

فالنور هو الظاهر، المظهر، المبين، الكاشف، الذي يعيننا على الإدراك والتبين، ووضوح الرؤية.

والقلب المؤمن الأجرد، ينتشر فيه النور؛ الضوء والإشراق والظهور والتبين.. والإدراك الصحيح، كانتشار ضوء المصباح في كل مكان حوله، دون عائق يعوقه؛ لأن القلب أجرد، مستوٍ، ليس فيه منخفضات، أو نتوءات، فالقلب كله منير بالنور.. الذي هو سراج، أو مثل السراج، وهذا هو ما عبر عنه القرآن الكريم ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا

---

(٢٧) أبو حامد الغزالي : مشكاة الأنوار، ص ٤٣ – ٥٠.
(٢٨) القرطبي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٤٩٥.
(٢٩، ٣٠) المصدر السابق، ص ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢ بالتوالي.

يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٣٥] فالله سبحانه نور السموات والأرض؛ أي: هادى أهل السموات والأرض، فنوره: هداه، وهو منور السموات والأرض، فهم بنوره يهتدون إلى الحق، ويعتصمون بهداه من حيرة الضلالة، ثم بين الله مثل نوره الذي يهدى به خلقه، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: مثل نور هداه في قلب المؤمن، الذي فيه الإيمان والقرآن، مثل مشكاة، فمثل نور من آمن به، كمثل مشكاة فيها مصباح.. أو مثل نور الله في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح.. فشبه قلب المؤمن، وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه(...) فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستمد به من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف. والمشكاة هي مثل صدر المؤمن، والمشكاة هي العمود الأجوف المفتوح الأعلى، الذي تكون فيه فتيلة القنديل، وهى تجمع الضوء فيكون أشد ضياء، وتمنع عنه الريح، فيكون أكثر ثباتا في الإضاءة، وهذه المشكاة فيها مصباح: وهو السراج المضيء، وهذا السراج في زجاجة صافية، وهى نظير قلب المؤمن، هذه الزجاجة صافية منيرة جدا كأنها كوكب درى؛ أي: مضيء، وهذا يجعل ضوء السراج أكثر إشراقا وبهجة، وهذا المصباح يوقد من شجرة مباركة، أي: يستمد من زيت زيتونة، لا شرقية ولا غربية، وإنما هي زيتونة نبتت، وأثمرت، وهى في مكان وسط معتدل من الأرض، فسيح ظاهر للشمس، تمسه الشمس من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها، وألطف، وهذا مثل مصدر النور في قلب المؤمن، وهو الإيمان بالله، وعلم القرآن، وعمل الطاعات، والإخلاص لله، ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ فهو مشرق، مضيء، وهو نور القرآن، فإذا اجتمع نور القرآن ونور الإيمان، فإنما هو ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾.. فيتضاعف النور في

قلب المؤمن، فهو نور متضاعف قوى، مشرق مبين في قلب المؤمن، ثم ختم الله الآية - بعد هذا المثل لنوره، في قلب المؤمن- بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ ليوضح لهم، ويعلمهم حقيقة قلب المؤمن، وهو أنه منور، مشرق، والله بكل شيء عليم، فهو يعلم من يستحق هذا النور، ومن لا يستحقه(٣١).

ويقول الطبري: «يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه ومن ضيائه، ولو لم تمسسه نار، يقول: فكيف إذا مسته النار». ثم يقول: «﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بقوله تعالى ذكره: يوفق الله لاتباع نوره، وهو هذا القرآن، من يشاء من عباده»(٣٢).

فالنور: هو الضياء والهداية، والبيان والإشراق في قلب المؤمن.

٢- التماس المؤمن للنور:

إذا تبين مفهوم النور، فإن المؤمن يلتمس النور من مصادره، ومصدره الأكبر والمطلق هو النور المطلق الكامل: الله، فهو ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهو (نور كل شيء وهداه) وهو الذي (فلق الظلمات نوره) وهو الذي يخرج المؤمن ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[إبراهيم: ١]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وهو الذي أشرقت بنور وجهه الظلمات، وفى الصحيحين عن ابن عباس- رضي الله عنهما - كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد، قال: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد..**»(٣٣). وفى رواية مسلم: عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول - إذا قام إلى الصلاة

(٣١) انظر: ابن جرير الطبري: جامع البيان.. مجلد ١٠، ج ١٨، ص ١٦١- ١٧٠، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٢٨٩ - ٢٩٢.
(٣٢) الطبري، المصدر السابق، ص ١٧١.
(٣٣) انظر: فتح الباري، ج ١١، ص ١١٦، حديث رقم ٦٣١٧، والأدب المفرد، بتحقيق الألباني، حديث رقم ٦٩٧، ص ٢٤٠.

من جوف الليل: «**اللهم أنت نور السموات والأرض**»(٣٤).

وإذا كان الأمر كذلك، فإن المؤمن يلتمس نور قلبه من هذا المصدر، وذلك بالإيمان بالله، والتضرع له أن يهب القلب نورا، وأن يجعله نورا، كما كان يفعل النبي ﷺ إذا قام للصلاة كل ليلة.

فقد أخرج البخاري في الصحيح، وفى الأدب المفرد من حديث ابن عباس، في وصف صلاة النبي بالليل، وفيه: وكان يقول في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نورا، وفى بصري نورا، وفى سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نورا، وفوقي نورا، وتحتي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، واجعل لي نورا**»(٣٥). وفى رواية الأدب المفرد: «**وأعظم لي نورا**»(٣٦). وفى رواية البخاري في الأدب المفرد - أيضا - عن عبد الله بن عباس قال: كان النبي ﷺ، إذا قام من الليل، فصلى، فقضى صلاته، يثنى على ربه بما هو أهله، ثم يكون من آخر كلامه: «**اللهم اجعل لي نورا في قلبي، واجعل لي نورا في سمعي، واجعل لي نورا في بصري، واجعل لي نورا عن يميني، ونورا عن شمالي، واجعل لي نورا من بين يدي، ونورا من خلفي، وزدني نورا، وزدني نورا، وزدني نورا**»(٣٧).

وأخرجه مسلم عنه، وفيه: وكان في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نورا (...) وعظم لي نورا**». وفى رواية لمسلم: ثم خرج إلى الصلاة فصلى، فجعل يقول في صلاته، أو في سجوده: «**اللهم اجعل في قلبي نورا (...) واجعل لي نورا، - أو قال: واجعلني نورا**». وفى رواية له قال رسول الله ﷺ: «**اللهم،**

---

(٣٤) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٣، رقم ٧٦٩، ص ١٣٠، وانظر سنن أبي داود، ج ١، دار الفكر، حديث رقم ٧٧١، ص ٢٩٣.

(٣٥) انظر: فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٣١٦، ص ١١٦.

(٣٦) الإمام البخاري: الأدب المفرد، تحقيق الألباني، رقم ٦٩٥، ص ٢٣٩-٢٤٠، وقال: صحيح.

(٣٧) المصدر السابق، رقم ٦٩٦، قال الألباني: صحيح الإسناد، ص ٢٤٠.

اجعل لي في قلبي نورا، وفى لساني نورا، وفى سمعي نورا، وفى بصري نورا، ومن فوقى نورا، ومن تحتي نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، ومن بين يدي نورا، ومن خلفي نورا، واجعل في نفسي نورا، وأعظم لي نورا». وفى رواية له: «**اللهم أعطني نورا**»(٣٨).

فالنبي ﷺ يصلى في سكون الليل، ويدعو الله أن يجعل في قلبه نورا.. وأن يجعله نورا، وأن يعظم له نورا، أي: أن ينزل في قلبه وحواسه، ونفسه نورا، وضياء، وإشراقا، وأن يستعمله بهذا النور الذي هو ضياء الهدى.

وإذا كان الله مصدر النور المطلق، فإن القرآن، كلام الله، الذي أنزله بعلمه، هو مصدر للنور، ولهذا كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء؛ أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: ما أصاب أحدا قط، هَمٌّ ولا حزن، فقال: «**اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي؛ إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجا**». قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها ؟ فقال: «**بلى، ينبغي لمن يسمعها أن يتعلمها**»(٣٩).

٣- منهجية استنارة القلب المؤمن بالله:

إن التماس المؤمن لنور قلبه، كما يكون بالدعاء، والتضرع لله، يكون بالعمل، بالإيمان، بالدرس، وإعمال العقل.

---

(٣٨) انظر الروايات السابقة في: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٣، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، أحاديث رقم ٧٦٣، ص ١١٧ – ١٢٦، وقد أخرجه الإمام أحمد بروايات عدة في مسند ابن عباس، المسند، ج٣، رقم ٢٥٦٧، ص ١٦٠ على سبيل المثال، ورقم ٣١٩٤، ص ٣٧٢، ٣٧٣.

(٣٩) قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وانظر بقية تخريجه، فإنه مهم، المسند، ج٣، رقم ٣٧١٢، ص٥٥٨- ٥٥٩.

٣-١ : إيمان القلب وإسلامه لله وحده وقبول الوحي الإلهي، والتزام العمل به:

إن المؤمن يلتمس نور قلبه بإسلام هذا القلب لله، وإيمانه به، وبدينه الذي أوحاه، فإذا تحقق القلب بحد الإيمان، وحقيقة الإسلام، جعل الله في قلبه نورًا ينفتح له الصدر، ويهتدي به، ويعرف، ويميز، **لنتأمل في الآيات الآتية:**

- قال الله تعالى: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالله يميز بين الكافر، الذي هو ميت، في حال كفره، وبينه حين يؤمن فيحيا بالإيمان، فيقول: «أطَاعَةَ مَنْ كان ميتًا، يقول: من كان كافرًا؟ فجعله - جل ثناؤه - لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده، وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة، ﴿**فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ يقول: فهديناه للإسلام؛ فأنعشناه، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه في معاده، فجعل إبصاره للحق.. بعد عماه عنه، ومعرفته بوحدانيته، وشرائع دينه، بعد جهله بذلك، حياة وضياء يستضيء، فيمشى على قصد السبيل، ومنهج الطريق، في الناس، ﴿**كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ لا يدرى كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ؛ لشدة ظلمة الليل، وإضلاله الطريق، فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر؛ لا يبصر رشدا، ولا يعرف حقا، يعنى: في ظلمات الكفر،..»[٤٠].

فالمؤمن يحيا بالإيمان بالله، ويستضيء بالنور الذي جعله الله في قلبه، وهذا

(٤٠) الطبري: جامع البيان، مجلد ٥، ج ٨، ص ٢٦.

النور هو الهدى والتبين، ومعرفة الصواب فهو يمشي في الناس بنور الله، وهداه.. فهو كان ميتًا بالكفر، والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم النافع، والهدى، ونور الإسلام والقرآن، والسنة الصحيحة، فهو يستضيء به في دينه، ويعمل به في الحياة الاجتماعية، فهذا النور هو سراجه الذي يضيء له قلبه، وحياته في الناس، فيمشى على نور من ربه.. ولا يكون مثل الذي هو في ظلمات الكفر، والجهل، وتعطيل العقل، لا يدرى ما يأتي، ولا ما يقع عليه(٤١).

- وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فالذين آمنوا بالله، يخرجهم الله من الظلمات إلى النور، فينور قلوبهم، وعقولهم.. ويجعلهم على نور، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، «يقول تعالى ذكره: أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يقول: فهو على بصيرة مما هو عليه، ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو - لذلك - لأمر الله متبع، وعما نهاه عنه منته، فيما يرضيه، كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه عن استماع الحق واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟»(٤٢).

فالمؤمن على نور من ربه: أي: على هدى، وعلم: أعطاه الله له. فالمؤمن يشرح الله صدره، فيستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له صدره، بالقبول، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فنور العقل بدون نور الإيمان والوحي الإلهي، هو كالنور.

---

(٤١) انظر: المصدر السابق، ص ٢٧، ٢٨. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ص ٧٨.
(٤٢) الطبري: جامع البيان، مجلد ١٢، ج ٢٣، ص ٢٢٢.

والمقصد: أن المنهجية الكبرى لتنوير القلب تتمثل - أساسًا - في تربية الإيمان بالله في القلب، وهذا النهج سنفصله في فصل (تجديد الإيمان وتربيته في القلب) بعون الله.

٣-٢: تدبر القرآن الكريم:

فالقرآن كلام الله تعالى (أنزله بعلمه) ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ [الفرقان: ٦]، وهو نور: أي: ضياء للبصائر، وبيان للحق، وهداية، يقول الله تعالى: ﴿**قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ** ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، فالذي جاء من الله هو نور يهدى سبل السلام ويخرج المتبع له من الظلمات القلبية والنفسية إلى النور، وهذه غاية من غايات تنزيل كلام الله ﴿**الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** ﴾ [إبراهيم: ١]، ويقول تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** ﴾[الحديد: ٩]، هذا هو القرآن، يقول عنه الله أيضا: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١٧٤]، ويقول: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقد دعانا الله إلى الإيمان بهذا النور، القرآن: ﴿**فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا**﴾ [التغابن: ٨]، وجعل الفلاح موقوفا على جملة أمور هي: ﴿**فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فالقرآن نور حقيقي في القلب، إذا آمنا به، واتبعناه، وإذا قرأناه بتفكر، وتدبّر، وإيمان قلبي، وأنزلناه، وغرسناه في القلب، ورسّخناه في مشاعر القلب، وتدبَّرناه بتخشع، وتفكر، وتفهم فإنه ينير القلب، والعقل، فالقرآن ينفعنا بنوره إذا خالفنا منهجية الخوارج الذين يقرؤون

القرآن لا يجاوز حناجرهم، فلا ينزل إلى القلب، ينفعنا القرآن بنوره وهدايته إذا آمنا أنه كلام الله، ونوره، وأنزلناه في قلوبنا، وعملنا بمنهجية ابن مسعود الآتية:

أخرج أحمد عن شقيق بن سلمة قال: «جاء رجل إلى عبد الله، من بني بَجِيلة، يقال له: نهيك بن سنان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذه الآية: أياءً، تجِدُهَا أو ألفًا؛ ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[محمد: ١٥] أو (غير ياسن)؟ فقال له عبد الله: أو كُلَّ القرآن أحصيت غير هذه (الآية) ؟ قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟ إن مِنْ أحسن الصلاة: الركوعَ والسجودَ، وليقرأنَّ القرآن أقوام لا يجاوز تراقيهم، ولكنه إذا قرأه فرسخ في القلب، نفع... إلخ»(٤٣).

وفي رواية مسلم: «فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟ إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع ..»(٤٤).

فاستنارة القلب بنور القرآن، وعلومه، إنما هي للذين آمنوا به، وانقادوا له،وفتحوا قلوبهم لأنواره، وأنزلوا قراءتهم في أعماق القلب، وأدخلوا القرآن في قلوبهم، وزرعوه فيها، فغرس، غرسه، ونور أنواره.

إذًا الطريق إلى نور القلب يكون بدراسة القرآن، وتلاوته، بتفكر وإيمان، والإيمان أولا، وبتحريكه وإثارة آياته في العقل.

٣-٣: الإيمان بالنبي محمد ﷺ ومحبته، واتباع منهجه، وتدبر أحاديثه الصحيحة، بعشق:

فهذا مصدر عظيم للنور في القلب؛ فالنبي ﷺ سماه الله وجعله ﴿وَسِرَاجًا

---

(٤٣) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٣، رقم ٣٦٠٧، ص ٥٠٩.

(٤٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٣، رقم ٧٢٢، ص ١٩٦.

مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، فالنبي كالشمس، في إشراقها وضيائها، للقلوب، والدنيا، وكالعافية للناس، لا يجحدها إلا معاند مكابر، يقول أنس: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه؛ حتى أنكرنا قلوبنا»(٤٥).

فالنبي ﷺ نور يضيء القلوب والأماكن، وقد بقيت سنته وأحاديثه، ومنهجه، فكل ذلك نور، إذا أدخلناه في قلوبنا، وآمنا به، وعملنا به، يقول أبو العباس بن عطاء: «من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله، وأخلاقه، والتأدب بآدابه، قولًا وفعلًا، وعزمًا، وعقدًا، ونيةً»(٤٦).

إذًا هذا طريق تَربوي آخر لتنمية وتزويد النور المعرفي في القلب، أعني: طريق الإيمان بمحمد رسولا ونبيا، وتعلم سنته، ومدارسة أحاديثه، بحب وإيمان، ومداومة القراءة في سيرته، وسنته، وشمائله ﷺ؛ فهو نور وسراج منير، وكلامه نور، وسيرته نور، والإيمان به نور، وقراءة سيرته وسنته نور للقلب والعقل، والعمل بها نور، وهدى، والصلاة والسلام عليه نور، لأن من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا، فالله يصلى على من يصلى على محمد ﷺ، ومن صلى عليه الله أخرجه من الظلمات إلى النور، يقول تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ**﴾ [الأحزاب: ٤٣]. **ولنتأمل في الحديث الآتي:**

---

(٤٥) قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح غريب، انظر: سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٦٣٨، ص ٣٥٥، ورواه في الشمائل، رقم ٥٤، ٥٥ (بلفظ قريب) وقد خرجنا الحديث في فصل: قلوب تحن إلى رسول الله.

(٤٦) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٢٦٨.

«عن أبى بردة بن نيار قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما صلى عَلَيّ عبد من أمتي صلاة؛ صادقا بها في قلب نفسه؛ إلا صلى الله عليه بها عشر صلوات، وكتب له بها عشر حسنات، ورفع له بها عشر درجات، ومحا عنه بها عشر سيئات**»(٤٧).

٣-٤: التماس النور بذكر الله تعالى:

والذكر هو استحضار معرفة في العقل والقلب، أو هو حضور ذلك الشيء، أو القول في القلب، أو العقل، أو الوعي، إما عن نسيان، وإما عن إدامة حفظ(٤٨). فذكر الله يعني: حضور أسماء الله تعالى، ودلالاتها، ومقتضياتها، وصفاته، ونعمه، وأفعاله، وأوامره، ونواهيه، ومحبوباته، ومكروهاته، في وعى الإنسان، وشعوره، وعقله، وقلبه، والشعور بهذا الحضور شعورا يقظا ينتج آثاره في النفس، من محبة، ومراقبة، وشهود، وشكر، ورجاء، وخوف، وتوكل، وطاعة، وحذر من معاصيه..

وأصل الذكر هو بالقلب، والوعي، ويكون باللسان، فإذا واطأ القلب اللسان نفع ذكر الله باللسان، وأنتج آثاره في القلب والنفس والسلوك.

- يقول ابن القيم(٤٩): «الذكر نوعان:

أحدهما: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى، وصفاته، والثناء عليه، بهما، وتنزيهه، وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى. وهذا أيضا نوعان: أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث، نحو: سبحان الله، والحمد لله(...) الثاني: الخبر عن الرب تعالى بإحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده، ويرى

---

(٤٧) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٢٢، رقم ٥١٣، قال محققه: «ورواه إسحق بن راهويه، في مسنده.. والنسائي في اليوم والليلة.. والبزار.. قال في المجمع.. ورجال البزار ثقات، ورواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة على النبي ﷺ، والبيهقي في الدعوات الكبير» ص ١٩٥.

(٤٨) الراغب الأصفهاني: المفردات، ص ١٧٩، ١٨٠.

(٤٩) ابن القيم: الوابل الصيب من الكلم الطيب، دار الريان للتراث، ص ١١٨ – ١٢٠.

حركاتهم(...) وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به رسول الله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، وهذا النوع... حمد، وثناء ومجد(...).

النوع الثاني: من الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه، وهو أيضا نوعان: أحدهما: ذكره بذلك؛ إخبارا عنه؛ أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا. والثاني: ذكره عند أمره، فيبادر إليه، وعند نهيه، فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر.

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر؛ فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه.

فائدة: فهذا الذكر في الفقه الأكبر، وما دونه أفضل الذكر إذا صحت في النية.

ومن ذكره سبحانه وتعالى: ذكر آلائه وإنعامه، وإحسانه، وأياديه، ومواقع فضله.

فهذه خمسة أنواع: وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة. فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويزع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا منها: فثمرته ضعيفة».

- وقد أمرنا الله بذكره ذكرا كثيرا فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقد أخرج الترمذي وأحمد من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله سبحانه**

وتعالى أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات» وساق الحديث، وفيه: «وأمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى..» الحديث(٥٠).

وفى حديث طويل قال عنه ابن القيم: «ينبغي لكل مسلم أن يحفظه» وكان ابن تيمية يعظم شأن هذا الحديث، وكان يقول: «شواهد الصحة عليه، عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما وكنا في صنعة بالمدينة، فقام علينا فقال: «إني رأيت البارحة عجبًا: (...) ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه..»(٥١).

- وقد حلل ابن القيم ذلك، وفسره، وبين أكثر من مائة فائدة للذكر، ومنها: أن ذكر الله مصدر عظيم لنور القلب، فالذكر ينور القلب، ويغذيه، ويجلو صدأه، ويزوده بالفهم عن الله.. وبعد أن شرح ابن القيم مصادر النور في قلب المؤمن، من آثار صفات الله تعالى.. إلخ قال: «فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات، اضمحل عندها كل نور، (...) والمقصود: أن الذكر ينور القلب، والوجه، والأعضاء، وهو نور العبد في دنياه، وفي البرزخ، وفي القيامة، وعلى حسب نور الإيمان في قلب العبد تخرج أعماله وأقواله، ولها نور وبرهان، حتى إن المؤمن من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله - عز وجل - وهكذا يكون نور وجهه في القيامة»(٥٢).

---

(٥٠) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وانظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط ٣، ١٧٢٤، ص ٣٥٤-٣٥٦.

(٥١) رواه الحافظ المديني، وقال: هذا حديث حسن جدا، انظر: الوابل الصيب، ص١١٢، ١١٣.

(٥٢) ابن القيم: الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص٩١ وانظر: نفس المصدر، ص٧٢-٩١، فإنه مهم جدًا.

فذكر الله مصدر لتنوير القلب، وتحصيل النور للمؤمن، فيسعى في نور الله في الدنيا، ويسعى نوره بين يديه يوم يلقى الله، وهو يدعو الله: «ربنا أتمم لنا نورنا».

إذًا الأسلوب التربوي الخامس لتنمية النور في القلب هو ذكر الله تعالى بفهم وإيمان وحب.

٣-٥: التماس النور بتقوى الله تعالى:

سيأتي في فصل «مخموم القلب» شرح لمفهوم التقوى، ونقتصر هنا على ما أخرجه ابن أبي شيبة: «أخبرنا يحيى بن آدم، عن سفيان، عن عاصم قال: قلنا لطلق بن حبيب: صف لنا التقوى، فقال: «التقوى عمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، على نور من الله، والتقوى ترك معصية الله، مخافة الله، على نور من الله»[٥٣].

فالتقوى حال قلبي يثمر العمل بطاعة الله على نور ورجاء، وترك معصية الله على نور وخوف، وكل طاعة وعمل بر، وفعل خير تثمر نورا في القلب، وكذلك ترك المعصية يثمر النور في القلب، وفعل الإثم والحرام والشر، يثمر الظلمة في القلب، **وسأذكر من ذلك جملة آثار نافعة:**

- يقول ابن عباس: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورا في القلب، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوءا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنا في اليدين، ونقصا في الرزق، وبغضا في قلوب الخلق»[٥٤]. ويقول أيضا: كما جاء عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال لعلمائه: «من أراد منكم الباءة زوجناه، لا يزنى منكم زان إلا نزع الله منه نور الإيمان، فإن شاء رده، وإن شاء أن يمنعه منعه»[٥٥].

---

(٥٣) قال الألباني: هذا الأثر صحيح السند إلى طلق بن حبيب، وهو تابعي عابد، كتاب الإيمان لابن أبي شيبة، رقم ٩٩، ص ٣٣.

(٥٤) انظر: الوابل الصيب، ص ٤٨.

(٥٥) قال الألباني: إسناده حسن موقوف، .. انظر: الإيمان لابن أبي شيبة، رقم ٩٤، ص ٣٢.

- ويقول الحسن البصري: «إن العبد ليعمل الحسنة فتكون له نورًا في قلبه»(٥٦).

- وقال سليمان التيمي: «الحسنة نور في القلب، وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب، وضعف في العمل»(٥٧).

- ويقول الحسن بن صالح: «العمل بالحسنة: قوة في البدن، ونور في القلب، وضوء في البصر، والعمل بالسيئة: وهن في البدن، وظلمة في القلب، وعمى في البصر»(٥٨).

وجاء في حديث ضعيف السند، وهو صحيح المعنى: «فإذا عمل المؤمن عملا نار في قلبه نور»(٥٩).

وهكذا فكل فعل خير وبر يفعله المؤمن فإن قلبه ينور بنور الله.

والله سبحانه وتعالى قد جعل ثمرة التقوى في القلب: فرقانا، يفرق به المؤمن بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والبر والإثم؛ فقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] أي: «يجعل لكم فصلًا وفرقًا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم»(٦٠). والفرقان: هو الفصل، والمخرج، والنجاة، وفى الطبري: «فرقان يفرق في قلوبهم بين الحق والباطل، حتى يعرفوه، ويهتدوا بذلك الفرقان»(٦١).

ويذكر الحكيم الترمذي في تفسير هذه الآية: «فأما محض التفسير: فالمخرج: أن يجعل له نورا في قلبه، يفرق بين الحق والباطل، حتى يكون له

(٥٦) انظر: المحاسبي: أعمال القلوب والجوارح، ص ١٢٢.
(٥٧) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٣، ص ٣٠.
(٥٨) المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٣٠.
(٥٩) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٦، رقم ٥٩٤٢، ص ١٨٦، وهو حديث ضعيف الإسناد.
(٦٠، ٦١) ابن جرير الطبري: جامع البيان، مجلد ٦، ج ٩، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ بالتوالي.

مخرجا من ظلمة الجهل، وشبهات الدنيا، فإن الجهل يظلم، والدنيا تزين على الآدمي شهوته(...) فتشبه عليه حتى تخدعه، فبتقواه من هذه الأشياء؛ يجعل له فرقانا، وهو النور يفرق بين الحق والباطل، وهذا ثواب التقوى في عاجل دنياه. وثوابه في الآخرة: قربته، وكرامته، ورفعة درجته (...) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] بالهداية في القلب، والفرقان في القلب، وهو نور يجعله الله في القلب، فيشرح به الصدر، وتنجلي ظلمة الشهوات والهوى عن الصدور، ويزول رين الذنوب (...) هذا لأهل التقوى والفاعلين بوعظه، وأهل المجاهدة، وهم أهل اليقين، وطهارة القلوب»(٦٢).

ويقول سيد قطب: «هذا هو الزاد، وهذه هي عدة الطريق.. زاد التقوى التي تحيي القلوب وتوقظها، وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والتوقي، وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق، ودروبه، على مد البصر، فلا تنبشه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة.. ثم هو زاد المغفرة للخطايا، الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء(...) وزاد الأمل في فضل الله العظيم، يوم تنفذ الأزواد وتقصر الأعمال.

إنها حقيقة أن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا يكشف له منعرجات الطريق (...) إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل، والطرق تظل متشابكة في النظر والفكر، والباطل يظل متلبسا بالحق عند مفارق الطريق، وتظل الحجة تفحم ولكن لا تقنع، وتسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل، ويظل الجدل عبثا والمناقشة جهدا ضائعا.. ذلك ما لم تكن هي التقوى.. فإذا كانت استنار العقل، ووضح الحق، وتكشف الطريق، واطمأن القلب، واستراح الضمير، واستقرت القدم، وثبتت على الطريق (...) الهوى

(٦٢) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج ١، ص ٣٦٢، ٣٦٣.

هو الذي يحول بين الحق والفطرة، الهوى هو الذي ينشر الغبش، ويحجب الرؤية، ويعمى المسالك، ويخفى الدروب، والهوى لا تدفعه الحجة، إنما تدفعه التقوى، تدفعه مخافة الله، ومراقبته في السر والعلن،.. ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة ويرفع اللبس، ويكشف الطريق.

وهو أمر لا يقدر بثمن.. ولكن فضل الله العظيم يضيف إليه تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب، ثم يضيف إليهما (الفضل العظيم)»(٦٣).

فتقوى الله تثمر الفرقان في القلب والعقل، وتسكب النور في القلب، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

والنور هو الفرقان، وهو الهدى، وهو العلم. يقول ابن كثير: «يعنى: هدى يتبصر به من العمى والجهالة»(٦٤) .

وإذا كانت أعمال البر والخير تثمر النور في القلب، فإن التوبة من الذنب تثمر النور كذلك، كما شرحنا في فصل القلوب المصقولة.

وقد ذكرنا في فصل (تقلب القلوب) الحديث الصحيح الذي يشبه القلب بالقمر المضيء، فإذا علته سحابة؛ أظلم، كذلك القلب: يظلم حين تعلوه غشاوة الإثم، وسحب المعصية المعتمة، يقول النبي ﷺ: «**ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينما القمر يضيء إذ علته سحابة، فأظلم؛ إذ تجلت**»(٦٥).

فالقلب المؤمن مضيء، فإذا علته سحابة المعصية؛ أظلم، فإذا تجلت عنه، وانكشفت – بالتوبة – أضاء القلب من جديد، كما روى أبو نعيم عن على–

---

(٦٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٣، ص ١٤٩٩.
(٦٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣١٧.
(٦٥) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع، ج ٢، ط ٣، رقم ٥٦٨٢ ص ٩٩١.

رضي الله تعالى عنه- سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينما القمر يضيء إذ علته سحابة فأظلم، إذ تجلت عنه فأضاء**»(٦٦). وكل فعل خير، وبر، وطاعة لله.. ينير في القلب نورًا.

فتربية النور في القلب، وتزويده، وتعظيمه، وتنميته يكون: بالانخراط في أعمال البر والخير، وأكتفي بحديث يوضح هذه الحقيقة: أخرج مسلم عن أبى مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن- أو تملآ- ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك، أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»(٦٧). وفى بعض نسخ صحيح مسلم: «**والصوم ضياء**»(٦٨).

فالصلاة نور في القلب: لأنها «سبب لإشراق أنوار المعارف، وانشراح القلب، ومكاشفات الحقائق، لتفرغ القلب فيها، والإقبال بالجسم والقلب على الله، وشغل الجوارح بها عما سواه»(٦٩).

ويقول النووي: «وأما قوله ﷺ: «**والصلاة نور**» فمعناه: أنها تمنع من المعاصي، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتهدى إلى الصواب، كما أن النور يستضاء به. وقيل: معناه: أن يكون أجرها نورا لصاحبها يوم القيامة، وقيل: لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف، وانشراح القلب، ومكاشفات الحقائق، لفراغ القلب فيها، وإقباله إلى الله تعالى بظاهره، وباطنه (...) وقيل: معناه: أنها تكون نورا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضًا على وجهه

---

(٦٦) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١، ص ١٩٦.
(٦٧) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٢، رقم ٢٢٣، ص ٥-٨.
(٦٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٨ (من الشرح).
(٦٩) المصدر السابق، ص ٨.

البهاء، بخلاف من لم يصل»(٧٠).

ويقول ابن رجب: «وقوله ﷺ: «**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**». وفي بعض نسخ صحيح مسلم: «**والصيام ضياء**»: فهذه الأنواع الثلاثة من الأعمال أنوار كلها، لكن منها ما يختص بنوع من أنواع النور، فالصلاة نور مطلق(...) فهي للمؤمنين في الدنيا: نور في قلوبهم وبصائرهم، تشرق بها قلوبهم، وتستنير بصائرهم، ولهذا كانت قرة عين المتقين، كما كان النبي ﷺ يقول: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» خرجه أحمد والنسائي(...) قال مالك بن دينار: قرأت في التوراة: يا بن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكيًا، فأنا الذي اقتربت بقلبك، وبالغيب رأيت نوري. يعني: ما يفتح للمصلي في الصلاة، من الرقة والبكاء.

وخرج الطبراني من حديث عبادة بن الصامت؛ مرفوعا: «**إذا حافظ العبد على صلاته، فأقام وضوءها، وركوعها، وسجودها، والقراءة فيها؛ قالت له: حفظك الله كما حفظتني، وصعد بها إلى السماء، ولها نور، حتى تنتهي إلى الله - عز وجل - فتشفع لصاحبها..**».

وهي نور للمؤمنين في قبورهم، ولا سيما صلاة الليل، كما قال أبو الدرداء: صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور.

وهي في الآخرة نور للمؤمنين، في ظلمات القيامة وعلى الصراط، فإن الأنوار تقسم لهم على حسب أعمالهم، وفي المسند وصحيح ابن حبان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة؛ فقال: «**من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور، ولا نجاة، ولا برهان**»(٧١).

---

(٧٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢، ص ١٠١ (ط مناهل العرفان) وأخرجه الترمذي: السنن، ج٥، رقم ٣٥٢٨، ص ٣٠٧ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٧١) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٢٦١، ٢٦٢. والحديث رواه أحمد بإسناد صحيح، المسند، ج٦، رقم ٦٥٧٦، ص ١٥٠.

فإذا صلى المسلم لله، وقام وتوجه بقلبه، ووجهه، مقبلا بهما على الله، أضاء قلبه، وانصرف طاهرا من الذنوب، ففي الحديث: «**ما منكم من أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء، ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة، وغفر له**»(٧٢).

وفى صحيح مسلم: «**فإن هو قام فصلى، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بالذي هو له أهل، وفرغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه**»(٧٣).

وفى حديث رواه البيهقي بعد ذكر الوضوء قال: «**إن قمت، ذكرت ربك، وحمدته، وركعت ركعتين، مقبلا عليهما بقلبك؛ كنت من خطاياك كيوم ولدتك أمك**»(٧٤).

هذه هي الصلاة التي يفيض الله أنوارها على قلب المسلم المصلى، وذلك إذا استغرق بقلبه وعقله في القراءة، والتسبيح، والتكبير، وراعى حدودها، وصرف همه كله إلى إقامتها، واستغرق بقلبه في شهود ربوبية الله، وعبوديته له وحده، وأخذ قلبه، ووضع بين يدي ربه، ناظرا بقلبه إليه، مراقبا له، ممتلئا بمحبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، واضمحلت وساوس الشيطان، وخواطر النفس، وارتفعت الحجب بينه وبين الله، فانشغل بربه عز وجل، فهذه الصلاة: نور، وأي نور؟

---

(٧٢) مسند أحمد، ج ١٣، رقم ١٧٢٤٧، ص ٣٣٧، وانظر نفس المصدر، حديث رقم ١٧٣٢٦، ص ٣٦٠، وهو صحيح.

انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، رقم ٥٧٥٦، ص ١٠٠٣، ورقم ٦١٦٦، ص ١٠٦١، ورقم ٥٨٠٢، ص ١٠١٠، ورقم ٥٨٠٤، ص ١٠١١.

(٧٣) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ٨٣٢، ص ٢٠٩.

(٧٤) انظر البيهقي: كتاب السنن الصغير، مجلد ١، رقم ٩٣٩، ورواه في السنن الكبرى، (٢/ ٤٥٤). وقال البيهقي: وهذا أيضا حديث صحيح.

«**والصدقة برهان**»: يقول ابن رجب: «والبرهان: هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس(...) ومنه سميت الحجة القاطعة برهانا، لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس بها، علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه(...) وسبب هذا: أن المال تحبه النفوس، وتبخل به، فإذا سمحت بإخراجه لله- عز وجل- دل على صحة إيمانها بالله، ووعده ووعيده»[٧٥]، وهكذا فالصدقة شعاع من نور ينور القلب، ويزكي النفس.

ويقول ابن رجب: «وأما الصبر فإنه ضياء، والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة، وإحراق، كضياء الشمس، بخلاف القمر، فإنه نور محض، فيه إشراق بغير إحراق(...) ولما كان الصبر شاق على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس، وحبسها، وكفها عما تهواه، كان ضياء..»[٧٦].

والمقصد: أن كل عمل بر، وخير، وعبادة لله، هو نور في القلب.

فتربية النور في القلب تكون بالانخراط المباشر في أعمال البر والرحمة والخير، وطاعة الله.. فتعلم العلم النافع نور في القلب، والتفهم، والتفكر، نور في القلب.. وهكذا.

٤ - نتيجة النور في القلب: مرجعية القلب المنير في الفتوى عند الاشتباه وانعدام الدليل المرجح:

٤-١: إذا تحقق قلب الإنسان بالإيمان الحي، وسلم من الشرك والبدعة والهوى وكبائر القلب، واستنار بالأنوار المذكورة: أنوار الإيمان بالله، وبالرسول، وبالقرآن، «أنوار البر، مثل أنوار الصلاة، والزكاة، والصوم، وغير ذلك، واستنار بنور العلم والمعرفة الصحيحة، والتفكير بأنواعه، واستقام على ذلك؛ فإن هذا القلب ترسخ فيه معرفة الله، وما يحبه، والرغبة في رضاه،

(٧٥، ٧٦) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٢٦٣.

ويتربى في قلبه النور، نور الإيمان، ونور المعرفة، والعلم، وينمو فيه الوعي الإيماني الرشيد، فيقذف الله فيه أنوارا زائدة، ويكون فيه فرقانا، ويجعل له نورا يمشى به في الناس، ويصبح في قلبه ما أسماه حديث نبوي صحيح «**واعظ الله في قلب المؤمن**» واعظ الله الذي يعظه، ويرغبه ويرهبه، ويرشده، ويفتيه، فيأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويفتيه في المباحات والمشتبهات التي لا يوجد عنده دليل مرجح فيها.. فإذا سكن قلبه، واطمأن لحكم في هذه الحالة، فإنه يعمل بمقتضاه؛ ويعتقد أن هذا السكون، في حالة الاشتباه، وحيث لا يوجد دليل مرجح في الواقعة المعنية، ولسبب من الأسباب، يكون مرجحا شرعيا، إذ إنه في هذه الحالة يكون القلب المؤمن السليم، المستنير بالأنوار المذكورة، واعظا حقيقيا، ومرجعية دينية معتبرة، ومقدرة من الرسول ﷺ.

فكل المقومات السابقة؛ الإيمان والسلامة، والتنور، تكون معرفة دينية خلقية في (ضمير المؤمن)، ترشده، وتوجهه في حالات الاشتباه، وانعدام الدليل العقلي الاستدلالي، والنصي، إنه قلب مستنير، وبالتالي يصبح منعما بالمعرفة الخلقية الصحيحة في الأغلب، وبالتالي يصبح مصدرا من مصادر الإدراك، بجانب المعرفة السمعية، والمعرفة البصرية، والمعرفة العقلية، أي: أنه يصبح لدى المؤمن مصدر للمعرفة ينبع من قلبه - حين يتخلق فعلا بالإيمان والسلامة، والاستنارة، ويتكون فيه (الفرقان)، و(واعظ الله)، فإن هذا القلب (يحدس) حدوسا، ويلهم إلهامات، تكون صحيحة في الأغلب، فهو مصدر للمعرفة، لكنها ليست معرفة يقينية، ولا معصومة، ولا ملزمة لغير صاحبها؛ فهي معرفة، ولكنها ليست دليلا، ولا حجة في ذاتها، أي: أنها معرفة خلقية ذاتية، لا تلزم الآخرين، ولا تحكم على دليل السمع، ودليل التجربة والخبرة، ولا على دليل العقل الصحيح.

فالقلب المؤمن العارف بالله، معرفة صحيحة، السليم، المستنير يصبح مرجعًا ذاتيًا للفتوى والوعظ، بطريق الإلهام والتقائه، أي: الإحساس القلبي الذي يفرق بين الضلال والهدى، وما يلقنه الله للقلب، وما يلقيه فيه، من أمور، ومعرفة، وميول، تبعثه على الترك، أو على الفعل، أي: أن الإلهام: ما يوقعه الله في القلب من علم يدعو إلى العمل: فعلا أو تركا، من غير طريق الاستدلال، وحركة العقل بالتفكير في الحجج، فيلقى الله هذه الأمور والمعارف في القلب، بطريقة سريعة، كأنه يحدث القلب بشيء، فيعتقد صحته، ويخبر به، ويقوله، فيتحرك القلب بسبب هذا العلم الحدسي الإلهامي الذي ورد إلى القلب من غير استدلال[٧٧].

٤-٢: فالله، يلهم القلب المؤمن التقى، أي: يفهمه، ويعلمه، ويبين له الخير والشر، ويعرفه أمورا قد تغيب على غيره، يقول ابن الأثير: «الإلهام: أن يلقى الله في النفس أمرا، يبعثه على الفعل أو الترك، وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده»[٧٨]. ويقول الراغب: «الإلهام: إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى، وجهة الملأ الأعلى (...) وذلك نحو ما عبر عنه بلمة الملك، وبالنفث في الروع..»[٧٩]. وقال ابن منظور: «وألهمه الله خيرًا: لقنه إياه، (...) والإلهام: ما يلقى في الروع (...)»[٨٠]. ويعرفه الدبوسي بقوله: «هو ما حرك القلب لعلم يدعو إلى العمل به من غير استدلال»[٨١].

---

(٧٧) انظر: عبد الرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، ط١، عالم الكتب، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٦٠. يوسف القرضاوي: موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة، ص ١٤ - ١٧.

(٧٨) ابن الأثير: النهاية من غريب الحديث والأثر، ج ٤، ص ٢٨٢.

(٧٩) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤٥٥.

(٨٠) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٤٠٨٩.

(٨١) انظر: يوسف القرضاوي: موقف الإسلام من الإلهام.. (مرجع سابق) ص ١٦.

فالإلهام: إصابة رأى من غير نبوة ولا استدلال، وتفهم صادق في أوقات انعدام الدليل.

٤-٣: وقد تبين من التحليل السابق أن القلب المؤمن التقى السليم، الفعال للخير، هو قلب منير، فيه الفرقان، والنور، وفيه واعظ الله - وهو ما فصلناه في فصل كامل، بعون الله، إذًا هو قلب: ملهم، ملقن، فهو مصدر للمعرفة الخلقية، يرجع إليه لمعرفة البر والإثم، أي: الخير والشر، في حالات الاشتباه فيما هو مباح في أصله، وعند عدم وجود دليل مرجح، فالقلب يكون مرجحا شرعيا في هذه الحالة، أي: مصدرًا صحيحًا للمعرفة الدينية، معتبرًا.

وقد تظاهرت جملة أحاديث نبوية صحيحة لتقرير هذه الحقيقة، وبيانها، أتناولها فيما يلي:

٤-٣-١: أخرج مسلم عن النواس بن سمعان الأنصاري؛ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «**البر: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[٨٢]. وفى رواية لمسلم من حديث، قال: فسألته عن البر والإثم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**». وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عن نواس بن سمعان؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: عن البر والإثم؟ قال: «**البر:**

---

(٨٢) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٣، ص ١٧، ١٨.

ورواه أحمد بروايات، وفيها: «**والإثم: ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه**» وفيها: «**الإثم: ما حاك في نفسك، وكرهت أن يعلمه الناس**». وأسانيدها صحيحة، انظر: المسند، ج ١٣، رقم ١٧٥٦٣ - ١٧٥٦٥، ص ٤٤٤، ٤٤٥.

ورواه الترمذي عن النواس بن سمعان أن رجلا سأل رسول الله عن البر والإثم.. الحديث، وفى رواية لم يذكر متنها قال: سألت النبي ﷺ..، قال: هذا حديث حسن صحيح، انظر: سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٣٩٦، ص ١٧٣، ١٧٤.

حسن الخلق، والإثم: ما حك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»(٨٣).

وأخرج أحمد عن أبي أمامة: يقول: سأل رجل النبي ﷺ. فقال: ما الإثم؟ فقال: «**إذا حك في نفسك شيء فدعه**». قال: فما الإيمان؟ قال: «**إذا ساءتك سيئتك، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن**»(٨٤).

ورواه الطبراني في الكبير، بلفظ: عن أبي أمامة قال: قال رجل: ما الإثم يا رسول الله؟ قال: «**ما حاك في صدرك فدعه**» قال: فما الإيمان؟ قال: «**من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن**». وأخرجه في الأوسط: بلفظ: ما الإثم يا رسول الله؟ قال: «**ما حك في صدرك فدعه**»(٨٥).

وأخرج ابن عساكر مرسلا من حديث عبد الرحمن بن معاوية بن خديج مرفوعا: «**ما أنكر قلبك فدع**»(٨٦).

في هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن الإثم - الحرام - الذنب - هو ما حاك أو ما حك، في الصدر، أو في النفس، وما أنكره القلب، وأبغضه، وكره أن يطلع عليه الناس، فالمرجعية هنا - في تحديد الإثم في الواقعة المعينة، وعند انعدام الدليل المرجح، في وقت من الأوقات - هي للقلب المؤمن، وللإيمان الذي يسكنه. فإذا حاك الشيء في الصدر أو في النفس، أو حك فيهما، وأنكره

---

(٨٣) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، حديث رقم ٢٩٥، ص ١٠٦، ١٠٧، وصححه في: صحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ٢٨٨٠، ص٥٥٧ (وهو بلفظ مسلم الأول) ورواه ابن أبى شيبة في المصنف، كتاب الأدب، رقم ٥٣٨٧، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي (٢/ ١٤)، ورواه البيهقي في الشعب (٧٩٩٤).

(٨٤) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٠٥٩ ص ٢٢١، ورواه برقم ٢٢٠٦٦، ص ٢٢٣، ورواه ابن حبان (١٧٦). والبيهقي في الشعب (٦٩٩٠).

(٨٥) إسناد الكبير رجاله رجال الصحيح، ورواه عبد الرزاق، والبيهقي في شعب الإيمان، وانظر تخريجه هناك، المعجم الكبير، ج ٨، رقم ٧٥٣٩، ص ١١٧ . وأورده الألباني في صحيح الجامع «ما حاك في صدرك فدعه»، وقال: صحيح، انظر: صحيح الجامع، ج ٢، ط ٣، رقم ٥٦١١ ص ٩٨٢ وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٢٢٣٠.

(٨٦) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، رقم ٥٥٦٤، ص ٩٧٥.

القلب، فهو إثم، في اعتقاد المؤمن، فيكون هذا ترجيحا مشروعا في هذه الحالة. وقد صح عن ابن مسعود أنه قال: إن الإثم حَوَازُّ القلوب، فما حز في قلب أحدكم شيء فليدعه.

وفى رواية عنه: «والإثم: حَوَازُّ القلوب»، وقال: «إياكم وأحواز الصدور»(٨٧). وفى رواية عنه قال: «إياكم وحَزَّاز القلوب القلوب، وما حَزَّ في قلبك من شيء فدعه»(٨٨).

يقول ابن الأثير: «وقيل: الحَزُّ: القطع في الشيء، من غير إبانة(...) ومنه حديث ابن مسعود: الإثم حَوَازُّ القلوب، هي الأمور التي تحز فيها، أى: تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء، وهو: ما يخطر فيها من أن تكون معاصي؛ لفقد الطمأنينة إليها، وهى بتشديد الزاي: جمع حَازّ(...) ورواه شمر: الإثم حَوَّازُ القلوب، بتشديد الواو؛ أي: يحوزها، ويتملكها، ويغلب عليها. ويروى: الإثم حَزَّازُ القلوب، .. وهى: فعال من الحز»(٨٩).

وقال ابن منظور: «الحز: قطع في علاج، (...) وحَزّ الشيء في صدره حَزًّا: حَكَّ. والحزازة، والحَزاز، والحَوَّاز.. وجع في القلب، من خوف.. والحزاز: ما حز في القلب، وكل شيء حك في صدرك؛ فقد حَزّ»(٩٠). فالحز حك في القلب: قال ابن رجب: «والحز والحك متقاربان، والمراد: ما أثر في القلب: ضيقا وحرجا، ونفورا وكراهية»(٩١).

وأما حاك، وحَكّ، فيقول ابن الأثير: «يقال: حك الشيء في نفسي: إذا لم

---

(٨٧) قال محقق المعجم الكبير: قال في المجمع(١/ ١٧٦): «رواه الطبراني كله، بأسانيد رجالها ثقات»، المعجم الكبير للطبراني، ج ٩، رقم ٨٧٤٨، ٨٧٤٩، ٨٧٥٠، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٨٨) انظر: ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٠٢.

(٨٩) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ١، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(٩٠) ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٨٥٦.

(٩١) ابن رجب: جامع العلوم، ص ٣٠٢.

تكن منشرح الصدر به، وكان في قلبك منه شيء من الشك والريب. وأوهمك أنه ذنب وخطيئة»(٩٢). فالإثم يحك في القلب: أي: يتلجلج، ويحدث في القلب أثرا.. فيجعله يشك فيه، ويتردد، فالإثم: يحك في القلب، أي: يصطدم فيه فيحك أحدهما الآخر.

وفي إكمال المعلم: «قال الليث: الحيك: أخذ القول بالقلب، وقيل: معناه: تحرك (...) وقال الحربي: هو ما يقع في خلدك ولا ينشرح له صدرك، وخفت الإثم فيه..»(٩٣) وفيه: «قال الحربي: هو ما يقع في القلب، ولا ينشرح له الصدر، ويخاف فيه الإثم. كذا الرواية: حاك، يحيك، ويقال: حك يحك (...) وقال أبو عبيد: «الإثم ما حك في صدرك» يقال: حك الشيء في صدري، أي: لم ينشرح به، وبقي في قلبك منه شيء، وقال بعضهم: حاك.. وحك: وقع ولم يطمئن إليك قلبك، وقد جاء في حديث آخر: «الإثم: ما حاك في نفسك..» إشارة: إلى ما استنتجته نفسك، ولم ينشرح لك. وقوله: والبر: حسن الخلق: البر: بمعنى: الصلة (...) وبمعنى: الصدق، وبمعنى اللطف والمبرة، والتخفي وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى: الطاعة. وهذه جماع حسن الخلق»(٩٤).

فالإثم؛ حين لا يوجد دليل مرجح من خارج القلب، فإننا نعرفه إذا – حك أو حاك، أو حز في القلب والنفس، وإذا كرهه القلب، وأنكره، فالقلب إذًا مصدر لمعرفة الإثم، واتخاذ موقف منه.

ويوضح النووي ذلك فيقول: «ومعنى: حاك في صدرك: أي: تحرك فيه، وتردد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشك، وخوف كونه ذنبا»(٩٥).

---

(٩٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ١، ص ٤١٨.

(٩٣) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٣٨.

(٩٤) المصدر السابق، ج ٨، ص ١٧، ١٨.

(٩٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٦ (المطبعة المصرية)، ص ١١١.

وهذا المفهوم يزداد وضوحا بالأحاديث الآتية:

٤-٣-٢: أخرج أحمد عن أبي ثعلبة الخشني: يقول: قلت: يا رسول الله، أخبرني بما يحل لي، ويحرم علي؟ قال: فصعد النبي ﷺ وصوب فيَّ النظر، فقال النبي ﷺ: «**البر ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون..**»(٩٦). وأخرجه الطبراني في الكبير عن أبي ثعلبة الخشني يقول: قلت: يا رسول الله، أخبرني بما يحل لي، وما يحرم علي؟ فَصَعَّدَ فِيَّ البصرَ وصَوَّبهُ، وقال: «**البر: ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب**»(٩٧).

فالنبي ﷺ فسر الحلال، والبر بأنه: ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، أي: سكن ولم يتردد، ولم يشك، فاطمئنان القلب للشيء، أو للأمر: يعني: أنه: حلال، وأنه بر، فيعمل به، وإن أفتاه المفتون بغير ذلك؛ فهنا ترجيح لفتوى القلب على فتوى الآخرين من الناس؛ لأن الحالة هنا تتعلق بأمر مشتبه، وليس فيه دليل صحيح مرجح، يعلمه، هو، أو يعلمه الذي أفتاه، أما إذا وجد الدليل الصحيح، فلا مجال لفتوى القلب.

والمقصد هنا: أن القلب المؤمن التقي، العارف، المنير، هو مرجع للمعرفة الخلقية، فإذا اطمأن القلب للأمر، فإنه بر، وحلال، وخير، وإذا لم يطمئن له؛ فإنه إثم، وحرام، وشر، حتى وإن أفتاه الناس بغير ذلك، بدون مرجح شرعي من الدين أو الاجتهاد العقلي.

---

(٩٦) إسناده صحيح، انظر: المسند، ج ١٣، رقم ١٧٦٧١، ص ٤٧٩، ٤٨٠، وصحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ٢٨٨١، ص ٥٥٧ وقال: صحيح. وقال ابن رجب: إسناده جيد، جامع العلوم والحكم، ص ٣٠١.

(٩٧) الطبراني: المعجم الكبير، مجلد ٢٢، رقم ٥٨٥، قال محققه حمدي السلفي: «ورواه أحمد(...) والمصنف في مسند الشاميين (٧٨٢)، قال في المجمع (١/ ١٧٦): ورجاله ثقات» ص ٢١٩.

ويزداد هذا وضوحا بعد الحديث الآتي:

٤-٣-٣: قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت وابصة بن معبد صاحب النبي ﷺ قال: جئت إلى رسول الله ﷺ أسأله عن البر والإثم، فقال: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**» فقلت: والذي بعثك بالحق ما جئتك أسألك عن غيره. فقال: «**البر: ما انشرح له صدرك، والإثم: ما حاك في صدرك، وإن أفتاك عنه الناس**»(٩٨).

وأخرجه أحمد من حديث طويل عن وابصة، وفيه: فقلت: أنا وابصة، دعوني أدنو منه، فإنه من أحب الناس إليَّ أن أدنو منه، فقال لي: «**ادن يا وابصة، ادن يا وابصة**»، فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته، فقال: «**يا وابصة، أخبرك ما جئت تسألني عنه، أو تسألني؟**» فقلت، يا رسول الله، فأخبرني، قال: «**جئت تسألني عن البر والإثم؟**» قلت: نعم، فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري، ويقول: «**يا وابصة، استفت نفسك، البر: ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم: ما حاك في القلب، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس**» قال سفيان: وأفتوك(٩٩).

وأخرجه أحمد أيضا بإسناد حسن لشواهده، وفيه: «**يا وابصة؛ استفت قلبك، واستفت نفسك، ثلاث مرات، البر: ما اطمأنت إليه النفس، والإثم: ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس، وأفتوك**»(١٠٠).

---

(٩٨) قال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٧٩٢٢، ص ٣٢، قلت: المطبوع عندي فيه: عن أبي عبد الرحمن السلمي، وأما في نسخ أخرى فهو: أبو عبد الله السلمي، وهو مجهول، فالحديث ضعيف، لكن له شواهد تحسنه، وانظر: المعجم الكبير للطبراني ج ٢٢، رقم ٤٠٢ ص ١٤٧، ١٤٨، مع تحقيقات محققه، فإنها مهمة.

(٩٩) إسناده حسن لشواهده، وانظر: المسند، ج ١٤، رقم ١٧٩٢٤، ص ٣٢، ٣٣، ورواه البخاري في تاريخه (١/ ١٤٤، ١٤٥).

(١٠٠) المسند، ج ١٤، رقم ١٧٩٢٩، ص ٣٣، ٣٤.

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، وفيه: «**البر: ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس ما أفتوك**»(١٠١).

وفي رواية للبخاري في التاريخ: «**استفت نفسك، وإن أفتاك المفتون**»(١٠٢).

وروى الدارمي من حديث وابصة بن معبد، وفيه: «**استفت نفسك، استفت قلبك يا وابصة، ثلاثا، البر: ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»(١٠٣).

ففي هذا الحديث الحسن، يدعو النبي ﷺ وابصة إلى استفتاء القلب، أي: طلب الحكم الشرعي في أمر ملتبس عليه، ولم يُفْتِه الناس فيه بحجة قاطعة، تزيل اللبس، عنه، طلب الفتوى في هذه الحالة من القلب، وجواب القلب هو بالاطمئنان أو بالتردد والتأرجح، فإذا اطمأن القلب، وسكن للأمر: فهو بر، وإلا فهو إثم.

٤-٤: وهذا يدل على أن القلب المؤمن، التقي، السليم، المنور، الذي فيه فرقان الحق، مصدر للمعرفة الخلقية، والإدراك الخلقي، الإلهامي، الحدسي، الانقدامي، وأن من طبيعة القلب الإنساني السليم أن يسكن إلى الحق، ويقبله، بما فيه من نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، ونور الذكر، ونور فعل الخيرات، ونور الفكر والفهم، والتفكر.

«فالقلب الذي دخله نور الإيمان، وانشرح به، وانفسح، يسكن للحق،

---

(١٠١) قال محققه في آخر تخريجه: «وله شواهد، منها في الصحيح، ولذا حسنه الإمام النووي». المعجم الكبير، ج ٢٢، رقم ٤٠٣، ص ١٤٨، ١٤٩، قال النووي: « حديث حسن، رويناه في مسندي الإمامين أحمد والدارمي بإسناد حسن». انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب، ص ٣٠٠.

(١٠٢) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ٩٤٨، ص ٢٢٤.

(١٠٣) سنن الدارمي: ج ٢، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

ويطمئن به، ويقبله، وينفر عن الباطل، ويكرهه، ولا يقبله، (...) إن الحق والباطل لا يلتبس أمرهما على المؤمن البصير، بل يعرف الحق بالنور الذي عليه، فيقبله قلبه، وينفر عن الباطل، فينكره، ولا يعرفه(...) فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه: فما إليه سكن القلب وانشرح إليه الصدر؛ فهو البر والحلال، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام».

وقوله في حديث النواس: «**الإثم: ما حاك في الصدر، وكرهت أن يطلع عليه الناس**». إشارة إلى أن الإثم: ما أثر في الصدر؛ حرجا وضيقا، وقلقا، واضطرابا، فلم ينشرح له الصدر، ومع هذا فهو عند الناس مستنكر، بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه (...).

وقوله في حديث وابصة وأبي ثعلبة: «**وإن أفتاك المفتون**» يعني: أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم، وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم،(...) وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح الله صدره بالإيمان، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظنه، أو ميل إلى هوى، من غير دليل شرعي، فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي؛ فالواجب على المستفتي: الرجوع إليه، وإن لم ينشرح له صدره، وهذا كالرخص الشرعية، مثل الفطر، والسفر، والمرض، وقصر الصلاة في السفر(...) وفي الجملة: فما ورد النص به فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وينبغي أن يتلقى ذلك بانشراح الصدر والرضا؛ فإن ما شرعه الله ورسوله يجب الإيمان والرضا به، والتسليم له، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

وأما ما ليس فيه نص (...) فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان، المنشرح صدره بنور المعرفة واليقين، منه شيء، وحك في صدره؛ لشبهة موجودة، ولم يجد من يفتي فيه بالرخصة إلا من يخبر عن رأيه؛ وهو ممن لا يوثق بعلمه، وبدينه، بل هو معروف باتباع الهوى، فهنا يرجع المؤمن إلى ما حك في صدره، وإن أفتاه هؤلاء المفتون»(١٠٤).

فالقلب المؤمن المنور هو قلب مرجعي، هو مصدر للمعرفة الخلقية، يستفتيه المؤمن عند الشبهات، فإن القلب يسكن للحلال.

٤-٥: وقد تناول رباني الأمة ابن تيمية هذا الموضوع أكثر من مرة، ببيان رائع، قال: «القلب المعمور بالتقوى؛ إذا رجح بإرادته، فهو ترجيح شرعي،(...) فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبه الله، وبغض ما يكرهه الله؛ إذا لم يدر - في الأمر المعين - هل هو محبوب لله أو مكروه، ورأى قلبه يحبه أو يكرهه، كان هذا ترجيحا عنده، كما لو أخبره من صدقه أغلب من كذبه؛ فإن الترجيح بخبر هذا- عند انسداد وجوه الترجيح: ترجيح بدليل شرعي.

ففي الجملة: متى حصل ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله، كان هذا ترجيح بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام طريقا على الإطلاق: أخطؤوا، كما أخطأ الذين جعلوه طريقا شرعيا على الإطلاق.

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة، فلم ير فيها ترجيحا، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين، مع حسن قصده، وعمارته بالتقوى، فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة، والأحاديث الضعيفة، والظواهر الضعيفة(...) وقال عمر بن الخطاب: اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون؛ فإنه تنجلي لهم أمور

---

(١٠٤) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٠٤، ٣٠٥.

صادقة(...) وأيضا فالله- سبحانه وتعالى- فطر عباده على الحنيفية، وهو حب المعروف وبغض المنكر، فإذا لم تستحل (تتغير) الفطرة؛ فالقلوب مفطورة على الحق فإذا كانت الفطرة مقومة بحقيقة الإيمان، منورة بنور القرآن، وخفي عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة، ورأى قلبه يرجح أحد الأمرين؛ كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله، وذلك أن الله عَلّم القرآن، والإيمان، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا**﴾ [الشورى: ٥١] ، ثم قال: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢] (...)، والإلهام في القلب: تارة يكون من جنس القول والعلم والظن، والاعتقاد، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب، فقد يقع في قلبه: أن هذا القول أرجح، وأظهر وأصوب، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر**». والمحدث: الملهم، المخاطب.

وفي مثل هذا قول النبي ﷺ، في حديث وابصة: «**البر: ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب** (...)، وأيضًا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن - يقينًا أو ظنًا - فالأمور الدينية كذلك؛ بطريق الأولى، فإنه إلى كشفها أحوج، لكن هذا- في الغالب- لابد أن يكون كشفا بدليل، وقد يكون بدليل ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكن التعبير عنه»[١٠٥].

وفي المجلد الثاني من مجموع الفتاوى بسط ابن تيمية - رباني الأمة، رحمه الله- هذا الأصل المعرفي المهم، قال: «القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي(...) فمتى وقع عنده، وحصل في قلبه ما يظن معه أن

---

(١٠٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، مجلد ١٠، ص ٢٧٠، ٢٧٢.

هذا الأمر، أو هذا الكلام- أرضى لله ورسوله، كان هذا ترجيحا بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقا إلى الحقائق مطلقا؛ أخطؤوا، فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه؛ كان ترجيحه لما رجح أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة، والموهومة، والظواهر والاستصحابات الكثيرة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب، والخلاف، وأصول الفقه (...).

وقال أبو سليمان الداراني: «إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت، ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد، من غير أن يؤدى إليها عالم؛ علما».

وقد قال النبي ﷺ: «**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**». ومن معه نور وبرهان وضياء: كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيما الأحاديث النبوية، فإنه يعرف ذلك معرفة تامة، لأنه قاصد العمل بها، فتتساعد في حقه هذه الأشياء، مع الامتثال، ومحبة الله، ورسوله، حتى إن المحب يعرف فحوى كلام محبوبه – مراده منه تلويحا، لا تصريحا:

والعَيْنُ تَعْرِفُ من عَيْنَيْ مُحَدِّثِها ... إن كان مِنْ حِزْبِها أَو من أعاديها

إنارَةُ العَقْلِ مكسوفُ بطوعِ هَوًى ... وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

وفي الحديث الصحيح: «**لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده الذي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**» رواه البخاري عن أبي هريرة.

ومن كان توفيق الله له كذلك؛ فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة..؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان، فكيف حال مَن الله سمعه وبصره، وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسعود: الإثم حواز القلوب، وقد قدمنا

أن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

«وأيضا فإن الله فطر عباده على الحق، فإذا لم تستحل الفطرة؛ شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها، وعرفت معروفها، قال عمر: الحق أبلج، لا يخفى على فطن.

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة، منورة بنور القرآن، تجلت لها الأشياء على ما هي عليه، في تلك المرايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عيانا، مع غيبها عن غيرها(...).

إن في قلب كل مؤمن واعظا، والواعظ هو الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، وإذا كان القلب معمورا بالتقوى، انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: إن في قلب المؤمن سراجا يزهر(...).

وكلما قوي الإيمان في القلب؛ قوي انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بداخلها، وكلما ضعف الإيمان؛ ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي، والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال بعض السلف - في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق، وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورًا على نور.

فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن، فالإلهام القلبي: تارة يكون من جنس القول والعلم والظن، أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا، أو هذا أصوب(...).

وأيضا: فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن، لقوة إيمانه، يقينا وظنا، فالأمور الدينية كشفها له أيسر، بطريق الأولى؛ فإنه إلى كشفها أحوج.

فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء، لا يمكنه التعبير عنها في الغالب؛ فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه(...).

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه؛ أن هذا الطعام حرام، وأن هذا الرجل كافر، أو فاسق، أو (...) خمار أو مغن، أو كاذب، من غير دليل ظاهر، بل بما يلقي الله في قلبه.

وكذلك بالعكس: يلقي في قلبه محبة لشخص، وأنه من أولياء الله، وأن هذا الرجل صالح، وهذا الطعام حلال، وهذا القول صدق، فهذا- وأمثاله- لا يجوز أن يستبعد في حق أولياء الله المؤمنين المتقين»(١٠٦).

ونخلص من ذلك إلى: أن القلب المؤمن، السليم، التقي المنور، الفاعل للبر، يلهم، ويصبح مرجعا للمعرفة الدينية، في حال انعدام المرجح الخارجي بدليل نصي، أو عقلي، أو تجريبي حسي.

ومما له تعلق بهذه الحقيقة أن النبي ﷺ جعل معرفة قلب المؤمن، وإنكاره لقول من الأقوال ينسب للرسول ﷺ مرجحا في اعتقاد أنه قاله، أو لم يقله، حتى يأتي مرجح آخر: أخرج الإمام أحمد عن أبي حميد، وأبي أسيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا سمعتم الحديث عني؛ تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم ببعيد، فأنا أبعدكم منه**»، قال ابن كثير: «هذا حديث جيد الإسناد، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب»(١٠٧).

فالقلب المؤمن التقي العالم الفقيه بحديث رسول الله ﷺ، هو بذاته،

---

(١٠٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، مجلد ٢، ص ٤٢ – ٤٧.

(١٠٧) انظر: أحمد محمد شاكر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، ج٢، ص ٥٦.

مرجح في القبول أو الرد، في الأقوال المنسوبة للنبي ﷺ، ما لم يكن هناك مرجح أقوى من العلم.

وهذا الحديث يثبت للقلب معرفةً وإنكارًا.

لكن هذه المعرفة الصادرة عن الإلهام القلبي، هي معرفة ذاتية، غير معصومة، وليست حجة ثابتة، وليست عامة، فهي مخصوصة بما ليس فيه دليل، وفي حالة الاشتباه، أو انعدام المرجح الشرعي، وليست دليلا من أدلة الأحكام الشرعية، فاستفتاء القلب- يطلب حيث لا يوجد مفت ثقة، يستند إلى دليل معتبر، يثق به المسلم، علما ودينا، وحيث تتعارض الأدلة، وينعدم المرجح، في الوقت المعين، فحينئذ يكون القلب المؤمن وما يفتي به مرجحا شرعيا.

كما أن هذه المعرفة الناتجة عن الإلهام القلبي، غير مطردة، وغير ثابتة، وإنما هي إدراك حدسي، قد يصيب، وقد يخطئ، وهو محكوم عليه، وليس حاكما، فإذا وجد الدليل الشرعي المعتبر، فهو الحجة الحاكمة. يقول الداراني: «ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة» ويعني هذا: أن الإلهام المعتبر هو الذي لا يخالف نصا صحيحا من دين الله. فكل إلهام يخالفه نص صحيح، فهو باطل.

وهذه المعرفة الإلهامية، لها طرق محددة سابقا، فعل الإيمان، وسلامة القلب، والاستنارة بالأنوار المذكورة سابقا، فإذا حصل الإلهام، فهو ليس غاية في ذاته، بل وسيلة معرفية يضيفها المؤمن لوسائل كسب المعرفة الأساسية: وهي تعلم الوحي الإلهي، وتأمل الظواهر الطبيعية والإنسانية، والتفكر العقلاني في القضايا والنصوص والظواهر(١٠٨).

---

(١٠٨) شرح الشيخ القرضاوي هذه الكلمة المضيئة في كتاب نافع صائب هو: موقف الإسلام من الإلهام والكشف – مرجع سابق، ص ٩ -١١. ولاحظ أنه قال: «ليست من أدلة الأحكام الشرعية» وإنما الإلهام – كما ذكرنا – دليل مرجح ظني، في واقعة معينة، لا يتعدى صاحبه، عند انعدام الدليل الشرعي المرجح.. راجع ما قلناه ثانية.

وقد لخص الشيخ حسن البنا- رحمه الله- هذه الحقائق كلها في الكلمة المنيرة الآتية: «وللإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة، والمجاهدة: نور وحلاوة، يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر، والكشف، والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر- إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه»(١٠٩).

٥- ومرجعية الإلهام القلبي السليم المستنير، المؤمن التقي، العارف، ليست هي وحدها نتيجة تربية هذا القلب، بل هناك نتيجة مهمة جدا أخرى، هي أن تربية القلب المؤمن الأجرد، المنير تعني أيضا تربية: «واعظ الله في قلب المؤمن».

ولأهمية هذا الهدف التربوي فإنني أفردت له فصلا مستقلا بعون الله.

٦- هذا هو حال القلب المؤمن الأجرد المنير، الذي فيه سراج يزهر.. هو القلب الغاية، التي علينا أن نتخذ الأساليب التربوية الفعالة والناجحة، ونمارسها لنصل إلى التحقق والتخلق بصفاته ومعالمه السابقة.

إن هذا القلب هو هدف يجب أن نصل إليه ليكون لكل منا قلب من ذهب ولؤلؤ إيماني، وليس قلبا من صفيح، أو خشب، بل قلب كقلب صلة بن زفر، تلميذ حذيفة بن اليمان، أخرج الترمذي: قال حذيفة: «قلب صلة بن زفر: من ذهب»(١١٠). يعني: لا يصدأ، ولا يبلى، ولا تذهب قيمته، بل هو غالٍ- والله- وثمين.

وهكذا فالتربية الإسلامية تهتم بشكل رئيسي بتنمية هذا القلب المستنير، المتخلق بالإيمان، والسلامة، والتقوى، والنور، المتخلص من الانغلاق، والتحوصل في أغلفة الكفر، والجهل والإثم، أي النوع الثاني من القلوب، في الحديث الذي معنا، وهو موضوع الفقرة الرابعة في هذا الفصل.

---

(١٠٩) نفس الشرح السابق.

(١١٠) سنن الترمذي: ج ٥، رقم ٣٧٨٠، ص ٤٢١.

رابعا: حال القلب الأغلف الأغلق المربوط على غلافه:

أ- جاء في حديث أبي سعيد السابق، في بيان أنواع القلوب: «**وقلب أغلف، مربوط على غلافه..**» ثم قال: «**وأما القلب الأغلف: فقلب الكافر**» فهو قلب: كافر، أغلف، مربوط على غلافه، وجاء في حديث حذيفة عند ابن أبي شيبة: «**وقلب أغلق، فذاك قلب الكافر**» فهو قلب: أغلق، لا نوافذ له ولا أبواب، فهو مظلم، مُنْغلِق. وجاء في رواية الطبري لحديث حذيفة: «**وقلب أغلف، معصوب عليه، فذلك قلب الكافر**» فهو معصوب عليه، مثل: مربوط عليه، برباط، فهو قلب متشرنق، محجوب.

فما مفهوم أغلف؟ وما مفهوم أغلق؟ وما مفهوم مربوط على غلافه، أو معصوب عليه؟ وما مفهوم كافر؟

١- قلب كافر:

أصل الكفر عند العرب: تغطية الشيء، وستره عن الأعين، وعن الآخرين، ويطلق أيضا على الجحود، والتكذيب بالشيء، وإنكاره[111]، فالكفر هو الجحود: كالذين جحدوا وجود الله، أو حقه على عباده، وستروا حقيقة وجوده، في قلوبهم المفطورة على الإيمان به، وهو جحود نبوة محمد، وستر حقيقة نبوته، وكتمان ذلك، تكذيبا، وعنادا، وتغطية أمر الله، وأمر رسوله، وكتمان ما يعلمه الإنسان عن الله، وعن محمد، وهكذا في كل مقوم من مقومات الإيمان.

فهو قلب جاحد للحقائق الإيمانية: حقيقة ألوهية الله، وحقيقة الوحي الإلهي، وكلامه، ومنهاجه، وحقيقة الرسالة، وحقيقة النبوة، وحقيقة البعث بعد الموت...إلخ. مع قيام الأدلة القوية على صحة ذلك كله.

---

(١١١) ابن جرير الطبري: جامع البيان..، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٤٩.

وهو قلب مكذب بما أخبر به رسول الله، ومنكر له، ومعاند، له، وكاتم له، ومغط للعلم به.

وهو قلب منشرح الصدر بالكفر، راضي به، مدفون تحت ركـام الجحـود، منغلق على هواه وذاتيته.

فالكفر هو ستر مقومات الإيمان بالله والبعث يوم القيامة للجزاء.. إلخ. وتغطية ذلك، وفي المفردات للراغب: «الكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر؛ لستره الأشخاص.. وكفر النعمة وكفرانها: سترها، بترك أداء شكرها(...) وأعظم الكفر: جحود الوحدانية، أو الشريعة، أو النبوة(...) ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود(...) والكافر- على الإطلاق- متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كفر؛ لمن أخل بالشريعة، وترك ما لزمه، من شكر الله عليه(...) ويقال: كفر فلان؛ إذا اعتقد الكفر، ويقال ذلك إذا أظهر الكفر، وإن لم يعتقد»(١١٢).

فالقلب الكافر جحد وحدانية الله، وحقوقه، وشريعته، ورسله.. وجزاءه.. وترك ما لزمه من مقتضيات الإيمان، وأظهر الكفر.. وعصي أمر الله، وامتنع عن فعله: جحودًا، أو تكذيبًا، أو عنادًا، أو استكبارًا.

وقال ابن منظور: «ورجل كافر: جاحد لأنعم الله، مشتق من الستر، وقيل: لأنه مغطى على قلبه(...).

قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار: بألا يعرف الله أصلًا، ولا يعترف به، وكفر جحود؛ وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

---

(١١٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤٣٣، ٤٣٤.

فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد،... إلخ (وهو مهم)»(١١٣).

ثم قال: «وكل من ستر شيئا فقد كفره، وكفره(...) ومن ذلك سمي الكافر كافرا؛ لأنه ستر نعم الله عز وجل، قال الأزهري: ونعمه: آياته الدالة على توحيده، والنعم التي سترها الكافر: هي الآيات التي أبانت لذوي التمييز أن خالقها واحد لا شريك له، وكذلك إرساله الرسل بالآيات المعجزة والكتب المنزلة، والبراهين الواضحة، نعمة منه ظاهرة، فمن لم يصدق بها، وردها فقد كفر نعمة الله، أي: سترها وحجبها عن نفسه(...) والكَفْر: القبر..»(١١٤) وهذا مهم جدا. فالكافر: قبر حقائق الإيمان، وأمات قلبه.

والكفر: ضد الإيمان، فهو تكذيب نقيض للتصديق بما جاء به رسول الله، وهو شك نقيض لليقين، وهو جحود نقيض للتسليم، وهو عناد نقيض للالتزام بالأمر الإلهي.

ولسنا نقصد هنا تناول أنواع الكفر، ومتى يكفر الإنسان، وشروط التكفير.. إنما الذي نقصده هنا، هو مفهوم الكفر، وأصل الكفر، في المفهوم اللغوي والشرعي الإسلامي، وبيان أنه ستر، وتغطية، وجحود لحقائق الفطرة الإلهية في النفس الإنسانية، وأنه (قبر) للقلب، ومعاندة، وتكذيب لكل الأدلة الحية المنيرة، وإظلام في القلب: إنه كالليل الكافر: المظلم.

٢- وهو قلب أغلف:

أي: في غلاف وغطاء، وكنان. وهذا مثل قول اليهود: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، والغُلْفُ: جمع أَغْلَف: أي: هو في غلاف، أي: قلوبنا مغطاة، وفي

---

(١١٣) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٨٩٧، ٣٨٩٨.

(١١٤) المصدر السابق، ص ٣٨٩٩- ٣٩٠١ (تنبيه: ليس مقصدنا هنا بيان أنواع الكفر والمكفرات، فارجع - مثلا- لمدارج السالكين، ج١، ص ٢٥٢- ٢٦٠ (وادرسه دراسة وافية).

أكنة، والغِلاف: ما يشتمل على الشيء، ويغطيه، ويحجبه، وغَلَّف الشيء، وغَلَّفه، وأغلفه: أدخله في الغِلاف، ولم يخرج منه، فالأغلف: هو المغشَّى، المغطى، الذي عليه غشاء يمنعه عن سماع الحق، وقبوله، وهو الذي لا يعي شيئا، والمحاط بالساتر، الذي لا يخرج منه[115]، وفي تفسير الطبري لقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] جاء ما يلي: «في أكنة، في غطاء، القلوب المطبوع عليها غشاوة، لا تفقه، هو كقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، عليها طابع، عليها غلاف وهو الغطاء»[116] وهو الكنان، والحجاب المذكور في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فالكنان هو الغطاء الذي يمنع الفهم.

يقول ابن القيم: «وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر؛ لأنه داخل في غلافه، وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم، والإيمان، كما قال - تعالى - حاكيا عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، وهو جمع أغلف: وهو الداخل في غلافه، (...) وهذه الغشاوة، هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق، والتكبر عن قبوله، فهي أكنة على القلوب، ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]»[117].

فالقلب الأغلف: هو المحبوس في غطاء، وعليه غشاء، وحجاب ساتر يحول بينه وبين سماع الحق، وقبوله، ويمنع عنه النور، والهواء الفكري الصحيح. إنه قلب مغلول، والغل: القيد، الذي عليه مربوط، يمنعه من

---

(١١٥) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٢٨٢، ٣٢٨٣.

(١١٦) ابن جرير الطبري: جامع البيان.. ج١، ص ٥٢٢، ٥٢٣.

(١١٧) ابن القيم: إغاثة اللهفان، ص ١٨.

التصرف الصحيح، والفعل الرشيد.

٣- مربوط على غلافه، معصوب عليه:

وهذا تأكيد لانغلاق القلب وانحباسه، واعتقاله في حبس الغلاف، والكنان المعتم، المظلم، فهو قلب داخل غلاف وهذا الغلاف مربوط عليه، لإحكام غلق الغلاف والكنان عليه، ومعصوب عليه، أي: مشدود عليه بعصابة، وهي الرباط القوي، والقلب داخل الغلاف المحكم، المربوط، والمعصوب عليه.

فهو قلب داخل رباط محكم، وغلاف ومعتقل مسدود من جميع الجهات، وهذا هو إحاطة الخطيئة به من كل جانب، وإحاطة الران عليه من كل جانب، وإحاطة السواد به، والظلام.. وهذا هو الختم، والطبع على القلب، وسوف نفصل مفهوم الختم والطبع، وأسبابه في فقرة تالية، وإنما نقصد هنا إلى سبب الختم، والطبع، وهو إحاطة الخطيئة بالقلب، والران، والعمى، والجهل، والغفلة والغمرة، ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، أي: في غفلة، وانغمار في الشهوات الحرام.. فهو قلب معتقل في سجن الخطيئة، والكفر، والأنانية، والهم بمصالحه الذاتية فقط.

ويجوز أن نقرأ معصوب عليه، هكذا (مغضوب عليه)، فهو لما انغلق في سجن أنانيته وكفره وخطيئاته، غضب الله عليه، لأنه لا يحب المنغلقين.

٤- وهو قلب أغلق:

وأغلق: من غَلِقَ، تقول: غَلِق الباب، وانغلق، واستغلق: إذا عَسُر فتحه، والغَلَق: ضد الفك، فالغلق: ارتهان وحبس، وتقييد، فالقلب الأغلق، قلب محبوس، مقفل، عسير فتحه، فهو عليه قفل مغلق، وهو مرتهن بشهواته وأنانياته، ومقيد، غير حر.

والأغلق هو المُغْلَق عليه في أمره، والمضيق عليه في تصرفه، كما يغلق الباب على الإنسان.

والأغلق هو المثقل بحمول الخطايا.

والغَلَق: ضيق الصدر، وقلة الصبر، ورجل غَلِق: سيئ الخلق(١١٨)، كثير الغضب، ضيق الخلق، عَسِر الرضا، ومكان غلق: ضيق يبعث على الضجر.

والغَلِق: الذي دود، وعطن(١١٩).

والقلب الأغلق هو الذي اتصف بكل ذلك؛ فهو مغلق، محبوس، ليس حرا في الحقيقة، تعتقله أنانيته، وجهله، وانحصاره في حدود الحس والمادة، فقط، وهو مثقل بالخطايا، وضيق الخلق والصدر، فاسد القلب، قد ظهر فيه الدود الفكري، والوجداني، وتعطن، ويحتاج لعملية تنظيف سريعة.

وهذا كله بسبب زيغه، وتماديه في الكفر، وفعله المستمر للإثم والظلم.

هذه هي معالم القلب الأغلف، فهو قلب في غلاف، في غطاء، وكنان، وحجاب، مغلق، مربوط على غطائه، معصوب عليه، ومغضوب عليه، ومختوم عليه، فلا يفك، حتى يزول سبب ذلك كله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

فهذا الحال له شخصيات، وأسباب، وعلل، وعلاجات، ناجحة، نتناولها فيما يلي.

ب - مشخصات القلب الأغلف- الأغلق- المربوط على غلافه:

هناك خمسة مشخصات أساسية لهذا القلب هي أنه قلب ميت، غافل عن ذكر الله، في كنان وحجاب، أعمى، وفي غمرة ومختوم عليه ومطبوع عليه، ثم

---

(١١٨) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٣، ص ٣٧٩- ٣٨٠.
(١١٩) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢٨٣- ٣٢٨٥.

هو محبوس، عبد للمقتنيات، ليس حرًّا في حقيقة الأمر.

وأتناول الخمسة المشخصات الأول فيما يلي:

١- أنه قلب ميت:

وصف الله الكافر بأنه ميت وأنه بمنزلة أصحاب القبور ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] «وذلك أن القلب الحي: هو الذي يعرف الحق، ويقبله، ويحبه، ويؤثره على غيره. فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس، ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق، وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما»[١٢٠].

فقلب الكافر يفتقد الإيمان ووحي الله، أي: أنه يفتقد الروح، والنور، فهو مظلم، ميت.

أي: يخلو من الحياة المعنوية، والروحية والشعورية، التي لا تتحقق إلا بالإيمان الفعال بوحي الله، واستمداد الروح والنور منه. فالقلب الميت: «الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي، إذا فاز بشهواته وحظه- رضي ربه أم سخط».

فهو متعبد لغير الله؛ حبا، وخوفا، ورجاء، ورضا،وسخطا، وتعظيما، وذلا، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه: آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى: إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو- بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية، مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادَى إلى الله والدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان

---

(١٢٠) ابن القيم: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص ٢١٦.

مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه، فهو في الدنيا- كما قيل في ليلى:

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ومن قَرَّبت ليلى أحبّ وقرَّبا

فمخالطة صاحب هذا القلب: سقم، ومعاشرته: سم، ومجالسته: هلاك(١٢١).

فالقلب الأغلف: ميت، بمعنى أنه ميت الإحساس والمشاعر الإنسانية، أناني، عبد لذاته، متبلد، فهو يفقد الحياة الحقيقية: حياة الكينونة الإنسانية؛ والتفتح الروحي على الله، وعلى الكون، وعلى الناس.. إنه إنسان بلا معنى، ولا يشعر هو بمعنى حقيقي لإنسانيته، لأنه افتقد الإيمان بما قبل الوجود، وبما بعد الوجود، ففقد الإيمان بروحه، وبإنسانيته.

القلب الميت: هو المفتقد لروح المعرفة الدينية والدنيوية الصحيحة، ولروح الهدى، ولروح الإيمان، ولروح الذوق الإنساني، ويفتقد روح الوحي الإلهي الذي هو حياة القلب والروح، فحياته حياة البهائم، لأنه يفتقد حياة القلب، أي: سروره بمعرفة الله، ومحبته، والتوكل عليه، والأنس به، والشوق إليه، والسعي في مرضاته بفعل الخير في خلقه، وتعمير أرضه.

القلب الميت: هو الذي يفتقد حياة العلم الصحيح، الذي يحيي القلوب من الجهل، وحياة الإيمان، وحياة الإرادة، والهمة.

والقلب الميت: هو الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه، فهذا هو ميت الأحياء، الذي جسده قبر يتحرك على الأرض.

والقلب الميت: هو الذي يفتقد حياة الأخلاق المحمودة، كالحياء، والعفة، والسخاء، والمروءة، والصدق، والوفاء.

---

(١٢١) المصدر السابق، ص ١٥.

وهو الذي يفتقد الفرح بالله، وبالإيمان به[١٢٢].

وما للمرء خير في حياة   إذا ما عد من سقط المتاع

إن القلب الميت يعيش حياة بهيمية، ولا يحيا حياة إنسان.

وطريق التخلص من موت القلب، محددة بما يلي:

- الشوق إلى حياة القلب وطلب معرفتها، واشتهاء الاتصاف بالحياة، وبغض موت القلب.
- تقوية الإيمان وتربيته.
- التخلص من غفلة القلب، وندمه، وأسباب ذلك.
- التعلم الصحيح... إلخ[١٢٣].
- ذكر الله، يقول ابن تيمية: «من واظب على (يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت) كل يوم، بين سنة الفجر وصلاة الفجر، أربعين مرة، أحيا الله بها قلبه»[١٢٤].
- البعد عن الذنوب، وكثرة الضحك.. إلخ.

٢- أنه قلب غافل، في غمرة، عن ذكر الله:

وإذا مات القلب، أي: فقد الإحساس بالله، وباليوم الآخر، وبالأخلاق الحسنة.. فإنه أيضا يفقد الوعي بالله، ويجمد، ويقسو عن ذكره، ويصبح غفلا، فارغا، فيجعله الله غافلا، قال تعالى: **﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾** [الكهف: ٢٨].

أي: جعلناه غافلًا، فأغفلناه: تركناه غفلًا عن الذكر، فارغًا منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي لأن الله لم يشأ له أن يذكره، ولم يشأ أن يطهره، وأراد

---

(١٢٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٣، ط. دار الحديث، القاهرة، ص ٢٦٩- ٢٧٨.

(١٢٣) اقرأ (باب الحياة) من مدارج السالكين، كله، فما أروعه، وما أشد أهميته : مدارج السالكين، ج٣، ص ٢٦٩- ٣٠٥.

(١٢٤) المصدر السابق، ص ٢٧٥.

فتنته، لأنه قلب يستحق ذلك، فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه.

وهذا الإغفال عن ذكره- أي عن حضور الوعي، وحضور المعرفة بالله، وبالخير، وبالجزاء يوم الدينونة- ترتب عليه اتباع هواه، فأصبح هواه مصدر القيم الموجهة عنده، فيكون أنانيا منفعيا، ذاتويا، امتلاكيا، بلا كينونة إنسانية حقيقية متفتحة، روحيا، واجتماعيا، كما يترتب عليه أن يصبح أمره، وشأنه (فرطا): ضياعا، وهلاكا، ومضيعا، ومتروكا بسبب العجز القلبي عن إرادة الخير، والعزم على فعله، فهو يفرط فيما لا ينبغي التفريط فيه، ويتبع ما لا ينبغي اتباعه، ويغفل عما لا يحسن الغفلة عنه، ويتهاون في الأمور الجسام، أمور عبادة الله، وتحرر الضمير والوعي الإنساني، من التخريف، والوهم، والخوف، والجهل، والشهوة الأنانية، وحب امتلاك الآخرين، إنه يتهاون في معنى حياته، ومعنى وجوده الإنساني، وكان أمره فرطا، متهاون به مضيع(١٢٥).

قال ابن القيم: «أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه.. ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق»(١٢٦). وقال ابن كثير: «أي أعماله وأفعاله: سفه وتفريط وضياع»(١٢٧).

فهو إنسان فقد الإحساس بالمسئولية في الواجبات الكبرى للوجود الإنساني، لأن قلبه ميت، غافل عن ذكر الله، عن وحيه، ومنهجيته.

إنه (في غمرة من هذا) أي: مغمور في هواه وأنانيته، غافل عن منهج الله، منهج الخير، فهو قلب محجوب عن فهم القرآن، قال ابن كثير في قول الله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]: «أي في غفلة، وضلالة من

---

(١٢٥) ابن القيم: شفاء العليل، مصدر سابق، ص ٢٠٤، ٢٠٥.
(١٢٦) ابن القيم: الوابل الصيب من الكلم الطيب، مصدر سابق، ص ٦١.
(١٢٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٨١.

هذا، أي: القرآن»(١٢٨).

والغفلة والغمرة عن ذكر الله هو نتاج موت القلب، فصرف الله القلب عن حضور الوعي، وعن التفتح للخير، فالقلب الحي قلب واع، حاضر الضمير، ذاكر لمنهج الله، شاعر بمسئولياته، عنده معرفة، وإحساس، وذوق.. إنه حي، والقلب الميت: جامد الإحساس، لا يشعر بالله، ولا بالخير، ولا بالآخرين، عن قصد، وإرادة خير.. إنه ميت.. فالفرق بين القلب الذاكر الواعي الشاعر الحساس بالله، وبالجزاء، وبالحلال والحرام، والقلب الغافل الذي في غمرة، هو الفرق بين الحي والميت، فذكر الله فارق أساس بين الحياة الصحيحة، والموت الروحي النفسي، الشعوري، موت الضمير، أخرج البخاري عن أبي موسى ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»(١٢٩). وأخرج مسلم حديثا بلفظ: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**»(١٣٠). فشبه الذاكر بالحي الذي ظاهره متزين بنور الحياة، وباطنه بنور المعرفة(١٣١).

وقد نبهنا النبي ﷺ إلى خطورة غفلة القلب، فحتى لو كان الإنسان مسلما، ولكنه غافل القلب، فإن الله لا يستجيب دعاءه؛ أخرج أحمد في المسند عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل - أيها الناس- فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاء عن ظهر قلب غافل**»(١٣٢). فهو قلب

---

(١٢٨) المصدر السابق، ج٣، ص ٢٤٩ ويقول الطبري: «وعني بالغمرة: ما غمر قلوبهم فغطاها عن فهم المواعظ والعبر من الحجج» جامع البيان، ج ٤١٨، ص ٤٢.

(١٢٩) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١١، حديث رقم ٦٤٠٧، ص ٢٠٨.

(١٣٠) الإمام مسلم: صحيحه، ج١، رقم ٧٧٩، ص٥٢٩ عن أبي موسى ﷺ.

(١٣١) فتح الباري، ج ١١،ص ٢١٠.

(١٣٢) قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال الهيثمي: «رواه أحمد، وإسناده حسن». انظر: المسند، ج ٦، رقم ٦٦٥٥، ص ٢١٣.

يفتقد الوعي، ويفتقد الذكر، لأنه ميت.

والتربية الإسلامية تهدف إذن، إلى تربية قلب واع، حاضر المعرفة، والشعور، متذوق للعلم، والذكر، والخير، متخلص من الغمرة، من كثافة الإحساس، والتغطية على القلب والعقل، متخلصا من الجهل، وما يمنعه عن فهم الحجج والعبر.

٣- أنه قلب في كِنَان، وبينه وبين المعرفة الدينية حجاب مستور:

والقرآن قد أوضح ذلك، يقول الله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ** ﴾ [فصلت: ٥].

الكِنَان: الغطاء والغُلاف، فهؤلاء الكفار الذين خاطبوا الرسول قالوا: قلوبنا في أكنة: أي: في غلف، مغطاة، محجوبة بالأكنة مما تدعونا إليه؛ عن القرآن، والعلم النافع، والكنان: الساتر، فهم مستورون بهذا الحجاب الساتر، والغطاء، ﴿ **وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ** ﴾ أي: ثقل وصمم عما تقول لنا ﴿**وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾ أي: ساتر عازل، فلا يصل إلى قلوبنا شيء مما تقول، فلا نفقه، ولا نعي.

وهذه الأكنة (جمع كنان) هي عقوبة لهم من الله، قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾[الأنعام: ٢٥]، يقول الطبري: «ومن هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام.. من يستمع إليك، يقول: من يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره، ونهيه، ولا يفقه ما تقول، ولا يوعيه قلبه، ولا يتدبره، ولا يصغى له سمعه ليتفقهه، فيفهم(...) إنما يسمع صوتك وقراءتك، وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول؛ لأن الله قد جعل على قلبه أكنة، وهي جمع كنان، وهو الغطاء(...) ﴿**وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾ ثقلا وصمما عن فهم ما تتلو عليهم، والإصغاء لما تدعوهم إليه(...) ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ**﴾ بمعنى ألا يفقهوه.. لأن

الكن إنما جعل على القلب لئلا يفقهه.. عن قتادة: قال: يسمعونه بآذانهم، ولا يعون منه شيئا، كمثل البهيمة التي تسمع النداء، ولا تدري ما يقال لها»(١٣٣).

فعلة عدم الوعي، وعدم فقه دلالات الكلام، هو انغمار القلب، وتغطيته بالهوى والجهل، وعدم الحضور، وتركيز الشعور.

وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]، أي: وأي إنسان أشد ظلما ممن يعرض عن ذكر الله، ويتناسى آيات الله، ولم يصغ إليها، ولم يلق لها بالا، ونسي أعماله السيئة القبيحة، والعلة لذلك هي أن الله جعل على قلوب هذا وأمثاله (أكنة) أي: أغطية وغشاوة لئلا يفهموه ويتبينوا دلالاته، وجعل في آذانهم صمما معنويا عن الرشاد(١٣٤).

وفي القرآن أيضا يقول الله: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

أي: مانعا حائلا، حاجبا يحول بينهم وبين فهم القراءة، فلا يصل إلى وعيهم وشعورهم شيء منها، فهو حجاب ساتر، بينهم وبين الهدى، والفهم، وهو مستور عن الأعين(١٣٥).

فالقلب الأغلف معزول، ومحجوب، ومستور عن الوعي، والفهم بالحجاب، والغطاء، والكنان، والغلاف، وهذا هو حجاب الران، أي مجموع السداد، الذي يغطي على القلب بسبب الآثام المتتابعة، فيغلق القلب، ويحجب ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، فالرَّان أحاط بالقلب، وحجبه، وغشاه، وغلفه، فيؤدي هذا إلى الختم عليه، والطبع عليه، وإقفاله.

---

(١٣٣) الطبري: جامع البيان، ج٧، ص ٢٠١- ٢٠٣.
(١٣٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٩١.
(١٣٥) المصدر السابق، ص ٤٣.

وبهذا يصبح على القلب الأغلف قفل، فهو مقفول بالقفل، فلابد من فتح القفل- أولا.

٤- أنه قلب مقفل مغلق:

وقد ذكرنا مفهوم الإغلاق سابقا، ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، أي: بل على قلوبهم أقفال، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معاني القرآن ولا حلاوته، فالقفل على القلب يحول عن التدبر، ويمنع الفهم، ولا يزال القفل على القلب، حتى يفتحه الله. فالقلب ضرب عليه قفل، وإذا لم يفتح القفل فلا يمكن فتح باب القلب، والوصول إلى ما وراءه، فإذا لم يرفع القفل عن القلب، فلن يدخل الإيمان، والفهم، والوعي إلى القلب. وقول الله تعالى: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ دل على أن للقلوب أقفالا مختصة بها، لا تكون لغيرها، ولا يدخل الإيمان حتى يفك الله قفل القلب(١٣٦).

٥- وهو قلب أعمى لا يفقه، ولا يعي، ولا يبصر:

يقول شميط بن عجلان: «قد أفلح من جعل الله تعالى له عينين بصيرتين، ولسانا فصيحا، وقلبا واعيا، يعي الخير، ويعمل به»(١٣٧).

ويقول سفيان الثوري: «بصر العينين من الدنيا، وبصر القلب من الآخرة، وإن الرجل يبصر بعينه فلا ينتفع ببصره، وإذا أبصر بالقلب انتفع»(١٣٨).

ولكن القلب الأغلف، أغلق العينين لا يبصر، ولا يفقه، فهو أعمه، ضال حائر، أعمى.. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فالعمى: عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة إلا أنها لا تنفذ

---

(١٣٦) ابن القيم: شفاء العليل، ص ٢٠٠.

(١٣٧) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٣، ص ١٣١.

(١٣٨) المصدر السابق، ج٧، ص ٥٣.

إلى العبر والدلالات، ولا تدري ما الخبر؛ لأن الله أعماها، وجعل عليها غشاوة، إنها في الكِنَان، ووراء الحجاب، محبوسة، فإذا ناداها منادي الإيمان، فإنها تكون بعيدة، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤]، فلا يسمعون، ولا يفهمون، فالقلوب عمي، بعيدة، لا تسمع، ولا تبصر ولا تفقه، ولا تعي.. سدت الطرق عليها، فلا يغني عنه قلبه شيئا، لأنه معطل عن العمل، عن الإيمان، والفقه، والفهم والتبصر، والوعي.. والإحساس الحي، والذوق.. إنه في ضلال وعمه، مطموس على عيني قلبه؛ والعمه هو التردد وعدم الاهتداء، للحق، وعدم تبصر الصواب.

أخرج الطبري عن خالد بن معدان قال: «ما من آدمي إلا وله أربع أعين، عينان في رأسه؛ لدنياه، وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه؛ لدينه وما وعد الله في الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك؛ طمس عليهما، فذلك قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، وفي رواية له: «.. فإذا أراد الله بعبد خيرا أبصرت عيناه اللتان في قلبه ما وعد الله من الغيب، فعمل به،.. وإذا أراد الله بعبد شرا تركه». وفي رواية: «ترك القلب على ما فيه»[١٣٩].

وهذا العمى هو نتاج تراكم الران الذي هو ظلمة وسواد الذنوب، على القلوب، فتعمى، وتعمه، كما شرحنا في فصل القلوب المصقولة.

وهو نتاج الانحباس في الحجاب والغطاء المقفل.

وإذا حصل كل ما سبق (من الغلاف، والغطاء، والكنان، والقفل، والعمى) في القلب، فإنه يصل إلى حال الختم والطبع عليه، وهو إحكام الغلق على القلب، وهذا الحال هو أصعب وأقسى العقوبات على القلب، وأتناوله

(١٣٩) الطبري: جامع البيان، ج ٢٦، مجلد ١٣، ص٦٧.

في فقرة مستقلة.

جـ- الختم والطبع على غلاف القلب:

جاء في الحديث الذي معنا: وصف القلب الأغلف بأنه «**مربوط على غلافه**» وبأنه «**معصوب عليه**» فهو مختوم على رباطه، مطبوع عليه، وسأتناول مفهوم الختم والطبع، والنتائج التي تترتب عليه، والأسباب التي تؤدي إليه، وقانون التخلص منه.

١-مفهوم الختم والطبع:

يقول الراغب: «الختم والطبع يقال على وجهين: مصدر ختمت، وطبعت: وهو تأثير الشيء، كنقش الخاتم والطابع، والثاني: الأثر الحاصل عن النقش. ويتجوز بذلك في الاستيثاق من الشيء، والمنع منه، اعتبارا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب(...) فقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد الباطل، أو ارتكاب محظور، ولا يكون منه تلفت- بوجه- إلى الحق؛ يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه..»(١٤٠).

والراغب يجعل الختم والطبع استعارة لتلك الهيئة المذكورة، ونحن نرى أن الختم والطبع هو فعل الله حقيقة في قلب الكافر، ولكن لا ندري كيفيته، فلنتذكر معناه الصحيح.

قال ابن منظور: «ختمه: طبعه، والختم على القلب: ألا يفهم شيئا، ولا يخرج منه شيء، كأنه طبع(...) معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق من ألا يدخله شيء(...) والختم: المنع»(١٤١).

وقال الطبري في تفسير قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: «وأصل

---

(١٤٠) الراغب الأصفهاني: المفردات، ص ١٤٢، ١٤٣.

(١٤١) ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص ١١٠١، ١١٠٢.

الختم: الطبع، والخاتم هو الطابع، يقال منه: ختمت الكتاب؛ إذا طبعته، فإن قال لنا قائل: وكيف يختم على القلوب؟ وإنما الختم: طبع على الأوعية والظروف، والغلُف، قيل: فإن قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم، وظروف لما جعل فيها من المعارف بالأمور، فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع التي بها تدرك المسموعات، ومن قبلها يوصل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المغيبات - نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف(...).

عن الأعمش قال: أرانا مجاهد بيده؛ فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذا- يعني: الكف، فإذا أذنب العبد ذنبا: ضم منه (أي: من القلب) وقال (أي: أشار) بإصبعه الخنصر، هكذا، فإذا أذنب؛ ضم، وقال (أشار) بأصبع أخرى، فإذا أذنب؛ ضم، وقال بأصبع أخرى هكذا – حتى ضم أصابعه كلها، قال: ثم يطبع عليه بطابع. قال مجاهد: وكانوا يرون أن ذلك الرين(...).

قال مجاهد: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من نواحيه، حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه: الطبع، والطبع: الختم (...).

والحق في ذلك عندي ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله (ثم ساق حديث: إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه.. فإن زاد زادت حتى يغلق قلبه..) فأخبر أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل، والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى.. نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها، ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم، إلا بعد فضه خاتمه، وحَلِّه رباطه عنها»(١٤٢).

---

(١٤٢) الطبري: جامع البيان، ج١، ص١٥١، ١٥٢. وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٤٦.

ويقول الشوكاني: «والختم: مصدر ختمت الشيء، ومعناه: التغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه: ختم الكتاب، والباب، وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غيره»(١٤٣).

ويذكر ابن القيم: «أن الختم والطبع يشتركان في المفهوم السابق، لكن يفترقان في أن الطبع: ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم، لا يفارق(١٤٤).

أي: أن الطبع على القلب هو استحكام الرباط والإغلاق عليه، فإذا تمكن واستحكم ورسخ فيه، امتنع معه الإيمان، فكان الران والختم، في الأول غير حائل بينهم وبين الإيمان، والإيمان ممكن معه، لو شاءوا، فلما استحكمت الإغلاقات والأقفال، لم يبق إلى الإيمان سبيل، فهنا قانون التدرج، «ونظير هذا: أن العبد يستحسن ما يهواه، فيميل إليه بعض الميل، ففي هذه الحال يمكن صرف الداعية له؛ إذ الأسباب لم تستحكم، فإذا استمر على ميله، واستدعى أسبابه واستمكنت، لم يمكن صرف قلبه عن الهوى والمحبة، فيطبع على قلبه ويختم عليه، فلا يبقى فيه محل لغير ما يهواه ويحبه، وكان الانصراف مقدورا له في أول الأمر، فلما تمكنت أسبابه لم يبق مقدورا له، كما قال الشاعر:

تولّع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه من أنفع الأشياء في باب القدر(...) والله سبحانه جاعل ذلك كله، وخالقه فيهم، بأسباب منه»(١٤٥).

فالختم: إغلاق القلب، وشد الرباط عليه، وإحكام القفل عليه، والطبع أشد منه.

---

(١٤٣) الشوكاني: فتح القدير، ج١، دار الوفاء، ص ١١٩.

(١٤٤) ابن القيم: شفاء العليل، ص ١٩٥.

(١٤٥) المصدر السابق، ص ١٨٩، ١٩٠.

وفي (إكمال المعلم) للقاضي عياض عن الختم قال: «وأصله: التغطية، أي: غطَّى عليها، ومنعها من الهداية به، حتى لا تعرف معروفًا، ولا تنكر منكرًا، ولا تعي خيرا(...) قالوا: وأصل الطبع في اللغة: الوسخ والتدنيس، واستعمل فيما يشبهه من الآثام، ومثله: الرين»(١٤٦).

٢- نتائج الختم والطبع على القلب:

هذا الختم ينتج آثارا سيئة جدا في القلب، والعقل والسلوك، فمع كل ما ذكرناه في تحليلنا السابق نجد أن القلب المختوم عليه:

- قلب لا يؤمن بالرغم من نداء الإيمان له: ﴿ **بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [النساء: ١٥٥] .

- وهو لا يعلم الحق، ولا يسمع، ولا يفقه: ﴿ **وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٩٣] ﴿ **وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، ﴿ **وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ [التوبة: ٨٧]، ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ [المنافقون: ٣]، وهو مغضوب عليه، ممنوع من الهداية.

- وهو ينادي من مكان بعيد، ﴿ **وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ** ﴾ [الجاثية: ٢٣].

- وهو لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه، وهو محجوب عن الله، والخير... إلخ.

٣- أسباب الختم والطبع:

وهناك أسباب من فعل الإنسان تؤدي إلى أن يخلق الله الختم والطبع في قلب صاحبها؛ فمقدمات وأسباب الطبع هي:

(١٤٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٣، ص ٢٦٥.

أ- اتخاذ الهوى إلها: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ب- الكفر: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

جـ- التكبر والاستعلاء والانتفاخ والتجبر: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

د- الاعتداء، وظلم الآخرين: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

هـ- الجهل وترك طرق المعرفة، وتثقيف القلب والعقل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

و- تتابع الذنوب وإحاطة الخطيئة بالقلب، حتى تغلق الذنوب القلب، ويربط عليه بالقفل والرباط المحكم.

ز- النكول عن الجهاد، والتحرر من العدو، والرضا بالدونية، والصغار، والذل: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

ح- التتابع في ترك صلاة الجمعة، ثلاث مرات متتاليات بغير عذر؛ تهاونا بها، وفي ترك الجماعات:

١- أخرج مسلم عن الحكم بن سيناء أن عبد الله بن عمر وأبا هريرة حدثاه: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره: «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين**»(١٤٧).

---

(١٤٧) إكمال المعلم، ج٣، رقم ٨٦٥، ص ٢٦٤، ورواه البيهقي في السنن الصغرى، ج١، دار الفكر، رقم ٣٠٦، ص ١٨٤.

ورواه أحمد مرارا، عن ابن عباس وعن ابن عمر أنهما سمعا رسول ﷺ يقول: «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكتبن من الغافلين**»(١٤٨). ورواه بلفظ: «**أو ليختمن الله عز وجل على قلوبهم، وليكتبن من الغافلين**»(١٤٩). ورواه ابن ماجه بلفظ: «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين**»(١٥٠).

وودعهم بمعنى: تركهم الجمعة، والتخلف عنها.

٢- وأخرج أحمد عن أبي الجعد الضمري- وكانت له صحبة- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك ثلاث جمع، تهاونا، من غير عذر، طبع الله تبارك وتعالى على قلبه**»(١٥١). وفي رواية أبي داود: «**من ترك ثلاث جمع تهاونا بها، طبع الله على قلبه**»(١٥٢).

وأخرجه الطبراني عن أبي الجعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ترك ثلاث جمعات متواليات، تهاونا بها طبع الله على قلبه**»(١٥٣). وفي رواية له: «**من ترك الجمعة ثلاثا، تهاونا بها، طبع الله على قلبه**»(١٥٤).

وأخرجه ابن ماجه بلفظ: «**من ترك الجمعة ثلاث مرات، تهاونا بها، طبع على قلبه**»(١٥٥).

---

(١٤٨) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٣، رقم ٢٢٩٠، ص ٥٠، ورقم ٣٠٩٩، ص ٣٤٤.

(١٤٩) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٢، رقم ٢١٣٢، ص٥٣٦- ٥٣٧، ورواه أيضا برقم ٥٥٦٠ بإسناد صحيح، المسند، ج٥، ص١١٣، ورواه النسائي، المجتبى، ج٣، رقم ١٣٧٠، ص٦١.

(١٥٠) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٦٥٣، ص ٢٤٤، ورواه البيهقي في السنن الصغرى، ج١، رقم ٦٠٤، ص ١٨٥ - وفي السنن الكبرى، ج٣، رقم ٥٣٦٠، ص١٧١.

(١٥١) إسناده صحيح، المسند، ج١٢، رقم ١٥٤٣٧، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(١٥٢) سنن أبي داود، ج١، رقم ١٠٥٢، ص ٣٩٧، وإسناده صحيح، وهي رواية النسائي، المجتبي، ج١، رقم ١٣٦٩، ص٦١ وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، مجلد٢، ط٣، رقم ٦١٤٣.

(١٥٣) حديث صحيح، الطبراني: المعجم الكبير، ج٢٢، رقم٩١٥، ص ٣٦٥.

(١٥٤) المصدر السابق، رقم ٩١٦، ص٣٦٥- ٣٦٦ ورواه بإسنادين آخرين، رقم ٩١٧، ٩١٨، ص ٣٦٦.

(١٥٥) قال الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٩٣٠، ص ٣٣٣.

٣- وأخرج ابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك الجمعة ثلاثا، من غير ضرورة، طبع الله على قبله**»(١٥٦).

وروى أحمد عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «**من ترك الجمعة ثلاث مرارا، غير ضرورة، طبع على قلبه**»(١٥٧).

٤- وأخرج ابن ماجه عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل عسى أحدكم أن يتخذ الصُّبَّة** [العدد من الغنم من عشرين إلى ثلاثين] **من الغنم، على رأس ميل أو ميلين، فيتعذر عليه الكلأ** [العشب] **فيرتفع، ثم تجيء الجمعة فلا يجيء، ولا يشهدها، وتجيء الجمعة فلا يشهدها، وتجيء الجمعة فلا يشهدها، حتى يطبع على قلبه**»(١٥٨).

٥- وأخرج الطبراني عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «**لينتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة، ثم لا يأتونها، أو ليطبعن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين**»(١٥٩).

من هذه الأحاديث نخرج بأن ترك صلاة الجمعة، وعدم شهودها ثلاث مرات متتابعات، من غير عذر، ومن غير ضرورة، وإنما تهاونا، أي: يتركها متهاونا بها، فإن النتيجة هي أن يختم الله على القلب، ويطبع عليه، ويجعله الله من الغافلين، ومن المنافقين، فقد أخرج الطبراني عن أسامة بن زيد، مرفوعا: «**من ترك ثلاث جمعات من غير عذر، كتب من المنافقين**»(١٦٠). والتهاون: هو الترك بلا عذر.

---

(١٥٦) قال الألباني: حسن صحيح، المصدر السابق، رقم ٩٣١، ص ٣٣٣.

(١٥٧) إسناده صحيح، المسند، ج١٦، رقم ٢٢٤٥٧، ص ٣٥١.

(١٥٨) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٩٣٢، ص ٣٣٤.

(١٥٩) قال الهيثمي: وإسناده حسن، انظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج١٩، رقم ١٩٧، ص ٩٩.

(١٦٠) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط٣، رقم ٦١٤٤، ص ١٠٥٨.

وقال القرطبي: «والختم عبارة عما يخلقه الله تعالى في قلوبهم من الجهل والجفاء، والقسوة، وقال القاضي في شرح المصابيح: المعنى: أن أحد الأمرين كائن لا محالة؛ إما الانتهاء من ترك الجمعات، أو ختم الله تعالى على قلوبهم؛ فإن اعتياد ترك الجمعة يغلب الرين على القلب، ويزهد النفوس في الطاعات»(١٦١).

ونخلص من ذلك إلى أن للختم والطبع على القلب أسبابا من فعل الإنسان، فإذا فعلها خلق الله الطبع والختم على القلب، فهو جزاء عدل منه للقلب الذي يستحقه؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فهم الذين زاغوا، وتمادوا في الذنوب، وفعلوا- بإرادتهم- أسباب الطبع، فخلقه الله على قلوبهم- الختم والطبع- عقابا عدلا.

قال ابن القيم: «والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب- سبحانه- بعبده من أول وهلة، حين أمره بالإيمان، أو بينه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه، سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى.. والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختيارًا، فلما تكرر منهم، صار طبيعة وسجية»(١٦٢).
ثم يقول: «فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب،.. وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق، عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه»(١٦٣).

وهذا قانون من قوانين حركة القلب، فهو يتدرج من الإيمان إلى الكفر، أو العكس، والله هو الذي يقلب القلوب، لأسباب وحكم تقتضي ذلك.

---

(١٦١) حاشية السندي على سنن النسائي، بهامش المجتبى، ج١، دار الكتب العلمية، ص ٦١.
(١٦٢، ١٦٣) ابن القيم: شفاء العليل، ص ١٩٢.

٤ - قانون التخلص من الختم، وفك القفل، وفتح القلب الأغلف:

الله عز وجل بيده مفاتيح القلوب، فهو الذي يقفلها، وهو الذي يفتحها، وقد جاء في حديث صحيح بيان لهذا المفتاح، أخرج البخاري في باب كراهية السَّخَب (الصخب ورفع الصوت بالخصام) في الأسواق، من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين (الحصن الحافظ) أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُكَ المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء (ملة الشرك)؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا»(١٦٤). وإقامة الملة العوجاء: هو إخراج أهلها من الكفر إلى الإيمان.

وأخرجه البخاري في باب ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وفيه: «ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا»(١٦٥) قال ابن حجر: «قوله: (حتى يقيم به) أي: حتى ينفي الشرك، ويثبت التوحيد، والملة العوجاء: ملة الكفر، قوله: (فيفتح بها) أي: بكلمة التوحيد»(١٦٦). وفي روايته في الأدب المفرد: «..ويفتحوا بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا»(١٦٧). وهذا يبين فاعلية الناس في فتح القلوب المغلقة، الغلف، من خلال تربية التوحيد والإيمان في القلب.

---

(١٦٤) فتح الباري، ج٤، رقم ٢١٢٥، ص ٣٤٣.

(١٦٥) المصدر السابق، ج٨، رقم ٤٨٣٨، ص ٥٨٥.

(١٦٦) المصدر السابق، ص ٥٨٦، ورواه أحمد بإسناد صحيح، المسند، ج٦، رقم ٦٦٢٢، ص ١٨٥.

(١٦٧) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٢٤٦، ص ٩٢.

فهذا الحديث الصحيح يؤسس منهجية تربوية لتحويل القلب الأغلف، وفتح قفله، وجعله قلبا مفتوحا، منورا، وذلك بتربية التوحيد في القلب، فإذا فعل الإنسان ذلك في قلبه الأغلف، وفتح قلبه بالتوحيد لله، فإن الله يفتح هذا القلب.

إننا هنا إزاء تربية الأمل، الأمل حتى في فتح القلب الأغلف الأغلق.. والطريق محدد: تربية التوحيد، والإيمان في القلب والضمير الإنساني.

إن هذا الحديث يعطي المربي والحركي المسلم أملا رائعا، وإحساسا متفائلا، بتغيير القلوب نحو الله، وفك أقفال القلوب، المهم أن يسلك المنهج التربوي الصحيح: «بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح بها... قلوبا غلفا».

وهكذا تقام الملة العوجاء، أي: يقضي على العوج، بإزالة الكفر، والشرك، فتحيا الأمة، والملة.

وقد وضح ابن القيم القانون السابق، قانون فك الختم، وفتح القفل من القلوب، قال: «ومما ينبغي أن يعلم: أنه لا يمتنع مع الطبع والختم، والقفل حصول الإيمان؛ بأن تفك الذي ختم على القلب، وطبع عليه، وضرب عليه القفل- ذلك الختم، والطابع، والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه، ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه، التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر- لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليها السعادة والإيمان. وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] وعنده شاب، فقال: اللهم عليها أقفالها، ومفاتيحها بيدك، لا يفتحها سواك، فعرفها له عمر، وزادته عنده خيرا (...).

والمقصود: أنه- مع الطبع والختم والقفل- لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم، والطابع، وفتح ذلك القفل، يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد، غير ممتنعة عليه(...).

والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالا وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملاءمته لنفسه، فإذا عرف الهدى فلـم يحبـه، ولم يرض به، وآثر عليه الضلال، مع تكرر تعريفه منفعة هذا وخيره، ومضرة هذا وشره؛ فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه- في هذه الحال- تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدي نفسه، وأنه- إن لم يهده الله- فهو ضال، وسأل الله أن يقبل قلبه، وأن يقيه شر نفسه؛ وفقـه وهـداه، بـل لـو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال، .. لكانت كراهته وبغـضه إيـاه- مع كونه مبتلًى به - من أسباب الشفاء والهداية.

«ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال: محبته له، ورضاه به، وكراهتـه للهدي والحق، فلو أن المطبوع على قلبه، المختوم عليه كـره ذلـك، ورغـب إلى الله في فك ذلك عنه، وفعل مقدوره، لكان هداه أقرب شيء إليه»(١٦٨).

وهذا النص يقرر حقيقيتين تربويتين:

الأولى: إمكان تغيير القلب الأغلف، المختوم عليه، والمطبوع عليـه، وفـك الختم، وفتح القفل.

والثانية: أن نقطة البدء في هذا التغيير والفتح، والقفـل هـي: بغـض حـال الختم، وكراهية حال الطبع، والتوجه إلى الله لفتح هذا القفل.

وهكذا نخرج بأربع إجراءات تربوية للتخلص من صفات الختم، والطبع، والقفل، والغلق، والتغطية على القلب:

١- تربية التوحيد في القلب.

٢- بغض وكراهية هذه الصفات، وحبه الهدى، والإيمان.

٣- التوجه إلى الله الذي بيده مفاتيح القلوب.

(١٦٨) ابن القيم: شفاء العليل، ص ١٩٠، ١٩١.

٤- الشروع في مواجهة أسباب القفل والطبع المذكورة في الفقرة السابقة.

وذلك كله من خلال منهجية حكيمة، تربي التوحيد، وترعاه، وتحميه من أسباب الختم المذكورة.

لكن المفتاح الأكبر والأكثر فاعلية هو تربية التوحيد في القلب والإحساس، والوعي، فشهادة التوحيد هي مفتاح القلب الأغلف.

إذن الطريق هو تربية التوحيد حتى تشهد قلوبنا أن لا معبود بحق إلا الله، ولا مطاع بحق، ولا مشرع بحق، ولا محبوب بحق، إلا الله، فهو الذي تحبه وتأله القلوب، وتخضع له، وتذعن، وتسعى إليه، وتتحاكم إلى شرعه، وتتوجه له بكل قول، وفعل، واعتقاد، وتبرأ من كل عبادة لغير الله، ومن كل تشريع مخالف لشرعه، ومن كل طاغوت يحكم بغير ما أنزل الله. هذا هو **المفتاح الأول**. فإذا فتح القلب؛ دخله النور، وانشرح صدره للإسلام.

والمفتاح الثاني: هو الدعاء بأن يقبل الله بقلب الإنسان إليه، وأن يفتح القفل،.. وهذه واقعة تبين ماذا نقصد؟

«عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- ففقده عمر، فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع في هذا الشراب، قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب؛ من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر- رضي الله عنه- جعل يقرؤه، ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي»[١٦٩]. رواه ابن أبي حاتم، ورواه أبو نعيم، وفيه: «فلم

---

(١٦٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٧٠.

يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع، فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره؛ قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخًا لكم زل؛ فسددوه، ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه»(١٧٠).

وأترك القارئ لتفهم الدلالات التربوية لهذه الواقعة.

خامسا: حال القلب المنكوس ومشخصاته:

أ- جاء في حديث الفصل في وصف هذا القلب: «**وأما القلب المنكوس: فقلب المنافق، عرف ثم أنكر**» وفي رواية: «**فقلب المنافق الخالص..**» وفي حديث حذيفة: «**وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي**».

من هذا الحديث نستخلص مشخصات أربعة لهذا القلب:

١- أنه قلب منكوس، أي: مقلوب، والنكس: قلب الشيء على رأسه، فيجعل رأسه أسفله، وأعلاه أسفله(١٧١). ونكس رأسه: أماله، وطأطأه، بسبب ذل ونحوه، قال شمر: «النَّكْس في الأشياء: معنى يرجع إلى قلب الشيء ورده، وجعل أعلاه أسفله، ومقدمه مؤخره» والنَّكْس: الرجوع عن المعرفة إلى الإنكار، قال شمر: «يقال: نكس الرجل: إذا ضعف وعجز» والنَّكْس، والنُّكْس: عودة المريض في مرضه، وعاودته، العلة بعد النَّقَهِ(١٧٢).

فالقلب المنكوس: هو القلب المقلوب المائل، المطأطأ، الذليل، المنكر، العاجز، المرتد إلى وراء، وإلى مَرَض، وهذا هو القلب المذكور في حديث حذيفة في الصنف الثاني من القلبين: «**حتى تصير القلوب على قلبين، على أبيض مثل الصفا(...) والآخر أسود مربادا، كالكوز مُجَخِّيًا**» أي: مائلا

(١٧٠) المصدر السابق.

(١٧١) الراغب: المفردات، ص ٥٠٥.

(١٧٢) المعطيات السابقة في: ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ٤٥٤٠، ٤٥٤١.

مقلوبا، لا يمسك ما يوضع فيه من معرفة، وإيمان وخير، مثل الكوز المقلوب، فعندما عرف الحق، وقبله، واهتدى، وأبصر كان معتدلا، في وضع سليم، فلما أنكر، وجحد، بقلبه، وعمى، وغفل: انتكس؛ أي: انقلب، واسود، ومرض، وذل، وعجز، وارتد.

ولا يمكن إصلاح هذا القلب إلا بعد عدله إلى الوضع السليم، وإقامته في الوضع الصحيح، من جديد، فلا يدخله النور، ولا روح الإيمان والوحي، ولا حب الخير، ما دام منكوسا، فنقطة البدء هي أن يعدله صاحبه؛ بتربية الإيمان فيه، وتنمية القابلية للحق والخير وطاعة الله، والانقياد لمنهجه، وتربية اليقين والإسلام فيه، حتى يستوي ويعتدل.

٢- أنه قلب أنكر وجحد وكذب بالحق، والوحي الإلهي، بعد أن عرفه، فستر الحق البين، وكفره، بسبب غلبة هواه، أو استعلاء، أو حسدا، أو لأية علة نفسية أو سياسية، أو اقتصادية، فهو يعرف الحق ثم ينكره، إنه فعلا قلب منكوس.

فهو قلب كافر، غطى الخير فيه بالشر، وستر العلم بالجحود.

٣- أنه قلب عمى بعد البصر، فبعد أن أبصر الحق، وتفتح عليه، عمي، ودخل في الغمرة، وأظلم من بعد نور، فهو متخبط في ليل النفاق، وظلماته، إنهم استحبوا العمى على الهدى، بعد ما استوضحوا الأمر، وتبينوه، فهم عمي القلوب.

٤- أنه قلب منافق، مخادع، بوجهين، وباطن يخالف الظاهر، علانيته بوجهة، وسريرته بوجهة مخالفة، شخص متناقض، مفكك الشخصية، غير سوي الكينونة، إنه مريض، معلول، وهذه الخاصة ألقي عليها بعض الأضواء، فيما يلي.

ب- مشخصات القلب المنافق ومعالمه الأساسية:

القلب المنافق هو القلب الأكثر خطورة في المجتمع الإنساني، وصاحبه هو الأكثر فسادا في الكيان الإسلامي، فهو يعمل من تحت، وهو آمن بمظهره الإسلامي، ومن هنا تأتي خطورته الكبرى، كما تأتي من طبيعة القلب المنافق، الطبيعة الملتوية، الماكرة، المخادعة، التي لها وجوه عدة [١٧٣].

ولهذه الخطورة ولعموم الابتلاء بهم- أعني المنافقين- وشدة فتنتهم على الإسلام، وأهله، وشدة عدائهم للمسلمين، وتلونهم، فإنني أتناول النقاط الآتية: مفهوم النفاق، طبيعة مرض النفاق، أهم مقوماته وعلاماته، كيفية الخروج من نفق النفاق المظلم.

١ - مفهوم النفاق:

أ- النفاق: مصطلح صاغه الله، ليعبر عن مرض قلبي خطير، وهو مأخوذ من كلمة: نَفَق؛ أي: الطريق النافذ في الأرض، ومنه: نافِقاء اليربوع، وهو ما يحفره في الأرض ويجعل له فتحتين، يدخل من الأولى، ويخرج من الثانية، خداعا لمن يريد صيده، فالنفاق هو «الدخول في الشرع من باب، والخروج عنه من باب» [١٧٤].

والنفاق: هو ستر الكفر، وإظهار الإسلام، فالإيمان لم يدخل القلب، وهو مأخوذ من النافقاء: أحد طريقي اليربوع تحت الأرض، إذا طلب من واحد هرب إلى الآخر، وخرج منه، وقيل: مأخوذ من النَّفَقِ، وهو الذي يكون تحت الأرض، يستتر فيه؛ لستره كفره، والنفق: سَرَب أو ممر في الأرض له مخلص إلى مكان آخر، وسمي المنافق منافقا، لأنه نافق كاليربوع، وهو دخوله نافقاءه، فالمنافق يدخل في الإسلام، ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه،

(١٧٣) انظر في ذلك: ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ط دار التراث العربي، ص ٢٦١- ٢٧٠.
سيد قطب: في ظلال القرآن، ج١، دار الشروق، ٢٠٠٢م، ص ٤٢- ٤٦.
(١٧٤) الراغب: المفردات، ص ٥٠٢.

والمنافق الذي يستر كفره، ويظهر إيمانه، وكأن النفاق يعني أيضا: مخالفة الظاهر للباطن(١٧٥)، وإظهار غير ما في الباطن، يقول الحكيم الترمذي: «والنفاق: ما كان ذا لونين: يقين وشك، وإخلاص ورياء، وغير ذلك، وإنما سمي نفاقا؛ لأنه يدخل عليه الأمر من بابين: من باب الله تعالى، فيقبل عنه، من طريق الإيمان، ومن باب النفس: فيقبل عنها من طريق الشهوة»(١٧٦).

ب- **والنفاق نوعان**: نفاق اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وهو موضوع هذا الحديث، إنه نفاق القلب والعقيدة. ونفاق عملي، وهو من أكبر الكبائر، والأول؛ الاعتقادي: هو النفاق الأكبر، وهو أشد من الكفر، ويوجب الخلود في النار، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن: منسلخ من ذلك كله، مكذب به.

ونفاق الاعتقاد هو المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ...**﴾ [البقرة: ٨ - ١٠]، فهؤلاء هم المنافقون، قال ابن جرير في معنى الآية الأولى: «هذا المنافق، يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه»(١٧٧).

فهو يقول: آمنت- بلسانه- ويكذبه الله، فيما أخبر عن اعتقاده، في الإقرار بالله، والبعث بعد الموت، وإعلام أنه يبدي بفمه خلاف ما في ضمير قلبه، وضد ما في عزيمة نفسه، فقلبه فارغ من الإيمان الحقيقي، فلا ينفعه الإقرار بلسانه. وهو مخادع: يظهر بلسانه التصديق، خلاف ما في قلبه من التكذيب، ليحافظ على مصالحه بين المسلمين، وهو يكيد لهم، ويتآمر عليهم، وهو في

---

(١٧٥) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، دار المعارف، ص ٤٥٠٧- ٤٥٠٩.
(١٧٦) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول.. ج٢، ص ٣٦.
(١٧٧) الطبري: جامع البيان، ج١، ص ١٥٧.

الحقيقة يخدع نفسه، وما يشعر أنه ضر نفسه بها أسر وأبطن من الكفر والنفاق. وهؤلاء المنافقون يعانون من مرض في القلب، من سقم، وعلة قلبية، وهو علة ومرض ما في قلوبهم من الاعتقاد في الدين، والتصديق بمحمد، والوحي المنزل عليه، ففي اعتقادهم في ذلك كله: شك وتحير، فلا يوقنون إيقان إيمان، ولا ينكرون إنكار إشراك، ولكنهم مذبذبون بين ذلك، ضعفاء العزم، فلا يحسمون موقفهم، ولا يصححون اتجاههم، فهم هكذا مرضى القلوب والموقف والاتجاه، بسبب ما في اعتقادهم من شك، وريبة في أمر الله، والإسلام، والبعث بعد الموت، وهم يصرون على هذا الشك والحيرة، فيزيدهم الله شكا وحيرة، ورجسا إلى رجسهم، وضلالا إلى ضلالهم.

وهم قوم يكذبون، فيخالف كلامهم واقع قلوبهم، فهم يدعون الإيمان بألسنتهم، لكن واقع قلوبهم أنها شاكة مرتابة، فالكذب خاصية للنفاق.

وهم قوم مغرورون، يفسدون، ولكن يزعمون الإصلاح، فهم فئة تتصف بالكذب والخداع- دائما - هم يفسدون- بكل معاني الإفساد - ودعواهم عريضة في أنهم مصلحون، مع أنهم يضيعون أمر الله، ويعملون في الأرض بما نهى الله عنه، ويشكون في دين الله، ويظاهرون أهل التكذيب ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

وهم قوم يلعبون على كل الحبال؛ إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا، وإذا لقوا أعداء الله، قالوا: نحن معكم وإنما نستهزئ بالمؤمنين.

إنهم قوم لا يدركون قيمة الهدى، فباعوا الهدى، واشتروا الضلالة، أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، واستحبوا العمى على الهدى، هذه هي حقيقة نفاق الاعتقاد(١٧٨).

---

(١٧٨) انظر، الطبري: المصدر السابق، ص ١٥٦ - ١٨٥. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٤٨ وما بعدها.

وخلاصة القول: أن النفاق هو تناقض الشخصية الإنسانية، فالباطن شيء، والظاهر شيء آخر، والمنافق كما يقول قتادة: «خَنِع الأخلاق؛ يصدق بلسانه، وينكر بقلبه، ويخالف بعمله، يصبح على حال، ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفأ السفينة، كلما هبت ريح هبت معها»(١٧٩).

٢- طبيعة مرض النفاق، وجذوره في القلب:

يقول ابن القيم في مفهوم مرض القلب: «ومرض القلب: خروج عن صحته واعتداله، فإن صحته: أن يكون عارفا بالحق، محبا له، مؤثرا له على غيره.

فمرضه: إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه، فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غني وشهوة، وقد سمى الله سبحانه، كلا منهما مرضا.

قال ابن الأنباري: أصل المرض- في اللغة- الفساد، مرض فلان: فسد جسمه، وتغيرت حاله، ومرضت الأرض، تغيرت وفسدت (...) والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد، وضعف، ونقصان، وظلمة (...) وقال ابن الأعرابي: أصل المرض: النقصان. ومنه: بدن مريض؛ أي: ناقص القوة، وقلب مريض، ناقص الدين، (...) وقال الأزهري عن المنذري عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة، واضطرابها بعد صفائها، قال: والمرض: الظلمة، وأنشد:

وليلة مَرِضَتْ من كل ناحية فما يضيء لها شمس ولا قمر

هذا أصله في اللغة. ثم: الشك، والحيرة، والضلال، وإرادة الغي، وشهوة

---

(١٧٩) ابن كثير، المصدر السابق، ص ٤٨.

الفجور- في القلب- تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض، حتى يمرض، فيعاقبه الله بزيادة المرض؛ لإيثاره أسبابه، وتعاطيه لها»(١٨٠).

فقلب المنافق مريض: أي فاسد، ضعيف، ناقص، مظلم بسبب الشك والريبة،.. والمخادعة، والمراوغة، وإرادة الفجور والغي، والفساد، والاستعلاء، والتلاعب بالآخرين لتحقيق مصالحهم هم.

وأصل مرض النفاق هو الفتنة. وقد حلل ابن القيم هذا الأصل، يقول: «والفتنة نوعان: فتنة الشبهات: وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات: من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى؛ فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيئ القصد؛ الحاكم عليه الهوى، لا الهدي، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].. وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال(...).

وهذه الفتنة: تنشأ، تارة، من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب،.. وتارة من غرض فاسد، وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة(...).

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات(...).

وأصل كل فتنة: إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

---

(١٨٠) ابن القيم: شفاء العليل، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة.

ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر»[(١٨١)].

فابن القيم يعطينا الجذور النفسية والعقلية لمرض النفاق: منها:

- تغليب الرأي على الشرع، والهوى على العقل، وقيم المصلحية والمنفعية والذاتية على قيم الإيمان بالله، والتقوى.

- الطبيعة النفسية المتصفة بالفساد والعجز، والظلمة، ونقصان الوعي، والإرادة.

- التناقض الشخصي.

٣ - أهم مقومات وعلامات النفاق، والمنافق:

من خلال تحليل مضمون الآيات القرآنية التي تناولت النفاق، والأحاديث النبوية التي حددت معالم شخصية المنافق، خلصت إلى منظومة قيم النفاق التي تحكم توجهاته، وسأشير هنا إلى معالم في هذه المنظومة، والتي يمكن دراستها من خلال تفسير آيات سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة التوبة، وسورة المنافقون - التي تحدثت عن هذه القيم السلبية الخطيرة.

وأهم مقومات النفاق، وشخصية المنافق:

الشك والارتياب في أمر الله، وأمر رسوله، والوحي، واليوم الآخر، الضلال عن هداية الله، والرضا بالضلال، وإنكار الحق، الرياء ومخالفة الظاهر للباطن، المخادعة والمراوغة، وتناقض الشخصية، الكذب، التكذيب بحقائق الغيب، الاستهانة بالدين والمتدينين، وسبهم، والتآمر عليهم، موالاة أهل الكفر والإلحاد والإباحيين وحبهم، واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين بالله، فهم يحبون الكفار المعادين للمسلمين، ويلقون إليهم بالمودة، ويتحالفون مع

(١٨١) ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج٢، ص ١٦٠ - ١٦٢.

الطواغيت، ضد المسلمين، وينصرون أعداء الله من دون المؤمنين، معاداة أهل الإسلام، وخصوصًا الملتزمين بالدين منهم، والتشنيع عليهم، والكيد لهم، والاستهزاء بهم، والسخرية منهم، نشر الانحلال والفتنة في أوساطهم، الفرح بما يصيب المسلمين من مصائب، والاغتمام بما يصيب المسلمين من نصر وغلبة، ورفاهية، السعي في الإفساد السياسي، والثقافي، وتخريب حركة الثقافة في المجتمع، وتلويثها، مع الادعاء بأنهم مصلحون تنويريون، الإعراض عن التحاكم للشريعة الإسلامية، وتفضيل حكم الأهواء، والطواغيت، أو أي حكم آخر غير حكم الله ورسوله، ادعاء أنهم يريدون مصلحة الأمة، وهم يبغونها الفتنة، زخرفة اللسان، الهلع عند الدعوة للجهاد في سبيل الله، ظلمة القلب، وتغليب الرأي على الشرع، وإرادة الغي والفساد والفجور، والغدر والخيانة، إنكار الحق بعد معرفة، عَمَى القلب، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه، مطبوع عليه.

هذه هي مقومات شخصية المنافق، وهي مقومات خطرة جدًا في المجتمع المسلم، وكلها نابعة من فساد القلب، ومرضه بالنفاق.

إن القلب المنكوس هو القلب الأكثر خطورة على الإسلام والمسلمين.

٤ - والقلب المنافق درجتان: المنافق الخالص؛ والمنافق المختلط:

فأما القلب المنافق الخالص فهو قلب مظلم، منكوس تمامًا، جاحد، أعمى تمامًا، وقد ضرب الله له مثلًا؛ قال: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]، فالله شبه المنافقين، في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن طلب إيقاد نار من أجل ضوئها، فلما أضاءت ما حوله، وأبصر بها، وتأنس بها، وعرف وأبصر ما يتقي، وما يفعل، فإذا هو كذلك إذ طفئت

ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم، لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى، لا يبصر، ولو كان ضياء ما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك المنافقون، في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وهذا التشبيه في غاية الصحة؛ لأن المنافقين، بإيمانهم الأول، اكتسبوا نورًا، فهم عرفوا الحق، فاستناروا، وعرفوا الهدى، ثم نافقوا؛ أنكروا، وجحدوا، بقلوبهم، أو شكوا وارتابوا، وغلبوا الهوى على الهدى، وقيم الأنانية على قيم الله، فأبطلوا النور، فوقعوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة القلوب في موقفها من الدين.

فهذا إخبار عنهم في حال نفاقهم، بعد إيمانهم، فقد كان حصل لهم إيمان ومعرفة بالحق، ثم نافقوا، فسلبوه، وطبع على قلوبهم؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، فهم استضاؤوا بنور الإيمان، قبل أن ينافقوا، ثم سلبوا النور، فصارت قلوبهم مظلمة، لأن الله ذهب بنورهم، وتركهم في ظلمات الشك، والنفاق الأكبر، لا يبصرون ولا يهتدون إلى سبيل الخير، ولا يسمعون خيرًا، ولا يتكلمون بما ينفعهم، عمي القلب، لا يرجعون إلى الهدى الذي كانوا عليه، لأنهم جروا وراء ملذاتهم ومصالحهم الذاتية، واعوجاجهم النفسي، فالمنافق كان في ظلمة الشرك، فأسلم؛ فعرف الحلال والحرام، والخير والشر، فبينما هو كذلك إذ كفر كُفْر نفاق فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر، أو صار ينكر ما أحله الله وما حرمه، بعد ما عرفه، فالمنافق كان على هدى ونور، ثم نزع منه ذلك، بعد ما أعطاه الله له، عندما أقبل عليه، فلما أنكره، وكذب به، نزع منه هذا النور فصار أعمى القلب. يقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «هذه صفة المنافقين: كانوا قد

آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارًا ثم كفروا فذهب الله بنورهم، فانتزعه، كما ذهب بضوء هذه النار، فتركهم في ظلمات لا يبصرون»(١٨٢).

فالمنافق الصلب؛ المنكوس القلب تمامًا، لم يعرض عن الهدى - ابتداء، بل سمعه، وأدركه عقله، وقلبه، ولكنه استحب العمى على الهدى، بعد ما استوضح الأمر وتبينه، لقد استوقد النار، فلما أضاء له نورها لم ينتفع بها، وهو الذي طلبها، فذهب الله بنوره الذي طلبه هو، وتركه وأمثاله في ظلمات لا يبصرون، جزاء إعراضهم عن النور، وتعطيلهم أدوات المعرفة والبيان.

٥ - وهناك نفاق يختلط ببعض الحق، في القلب، وقد مثَّله الله تعالى بقوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٩، ٢٠].

يقول ابن كثير: «وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم، وكفرهم وترددهم، ﴿كَصَيِّبٍ﴾ والصيب: المطر (...) نزل من السماء في حال ظلمات، وهي: الشكوك والكفر والنفاق، ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف: فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفَزَع.. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] .. ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] ... ﴿وَبَرْقٌ﴾ هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين، في بعض الأحيان- من نور الإيمان، ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ولا يجدي حذرهم شيئًا؛ لأن الله محيط بقدرته، وهم تحت

(١٨٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥٤، والمعطيات السابقة، ص ٥٣، ٥٤.

مشيئته وإرادته، (...) ثم قال: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ أي: لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان (...) عن ابن عباس: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ أي: لشدة ضوء الحق، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ أي: كلما ظهر لهم من الإيمان شيء؛ استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعرِض لهم الشكوك، أظلمت قلوبهم، توقفوا حائرين، (...) وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور، بحسب إيمانهم»[١٨٣].

فيطفأ نور المنافقين، الخُلّص، الذي قال لهم فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣]، فقلب المنافق أسود مظلم، وسبب ظلمته أنه لم يلتمس النور في الدنيا، فيكون في الآخرة - أيضًا - في ظلمة.

٦- وقد أردت أن أوضح المشهد القلبي والنفسي للمنافق، وأشخص حالة الحيرة والظلمة، التي يعيش فيها بسبب النفاق.

٧- طريق التخلص من القلب المنكوس:

تهدف التربية الإسلامية إلى أن يكون الإنسان المسلم ذا قلب سليم أجرد منور، فتخلص من خصائص القلب المنكوس المذكورة، وآليات ذلك تبدأ أولًا بتربية البغض الشديد لهذه الخصائص، والأحوال الخاصة بالمنافق، وتربية العشق للقلب السليم، المستيقن، المنير، الملهم، وهذا الحب والبغض هو نقطة البدء لتغيير ما بالقلب من النفاق.. فلابد من إرادة تغيير ما بالقلب، حتى يغير الله ما فيه من النفاق، إلى إيمان... فهذا هو قانون التغيير: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١٨٣) المصدر السابق، ص ٥٤، ٥٥.

فإذا تحقق بغض النفاق، ومحبة اليقين والإيمان والنور، وتربت إرادة التغيير، فإن ما يأتي يمثل تطبيقات سهلة على صاحب هذا القلب: وهي:

١- إن هناك آيتين في سورة النساء تحتاجان لتأمل، هما: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النسا: ١٤٥، ١٤٦]، فمنهجية التخلص من النفاق، تقوم على:

(التوبة - إصلاح القلب، والنفس، والأخلاق، والعادات - إخلاص العبادة لله)

٢- يقول ابن القيم: « فتنة الشبهات تدفع باليقين»، والشبهات أصل مرض النفاق، فطريق الخلاص يتحدد في تربية اليقين في القلب، ثم يبين ابن القيم أنه لا ينجي من فتنة الشبهات «إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه»(١٨٤).

٣- ذكرنا في فصل سابق حديث حذيفة (تعرض الفتن على القلوب...) وبينا أن القلب يصبح مقلوبًا كالكوز المقلوب بسبب حبه للإثم، وتتابعه فيه، فطريق التخلص من القلب المقلوب، هو التوبة التي تعدل القلب، وقد بينا حقيقة التوبة في فصل (القلوب المصقولة)، والمهم هنا: هو توبة القلب لله، وتطهيره من الجحود والعمى وإرادة الغي.

٤- إن أصل مفهوم النفاق هو التناقض بين إسلام اللسان وإنكار القلب، فالمخرج هو تربية الإيمان الحقيقي في القلب، وصبغ الكينونة الإنسانية كلها به، وسيأتي تفصيل ذلك في فصل (تجديد الإيمان في القلب).

---

(١٨٤) ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج٢، ص ١٦٠.

ولكنَّا نختم هذا المبحث بتأمل الواقعة الآتية:

أخرج الطبراني في الكبير عن ابن عمر ﷺ قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه حرملة بن زيد، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، الإيمان ها هنا، وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق ها هنا، وأشار بيده إلى صدره، ولا يذكر الله إلا قليلًا! فسكت عنه النبي ﷺ، فردد ذلك عليه، وسكت حرملة، فأخذ النبي ﷺ بطرف لسان حرملة، فقال: «**اللهم اجعل له لسانًا صادقًا وقلبًا شاكرًا، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير**»، فقال حرملة: يا رسول الله، إن لي إخوانًا منافقين، كنت فيهم رأسًا، أفلا أدلك عليهم؟ فقال النبي ﷺ: «**لا، من جاءنا كما جئتنا؛ استغفرنا له كما استغفرنا لك، ومن أصرَّ على ذنبه فالله أولى به، ولا تخرق على أحد سترا**»(١٨٥).

فهذا الحديث يحدد مبادئ للتخلص من نفاق القلب:

فأولًا: لابد من شعور المنافق بسوء ما هو عليه، أن يشعر بتناقض شخصيته، وأن يكره ذلك، وأن يسعى للتخلص منه، ويدخل في موقف عملي ضد هذا الوضع المريض، وأن يُنْهِضَ قلبه، وينتفض، ويقوم معتدلًا لتحقيق الإيمان في القلب.

ثانيًا: لابد من اتصافه بالقلب الشاكر المحب للنبي ﷺ، وبصدق اللسان، أي: أن يطابق كلامه ما في قلبه، فيحدث انسجام في شخصيته، وتناسق وتواؤم بين الباطن القلبي، والظاهر للناس.

ثالثًا: التوجه إلى الله بالدعاء والاستغفار، وفك عقدة الإصرار على النفاق من القلب، واستمداد النور منه.

---

(١٨٥) الطبراني: المعجم الكبير، ج٤، رقم ٣٤٧٥، ص٥ – قال محققه حمدي السلفي: «قال في المجمع (٩/ ٤١٠): ورجاله رجال الصحيح، وقال الحافظ في الإصابة (٢/ ٥٠)، بعد أن نسبه للطبراني: وإسناده لا بأس به، وأخرجه ابن منده أيضًا، ...»ص ٥.

هذا هو حال القلب المنكوس ومشخصاته، وتحديد جوهر وأصل النفاق فيه، ومقوماته، وكيفية التخلص منه وتحويله إلى قلب معدول، أجرد، فيه سراج يزهر.

وقد جاء في حديث حذيفة أنه «قلب مصفح» بدل «منكوس»، لكنني سرت على أساس حديث أبي سعيد، الذي حسنه وجوده ابن كثير، وأما القلب المصفح، فهو قلب مختلط، ليس منافقًا منكوسًا، وليس مؤمنًا منيرًا دائمًا، وليس كافرًا، وإنما هو قلب آخر، قلب فيه إيمان صحيح، ونفاق يختلط بالإيمان، وهو ما أبينه في الفقرة التالية.

سادسًا: القلب المُصْفَحُ:

أ- جاء في حديث أبي سعيد: «**وأما القلب المصفح: فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة، يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة، يمدها القيح والدم، فأي المدتين** - وفي رواية - **المادتين غلبت على الأخرى، غلبت عليه**»، وفي رواية أبي نعيم لحديث حذيفة: «**فمثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، ومثل النفاق مثل القرحة يمدها قيح ودم، فأيهما ما غلب عليه - غلب**». وفي رواية ابن أبي شيبة لحديث حذيفة: «**وقلب فيه نفاق وإيمان؛ فمثله مثل قرحة يمدها قيح ودم، ومثله مثل شجرة يسقيها ماء خبيث وطيب، فأيهما غلب عليها - غلب**». وفي رواية: «**وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما**». وفي رواية: وردت في لسان العرب، أوردها فقط للبيان اللغوي: «**وقلب مُصْفَحٌ؛ اجتمع فيه النفاق والإيمان، فمثل الإيمان فيه كمثل بقلةٍ يمدها الماء العَذْب، ومثل النفاق فيه كمثل قرحة، يمدها القيح والدم، وهو لأيهما غلب**»[١٨٦].

---

(١٨٦) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٢٤٥٧.

ب – مفهوم مُصْفَحٌ:

مُصَفَّح: كلمة من أصْفَحَ يُصْفِحُ فهو مُصْفَحٌ، وهي مأخوذة من: صَفْحِ الشيء، وصَفْحُ كُلِّ شيء: وجهه، وناحيته، وجانبُه، فالمُصْفَحُ: الذي له وجهان، وجانبان، وجه إيمان، ووجه نفاق، وجه الشجرة الطيبة التي يمدها الماء العذب الطيب، ووجه القرحة التي يمدها القيح والدم.

يقول ابن منظور: «المصفح: المحال عن الحق (...) وقال شمر: «الذي فيه غِل، الذي ليس بخالص الدين»(١٨٧).

فهو قلب غير خالص الإيمان، وغير خالص النفاق، بل تمده، وتجتمع فيه، مادة الإيمان، ومادة النفاق، فهو ليس منافقًا خالصًا، ولا مؤمنًا خالص، بل هو يتراوح بين الإيمان والنفاق، تتغالب المادتان، وتتصارعان في قلبه، وضميره، فإذا غلبت مادة الإيمان كان مؤمنًا، في قلبه، ونفسه، ومشاعره، وسلوكياته، وتعاملاته، وإذا غلبت مادة النفاق؛ كان منافق القلب، والمشاعر، والتصرفات، وهو - هكذا - في صراع قلبي، حتى يقوى وينمو، ويعظم أحد الوجهين، ويغلب، وينتصر، ويحسم مادة الآخر.

وهذا القلب يمثل أنموذجًا قد يكون منتشرًا في شخصيات كثيرة واقعية، نجدها تسلك سلوكًا إيمانيًا في أحوال، وسلوكًا نفاقيًا في أحوال، ومن هنا نرى الاهتمام بهذا القلب الذي يحتاج لعمليتين ضروريتين لتربيته: الأولى: تربية شجرة الإيمان وإمدادها بالماء العذب الطيب والغذاء الطيب، وتجفيف قرحة النفاق، بإغلاق مادة القيح والدم، وهي بيئة ثقافة النفاق، وغلق منافذ القيح والدم، أي: الثقافة الملوثة بالنفاق.. فإذا تمت العمليتان بنجاح تربى القلب الطيب، والشجرة الطيبة المثمرة، وشفيت القرحة تمامًا.

---

(١٨٧) المصدر السابق، ص٢٤٥٧.

جـ- تربية شجرة الإيمان في القلب:

في حديث حذيفة وأبي سعيد مُثِّل الإيمانُ بالبقلة؛ وهي شجرة، نبات ليس دقيقًا، ولا عظيمًا، وهي الشجرة أول ما تنبت، وتكون طالعة مخضرة، ويقال: كل نبات اخضرت له الأرض فهو بَقْلٌ(١٨٨).

وقد صرح في حديث حذيفة بأن مثل الإيمان كمثل شجرة يمدها ماء طيب، أو يسقيها ماء عذب، فهي شجرة تنمو في بيئةِ ثقافةِ إيمان يُمدُّها - أي: يرويها، ويسقيها، ويغذيها - ماء طيب، نظيف، نافع، مريء.

وهذه الشجرة هي شجرة الإيمان والتوحيد والطاعة لله، شجرة لا إله إلا الله، فإذا نمت وكبرت، وزادت، وتعاظمت، وقويت، قوي جذرها، وثبت أصلها، ورسخ في القلب، وعلا فرعها في السماء، وأثمرت كل قول طيب، وكل فعل غير نافع، وآتت أُكُلها في كل الأوقات بإذن ربها؛ لأنها طيبة، تفعل الخير، وتنفع في الأرض.

هذه الشجرة - التي هي بقلة نابتة خضراء، مترعرعة، تحتاج لرعاية، وحماية، وإمداد، وتغذية، أي: تحتاج لعمليات تربية، تنميها، وتعظمها، وتكبرها حالًا، فحالًا، حتى تبلغها إلى تمام نموها، وتوصلها إلى الإثمار الطيب، في المعالم.

وهذه هي عملية تربية الإيمان في القلب، وتزكيته، كما شرحناها في فصل سابق، وأكتفي هنا بكلام الحكيم الترمذي، في الفروق، قال: «الإيمان: شجرة، أنبتها الله في قلوب أصفيائه؛ للتربية، فالمؤمن في جميع عمره يربيها، حتى ترسخ عروقها في جميع جسده، ويغلظ ساقها، وتتفرع فروعها باسقة (= عالية مرتفعة) صاعدة إلى السماء. الفروع، وثمرة الفروع: هي أعمال الجوارح (...).

---

(١٨٨) المصدر السابق، ج١، ص٣٢٨، ٣٢٩.

ولذلك قال علي -رضي الله عنه: الإيمان يبدو لمظة بيضاء، فلا يزال يفشو ويعظم حتى يأخذ القلب كله، ففشوُّه: من تربية العبد (= قيام الإنسان بتربية الإيمان في قلبه) كما تربى الشجرة - إذا غرست وهي دقيقة - بالماء، والتراب، حتى تتربى، وترسخ عروقها، وتبسق فروعها، وتنبع ثمارها، فكذلك: تُرَبَّى شجرة الإيمان؛ فماؤها العلم، وترابها العمل، وتحفظ، وترعى؛ حتى لا تيبس من تناول الدواب في أيام غرسها، وتنقى من النبات الذي يحتويها ويحتوي عليها، فكذلك يحرس إيمان القلب من الآفات، فإذا تمكنت هذه الشجرة من الأرض رسوخًا، وتمكنت في الجو فروعها، وزكت ثمرتها، حلت من مالكها محلًا؛ يحبها، ويشفق عليها، ويحوطها (...).

فكذلك المؤمن: إذا كانت طاعته لا تنقطع.. وذكر الله لا ينقطع من قلبه، فهو في جميع حالاته مريد لله، إن صلى أو نام، أو أكل أو شرب، أو صمت، أو تكلم، أو قام، أو قعد، أو تناول أو ترك، ذلك كله من أجل الله، فهذا خادم لله، جميع عمله طاعة وعبادة، وقلبه مع الله، في جميع أحواله، لا يسهو عنه؛ فهذا كشجرة لا ينقطع ثمرها، ولا ييبس ورقها، فهي خضراء ناعمة، هو ولي الله، والله وليه، به يعمر الأرض، وعين الله عليه ترعاه، مشتاق إلى الله، والله إليه أشوق»[(١٨٩)].

هذه هي عملية تربية شجرة الإيمان في القلب، ولا بد من عمليتين أخريين:

الأولى: تزويد الإيمان بالماء العذب الطيب، أي: ثقافة إيمان، غير ملوثة، ثقافة القرآن، والحديث النبوي، وصحبة أهل الخير، وفعل الخير، وأداء الطاعة لله، بإخلاص، أن يسقي الشجرة بهذه الثقافة الرفيعة الطيبة، النافعة، بمجالس العلم الصحيح، وقراءة الكتب النافعة، والتفكر في آيات الله، أي: كل ما يؤدي إلى زيادة مادة الإيمان المغذية للشجرة الطيبة.

---

(١٨٩) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص١٨٨-١٨٩.

والعملية الثانية: منع مجرى الدم والقيح، الذي يمد القرحة، قرحة النفاق.

د- تجفيف مادة القرحة ومنع ثقافة النفاق الملوثة عن القلب:

مثل النفاق بالقَرْحَة؛ واحدة القَرْح، والقُروح، وهي الجراحات الدامية، فالقَرْحة: الجرح الدامي، الذي يتقرح منه الجسم، وهذه القَرْحَة التي مثل بها النفاق، في القلب، يُمدها؛ أي: يسقيها، ويغذيها القيح والدم، والقيح: المِدّة الخالصة، لا يخالطها دم، أو الصديد الذي كأنه ماء، وفيه شبه الدم، فغذاء القَرحة: خبيث، فاسد، مقزز، وهي أفعال ومشخصات النفاق التي ذكرتها في القلب المنكوس، فإذا فعل الإنسان هذه المشخصات والمقومات، فإنه يربي، وينمي القَرْحَة، وإذا عاش الإنسان في ثقافة نفاق، أو وسط اجتماعي منافق، فإنه يمد القرحة بالقيح والدم الثقافِي الفاسد، وهكذا لكبر القَرْحَة، وربما تكون سرطانًا يقضي على الإيمان.

إذن، المخلِّص هو قطع مادة القيح والدم إلى القرحة، وتجفيف مجراها، حتى تجف، وتزيلها مادة الماء الطيب، وذلك بأمورٍ: الإقلاع عن مشخصات ومقومات النفاق، وتربية شجرة الإيمان في القلب، فيتم محاصرة القَرْحَة، واستئصالها ليخلو القلب لشجرة الإيمان.

وثالثًا: بالابتعاد عن صحبة النفاق: قراءة، ومشاهدة، ومصاحبة، فصحبة أهل النفاق تورث في القلب النفاق، لأنهم يشكلون بيئة نفاق، وثقافة نفاق، يتشربها الإنسان، فيكون ذلك إمدادًا للقَرْحَة.

وهذه العملية تحتاج إلى (مجاهدة) وإلى رعاية، ومصابرة، ونهضة قلب، يمزق قيود النفاق، لأنه يبغضها، ويدمر أصفاد العبودية لغير الله تعالى، ليرتقي إلى الله، بزاد الإيمان، فيا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى.

سابعًا: خاتمة واستنتاجات:

هذا هو حديث القلوب الأربعة: مرآة تكشف للإنسان موقع قلبه من هذه

الأقسام، وفعالية القلب مع هذا الحديث، هو أن يسأل: أي قلب أنا؟ فلنترك القارئ يعرض نفسه على هذه المرآة، الكاشفة، ثم يتخذ الموقف والإجراء المناسبين، ليكون مؤمنًا، سليمًا، منورًا، ملهمًا، متخلصًا من شخصيات القلب الأغلف، والقلب المنكوس ومادة النفاق في القلب المُصْفَح. ونحن هنا نستنبط بعض الحقائق التربوية:

١- القلب الإنساني ليس ثابتًا دائمًا، بل هو قلب متغير، متقلب، فقد يكون أجرد سليمًا مؤمنًا منورًا، وقد يكون أغلف ميتًا، مظلمًا، غافلًا، مربوطًا مغلولًا، محبوسًا، وقد يكون منكوسًا منافقًا، مقلوبًا متناقضًا، ذا وجهين، وقد يكون قلبًا مختلطًا، متراوحًا بين الإيمان والنفاق، وهذا التنوع يمنح المربي تصورًا متفائلًا، يشكل له رؤية تربوية آملة، مستقبلية، فالقلب المنكوس يمكن أن يعدل، ويصبح قلبًا مؤمنًا سليمًا، وهكذا مادة القيح يمكن تجفيفها، ويمكن تزويده بمادة الإيمان، وتربية الشجرة الطيبة - والقلب الأغلف يمكن فتح قفله، وفك ختمه بتربية التوحيد ...إلخ.

إذن، القلب الإنساني متحول، متغير حسب نوع التربية التي يتلقاها، والمناخ الثقافي، والهواء المعرفي الذي يتنفسه، لكن هذه الطبيعة القلبية، تجعلنا نقف موقف الحذر والتنبيه، حتى لا نسمح بتزويد مادة النفاق، والكفر.. مادة القيح والدم، في القلب، الحذر من الإلقاءات الثقافية التي تتدسس إلى القلب تدسسًا لتحوله من الإيمان إلى النفاق، إلى الكفر.

٢- إن الغاية التربوية التي يستهدفها التربويون المسلمون، وكل مسلم ومسلمة هو وهي مربٍ، ومربية، بوجه ما، هي تربية القلب المؤمن الأجرد، السليم، الذي فيه سراج يزهر، ويلهم.

إن القلب مكون رئيس في الكينونة الإنسانية، بل هو المكون المهيمن في الإنسان، ومن العجيب أن تهتم التربية بالجانب الجسمي والجنسي، والبيئي،

والسياسي، والعقلي، والاجتماعي والمدني، ثم تهمل العنصر المهيمن في الشخصية الإنسانية، وهو العنصر، أو المكون القلبي، فالتربية بدون تربية القلب السليم المنور، ذي الضمير الذي يعرف المعروف وينكر المنكر، تصبح تربية ناقصة، وتربية غير إنسانية، لأنها تربية بلا قلب، وبلا ضمير، وهكذا فالقصور التربوي الإسلامي يهدف إلى تصحيح، وتكميل رؤيتنا التربوية للإنسان، لتحقيق الإنْسِيَّةِ الحقيقية، وتحرير الإنسان تحريرًا كاملًا، ولا يتم ذلك بدون تربية القلب الإنساني ليكون قلبًا مؤمنًا، أجرد، سليمًا، مستنيرًا، ذا ضمير يعرف المعروف، وينكر المنكر، متحررًا من مشخصات القلب الأغلف: الكافر، الميت، المظلم، الأعمى، القاسي، المحبوس، ومتحررًا من مشخصات القلب المنكوس، الأناني، المخادع، المنافق، الملتوي، ومجففًا لمنابع الإثم، وثقافة الكفر والنفاق التي تمد القرحة. التي هي مَثَلُ النفاقِ.

فإذا نجحنا في تربية هذا القلب بهذه المقومات، وبغيرها مما نتناوله في هذه المدونة التربوية، فإننا نكون قد أمسكنا بمفاتيح التغيير كلها، على المستوى الشخصي والاجتماعي والسياسي، أي على مستوى الإنسان كائنًا، وشخصًا؛ أي: الكائن الفرد، والكائن حين يَتَشَخْصَنُ في موقف وعلاقة اجتماعية.

فتغيير ما بالقلب يثمر تغيير ما بالنفس، ومن ثَمَّ تغيير منظومة التصورات والمعتقدات وعالم الأفكار، ومنظومة القيم الموجهة، ومنظومة الاتجاهات والاشتهاءات، ومنظومة العادات والتصرفات والعلاقات الاجتماعية والفردية.

إن أساس عملية التغيير كلها هو تغيير ما بالقلب من ذلك، أي: تربية القلب الإنساني.

وهذه هي المهمة الأولى للمربي المسلم، وللحركة الإسلامية التي تسعى للتغيير الاجتماعي الرشيد.

٣- إن هناك نتيجتين مهمتين للغاية لتربية القلب الأجرد الذي فيه سراج ينير، الأولى: هي تنمية واعظ الله في القلب المؤمن- وهو موضوع الفصل التالي- والنتيجة الثانية: هي أن هذا القلب وبهذا الواعظ في داخل ضميره يصبح مصدرًا للمعرفة الدينية الخلقية في المسائل والوقائع الحياتية التي لا نص فيها، أو التي اشتبه الحكم فيها على المؤمن، فالنبي ﷺ يمنح المؤمن ثقة كاملة في قلبه، ويحيله إلى حكم القلب السليم التقي في مثل هذه المسائل، وهكذا نوسع من مصادر المعرفة، لنضم إلى المعرفة الحسية، والمعرفة العقلية، والمعرفة عن طريق الوحي والتلقي عن الرسول، مصدرًا رابعًا هو المعرفة القلبية - الصادرة عن الإلهام أو الحدس، أو الظن الصائب، أو اللقانة أو الفرقان القلبي... ولكن لهذه المعرفة حدود، وشروط قد ذكرناها في مكانها.

وبهذا يترك المربي ا لمسلم الإنسان يواجه قلبه ووقائع الحياة المتعددة، ومعه ضمير حي وواعظ رشيد وفرقان مُلْهِم.

ثامنا: أسئلة وتطبيقات لتعميق الفهم:

١- لكل قلب من القلوب الأربعة مشخصات ومحددات: استخرج هذه المشخصات على شكل أربع مصفوفات، في قائمة ثم حدد موقع قلبك بعلامة صح أمام الصفة التي تتحقق فيك. ثم احكم على قلبك، وانظر كم صفة من صفات القلب الأجرد تتحقق؟، وكم صفة من صفات القلوب الأخرى تتحقق؟

٢- استخرج جميع الأحاديث النبوية في هذا الفصل، وحاول حفظها، وتفهم معانيها، وتدبر دلالتها.

٣- قم بإعداد أربع محاضرات، أو دروس في هذا الفصل.

٤- ما الدلالة التربوية لهذا الحديث؟ وضح قولك.

٥- كلفت بإعداد دورة تربوية في موضوع مرآة القلوب، حدد الأهداف

المعرفيـة والوجدانيـة لهـذه الـدورة، والأنـشطة التـي تتطلبهـا، والآيـات والأحاديث، التي تتلى، وتدرس.

٦- قم بعمل جدول محاسبة ذاتية لنفسك من خـلال عنـاصر كـل قلـب. (هل تتحقق فِيَّ صفة القلب الأجرد: كذا، كذا...؟).

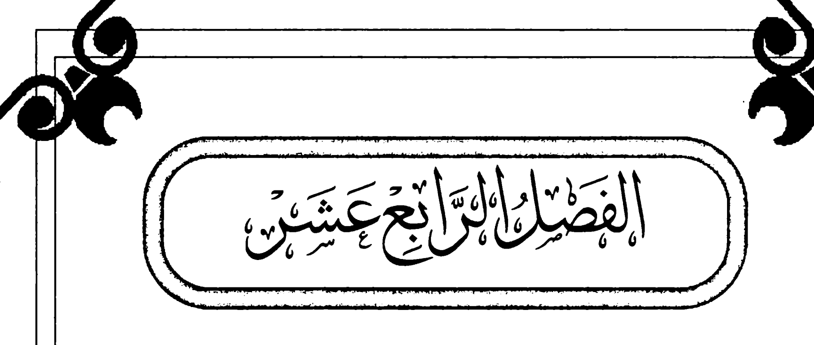
٧- ما الأهداف التربوية التي تستنبط من هذا الفصل؟ حددها تفصيلًا.

٨- هل التربية التي مررتَ بها حققت فيك هذه الأهداف؟ ما دلالة ذلك؟

٩- كيف يمكن تكميل عمليـات التربيـة في أسرنـا، وتعليمنـا الرسـمي؟ أجب في ضوء معطيات هذا الفصل.

١٠- قارن بين القلب المنكـوس والقلـب المُـصْفَح؟ حـدد أوجـه الـشبه وأوجه الاختلاف.

١١- هل يمكن إحداث تغيير اجتماعي، وإصلاح إسلامي، بـدون تربيـة القلب الأجرد المنور؟ بين بالتفصيل.



تربية الإيمان
في جذر قلوب الرجال والنساء

تربية الإيمان
في جذر قلوب الرجال والنساء

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- أخرج مسلم في باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب عن زيد بن وهب؛ عن حذيفة؛ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: «**أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة**». ثم حدثنا عن رفع الأمانة، قال: «**ينام الرجل النومة؛ فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوَكْت. ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه؛ فيظل أثرها مثل المَجْل؛ كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصًى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدى الأمانة، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان**»، ولقد أتى عليّ زمان، وما أبالى أيكم بايعتُ، لئن كان مسلما ليردنه على دينه، ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه عليَّ ساعيه، وأما اليوم فما كنتُ لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا[1].

وأخرجه البخاري في باب رفع الأمانة؛ عن زيد بن وهب؛ حدثنا حذيفة؛ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة**». وحدثنا عن رفعها؛ قال: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المَجْل، كحجر دحرجته على رجلك فَنَفِطَ، فتراه مُنْتَبِرًا، وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد**

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، دار الوفاء، حديث رقم ٢٣٠، ص٤٤٨، ٤٤٩، وفي صحيح مسلم بشرح النووي ج٢، ص١٦٧-١٧٠ (ط مناهل العرفان) وفي طبعة الشعب، ج١، رقم ٢١٣، ص٣٥١- ٣٥٣.

أحدهم يؤدي الأمانة. فيقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»، ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلما رده عليَّ الإسلام، وإن كان نصرانيا رده عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانا وفلانا[٢].

وأخرجه البخاري في باب إذا بقي في حثالة من الناس، مثله، تقريبا[٣].

وأخرج جزأه الأول عن زيد بن وهب: سمعت حذيفة يقول: حدثنا رسول الله ﷺ «**أن الأمانة نزلت من السماء في جذر قلوب الرجال، ونزل القرآن فقرأوا القرآن وعلموا من السنة**»[٤].

وأخرجه الإمام أحمد عن حذيفة قال، وساق الحديث، وفيه: «**حتى يقال للرجل: ما أجلده وأظرفه وأعقله، وما في قلبه حبة من خردل من إيمان...إلخ**»[٥].

وأخرجه ابن ماجه؛ عن حذيفة؛ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين: قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: «**إن الأمانة نزلت في جذر وقلوب الرجال**»- قال الطنافسي: يعني: وَسْطَ قلوب الرجال- ونزل القرآن، فعلمنا من القرآن وعلمنا من السنة، **ثم** حدثنا عن رفعها فقال: «**ينام الرجل النومة، فترفع الأمانة من قلبه، فيظل آثرها كأثر الوكت، ثم ينام النومة، فتنزع الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المجل..**» الحديث إلى آخره[٦].

وأخرجه الترمذي في باب ما جاء في رفع الأمانة، وقال: هذا حديث حسن صحيح[٧].

---

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١١، رقم ٦٤٩٧، ص ٣٣٣.
(٣) فتح الباري، ج١٣، كتاب الفتن، رقم ٧٠٨٦، ص ٣٨.
(٤) فتح الباري، ج١٣، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، رقم ٧٢٧٦، ص ٢٤٩.
(٥) إسناده صحيح، المسند، ج١٦، رقم ٢٣١٤٨، ص ٥٦٩-٥٧٠.
(٦) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٢٩٣، ص ٣٢٧-٣٢٨.
(٧) الترمذي: سنن الترمذي، ج٤، باب ما جاء في رفع الأمانة، رقم ٢١٨٦، ص ٧٤-٧٥.

وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء؛ عن زيد بن وهب، قال: قال حذيفة ﷺ، حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة**»، ثمّ حدثنا عن رفعها فقال: «**ينام الرجل فيكم فينكت في قلبه نكتة سوداء، فيظل أثرها كالمجل، كجمر دحرجته على رجلك، فنفط منتبرا، ليس فيه شيء، فيصبح الناس ليس فيهم أمين، وليأتينَّ على الناس زمان، يقال للرجل: ما أظرفه، وما أعقله! وما في قلبه من الإيمان مثقال شعيرة**»[٨].

ثانيا: تمهيد للأصول التي يتضمنها حديث حذيفة:

هذا حديث عظيم الشأن جدا، من منظار العقيدة، والأخلاق والتربية، ومنهجية الحركة والتغيير، وهو يبين ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن الإيمان ينزل في القلب،ويربي فيه أولا، ويعطاه الإنسان أولا، ثم يزداد علما وبصيرة فيه كلما علم من القرآن، وكلما علم من السنة، فالأصل التربوي الأول هو إنزال الإيمان في جذر القلب، أي: في أصله ووسطه، ثم تربية هذا الإيمان بعلم القرآن وعلم السنة، والعمل بهما.

الحقيقة الثانية: هي تقرير قانون التحول التدريجي من الإيمان إلى نقيضه، بسبب الغفلة وتتابع الإثم، حتى ينزع الإيمان من القلب، ويقبض منه، إذا لم يتدارك المؤمن موقفه، ويطبق القانون التربوي المضاد؛ أعني قانون تربية الإيمان في القلب.

الحقيقة الثالثة: أن موازين تقويم الناس تتغير، فبدل أن يقوم الناس وبدل أن يوزنوا بميزان الإيمان والإسلام؛ تتغير قاعدة ومرجعية التقويم في المجتمع؛ حين ينزع الإيمان تدريجيا من القلوب، ويحل محله قيمة مرجعية أخرى- حاكمة للسلوك، ومضادة للإيمان، فيصبح المعيار:هو الثروة، أو السلطة، أو الشهرة، أو الجاه...إلخ.

---

(٨) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، ص ٢٧١.

وهذه نتيجة في المرجعية والمشروعية العليا في المجتمع، كما تظهر نتيجة أخرى لنزع الإيمان من القلوب، وهي الفساد الخلقي، والانحراف السلوكي، فتظهر الخيانة، وأكل المال بالباطل.

إذن الحقيقة المركزية للإصلاح والتغيير هي بالرجوع إلى الأصل الأول: إنزال الإيمان في جذر القلوب، وسقيه بعلم القرآن، وعلم السنة، أي: المنهجية النبوية.

ولهذه الأهمية فإنني سأفصل المقال في شرح هذا الحديث، في النقاط المتتابعة، الآتية.

ثالثا: مفهوم الأمانة في حديث حذيفة:

يذكر الحديث أن(الأمانة) نزلت من السماء، في جذر قلوب الرجال، فما **مفهوم الأمانة هنا؟**

أ- إذا نظرنا إلى آخر الحديث نجد فيه قول رسول الله ﷺ : «**حتى يقال للرجل: ما أظرفه.. وليس في قلبه مثقال ذرة من خردل من إيمان**» إذًا، الذي قبض، ورفع، ونزع من القلب هو الإيمان، والذي نُزع، هو الذي نزل في وسط وأصل وجذور القلوب، فهي الإيمان، إذًا، ولهذا ترجم الإمام مسلم للحديث بقوله: «**باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب..**» فالأمانة هي الإيمان ولوازمه ومقتضياته، وشعبه، ومنها أداء الأمانة: بمختلف أنواعها، وعدم خيانتها.

ب- والأمانة التي تنزل في جذر القلوب، هي اسم لما يؤتمن عليه الإنسان، كما يشير الراغب، ويقول: «وقوله: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ** ﴾ [الأحزاب: ٧٢] قيل: هي كلمة التوحيد، وقيل: العدالة(...) وقيل: العقل، وهو صحيح، فإن العقل هو الذي- لحصوله- يتحصل معرفة التوحيد، وتجري العدالة(...) بل لحصوله: تُعُلِّم كل ما في طوق البشر تعلمه، وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله، وبه فضل كثير ممن خَلَقَه»(٩).

---

(٩) الراغب: المفردات..، ص ٢٥-٢٦.

فالراغب يتجه إلى تعريف الأمانة بالعقل، ويفسر آية الأحزاب بذلك، وهو تفسير صحيح، لكنه ليس المراد في حديث حذيفة، فالأمانة فيه- نزلت من السماء في جذر القلوب، فدل على أنها شيء آخر غير العقل، وإن كان إعمال العقل جزءا من مفهومها؛ لأن الإنسان مؤتمن عليه، وملزم بتشغيله، كما أن العقل لازم وشرط للتكليف بالإيمان.

جـ- ويقول ابن الأثير: «والأمانة تقع على الطاعة والعبادة، والوديعة والثقة، والأمان، وقد جاء في كل منها حديث»[١٠]. والثلاثة الأولى هي المقصودة في حديث الفصل.

ونذكر هنا ما قاله الطبري وابن كثير في مفهوم الأمانة في آية الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ فيقول الطبري: «اختلف أهل التأويل في معنى ذلك؛ فقال بعضهم: معناه: إن الله عرض طاعته وفرائضه على السموات والأرض والجبال، على أنها: إن أحسنت؛ أثيبت وجوزيت، وإن ضيعت؛ عوقبت، فأبت حملها؛ شفقا منها ألا تقوم بالواجب عليها، وحملها آدم(...) عن سعيد بن جبير.. قال: الأمانة: الفرائض التي افترضها الله على العباد(...) عن ابن عباس، قوله: إنا عرضنا الأمانة: الطاعة(...) قال ابن زيد، في قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ .. ﴾ قال: إن الله عرض عليهن الأمانة، أن يفترض عليهن الدين، ويجعل لهن ثوابا وعقابا، وشيئا منهن على الدين(...) عن قتادة: قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ .. ﴾ يعني به الدين والفرائض والحدود(...).

وقال آخرون: بل عني بالأمانة في هذا الموضع: أمانات الناس(...) عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: **«القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها- أو قال- يكفر كل شيء- إلا الأمانة، يؤتى بصاحب الأمانة، فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أي رب، وقد ذهبت الدنيا؟ ثلاثا، فيقال: اذهبوا به إلى الهاوية، فيذهب به إليها، فيهوي فيها حتى ينتهي إلى**

---

(١٠) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص٧١.

قعرها، فيجدها هناك كهيئتها، فيحملها، فيضعها على عاتقه، فيصعد بها إلى شفير جهنم حتى إذا رأى أنه قد خرج؛ زَلَّتْ، فهو في آثرها، أبد الآبدين» قالوا: والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع، فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق(...).

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله الذين قالوا: إنه عني بالأمانة- في هذا الموضع- جميع معاني الأمانات: في الدين، وأمانات الناس؛ وذلك أن الله لم يخص بقوله: ﴿عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ بعض معاني الأمانات؛ لما وصفنا»[١١].

فالطبري يرجح أن الأمانة هي الدين، والطاعة.. والودائع.. أي: هي الإيمان وفرائضه، ولوازمه..ويقول ابن كثير: «قال مجاهد وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن البصري، وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض، وقال آخرون: هي الطاعة(...) قال أبي بن كعب عن الأمانة: إن المرأة أؤتمنت على فرجها.. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة، وقال ابن مالك عن زيد بن أسلم؛ قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة، وكل هذه الأقوال: لا تنافي بينها، بل هي متفقة، وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي؛ بشرطها، وهو أنه إذا قام بذلك: أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان، على ضعفه وجهله، وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان»[١٢]. ثم ساق حديث ابن مسعود عن طريق الطبري، وقال: «إسناده جيد، ولم يخرجوه»[١٣].

وحديث ابن مسعود واضح الدلالة على أن الأمانة هي لوازم الإيمان وفرائضه، التي أؤتمن عليها الإنسان، فإذا لم يؤدها- جاحدا، أو ليس معه أصل الإيمان- فإنه يكون في النار (أبد الآبدين)، وهذا الخلود لا يكون إلا

---

(١١) ابن جرير الطبري: جامع البيان، مجلد ١٢، دار الفكر، الجزء الثاني والعشرون، ص ٦٠-٦٤.
(١٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٢٢.
(١٣) المصدر السابق، ج٣، ص٤، ٥.

للكافر والمشرك، ولهذا قال الله- تعالى- بعد آية الأمانة: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

د- والذي ذكره الطبري وابن كثير ذكر مثله شراح حديث رفع الأمانة من القلوب، جاء في فتح الباري: «قال ابن التين: الأمانة: كل ما يخفى، ولا يعلمه إلا الله، من المكلف، وعن ابن عباس: هي الفرائض التي أمروا بها ونهوا عنها، وقيل: هي الطاعة، (...) وقال صاحب التحرير: الأمانة المذكورة في الحديث هي الأمانة المذكورة في الآية، وهي عين الإيمان فإذا استمكنت في القلب قام بأداء ما أمر به، واجتنب ما نُهي عنه. وقال ابن العربي: المراد بالأمانة- في حديث حذيفة- الإيمان، وتحقيق ذلك: فيما ذكر من رفعها: أن الأعمال السيئة، لا تزال تضعف الإيمان، حتى إذا تناهى الضعف لم يبق إلا الإيمان، وهو التلفظ باللسان والاعتقاد الضعيف في ظاهر القلب، فشبهه بالأثر في ظاهر البدن، وكَنَّى عن ضعف الإيمان: بالنوم، وضرب مثلا لزهوق الإيمان عن القلب حالا، بزهوق الحجر عن الرجل حتى يقع بالأرض(...) وكنى عن الإيمان بالأمانة، وعما يخالف أحكامه: بالخيانة»(١٤).

فالأمانة التي نزلت من السماء في أصل ووسط القلوب هي: الإيمان، فإذا قوي، واستمكن منه قام المؤمن بأداء الأوامر، واجتناب النواهي، وممارسة أخلاق الإيمان وقيمه في سلوكياته، وتصرفاته، واختياراته، وعلاقاته، ومواقفه، وانتماءاته، فأخلاقية السلوك الحسن، تتجذر في إيمان قلبي يقيني، حقيقي، عاشق للأخلاق الحسنة، ومشتهى للعمل طبقًا لها.

وإذا غفل المؤمن، وخان إيمانه، وفرط في الالتزام بلوازمه، ضعف إيمانه، شيئا فشيئا حتى ينتزع منه الإيمان، ولا يبقى إلا (منظر) خارجي، مع قلب فارغ.

---

(١٤) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٤٠.

والمقصد: أن الأمانة هي الإيمان ومقتضياته، ولوازمه، ومستحباته.

ويقول النووي: «وأما الأمانة؛ فالظاهر: أن المراد بها: التكليف الذي كلف الله به- عباده، والعهد الذي أخذه الله عليهم، قال الإمام أبو الحسن الواحدي في قول الله- تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ : قال ابن عباس- رضي الله عنهما: هي الفرائض التي افترضها الله- تعالى- على العباد، وقال الحسن: هي الدين، والدين كله أمانة، وقال أبو العالية: الأمانة: ما أمروا به وما نهوا عنه، وقال مقاتل: الطاعة.

قال الواحدي: وهذا قول أكثر المفسرين، قال: فالأمانة؛ في قول جميعهم-: الطاعة، والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب، وبتضييعها: العقاب، والله أعلم، وقال صاحب التحرير: الأمانة(...) عين الإيمان، فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام، حينئذ، بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجد في إقامتها، والله أعلم»(١٥).

هـ- فالأمانة هنا هي الإيمان: التصديق اليقيني بوحي الله، أمرا وخبرا، تصديقا مبنيًّا على علم مبرهن عليه، ومستلزما للخضوع، والإذعان والانقياد لأمر الله وخبره، في كل ما أمر، وأخبر؛ جملة، وعلى الغيب.

ولا شك أن الأمانة بمفهوم: رد الوديعة إلى صاحبها، وبمفهوم(توسيد الأمر- الحكم- الولاية، الوظيفة العامة- إلى أهله، أي: إلى أصحاب الأهلية والكفاءة والجدارة،الجديرين بالقيام بمسئولياتها ومهامها) هذه الأمانة تنبثق من ذلك الإيمان الذي استقر واستمكن في أصل ووسط القلب، فالله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فالذي ينفذ هذا الأمر، هو المؤمن به، فالالتزام الخلقي يصدر عن الإيمان، بالخلق، الإيمان بأن أمر الله واجب النفاذ، وأنه مجزي به، ثوابا أو عقابا يوم الدين، فمصدر الالتزام

---

(١٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص١٦٨.

الخلقي ليس من القهر الاجتماعي، وليس هو الإدراك العقلي للخلق، وتصور جدواه الدنيوية، فقط، وليس هو (جذبة الحب) فقط، والرغبة في تقليد الزعيم الآسر؛ الكارزمي، بل مصدر الإلزام الخلقي عند المؤمن هو (الإيمان) كما ذكرت، فتربية الإيمان هي في نفس الوقت تربية للأمانة؛ أي: أداء الودائع، والحقوق لأصحابها، وتوسيد الأمر إلى أهله، أي: إسناد الوظائف والولايات- في المجتمع إلى أصحاب الجدارة المؤهلين لأدائها بجودة، وفعالية، أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «**إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(١٦).

وقد رواه في أول كتاب العلم، وفي آخره: «**فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(١٧). لأن تضييع الأمانة هو انعكاس لتضييع الإيمان، ولهذا جاء في حديث حسن عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**». وفي رواية لأحمد: ما خطبنا النبي ﷺ إلا قال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»(١٨) وإسناده حسن، ففي كل خطبة يعلمهم النبي ﷺ أن الأمانة لازم من لوازم الإيمان، وأن من لم يمارس الأمانة في تعاملاته، فلا إيمان له، إما أنه لا إيمان له أصلًا، وإما أنه يفتقد كمال

---

(١٦) فتح الباري، ج١١، رقم ٦٤٩٦، ص ٣٣٣.

(١٧) فتح الباري، ج١، رقم ٥٩، ص ١٤٢.

(١٨) أخرجه ابن أبي شيبة بدون جزئه الثاني، وقال الألباني في تحقيقه: حديث صحيح، وإسناده حسن، وأخرجه أحمد من طرق أخرى عن أبي هلال- به ، وله عنده طريق ثانية عن أنس، وعند ابن حبان طريق ثالثة عنه، وفي كلها زيادة: «**لا دين لمن لا عهد له**» انظر: الإيمان، لابن أبي شيبة، رقم ٧، ص٥. وأورده كله في صحيح الجامع، وقال: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٧١٧٩، ص ١٢٠٥، وأخرجه أحمد في المسند ثلاث مرات،بإسناد حسن، انظر: المسند، ج١٠، رقم ١٢٣٢٤، ص ٤٣٨ ورقم ١٢٥٠٥، ص ٤٩٩، والمسند، ج١١، رقم ١٣١٣٢. والحديث رواه ابن حبان، والبزار، والبغوي، والبيهقي.

الإيمان الواجب، وهذا- على أية حال- دليل على أن خلق الأمانة في الممارسة العملية، لا يتم إلا بتربية الإيمان في القلب، فالإيمان القلبي بالأمانة هو مصدر الإلزام بها في السلوك مع الناس.. في الواقع الاجتماعي، فتربية الخلق الحسن تستلزم تربية الإيمان بالخلق أولا، فمن هنا نبدأ.

و- ولهذا يقول الترمذي: «الإيمان: عُشُّ الأمانة، والأمانة في جوفه كالفرخ(...)، ووكل العباد بتربيتها كما يربي الطير فرخه في عشه، ويزقه، ويغدو في طلب تربيته حتى ينقل إليه من أقطار الأرض(...) ويذب عنه، ويقاتل من يرومه في عشه، تَحَنُّناً عليه وشفقة وصيانة، حتى ينبت له جناح، ويطير معه، فهكذا المؤمن؛ موكل بحفظ الأمانة، وقد قبلها مع قبول الإيمان، ولم يتم له الإيمان إلا بقبول الأمانة(...)، فجرى قبولها من القلب، إلى الجوارح السبع، فتجزأ حملها على هذه الجوارح(...)، فالسمع أمانة، والبصر أمانة، والفرج أمانة، والبطن أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة(...)، وقد قَلَّد كل جارحة بقسطه من الأمانة، فمن استبدل بها خيانة؛ انتقص من وزن إيمانه، ومن ضوئه ما دام حيا، وضوء الإيمان: رأس مال الموحدين، به يستضيئون في السير إلى الله تعالى في الطاعات، فإذا غاب الضوء؛ ضل القلب، بمنزلة قمر وقع في كسوف، فكسوف ضوء الأمانة في ظلمة الخيانة، فكل فعل حرم الله على جارحة من الجوارح فهتكت تلك الجارحة ذلك الستر، وانتهكت تلك الحرمة برفع حجابها، فقد خانت الأمانة.

فالمتقون فهموا هذه القصة؛ فخرست ألسنتهم عن أن تنطق بما نهى الله عنه، والسمع عن الاستماع إلى ما نهى الله عنه، وكل عضو كذلك، وحفظوا القلب وساحته؛ وهي الصدر، مع الله- تعالى - وفيما بينه وبين الخلق، فكلما زلت جارحة من جوارحك؛ بفعل ما حظر الله عليك؛ فقد ضيعت الأمانة بقدرها، وانكسف من ضوء قمرك بقدره، ونقص من وزن إيمانك بقدره، فإذا

أحكمت شأنَ الجوارح السبع، وجعلتها في وثاق الأمانة؛ فقد نجوت»[(١٩)].

وهذا كلام حسن جدا؛ فالأمانة تربى في محضن الإيمان، فإذا رُبِّيَ الإيمان ربيت الأمانة معه، ورباها الإيمان، ونماها، ورعاها، وكبرها، وجعلها تعم الجوارح السبع، وكل الكيان الإنساني، والمؤمن مطالب بتربية الإيمان والأمانة في قلبه، فإذا خانت جارحة من جوارحه، بارتكاب خلق سيئ؛ إثم، معصية، لله، نقص نور الإيمان، ووزنه، وقدرته على الإلزام الخلقي.

إذن الأمانة- في الحديث- هي ما ائتمننا الله عليه، لنؤديه إليه وحده، فهي الإيمان به، وبوحيه، الذي أوحاه إلى محمد رسول الله ﷺ، ولوازمه ومقتضياته؛ من فعل أمر الله، واجتناب نهيه في كل شئون الحياة الفردية والاجتماعية، ابتغاء وجه الله وحده.

رابعا: تربية الإيمان في القلب أولا:

أ- رأينا أن الأمانة التي نزلت من السماء في أصل ووسط القلوب هي عين الإيمان، وأن الأمانة بمفهومها الخاص تتربى في محضن الإيمان كما يتربى الفرخ في العش، فقول صاحب التحرير عن الأمانة: «إنها عين الإيمان، فإذا استمكنت من قلب المؤمن قام حينئذ بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجد في إقامتها» هذا القول؛ نافذ في الحق، ومنير لطريق تربية الإنسان المسلم، إنه يوضح الخطوة الأولى والضرورية لتربية الشخصية المسلمة، وهي: تربية الإيمان في القلب، أولا- للوصول به إلى درجة من التمكن والقوة ينتج عنها اغتنام المسلم لأداء الواجبات، والجد في إقامة فرائض الإيمان وشعبه وشرائعه العقدية والخلقية، فإذا تمكن الإيمان في القلب، ونزل في أصله ووسطه، فإنه كلما قرأ القرآن، علم، وازداد بصيرة في الإيمان، وكلما قرأ السنة، ازداد علما وبصيرة في الإيمان والعمل بلوازمه، فنما إيمانه، وازداد، وتم، وهذا المعني هو الذي قرره حديث حذيفة: «**إن الأمانة نزلت من السماء في جذر**

---

(١٩) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج٢، ص ٢٨٩-٢٩١.

قلوب الرجال» أي: أن الإيمان نعمة من الله، توفيق من الله، ينزل في وسط وأصل قلوب الرجال، أي: والنساء؛ لأن هذا أسلوب ورد على التغليب.

والجذر- بفتح الجيم، ويجوز بكسرها- هو الأصل، والوسط، أي: أن الإيمان ينزل في وسط وأصل، وعمق القلوب، ثم (نزل القرآن) أي: نزل على القلب الذي نزل في وسطه الإيمان، والإيمان مثل شجرة طيبة، والقرآن: ربيع القلب، أي: ماؤه، ومطره، وغيثه النافع، فيروي، ويسقي شجرة الإيمان، ويمدها بالغذاء، فتنمو، وتعظم، فيزداد علمًا، وبصيرة في فهم الإيمان ولوازمه، والعمل بشعبه وفروعه، وأغصانه، فيعمل على علم، فيثمر إيمانه خيرا خاصا، وعاما، وذلك إذا قرأ القرآن، والقلب فيه الإيمان، والإيمان حي في وسطه، وجذره، وإذا قرأ السنة النبوية فإنه يزداد علما وبصيرة، في الإيمان، فيربو الإيمان ، أي: ينمو، ويزداد، ويزكو، أي: يتربى، ولهذا قال الحديث: «**ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة**» وفي رواية: «**ونزل القرآن، فقرأوا القرآن، وعلموا من السنة**» وفي رواية: «**فعلمنا من القرآن، وعلمنا من السنة**» يقول محمد فؤاد عبد الباقي: «**فعلمنا من القرآن**»: أي: بعد نزول الأمانة في القلوب، ازددنا فيها- بالقرآن والسنة- بصيرة، وحسنت منا العلانية والسريرة»[٢٠].

فازدياد العلم والوعي والفقه، والبصر العقلي، في الإيمان، بالقرآن والسنة ينتج عن تمكن الإيمان في أصل القلب الذي ينزل عليه قرأة القرآن، وقرأة السنة، وازدياد العلم من القرآن والسنة هو ازدياد في الإيمان، وتربية للنور في القلب، وبالتالي يغتنم المؤمن شعب الإيمان، ويجدّ في إقامتها، فهو ينبعث بدفع الإيمان القلبي، وبتحريكه نحو الممارسة العملية لما آمن به، قال شبير أحمد: «إن الأمانة أول ما نزلت في قلوب رجال الله، واستولت عليها، فكانت هي

(٢٠) سنن ابن ماجه، المجلد الثاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، هامش، ص ١٣٤٦.

الباعثة على الأخذ بالكتاب والسنة»[٢١].

إذا، صلاح البرانية، والسلوك مع الناس ينبعث من صلاح الجوانية، من صلاح القلب، وصلاح القلب إنما يتحقق بتربية الإيمان في القلب، أولًا، وتزكيته به، وبقراءة القرآن، وبتعلم السنة بتفهم، وبقلب أعطي الإيمان، وسكنه الإيمان، وتعمق في وسطه، وتمكن، وسيطر، وحكم ووجه الجوارح، والنشاطات، وقد فصلنا هذه الوجهة في فصل سابق.

ب- وهذا هو الأصل التربوي الذي أسس عليه النبي محمد ﷺ حركته التربوية التغييرية لتربية أصحابه، ﷺ جميعا، فأثمرت حركته التربوية الشاملة جيلا فريدًا في الإيمان والعلم والعمل وضخامة الإنجاز في مستوياته العقدية والثقافية والخلقية والسياسية والفكرية والحضارية. **لنتأمل فيما يلي:**

١- أخرج أحمد، عن عبد الله بن عمرو، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أقرأ القرآن فلا أجد قلبي يعقل عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن قلبك حُشِي الإيمان، وإن الإيمانَ يُعْطَى العبدَ قَبْلَ القرآن**»[٢٢]، فتربية الإيمان في القلب أولًا، والإيمان عطية الله- تعالى، لكنها تربي.

٢-أخرج ابن ماجه عن جندب بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَة (أشداء)، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن؛ ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانا»[٢٣].

وأخرجه الطبراني، عن جندب؛ قال: «كنا مع نبينا ﷺ فتيانا حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فنزداد به إيمانا، فإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان»[٢٤].

---

(٢١) من هامش للدكتور يحيى إسماعيل، محقق: إكمال المعلم، ج١، ص ٤٤٩، نقلا عن فتح الملهم (١/ ١٧٨).

(٢٢) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٦، رقم ٦٦٠٤، ص ١٧٥.

(٢٣) قال الألباني: صحيح. صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٥٢، ص ٣٧-٣٨.

(٢٤) المعجم الكبير، مجلد٢، رقم ١٦٧٨، ص ١٦٥.

وأخرجه الطبري اللالكائي عن أبي عمران الجوني؛ عن جندب؛ قال: «كنا مع النبي، ونحن فتيان حزاورة، يعني: أشداء، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، بعد، فازددنا إيمانا»(٢٥).

فهذا الخبر الصحيح يدل على أن الصحابة- الجيل الذي رباه محمد رسول الله ﷺ- تعلموا الإيمان قبل أن يتعلموا القرآن، ثم تعلموا القرآن، فازدادوا به إيمانا، أي نما وتربي إيمانهم، وزاد، وعظم؛ لأن في القلب قابلية التلقي الصحيح، والقابلية لمعطيات الإيمان، ثم يرصد جندب تحولا تربويا خطيرا وهو قوله: «**فإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان**» أي: وهذا مخالف للسنة النبوية التربوية، وهي تربية الإيمان- أولًا، أي: تأسيس وتكوين وتنمية التصديق اليقيني المستلزم للخضوع والإذعان والانقياد والتسليم للوحي الإلهي..في القلب، فإذا تحقق هذا الأصل التأسيسي، وانفتح القلب على القرآن ازداد إيمانا، وعلما، وبصيرة، أي: ازداد عملا بلوازم الإيمان، التي هي أيضا من الإيمان، وهذا مثل قول النبي ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، ثم علموا من السنة..**».

وهذا المعنى هو المعبر عنه بإتيان الإيمان قبل القرآن، قال عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما: «لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها، وزواجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ولقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته: لا يدري ما آمره؟ وما زاجره؟ وما ينبغي أن يقف عنده؟ فينثره نثر الدَّقَل»(٢٦).

---

(٢٥) قال محققه: إسناده حسن، انظر: الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الثاني، دار البصيرة، الإسكندرية، رقم ١٧١٥، ص ٨٠٥-٨٠٦.

(٢٦) رواه الحاكم وصححه، على شرط الشيخين، والبيهقي، كما قال العراقي، في المغني؛ انظر: إحياء علوم الدين، ج١، ص ١٣٠.

فالإيمان يربى أولًا، في القلب، وتكون تربيته بالقرآن، وبالسنة، وبالتفكر في الآلاء والآفاق، وبالصلاة، وبفعل المعروف، ولكن إذا قرأنا القرآن وليس في القلب إيمان به وبمن أنزله، وأوحاه، سبحانه وتعالى، فلن يحدث تغيير سلوكي، إيجابي نحو التخلق بأخلاق القرآن.

فهي القاعدة التربوية الكبرى، والقانون الاجتماعي الذي طبقه الرسول محمد ﷺ، وأحدث به التحول الجذري في حركة التاريخ: تغيير القلب أولا- بتربية الإيمان فيه، وتغيير ما بالأنفس، على أساس قيم الإيمان التي تمكنت في القلب.

جـ- ودخول الإيمان في القلب ، وتربيته، ومحبته هو السمة الفارقة بين المؤمنين والمنافقين نفاق اعتقاد، وبين المؤمنين من أهل السنة المتبعين لمنهج رسول الله وأصحابه، (والخوارج) المارقين من الإسلام:

١- فأولا يقول الله- تعالى- في صفة المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨]، فالله هو الذي يحبب إلى المؤمنين الإيمان، وهو الذي يزينه في قلوبهم، ويُكرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعل هؤلاء هم أهل الرشاد، وذلك فضلا منه، ونعمة، فالمؤمن يحب الإيمان، ويشتهيه، ويقبله، وينفعل به، ويعمل حسب لوازمه، ويبغض كل ما هو عكس ذلك، ففعل القلب: حبا، وقبولا، وتصديقا وإذعانا، وانقيادا، أولا، قال ابن زيد: «حببه إليهم وحسنه في قلوبهم»(٢٧). وقال ابن كثير: «أي: حببه إلى نفوسكم، وحسنه في قلوبكم»(٢٨).

فالأصل الفارق بين المؤمن والمنافق أن المؤمن له قلب: أحب الإيمان، ومال إليه، وتذوق حلاوته، وحسنه، وجماله..وأذعن له، ولهذا جاء في ثناء

---

(٢٧) ابن جرير الطبري: جامع البيان، مجلد١٣، ج٢٦، ص ١٤٧.

(٢٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص ٢١٠.

الرسول ﷺ ودعائه يوم أُحُد بعد ما انكفأ المشركون، وقال لأصحابه: «**استووا حتى أثني على ربي- عز وجل**»، فصاروا خلفه صفوفا، فقال: «**اللهم لك الحمد كله**» الحديث بطوله، وفيه: «**اللهم إني أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين... إلخ**»(٢٩).

أما المنافقون، فقد قال الله فيهم: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾[التوبة: ٨]، فقلوبهم تأبى، وترفض وتبغض الإيمان، كما بينا في مبحث: (القلب المنكوس) من فصل سابق، وقال الله فيهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، فالفارق بين المؤمن والمنافق يتعلق- من حيث الأصل والمبدأ- باستقرار الإيمان في القلب، ومخالطة بشاشته- أي: حلاوته وجماله- للقلب.

إذًا، تربية الإيمان في القلب هي المخرج من النفاق الاعتقادي، وتناقض العلانية والسريرة.

فالهدف التربوي -هنا- يتحدد في: أن نكتسب التصورات الصحيحة لمضمون الإيمان كما قررها القرآن والسنة؛ اكتسابًا مبنيًّا على اليقين بها، والاقتناع؛ وأن نحب كل مقومات الإيمان، ونشتهي التحقق بها، وأن نتذوق حلاوته وجماله، وحسنه، وأن نخلطه بكل مشاعرنا، وأحاسيسنا، فإذا حققنا هذه الأهداف فقد دخل حب الإيمان قلوبنا وبرئنا من النفاق، وسنبين ذلك في الفصل القادم.

٢- وتربية الإيمان في القلب ليست المخرج من نفاق الاعتقاد، فقط- بل

---

(٢٩) رواه أحمد، والنسائي في اليوم والليلة، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وقال الألباني عنه: صحيح، تخريج فقه السيرة (٢٦٤) انظر: الأدب المفرد بتخريجات الألباني، رقم ٦٩٩، ص ٢٤١.

هي أيضًا المخرج من خاصية الخوارج الأولى، و«**الخوارج كلاب النار**»[٣٠].

وورد فيهم أحاديث صحاح فيها جملة خصائصهم، فلنتأمل في بعضها:

٢-١: أخرج البخاري عن أبي سعيد ﷺ قال: بعث عليٌّ ﷺ إلى النبي ﷺ بذُهَيْبَة، فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنبلي ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: «**إنما أتألفهم**»، فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبهة، كث اللحية، محلوق، فقال: اتق الله يا محمد، فقال: «**من يطع الله إذا عصيتُ؟ أيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني؟**» فسأله رجل قتله- أحسبه خالد ابن الوليد- فمنعه، فلما وَلَّى قال: «**إن من ضئضئ هذا**- أو في عقب هذا- **قوما يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعون أهل الأوثان. لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[٣١]. ورواه عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، وهو يقسم قسمًا، إذ أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله، اعدل، فقال: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خِبتُ وخسرتُ إن لم أكن**

---

(٣٠) هذا حديث صحيح، رواه أحمد والحاكم والطبراني في الكبير (٨/ ٨٠٣٣) وابن أبي عاصم في السنة (٩٠٤ ، ٩٠٥) انظر: المعجم الكبير، ج٨، رقم ٨٠٣٣، ص ٢٦٧، ورقم ٨٠٣٧، ٨٠٤٢، ٨٠٤٥، ٨٠٤٩، ٨٠٥١، ٨٠٥٥، ٨٠٥٦، والسنة لابن أبي عاصم، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة، للألباني، رقم ٩٠٤، ٩٠٥، وقال الألباني في الأول: حديث صحيح، وفي الثاني: إسناده حسن وهو بلفظ: «**الخوارج كلاب النار**» وبلفظ: «**ألا إنهم كلاب أهل النار**» (...) الخوارج كلها، ص ٤٤٧، ٤٤٨ وانظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته «الفتح الكبير»، مجلد ١، ط٣، رقم ٣٣٤٧، ص ٦٣١. وأخرجه ابن ماجه بلفظ «**الخوارج كلاب أهل النار**» وهو صحيح، وبلفظ «**كلاب أهل النار**» من حديث حسن صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١٤٣، ص٧٥، ورقم ١٤٦، ص ٧٦.

وانظر المسند، ج١٦، رقم ٢٢٠٥١ بلفظ: «**كلاب النار**» بإسناد صحيح، ورقم ٢٢٠٨٣، ص٢٢٨، ورقم ٢٢٢١٥، ص ٢٦٩ بإسناد صحيح، عن أبي أمامة.

(٣١) فتح الباري، ج٦، رقم ٣٣٤٤، ص ٣٧٦، ورواه النسائي، ج٧، رقم ٤١٠١، ص ٨٢، وأبوداود، ج٤، رقم ٤٧٦٤، ص ٢٥٧- ٢٥٨.

أعدل»، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضرب عنقه، فقال: «**دعه، فإن له أصحابًا: يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.. الحديث**»(٣٢). ورواه البخاري عنه، وفيه قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتق الله، قال: «**ويلك، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟**» قال: ثم وَلَّى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**» فقال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم**»، قال: ثم نظر إليه وهو مقف، فقال: «**إنه يخرج من ضضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» وأظنه قال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**»(٣٣).

وأخرجه البخاري عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين.. الحديث**»(٣٤).

وأخرجه البخاري عنه، وفيه: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يخرج في هذه الأمة، ولم يقل: منها- قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم، أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية..**»(٣٥). وأخرجه أيضا عنه: «**يخرج ناس من قبل المشرق، ويقرأون**

(٣٢) المصدر السابق، رقم ٣٦١٠، ص ٦١٧-٦١٨.

(٣٣) فتح الباري، ج٨، رقم ٤٣٥١، ص ٦٧.

(٣٤) فتح الباري، ج٩، رقم ٥٠٥٨، ص ٩٩-١٠٠.

(٣٥) فتح الباري، ج١٢، رقم ٦٩٣١، ص ٢٨٣ وأخرجه البخاري أيضا، ج١٣، رقم ٧٤٣٢، ص٤١٥-٤١٦.

القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه.. الحديث»[٣٦].

وقد أخرجه مسلم عن أبي سعيد سبع مرات، قريبا من ألفاظ البخاري[٣٧]. وفي بعضها: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية..**»[٣٨].

وأخرجه أحمد بروايات عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا حلف واجتهد في اليمين قال: «**لا، والذي نفس أبي القاسم بيده، ليخرجن قوم من أمتي تحقرون أعمالكم مع أعمالهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية..**»[٣٩].

وأخرجه ابن ماجه عن أبي سلمة قال: قلت لأبي سعيد الخدري: هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر في الحرورية شيئا؟ فقال: سمعته يذكر قوما يتعبدون: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصومه مع صومهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..**»[٤٠].

٢-٢: وأخرج البخاري عن سويد بن عقلة قال: قال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخِرَّ من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي في آخر الزمان قوم؛ حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز**

---

(٣٦) فتح الباري، ج١٣، رقم ٧٥٦٢، ص ٥٣٥- ٥٣٦.

(٣٧) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٣ (باب ذكر الخوارج وصفاتهم) أرقام (١٠٦٤)، ص ٦٠٦-٦١١.

(٣٨) المصدر السابق، ص ٦١١.

(٣٩) إسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١١٢٢٤ ص ١٠٧، وانظر، نفس الجزء، ص ١٠٩، ١٦٤، ١٨٩، ٢١٥.

(٤٠) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١٣٩، ص ٧٣-٧٤.

إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة»(٤١). وفي رواية له: «**سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام (...) لا يجاوز إيمانهم حناجرهم..**»(٤٢).

وأخرجه مسلم عن علي وفيه: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم..**»(٤٣). وأخرجه من طريق زيد بن وهب الجهني: أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي ﷺ الذين ساروا إلى الخوارج، فقال علي ﷺ: أيها الناس، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج قوم من أمتي، يقرأون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**»(٤٤).. الحديث بطوله.

وأخرجه مسلم عن عبيد الله بن أبي رافع، مولى رسول الله ﷺ أن الحرورية لما خرجت، وهو مع على بن أبي طالب ﷺ، قالوا: لا حكم إلا لله، قال علي: كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله ﷺ وصف ناسا، إني لأعرف صفتهم في هؤلاء، لا يقولون الحق بألسنتهم، لا يجوز هذا منهم، وأشار إلى حلقه، من أبغض خلق الله إليه..»(٤٥). ورواه أحمد بروايات عن علي ﷺ، وفي بعضها: «**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**»(٤٦). وفي إحداها: ثم قال: انظروا؛ فإن نبي الله ﷺ قال: «**إنه سيخرج قوم يتكلمون بالحق، لا يجاوز حلقهم، يخرجون من الحق كما يخرج السهم من الرمية..**»(٤٧). ورواه بإسنادين

---

(٤١) فتح الباري، ج٦، رقم ٣٦١١، ص ٦١٨، ورواه برقم ٥٠٥٧، ج ٩، ص ٩٩.
(٤٢) فتح الباري، ج ١٢، رقم ٦٩٣٠، ص ٢٨٣.
(٤٣) إكمال المعلم، ج٣، رقم ١٠٦٦، ص ٦١٧.
(٤٤) المصدر السابق، ج٣، رقم ١٠٦٦، ص ٦١٨-٦١٩ ورواه أبو داود، ج٤، رقم ٤٧٦٨، ص٢٥٩.
(٤٥) المصدر السابق، ص ٦٢٠.
(٤٦) المسند، ج٢، رقم ٦١٦، ص ٤٣١-٤٣٢ وإسناده صحيح وانظر رقم ٩١٢، نفس الجزء.
(٤٧) المسند، ج١، رقم ٨٤٨، ص ٥٣٤ وإسناده صحيح.

صحيحين: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»، وقال عبد الرحمن: لا يجاوز إيمانهم حناجرهم(٤٨). وأخرجه بلفظ: «**سيجيء قوم يتكلمون بكلمة الحق لا يجاوز حلوقهم..**»(٤٩). ورواه عنه بلفظ: «**يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، طوبى لمن قتلهم وقتلوه..**»(٥٠).

وأخرجه النسائي عن على قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأجسام يقولون من خير قوم البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم..**»(٥١).

وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة من طرق(٥٢).

٢-٣: وأخرج أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج منهم قرن قطع**- حتى عدها زيادة عن عشر مرات- **كلما خرج منهم قرن قطع، حتى يخرج الدجال في بقيتهم**»(٥٣).

٢-٤: وأخرج ابن ماجه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان قوم، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون**

---

(٤٨) المسند، ج٢، رقم ١٠٨٦، ص ٦٥-٦٤.

(٤٩) المصدر السابق، ج٢، رقم ١٢٥٤ وإسناده صحيح، ص ١٢١-١٢٢.

(٥٠) المصدر السابق، ج٢، رقم ١٣٠٢ ص ١٣٨ وإسناده صحيح، وانظر: رقم ١٣٤٥، ص ١٥٥ وإسناده صحيح، ورقم ١٣٧٨ ورقم ١٣٧٩، وإسنادهم صحيح ص ١٦٨-١٦٩.

(٥١) سنن النسائي، ج٧، رقم ٤١٠٢، ص ٨٢-٨٣، ورواه أبو داود، ج٤، رقم ٤٧٦٧، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٥٢) انظر: أرقام ٩١٢،٩١٣، ٩١٤، ٩١٦، ٩١٧، ٩٢٨ من كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة، للألباني.

(٥٣) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٦، رقم ٦٨٧١، ص ٣٤٨،٣٤٩ وأخرجه برقم ٦٩٥٢، ص ٤١٣-٤١٤ بإسناد صحيح، ورواه ابن ماجه: صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١٤٤، ص ٧٥-٧٦.

من خير قول الناس، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، فمن لقيهم فليقتلهم، فإن قتلهم أجر عند الله لمن قتلهم»(٥٤).

٢-٥: وأخرج ابن ماجه، عن أبي ذر حديثا صحيحا وفيه: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم..»**(٥٥).

٢-٦: وأخرج أبو داود، عن أبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قوم يحسنون القيل، ويسيئون الفعل، يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية(...) هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله تعالى منهم.. الحديث»**(٥٦).

٢-٧: وأخرج ابن أبي عاصم عن يسير بن عمرو قال: سألت سهل بن حنيف: هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر هؤلاء الخوارج؟ قال: سمعته- وأشار نحو المشرق «**يخرج منه قوم يقرأون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»**(٥٧).

٢-٨: وأخرج ابن أبي عاصم، وأحمد، عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيخرج من أمتي ناس، ذلقة ألسنتهم بالقرآن، لا يجاوز تراقيهم، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإنه يؤجر قاتلهم»**(٥٨).

---

(٥٤) صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١٣٨، ص ٧٢-٧٣، ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح، سنن الترمذي، ج٤، رقم١٩٥، ص ٨٠.

(٥٥) المصدر السابق، وهو صحيح، رقم ١٤٠، ص ٧٤، وابن أبي عاصم: السنة، رقم ٩٢١، ص٤٣٨ وإسناده صحيح، سنن ابن مسلم، ورواه الطبراني في الكبير، ج٥، رقم ٤٤٦١، ص ٢٠ وفيه: «لا يجاوز حلوقهم».

(٥٦) سنن أبي داود، ج٤، رقم ٤٧٦٥، ص ٢٥٨.

(٥٧) قال الألباني في ظلال الجنة: إسناده صحيح على شرط الشيخين، رقم ٩٠٨، ص ٤٢٩.

(٥٨) كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة، رقم ٩٣٧، ص ٤٤٧ وإسناده صحيح على شرط مسلم.

٢-٩: وأخرج ابن أبي عاصم عن أنس بن مالك يقول: ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج فيكم أو يكون فيكم قوم، يتعبدون، ويتدينون، حتى يعجبوكم وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية**»(٥٩).

٢-١٠: وأخرج أحمد عن أبي ذر وأبي رافع، من حديث: وفيه: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيهم..**»(٦٠).

٢-١١: أخرج مسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود- من قوله: «**إن أقواما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع**»(٦١). وفي رواية أحمد، فقال عبد الله: هذًّا كهذّ الشعر؟ إن من أحسن الصلاة الركوع والسجود، وليقرأنْ القرآن أقوامٌ لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا قرأ فَرَسَخ في القلب، نفع(٦٢).

٣- فهذه أحاديث صحيحة تبين أن الخوارج يتصفون بالصفات الآتية:

٣-١: أنهم يقتلون أهل الإسلام، ويتركون أهل الأوثان، فهم يتصفون بالقسوة على المسلمين، ومن ذلك ما فعلوه بعبد الله بن خباب، حيث قربوه إلى شط النهر فذبحوه، وأخذوا أم ولده فقتلوها، وكانت حبلى فبقروا بطنها..(٦٣).

٣-٢: أنهم يتعمقون، ويتدينون شكليا، وظاهريا، حتى يعجبوا بأنفسهم؛ لأن قلوبهم فارغة من التدين، ولكنهم يبهرون الآخرين لدرجة أنه «يحقر» أي: يستقل، أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقراءته مع قراءتهم.. وعمله مع عملهم.

---

(٥٩) المصدر السابق، رقم ٩٤٥، ص ٤٥٢ وإسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٦٠) إسناده صحيح، المسند، ج١٥، رقم ٢٠٢٢٠ ص ١٨٦.
(٦١) إكمال المعلم، ج٣، رقم ٧٢٢، ص ١٩٦.
(٦٢) إسناده صحيح، المسند، ج٣، رقم ٣٦٠٧، ص ٥٠٩.
(٦٣) أخرجه الطبراني، عن رجل صحب الخوارج- لم يسم، وبقية رجاله ثقات، رجال الصحيح. انظر: المعجم الكبير، ج٤، رقم ٣٦٢٩، ٣٦٣٠، ٣٦٣١، ص ٥٩- ٦١.

٣-٣: أنهم مغرورون، مخدوعون، يحرفون كلام الله، بسوء التأويل، قال البخاري: «وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين»(٦٤). قال ابن حجر: «وكان يقال لهم: القراء؛ لشدة اجتهادهم في التلاوة والعبادة، إلا أنهم كانوا يتأولون القرآن على غير المراد منه، ويستبدون برأيهم، ويتصنعون في الزهد والخشوع»(٦٥).

٣-٤: أن قراءتهم للقرآن وصلاتهم وإيمانهم، أمور برانية شكلية، لم تنزل لقلوبهم، ولم ترسخ فيه، فلم يفقهوا، ولم يخشعوا بحق، ولم ينتفعوا؛ لأن قراءتهم، وصلاتهم، وإيمانهم كانت باللسان، والشكل، ولم تتجاوز تراقيهم، وحلوقهم، إلى قلوبهم..إذ إن «حظهم منه حركة اللسان دون تدبر القلب، وتفهم معانيه، والتراقي عظام الصدر..»(٦٦).

قال عياض: «وقوله: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم**» فيه تأويلان: أي: لم تفقه قلوبهم، ولا انتفعوا بما تلوا منه، ولا لهم فيه حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة، والحلق(...) والتأويل الآخر: أنه لا يصعد لهم عمل، ولا تلاوة، ولا تتقبل»(٦٧). وقال في الفتح: «والمعنى: أن قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها.. وقال النووي: المراد: أنهم ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم، لا يصل إلى حلوقهم، فضلا عن أن يصل إلى قلوبهم؛ لأن المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب، قلت: وهو مثل قوله فيهم أيضا: «**لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**» أي: ينطقون بالشهادتين ولا يعرفونها بقلوبهم..»(٦٨).

---

(٦٤) فتح الباري، ج ١٢، ص ٢٨٢.
(٦٥) المصدر السابق، ص ٢٨٣.
(٦٦) إكمال المعلم، ج٣، ص ١٩٦.
(٦٧) المصدر السابق، ص ٦٠٩.
(٦٨) فتح الباري، ج١٢، ص ٢٩٣.

فهم شكليون لا ينزل الإيمان فيرسخ، في قلوبهم، وكذلك صلواتهم، وقراءتهم القرآن، فلا تفقها قلوبهم، ويحملونه على غير المراد منه.

فالإيمان لم يرسخ في قلوبهم؛ لأن ما وقف عند الحلقوم فلم يتجاوزه لا يصل إلى القلب، كما ذكر في الفتح(٦٩).

٣-٥: أنهم فاسدون، صغار الأسنان، ضعاف العقول، يتكلمون بكلام هو من خير قول الناس، في الظاهر، أما قلوبهم ففارغة، يدعون إلى كتاب الله، وهم منه بعيدون بقلوبهم وأخلاقهم، فهم كلاب مسعورة على المؤمنين، ولذلك كانوا في الآخرة كلاب أهل النار.

٣-٦: أنهم يمرقون من الإسلام -دين الله- كما يمرق السهم من الرمية، وهي الصيد الذي يدخل فيه السهم من جهة ويخرج من جهة مقابلة، فهكذا هم يدخلون في الإسلام بالظاهر، باللسان، بالشكل والملبس، والمنظر المبهر، المعجب، ولكنهم يخرجون منه بفراغ قلوبهم، وأخلاقهم من الإيمان الحق «يمرقون من الإسلام كما يمرق- يخرج- وينفذ- السهم من الرمية..» ولا يعودون إليه.

٣-٧: أنهم يظهرون كل قرن، حتى يظهر في آخرهم الدجال، وهم من أبغض خلق الله إليه.

٣-٨: أننا مأمورون بقتالهم.. وجهادهم.. ولعل من ذلك هذا المبحث الذي يقاتلهم بإذن الله في الصميم.

٤- إن علة انحراف هؤلاء الخوارج- الذين يخرجون في الأمة، ويخرجون على خيارها، ويخرجون على الحق..وعلة اتصافهم بالقسوة والغلظة، والجفاء، هو ما قررته الأحاديث الصحيحة السابقة فلنتأمل مرة ثانية ما جاء في وصفهم:

---

(٦٩) فتح الباري، ج٩، ص ١٠٠.

- «يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم» أي: عظام النحر: أي: لا ينزل لقلوبهم.
- «يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم» «لا يجاوز حلوقهم..»
- «لا يجاوز إيمانهم حناجرهم..»
- «لا تجاوز صلاتهم تراقيهم..»
- «يقولون الحق بألسنتهم،لا يجاوز هذا منهم» وأشار إلى حلقه.
- «يتكلمون بالحق لا يجاوز حلقهم..».
- «يحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم..».

إنه- إذًا- تدين لفظي، براني، شكلاني، لا يتخطى الحناجر إلى القلوب، فينزل فيها، ويرسخ، وينفع، ويثمر الخير، إن إيمانهم لا يخالط القلوب، ولا يصوغ الأخلاق، بل هو على الشكل واللسان والسلوك الظاهر، المحدود، فحسب، إنه لقلقة لسان، وقفل على مزبلة، وتمسك شكلاني ببعض الشعارات النصوصية، مع فراغ القلب من الإيمان ورحمته، وفقهه، وإلزاماته الخلقية.

فالشخصية المسلمة- لكي تظهر في عالم الواقع- لابد أن يتجاوز إيمانها (الحنجرة) و(الحلق) و(الترقوة) و(اللسان)، وإحسان القول- فينزل إلى القلب، لينغرس فيه، ويتجذر في جذور القلب، حتى يرسخ، ويصير كالشجرة الطيبة، ثابتة الأصل في القلب، وفرعها في السماء، عند الله- تعالى- تؤتي أكلها كل حين، بإذن ربها، لأنها طيبة، يخرج نباتها بإذن ربها، سهلا، من نبات الخير، وفعل الخيرات، والرحمة بالناس، وعدم التعالي على الله، وعدم الاستعلاء والإعجاب بالمنظر، والنفخة الكذابة.

فالأصل الأصيل الذي به تنشأ الشخصية المسلمة الصحيحة ويكون لها وجود في الواقع الملموس هو: تربية الإيمان في القلب، وبهذا الأصل ينزل القرآن

فيه، وتنزل القراءة فيه، وتنزل الصلاة فيه، وينزل الصوم فيه، وينزل قول الحق باللسان فيه، بل يخرج كل ذلك وغيره من الخيرات، من القلب، وبهذا تتكامل الشخصية المسلمة، وتخرج من حد الخوارج كما خرجت من حد النفاق.

وما قصدنا أن نشرح مذهب الخوارج، إنما قصدنا أن نبين علة انحرافهم، وهي التدين المغشوش، التدين الذي لا يتأسس على تربية الإيمان في القلب.

د- وتربية الإيمان في القلب هو أساس كل تحول وتغيير إيجابي جذري في شخصية الإنسان- في التصور والاعتقاد، والفكر، وفي القيم والموازين والمعايير، وفي الاتجاهات والعواطف والمشاعر، والميول، وفي العادات والتصرفات والعلاقات، وفي المواقف والاختيارات، والانتماءات- تغيير يتجه به اتجاهًا صحيحًا لله، ولدينه، واليوم الآخر.

إن هذا التحول الشامل في الشخصية الإنسانية إنما يبدأ حين يدخل الإيمان في قلب الإنسان، فإذا دخل في القلب: استسلم لله وخضع لوحيه، ولأمره، وتغيرت قيمه وموازينه، وتصوراته، وأفكاره، وميوله، واتجاهاته، وعلاقاته، ومسالكه، وأهدافه، الفردية، والاجتماعية- وهذا قانون تربوي، واجتماعي عام، واعتبر هذا بما حدث لسحرة فرعون؛ فهذه فئة اجتماعية لها تصوراتها وأفكارها، وأهدافها، ولها قيمها المتمركزة حول الاعتزاز بفرعون، ولها طموحاتها، ومواقفها، وانتماءاتها، فالسحرة كانوا ركيزة التآمر الاستحماري الفرعوني ضد نبي الله موسى عليه السلام، ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾[طه: ٦٠ - ٦٤]، ويقول الله عنهم: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤].

تأمل في فكرهم، وقيمهم، وانتمائهم- ثم انظر ماذا حدث منهم؟

- ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾[الأعراف: ١١٥].

- ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٤١ – ٤٤].

ففي البدء كان موقف السحرة موقف تحد تام لموسى، وهارون، وخضوع تام لفرعون، وتعظيم لمنهجه الذي وصفوه بقولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] وهي جملة دالة على موقفهم الأيدلوجي والخلقي، كما هي دالة على عملية الاستحمار التي خضعوا لها، من قبل أجهزة التثقيف الفرعوني، أعني: عملية تزييف الوعي الإنساني..الخ.

ولقد كان موقفهم وهدفهم، هو التقرب إلى الفرعون..ولهذا الهدف كرسوا حيلهم.

لكن لنتأمل: ألقى السحرة حبالهم، وعصيهم، فخيل للناس، من سحرهم، أنها تسعى.

- ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٥].

- ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨ – ١٢٢].

هنا في هذه المرحلة- دخل الإيمان في القلب ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فماذا حدث؟ أصبح لهم تصور جديد، وقيم جديدة، وهدف جديد، وموقف جديد، حدث التحول القلبي، فتبدلت عقيدة بعقيدة، وقيم بقيم، بعد أن صدق القلب وأذعن لأمر الله رب العالمين، فخضع لله وحده، فتحولت أهدافه، كما تحولت قيمه، وتغيرت مواقف السحرة تماما، كما تغيرهم تصوراتهم. لنتأمل:

- ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[الأعراف: ١٢٣ - ١٢٦].

وفي سورة الشعراء- بعد أن هددهم فرعون بتقطيعهم وتصليبهم أجمعين- قالوا: ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠ - ٥١] فالإرادة نفسها تغيرت، وتحررت من الخوف من فرعون.. بفعل الإيمان الذي دخل في القلب ورسخ.

وفي سورة طه جاء تحدي المؤمنين- الذين كانوا سحرة من قبل لفرعون الطاغية- قويا جدا لفرعون، وتبين الآيات المدى الهائل للتغير الشامل الذي حدث لهم في قيمهم، وسلوكياتهم، ومواقفهم، عندما دخل الإيمان في قلوبهم: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه: ٧٠ - ٧٦].

لقد تغيروا تغييرا جذريا وكليا، حسب قانون التغيير الكلي للإنسان؛ إذا تحقق الإيمان في القلب، انبثق منه تصورات جيدة للعالم، وغاية الوجود الإنساني، وانبثق منه منهج جديد للقيم، والموازين، وانبثق منه تصور جديد للأهداف، وانبثق منه توجه جديد، واختيارات جديدة، وإرادة جديدة، وانتماءات، ومواقف.. يوجهها الإيمان الجديد، والمشاعر الجديدة.

واعتبر بهذا أيضا بعمر بن الخطاب الذي كان جبارا في الجاهلية، صاحب

خمر، ونساء، وكان أشد الناس- قبل أن يسلم - على المسلمين، كان أقسى تعذيبا لهم، وأشد حربا على الدعوة الجديدة حتى إنه جاء في الخبر عن ليلى أم عبد الرحمن بن الحارث قالت: كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة، جاءني عمر بن الخطاب، وأنا على بعيري أريد أن أتوجه، فقال: أين يا أم عبد الله؟ فقلت: آذيتمونا في ديننا، فنذهب في أرض الله،حيث لا نؤذى في عبادة الله، قال: صحبكم الله، ثم ذهب، فجاءني زوجي عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيته من رقة عمر، فقال: ترجين أن يسلم؟ فقلت: نعم، فقال: والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب(٧٠).

فسيدنا عامر يستبعد أن يسلم عمر لله، لقسوته على المسلمين، ثم ماذا؟ دعا له النبي ﷺ أن يعز به الإسلام، وبدأ التحول الجذري في أعماق القلب والنفس، حتى إنه عندما سمع سورة الحاقة وفيها: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٣] إلى آخرها، قال: «فوقع الإسلام في قلبي كل موقع»(٧١). وقع.. ولكن لم ينشرح الصدر بعد.. فلما قرأ أول سورة طه، بعد أن تطهر، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤] فقال عمر: دلوني على محمد، فلما سمع خباب قول عمر؛ خرج من البيت، فقال:أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك، ليلة الخميس، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب(...)، فانطلق عمر حتى أتى الدار(...) قال: والنبي ﷺ داخل يوحى إليه، (...) فقال عمر: أشهد أنك رسول الله، فأسلم، وقال: اخرج يا رسول الله.

---

(٧٠) أخرجه الطبراني بإسناد صحيح، المعجم الكبير، ج٢٥، رقم ٤٧، ص ٢٩-٣٠ وهي؛ ليلى بنت أبي حثمة، من المهاجرات.

(٧١) رواه أحمد بإسناد ضعيف لانقطاعه.. المسند، ج١، رقم ١٠٧، ص ٢١١-٢١٢، وانظر: صفة الصفوة، ج١، ص ١١١.

«وعن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب: لأي شيء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ثم شرح الله صدري للإسلام، فقلت: الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما في الأرض نسمة أحب إلي من نسمة رسول الله ﷺ، فقلت: أين رسول الله؟ (...) قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، قال: فقلت: يا رسول الله، ألسنا على الحق، إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى» (...) فقلت: فيم الاختفاء، والذي بعثك بالحق، لنخرجن، فأخرجناه في صفين(...) وقال ابن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال صهيب: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقا، وطفنا، وانتصفنا ممن غلظ علينا»(٧٢). وأصبح عمر نموذجا حقيقيا للإسلام يأمرنا النبي ﷺ أن نقتدي به «**اقتدوا باللّذين من بعدي**»(٧٣) يعني: أبا بكر وعمر.

لقد أصبح قدوة، ونموذجا رائعا للمؤمن الحق، وشهيدا مسلما، ومحدثا ملهما.

ولنتأمل في وصف عبد الله بن مسعود لعمر بعد أن دخل الإيمان قلبه، وصاغ شخصيته، واستشهد في سبيل الله، يقول عبد الله: «إن عمر رضي الله عنه كان للإسلام حصنا حصينا(...)» ويقول: «إن أهل بيت من المسلمين لم يدخلهم حزن على عمر يوم أصيب لأهل سوء، عمر كان أتقانا وأقرأنا لكتاب الله» ويقول: «..إن عمر كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا لدين الله..».

---

(٧٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج١، ص ١١٢-١١٣.

(٧٣) ورد هذا الحديث بروايات عدة، قال الألباني في شرح الطحاوية: صحيح (٦٧٥،٦٩١،٧١٦) وقال في صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ٨٠: صحح. وقال في صحيح الترمذي: صحيح، (٢٨٩٦،٢٩٨٨،٢٩٩٢) وفي صحيح الجامع (١١٤٣، ١١٤٤، ٢٥١٦) وفي السنة لابن أبي عاصم، ١١٤٢، ١١٤٨، وقال في مشكاة المصابيح: حسن أو أعلى (٦٠٠٦) وأورده في الصحيحين رقم ١٠١.

إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي عند الكعبة ظاهرين حتى أسلم عمر» ويقول: «وكان إذا سلك طريقا وجدناه سهلا، فإذا ذكر الصالحون فحي هلا بعمر(...) والله لوددت أني أخدم مثله حتى أموت»، ويقول: «إني لأظن عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم» ويقول: «إذا ذكر الصالحون فحي هلا بعمر، إن إسلامه كان نصرًا، وإن إمارته كانت فتحًا، وايم الله ما أعلم على الأرض شيئًا إلا وقد وجد فَقْدَ عمر، حتى العضاه (شجر السَّنْط) وايم الله إني لأحسب بين عينيه ملكا يسدده، ويرشده.. وايم الله لو أعلم كلبا يحب عمر لأحببته» ويقول: «لقد أحببت عمر حتى لقد خفت الله، ولو أعلم أن كلبًا يحب عمر لأحببته، ولوددت أني كنت خادمًا لعمر ﷺ» ويقول: «لو أن عمر أحب كلبا؛ كان أحب الكلاب إلي» ويقول: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر..» ويقول: «ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر..»[(٧٤)] إلخ.

إن نموذج عمر يمثل تحولا جذريا في التصورات والمعتقدات، والقيم والموازين، والأهداف، والعواطف، والمشاعر، والعادات والسلوكيات، والمواقف، والتصرفات..التحول الجذري الذي ينتج عن وقوع الإسلام والإيمان في القلب، وانشراح الصدر به، ومخالطة بشاشته القلوب.

إذا تربية الإيمان في القلب هي أساس حركة التغيير في الشخصية الإنسانية، وهذا التغيير هو أساس التغيير الاجتماعي، كما قرر القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد: ١١] فتغيير ما بالقوم- يعني التغيير الاجتماعي: تغيير عالم العلاقات والتفاعلات، والمؤسسات والتقاليد

---

(٧٤) أخرج كل ذلك الطبراني في المعجم الكبير، ج٩، الأرقام ٨٨٠١-٨٨٢٧، ص ١٦٠-١٦٧ بأسانيد بعضها حسن.

وانظر: الشوكاني: فتح القدير.. ج١، ص ٤٧٣ مع تخريج المحقق، والحديث رواه أيضا ابن عساكر عن حذيفة، وابن حبان (٦٨٦٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ج٣، ص ٧٥.

والنظم الاجتماعية- ينتج عن تغيير الناس ما بأنفسهم، أي: أن يغير الناس- في حركة اجتماعية تربوية- عالم أفكارهم ومعتقداتهم، وتصوراتهم، وعالم قيمهم وموازينهم، وأهدافهم، وعالم مشاعرهم وعواطفهم واتجاهاتهم، وميولهم، وعالم عاداتهم وتصرفاتهم، وانتماءاتهم، ومواقفهم. وتغيير الناس هذه العوالم في أنفسهم، إنما يتأسس على دخول الإيمان الجديد في قلوبهم- كما أشرنا- وتربية واعظ الله فيها.

من هنا نفهم قول النبي ﷺ: «**إن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، ثم علموا من السنة**»، ونفهم لماذا علمهم الإيمان أولا؟ ولماذا قال: «**وإن الإيمانَ يُعْطَى العبدَ قبل القرآن**»؟

هـ- ومما يؤكد أهمية تربية الإيمان في القلب، الحاجة الماسة للإصلاح الخلقي الاجتماعي، وحقيقة أن الانحراف الخلقي الاجتماعي يحدث تلقائيًا، وينشأ حين يخلو القلب من الإيمان الصحيح اليقيني المستلزم للإذعان والانقياد لأوامره، وأخلاقه.

وسيتضح هذا في الحديث الثاني الذي معنا، «**فيصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة**» فالناس ستنحرف أغلبيتهم عن خلق الأمانة؛ لأن الإيمان نزع من قلوب الأكثرية، وهذا ما يقرره حديث القرآن عن المطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣]، ويبين الله علة هذا الانحراف في التعامل الاقتصادي فيقول: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦] فهذا السلوك المنحرف: التطفيف، والإخسار في الميزان، نتج عن عدم الإيمان بالبعث بعد الموت، والقيام لله رب العالمين للحساب والجزاء.

ولنتأمل في قول النبي ﷺ، عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا**

تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»(٧٥). ورواه أحمد بلفظ: نادى رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق، فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين..الحديث**»(٧٦).

وأخرجه الترمذي عن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، قال: «**يا معشر من قد أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**»(٧٧).

وأخرجه الطبري اللالكائي عنه وفيه: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين**»(٧٨).

فهذه جملة أخلاق اجتماعية سيئة: الغيبة، التعيير، إيذاء المسلمين، تتبع عوراتهم والتجسس عليهم.. يشير النبي ﷺ إلى علة وجودها وهي قوله: «**ولم يدخل الإيمان قلبه**» ولم يفض (يدخل في) الإيمان إلى قلبه، فهو آمن بلسانه، أو أسلم بلسانه، ولكن لم يترب الإيمان في قلبه، لم يدخل فيه، ولم يفض إلى القلب ليصوغ قيمه، وعواطفه، وأخلاقه الاجتماعية.

فأصل التربية الخلقية، والإصلاح الخلقي، والتغيير الخلقي الاجتماعي هو إفضاء الإيمان إلى القلب، ودخوله فيه، أي: تربية الإيمان في القلب.

---

(٧٥) إسناده صحيح، المسند، ج١٥، رقم ١٩٦٦٤، ص ٣٢-٣٣، ورواه أبو داود، سنن أبي داود، ج٤، رقم ٤٨٨٠، (كتاب الأدب)، ص ٢٩٢.

(٧٦) إسناده ضعيف، وهو صحيح لشواهده، المسند، ج ١٥، رقم ١٩٦٨٩، ص ٤١، وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط٣، رقم ٧٩٨٤، ص ١٣٢٢-١٣٢٣.

(٧٧) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.. حسنه الترمذي، ج٣، رقم ٢٠٣٩، ص ٤١٦، وقال الألباني: صحيح، وصحيح الجامع الصغير، ج٢، ط٣، رقم ٧٩٨٥، ص ١٣٢٣.

(٧٨) وذكر محققه له شواهد، قال: والحديث بهذه الشواهد: حسن...»، انظر: الطبري اللالكائي: شرح أصول الاعتقاد أهل السنة والجماعة، ج١، رقم ١٤٩٨، ص٧١٤.

و- إذا مفتاح التغيير في الفكر والتصور والمعتقد، وفي القيم والخلق والموازين، وفي المشاعر والعواطف والاتجاهات الوجدانية، وفي العادات والأخلاق السلوكية، والمواقف يتحدد في (تربية الإيمان) فيتوجب أولا فتح القلب المغلق، بالتوحيد، وتنمية الإيمان بالله، والبعث والجزاء، ولعل هذا بعض ما يدل عليه الحديث الذي تناولناه من قبل: «**ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء**»، فالنبي يصلح الله به الأمة المعوجة، المنحرفة، بأي شيء؟ يقول الحديث: «بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا»، فالقلب الأغلف يفتحه الله بالتوحيد، بالإيمان، وهذا منطلق إقامة الملة العوجاء، أي: إصلاح الأمة المنحرفة المعوجة، في المعتقد، والخلق والسلوك، بتربية الإيمان في القلب بحيث يرضى المسلم بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، فالرضا: قبول واستحسان، وهذا إنما يكون إذا ثبتت معرفة القلب ونفذت بصيرته وخالطت بشاشة الإيمان القلوب «ذلك أن الإنسان إذا رضي أمرا واستحسنه؛ سهل عليه أمره، ولم يشق عليه شيء منه، فكذلك المؤمن: إذا دخل قلبه الإيمان؛ سهلت عليه طاعات ربه، ولذت له، ولم يشق عليه معاناتها»(٧٩).

فتربية الإيمان تمثل دافعا قويا لفعل وممارسة أخلاق الإسلام بتلذذ، وتمتع وتذوق لحلاوتها.

كما أنها أساس التهذيب الخلقي، وترك ما حرم الله، من الأخلاق والعادات والتقاليد،يقول سيد قطب في نص مهم:

«بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى؛ عقدة العقيدة، بدأ باجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي، جملة، من جذوره، وإقامة التصور الإسلامي الصحيح؛ إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة.. بَيَّن للناس فساد

(٧٩) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، ص ٢٧٠.

تصوراتهم من الإلوهية، وهداهم إلى الإله الحق، وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله الحق وما يكرهه، وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا أو يطيعوا أمرا ولا نهيا، وما كانوا ليقلعوا عن مألوفاتهم الجاهلية؛ مهما تكرر لهم النهي، وبذلت لهم النصيحة، إن عقدة الفطرة البشرية هي عقدة العقيدة، وما لم تنعقد هذه العقدة أولا، فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب، أو إصلاح اجتماعي.. إن مفتاح الفطرة البشرية ها هنا، وما لم تفتح بمفتاحها فستظل سراديبها مغلقة، ودروبها ملتوية، وكلما كشف منها زقاق انبهمت أزقة، وكلما أضاء منها جانب أظلمت جوانب(...) لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها؛ من هذه الرذائل والانحرافات..إنما بدأ من العقيدة.. بدأ من شهادة أن لا إلا اله إلا الله، وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاما؛ لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية؛ تعريف الناس بإلههم الحق، وتعبيدهم له، وتطويعهم لسلطانه، حتى إذا خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله.. عندئذ بدأت التكاليف(...) وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية.. بدأت في الوقت الذي يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال؛ لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أيا كان(...) بدأت الأوامر والنواهي بعد الإسلام.. بعد الاستسلام، بعد أن لم يعد للمسلم في نفسه شيء.. بعد أن لم يعد يفكر في أن يكون له إلى جانب أمر الله رأي أو اختيار...إلخ»[٨٠].

ز- ونخلص مما سبق إلى أن تأسيس وتربية الإيمان في القلب هما أساس

---

(٨٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد٢، الجزء السابع، ط٣، دار الشروق، ص ٩٧٣-٩٧٤ وهذا النص يقرر قاعدة تربية الإيمان أولا.. لكن تربية الأخلاق والتربية الاجتماعية، والتربية الروحية كانت كلها تسير مع الإيمان طوال الثلاث عشرة سنة أيضا.

الخلاص من النفاق، ومن هوية الخوارج، ومن الانحراف الخلقي الاجتماعي، وهو أساس بناء الشخصية المؤمنة، المسلمة، حقا، ومنطلق التغيير الاجتماعي الشامل.

ومن ثم يجب تربية الإيمان في القلب أولا.

وهذه هي دلالة قول النبي ﷺ في حديث حذيفة: «حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال..» فالطريق من هنا ومن هنا نبدأ.

وفي الفصل التالي سنفصل بعض مقومات الإيمان التي يجب أن تربى في القلب، بإذن الله.

ح- ويتطابق ما قررناه في فصل (صلاح القلوب أساس صلاح العمل)، فلا نكرره، لكننا نضيف أن تربية الإيمان في القلب هي أساس تزكية القلب، وأساس إصلاحه، وصلاحه، وبالتالي أساس جعله (طيبا)، وهذا هو أساس جعل الأسفل طيبا، فإذا طاب الأسفل طاب الأعلى، والعكس صحيح، وهنا نسوق هذا القانون التربوي النفسي في الحديث النبوي الفذ الرائع، فقد أخرج ابن ماجه عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال كالوعاء، إذا طاب أسفله طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه**»(٨١).

وأخرجه الطبراني في الكبير عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «(...) **وإنما مثل أحدكم مثل الوعاء، إذا طاب أعلاه، طاب أسفله**»(٨٢).

وأخرجه ابن المبارك عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «..**وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء، إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله**»(٨٣).

---

(٨١) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٤٠٤، ص ٣٧٠، وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، ط٣، رقم ٢٣٢٠، ص ٤٦٠.

(٨٢) إسناده صحيح، رجاله ثقات، المعجم الكبير، ج١٩، رقم ٨٦٦، ص ٣٦٨.

(٨٣) ابن المبارك، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٥٩٦، ص ٢١١، وأرى أن في رواية الزهد، ورواية الطبراني قلبا، في المعنى، فرواية ابن ماجه، وصحيح الجامع، قاطعة في أن الأصل طيب الأسفل، أو فساده، وليس الأعلى، وهذا هو الصحيح، الموافق لحديث: «**إذا صلحت صلح الجسد كله.. ألا وهي القلب**».

ورواية ابن ماجه هي التي تقرر ما نحن بصدده، فالأعمال التي تصدر عن الإنسان، أي: السلوك الإنساني كله: ظاهرا، وباطنا، مثل الوعاء المملوء، فإذا طاب أسفله، أي: طاب، وصح، وطهر، ونضج، وأصبح نظيفا صالحا نافعا، طاب أعلاه، فطيب الأسفل، الذي في العمق القلبي، يؤدي إلى طيب السلوك الخارجي.. مع الآخرين، والعكس صحيح.

وطيب الأسفل يعني: أن نبدأ التغيير من تحت، من العمق، من المدفون في القلب، والنفس، وهذه هي الحقيقة التي قررناها في فصول كثيرة، والتي يقررها حديث حذيفة الذي معنا، وحديث حذيفة الثاني عن رفع الأمانة من القلوب.

خامسا: قبض الإيمان من القلب ورفعه ونزعه تدريجيا:

أ- عبر حذيفة ﷺ عن نزع الإيمان من القلب بقوله: «ثم حدثنا عن رفع الأمانة..»، أي: الإيمان، فهو أمانة غالية عزيزة، إذا لم يشكرها الإنسان، ولم يعمل بمقتضاها، ولم يرعها فإن الله يرفعها إليه، ويأخذها عنده، وينزعها- في النهاية- من القلب، حتى يصبح وليس في قلبه من الإيمان حبة خردل، أو حبة شعير، أي: ليس في قلبه أدنى شيء من الإيمان.

ب- ويبين النبي ﷺ أن الإيمان لا ينزع مرة واحدة، وإنما يرفع قليلا قليلا، تدريجيا، بحسب غفلة الإنسان، وارتكابه للآثام.. التي تطفئ نور الإيمان، وتظلم القلب، ففي البدء ينقص الإيمان، فينقص وزنه، ونوره، إذا غفل الإنسان غفلة، وعصى معصية، وارتكب خيانة، بقلبه، أو بجوارحه، مثل: الكبر، والزنا، والكذب، وخيانة الأمانة، وقول الزور، والرغبة في تقبيل فتاة، أو العكس، دون أن ينكر القلب ذلك، ودون توبة، ودون تجديد وصقل للقلب بعمل حسنة، أو استغفار.. فيقع القلب في عشق المعصية، فيقع في غمرة، وغفلة، وعمي، فيفعل المعصية، الخيانة، بأية جارحة، أو بالقلب، فإن الإيمان ينزع من قلبه، ويقبض، أي: يؤخذ من قلبه، ويذهب به منه، ولكن ليس كله، ما دام مقرا بذنبه، ولم يستحل الحرام.. فيبقى منه مثل أثر الوَكْت:

أي: أثر النار، في الجلد، أو أثر اندمال الجرح، أو الأثر اليسير، أو لـون يحـدث في الجلد، مخالف للون الذي كان قبله[٨٤].

يقول النبي ﷺ: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظـل أثرهـا مثل الوكت**» عند مسلم. وعند البخاري: «**مثل أثر الوكت**». وعند أبي نعـيم: «**ينام الرجل فيكم فينكت في قلبه نكتة سوداء**» وهذه رواية تدل على أن النومة المقصودة هنا هي: (رقدة الغفلـة) – غفلـة الإثـم وارتكـاب الـذنب، وغيبـة العقل، ونومة واعظ الله في القلـب؛ لأنـه مـريض واهـم ضـعيف، فيرتكـب المعصية، ولا يزجره واعظ الله، الذي ضعف، فتنكت في القلب نكتة سـوداء، ويقبض الإيمان من قلبه بقدر ما ارتكب من الغفلة والنومة، والإثم.

فينقص الإيمان، لكن لا ينتفي بالكلية، بل يظل أثره مثل أثر الوكـت، أي: يبقى الإيمان ضعيفا، له وجود في القلب، لكنه ناقص، واهن ضعيف.

جـ- فإذا لم ينهض(المؤمن) من (رقدة الغفلة) ويجدد إيمانه، ويصقل قلبه، ويتبع (السيئة الحسنة تمحهـا)، وإذا لم يـرب إيمانـه مـن جديـد، بفعـل طاعـة جديدة، وتتابع في تربية السوء في القلب، وفي رقدة الغفلة عـن الله، وفي ضـخ الدم الفاسد والقيح الثقافي إلى القلب، وزيـن لـه سـوء عملـه، وفعـل خيانـة أخرى، وتمرن على الإثم، وجرؤ عليه، وتمادى فيـه، وعـصى الجبـار الأعـلى، ونسي لقاءه، ونسي الحساب والجزاء، فإن الإيمان يقبض من قلبه ويرفـع، بـل (تنزع) الأمانة مـن قلبـه، ولا يبقـى إلا شـكل بـلا مـضمون صـحيح، مثـل شخصية الخوارج، لا يبقى إلا منظر مفرغ، مقزز في الواقع؛ لأنه منظر إيـمان، فارغ من المضمون القلبي الصحيح، أي: لا يبقى إلا (صورة إيمان) بلا (حقيقة) إيمان، فتظهر الشكلانية، والبرانية المناقضة للجوانية، والسريرة الإنسانية، يقـول النبي ﷺ: «**ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل**» أي:

---

(٨٤) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢ (مناهل العرفان)، ص ١٦٨، ابن حجر: فتح الباري، ج١١، ص ٣٣٤.

ثم يغفل الغفلة، ويرقد رقدة الإثم، ويرتكب خيانة أخرى، فيؤخذ الإيمان من قلبه، وينزع، فيصير أثره مثل (المجل) وهو أثر العمل في اليد، أو الكف، والمجل: هو التنفط، أي: الانتفاخ، الذي يصير في اليد، من العمل بفأس، أو نحوها ويصير كالقبة، فيه ماء قليل، لكنه ماء فاسد(٨٥).

فالإيمان - في هذه المرحلة من الغفلة والخيانة - ينزع من القلب، ولا يكون له أثر إلا في ظاهر الإنسان، أعني: أثرا ضعيفا في الظاهر، كالمجل في الكف، وقد وضح الرسول ﷺ ذلك بتشبيه ثانٍ فيقول: «**كجمر دحرجته على رجلك فنفط**» أي: تورم وانتفخ، وامتلأ ماء، وهو التنفط «فتراه منتبرا» أي: مرتفعا، منتفخا، متورما، أي: هذا المجل والتنفط، تراه منتفخا، مرتفعا على الرجل: «وليس فيه شيء»، أي: شيء نافع، فهكذا الذي نزع الإيمان من قلبه، تراه (منظرا على الفاضي) منفوخا، ومرتفعا، وقلبه فارغ من بشاشة الإيمان؛ وحلاوته، وسلوكه فارغ من الرحمة، وحسن الأخلاق، والتزام حدود الله تعالى.

ثم زاد حذيفة هذا المعنى وضوحا، بإيضاح علمي، «ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله»، وعند ابن ماجه: «ثم أخذ حذيفة كفًّا من حصى فدحرجه على ساقه»، وكأنه يريد أن يقول: إن الإيمان لا يبقى له أثر في القلب- في هذه الحالة- كما أن الحصى المتدحرج على الساق، لا يترك أثرًا عليها، إلا أثرًا من الغبار، أو لا أثر مطلقًا.

د- فمعنى الحديث- كما يقول صاحب التحرير: «أن الأمانة تزول عن القلوب شيئًا فشيئًا، فإذا زال أول جزء منها؛ زال نورها، وخلفته ظلمة كالوكت، وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله، فإذا زال شيء آخر صار كالمجل(...) وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال النور بعد وقوعه في

---

(٨٥) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص ١٦٩، ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص ٣٩، وج١١، ص ٣٣٤.

القلب، وخروجه بعد استقراره فيه، واعتقاب الظلمة إياه، بجمر يدحرجه حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر، ويبقى التنفط»[٨٦].

فكل خيانة، كل معصية، كل إثم، له أثر سيئ في القلب، كما شرحنا في فصل (القلوب المصقولة)، يزول جزء من الإيمان، حتى ينزع الإيمان من القلب، ولا يبقى إلا كلمة على اللسان، أو بعض أفعال مظهرية ليس وراءها ولا تحتها، بشاشة الإيمان وطيبه، فتصير لا نفع فيها، كالمجل.

فتأمل: البدء: غفلة، ثم غفلة، ثم غفلة، ثم معصية، ثم معصية، ثم معصية.. إلى أن ينزع الإيمان من القلب، وهذا قانون صحيح، موافق تماما لعقيدة أهل السنة: أن الإيمان يزيد وينقص، إنه ينقص حتى لا يبقى منه شيء، لا قليل ولا كثير[٨٧].

هـ- والمأخذ التربوي هنا هو أن الإيمان يربى بفعل أخلاق الإيمان، ويضعف بترك هذه الأخلاق واللوازم، وينزع نهائيا، ولا يبقى منه شيء بالاستحلال لما حرم الله، أو بالتتابع المستمر في المعاصي، وأخلاق الكفر، والاستهتار في ذلك.

فيصبح الإنسان صورة مسلم بلا حقيقة، وتفسد الأخلاق في الفرد والمجتمع.

سادسًا: أثر نزع الإيمان من القلب والتدين الشكلاني:

يذكر الحديث نتيجتين خطيرتين لهذا التحول القلبي؛ الأولى: في أخلاق التعامل بين «الناس». والثانية: في معيار تقويم الناس وتثمينهم والحكم عليهم.

---

(٨٦) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص ١٦٩. وانظر هامش إكمال المعلم ج١، ص ٤٥٠.

(٨٧) انظر تفصيل ذلك في: الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج٢، ص٨٠٨-٨٢٠.

أ- في أخلاق التعامل بين الناس:

يقول النبي ﷺ: **«فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا»، «فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة..»، «فيصبح الناس ليس فيهم أمين»**.

١- لما نزع الإيمان من القلب، مات واعظ الله فيه، فلا يأمره بخير، فنزعت الأمانة، وهي خلق من أخلاق الإيمان، من السلوك والتعاملات، ففساد القلب ينتج عنه فساد الخلق والتعامل، إذا فسد أسفل الوعاء فسد أعلاه، أي: إذا فسد المعتقد، والإيمان في القلب، فسد الخلق والسلوك في الظاهر الاجتماعي، وذلك أن الإيمان بالله والإذعان لأمره، ونهيه، يشكل، ويصوغ، ويصبغ، قيم وتوجهات وموازين الإنسان، وينمي فيه رغبة الخير، والاتجاه القوي إلى فعله وممارسته، والنزوع إلى السلوك الذي يُرضي عنه الله تعالى؛ سلوك التقوى، والرحمة، والعدالة، ونزاهة التعامل...إلخ.

فإذا نزع الإيمان من القلب حدث تغير مضاد في التصورات والأفكار الموجهة، وفي القيم والضوابط السلوكية، وفي الرغبات والعواطف والمشاعر، والاتجاهات الوجدانية، وفي العادات والسلوكيات والتصرفات، فبدلا من الاستناد- في ذلك كله- إلى مبدأ قبول وحي الله، والانقياد له، والإذعان لقيمه ومراعاة المجازاة يوم القيامة، وبدلا من ذلك يصير الاستناد إلى مبدأ مضاد، مبدأ الهوى البشري، أو الذاتية، أو الرغبات الشخصية أو المنفعية، أو تحقيق أكبر قدر من المصالح والمنافع الدنيوية الشخصية، أو إشباع الرغبات الأنانية، أو مبدأ العلمانية الدنيوية المقطوعة عما قبل الوجود، وما بعد الوجود الظاهر، فتصطبغ النفس بهذه الصبغة، فتتحول الأخلاق إلى أخلاق الأنانية، والمنفعية والتنافس الدنيوي، والجشع، والاقتنائية، وتكديس أكبر قدر من المنافع للذات، دون أي اعتبار لصفوف الآخرين، فتنشأ المكيافيللية الخلقية.. وملحقاتها السياسية والاقتصادية.

وهنا، إذا نزع الإيمان من القلب، وغلب هذا الوضع على جمهور الناس، وحدثت خيانة الإيمان- هنا، فعلا يصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة، بل يصبحون، وليس فيهم أمين، أحيانا.

أي: أن تعاملات الناس في البيع والشراء لا تنضبط بقيم الإيمان؛ من الصدق وعدم الغش، والوفاء بالموعد، والعقود، والعهود، وتبيين عيوب السلعة، وعدم الجشع في الربح، وعدم الخيانة في الكيل، وفي الميزان... إلخ.

فالتزام هذه القيم الخَيِّرة في التبايع، والتعامل إنما هو ثمرة سلوكية لتربية الإيمان بالله، والوحي، والرسول، واليوم الآخر، ... إلخ، هذا الإيمان هو الذي (يأمر) بمحاسن الأخلاق والتزام الأمانة في السلوك والتعامل مع الآخرين، فالخلق- أو القيمة- معتقد أُمرناه.. ولا يكون كذلك إلا بالإيمان به.

فإذا لم يرب الإيمان في قلوب الناس، أو إذا نزع الإيمان من قلوب جمهور الناس، فإن أيدلوجيا الأنانية والجشع، والمباراة الدنيوية، والتنازع والتنافس في تحصيل الأرباح، دون مراعاة لقيم الإيمان بالله، قيم الحلال والحرام، هذه الأيدلوجيا هي التي تأمر بالخيانة والغش، والكذب، والتدليس في البيع والشراء، وغير ذلك.

وبهذا (يندر) الالتزام بقيم الحق والعدل والأمانة في التعامل الاجتماعي والاقتصادي، وعبر الحديث عن هذه الندرة الخلقية بقوله: «**لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا**» وهذا يعني: أن الأمناء- أعني: المؤمنين الملتزمين بقيم الإيمان في التبايع والتعامل- نادرون، جدًّا، لدرجة أنهم يعرفون بأسمائهم وأسماء عائلاتهم: «**إن في بني فلان رجلًا أمينًا**».

فندرة وجود الأمناء إنما هو نتاج لنزع الإيمان من القلوب، فإذا أردنا شيوع أخلاق الأمانة، وقيم الإيمان، من الصدق، والورع عن الحرام، والوفاء بالعهود، في التعاملات، فإن سبيل ذلك فقط هو تربية الإيمان في القلب تربية صحيحة، مؤسسة على المقومات الإسلامية للإيمان، ولهذا قال حذيفة: «ولقد

أتى عليَّ زمان، وما أبالي أيكم بايعت؛ لئن كان مسلما ليردنه على دينه»، وفي رواية البخاري: «لئن كان مسلما رده على الإسلام»، وعند ابن ماجه «ليردنه على إسلامه»، فالمسلم تربى تربية إسلامية، نمت الإيمان في قلبه، وربت واعظ الله فيه، فيأمره إسلامه، في داخله وبواعظ منه، ونازع قلبي منه- أن يعود بالحق إلى صاحبه، ويرده عليه، إن الإيمان والإسلام في قلبه يأمره بالتزام أخلاق الإيمان، ويمنعه، من داخله، من الخيانة، وأكل المال بالباطل، وأكل الحرام، ويدعوه- ويرغبه- من داخله إلى فعل الخير، ومكارم الأخلاق، فيأمن المسلم ويتعامل معه وهو مطمئن القلب، ولا يخاف أن يفتك به، أو أن يخونه، ويطعنه من الخلف، لأن «**الإيمان قيد الفتك**»(٨٨).

- كما جاء في الحديث الصحيح، وبقيته: «**لا يفتك مؤمن**»(٨٩). والإيمان قيد الخيانة، وقيد الكذب، «**المؤمن يطبع على الخلال كلها، إلا الخيانة والكذب**»(٩٠). فكما يمنع القيد من التصرف كذلك يمنع الإيمان المؤمن من الغدر والخيانة، والكذب.. وكل مساوئ الأخلاق.

فيأمن الناس، فيتعاملون معه، ويتبايعون معه؛ لأنه لو حدث خطأ في المعاملة: فإن الذي عنده الحق، أو وصل إليه ما ليس من حقه، سيحركه الإيمان الحي، والإسلام اليقظ في قلبه، في الضمير، ويدفعه إلى رد الحق لصاحبه، ويمنعه من أكله بالباطل.

(٨٨، ٨٩) هما جملتان من حديث صحيح واحد، أخرجه أحمد في المسند،ج٢، رقم ١٤٢٦ عن الزبير ولفظه: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن**» قال شاكر: إسناده صحيح، ص ٢٠١، ٢٠٢، ورواه بلفظ: «**الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن**» برقم ١٤٣٣، وإسناده صحيح، ص ٢٠٣، وأخرجه أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن**» سنن أبي داود، ج٢، دار الفكر، رقم ٢٧٦٩، ص ٤٤٥ وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، ط٣، رقم ٢٨٠٢، ص ٥٤١، والإيمان لأبي عبيد، بتخريج الألباني: ص ٨٤ هامش رقم ٦٥.

(٩٠) هو من قول عبد الله بن مسعود، وقول سعد بن أبي وقاص، رواهما ابن أبي شيبة بإسنادين صحيحين، انظر: الإيمان لابن أبي شيبة، بتخريج الألباني، رقم ٨٠، ٨١، ص ٢٦، ٢٧ وهامش رقم ٦٩.

فواعظ الله في القلب- بالإيمان، والإسلام- يرد الحق لصاحبه، ويمنعه من قبول ما ليس له؛ لأنه يوقن أن الله يراه، وأنه محاسبه، ومجازيه على ذلك يوم الدينونة، والديان لا ينام، هنا يثق الإنسان في المؤمن، لذاته، ليقظة الإيمان في قلبه، وانتشار نوره في صدره، وحياة وقوة واعظ الله فيه.

ونتيجة لشيوع قيم الإيمان في التعامل، فإن الإنسان يثق في النصراني واليهودي، في المجتمع المسلم، لماذا؟ لأنه إذا خان اليهودي أو النصراني في التعامل فإن هناك (الساعي): أي: الحاكم الذي يحكم عليه، الذي تربى الإيمان في قلبه، وجعله يقظا في رعاية حقوق الناس، والسهر على ردها لأصحابها، فيراقب تعاملات الناس، ويرد لكل ذي حق حقه، وهذا معنى قول حذيفة: «ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه عليّ ساعيه». يقول ابن حجر: «كان يثق بالمؤمن لذاته، وبالكافر لوجود ساعيه، وهو الحاكم الذي يحكم عليه، وكانوا لا يستعملون في كل عمل- قل أو جل- إلا المسلم، فكان واثقا بإنصافه، وتخليص حقه، من الكافر، إن خانه»[٩١].

ويقول النووي: «فمعنى المبايعة؛ هنا: البيع والشراء، المعروفان، ومراده: أني كنت أعلم أن الأمانة لم ترتفع، وأن في الناس وفاء بالعهود، فكنت أُقْدِم على مبايعة من اتفق، غير باحث عن حاله، وثوقا بالناس وأماناتهم، فإنه إن كان مسلما فدينه وأمانته تمنعه من الخيانة، وتحمله على أداء الأمانة، وإن كان كافرا فساعيه- وهو الوالي عليه- كان أيضا يقوم بالأمانة، في ولايته، فسيتخرج حقي منه»[٩٢].

فوجود الإيمان والإسلام في القلب والخلق، هو الذي أوجد الأمانة في التعاملات الاقتصادية، والاجتماعية، وهو الذي يوجد الأمانة في التعاملات السياسية، أي: توسيد- وإسناد الأمر، أي: الوظائف والولايات العامة، إلى

---

(٩١) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٤٠.

(٩٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص ١٧٠.

أهلها، من الأمناء الأكفاء المتدينين، ذوي الخبرة والكفاءة الملائمة والإتقان، وعدم توسيد الأمر أهله، هو تضييع للأمانة: أمانة الحكم بالعدل، والحق، ورد المظالم لأهلها، وإدارة الوظائف لمصلحة الناس، بالعدل، وإقامة الحق، عن طريق إسنادات السلطة التنفيذية وفعاليتها، كما قدمنا في حديث رواه البخاري: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، (...) إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(٩٣).

فتوسيد الأمر وإسناد الولايات العامة، والوظائف العامة- إلى غير أهلها، المختصين الأكفاء، الأمناء، المدربين، المتدينين، هو دليل على الفساد السياسي، والاجتماعي والخلقي، الناتج عن فساد الضمائر، فساد القلوب، أي: عن نزع الإيمان من القلوب، فتربية الإيمان الإسلامي في القلوب ينتج عنه أيضا توسيد الولايات والوظائف لأهلها، طبقا لمبدأ الجدارة والكفاءة، فيحكمون بالأمانة، فيستوفي الناس حقوقهم في عهد ولاياتهم الأمينة.

أما إذا تغير الوضع القلبي بحيث نزع منه الإيمان، فإن الوضع السياسي يتغير، فتسند الولايات لغير أهلها، ويتغير الوضع الخلقي السلوكي التعاملي، فلا يكاد يلتزم أحد بأخلاق الأمانة- وهنا يصبح المؤمن في وضع (الحَذَر)؛ كالطير الذي يرى له في كل مكان شركا يريد أن يأخذه، فلا يتبايع، ولا يتعامل إلا مع من يثق فيه، ويعرفه باسمه، ولهذا يقول حذيفة: «وأما اليوم»؛ أي: عندما حدث تحول وتغير في الإيمان، وبالتالي: حدث تغير في توسيد الأمر لغير أهله، وفي انتشار أخلاق الخيانة في تعاملات البيع والشراء، يقول: «فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا» يعني: «أفرادا من الناس؛ أعرفهم وأثق بهم»(٩٤). ويضيف ابن حجر: «فلما بدأ التغير في الناس، وظهرت الخيانة؛ صار لا يبايع إلا من يعرف حاله»(٩٥).

---

(٩٣) أخرجه البخاري، فتح الباري، ج١١، رقم ٦٤٩٦، ص ٣٣٣.

(٩٤) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص ١٧٠.

(٩٥) فتح الباري، ج١٣، ص ٤٠.

إذًا، تغيرات السلوك والتعاملات، الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، تنتج عن تغيرات القلوب، فإذا طاب الأسفل طاب الأعلى، فهناك بنيتان نفسيتان: البنية التحتية: وهي عالم المعتقد والفكر والتصور، وعالم القيم.. وعالم العواطف والمشاعر والرغبات والاتجاهات- أي: عالم الإيمان. والبنية الفوقية: البنية العليا، وهي عالم العادات والسلوكيات، والتعاملات بأنواعها مع الآخرين، فإذا طابت البنية التحتية السفلى - أسفل الوعاء- طابت البنية الفوقية، العليا- أعلى الوعاء - والعكس صحيح.

وهذا هو القانون النفسي الاجتماعي الذي نفسر به حركة التغيرات في المجتمع، فتغيير ما بالأنفس من معتقدات وتصورات وقيم، وأفكار موجهة، وعواطف، ومشاعر، واتجاهات، ونزوعات، يؤدي إلى تغيير ما في المجتمع من عادات، وسلوكيات، وتعاملات.. وأوضاع.. صحة وخطأ، حقا، وباطلا، أمانة، وخيانة، إيمانا وكفرانا، وهذا قانون صحيح، وسنة اجتماعية في سنن الأنفس والمجتمع، وحركة التاريخ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١] وهذا التغيير، لا يتحقق بدون تربية الإيمان بمقوماته، كما سنوضحها في الفصل القادم، بعون الله، فإيمان القلب ينتج عن سلوك الأمانة، وعدم دخول الإيمان في القلب فينتج عنه سلوك الخيانة والكذب، ومساوئ الأخلاق الأخرى.

ولهذا يحتل الفعل التربوي رأس الزاوية في بنية الإصلاح الاجتماعي والسياسي، والاقتصادي، من حيث منشأ هذه البنية الإصلاحية، لا من حيث آليات ممارستها.

٢- ولا أترك هذه النقطة دون أن أوضح نتيجة خطيرة لها، فإذا أوسد الأمر لغير أهله، وإذا انتشرت الخيانة، فإن حقوق الضعفاء ستضيع، ويضيع الضعيف، وهنا تنزع القداسة عن الأمة، وهو ما بينه الرسول ﷺ بجلاء، وما يجب أن نتأمل فيه.

فابتداءً، أخرج الطبري اللالكائي عن عبد الله بن هريرة قال: كتب أبو الدرداء إلى سلمان: أنْ هلُمَّ إلى الأرض المقدسة.

وكان أبو الدرداء يلي القضاء بالشام فكتب إليه سلمان: «الأرض لا تقدس أحدا، إنما يقدس المرء عمله»(٩٦).

فالذي يقدس المرء، أي: يطهره من مساوئ الأخلاق، ومن الخيانة، والكذب..إلخ، هو عمله الصالح، وكذلك الذي يقدس الأمة هو أعمال مجموع أفرادها الصالحة.. الملتزمة بالإيمان والخلق الحسن.

بعد هذا نسوق جملة أحاديث في معنى محدد يتعلق بتقديس الأمة:

٢-١: أخرج ابن ماجه، عن أبي سعيد الخدري؛ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديْنًا كان عليه، فاشتد عليه، حتى قال له: أُحَرِّج عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه، وقالوا: ويحك: تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النبي ﷺ: «**هلا مع صاحب الحق كنتم؟**»، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس، فقال لها: «**إن كان عندك تمر فأقرضينا، حتى يأتينا تمرنا فنقضيَكِ**»، فقالت: نعم، بأبي أنت يا رسول الله! قال: فأقرضته، فقضى الأعرابيَّ وأطعمه، فقال: أوفيتَ أوفى الله لك، فقال: «**أولئك خيار الناس؛ إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع**»(٩٧) (غير مأذي ولا منزعج، ولا قلق من أذى يصيبه).

٢-٢- أخرج ابن ماجه عن جابر؛ قال: لما رجعتْ إلى رسول الله ﷺ مُهاجِرة البحر، قال: «**ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟**» قال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس، مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قُلَّة من ماء فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى

---

(٩٦) رواه مالك في الموطأ عن أبي الدرداء، انظر: الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، مجلد ٢، رقم ١٧١٨ ص ٨٠٧.

(٩٧) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٢، رقم ١٩٨٤، ص ٢٨٣.

يديه بين كتفيها، ثم دفعها، فخَرَّت على ركبتيها، فانكسرت قُلَّتها، فلما ارتفعت، التفتت إليه، فقالت: سوف تعلم، يا غُدَرُ! إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل، بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا.

قال: يقول رسول الله ﷺ: «**صدقتْ، صدقتْ، كيف يقدس الله أمة، لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟**»(٩٨).

٢-٣: وأخرجه ابن أبي عاصم عن بريده قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة لقيه رسول الله ﷺ فقال: «**حدثني بأعجب شيء رأيته بأرض الحبشة**»، قال: مرت امرأة على رأسها مكتل فيه طعام، فمر بها رجل على فرس فأصابها، فرمى بها، فجعلت تنظر إليه، وهي تعيده في مكتلها، وهي تقول: ويل لك من يوم يضع الملك كرسيه فيأخذ للمظلوم من الظالم، فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه، فقال: «**كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفها من شديدها حقه، وهو غير متعتع؟**»(٩٩).

٢-٤: وأخرج الطبراني، عن ابن مسعود قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة، أقطع الدور، وأقطع ابن مسعود فيمن أقطع، فقال له أصحابه: يا رسول الله، نَكِّبْه عنا (نَحِّه عنا) قال: «**فلم بعثني الله إذا؟ إن الله عز وجل لا يقدس أمة لا يعطون الضعيف منهم حقه**»(١٠٠).

وأخرجه ابن سعد، عن يحيى بن جعدة؛ قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أقطع الناس الدور، فقال حي من بني زهرة(...): نَكِّب عنَّا ابن أم عبد، فقال رسول الله ﷺ: «**فلم بعثني الله إذًا؟ إن الله لا يقدس قوما لا يُعطى الضعيف منهم حقه**»(١٠١).

---

(٩٨) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٢٥٥، ص ٣١٣-٣١٤.
(٩٩) قال الألباني: حديث صحيح.. كتاب السنة ومعه ظلال الجنة، رقم ٥٨٢، ص ٢٦٨.
(١٠٠) حديث صحيح، رجاله ثقات، الطبراني: المعجم الكبير، ج١٠، رقم ١٠٥٣٤ ص ٢٢٢.
(١٠١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٢، دار الفكر، بيروت، ص ١٤٧.

٢-٥: وأخرج الطبراني عن معاوية؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقدس أمة لا يقضي فيها بالحق، ويأخذ الضعيف حقه، من القوي، غير متعتع**»(١٠٢).

وأخرجه الطبراني أن معاوية كتب إلى مسلمة بن مخلد أن: سل عبد الله بن عمرو بن العاص: هل سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا قدست أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من قويها، وهو غير مضطهد؟**» فإن قال: نعم؛ فاحمله إليَّ على البريد، فسأله، فقال: نعم، فحمله على البريد من مصر إلى الشام، فسأله معاوية فأخبره، فقال معاوية: وأنا قد سمعته، ولكن أحببت أن أُثْبِتَ(١٠٣).

٢-٦: وأخرج الطبراني عن قابوس بن مخارق، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا قدست أمة لا يؤخذ فيها للضعيف حقه، غير متعتع**»(١٠٤).

ففي هذه الأحاديث الصحيحة يتبين أن الله لا يقدس الأمة إلا إذا هي قدست نفسها بأن يقضى فيها بالحق، وأن يعطى الضعيف فيها حقه غير مضطهد ولا متعتع، ولا قلق.. وهذا لا يكون إلا بالتزام توسيد الأمر أهله، وبالتزام خلق الأمانة في المعاملات.

فمنهجية من منهجيات رفع العار عن الأمة، ومحاصرة العهد الخلقي، والفساد السياسي والاجتماعي: هو أن نتربى تربية إيمانية خلقية تجعلنا نلتزم بالأخلاق الحسنة، وتجعلنا أقوياء الإرادة في المطالبة بحقوقنا، وفي أداء واجباتنا، وأن نقف مع الضعيف حتى يأخذ حقه غير متعتع ولا مضطهد، حتى وإن كان الذي نقف ضده هو الحاكم، هذه هي تربية الأمانة في القلوب.

وإلا فكيف يقدسنا الله؟ كيف يقدس الله هذه الأمة إذًا؟ ولم بعث النبي ﷺ إذًا؟!

---

(١٠٢) رجاله ثقات، الطبراني: المعجم الكبير، ج١٩، رقم ٩٠٣، ص ٣٨٥.
(١٠٣) ورجاله ثقات، المصدر السابق، ج١٩، رقم ٩٠٨، ص ٣٨٧-٣٨٨.
(١٠٤) ورجاله ثقات، الطبراني: المعجم الكبير، ج٢٠، رقم ٧٤٥، ص ٣١٣.

ب- في تغير معيار التقويم الاجتماعي:

١- أما النتيجة الاجتماعية الثانية، الخطيرة لنزع الإيمان وقبضه من القلوب؛ فهي أن معيار التقويم الاجتماعي الذي نزن به الأشخاص، ونثمنهم، ونحكم به على شخصياتهم، ونقدرهم على أساسه، هذا المعيار لن يكون هو معيار الإيمان بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، وباليوم الآخر، وبالتقوى الملزمة بفعل الحلال الذي أحله الله في منهاجه، وترك الحرام الذي حرمه الله، فنحكم على الشخص بأنه عاقل، جلد، ظريف، لأنه مؤمن، لا لسبب آخر، فحين ينزع الإيمان من القلوب؛ تحل محله أُدْلُوجَة الهوى والأنانية، والمصلحة الذاتية، والمنفعية العلمانية، (أيدلوجيا الاقتناء) لا الكينونة الإنسانية الثرية بالخير، الغنية بالله، فيحل معيار آخر للتقويم محلّ معيار الإيمان، ينسجم مع هذه الأدلوجة أو تلك، فيقال للرجل: ما أعقله، وما أظرفه، وما أجلده، وليس في قلبه من الإيمان حبة خردل، أو مثقال حبة من شعير، أي: أننا قومناه، وقدرناه، وثمناه، بمعيار آخر، غير معيار الإيمان، فرفعنا قيمته مع أنه فارغ القلب من الإيمان، وبالتالي هو خائن ورويبضة، ومع ذلك قلنا، أو قيل له: ما أعقله!

وذلك لأنه (محك) التقويم في مجتمع الناس تغير؛ فأصبح قائما على (أدلوجة الهوى) والمنفعية الذاتية.

يقول النبي ﷺ مبينا هذا التغير حين يقبض الإيمان من القلوب، يقول: **«حتى يقال للرجل ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»**. وفي رواية ابن ماجه: **«وحتى يقال للرجل ما أعقله! وأجلده! وأظرفه! وما في قلبه حبة خردل من إيمان»**. وعند أبي نعيم: **«وليأتين على الناس زمان يقال للرجل ما أظرفه! وما أعقله! وما في قلبه من الإيمان مثقال شعيرة»**، فهذا بيان لانحراف معيار التقويم لأشخاص الناس، عن معيار الإيمان، وتقوى الله، فيقبل الناس على شخص، ويعجبون به، ويثمنون

قيمته تثمينا عاليا بسبب أنه ذو سلطة أو ذو ثروة أو ذو شهرة.. فتصير القيمة العليا الحاكمة لاتجاهات الناس، وتقويماتهم، وتفضيلاتهم هي: السلطة أو الثروة، أو الشهرة، أو الجاه الدنيوي، أو المظهرية والرياء الاجتماعي.

٢- ولكن النبي ﷺ بعث ليقر معيارا آخر، إنه أراد؛ بالتربية، وبالممارسة، إقرار معيار تقويم نزيه لشخصيات الناس في الجماعة الإنسانية، بإحلال قيم الإيمان الحق محل قيم السلطة والثروة...إلخ، وذلك بتربية قيم الإيمان الحق النزيه، في قلوب أتباعه، وتوجيههم إلى تفعيل قيمه النزيهة في أحكامهم، وتقويماتهم لشخصيات الناس، أيا كانوا.. فمن تحقق فيه الإيمان الصحيح، الخير، فهو الخير العاقل المهذب، المقدم، وإلا فلا.

أخرج البخاري، عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يُشفع، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريّ إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يُشفع، وإن قال ألا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا**»(١٠٥).

فهذا الفقير مع الإيمان والخلق الحسن، خير من ملء الأرض من ذلك الغني الفارغ من الإيمان، والخلق الحسن، فدلالة الحديث- في موضوعنا- أن النبي ﷺ حكم على الفقير المسلم المؤمن بأنه خير من ملء الأرض من مثل الغني الذي يفتقد الإيمان والخلق الحسن، فمعيار التقويم هنا هو أن يكون

---

(١٠٥) فتح الباري، ج١١، رقم ٦٤٤٧، ص ٢٧٣، ورواه برقم ٥٠٩١، فتح الباري، ج٩، ص ١٣٢. حري: أي: حقيق وجدير. ورواه الطبراني، في المعجم الكبير، ج٦، رقم ٥٨٨٣، ص ١٦٩، وابن ماجه، ج٣، رقم ٣٣٤٢، ص ٣٥٠.

تدينه، وأمانته باعثين على الرضا لدى الإنسان المؤمن، حتى وإن كان مسكينا من الناحية المالية، أو من ناحية السلطة أو الشهرة.

ففي حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ قال له: «**كيف ترى جُعَيْلا؟**» قلت: مسكينا كشكله من الناس، قال: «**فكيف ترى فلانا؟**» قلت: سيدا من السادات، قال: «**فجعيل خير من ملء الأرض مثل هذا**»، فقال: فقلت: يا رسول الله، ففلان هكذا وتصنع به ما تصنع؟ قال: «**إنه رأس قومه؛ فأتألفهم**»(١٠٦).

فالسيادة بمجرد الدنيا لا أثر لها.

إذا يريد النبي ﷺ أن يقر- في واقع الممارسة الاجتماعية- موازين اجتماعية جديدة في علاقات الناس في المجتمع، موازين تنبع، وتنبثق من القيمة العليا للإسلام: قيمة التوحيد، والإيمان الصحيح الطيب، الذي إذا قبض ورفع، ونزع، حل محله ميزان الأنانية الدنيوي العلماني: لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه، ميزان يؤول إلى فساد العلاقات الاجتماعية، وتوهين قيم الإيمان بالله في المجتمع، فينتشر الانحلال الخلقي، والفساد الاقتصادي، والاجتماعي، وفساد معايير التقويم، ولعل هذا هو المعبر عنه فيما أخرجه ابن ماجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»(١٠٧). وفيما رواه الترمذي عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض، وفساد**»، قالوا: يا رسول الله: وإن كان فيه؟ قال: «**إذا جاءكم من**

---

(١٠٦) قال ابن حجر: «أخرجه محمد بن هارون الروياني في مسنده، وابن عبد الحكم في فتوح مصر، ومحمد بن الربيع الجيزي في (مسند الصحابة الذين نزلوا مصر)، فتح الباري، ج١١، ص ٢٧٧، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ج١، ص ٣٥٣ وهو جميل بن سراقة الضميري، سكن الصفة، حلية، ج١، ص ٣٥٣.

(١٠٧) قال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج٢، رقم ١٦١٤، ص ١٥٥، وصحيح الجامع الصغير، ج١، ط٣، رقم ٢٧٠، ص ١١٢.

ترضون دينه وخلقه فانكحوه» ثلاث مرات(١٠٨).

فمعيار قبول الشاب للزواج من الفتاة هو: الدين والخُلُق، وإن كان فيه فقر، أو عدم جاه، أو عدم سلطة... إلخ.

هكذا يريد الرسول ﷺ إقرار معيار تقويمي اجتماعي جديد نابع من الإيمان الإسلامي، في علاقات الناس، وأحكامهم، وتقويماتهم.

إنه يقر سلما قيميًا جديدًا، في رأسه: قيمة الإيمان العليا، وقيم الخلق الحسن، بدلا من فوضى المعايير، ومن الفساد الخلقي، فالمنقذ من الضلال الاجتماعي، هو أن ينزل الإيمان- من جديد- في جذر قلوب الناس، أي: أن يتربى الإيمان في القلوب أولا، فإذا تربى أثمر أخلاقا حسنة، وممارسة للأمانة، وصلاحا، واستقامة في التعامل، وفي معيار التقويم الاجتماعي، وفي القيمة العليا في المجتمع.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[المائدة: ١٠٠].

سابعا: خاتمة واستنتاجات:

١- تبين من هذا الفصل أن تربية الإيمان أساس التغيير، وإخراج الشخصية المسلمة إلى عالم الواقع الاجتماعي الفعلي، وأن النبي ﷺ كان يربي الإيمان ويعلمه قبل القرآن، ولهذا قال: إن الأمانة، التي هي مجموع شعب الإيمان، نزلت في جذر قلوب الرجال.

٢- تربية الإيمان هي الأصل التربوي الأول.

٣- أن الإيمان ينزع من القلب، بسبب غفلة الإنسان، فإذا تمادى فيها، فإن

---

(١٠٨) قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، وأبو حاتم المزني له صحبة، ولا نعرف له عن النبي ﷺ غير هذا الحديث» سنن الترمذي، ج٢، رقم ١٠٨٧، ص ٣٤٥ وحسنه الألباني في صحيح الجامع، المصدر السابق، ص ١١٢.

الإيمان يقبض كليا، وينزع، ولا يبقى منه شيء، ولهذا كان ابن عمر يدعو ويقول: «اللهم لا تنزع مني الإيمان كما أعطيتنيه»(١٠٩).

وكان ابن مسعود يقول في دعائه: «اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا»(١١٠).

٤- وأنه إذا نزع الإيمان من القلب نتجت نتيجتان خطيرتان: الأولى: فساد المعاملات المالية والخلقية بين الناس، والثانية: فساد معيار التقويم والحكم على الناس، في المجتمع.

٥- وأن المخرج هو تربية تستدرك النقص، فتربي الإيمان من جديد في القلب.

٦- ولكن ما مقومات الإيمان؟ وما مضمونه الذي يجب أن نربيه؟ وما أساليب تربيته؟ هذا هو موضوع الفصل الآتي، بإذن الله، وبعونه، فالفصل الآتي هو استكمال، وتفصيل لما أجملناه في هذا الفصل.

ولهذا ندخل إليه مباشرة، دون أسئلة.

---

(١٠٩) رواه ابن شيبة في الإيمان بإسناد صحيح، رقم ١٥، ص ٧.

(١١٠) رواه الطبري اللالكائي بإسناد صحيح، انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج٢، رقم ١٧٠٤، ص ٨٠٢.



الفصل الخامس عشر

تربية تجديد الإيمان في القلب

تربية تجديد الإيمان في القلب

أولا: نص الحديث النبوي:

أخرج الطبراني والحاكم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الإيمان ليَخْلَق في جوف أحدكم كما يَخْلَق الثوب، فاسألوا الله - تعالى- أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»(١).

وأخرجه الحاكم عن طريق ابن وهب، قال: أخبرني عبد الرحمن بن ميسرة، عن أبي هانئ الخولاني، عن أبي عبد الرحمن الجبلي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**» قال الحاكم: هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات(٢).

ثانيا: دلالات الحديث:

أ - يبين هذا الحديث ثلاث حقائق تتعلق بتربية الإيمان:

١ - الحقيقة الأولى: أن مستقر الإيمان وأصله يكون في القلب، في جوف الإنسان، أي: داخله، وباطنه، وقلبه، وجوانيَّته، وقد قررنا هذه الحقيقة في الفصل السابق، وهذا الحديث مزيد بيان لها، فالإيمان (في قلوبكم)، فتربية الإيمان تبدأ من داخل القلب الإنساني، ولعل هذا يشهد لحديث في إسناده ضعف، أخرجه أحمد وابن أبي شيبة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**» ثم يشير بيده إلى صدره: «**التقوى ها هنا، التقوى ها هنا**»(٣). وعند أحمد، عن أنس: كان رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير.. المجلد الأول، ط٣، رقم ١٥٩٠، ص ٣٣٠ والسلسلة الصحيحة رقم ١٥٨٥.

(٢) المستدرك ، ج١، حديث رقم (٥)، ص٤٥.

(٣) قال الألباني: «ضعيف السند، من أجل على بن مسعدة، فهو سيئ الحفظ» ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، رقم ٦، ص ٥.

«**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، قال: ثم يقول: «**التقوى ها هنا، التقوى ها هنا**»(٤). قلت: والحديث صحيح المعنى.. قد برهنا على ذلك في الفصل السابق.

٢- **الحقيقة الثانية**: أن الإيمان يَـخْلَق في جوف الإنسان المؤمن: أي: يَبْلَى، ويتقادم، ويفقد جدته، ورونقه، ويتقطع، تقول: خَلَق الثوبُ وأخْلَق: بَلِي، وتقطع، فالإيمان يبلى، ويفقد جدته وجماله، وحلاوته بالغفلة، والمعصية، والتتابع في الإثم، وطول الأمد، وتراكم الرَّيْن والصدأ، على القلب، فيصدأ، ويبلى، ويعت، ويتقطع، وربما ينزع تماما.

وهذا المعنى يقرره الرسول ﷺ بتشبيه خلوق الإيمان بخلوق الثوب.. فالثوب الذي يطول لبه، يبلي، ويتقادم ويعت، ويضعف نسجه، ويسهل تمزيقه، ويتقطع، وينزعه الإنسان، فيحتاج لتجديد ثوب آخر.

ويؤكد النبي ﷺ هذا المعنى بـ«إن» التي هي للتوكيد، واللام في قوله: «**ليخلق**»، وهي للتوكيد، إقرارا، وتقريرا لحقيقة أن الإيمان يخلق، وذلك بفعل طول الأمد، وبفعل الغمرة، والغفلة، والرين، الناتج عن الذنوب، والنكات السود التي تعلو على القلب، وانطفاء النور، بفعل الظلمة الناتجة عن فعل الحرام..إلخ، فيعتّ الإيمان، وقد يمزقه أدنى شيء، فيحتاج إلى تجديد.

وفعل التجديد هو في ذاته إيمان، يقول ابن حجر: «تجديد الإيمان: إيمان»(٥).

وهذه الحقيقة الثانية تقرر أن الإيمان ينقص، كما أنه يزيد.. وسيأتي بيان لذلك في هذا الفصل.

---

(٤) المسند، ج١٠، رقم ١٢٣٢٢، ص ٤٣٧. قال محققه: «إسناده حسن؛ لأجل علي بن مسعدة، وثقه أبو حاتم وابن معين، والطيالسي، وابن حبان، وضعفه آخرون- كما قالوا» ص ٤٣٧.

(٥) فتح الباري، ج١، ص ٤٨.

وهي حقيقة تلفت انتباهنا إلى وضع الإيمان في قلوبنا، وتشحذ هممنا- دائما- إلى فعل التجديد المستمر للإيمان.

٣- **الحقيقة الثالثة**: أن الإيمان يجدد في القلب، فكما أن الثوب إذا بلي، وضعف نسجه، وتقطع، جدد الإنسان ثوبا آخر، فإن المسلم إذا خلق الإيمان في جوفه؛ في باطنه، يمكن أن يجدد الإيمان بأن يفعل أفعال الإيمان، ليكون متجدد الإيمان- دائما.

والله هو الذي يجدد الإيمان في قلوبنا، إذا كنا أهلا لذلك، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فتجديد الله للإيمان في القلوب إنما يتم إذا باشر الإنسان أفعال التجديد، وجاهد في سبيل ذلك، ومن ذلك الدعاء والتضرع لله: «فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم» وسيأتي بيان لأساليب تجديد وتربية الإيمان في القلب، إن شاء الله.

ب- وتجديد الشيء هو جعله جديدا، وهو نقيض الخلق، وتجديد الشيء صار جديدا، طازجا، مبهجا، باعثا على السرور به، وتجديد الشيء: إحياؤه، ظاهرا وباطنا، فهي عملية تحوّل القديم، وتغيره، وتبعثه من جديد: شيئا جديدا لا عهد به من قبل.

فهي عملية تربية تجدد الإيمان، وتحييه، وتبعثه في القلب، وتحدثه، فتجعله حديثا.

من هنا نفهم قول الحسن البصري: «حادثوا هذه القلوب، فإنها سريعة الدثور»[٦]. وفي رواية ابن المبارك: «حادثوا هذه القلوب بذكر الله؛ فإنها سريعة الدثور»[٧].

---

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٢، ص ١٤٤، وابن الأثير: النهاية في حديث والأثر، ج٢، ص ١٠١.
(٧) ابن المبارك: كتاب الزهد، رقم ٢٦٨، ص ٩١.

قال ابن الأثير: «وفي حديث أبي الدرداء: «**إن القلب يدثر كما يدثر السيف، فجلاؤه: ذكر الله**» أي: يصدأ كما يصدأ السيف، وأصل الدثور: الدروس: وهو أن تهب الرياح على المنزل فتفشي رسومه بالرمل، وتغطيها بالتراب(...) ومنه حديث الحسن: «**حادثوا هذه القلوب بذكر الله؛ فإنها سريعة الدثور**» يعني: دروس ذكر الله، وإمحاءه منها، يقول: اجلوها، واغسلوا الرين والطبع الذي علاها؛ بذكر الله، ودثور النفوس: سرعة نسيانها»(٨)، فحادثوا بمعنى: حدثوها، أي: جددوها، واجلوها؛ لأنها سريعة الدثور؛ أي: سريعة البلى، والتقادم، والانمحاء.. وهذا التحديث يكون بذكر الله، واستحضار عظمته، ومنهجه، في القلب.. وتحديثها بكلام الله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. فشحذ القلب وتجليته، وتحديثه، وتجديده يكون بتحديثها بحديث الله، بذكر الله.

ومن هنا نفهم كذلك ما رواه أبو نعيم في الحلية عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**»، قالوا: يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال: «**قراءة القرآن**»(٩).

جـ- وقد جاء في الحديث: «فاسألوا الله -تعالى- أن يجدد الإيمان في قلوبكم».

فإحدى آليات التجديد الإيماني: التضرع لله، وسؤاله أن يجدد إيماننا، فمثل هذا الدعاء: «اللهم اجعلنا مصابيح الهدى، جدد القلوب» «اللهم نسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفذ»، «اللهم جدد إيماننا وارزقنا ذوق حلاوته، وأدخل حلاوته، وحبه في قلوبنا..» وأمثال ذلك.

د- ومما جاء في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ، وصفته في التوراة..

---

(٨) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ١٠١، ١٠٢.

(٩) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٨، ص ١٩٧.

وقد ذكرناه من قبل.. «**ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما، وقلوبا غلفا**»، فالقلوب الغلف تفتح بالتوحيد، وقول لا إله إلا الله، بصدق من القلب، وقد روى أحمد في المسند عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**جددوا إيمانكم**» قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيمانا؟ قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**»(١٠). وفي لفظ رواه المروزي: قالوا: وكيف نجدد إيماننا يا رسول الله؟ قال: «**تقولوا لا إله إلا الله..**»(١١).

وإنما كان الإكثار من كلمة التوحيد تجديدا للإيمان؛ لأنها تتضمن حقيقة التوحيد، فإذا أكثر المسلم من قولها؛ وهو متمعن في دلالاتها، ومتفكر فيها، ومستشعر بقلبه لمعناها، ومصدق بها، فإن أنوار التوحيد تزداد، ويتجدد إيمانه؛ إنه يقول بقلبه وعقله بصدق، ويقين: لا معبود بحق إلا الله، لا مشرع ابتداء- بحق- إلا الله، الله ربي وحده، الله وليِّي وحده، لا أبتغي غيره إلها، ولا ربا، ولا وليا ولا حكما- فتكرير هذه الحقائق والمعاني على القلب، والتفكر فيها، يحدث في القلب حديثا، ويجدده، ويزيل دثوره، يقول الحكيم الترمذي: «وهذا لأن العبد يتكلم بلا إله إلا الله، ثم يدنسها ويكدرها بسوء أفعاله، لأن من شرط المؤمنين في هذه الكلمة أن لا يكون لقلوبهم وَلَهٌ في شيء إلا إلى الله، أنه

---

(١٠) المسند، ج٨، رقم ٨٦٩٥، ص ٣٩٥، وقال محققه: «إسناده حسن»، وقال الأرناؤوط: ضعيف. وأورده المنذري في الترغيب، رقم ٢٢٦٠، وقال: رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن، الترغيب والترهيب، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص ٣٠٧ وفي المنتقى من كتاب الترغيب: وقال الهيثمي: سند أحمد جيد، وفي موضع آخر: رجاله ثقات (١٠/ ٨٢) كذا في الفيض، (٣/ ٣٤٥) انظر القرضاوي: المنتقى، ج١، رقم ٨٤٥، ص ٤٢٥. وفي التحفة: وقال البيهقي: رجال أحمد ثقات، انظر: الشوكاني: تحفة الذاكرين، رقم ٤٧١، ص ٣٦٠، وقال محققوه: حسن، نفس المصدر، ص ٣٦٠.

(١١) محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، خرجه أحمد أبو المجد، دار العقيدة، الإسكندرية، القاهرة، ٢٠٠٣م، رقم ٧٩٩، ص ٤٧٤، بإسناد قال عنه: ضعيف- بينما يغلب على ظني أنه حسن.

لا إله غيره، فإذا نـابتهم النوائـب (أصـابتهم المـصائب) وظهـرت الحـوائج، وَلَـهَتْ قلوبهم إلى المخلوقين فقد دنـسوا هـذه الكلمـة، وأخلقوهـا؛ فـأمروا بالتجديد..»(١٢).

فالإكثار من كلمة التوحيد تجديد للإيمان في القلب، وقد أخـرج المـروزي عن المغيرة بن الحكيم الصنعاني قال: «ذكر لي أن التلبية إنما جعلـت يجـدد بهـا الإيمان، ويثبت بها الإسلام»(١٣).

والمقصد في هذه الفقرة أن نبرهن على إمكانية تجديد الإيـمان، فهـو ممكـن، وله أساليبه التي في مقدرة الإنسان.

وهذه الحقيقة هي فرع الحقيقة الكبرى وهـي أن الإيـمان يزيـد، ويـنقص، فدثور الإيمان، وخلوقه، هو بسبب نقصه الفادح، مما يستدعي حـذر المـسلم، وانبعاثه للشروع في عملية التجديد التي هي تربية للإيمان في القلب.

ثالثا: مقومات الإيمان الذي يجب أن يجدد وأن يربى:

أقرر هنا: أنني سأكتفي بأركان الإيمان المتـضمنة في شـهادة التوحيـد؛ أمـا الإيمان بالملائكة والغيب، والقدر، والبعث بعد الموت، وبقية مقومات الإيمان فإن المسلم يجب أن يدرسها ويتعلمها من القرآن الكريم، والـسنة الـصحيحة ومن الكتب الآتيـة: «شرح أصـول اعتقـاد أهـل الـسنة والجماعـة» للطـبري اللالكائي، و«قطف الثمر في بيان عقيدة أهـل الأثـر» لـصديق حـسن خـان، و«الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة» لـه أيـضا، و«معـارج القبـول» بجزءيه للحـافظ حكمـي، و«مقومـات التـصور الإسـلامي» لـسيد قطـب، و«الإيمان: أركانه، حقيقته- نواقضه» لمحمد نعيم ياسين، و«اليـوم الآخـر في ظـلال القـرآن» وأمثـال ذلـك، وأحـب إليّ أن تجمـع الآيـات، والأحاديـث

---

(١٢) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج٢، ص ١٣، ١٤.

(١٣) إسناده حسن، محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، رقم ٨٠٠، ص ٤٧٤.

الـصحيحة في كـل مقـوم، ويفهمهـا المـسلم ويدرسـها، ويعلمهـا، ويعمـل بمقتضاها.

وإنما اقتصرت على المقومات الآتية؛ لأن الموضوع انبسط معـي، وطـال.. فأشرت هذه الإشارة، واكتفيت، بما ذكرت، ليتبع القارئ نفس المنهج في باقي المقومات، والله يوفقنا جميعا.

١ - حد الإيمان وحقيقته:

أ- ابتداء نقرر أننا إذا (أطلقنا) لفظ (الإيمان) فإننا نقصد به كل الإسـلام؛ أي: تسليم القلب والوجه لله، والإقرار بكل ما جاء بـه النبـي ﷺ، والأعـمال القلبية، والظاهرة التي أمر بها، واجتناب المحرمات التي نهي عنها.

وإذا أطلقنا لفظ (الإسلام) قصدنا به كل ما يدخل في مسمى الإيمان؛ مـن تصديق وإذعان، ونية، وإقرار وعمل، وإذا قرنا بين (الإيمان) و(الإسلام) فإن الإيمان- في هذه الحالة- يقصد به أعمال القلب، والإسلام يقصد بـه الأعـمال الظاهرة؛ أي: أن الإيمان- في هذه الحالة- يقصد به شيء أخص من الإسـلام، كما جاء في حـديث جبريـل عنـدما سـأل النبـي ﷺ عـن الإسـلام والإيـمان والإحسان، وكما روى أحمد عن أنس، مرفوعا «**الإسلام علانيـة، والإيـمان في القلب**» وقد وجدت ابن تيمية وابن القيم يستشهدان به في هذا المعنى.

ففي غير الاقتران بين اللفظين، إذا قلنا: هذا مؤمن، فقد قلنا: هذا مسلم، والعكس صحيح، يقول ابن رجب: «فاسم الإسلام، إذا أطلق، أو اقترن به المدح؛ دخل فيه الإيمان كله؛ من التصديق وغيره»[١٤]. وإذا قلنا: هذا مسلم، غير مؤمن (هنا حالة اقتران اللفظين، في سياق واحد) فإننا نعني: هذا يقوم بأعمال الإسلام الظاهرة ولكنه يبطن الكفر؛ مثل المنافقين نفاق اعتقاد، أو مثل الذي في قلبه إيمان ضعيف جدا كحالة الأعراب الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿قَالَتِ

---

(١٤) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٤٢.

﴿الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، يقول ابن رجب: «فهكذا اسم الإسلام والإيمان: إذا أفرد أحدهما؛ دخل فيه الآخر، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده، فإذا قرن بينهما؛ دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده، ودل الآخر على الباقي»(١٥) ويقول: «إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر؛ فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قرن بين الاسمين؛ كان بينهما فرق.

والتحقيق في الفرق بينهما: أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره، ومعرفته، والإسلام: هو استسلام العبد لله وخضوعه، وانقياده له، وذلك يكون بالعمل»(١٦).

أقول: التصديق- هنا- تصديق خاص مشروط، فإذا قلنا: هذا مؤمن؛ دخل فيه معنى الإسلام، ولا يكون له إلا معنى واحد: أنه أسلم قلبه وجوارحه لله، قال ابن رجب: «ومن هنا قال المحققون من العلماء: كل مؤمن مسلم، فإن من حقق الإيمان ورسخ في قلبه؛ قام بأعمال الإسلام(...) فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام، وليس كل مسلم مؤمنا؛ فإنه قد يكون الإيمان ضعيفا؛ فلا يتحقق القلب به تحققا تاما، مع عمل جوارحه بأعمال الإسلام، فيكون مسلما؛ وليس بمؤمن الإيمان التام»(١٧)، وكذلك اسم الإسلام: «إذا أطلق أو اقترن به المدح: يدخل فيه الإيمان كله، من التصديق وغيره، (...) فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة؛ ولم يصر من قال: أنا مسلم؛ مؤمنا، بمجرد هذا القول»(١٨).

---

(١٥) المصدر السابق، ص ٣٩.
(١٦) المصدر السابق، ص ٤٠، ٤١.
(١٧) المصدر السابق، ص ٤١.
(١٨) المصدر السابق، ص ٤٢.

من هنا نقرر أن دلالة لفظ الإيمان على أصل الدين كدلالة لفظ الإسلام، فمسماهما واحد، وإن تغايرا في الاستعمالات الخاصة لكل من اللفظين حين يقترنان، من هنا نفهم قول القاضي عياض في شرح حديث سعد بن أبي وقاص، قال: قسم رسول الله ﷺ قسما، فقلت: يا رسول الله، أعط فلانا؛ فإنه مؤمن، فقال النبي ﷺ: «**أو مسلم**» أقولها ثلاثا، ويرددها على ثلاثا: «**أو مسلم**».. الحديث، قال: «هذا الحديث أصح دليل على الفرق بين الإيمان والإسلام، وأن الإيمان باطن ومن عمل القلب، والإسلام ظاهر ومن عمل الجوارح، لكن لا يكون مؤمنا إلا مسلما، وقد يكون مسلما غير مؤمن، ولفظا هذا الحديث يدل عليه»[١٩].

وأخرج الطبري اللالكائي، والخلال في السنة عن حنبل، قال: سمعت أبا عبد الله (يعني: أحمد بن حنبل) وسئل عن الإيمان والإسلام، قال: قال ابن أبي ذئب: الإسلام: القول؛ والإيمان: العمل، فقيل: ما تقول أنت؟ قال: الإيمان غير الإسلام[٢٠]. وكما قررنا أن هذا حين يقترن الاسمان في سياق واحد.

والتحديد التالي هو حد الإيمان الذي يجب أن نربيه في قلوبنا، وهو حقيقة الإسلام، فلنمعن في التأمل.

ب- الإيمان، ليس هو مطلق التصديق، فقط، بل هو تصديق مخصوص بشيء عرفناه، وأعني بالتصديق المخصوص: التصديق المستلزم للخضوع والإذعان لما حدق به القلب، فالتصديق ينشأ عن معرفة وعلم، فالإيمان يتركب من معرفة وتصديق جازم مستقر، وخضوع، وإذعان واستسلام لما صدقنا به، وإقرار به.

فإذا قلت: أؤمن بالله؛ فهذا يعني: أولا: أنني عرفت الله بصفاته وأفعاله

(١٩) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، ص ٤٦١، والحديث في صحيح مسلم، رقم ٢٣٦، ص ٤٦١، ٤٦٢.
(٢٠) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الأول، رقم ١٥٠٠، ص ٧١٥.

وحقوقه، وهذا وحده لا يكفي، لكي أحقق أصل الإيمان، بل لابد من التصديق بوجود الله، وبجميع صفاته، وأفعاله، وحقوقه، ووحيه، تصديقا يقينا جازما، لا شك فيه، أي: أعتقد أنه حق، وصدق، وما خالفه باطل، وهذان- معا- لا يكفيان لتحقيق أصل الإيمان، بل: لابد من الخضوع والإذعان والانقياد والاستسلام لذلك، والتزام طاعة أمره، وقبول وحيه، خبرا، وأقرأ جملة: (وعلى الغيب) أي: أعتقد أن كل ما جاء في كلام الله، ووحيه لمحمد ﷺ هو حق، وصدق، وواجب اتباعه، حتى ولو لم أعرفه بعد.

بهذا يتحقق حد الإيمان في القلب ولا يبقى سوى الإعلان عنه، بالإقرار بشهادة التوحيد وبكل ما جاء به الوحي.

والإيمان بالرسول محمد ﷺ، وبالإسلام، ينطبق عليه نفس الحد، فهو: تصديق ما جاء به الرسول جملة، وعلى الغيب، والإذعان له جملة وعلى الغيب، وهذان المقومان لا يقبل أحدهما بدون الآخر، فهما كل لا يتجزأ؛ لكي يتحقق حد الإيمان بالله ورسوله ودينه، والذي يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، إنما يقر بكل هذه الحقائق، ما لم يفعل ما ينقضها، هكذا نحكم له في الظاهر، ونفترض أنه حقق المفهوم المقرر في الحد السابق.

يقول ابن رجب: «من أقر بالشهادتين: صار مسلما؛ حكما، فإذا دخل في الإسلام بذلك، ألزم بالقيام ببقية خصال الإسلام»[(٢١)]. ويقول ابن حجر: «فإن من لازم الإيمان بالله ورسوله: التصديق بكل ما ثبت عنهما والتزام ذلك، يتحصل ذلك لمن صدق بالشهادتين»[(٢٢)].

جـ- وهذا الذي قررناه ينبني على تحديد علماء أهل السنة لحد الإيمان، وهذه جملة من تحديداتهم الصحيحة:

---

(٢١) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٦.

(٢٢) فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٥٥.

١- قال أبو بكر بن أبي شيبة: «الإيمان عندنا قول وعمل، ويزيد وينقص»(٢٣).

٢- ويقول أبو عبيد: «اعلم رحمك الله- أن أهل العلم والعناية بالدين افترقوا في هذا الأمر فرقتين: فقالت إحداهما: الإيمان بالإخلاص لله بالقلوب وشهادة الألسنة وعمل الجوارح.

وقالت الفرقة الأخرى: بل الإيمان بالقلوب والألسنة، فأما الأعمال فإنما هي تقوى وبر، وليست من الإيمان.

وإنا نظرنا في اختلاف الطائفتين؛ فوجدنا الكتاب والسنة يصدقان الطائفة التي جعلت الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا، وينفيان ما قالت الأخرى(٢٤). ثم ساق الأدلة القوية على هذا التصديق، ثم قال: «فالأمر الذي عليه السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا؛ مما اقتصصنا في كتابنا هذا: أن الإيمان بالنية والقول والعمل، جميعا، وأنه درجات بعضها فوق بعض، إلا أن أولها وأعلاها الشهادة باللسان كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي جعله فيه بضعة وسبعين جزءا، فإذا نطق بها القائل، وأقر بما جاء من عند الله؛ لزمه اسم الإيمان بالدخول فيه، لا بالاستكمال عند الله، ولا على تزكية النفوس، وكلما ازداد لله طاعة وتقوى؛ ازداد به إيمانا»(٢٥).

٣- وقال الطبري اللالكائي: «سياق ما روي عن النبي ﷺ في أن الإيمان لفظ باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، قالوا: الدال على أنه تلفظ باللسان قوله- عز وجل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، والدال على أنه اعتقاد بالقلب، قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى

---

(٢٣) ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، ص ٤٦.

(٢٤) الإمام أبو عبيد، القاسم بن سلام: كتاب الإيمان، ومعالمه وسننه، واستكماله، ودرجاته، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ص ٥٣.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٦٦.

قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[المائدة: ٤١]، وحديث أبي برزة وبريدة والبراء، عن النبي ﷺ «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه**» والدلالة على أنه عمل: قول الله- عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨](٢٦). ثم ساق الأدلة مفصلة، ثم قرر أن أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، ويقولون: لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان، وأنه المعرفة والإقرار والعمل، ثم قال: «فاعلم- يرحمنا الله وإياك- أن الإيمان تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح»(٢٧).

٤- وقال الأوزاعي: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة، فكان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل- والعمل من الإيمان، والإيمان من العمل،.. فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه، وصدق ذلك بعمله، فذلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه، ولم يصدق بعمله: لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين»(٢٨).

٥- وقال الشافعي: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم: أن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»(٢٩).

---

(٢٦) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الأول، ص ٧٣٠ ، ٧٣١.
(٢٧) المصدر السابق، ص ٧٤٨، والمعطيات السابقة ص ٧٤٧.
(٢٨) المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٧٥٣، ٧٥٤.
(٢٩) المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٧٥٤.

٦- وقال محمد بن إسماعيل البخاري: «كتبت عن ألف نفر من العلماء، وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل، ولم أكتب عمن قال: الإيمان قول»(٣٠).

د- ويحلل ابن القيم مفهوم الإيمان فيقول: وها هنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب؛ وهو الاعتقاد، وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان: عمل القلب؛ وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة؛ زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب؛ لم تنفع بقية الأجزاء؛ فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، فإذا زال عمل القلب مع انتفاء الصدق(...) فأهل السنة يجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب؛ وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود، والمشركين، الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرا وجهرا، ويقولون: ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه، ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب؛ فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح؛ ولا سيما إذا كان ملزوما لعدم محبة القلب وانقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد؛ أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده، عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق، كما تقدم، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد، وهكذا الهدي: ليس مجرد معرفة الحق وتبينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه، والعمل بموجبه، وإن سمي الأول

---

(٣٠) المصدر السابق، ص ٧٥٦.

هدي، فليس هو الهدي العام المستلزم للاهتداء، كما أن اعتقاد التصديق- وإن سمي تصديقا- فليس هو التصديق المستلزم للإيمان، فعليك بمراجعة هذا الأصل، ومراعاته[٣١].

فحد الإيمان هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد، ونلاحظ أنه جعل عمل القلب في الإيمان هو الاعتقاد والتصديق والنية (نهوض القلب لله- تعالى) والإخلاص، والمحبة، والطاعة والانقياد لأمر الله وخبره، فإذا وجد هذا في القلب، أطاعت الجوارح وانقادت لوحي الله.

يقول الراغب في المفردات، عن الإيمان: «وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به: إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]»[٣٢].

والإذعان هو الانقياد والطاعة والاستسلام للحق، واتباعه.

يقول القسطلاني في شرح البخاري عن الإيمان: «وهو لغة التصديق، وهو- كما قال التفتازاني: إذعان لحكم المخبر وقبوله، فليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر، من غير إذعان وقبول لذلك، بحيث يقع عليه اسم التسليم(...) والإسلام لغة: الانقياد والخضوع، ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الأحكام والإذعان، وذلك حقيقة التصديق كما سبق»[٣٣].

ويقول محمد بن نصر المروزي: «أما قوله: «الإيمان: أن تؤمن بالله» أن توحده، وتصدق به بالقلب واللسان، وتخضع له ولأمره، بإعطاء العزم للأداء لما أمر، مجانبًا للاستنكاب، والاستكبار والمعاندة، فإذا فعلت ذلك لزمت محابه

(٣١) ابن القيم الجوزية، كتاب الصلاة، ط٢، المكتبة السلفية بمصر، ص ٢٥، ٢٦.
(٣٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٢٦.
(٣٣) عبد المجيد الشاذلي: حد الإسلام وحقيقة الإيمان، ط١، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مركز البحث العلمي، وإحياء التراث الإسلامي، الكتاب السابع والعشرون، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م، ص ٩٧.

واجتنبت مساخطه، وأما قوله: «وملائكته» فأن تؤمن لمن سمى الله لك منهم في كتابه، وتؤمن بأن لله ملائكة سواهم (...) وإيمانك بالفرقان: إقرارك به، واتباعك لما فيه (...) وإيمانك بمحمد ﷺ، إقرارك به، وتصديقك إياه، واتباعك ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أديت الفرائض، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات، (...) إن الإيمان بالله إنما هو توحيده وعبادته»(٣٤).

ويقول: «ومعقول في اللغة- وعند العلماء- أن عبادة الله هي التقرب إليه بطاعته، والاجتهاد في ذلك، (...) فالإيمان هو التصديق(...) والتصديق: أن يعمل العبد بما صدق من القرآن، وما ضعف عن شيء منه وفرط فيه علم أنه ذنب، واستغفر الله، وتاب منه، ولم يصر عليه، فذلك هو التصديق،.. والدين: العبادة.. والعبادة: هي الطاعة، وذلك أنه من أطاع الله فيما أمره به، وفيما نهاه عنه، فقد أتم عبادة الله،..»(٣٥).

ويضيف: «قالوا: والإيمان في اللغة: هو التصديق، والإسلام في اللغة: هو الخضوع، فأصل الإيمان هو التصديق بالله، وما جاء من عنده(...) وعنه يكون الخضوع لله؛ لأنه إذا صدق بالله خضع له، وإذا خضع أطاع، فالخضوع عن التصديق، وهو أصل الإسلام، ومعنى التصديق: هو المعرفة بالله والاعتراف له بالربوبية، وبوعده، ووعيده، وواجب حقه، وتحقيق ما صدق به من القول والعمل، والتحقيق في اللغة، تصديق الأصل، فمن التصديق بالله، يكون الخضوع لله، ومن الخضوع تكون الطاعات، فأول ما يكون من خضوع القلب لله الذي أوجبه التصديق، من عمل الجوارح والإقرار باللسان، لأنه لما صدق بأن الله ربه خضع لذلك بالعبودية، مخلصا، ثم ابتدأ

---

(٣٤) محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، ص ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٠.
(٣٥) المصدر السابق، ص ١٩٤-١٩٦.

الخضوع باللسان، فأقر بالعبودية مخلصا، كما قال الله- عز وجل - لإبـراهيم: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ [البقـرة: ١٣١]، أي: أخلـصت بالخـضوع لـك؛ لأن مـن صـدق؛ خـضع قلبـه، ومـن خـضع قلبـه، أقـر، وصـدق بلـسانه، وأطـاع بجوارحه،(...) فكل خضوع عن خضوع القلب، فهو إسلام وكـل خـضوع من القلب فهو من الإيمان؛ لأن التصديق كلـما ازداد صـاحبه تـصديقا ويقينـا وبصيرة، ازداد جلالا لله وهيبـة، فـإذا ازداد إجـلالا وهيبـة، ازداد خـضوعا وطمأنينة قلب إلى كل ما قال الله تبارك وتعالى(...) وعن ذلك يكون الإجلال والهيبة، وعن الإجلال والهيبة يـزداد خـضوعا بالطاعـة ومـسارعة إلى طلـب رضا المولى(...) إن الإيمان والإسلام لا يفترقان، وإن المسلم هو المـؤمن(...) إلا أن أحدهما أصل للآخر، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أصل الإيمان هو التصديق، وعنه يكون الخضوع، فلا يكون مصدقا إلا خاضـعا، ولا خاضـعا إلا مـصدقا، وعـنهما تكـون الأعـمال.. وتـسمَّى مـن قـام بهـا بـالإيمان والإسلام(...) وقد وجدنا العرب في لغتها تسمى كل عمل حققت به عمـل القلب واللسان: تصديقا، فيقول القائل: فـلان يـصدق فعلـه قولـه، يعنـون: يحقق قوله بفعله(...) فحيث ما يوجد خضوع، فهو إيمان، وحيث وجـد إبـاء واستكبار أو ترك لأمره فهو كفر، فـالترك مـع الإبـاء كفـر، كـما كـان الفعـل بالخضوع والإرادة إيمانا(٣٦).

إذًا، من خلال هذه التحديدات- المتوافقة- لمفهوم (الإيمان) يتبـين لنـا أن حد الإيمان يتحقق بالشروط الآتية:

١- معرفة القلب لما يؤمن به.

٢- التصديق اليقيني الجازم.

٣- المحبة والانقياد والطاعة لما عرف وصدق.

---

(٣٦) المصدر السابق، مقتطفات من ص ٤١٨- ٤٤٩، وهذا كله يجب أن يدرس من الأصل.

٤- الإقرار بذلك، جملة وعلى الغيب.

٥- التزام ما عرف وصدق، جملة وعلى الغيب.

وهذا الحد ينطبق على كل ركن من أركان الإيمان: بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وكل مقوم من مقومات الإيمان.

٢- الركن الأول في الإيمان: الإيمان بالله ربا: توحيد المعرفة والإثبات:

أ- الإيمان بالله هو الركن الأول من أركان الإيمان الواجب كما قال الله- تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨]، وكما جاء في حديث جبريل، الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد؛ أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**» قال: صدقت، قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر، خيره، وشره**»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».. إلخ الحديث. وفي رواية مسلم عن أبي هريرة: فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر..**». وفي رواية له عنه: **قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث، وتؤمن بالقدر كله..**»[٣٧].

---

(٣٧) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، رقم ٨- ١٠، ص ١٩٦-٢١٠.

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربع لن يجد رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بهن: لا إله إلا الله وحده، وأني رسول الله بعثني بالحق، وبأنه ميت ثم مبعوث من بعد الموت، ويؤمن بالقدر كله»**(٣٨). وإذا طبقنا الحد السابق على هذا الركن الأول للإيمان؛ فإن الإيمان بالله يعني: أن نعرف الله بأسمائه وصفاته، وأفعاله، وحقوقه، وكلامه، وأن نصدق بذلك كله، تصديقا جازما يستلزم الانقياد له، والتسليم لوجهه، وطاعة أمره، ومحبته، والخضوع والإذعان له، والتزام شرائعه، جملة وعلى الغيب، وأن نقر بما صدقنا به، بألسنتنا، ونعمل بمقتضى ذلك، فالإيمان بالله يستلزم طاعة أمره، واجتناب نهيه، والانقياد لحكمه، وسيأتي مزيد بيان في الفقرات الآتية.

ب- والإيمان بالله هو «التوحيد» وهو «مصدر وَحَّدَ، يُوَحِّدُ، ومعنى وَحَّدْتُ الله: اعتقدته منفردا بذاته، وصفاته، لا نظير له، ولا شبيه»(٣٩) اعتقادا جازما يجعلنا نثبت الإلهية له وحده، ولا نعبد إلا إياه.

وهو كما قال الجنيد: «إفراد القديم من المحدث»(٤٠).

وهذا التوحيد لله، واعتقاد إفراده، وتنزيهه- سبحانه- في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وحقوقه، عن الخلق جميعا، هو أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق إلى الله، ومصاحبها حتى النهاية، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله- تعالى- وأول واجب على المكلف وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: **«من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنة»** فهو أول واجب، وآخر

---

(٣٨) أخرجه ابن حبان عن ربعي عن علي، ورواه الترمذي، والحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. من تحقيق الألباني، لكتاب الإيمان لابن أبي شيبة، ص ٣.
(٣٩) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص ٣٤٤.
(٤٠) ابن القيم: مدارج السالكين، ج٣، ص ٤٦٤، وفتح الباري، ج١٣، ص ٣٤٤.

واجب، فالتوحيد: أول الأمر وآخره[٤١].

وهو قسمان: يستلزم أحدهما الآخر، ولا يجب أن ينفك عنه:

الأول: التوحيد المعرفي الاعتقادي: المثبت لوجود الله- سبحانه- ولصفاته وأسمائه الحسنى، وأفعاله، فهو متصل ومتعلق بالخبر عن الله الذي نعبده، فهو إجابة عن سؤال: من نعبد؟ لكي نعرفه المعرفة الصحيحة، فنتوجه إليه وحده بالعبادة، وهذا أول واجب على العاقل، وسر سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

جـ- مفهوم توحيد المعرفة والإثبات:

أو إفراد الله عن خلقه في المعرفة والإثبات، يشرح ابن القيم ما قاله أبو القاسم في مفهوم التوحيد، فيقول: «وهذا الإفراد الذي أشار إليه الجنيد، نوعان:

«أحدهما، إفراد في الاعتقاد والخبر؛ وذلك نوعان أيضا؛ أحدهما: إثبات مباينة الرب- تعالى- للمخلوقات، وعلوه فوق عرشه، من فوق سبع سموات، كما نطقت به الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها، وأخبرت به جميع الرسل، من أولهم إلى آخرهم، والثاني: إفراده- سبحانه- بصفات كماله، وإثباتها له، على وجه التفصيل، كما أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسله، منزهة عن التعطيل، والتحريف، والتمثيل، والتكييف، والتشبيه، بل نثبت له- سبحانه- حقائق الأسماء والصفات، وننفي عنه فيها مماثلة المخلوقات، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تحريف ولا تعطيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي هذا النوع يكون إفراده- سبحانه- بعموم قضائه وقدره لجميع

---

(٤١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج٣، ص ٤٦٢.

المخلوقات أعيانها وصفاتها وأفعالها وأنها كلها واقعة بمشيئته وقدره وعلمه وحكمته(٤٢).

فتوحيد المعرفة والاعتقاد ينبني على أربعة أصول:

الأول: إثبات وجود الله.

الثاني: إثبات مباينته، ومفارقته- تعالى- للحوادث، وعلوه على عرشه فوق سمواته.

الثالث: إثبات صفات كماله: «فإن إثبات صفات الكمال أصل التوحيد، ومن تمام هذا الإثبات: تنزيهه- سبحانه- عن سمات المحدثين، وخصائص المخلوقين»(٤٣).

الرابع: إثبات عموم القضاء والقدر.

فهذا التوحيد في المعرفة «هو حقيقة ذات الرب- تعالى- وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن يشاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح؛ كما في أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك»(٤٤).

د- ويدل على هذا التوحيد دلائل ثلاثة: دليل السمع، ودليل البصر، ودليل العقل والفطرة:

١- فأما دليل السمع: «فبسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات

---

(٤٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج٣، ص ٤٦٤، ٤٦٥.

(٤٣) المصدر السابق، ص ٤٦٦.

(٤٤) المصدر السابق، ص ٤٦٨، ونرجو القارئ أن يرجع مباشرة إلى الآيات المذكورة، ويتمعن في دراستها، راجعا إلى تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، ويضم إلى ذلك آية الكرسي في سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

صفات كماله، ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سمواته، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن يشاء من عباده- تكلما، وتكليما، حقيقة لا مجازًا(...) فإن الله -سبحانه- شهد لنفسه بأنه استوى على العرش، وبأنه القاهر فوق عباده، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر، وتنزل من عنده به، وأن العمل الصالح يصعد إليه، وأنه يأتي ويجيء، ويتكلم، ويرضى ويغضب، ويحب ويكره، ويتأذى، ويفرح ويضحك، وأنه يسمع ويبصر، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة، إلى غير ذلك، مما شهد به لنفسه، وشهد به رسوله له»(٤٥).

أقول: ويسمع أيضا، ويقرأ بتصديق، وتفهم، أحاديث رسول الله في كل ذلك، وهي كثيرة صحيحة طيبة، يجب دراستها لمن أراد تربية إيمانه بالله تربية صحيحة، فيرجع إلى كتاب التوحيد من صحيح البخاري، وشرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري لعبد الله بن محمد الغنيمان، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب الأسماء والصفات، وكتاب الإرشاد للبيهقي، والأسنى- الجزء الأول للقرطبي، وقطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر لصديق حسن خان، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للطبري اللالكائي، المجلد الأول، وكتاب السنة لابن أبي عاصم، والأسماء والصفات لعمر الأشقر، والمجلد الأول والثاني من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، ومعارج القبول، الجزء الأول.

فيتأمل آيات الله، وأحاديث رسوله ليعرف أدلة الوحي في توحيد المعرفة، فيعرف من يعبد؟ بكلامه الذي أنزله، وأحاديث رسوله ﷺ الصحيحة.

٢- وأما دليل البصر، والعقل، فالبتفكر في آيات الله الخلقية، «والنظر

(٤٥) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٣، ص ٤٨٢، ٤٨٣.

فيها، والاستدلال بها، فإنها تدل على ما تـدل عليه آياته القولية السمعية، وآيات الرب: هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد، وبها يعرفون أسماءه، وصفاته، وتوحيده، وأمره ونهيه، فالرسل: تخبر عنه بكلامه الذي تكلم به، وهو آياته القولية، ويستدلون على ذلك بمعقولاته التي تشهد على صحة ذلك، وهي آياته العيانية، والعقل يجمع بين هذه وهذه؛ فيجزم بصحة ما جاء به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل، والفطرة»(٤٦).

ويقول: «فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم، وأدلتهم؟(...) فهو الذي صدق رسله، وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم؛ قضاءً وخلقاً، فإنه- سبحانه- أخبر- وخبره الصدق، وقوله الحق- أنه لا بد أن يُرِيَ العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته رسله- حق، فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]»(٤٧).

وهذه دعوة للتعقل والتفكر في الصنعة، في المخلوقات، في آفاق السموات والأرض، وفي النفس، ليتحقق من أن لكل مخلوق خالقاً، ولكل صنعة صانعاً، وليتيقن أن الله هو الذي خلق الإنسان من حيوان منوي وبويضة، لا يريان بالعين.. فتبارك الله أحسن الخالقين، فيعلم، ويصدق أنه الخالق، القادر، الرازق، المدبر، الحكيم، العليم، المريد، الشهيد، المهيمن، الرحيم، البديع، البارئ، المصور، الفعال لما يريد.

فتفكير العقل آلية لإثبات وجود الله، وإثبات بعض صفاته، لكن تفصيل ذلك، ومعرفته- على وجه الحق، والصواب، واليقين- لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ.

---

(٤٦) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٣، ص ٤٨٣.
(٤٧) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٨٥.

وفي هذا يقول الجيلاني: «يا غلام استدل بصنعة الله- عز وجل- عليه، تفكر في الصنعة وقد وصلت إلى الصانع»(٤٨).

٣- وتوحيد المعرفة والإثبات هو مقتضى الفطرة، ويبين ابن القيم ذلك فيقول: «فاعلم أن الله- سبحانه- في الحقيقة- هو الدال على نفسه بآياته فهو الدليل لعباده في الحقيقة؛ بما نصبه لهم من الدلالات والآيات وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود أنه- سبحانه- الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله والجمال والجلال والبهاء والعزة والعظمة والكبرياء كله من لوازم ذاته- يستحيل أن يكون على غير ذلك، فالحياة كلها له والعلم كله له، والقدرة كلها، له والسمع والبصر والإرادة والمشيئة والرحمة والغنى والجود والإحسان والبر: كله خاص له قائم به، وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه عنه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

«ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء وشهادته عليه بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته؛ باطنا وظاهرا ومَنْ هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به، وأن يعبدوا معه غيره، وأن يجعلوا معه إلها آخر؟»(٤٩).

ولولا أننا نهدف إلى ما يتعلق بتربية الإيمان في القلب لاستفضنا في ذكر عشرات الأدلة العقلية والكونية على وجود الله- تعالى- وصفاته (انظر- على سبيل المثال: الله- جل جلاله- لسعيد حوى، والله يتجلى في عصر العلم لعدد من العلماء، وأين الله؟ لأحمد زين، والأدلة المادية على وجود الله لمحمد الشعراوي، ودراسات زغلول النجار في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم).

---

(٤٨) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص ١٦.

(٤٩) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٣، ص ٤٨٦.

فنكتفي بهذه الإشارة لنثبت في الفقرة الآتية القواعد العشر في الإيمان بالله ربا موصوفا بصفات الكمال والجلال والجمال والبهاء، منفيا عنه التشبيه والمثال منزها عن كل العيوب والنقائص.

هـ- القواعد العشر في توحيد المعرفة والإثبات: إيمان وتربية:

هذه القواعد هي ما يكون توحيد المعرفة والإثبات؛ أي: معرفة الله وإثبات صفاته وأسمائه الحسنى، أي: ما يعرفنا: مَنْ نعبد؟

وهي ما يجب أن نتصوره تصورا صحيحا ونصدق به تصديقا جازما ونقرّ به وننقاد له باطنا وظاهرا، وهذا هو الركن الأول لتربية الإيمان والتوحيد في القلب وهذه القواعد هي:

١- القاعدة الأولى: أن نصدق ونقر ونثبت لله كل أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، ما علمنا منها، وما لم نعلم:

فالله- تعالى- يقول عن نفسه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: أن الأسماء الحسنى- وكل أسماء الله حسنى- ثابتة لله- تعالى- وهذا المعنى تكرر في القرآن الكريم؛ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ففي هذه الآية وما في معناها: «بيان اختصاص الله- تبارك وتعالى- بالأسماء الحسنى وأن أسماءه كاملة المعاني، لا يلحقها نقص أو عيب، وأن اتصاف المخلوقين ببعض ما يتصف الله- تعالى- به من المعاني لا يلزم فيه نقص أو عيب في أسمائه، وصفاته- تعالى- لأنها حسنى كاملة تناسب عظمته وكبرياءه فلا يتوهم أن في ذلك تشبيها: «وأما المخلوق فأسماؤه وصفاته ليست حسنى، ولا كاملة، فهي تناسب ضعفه وعجزه..»(٥٠).

---

(٥٠) عبد الله بن محمد الغنيمان: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الجزء الأول، دار لينة للنشر والتوزيع، دمنهور، ص ٧٤،٧٥.

وقـال في سـورة الحـشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحـشر: ٢٤]، وقـال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طـه: ٨] أي: «ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا»(٥١).

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: «**لله تـسعة وتـسعون اسـما، مائـة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»(٥٢). وأخرجه في التوحيد بلفظ: «**إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخـل الجنة**»(٥٣).

وأخرجه مسلم ثلاث مرات، وفيه عن أبي هريرة عن النبـي ﷺ قـال: «**لله تسعة وتسعون اسما، من حفظها دخل الجنـة، وإن الله وتـر يحـب الـوتر**»، وفي رواية ابن عمر: «**من أحصاها**»(٥٤).

وقوله: «**إن لله تسعة وتسعين اسما**»: لا يقصد به حصر أسماء الله- تعـالى- في هذا العدد المذكور، وإنما قصد الإخبار عما يترتب على إحصائها، وجزائـه؛ كما تقول: عندي مائة كتاب أعددتها للإعارة، فلا ينفي أن يكون عندك كتـب غيرها، فالتقييد بهذا العدد: عائد إلى الأسـماء الموصـوفة بهـذه الـصفة، وهـي قوله: «**من أحصاها دخل الجنة**»، والمعنى: أن لله أسماء بقدر هذا العـدد ، مـن أحصاها دخل الجنة.

«فأسماء الله- تعالى- لا تدخل تحت حصر، ولا تحدد بعدد»(٥٥). قال شيخ الإسلام، رباني الأمة: «والصواب الذي عليه جمهـور العلـماء، أن قـول النبـي

(٥١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٨٦.
(٥٢) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤١٠، ص ٢١٤ .
(٥٣) فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٣٩٢، ص ٣٧٧.
(٥٤) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٧٧، ص ١٧٥.
(٥٥) عبد الله بن محمد الغنيمان: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، ج١، ص ٢١٥.

ﷺ: «**وإن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة**» معناه: أن من أحصى التسعة وتسعين من أسمائه؛ دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسما، فإن في الحديث الآخر الذي رواه أحمد وأبو حاتم في صحيحه: «**أسألك بكل اسم هو لك..**» الحديث، وفي الصحيحين: «**لا أحصي ثناءً عليك**» ولو أحصى جميع أسمائه؛ لأحصى صفاته، فكان يحصي الثناء عليه؛ لأن صفاته يعبر عنها بأسمائه»(٥٦).

ويقول البيهقي: «وليس في قول النبي ﷺ: «**تسعة وتسعون اسما**» نفي غيرها، وإنما وقع التخصيص بذكرها؛ لأنها أشهر الأسماء وأبينها معاني»(٥٧).

وقال: وقوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسما** » لا ينفي غيرها، وإنما أراد- والله أعلم- أن من أحصى من أسماء الله- عز وجل- تسعة وتسعين اسما دخل الجنة»(٥٨).

وقال النووي: «واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه- سبحانه وتعالى- فليس معناه: أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث: أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد: الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «**أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»(٥٩).

والحديث الذي أشار إليه النووي وابن تيمية أخرجه الإمام أحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن عبد الله

---

(٥٦) درء تعارض العقل والنقل، ج ٣، ص ٣٣٢، عن المرجع السابق، ص ٢١٧، وسيأتي تخريج حديث أحمد.

(٥٧) البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ١٧ .

(٥٨) البيهقي: الإرشاد إلى الاعتقاد، ص ٥٢ ، ٥٣.

(٥٩) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧ (المطبعة المصرية) ، ص ٥ .

ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أصاب أحد، قط، هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا**»، قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «**بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»(٦٠).

وأخرجه البيهقي: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «**ما أصاب مسلما قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك ناصيتي بيدك(...)، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله عنه همه، وأبدله مكانه فرحا**»، قالوا: يا رسول الله، ألا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**»(٦١).

فهذا يدل على أن لله أسماء غير التسعة والتسعين.

وقوله في هذا الحديث: «**أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» معناه: انفردت بعلمه، فلم تطلع عليه أحدا(٦٢).

فدل هذا الحديث على أن لله أسماء حسنى كثيرة وقد شرح البيهقي في الإرشاد ١٢٥ اسما، غير صفاته، كما شرح في الأسماء والصفات ١٥٤ اسما

(٦٠) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وانظر تحقيقه هناك؛ فإنه مهم، المسند، ج٣، رقم ٣٧١٢، ص ٥٥٨، ٥٥٩، وقال الغنيمان: سنده صحيح، انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، ج١، ص ٢١٦، وأخرجه ابن حبان، وأبو يعلى، والبزار.

(٦١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، ص ١٧.

(٦٢) الغنيمان: شرح كتاب التوحيد، ج ١، ص ٢١٦.

غير صفاته، وشرح القرطبي في الأسنى ١٤٠ اسما.

ونحن نؤمن بكل اسم من أسماء الله- تعالى- ما علمنا منها وما لم نعلم.

٢- القاعدة الثانية: مصدر معرفة أسماء الله وصفاته هو الوحي المنزل على سيدنا محمد ﷺ:

أي: أن الأسماء (وهي التي تدل على ذات الله- تعالى- دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة اللزوم) والصفات (وهي التي تدل على معاني قائمة بذات الله- تعالى، وهي أصل اشتقاق الأسماء) كلها: توقيفية؛ بمعنى: أننا لا نسمي الله باسم إلا إذا جاءنا الإذن من الله- تعالى- «وكل ما ورد في إطلاقه إذن أطلقناه، وما ورد الشرع فيه بالمنع منعناه، وما لم يصح عندنا فيه إذن بالإطلاق، ولا المنع منه: لم نقض فيه بجواز ولا منع، ولا تحليل ولا تحريم؛ إذ هما حكمان لا سبيل إلى القضاء بواحد منهما إلا بالشرع، وسبيله سبيل الأحكام قبل ورود الشرع، ثم لا يشترط في جواز الإطلاق الخبر القطعي، بل يكتفي بالخبر الصحيح»(٦٣).

والأصح عندنا ألا نقدم بين يدي الله ورسوله، يقول ابن حجر: «وقال أبو القاسم القشيري: الأسماء تؤخذ توقيفا، من الكتاب والسنة والإجماع، فكل اسم ورد فيها: وجب إطلاقه في وصفه، وما لم يرد؛ لا يجوز، ولو صح معناه، وقال أبو إسحاق الزجاج: لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه، والضابط: أن كل ما أذن الشرع أن يدعى به، سواء كان مشتقا أو غير مشتق؛ فهو من أسمائه، وكل ما جاز أن ينسب إليه (...) فهو من صفاته، ويطلق عليه اسما أيضا»(٦٤).

---

(٦٣) بدر الدين الزركشي: معنى لا إله إلا الله، تحقيق علي محيي الدين القره داغي، دار الاعتصام، ص١٤١.

(٦٤) ابن حجر: فتح الباري، ج١١، ص ٢٢٣.

فما يطلق على الله- في باب الأسماء والصفات- توقيفي، يقول ابن تيمية: «القول الشامل في جميع باب أسماء الله وصفاته: أن يوصف الله بما يصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون، لا يتجاوز القرآن والحديث، قال الإمام أحمد ﷺ: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث»(٦٥).

يقول ابن خزيمة: «لا نصف معبودنا إلا بما وصف به نفسه، إما في كتاب الله، أو على لسان نبيه ﷺ بنقل العدل، موصولا إليه، لا نحتج بالمراسل، ولا بالأخبار الواهية، ولا نحتج- أيضا- في صفات معبودنا بالآراء والمقاييس»(٦٦).

وهذا هو المنهج الصحيح، فمصدر معرفة الله هو وحي الله، وسبيل ذلك التوجه لآيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ التي صحت عنه، وتفهمها، والتعلم منها، والتلقي عنهما، بالإيمان والحب، والانقياد، ولا يعدل عن هذا النهج المعرفي، إلى رأي العقل وقياساته، فالعقل هنا ليس هو مصدر المعرفة، بل الوحي الإلهي، بإعمال العقل فيه، وفتح القلب لمقرراته، ودون أن نقيس، أو نؤول.

وذلك هو النهج العليم، السليم، فالله أعلم بنفسه، وهو غيب عنَّا، فلا نعرف عنه إلا ما يعرفنا إياه.. ثم هو نهج حكيم يوفر الطاقة العقلية لتشغيلها في مجالها الصحيح.

ومن هنا فإننا نثبت لله الأسماء والصفات التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله محمد ﷺ، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، وذلك

---

(٦٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٥، ص ٢٦، عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة، ط ١، دار النفائس، عمان، الأردن، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٣٠، ١٣١.

(٦٦) محمد بن إسحاق بن خزيمة: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب، دار الدعوة السلفية، ص ٥٩.

يحدد نهج التعلم والتعرف إلى الله، وهو التلقي عن القرآن والحديث الصحيح أسماء الله وصفاته، لا نرد منهما حرفا واحدا.

فعن طريق الوحي نعرف الله، ونعرف كل مقومات الإيمان، والتوجه إلى الوحي لتلقي الإيمان عنه، يستلزم الإيمان به، والانفتاح العقلي والقلبي على مقرراته، دون مصادرات وأفكار مسبقة.

٣- **القاعدة الثالثة: الإيمان بأن أسماءه كلها حسنى**، وصفاته كلها عليا:

فهي أحسن الأسماء، وأكمل الصفات، (فله الأسماء الحسنى)، يقول ابن تيمية: «الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب- تبارك وتعالى- يستحقه بنفسه المقدسة»[٦٧].

ويقول ابن القيم: «صفات الله كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته، هي أحسن الأسماء، وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها»[٦٨]، قال في إيثار الحق لابن الوزير: «والحسنى: جمع الأحسن، لا جمع الحسن، وتحت هذا سر نفيس؛ وذلك أن الحسن من صفات الألفاظ، والأحسن من صفات المعاني، فكل لفظ له معنيان، حسن وأحسن؛ فالمراد الأحسن منهما، حتى يصح جمعه على حسنى»[٦٩].

ويقول البيهقي: «موجب إثبات كل مدح له، ونفي كل نقص عنه»[٧٠]، فالحسنى هي كل ما يدل على إكمال الكمال، فكل اسم من أسمائه- تعالى- دال

---

(٦٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٦، ص ٧١.
(٦٨) ابن القيم: بدائع الفوائد، ج١، ص ١٦٨، عن عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ١٠٢.
(٦٩) عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ١٠٣.
(٧٠) الإرشاد، ص ٧٩.

على كمال عظمته، وبذلك كانت حسنى، وأوجب على عباده عبادته، ودعاءه بها(٧١).

وهذه القاعدة تثبتها الفطر الإنسانية السليمة التي تقر بأن الله له صفات الكمال، من غير تردد ولا شكوك، فالسليقة والفطرة الإنسانية تدعو الإنسان إلى إثبات علو الله، ومحبته، ورضاه، وعلمه، ورحمته، إلى غير ذلك من صفات الكمال، والذين يقولون غير ذلك يكرهون فطرهم وعقولهم على قبول المحال المتناقض(٧٢).

فالله- كما تشعر بذلك الفطرة الإنسانية- هو الكامل في أسمائه وصفاته، فهناك ضرورة نجدها في قلوبنا، عندما نقول: يا الله، فإننا نطلب معنى العلو ومعنى الكمال، ومعنى القدير.

والله الذي يتصف بصفات الكمال هو الذي يستحق أن يعبد، فهذا برهان جلي على استحقاقه للعبادة وحده، فالمعبود هو الكامل، ونقص المعبود دليل على بطلان ألوهيته وربوبيته، فالذي لا يسمع، ولا يبصر، ولا يهدي، ولا ينفع، ولا يضر، ولا يرحم، ولا يعلم، ولا يتكلم.. ولا يقدر.. ولا يحيط بكل شيء، كيف يعبد؟ إنه لا يستحق ذلك، وإنما الذي يستحق أن نعبده هو الكامل الذي له الأسماء الحسنى، ولهذا قال إبراهيم لقومه بعد أن جعل أصنامهم جذاذا إلا كبيرا لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

فالإله الحق المعبود هو المتصف بكل صفات الكمال والجلال والجمال والعظمة.. وهي كثيرة لا نحصيها.. فهو المستحق للعبادة وحده، فهو-

---

(٧١) الغنيمان: شرح كتاب التوحيد، ج ١، ص ٢١٢، ٢١٣.

(٧٢) عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ١٠٣.

سبحانه- الذي له (المثل الأعلى) فكل كمال ليس فيه نقص بوجه من الوجوه، فإن الله أولى به من المخلوق، وكل نقص تنزه عنه المخلوق، وليس فيه نقص بوجه من الوجوه فالله أولى بأن يتقدس ويتنزه عنه، يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، فالكمال المطلق كله لله، علمه العباد أو جهلوه.

وصفات الكمال كلها ثابتة لله، لم يزل متصفا بها أزلا وأبدا، ففقد شيء منها نقص، ولا يتصور نقص ينسب إلى الله- سبحانه وتعالى- فكل أسماء الله وصفاته تدل على ذات الله بالمطابقة، وهي غير مخلوقة، ولا محدثة، ولا كائنة بعد أن لم تكن، فهو غفور قبل أن يخلق المذنبين، وخالق قبل أن يخلق الخلق، فالرحمن هو الله، والرحيم هو الله، والقدير هو الله، وهكذا(٧٣).

٤- القاعدة الرابعة: تنزيه الله- تعالى- عن التشبيه والتمثيل، وكل صفات النقص:

فقد نص القرآن الكريم على هذا الأصل، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، قال ابن عباس: «هل تعلم له مثلا أو شبيها؟»(٧٤) فالله – سبحانه – ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، فلا نشبه الله بشيء من خلقه، ولا ننكر ما وصف به نفسه، وليس فيما وصف به نفسه، ولا رسوله، تشبيه.

يقول ابن تيمية: «الله- سبحانه- ليس كمثله شيء، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فكما نتيقن أن الله- سبحانه- له ذات

---

(٧٣) انظر: الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ١، ص ١٨٨- ١٩٦، حافظ بن أحمد حكمي: معارج القبول، الجزء الأول، ط دار الأرقم، ص ٨٥.

(٧٤) مختصر تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٤٦٠.

حقيقة، وله أفعال؛ حقيقة، فكذلك له صفات حقيقة، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإن الله منزه عنه، حقيقة، فإنه- سبحانه وتعالى- مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه»(٧٥).

يقول صديق خان: «إن جملة ما عليه أصحاب الحديث والسنة: هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله.

ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف الله به نفسه المقدسة، في كتابه العزيز، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ: من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، ولا تأويل، فيؤمنون بالله - سبحانه وتعالى- وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يكيفون، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، ولا يعطلونها؛ لأنه- سبحانه- لا سَمِيَّ له، ولا كفوا له ولا نِدَّ له، ولا يقاس بخلقه؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهو- سبحانه- أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلا، وأحسن حديثا من خلقه، ورسله صادقون مصدقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون(...) فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم»(٧٦)، وقال: «ومن مَثَّلَ الله بخلقه فهو ضال، ومن جحد شيئا مما وصف الله به نفسه فهو كافر، وليس ما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله تشبيها»(٧٧). ويقول: «فمذهبنا: مذهب السلف؛ إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وهو مذهب أئمة الإسلام، كمالك، والشافعي، والنووي،

---

(٧٥) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٥، ص ٢٦.

(٧٦) محمد صديق حسن خان القنوجي: قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، حققه د. عاصم بن عبد الله القريوتي، دار الكتب السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٣١، ٣٢.

(٧٧) المصدر السابق، ص ٤٠.

والأوزاعي، وابن المبارك، والإمام أحمد، وإسحق بن راهويه، وهو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم؛ كالفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني،.. وغيرهم(...) فنتبع في ذلك سبيل السلف الماضين الذين هم أعلم الأئمة بهذا الشأن، نفيا وإثباتا، وهم أشد تعظيما لله، وتنزيها له عما لا يليق بحاله، فإن المعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات، فيكون ردها من باب تحريف الكلم عن مواضعه،..»(٧٨) إلخ ما قال.

فنحن نؤمن بصفات الله كلها من غير تحريف: أي تغيير معانيها إلى معاني باطلة لا يدل عليها الكتاب والسنة.

ومن غير تعطيل: أي: نفي أسماء الله وصفاته، وتعطيل المخلوقات من خالقها.

ومن غير تكييف: أي: من غير أن يقال بأن الصفة على هيئة أو كيفية معينة.

ومن غير تمثيل: أي: تشبيه الخالق وصفاته بالمخلوقين.

ومن غير تأويل: وهو التأويل المنفي الذي يعني: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح، كتأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء، وتأويل اليد بالقدرة، فهذه تأويلات باطلة لا حقيقة لها، وإنما هي من التعطيل.

٥- القاعدة الخامسة: إجراء آيات وأحاديث الصفات على ظاهرها:

وهذا ما يقرره أهل السنة، وذلك بأن يجزم المسلم «بأن لها معنى حقيقيا يليق بجلال الله وكماله، وهو المعنى الذي يظهر من اللفظ وفق ما تفقهه العرب من كلامها»(٧٩).

---

(٧٨) المصدر السابق، ص ٤٧-٥٤، وهو مهم جدا، فادرسه.

(٧٩) عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ١٢١.

فنحن نؤمن أن المعنى الظاهر من هذه الأسماء والصفات هو معنى حقيقي يليق بجلال الله وكماله، ولا يمكن أن يشابه هذا المعنى صفات المخلوقين، يقول ابن تيمية: «مذهب السلف: إجراء أحاديث الصفات وآيات الصفات على ظاهرها، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها، فلا نقول: إن معنى اليد: القدرة، ولا أن معنى السمع: العلم، وذلك أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى فيه حذوه، ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود- لا كيفية؛ فكذلك إثبات الصفات: إثبات وجود- لا كيفية» (٨٠).

ويقول حافظ بن أحمد حكمي(٨١):

وكل ما له من الصفات   أثبتها في محكم الآيات

أو صح فيما قاله الرسول   فحقُّه: التسليم والقبول

أي كل ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات في آيات القرآن، وكل ما صح في الحديث النبوي، فحقه: التسليم له، وقبوله، والإيمان به، ثم يقول:

نُمِرُّها صريحة كما أتتْ   مع اعتقادنا لما له اقتضت

أي: نُمِرُّ جميع آيات الأسماء، وأحاديثها، على ظاهرها، كما أتت عن الله، وعن رسوله بنقل العدل عن العدل، مع اعتقادنا؛ إيمانا وتسليما (لما له اقتضت) من أسماء ربنا وصفات كماله، كما يليق بعظمته، وعلى الوجه الذي ذكره، وأراده:

من غير تحريف ولا تعطيل   وغير تكييف ولا تمثيل

أي: نُمِرُّها صريحة، على ظاهرها، من غير تحريف يغير اللفظ عن معناه، فاستوى يجعلونه استولى، فهذا تحريف، ومن التحريف: تحريف المعنى،

---

(٨٠) مجموع الفتاوى، ج٣٣، ص ١٧٧، عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ١٢٢.

(٨١) حافظ بن أحمد الحكمي: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، الجزء الأول، دار الأرقم، ص ٢٥٢- ٢٦٩ باختصار.

كتحريف معنى الوجه إلى النفس.

ولا تعطيل للنصوص؛ بنفي ما اقتضته من صفات كمال الله وجلاله، فإن نفي ذلك: من لازمه نفي الذات، ووصفه بالعدم المحض؛ إذ ما لا يوصف بصفة هو العدم- تعالى الله عن ذلك- فنفي أو جحود الصفات، معناه نفي وجود الله، ذاته، وهذا تكذيب وجحود بالكتاب والسنة، وافتراء على الله.

ومن غير تكييف، أي: تفسير بِكُنْهِ وهيئة الصفة، كأن يقال: استوى على هيئة كذا، أو ينزل إلى السماء بصفة كذا، أو تكلم بالقرآن على كيفية كذا، فنحن لا نعلم عن الله إلا ما علمنا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] فأهل السنة يَكِلُون معنى الكيفية إلى الله -تعالى.

(ولا تمثيل)؛ أي: ومن غير تشبيه لشيء من صفات الله بصفات خلقه، فكما أننا نثبت لله ذاتا لا تشبه الذوات، فكذلك نثبت له ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، ونعتقد تنزهه، وتقدسه عن مماثلة المخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

بل قولنا قول أئمة الهدى طوبى لمن بهديهم قد اقتدى

وقول أئمة الهدى هو إمرار آيات وأحاديث الصفات كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ونفي المتبادر إلى أذهان المشبهين، عن الله، فإنه لا يشبهه شيء من خلقه، فتفسير الآيات والأحاديث: هو قراءتها، قال نعيم ابن حماد: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه، ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله -تعالى- ما أثبته لنفسه، مما وردت به الآيات الصريحة، ووصفه به رسوله ﷺ مما ورد في الأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله وعظمته، ونفى عن

الله النقائض فقد سلك سبيل الهدى.

فنحن نؤمن بما جاء عن الله على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله، وهكذا كان أئمة الهدى، فطوبى لمن اهتدى واقتدى بهديهم.

وهكذا نثبت معنى الصفة، ونعلمها، ونجهل الكيفية، وننفي المشابهة، فالله عليم بعلم، وعظيم له العظمة، حكيم ذو حكمة، سميع له سمع، بصير له بصر، عزيز له العزة، استوى على العرش، ويعلم كل شيء.. إلخ.

وبهذا يستريح العقل البشري، ويطمئن القلب الإنساني، بهذا الاتجاه الأعلم، والأحكم، والأسلم، فكل صفات الله نقف منها موقف أئمة الهدى من الاستواء، والسمع، والبصر، والتكلم، والنزول، إلخ..

فنقول فيها ما قال مالك، كما أخرج البيهقي عن عبد الله بن وهب: «يقول: كنا عند مالك بن أنس، فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله؛ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك، وأخذته الرحضاء (غزارة العرق)، ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء، صاحب بدعة،..

ورواه عن طريق يحيى بن يحيى، يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل، فقال: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فكيف استوى؟ قال: فأطرق مالك رأسه، حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة..»(٨٢).

وأخرج الطبري اللالكائي عن ابن عيينة؛ قال: سئل ربيعة عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف

---

(٨٢) البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ٥١٥، ٥١٦، وقال ابن حجر: أخرج البيهقي بإسناد جيد، فتح الباري، ج ١٣، ص ٤٠٦، ٤٠٧.

غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق(٨٣).

فالاستواء معلوم وهو الارتفاع والعلو على العرش، أما الكيفية فمجهولة لنا، نَكِلُ علمها إلى الله – تعالى- فلا نتوهم في صفات الله: كيف؛ لأن الله وصف نفسه فأبلغ، ولا وصف أبلغ من وصفه لنفسه(٨٤).

وذلك لأن البحث عن (الكيف) هو بحث عن كنه وحقيقة الذات والصفات، وهذا فوق مستوى العقل البشري، وهدر لطاقاته.

وهكذا نقف من كل آيات وأحاديث الصفات موقف أئمة الهدى من الاستواء، مثل صفة القرب والبعد، والضحك، والنزول، والاستواء على العرش، إلى غير ذلك مما نطق به الكتاب والسنة: «يجب الإيمان بها على أنها صفات حقيقية لا تشبه صفات المخلوقين، ولا يمثل، ولا يعطل، ولا يرد، ولا يجحد، ولا يؤول بتأويل يخالف ظاهره»(٨٥).

٦- القاعدة السادسة: ترك البحث في حقيقة الذات وكيفيات الصفات:

وهي فرع عن القاعدة الخامسة، وقد قلنا: إن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، والله ليس كمثله شيء، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

فالمنهج الإسلامي هنا هو توجيه العقل البشري ليبحث في الكون، والمجتمع، ويتفكر في خلق الله، ومنع العقل من الخوض فيما هو فوق إدراكه، بالبحث في ذات الله، أو في كيفية صفاته، وبالتالي يضيع وقته وجهده بلا فائدة، لأن هذا فوق مستوى الإدراك العقلي، الذي يتعامل من خلال الحواس، والله ذاتا وكيفيات صفاتٍ، لا تبلغه الأوهام، ولا الحواس، ولا

---

(٨٣) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ١، رقم ٦٦٥، ص ٣٢٨.

(٨٤) الغنيمان: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، ج ١، ص ٣٤٩- ٣٦٤، يرجع إليه، ويدرس بعمق، وانظر: معارج القبول، ج ١، ص ١٢٠- ١٣٥.

(٨٥) محمد صديق حسن خان: قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، ص ٦٨.

تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام، حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ورؤيته في الآخرة ينالها عباده الصالحون، ولكن لا يحيطون به علما، ولا يدركونه بأبصارهم، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقد نهى الرسول ﷺ عن التفكر في ذات الله، وأمر بالتفكر في خلق الله، ففي الحديث: «**تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله**»[٨٦]. وفي الحديث الآخر: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله**»[٨٧].

ولكن التفكر في معاني أسمائه الحسنى لمعرفة معناها، ومقتضاها، ليتعبد بحسب كل اسم، لله، فهذا مطلوب، لكن المنفي المنهي عنه؛ أن نشغل العقل بالبحث في كيفيات الصفات، والأسماء، ولن يصل العقل في ذلك، إلا إلى تيه، وبلا جدوى.

٧- القاعدة السابعة: عدم الإلحاد في أسماء الله:

وهذا هو سبيل المؤمنين بالله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠].

أي: أن الأسماء الحسنى الكاملة ثابتة لله، مختصة به، فاعبدوه بها، واسألوه بها، واتركوا، واهجروا الذين يميلون، ويعدلون عنها، ويحرفونها ويكذبون بها، فإن هؤلاء سيجزون جزاء عملهم الباطل.

فالمؤمنون بالله مأمورون أن يتركوا، ويهجروا الملحدين في أسماء الله.

ويُلْحِد من: أَلْحَدَ، إلحادا، وأصل الإلحاد: الميل والعدول عن الشيء، ومنه اللَّحْد: الشق الذي يعمل في جانب القبر، لأنه قد أميل عن وسط القبر إلى جانبه[٨٨].

---

(٨٦) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط٣، رقم ٢٩٧٦، ص ٥٧٢.
(٨٧) قال الألباني: حسن، المصدر السابق، رقم ٢٩٧٥، ص ٥٧٢.
(٨٨) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٤، ص ٢٣٦.

قال الراغب: «ولَحَدَ بلسانه، إلى كذا- قال (...) وألحد فلان: مال عن الحق، والإلحاد ضربان؛ إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب(...) والإلحاد في أسمائه: على وجهين: أحدهما: أن يوصف بما لا يصح وصفه به، والثاني: أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به، والْتَحَد إلى كذا: مال إليه»(٨٩).

فالإلحاد هو الميل والانحراف عن الطريق الوسط المستقيم، إما بتكذيب، وإما بسوء تأويل، وإما بعدول عن الحق إلى ما يخالفه، يقول الطبري: «وأما قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فإنه يعني به المشركين، وكان إلحادهم في أسماء الله: أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها، ونقصوا منها، فسموا بعضها: اللات؛ اشتقاقا، منهم، لها، من اسم الله، الذي هو الله، وسموا بعضها العزى؛ اشتقاقا لها من اسم الله، الذي هو العزيز، (...) وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والجَوْر عنه، والإعراض، ثم يستعمل في كل معوج، غير مستقيم»(٩٠).

وقال ابن كثير: «وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل، والجَوْر، والانحراف»(٩١).

فالإلحاد في أسماء الله: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها(٩٢)، في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة.

---

(٨٩) الراغب الأصفهاني: المفردات، ص ٤٤٨.
(٩٠) ابن جرير الطبري: جامع البيان، مجلد ٦، ج ٩، ص ١٦١، ١٦٢.
(٩١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٢٦٩.
(٩٢) هذا قول ابن القيم في بدائع الفوائد، ج١، ص١٦٨، عن عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ١٣٨.

والإلحاد في أسماء الله أنواع:

الأول: نفي معاني أسماء الله الحسنى: يقول ابن القيم، في بيان هذا النوع من الإلحاد: «إن أسماء الرب- تبارك وتعالى- دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، واللهم أعطني فإنك أنت الضار النافع، ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها، قال تعالى: ﴿**وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف، لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها، ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن (القوي) من أسمائه، ومعناه: الموصوف بالقوة، وكذلك كقوله: ﴿**فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ [فاطر: ١٠]، فالعزيز: من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له؛ لم يسم قويا ولا عزيزا، وكذلك قوله: ﴿**أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ**﴾ [النساء: ١٦٦] ، ﴿**فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ**﴾ [هود: ١٤].. وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه «البصير» (...) فهو متكلم بكلام، وهو العظيم الذي له العظمة، .. وهو الحكيم الذي له الحكم ﴿**فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ**﴾ [غافر: ١٢].

وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته، أو عظمته؛ انعقدت يمينه، وكانت مكفرة؛ لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه.

وأيضا: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات؛ لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع ويرى، ويعلم، ويقدر، ويريد، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها.

وأيضا: فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف؛ لكانت جامدة، كالأعلام المحضة، التي توضع لمسماها باعتبار معنى قام به، فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذا مكابرة صريحة، وبَهْتٌ بَيِّنٌ، فإن من جعل اسم «القدير» هو معنى اسم السميع، البصير، ومعنى اسم التواب هو معنى اسم المنتقم، ومعنى اسم المعطي هو معنى اسم المانع؛ فقد كابر العقل واللغة والفطرة. فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها، والإلحاد فيها أنواع: هذا أحدها»(٩٣).

الثاني: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة: وقال ابن عباس ومجاهد: «عدلوا بأسماء الله -تعالى - عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان» وروي عن ابن عباس: يلحدون في أسمائه: يكذبون عليه، وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج حقائق معانيها، عنها، هذا حقيقة الإلحاد، أو: هو غاية الملحد في أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها؛ فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

---

(٩٣) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٢٤ ، ٢٥.

فالإلحاد: إما بجحدها، وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها(..)- تعالى الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا»[٩٤].

الثالث: وصف الله بصفات الخلق: كقول اليهود عن الله- تعالى وتقدس وتنزه عن قولهم: إنه فقير، وقولهم: يد الله مغلولة. وكقول النصارى: إنه أب، وكقول بعض المتفلسفة: إنه العقل الفعال، أو العلة الفاعلة، وكقول آخرين: إنه مهندس الكون الأعظم..إلخ- سبحان الله عما يصفون[٩٥].

الرابع: وصف المخلوق بصفة الخالق: كوصف فرعون مصر في عهد موسى بأنه ربهم الأعلى، وكوصف أحد الحكام نفسه بأنه: شاهنشاه (ملك الملوك) إلى غير ذلك[٩٦].

الخامس: إلحاد التشبيه: بتشبيه صفات الله بصفات خلقه، كتشبيه وجه الله بوجوه الناس، واستوائه، باستوائهم.

السادس: إلحاد التكذيب[٩٧]: فأهل السنة المتبعون لمنهج الرسول ﷺ يعبدون الله بأسمائه، ولا يلحدون فيها، أي نوع من الإلحاد.

٨- القاعدة الثامنة: من أحصاها دخل الجنة:

وفي رواية البخاري: «**لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة**».

فهنا طريق مستقيم لدخول الجنة، بأن يحصي المسلم، ويحفظ أسماء الله تعالى، ويا له من إغراء، وحث، وترغيب للشروع في إحصاء الأسماء الحسنى،

---

(٩٤) المصدر السابق، ص ٢٥ ، ٢٦.

(٩٥،٩٦) عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ١٣٨-١٤٠.

(٩٧) انظر: المصدر السابق، ص ١٣٨-١٣٩، حافظ بن أحمد حكيمي: معارج القبول، ج١، ص ٧٤.

وحفظها، فما معنى أحصاها؟

٨-١ : يقول ابن الأثير: «والإحصاء: العد والحفظ، ومنه الحديث: «..**من أحصاها دخل الجنة**» أي: من أحصاها علما بها وإيمانا، وقيل: أحصاها: أي: حفظها على قلبه (...) وقيل: أراد من أطاق العمل بمقتضاها؛ مثل: من يعلم أنه سميع بصير، فيكف لسانه وسمعه عما لا يجوز له، وكذلك باقي الأسماء، وقيل: أراد من أخطر بباله عند ذكرها- معناها، وتفكر في مدلولاها؛ معظما لمسماها، ومقدسا، معتبرا بمعانيها، ومتدبرا، راغبا فيها وراهبا، وبالجملة: ففي كل اسم يجريه على لسانه: يُـخْطِر بباله الوصف الدال عليه»(٩٨).

وفكرة الإخطار في البال، المذكورة هنا، تجعل عملية الإحصاء عملية تعلم ذاتي، وتربية ذاتية للقلب، إنها آلية تربوية مهمة.

٨-٢: وقال في (إكمال المعلم) بعد أن ذكر من معانيها: حفظها، وعدها ليدعو بها: «وقيل: من أحصاها: من وَحَّدَ الله بها، ودعا بها، يريد: توحيده وتعظيمه والإخلاص له، وقيل: أحصاها: بمعنى أطاقها، (...) وإطاقتها: حسن المراعاة لها، والمحافظة لحدودها، والتصديق بمعانيها، والعلم بها ومقتضى كل اسم وصفة يستفاد منها، وتحقيقها، وقيل: إحصاؤها: العمل بها، والتعبد لله بمعنى كل اسم منها، والإيمان بها لا يقتضي تعبدا ولا عملا»(٩٩).

وهنا يضيف القاضي عياض مفهوما مهما للإحصاء: العمل والتعبد بمعنى كل اسم منها.

٨-٣: قال في (فتح الباري) في شرح كتاب التوحيد: «قال الأصيلي: الإحصاء للأسماء: العمل بها، لا عدّها وحفظها؛ لأن ذلك قد يقع للكافر

(٩٨) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص ٣٩٧.
(٩٩) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، ص ١٧٦.

والمنافق، كما في حديث الخوارج: يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وقال ابن بطال: الإحصاء: يقع بالقول، ويقع بالعمل، فالذي بالعمل أن لله أسماء يختص بها؛ كالأحد، والمتعال، والقدير، ونحوها، فيجب الإقرار بها والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها: كالرحيم، والكريم، والعفو، ونحوها؛ فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها، ليؤدي حق العمل بها، فبهذا يحصل الإحصاء العملي، وأما الإحصاء القولي: فيحصل بجمعها، وحفظها، والسؤال بها، ولو شارك المؤمن غيره في العد والحفظ؛ فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها»(١٠٠).

وفكرة أن يتحلى المسلم بمعاني أسماء الله التي يستحب الاقتداء بها في معانيها، فكرة تربوية نافذة في الحق، والنفع العميم، وهي تدل على أن الإحصاء آلية للتربية الخلقية، وقد فصل ابن بطال ذلك، فيما نقله عنه ابن حجر: «وقال ابن بطال: طريق العمل بها: أن الذي يسوغ الاقتداء به فيها كالرحيم والكريم؛ فإن الله يحب أن يرى حُلَاها على عبده، فليمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، وما كان يختص بالله تعالى؛ كالجبار، والعظيم، فيجب على العبد: الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد؛ نقف منه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد نقف منه عند الخشية والرهبة، فهذا معنى أحصاها وحفظها»(١٠١).

فالإحصاء إذًا ممارسة للتربية القلبية والخلقية، الذاتية، إيجابيا، وسلبيا، فيقسم أسماء الله - تعالى - أربعة أقسام:

الأول: ما يسوغ الاقتداء به، فيعرف معانيه، ويمرن نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، والتحلي بها.

---

(١٠٠) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٧٨.
(١٠١) المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٢٦.

الثاني: ما لا يسوغ له الاقتداء به، ويختص بالله، فيعرف معانيه، ويمرن نفسه على التخلي والتخلص من الاتصاف به.

الثالث: ما فيه معنى الوعد، فيطمع ويرغب إلى الله عنده.

الرابع: ما فيه معنى الوعيد، فيخشى ويرهب.

٨-٤: وقال الخطابي: «الإحصاء- في مثل هذا- يحتمل وجوها:

أحدها: أن يعدها حتى يستوفيها، يريد أنه لا يقتصر على بعضها، لكن يدعو الله بها كلها، ويثني عليه بجميعها، فيستوجب الموعود عليها في الثواب.

ثانيها: المراد بالإحصاء: الإطاقة (...) والمعنى: من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها، فيلزم نفسه بواجبها؛ فإذا قال: (الرزاق)؛ وثق بالرزق، وكذا سائر الأسماء.

ثالثها: المراد بالإحصاء: الإحاطة بمعانيها (...). انتهى ملخصا»(١٠٢).

وهنا يقدم الخطابي آلية تربوية تضاف لما سبق وهي: الاعتبار بمعاني الأسماء الحسنى، وإلزام النفس بواجبها.

ويقول ابن حجر: «وقيل: معنى أحصاها: عمل بها؛ فإذا قال: (الحكيم) -مثلا- سَلم لجميع أوامره، لأن جميعها على مقتضى الحكمة، وإذا قال: (القدوس)؛ استحضر كونه منزها من جميع النقائص، وهذا اختيار أبي الوفاء ابن عقيل»(١٠٣). وهذا تفصيل يضاف لفكرة الخطابي السديدة.

٨-٥: وفي الفتح: «وقال ابن عطية: معنى أحصاها: عدها وحفظها؛ ويتضمن ذلك: الإيمان بها، والتعظيم لها، والرغبة فيها، والاعتبار بمعانيها، وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء: عدها فقط، لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد: العمل بها، وقال أبو نعيم الأصبهاني: الإحصاء المذكور في الحديث:

---

(١٠٢) المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٢٥.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ٢٢٦.

ليس هو التعداد، وإنما هو العمل، والتعقل بمعاني الأسماء، والإيمان بها(...) وقال أبو العباس بن معد: يحتمل الإحصاء معنيين: أحدهما: أن المراد تتبعها من الكتاب والسنة، حتى يحصل عليها، والثاني: أن المراد: أن يحفظها بعد أن يجدها محصاة(...) قال: وللإحصاء معان أخرى: منها: الإحصاء الفقهي: وهو العلم بمعانيها من اللغة، وتنزيلها على الوجوه التي تحملها الشريعة، ومنها الإحصاء النظري: وهو أن يعلم معنى كل اسم بالنظر في الصنعة، ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود، فلا تمر على موجود إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسماء، وتعرف خواص بعضها، (...) ومقتضى كل اسم، قال: وهذا أرفع مراتب الإحصاء، قال: وتمام ذلك: أن يتوجه إلى الله -تعالى- من العمل الظاهر والباطن، بما يقتضيه كل اسم من الأسماء، فيعبد الله بما يستحقه من الصفات المقدسة التي وجبت لذاته، قال: فمن حصلت له جميع مراتب الإحصاء، حصل على الغاية، ومن منح منحى من مناحيها فثوابه بقدر ما نال والله أعلم»(١٠٤).

فهذه آليات مضافة لمفهوم الإحصاء: التتبع لها من القرآن والسنة، وحفظها، واعتبار معانيها، وتتبع آثارها في الكون، وعبادة الله بمقتضى كل اسم.

٨-٦: ومفهوم التعبد لله بمقتضى كل اسم قد فصله ابن القيم مرارا.

٨-٦-١: ففي (بدائع الفوائد) ذكر أن لإحصاء الأسماء ثلاث مراتب:

الأولى: إحصاء ألفاظها، وعددها.

الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

الثالثة: دعاؤه- تعالى- بها، كما قال - تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

---

(١٠٤) المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

والدعاء نوعان: دعاء ثناء وعبادة، ودعاء مسألة وطلب، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما لا يسأل إلا بها، ويسأل بها في كل مطلوب بما يناسبه، ويقتضيه من الأسماء الحسنى، وهذا من أعظم الوسائل إلى الله تعالى، وأنفعها(١٠٥).

٨-٦-٢: وقد فصل هذا المفهوم في (المدارج)، فقال: «كل اسم: فله تعبد مختص به، علما ومعرفة وحالا، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء التي يطلع عليها البشر، فلا تحجب عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، (...) وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو- سبحانه- يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو- سبحانه- يحب موجب أسمائه وصفاته: فهو «عليم» يحب كل عليم، «جواد» يحب كل جواد، «وتر» يحب الوتر، «جميل» يحب الجمال، «عفو» يحب العفو وأهله، «حيي» يحب الحياء وأهله، «بر» يحب الأبرار، «شكور» يحب الشاكرين، «صبور» يحب الصابرين، «حليم» يحب أهل الحلم»(١٠٦).

فابن القيم يقرر أن التعبد بأسماء الله الحسنى يعني: الدعاء والمسألة والتضرع لله بأسمائه، والتخلق بموجب أسماء الله- تعالى- التي يسوغ الاقتداء بها.

٨-٦-٣: ويذكر ابن القيم أن العبودية كلها ترجع إلى مقتضى الأسماء والصفات(١٠٧). وفي (الفوائد) يبين آثار معرفة صفات الله في الكيان الإنساني، يقول: «القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته: فتارة

---

(١٠٥) ابن القيم: بدائع الفوائد، ج١، ص ١٦٤ نقلا عن الغنيمان: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، ج١، ص ٢١٨.

(١٠٦) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٣١٦.

(١٠٧) ابن القيم: مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة، ج٢، ص ٩٠.

يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، الدال على كمال الذات، فيستنفد حُبُّه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به؛ أبى قلبه وأحشاؤه ذلك الإباء، كما قيل:

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعا لا تكلفا.

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان؛ انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلى ربه، وحادي الرجاء يحدد ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل، غَلَّق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه، قصر في البذر.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب، والسخط والعقوبة؛ انقمعت النفس الأمارة، وبطلت، أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب، والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظَّها من الخوف، والخشية والحذر.

وإذا تجلى لصفات الأمر والنهي، والعهد، والوصية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها، وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم؛ انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في

سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم؛ انبعثت من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو- سبحانه- والتوكل: معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء؛ أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه، وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وجدته.

وجماع ذلك: أنه- سبحانه- يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة؛ فيوجب له شهود صفات الإلهية: المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، والتمتع بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه.

ويوجب له شهود صفات الربوبية: التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.. إلخ»(١٠٨).

فابن القيم يضيف هنا مفهوم شهود تجليات صفات الله كما يتضمنها القرآن، أقول: وكذلك: شهود تجليات أسماء الله، وصفاته، كما تحدث عنها الرسول ﷺ.

---

(١٠٨) ابن القيم: الفوائد، ط المكتبة القيمة، ص ٦٢-٦٤.

٨-٧: ويذكر عجاج الخطيب أن المراد من الإحصاء «هو حفظها، وفهم معناها، والإيمان بها، وتمثلها، والعمل بمقتضاها في حقوق الله وحقوق العباد، ومراعاة دلالاتها(...)، والسعي- ما في الوسع- إلى التخلق بما تدل عليه من الصفات الجمالية، والقيم الخلقية، ليعم هذا كله، حياة المسلم العامة والخاصة، ويستشعر عظمة الخالق، من دلالاتها الجلالية، فيدرك حقيقة العبودية لله وحده»(١٠٩).

فالخطيب يضيف التمثل والتخلق بالصفات والقيم الخلقية التي يدل عليها كثير من صفات الله وأسمائه الحسنى.

وهذا نفس ما قرره ابن بطال في تفسيره لمفهوم الإحصاء، وما قرره ابن القيم كذلك.

٨-٨: ويرى الغزالي- أبو حامد- أن من حظوظ العارفين بالله: «السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات، والتخلق بها، والتحلي بمحاسنها، وبه يصير العبد ربانيا»(١١٠).

والغزالي- كما رأيت- لا ينفرد بهذا، ولا هذه نزعة صوفية منحرفة، بل هي ما يقرره أهل السنة والجماعة، كما ذكرنا سابقا، وكما فعله القرطبي وبنى عليه شرحه لأسماء الله الحسنى، المسمى بالكتاب الأسنى، وسننقل كثيرا منه في القاعدة العاشرة بعون الله.

٨-٩: إذًا، يتحدد مفهوم الإحصاء الذي يدخل صاحبه الجنة، في أنه آلية تربوية حقيقية تتضمن الإجراءات الآتية:

١- الإيمان بها.

---

(١٠٩) محمد عجاج الخطيب: في رحاب الأسماء الحسنى، ص ١٧.
(١١٠) أبو حامد الغزالي: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة القرآن، ص ٤٦.

٢- الحب لها.

٣- تعرف معنى كل اسم، وتحقيقه بالدليل الصحيح، وتمييزه؛ هل هو مما يستحب الاقتداء بمعناه، أم يختص به الله وحده؟

٤- أن يعمل بمقتضى كل اسم.

٥- أن يتعبد لله بكل اسم، فلكل اسم عبودية تخصه.

٦- أن يدرب نفسه على الاتصاف، والتخلق بما يمكنه التخلق به منها.

٧- أن يتتبع أسماء الله من الكتاب والسنة، ويدعو بها ربه، ويمجده بحسب كل اسم.

٨- أن يشهد بقلبه معنى كل صفة، ويستشعرها بقلبه.

٩- القاعدة التاسعة: تربية القلب بالأسماء الحسنى:

هذه القاعدة هي الإعمال التربوي لمفهوم الإحصاء وإجراءاته السابقة:

فالتعرف إلى أسماء الله الحسنى والإيمان بها، ومحبتها، والتعبد بها، والعمل بمقتضاها، والدعاء بها، والتخلق بما يمكن التخلق به منها- في الحدود التي ذكرناها- وشهود القلب لمعانيها، واستشعارها، وتمجيد الله بها، هي وسائل تربوية لتربية واعظ الله في القلب، ليكون القلب ربانيا، أي: عبدا حقيقيا لله، متخلقا بمكارم ومعالي الأخلاق التي يحبها الله.

فالله يحب صفاته وأسماءه، ويحب كل اسم منها، فهو عليم يحب كل عليم..إلخ، كما نقلنا عن ابن القيم.

٩-١: فإذا تتبع المسلم آيات الله عن أسمائه الحسنى، وأحاديث النبي ﷺ عنها، في إطار برنامج تربوي منظم، يتناول الأسماء الحسنى اسما اسما، وذلك بقلب يعي، ويشهد معاني الأسماء، فإن القلب يرتبط بالله، حبا له، وتوكلا عليه، ومراقبة له، وثقة فيه، وشوقا إليه، وتذللًا له، واعتزازًا به.. إلخ ما ذكرنا بعضه عن ابن القيم، فإن كل اسم وكل صفة، يورث القلب المسلم، عبودية

خاصة به، فمثلا: اسم الله القدوس، يورث القلب حبا لـه، ورغبـة في تقـديس النفس عن النقائص، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، ورغبة في تقديس الأمة من عارها، ودعاء لله باسمه القدوس أن يقدسنا، ويقدس أمتنا.. وهكذا.

فالتحقق بمعرفـة الأسـماء الحـسنى، والتعبـد بمقتـضياتها هـو مـن خـير الأساليب التربوية لإكساب القلب معرفة بكل قيم ومقامات الإيمان، ورغبـة قوية في التخلق بها، فيا لها من وسيلة وغاية في وقت واحد.

وذلك لا يحتاج منا إلا أن نجمع الآيـات والأحاديـث في الاسـم المعـين، مثل: الرحيم، الكـريم، القـدير، البـديع، العفـو، الـصمد، الجميـل، المنـان، الودود، ثم نتفهم معنى وأبعاد الاسم، أو الصفة المتضمنة فيه، ونتمعن ذلك، بتفكر وشهود قلبي، واستشعار عـاطفي، ونخطرهـا عـلى قلوبنـا، ونخلطهـا بمشاعرنا، وبكل ذرة في كياننا، ثم نتوجه إلى الله بالدعاء، حـسب معنـى كـل اسم، يا رحيم ارحمنا، يا رحيم اجعلنا رحماء.. وهكذا.. ثم يستـشعر المـسلم مدى تقصيره عن موجب هذا الاسم.. ثم يبادر بإصلاح النقص.. إلخ.

فالتعبد لله بأسمائه الحسنى هو سير حقيقي متكامل إلى الله- تعالى- وتزكية للنفس وتربية لمكارم الأخلاق.

٩-٢: تمجيد الله، وتقديسه، وتعظيمه ودعاؤه بأسمائه الحسنى:

أمرنـــا الله أن نـــدعوه بأســـمائه الحـــسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدعاء: هو النداء والطلب والمسألة أي: نـادوه، واسـألوه، واطلبوا منه كشف الضر، وجلب النفع، متضرعين إليه بأسمائه الحـسنى، والله أمرنـا أن نـدعوه وقـال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غـافر: ٦٠] أي: اطلبوا مني، واسألوني، والمسلم- إذا دعا الله بأسمائه الحسنى: «يـسأل في كـل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلـوب، فيكـون الـسائل متوسـلا إليـه بذلك الاسم(...). ويقول ابن العربي: يطلب بكل اسم ما يليق به؛ تقول: يـا

رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رزاق ارزقني، يا هادي اهدني.. »(١١١).

والدعاء هو العبادة (١١٢)، أي: اعبدوه، وتذللوا له، واخضعوا بأسمائه الحسنى، وعظموه، ومجدوه بها، وأثنوا عليه بها، وقد ورد عن النبي ﷺ أدعية وتمجيدات وثناءات على الله، تتوجه إلى الله بأسمائه الحسنى.

أخرج مسلم عن سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا- إذا أراد أحدنا أن ينام- أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: «**اللهم رب السموات ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر**»(١١٣). وكان يروي ذلك أبو هريرة عن النبي ﷺ.

ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس: كان النبي ﷺ إذا قام في الليل يتهجد قال: «**اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق(...) أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت- أو- لا إله غيرك**»(١١٤).

وأخرج مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول: «..**اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن**

---

(١١١) عمر سليمان الأشقر: الأسماء والصفات، ص ٣٣.

(١١٢) جاء في الحديث الصحيح، عن النعمان بن بشير؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه ابن ماجه، وأبو داود بإسناد صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣١٠١، ص ٢٥٢ ، سنن أبي داود، ج١، رقم ١٤٧٩، ص ٥٤٩، ٥٥٠.

(١١٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، رقم ٢٧١٣، ص ٢١٠.

(١١٤) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٣١٧، ص ١١٦.

والإنس يموتون»(١١٥).

وأخرج الترمذي وأبو داود وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن بريدة الأسلمي قال: سمع النبي ﷺ رجلا يدعو وهو يقول: «**اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد**» قال: فقال: «**والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»(١١٦).

وأخرج ابن ماجه وأبو داود والنسائي، عن أنس بن مالك؛ قال: سمع النبي ﷺ رجلا يقول: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام**»، فقال: «**لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب**»(١١٧). وفي لفظ النسائي: عن أنس بن مالك قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالسا، يعني: ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهد دعا فقال في دعائه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك..**» فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**تدرون بما دعا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»(١١٨).

---

(١١٥) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧١٧، ص ٢١٤.

(١١٦) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣١٢٥، ص ٢٦٠-٢٦١، وانظر: سنن أبي داود، ج١، رقم ١٤٩٣، ص ٥٥٣-٥٥٤ (كتاب الصلاة، باب الدعاء) وسنن الترمذي، ج٥، رقم ٣٤٨٦ (كتاب الدعوات) ص ٢١٠، وأخرجه أحمد بإسناد صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٨٤٨، ص ٤٧٨، ورقم ٢٢٨٦١، ص ٤٨٣.

(١١٧) قال الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣١٢٦، ص ٢٦١.

(١١٨) النسائي: سنن النسائي، ج٣، رقم ١٣٠٠، ص ٣٦، وأخرجه أبو داود في سننه، ج١، رقم ١٤٩٥، ص ٥٥٤.

وأخرج الترمذي عن أسماء بنت يزيد أن النبيﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] **وفاتحة آل عمران:** ﴿الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح(١١٩).

فالمسلم يتوسل إلى الله بأسمائه، وبتوحيده، فيعبد الله، ويتضرع، ويتربى إيمانه.

حتى في أوقات الخوف والكرب يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، ويتضرع، أخرج البخاري عن ابن عباس قال: إذا أتيت سلطانا مهيبا تخاف أن يسطو بك، فقل: «الله أكبر، الله أعز من خلقه جميعا، الله أعز مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو الممسك السموات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه، من شر عبدك فلان، وجنوده وأتباعه، وأشياعه من الجن والإنس، اللهم كن لي جارا من شرهم، جل ثناؤك، وعز جارك، وتبارك اسمك، ولا إله غيرك» ثلاث مرات(١٢٠). وهكذا يتعبد، ويتضرع، ويتربى.

٩-٣: وإذا حرص المسلم على الدعاء بأسماء الله الحسنى، وعلى تلاوة سورة الفاتحة، وآية الكرسي، وأول سورة غافر، وآخر سورة الحشر، وآخر سورة الإسراء، وسورة الإخلاص والمعوذتين، وأذكار الصباح، وتمعن في أسماء الله الحسنى، وأحصاها بالمفهوم الذي حددناه، في كل ذلك، فلست أجد وسيلة تربوية لتربية الإيمان بالله في القلب، وتربية واعظ الله فيه، وربط القلب بالله- تعالى- أحسن من هذه الوسيلة.

١٠- القاعدة العاشرة: التخلق، والتغيير الكلي للسلوك، بموجبات أسماء الله الحسنى:

رأينا أن معاني الإحصاء لأسماء الله الحسنى، الاقتداء بها في معانيها،

---

(١١٩) سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٤٨٩، ص ٢٩١، وقال الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣١٢٣، ص ٢٦٠، وأخرجه أبو داود، سننه، ج١، رقم ١٤٩٦، ص ٥٥٤، ٥٥٥.

(١٢٠) قال الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد، رقم ٧٠٨، ص ٢٤٥.

والتحلي بها، والتخلق بموجباتها من القيم الخلقيـة، ومقتـضيات معانيهـا،فيما هو ممكن التخلق به منها، على التفصيل الذي ذكرنـاه عـن علـماء أهـل الـسنة كابن بطال وغيره.

فكل اسم يتضمن صفة من الصفات، تقتضي (قيمة) (يجب) عـلى المـؤمن أن يتخلق بها، ويمرن نفسه على الاتـصال بهـا، بقـدر اسـتطاعته، وبـما يليـق ببشريته.

وهذه قاعدة سار عليها القرطبي في «الأسنى في شرح أسـماء الله الحـسنى» وأنا أنقل في هذه القاعدة جملة مما ذكره القرطبي بلفظـه، ولا يغنـي هـذا عـن الرجوع إلى هذا الكتاب المهم (في جزئه الأول) ودراسته، والعمل بما فيه، وقد سار القرطبي في أكثر من مائة وعشرين اسما على هذا الأساس؛ يذكر الاسـم، ويدلل عليه، ويشرح معناه، ثم يبين ما يجب على المسلم نحو هذا الاسـم مـن الإيمان والتخلق، وهذه جملة مهمة مما قال:

الرحمن الرحيم: يقول: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- هو أرحم الراحمين، وأنه متعبد بأن يسأله(...) ويعلم- أيضا- أنه متعبـد بـأن يرحم، وبأن يكون راحما ورحيما(...) فينبغي لك أن تكون لك همة أن تـرحم نفسك وغيرك (...) فندب إلى الرحمة والعطف، على اختلاف أنواعها، في غير حديث، وأشرفها رحمة الآدمي، وإن كان كافرا، (...) فكـن رحـيما لنفـسك، ولغيرك، ولا تستبد بغيرك، فارحم الجاهل بعلمك والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بـشفقتك ورأفتـك، والعـصاة بـدعوتك، والبهـائم بِرَعْوَتِك، ورفع عُنُفِك، فأقرب النـاس مـن رحمـة الله أرحمهـم بخلقـه، وقـد دخلت البغي الجنة بسقيها كلبا، (...) ومن رحمتك لنفسك أن تطلب النجـاة من النار، والفوز بالجنة، بتقوى الله، وحفظ حدوده، والعمل بما يرضاه، وبأن توصف بأنك راحم، بـأن تـرحم مـرة أو مـرتين، ولا توصـف بأنـك راحـم

ورحيم إلا بالمبالغة وتكرار الفعل، والخطاب الوارد عليك بأن تتصف بهذا الوصف: منه واجب عليك، وذلك في إنقاذ الغرقى والهلكى، وسد الخلة المتعينة، ورد الرمق، وأشباه ذلك، ومنه خطاب نَدْبٍ فيها وراء الواجب، وصوره كثيرة.. إلخ»[١٢١].

الحليم: وقال- بعد شرح صفة الحليم: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الحليم- على الإطلاق- هو الله- سبحانه- وجريان هذا الاسم على غيره مجاز، لا حقيقة، فمن الواجب على من عرف أن ربه حليم على من عصاه أن يحلم هو على من خالف أمره، فذاك به أولى، حتى يكون حليما، فينال من هذا الوصف بقدر ما يكسر به ثورة غضبه، ورفع الانتقام عمن أساء إليه، بل يتعود الصفح حتى يعود الحلم له سجية..(...) لأنك متعبد بالحلم، مثاب عليه (...) والصبر داخل تحت الحلم؛ إذ كل حليم صابر.. إلخ»[١٢٢].

الكريم: قال بعد شرح صفة الكريم: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- أكرم الأكرمين وأحق من تسمى بالكرم، فيسأله (...) ثم يجب عليه أن يتصف بالكرم، ويسعى في أسبابه بأن يعود نفسه على السخاء، ويده: الإعطاء، وخلقه: المكارم، بل يسمح بنفسه، ويتلفها في رضا ربه، ويصون نفسه عن دَنِيَّات الأمور، ويسعى في معاليها، فيقابل المحسن بأكثر من إحسانه، وإذا أَسْدَى إلى أحد معروفا، صغر في نفسه، وإذا أُسْدِي إليه، كَبُر عنده، فذلك ركن عظيم من مكارم الأخلاق (...) ثم يجب على كل مكلف إكرام شعائر الله، وإكرام قوله، وإكرام كتابه، وأسمائه، وأوليائه، ونعمه (...) وكذلك: فأكرم أبويك، وذوي قرابتك، وجيرانك، وولدك، ومَنْ أمرت بإكرامه(...) ثم إن كان لك أمر وسلطان فعليك أن تقيل عثرات الكرام،

---

(١٢١) أبو عبد الله القرطبي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، المجلد الأول، دار الصحابة للتراث، طنطا، ص ٨٣-٩١.

(١٢٢) المصدر السابق، ص ٩٧، ٩٨.

اقتداء بالنبي ﷺ..إلخ» [١٢٣].

العفو: قال بعد شرح هذا الاسم: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- العفو على الإطلاق، (...)ثم يجب عليه أن يستعمل العفو، ويتخلق به، حتى يدخل في مدح الله للعافين وثنائه عليهم(...) فمن أعطي العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أعطي المرتبة العليا ،والمعافاة: أن يعافى العبد من شر الخلق، ويعافيهم من شره، فمن عرف أن الله -سبحانه -عفو؛ طَلَب عَفْوَه، ومن طلب عفوه؛ تجاوز عن خلقه» [١٢٤].

الغفار: قال بعد الشرح: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله -سبحانه وتعالى- هو الغفار على الإطلاق (...) ويجب عليه أن يَسْتَتِرَ عن الناس بذنبه، ويعترف به لربه، (...) وكما يحب أن يغفر له، فكذلك يغفر لغيره» [١٢٥].

الرؤوف: قال بعد شرح هذا الاسم: «فيجب على كل مكلف أن يعلم ألا رؤوف على الإطلاق إلا الله -تعالى - وأن رأفته ليست كرأفتنا(...) ثم عليك أن ترأف بنفسك،كما رأف الله- سبحانه- بها، فلا تحملها فوق وسعها، ولا ما هو خارج عن مقتضى كرم طبعها(...) وكذلك بغيرك، فبهذا تكون ذا قلب رؤوف، وتكون رأفة الله عليك في الدارَيْن تطوف» [١٢٦].

الصمد: قال بعد شرح هذا الاسم: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا صمدية ولا وحدانية إلا لله وحده، فلا يقصد غيره، ولا يلجأ في حوائجه إلا إليه، ثم عليه أن يتخلق بأخلاق السيادة والسادة، حتى يكون مصمودا، وبابه مقصودا..» [١٢٧].

---

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ١٢٣- ١٢٨.

(١٢٤) المصدر السابق، ص ١٤٩- ١٥١.

(١٢٥) السابق، ص١٥٧، ١٦٢ ، ١٦٣.

(١٢٦) السابق، ص ١٧٥، ١٧٦.

(١٢٧) السابق، ص١٨٦.

الحميد: قال بعد شرح اسم الله الحميد: «فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الحمد على الإطلاق، إنما هو لله (...) فنحمده على كل نعمه، وعلى كل حال، بمحامده كلها، ما عُلِم منها وما لا يُعْلَم(...) ثم يجب عليه أن يسعى في خصال الحمد، وهو التخلق بالأخلاق الحميدة، والأفعال الجميلة، ويترك نقيضها، ويدع سِفْسافها منها»(١٢٨).

القاهر: قال بعد الشرح: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- هو القاهر فوق عباده، يصرف ملكه على اختياره، وعلى ما تقدم في علمه، وسبق في مشيئتِهِ(...) ثم يجب عليه أن يقهر أعداء الله، بما استطاع من القهر(...) ولا يقهر يتيما، ولا ضعيفا، فإن ذلكِ حرام»(١٢٩).

الفتاح: وقال بعد شرح اسم الله الفتاح: «فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن لا فاتح ولا حاكم على الإطلاق إلا الله- تعالى- وإذ لا فاعل إلا الله، ولا حاكم إلا الله، فلا ينبغي لمسلم أن يعتقد أن الحكم لغير الله- تعالى- ولا أن يبتغي حُكْمًا غير حكم الله، (...) ثم يجب عليه أن ينقاد إلى حكم الله، وإلى مَنْ حكمه عليه، (...) ثم يجب عليه أن يعلم أن الله- سبحانه- هو الفتاح لكل مستغلق، وأنه الذي يفتح أبواب الرزق، والرحمة للعباد، ويفتح المتغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم، ويفتح قلوبهم، وعيون بصائرهم ليبصروا الحق، ويشرح صدورهم بعد الضيق، ويفتح عليهم كل مشكل غَلِق (...) وهذا الفتح ليس له حد (...) فيا مَنْ فتح الله أقفال قلبه، وأفاض عليه نورا من عنده، حُلَّ أقفالَ القلوب الجاهلة بمفاتيح العلوم، وكن فتاحًا كما فتح الله عليك ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وإن كنت لم تصل إلى هذا المقام من الفتح، وفتح عليك من الرزق الظاهر (...) فكن ذا يد سمحة،

---

(١٢٨) السابق، ص ١٨٩، ١٩٠.

(١٢٩) السابق، ص٢١٥، ٢١٦ .

وقلب فتاح، فإنها تنفق من خزائنه، التي لا تغلق، ولا يضيع لها مفتاح وإذا كُنْتَ قد عُدِمْتَ هذا؛ فاسْعَ أن تكون مفتاحا للخير مِغْلاقًا للشر، قال ﷺ: «**إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر، مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه...**»(١٣٠).

وهذا الحديث له روايات فأخرجه ابن أبى عاصم في السنة عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله- تبارك وتعالى- خزائن للخير والشر، مفاتيحها الرجال، فطوبي لمن كان مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر، وويلا لمن جعله مِغْلاقًا للخير، مفتاحا للشر**» حديث حسن وإسناده ضعيف، وقد توبع، فأخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن وهب، والخرائطي في مكارم الأخلاق، وابن أبى عاصم، وللحديث شاهد عن أنس بن مالك، رواه ابن أبى عاصم، بلفظ: «**إن من الناس ناسا مفاتيح للخير مغاليق للشر، ومن الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفتاح الخير على يديه..**» قال الألباني: حديث حسن، ورجاله موثقون غير محمد بن أبى حميد المديني، وهو الأنصاري، ضعيف(١٣١)، وأخرجه ابن ماجه بإسناد حسن عن أنس وعن سهل بن سعد، ولفظ الثاني: «**إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، وويل لعبد جعله مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير**» وإسناده حسن(١٣٢).

الكاشف: وبعد شرح اسم الله الكاشف؛ قال: «فيجب على كل مكلف أن

---

(١٣٠) المصدر السابق، ص ٢٢٤- ٢٢٦. قلت: وهو حديث حسن. انظر ما بعده.

(١٣١) ابن أبي عاصم: كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة للألباني، رقم ٢٩٦، ٢٩٧، ص ١٤٠، ١٤١.

(١٣٢) صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١٩٥، ١٩٦، ص ٩٦، وانظر: السلسلة الصحيحة، رقم ١٣٣٢، وحسنه في صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط٣، رقم ٢٢٢٣، ص ٤٤٢.

يعلم أن لا كاشف للكروب والهموم إلا الله وحده لا شريك له، ثم عليه أن يسعى في ذلك؛ فيكون مُفَرِّجًا للهموم عن إخوانه، مزيلًا للأحزان عن أقربائه وأصدقائه، مما أمكنه؛ من بذل مالٍ أو جاه»(١٣٣).

اللطيف: يقول بعد شرح هذا الاسم: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- هو اللطيف على الكمال، وأن كل لطف إنما هو مِن عند ربه، وكما تحب أن يلطف لك فيما يكون لك برًّا، فالطف أنت كذلك حسب طاقتك بإخوانك المؤمنين، وأوصل إلى من أمكنك مِن بِرِّك ولطفك ما أمكنك، ولتشغل نفسك بالشكر بمن لُطْفُه بك خفي، وبره إليك واصل في سَرَّائك وضرائك، وتلطف في إيصال بِرك إلى مَنْ أوصلتَه بألطف المآخذ وأحسن المذاهب، فذلك البِرُّ في البِر»(١٣٤).

المهيمن: قال بعد شرح اسم الله المهيمن: «فيجب على كل مكلف أن يعلم ما يجب لله- تعالى- من المزية على غيره، في جميع أسمائه، ووجوب علُوّ قدرِهِ بشرف صفاته، ثم يسعى في طلبه، أي: يطالب نفسه بالرتبة العَلْيَاءِ، وبالشرف على من يليه، والإشراف عليه، ورعاية أحوالِه، وطلب المزيد، ولا عُذر للبليد، ولا الناسي، ولا المتناسي»(١٣٥).

الـحَنَّان: قال بعد بيان معنى هذا الاسم: «فيجب على كل مسلم أن يتخلق بهذين الاسمين (يعنى: والمنان كذلك)، وسائر الأسماء، فيكون عطوفا رقيق القلب، (...) فرقة القلب تحمل على التعطف والرحمة والرأفة والشفقة، وعنها تكون الألفة وعدم الفرقة..»(١٣٦).

الحافظ والحفيظ: قال بعد شرح معناهما: «فيجب على كل مكلف أن يعلم

---

(١٣٣) القرطبي: الأسنى، ج١، ص ٢٢٨ .

(١٣٤) المصدر السابق، ص ٢٣٦ .

(١٣٥) السابق، ص ٢٥٢ .

(١٣٦) السابق، ص ٢٧١،٢٧٢ .

أن الله- سبحانه- هو الحافظ لجميع الممكنات، والحفيظ، وأعظم الحفظ: حفظ القلوب، وحراسة الدين؛ عن الكفر والنفاق، وأنواع الفتن، والبدع، حتى لا يزلّ عن الطريق المثلى، (...) ويجب عليه حفظ حدوده، وحفظ ما وجب عليه من حقوقه، فيدخل في ذلك معرفة الإيمان والإسلام، وسائر ما يتعين عليه علمه، ويجب عليه حفظ ما استحفظه الله إياه؛ بحسن الرعاية له، والقيام عليه..»[١٣٧].

البَرُّ: قال بعد شرح المعنى، وإيراد الأدلة: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله – سبحانه- هو البر الرحيم، بالوجوه المذكورة، ثم يجب عليه مبرته، ومبرة كتبه، ورسلِهِ، وأوليائه، والعلماء، وأهل طاعته، وبر والديه، وإذا وجبت مبرة والديه؛ لتربيته؛ فمبرة الرب الأعلى بربوبيته أحرى وأولى، فيتضاءل لعظمته، ويتصاغر لكبريائه، ويؤدي إليه حقَّه، ويقف نفسه عن حظها، ويراقب: حتى يتوجه إليه أمر يقوم به ويعمل عليه،..»[١٣٨].

القابض الباسط: قال: «فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن لا قابض ولا باسط إلا الله-سبحانه- هو الذي يقبض الجميع ويبسطه، وهو الذي يبسط القلوب والألسنة والأيدي، وسائر الأسباب، فإن كنت مبسوط القلب بالمعارف والحقيقة والعلوم الدينية، فابسط بساطك، وابسط وجهك. واجلس للناس حتى يقتبسوا من ذلك النبراس. وإن كنت ذا بسط في الجسم فابسطه في العبادة؛ التي تفضي بكِ إلى السعادة، وفي الصَّوْلَةِ على الأعداء، بما خُوّلت من المنة والشدة، وإن كنت ذا بسط في المال؛ فابسط يدك بالعطاء، وأزلْ ما على مَالِكَ من الغِطاء، ولا توكِ فيوكي الله عليك، ولا تحص فيحص الله عليك، وإن كنت لم تنل حظا من هذه البسطات؛ فابسط قلبك لأحكام ربك، ولسانك لذكره

(١٣٧) السابق، ص ٣١١، ٣١٢.

(١٣٨) المصدر السابق، ص ٣٣٤، ٣٣٥ .

وشكره، ويدك لبذل الواجبات عليك، ووجهك للخلق..»(١٣٩).

المبدئ المعيد: قال بعد بيان معناهما: «فيجب على كل مسلم أن يعلم أن الله- سبحانه- هو المبدئ المعيد، وأنه بدأ الخلق على غير مثال، ثم يعيدهم على ذلك المثال؛ قدرةً وحكمة، لا حاجةً، (...) فافتقد (يعني: تفقد) نفسك، وكل جزء فيك، فإنك خُلِقْتَ – والله – لأمر عظيم، لم يُخْلَقْ له أحد من العالم، وفَكِّر في الإعادة، ففيها تظهر حقيقة الشقوة والسعادة، وكن في دنياك مبتدئا للخير، ومعيدا؛ تكن في ذلك اليوم سعيدا، ومهما ابتدأت بفعل الصالحات فأعدها أبدا حتى يأتيك المات، فإن العَوْدَ أَجْمل، وبه تتطهر النفوس وتكمل، وخير العمل ما دام عليه صاحبه وإن قل، وقد قال بعض الناس: ليس للأوقات بدل وإن من فاته وقت فليس له إليه وصول»(١٤٠).

الرَّبُّ: قال بعد بيان معنى الرب: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا رب له على الحقيقة إلا الله وحده وأن يحسن تربية من جعلت تربيته إليه، فيقوم بأمره ومصالحه كما قام الحق به، فيرى فيه شيئا فشيئا، وطوْرًا طوْرًا، ويحفظه ما استطاع جهده، كما حفظه الله، قال ابن عباس – وسئل عن الرباني- فقال: هو الذي يعلم الناس بصغار الأمر قبل كباره، فالعالم الرباني هو الذي يحقق علم الربوبية، ويربي الناس بالعلم على مقدار ما يحتملونه(...) ثم عليه أن يدعو ربه بهذا الاسم العظيم(...) ولا يتحلى به، ولا يصف نفسه به»(١٤١).

الوهاب: قال بعد الشرح والتدليل: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- هو المنفرد بالهبات، وأنه الوهاب على الإطلاق (...) ثم هو مندوب للاتصاف بهذا الوصف، وهذا الوصف داخل تحت قوله- تعالى:

---

(١٣٩) المصدر السابق، ص ٣٦٣.

(١٤٠) السابق، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠.

(١٤١) المصدر السابق، ص ٣٩٥، ٣٩٦ .

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] (...)، فهب ما وهبك الله، ولا تشح بما جعلك الله فيه مستخلَفًا(...) وإن كنت ممن وهبه الأخلاق النفسية من العلوم الموصلة إلى الدرجات الرفيعة؛ فكن وهابا للمحتاجين منها ما لا غنى لهم عنها، ولا تكن من الكاتمين للأنوار، فتلجم يوم القيامة بلجام من نار(...) فكن ذا نظر وثبات فيما تهبه من الهبات، فبهذا تكون متعرضا للهبات العلية، الدنيوية والأخروية»(١٤٢).

الرقيب: وقال بعد شرح اسم الله الرقيب: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- رقيب عليه، وعلى كل مخلوق، وأن يعلم أنه- سبحانه- قد وكل بكل مكلف مَلَكَيْن يحصيان أقواله وأفعاله، وأن الجزاء من الله- سبحانه- بحسب هذه المراقبة؛ فمن صَحَّ عِلْمُهُ بأن الله رقيب عليه لم يُفْنِ عمره في البطالة، ولم يمحق في الغفلات أوقاته، بل يصل في طاعة ربه ليلَهُ ونهاره، وجهده، بكده في إحساسه، واختلافِ أنفاسه، ومن راقب الله- تعالى- في سره وجهره، واتقاه في أمره ونهيه، أوصله ذلك- بإذن الله- إلى الموافقة في سبيل المعاملة، (...)فمن علم أن الله مطلع عليه من حيث لا يراه، كما قال ﷺ: «**فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك**» (صحيح، رواه مسلم وغيره عن عمر) فعليه أن يكون هذا الاعتقاد عليه دائما بحسب خشية الاطلاع، ولن يتهيأ له ذلك حتى يكون عقله على نفسه رقيبا، فيعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وهذا مقام المراقبة، ومن قام به فهو رقيب على نفسه، وحينئذ يرسم رقباؤك- الحفظة الكاتبون – في صحفِك بأقلام الرحمة ما تبتهج به نفسك، إذا رأيت صحائفك منشورةً يوم تكون نفسك محشورة، وحينئذ تشاهد الرقيبَ، فلا ينأى عنك نورُه، ولا يغيب»(١٤٣).

---

(١٤٢) المصدر السابق، ص ٣٩٩، ٤٠٠ .

(١٤٣) المصدر السابق، ص ٤٠٥ - ٤٠٧ .

الـدَّيَّانُ: قـال بعـد البيـان: «فيجـب عـلى كـل مكلـف أن يعلـم أن الله- سبحانه- هو الديان يوم القيامة، الذي يجازي كلا بعملـه، (...)ثـم عليـه أن يدين بطاعته،وكما يدين يدان(...) فإذا دان في نفـسه بالطاعـة، وحكـم قلبـه الذي هو الأمير على رعاياه، التي هـو جوارحـه، واشـتد في الحكـم لـدين الله الذي جاءه به نبيه، وأشاع هذا في الخلق، وأظهر دين الله بالحق، فهو ديان مـن دياني هذه الأمة»(١٤٤).

الـحَكَمُ: قال القرطبي: «فيجب على كل مكلف أن يعلـم أن لا حَكَـم إلا الله- تعالى- وحـده، وأن كـل أفعالـه أحكـام وقـضايا، وكـل أقوالـه حِكَـم ووصايا، ويجب عليه أن يعلم أن الرسل- عليهم السلام- هم معادن الحكمة، وأهل الحكم، ولم يفوض الله- تعالى- الحكم إلا لهم، وكل من سـواهم يجـب عليهم الاقتداء بهم، وألا يحكموا إلا بما أنزل الله، (...)ثم يجب على كل مسلم إذا دعي إلى الحكم عليه أن يجيب إلى ذلك، وينقاد لحكم لله- تعالى- إذا توجه عليه، وإلا كان ظالما، (...) ويجب عـلى الحكـام ألاَّ يتعـدوا حكـم الله الـذي شرعه لهم، ونصبه فصلا بين عباده، وأن يحكم الحاكم بـالحق، وإن كـان عـلى نفسه..إلخ»(١٤٥) .

الـمُقْسِط: قال بعد البيـان: «فيجـب عـلى كـل مكلـف أن يعلـم أن الله- سبحانه- هو المقسط، وأنه الذي أمر بالقسط والعدل، وعمـل بـه، ثـم يجـب عليه أن يُقسط في أقواله وأفعاله، وأحكامـه، (...) وأن يحـب المقـسطين، ولا يحب القاسطين، فأعط القسط من نفسك لربك، ووفِّه قسطه حسب طاقتـك، واستغفره لما عجزتَ عَنه، (...) ثم أعط القسط من نفسك، ثم للناس، وأعط كل ذي حق حقه، ولتكن قائما بالقسط في حكمـك، وشـهادتك، وحركاتـك

---

(١٤٤) السابق، ص ٤٢١ .

(١٤٥) المصدر السابق، ص ٤٤٠، ٤٤١.

كلها، وأعمالك، قال الله- تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، ثم اعلم أن قسطك من الوزنين ما ثَقُل به ميزانك أو خف..إلخ»[١٤٦].

النُّورُ: قال بعد بيان معنى هذا الاسم: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه(...) هو منور، ومزين، وهادٍ، (...) نوَّر السماء وأضاءها، وزينها بالنجوم وحفظها، وكذلك نور قلوب عباده بنور معرفته(...) فكل نور من عنده- عز وجل- ولا نور إلا منه، ولا هدى إلا به ومنه، ثم يجب أن يسعى في أن يكون نور عصره، وإلا فنور بلده، وإلا فنور رعيته وخاصته، وإلا فنور نفسه، وإنما يكون نورا يُسْتَضاء له؛ إذا علم كتاب ربه، وسنة نبيه، ثم عمل بها وعلمها، فيستنار بنوره، ويهتدي بهديه..»[١٤٧].

الباعث: قال بعد البيان: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله- سبحانه- باعث الموتى يوم النشور، ومنشئهم، وخالقهم، ومعيدهم كما بدأهم، (...) فالله - سبحانه - يحيي الموتى يوم النشور، ويبعث ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، ثم يجب عليه أن يسعى في أسباب البعث من الجهل لنفسه، وأهله، وذلك بتحصيل العلم الذي عنه تكون الحياة الحقيقية، فيبعث قلبه على اليقين، ولسانه على الذكر، وجوارحه على العمل(...) فمن رَقَّى غيره من الجهل إلى المعرفة، فقد أنشأه نشأة أخرى، وأحياه حياة طيبة، وكل مَنْ كان له مدخل في إفادة الخلق بالعلم، ودعائهم إلى الله- تعالى- فله بذلك نوع من الإحياء، وهي رتبة الأنبياء ومن ورائهم العلماء(...) ثم يجب عليه أيضا قَبولُ باعث الحق، ورد باعث الباطل..»[١٤٨].

---

(١٤٦) السابق، ص ٤٥٢ .

(١٤٧) السابق، ص ٤٦٩ .

(١٤٨) المصدر السابق، ص ٤٧٦ - ٤٧٨ .

ذو الفضل والمفضل: قال بعد البيان: «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله ذو الفضل على الإطلاق، والمفضل على الدوام، وأن كل فاضل وفضله مِن عِنده. ثم يجب عليه أن يكون ذا فضْلٍ وكرم حتى يَفْضُل قومَه، ويسودَهُم، إما بعِلم، أو زيادة عبادة، أو بذل مالٍ ينفقه، أو جاه ينفع الناس به، فإن الإنسان مسؤول عن جاهه، كما هو مسؤول عن ماله»(١٤٩).

هذه اثنان وثلاثون اسما من أسماء الله الحسنى، اخترتها نماذج مما بينه القرطبي في التخلق بموجباتها، وقد جعلها كلها واجبات، فهي أخلاق ملزمة، فإذا آمن الإنسان بأسماء الله الحسنى، وتعبد بها، وأخطرها على قلبه، وتحلى، وتخلق بما يستحب التخلق به منها، ودرب نفسه على الاتصاف بها، قدر مستطاعه، فإن النتيجة – في الواقع- تكون تغييرا إيجابيا إسلاميا للسلوك الجواني والبراني، برمته.

فإذا كان هناك مائة وعشرون، أو أكثر من هذه الأسماء فيها هذا النصيب للمسلم المتعبد بها، فإنه يكتسب مائة وعشرين خلقا حسنا، فأي تغيير شامل للقلب والجوارح والسلوك يحدثه الإيمان بالله ربا موصوفا بالأسماء الحسنى، ومعبودا بموجباتها؟! وأية إمكانية تربوية هائلة التأثير، في إمكاننا ؟! أعني: التربية بأسماء الله الحسنى.

و- أساليب تربوية لاكتساب توحيد المعرفة بالله، وإثبات أسمائه وصفاته:

تقدم في سياق التحليل السابق ما يعتبر أساليب تربوية للتحقق بتوحيد الربوبية والمعرفة والإثبات، ويمكن: إجمال هذه الأساليب فيما يلي:

١ - تأسيس شهوة التوحيد في القلب:

فالإنسان لا يقبل على تعلم شيء أو عمل شيء بإرادته، إلا إذا اشتهاه ورغب فيه، وأحبه حُبًّا حركه للتعلم والعمل، فإيجاد، وتنمية محبة توحيد

---

(١٤٩) المصدر السابق، ص ٥١٢ .

الربوبية والأسماء والصفات، هي أساس الدفع الذاتي للتعلم، والممارسة، وهذه بعض المقترحات التي إذا عملناها نمت في قلوبنا محبة التحقق بالتوحيد، والميل إليه:

١-١: أن يدرك الشخص – تمام الإدراك- أن هذا التوحيد هو أساس معرفة الله الذي نعبده، وأننا لا يمكن أن نعبده- بمفهوم العبادة الذي سنفصله في الركن الثاني- إلا إذا عرفناه، فتوحيد المعرفة والأسماء والصفات هو أصل توحيد العبادة وأصل الدين كله.

١-٢: أن يدرك – تمام الإدراك- أن من لم يتحقق بهذا التوحيد، فهو محجوب عن الله، خاسر في الدنيا، مخلد في النار في الآخرة، ويبرهن على ذلك بالآيات والأحاديث المذكورة في كتب التوحيد التي أشرنا إليها.

ومن ذلك ما أخرجه ابن أبى شيبة بسند صحيح عن نافع بن جبير أن رسول الله ﷺ بعث بشر بن سحيم الغِفَاري يوم النحر ينادي في منى: «**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»(١٥٠)، «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا..**» **الحديث**(١٥١)، فالإيمان شرط دخول الجنة، كما هو شرط للنجاة من الخسران، ﴿**وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ [العصر: ١-٣]، وأصل الإيمان كله هو توحيد الله، معرفة وإثباتًا.

١-٣: أن يعرف معرفة صحيحة آثار هذا التوحيد في القلب والخُلُق، وقد ذكرنا في القواعد السابقة ما يكفى لإثارة الشوق لاكتساب هذا التوحيد، فهو سبيلنا لتمجيد الله، ودعائه، وعبادته، وتزكية قلوبنا، وتحسين أخلاقنا، ودخول جنة ربنا، فكما أحصينا أسماءه – بالمفهوم السابق- فتح الله باب رحمته، وأدخلنا جنته: «**من أحصاها دخل الجنة**».

---

(١٥٠) قال الألباني: حديث صحيح، وصله الشيخان عن ابن مسعود وغيره، كتاب الإيمان، رقم١٢، ص ٦، ٧.

(١٥١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢ (مناهل العرفان) رقم ٥٤، ص ٣٥.

١-٤: أن يتفهم ما قررناه في الفصل السابق من أن منهج التربية النبوية يقوم على تربية الإيمان أولا: «وإن الإيمان يُعْطَى العَبْدُ قبل القرآن» «فتعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا» إلخ.

فيتبع هذا النهج في إخراج الشخصية المسلمة إلى عالم الواقع، فهذا أول واجب على الإنسان.

١-٥: أن يدرك أن فطرته تنزع إلى معرفة الله، والتعبد له، فمخاطبة الفطرة الإنسانية وإيقاظها، عليه مُعَوَّلٌ أساسي لتوحيد الله، فالشيطان وسوء التنشئة والتربية التي تغير الفطرة الإنسانية هما عاملا الإبعاد عن التوحيد، وتربية التوحيد في القلب والخلق،هي وحدها التي تعيد الإنسان إلى فطرته السليمة وتحدث الانسجام في النفس الإنسانية.

١-٦: أن يدرس حالة النبي ﷺ مع أسماء الله الحسنى، وكيف كان يمجده، ويتثنى عليه في ذكره ودعائه، واستغفاره بالليل والصباح، والمساء وحين تظهرون، فذلك مما ينمى الشوق إلى التحقق بتوحيد المعرفة والإثبات.

١-٧: أن يلتفت إلى حكايات المتعبدين بأسماء الله الحسنى مثل حال سيدنا إبراهيم الخليل ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٧ – ٧٩] وإلى حال الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الذي كان يتمثل بقول الشاعر:

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تُخْفى عليه يغيب

وغير ذلك مما يثير الشوق إلى السفر إلى الله، والهجرة إليه بتوحيده.

١-٨: أن يتضرع إلى الله- بأسمائه الحسنى- أن يوفقه للتحقق بتوحيده، معرفة وعملا، وتعبدا، وتخلقا، وأن يحرك فيه الشوق لذلك، قائلا – مثلا:

اللهم افتح لي باب معرفتك، وحققني بتوحيد أسمائك وصفاتك، وانشلني من الجهل بك، واغمسني في بحار حبك وعبادتك، وتوحيدك. يا مقلب القلوب، يا مصرف القلوب،صرف قلوبنا إلى طاعتك، وإلى معرفتك، والتحقق بموجبات أسمائك الحسنى.. يا الله، اجذب قلوبنا إلى معرفتك جذبة لا تبقي فيها شيئا لأحد بعدك..إلخ .

١-٩: أن يتيقن أن سعادته في الدنيا والآخرة هي أن يعرف الله، ويعبده، كما يحب، وأن ذلك لا يكون أبدا وهو جاهل بالله- سبحانه، فكيف يكون الحال إذا مات الإنسان على هذا الوضع؟

٢- الدراسة للتنفيذ:

أعني: أن يكون هدف الدراسة التالية أن يعرف، ويؤمن، ويتعبد، ويتخلق، ويدعو، ويعتقد اعتقادًا صحيحًا موافقًا لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهذه الدراسة هي دراسة للتعلم الذاتي، أو للتعلم التعاوني، من خلال برنامج منظم، جاد، ومستمر حتى إنجاز أهدافه، وهي دراسة بعيدة عن الكتب الجدلية، بل تكون كما يلي:

٢-١: جمع آيات القرآن الكريم، في كل اسم، وكل صفة، ودراسة معانيها من كتاب تفسير معتمد مثل الطبري وابن كثير، فيتفهم المعنى، ويتصوره تصورًا صحيحًا، ويتذوقه، وينزله في القلب، ويوقعه في وسطه، ويرسخه فيه، ويجريه على خاطره، ويسلم لمعناه، ويحصي الاسم، إحصاء يدفعه للعمل بمقتضاه، ويتلو آيات كل اسم، بتخشع وتفكر، ويجريها على قلبه، ويطبق القواعد العشر السابقة عليها، فكل ذلك يكوّن الإيمان بالله، وينمى المعرفة به، ويزيد الإيمان، أي: يربيه.

٢-٢: أن يحفظ هذه الآيات التي جمعها وخصوصا آية الكرسي، وأول آل عمران، وآخر الإسراء، وأول غافر، وآخر الحشر، وأول السجدة، وأول

الحديد، وأول طه، وسورة الإخلاص، ويقرأ بها في صلواته، ويقوم بها ليلة لله، ويذكر الله ببعضها، صباحًا ومساءً، ويتمعن في معانيها، ويدرب نفسه على التعبد، والتخلق بموجباتها، كلما أمكنه ذلك.

٢-٣: أن يجمع ما صح من حديث رسول الله ﷺ في أسماء الله وصفاته، وخصوصا من كتاب التوحيد في صحيح البخاري، والأسماء والصفات للبيهقي، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للطبري اللالكائي، والأسنى للقرطبي، مطبقا عليها القواعد السابقة، ويحفظ بعضها، ويجري معانيها على خاطره.

٢-٤: أن يحفظ الأذكار والأدعية النبوية الغنية بأسماء الله الحسنى، وأن يتفهم معانيها، ولماذا دعا النبي وتوسل بهذه الأسماء؟ ويرددها، على قلبه، وبلسانه، ويكرر ذلك، صباحًا ومساءً، وكلما دعا الله في حاجة.

٢-٥: أن يدرس معاني أسماء الله الحسنى من أي كتاب صحيح، وخصوصا الأسماء والصفات للبيهقي (شرح فيه ١٥٤ اسما لله- تعالى) والأسنى للقرطبي، وهو أهم من السابق في هذا الخصوص، من حيث الاهتمام بتوضيح المعنى، ومبدأ التخلق بموجبات الأسماء، (شرح فيه ١٢٥ اسما لله تعالى- تقريبا) وكتاب الأسماء والصفات لعمر الأشقر، وأمثال ذلك، مستصحبا دائما القواعد العشر السابقة.

٢-٦: أن يعمل – وحده أو من يرغب – دورة تربوية روحية، في معسكر ذاتي، دائم لمدة ثلاثة أشهر، في كل يوم ساعتان، تقريبًا، وفي الليل أفضل، يخصصها لتدبر معاني أسماء الله الحسنى، وتمجيد الله بها، والصلاة بآياتها، دراسة أحاديثها، والتعود – بشكل مقصود ومتعمد، ومبرمج- على التخلق بقيمها، ويعتمد لذلك كتاب الأسنى، وكتاب البيهقي، وهذا الفصل.

٢-٧: اتخاذ أساليب مبتكرة للتذكر الدائم لهذه الأسماء مثل عمل قائمة أو

عدة قوائم، على شكل (بوستر)، أو لوحة يحدد فيها الاسم - الأدلة عليه، معناه، التعبد به- التخلق بموجبه، ثم يُترك فراغ من نهرين لتحديد: هل يراعي ذلك، أم لا؟ تكون معه، أو يعلقها ليراها، مباشرة، ليتأمل فيها، ويحاسب نفسه: هل عملت بموجب ذلك الاسم أم لا؟ مثلا: الرزاق، الآيات- الأحاديث- المعنى- التعبد- التخلق - هل أفهم المعنى؟ هل تعبدت به؟ هل تخلقت بموجبه؟ وهكذا مع جميع الأسماء، إما فرادى، وإما على شكل قوائم للتقويم الذاتي.

وهذا أسلوب تربوي، لا يخالف السنة، لأنه يتدرج تحت مبدأ إحسان التعليم، والتعلم، وهو مبدأ إسلامي.

٢-٨: أن تنظم سلسلة دروس، أو محاضرات، أو تسجل أشرطة عامة، في أسماء الله وصفاته، معتمدة على القرآن والسنة الصحيحة، وما صح من كتب العلم فيها، بمراعاة القواعد العشر المذكورة هنا، ويمكن أن تبنى هذه الدروس على المضمون الذي تناولناه في هذا الفصل، لإثارة وعي المسلمين وشوقهم لهذا الأصل، ولإكسابهم معرفة بالله، وسبيلا لعبادته.

٣-الممارسة والتعود:

فالخير عادة- كما جاء في حديث صحيح خرّجناه سابقًا- وذلك بأن يشرح في تطبيق مفهوم الإحصاء، ومفهوم التعبد، ومفهوم التخلق، المذكورة في هذا الفصل، وذلك كما يلي:

٣-١ : أن يجري معنى كل اسم على قلبه وعقله.

٣-٢ : أن يتعبد بموجب كل اسم على حسب ما ذكره ابن القيم.

٣-٣ : أن يتخلق بموجب كل اسم على حسب ما ذكره ابن القيم.

٣-٤ : أن يثني على الله، ويمجده، ويدعوه، متوسلًا بأسمائه الحسنى، ويلتزم ما ورد في السنة الصحيحة من ذلك.

٣-٥: أن يمر آيات وأحاديث الصفات على ظاهرها، مؤمنا أن الله ليس كمثله شيء.

٣-٦: أن يعمل بمقتضى توحيد المعرفة وهو أن يعبد الله وحده، ويبرأ من عبادة غيره.

هذه الممارسات مجتمعة هي أساس اكتساب توحيد المعرفة والأسماء والصفات، وتوحيد العبادة.

٤- التفكر في آيات الله الكونية، والآفاقية والنفسية:

وهذه وسيلة قرآنية: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ [يونس: ١٠١].

وهذا هو الإحصاء النظري نسبة إلى النظر، أي: التفكر والاعتبار، وهو تفكر يسير في محورين، **الأول:** استدلال وجود الله وبعض صفاته من خلاله.

الثاني: النظر لآيات الله وآلائه في الآفاق الكونية والنفسية الإنسانية من حيث هي مظاهر لتجليات أسماء الله الحسنى.

فتنظر في الخلق في ضوء صفة الخالق البارئ، المصور، البديع.

وتنظر في النعم في ضوء صفة المنعم والوهاب.

وتنظر في هداية الكائنات إلى ما ينفعها، واجتناب ما يضرها، في ضوء اسم الله الهادي، الرحمن، اللطيف.

وتنظر في تقليب الليل والنهار، وإنبات النبات من البذور وانبساق في ضوء فالق الإصباح، وفالق الحب والنوى.

وتنظر في أحوال الهداية والضلال في ضوء مقلب القلوب ومصرفهما.

وتنظر فيما يحدث للناس والكائنات من حياة وموت، وعز وذل، وفقر وغنى، ورفع وخفض،.. إلخ في ضوء أسماء الله المحيي، المميت، المعز، المذل، المغني، الرافع الخافض، ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩].. إلخ.

فالكون كله، والبشر كلهم، مجالي دائمة لتجليات أسماء الله الحسنى.

فيا لها من وسيلة، تجعلنا مع الله، ولله، وبالله، في كل وقت، وتجعل قلوبنا متعلقة به وحده.

ز- بهذا كله نحكم في قلوبنا ونفوسنا، وأخلاقنا الركن الأول في الإيمان والتوحيد، لندخل إلى الركن الثاني وهو:

٣- الركن الثاني في الإيمان: توحيد العبادة والقصد:

أ- هذا الركن هو غاية الركن السابق، ولازِمُه، فإذا آمنا بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، مدبر الأمر، مالك الملك، النافع الضار..إلخ، الموصوف بكل كمال، المقدس عن كل عيب، فإن لازم ذلك أن نعبده، وحده، ولا نعبد غيره، ولهذا يقول الله- تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٢١، ٢٢]، فالله- تعالى- يأمر الناس ويدعوهم أن يعبدوه بالاستكانة والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له، والعبادة، دون غيره لأنه هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم، فقال لهم جل ذكره: فالذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو يقدر على ضركم ونفعكم- أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضر، والعبادة: الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة، فأفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه، لعلكم تتقون- بعبادتكم ربكم الذي خلقكم، وطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإفرادكم له العبادة – لتتقوا سخطه وغضبه أن يحل عليكم، وتكونوا من الذين رضي عنهم ربهم.

والله الذي تعبدونه الذي خلقكم هو الذي جعل لكم الأرض مهادا وموطئا وقرارا يستقرون عليه، نعمة منه لكم، لتذكروا نعمه فتنيبوا إلى طاعته،

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، فالذي خلقهما وخلق جميع ما فيهما، وما هم فيه من النعم هو المستحق عليهم الطاعة، والمستوجب منهم الشكر والعبادة دون غيره ما لا يضر ولا ينفع ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطرًا، فأخرج بذلك المطر، مما أنبتوه في الأرض من زرعهم وغرسهم، ثمرات، رزقا لهم؛ غذاء وأقواتًا، فالذي خلقهم هو الذي يرزقهم ويكفلهم دون من جعلوه له ندا وعدلا، فلا تجعلوا له ندا، فإنه لا ند له، ولا عدل ولا لهم نافع ولا ضار ولا خالق ولا رازق سواه، فنهاهم أن يشركوا به شيئا، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له ندا وعدلا في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكي إياكم، ونعمتي التي أنعمتها عليكم فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكا وندا من خلقي، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم مني، وأنني أنا الذي خلقتكم، ورزقتكم، وأنه لا شريك لي في الخلق والرزق، فلا تشركوا معي غيري في العبادة(١٥٢).

وقال ابن كثير: «شرع- تبارك وتعالى- في بيان وحدانية ألوهيته: بأنه- تعالى- هو المنعم على عبيده؛ بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] ، أي: مهدا، كالفراش،.. موطأة. مثبتة بالرواسي الشامخات ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وهو السقف(...) ومضمونه: أنه الخالق الرازق، مالك الدار وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله: أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندا، وهو خلقك..**» الحديث،(...) عن ابن عباس قال: قال الله- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وحدوا ربكم

(١٥٢) ملخصا من: ابن جرير الطبري، جامع البيان، مجلد ١، ج١، ص ٢١٣- ٢١٩ .

الذي خلقكم والذين من قبلكم، ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره، من الأنداد، التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد، هو الحق الذي لا شك فيه (...) ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[١٥٣].

فتوحيد المعرفة هو الحجة المقدمة لتوحيد العبادة، في الآيات السابقة، وقد جاء في حديث يحيى بن زكريا: «**إن الله أمرني بخمس كلمات: أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالصي ماله، بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدى غَلَّتَهُ إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا**» الحديث بطوله، أخرجه أحمد، قال ابن كثير: هذا حديث حسن[١٥٤].

ونخلص من ذلك إلى أن: توحيد المعرفة هو الأساس لتوحيد العبادة، الذي هو لازم ونتيجة توحيد المعرفة والأسماء والصفات.

ب- وتوحيد العبادة هو غاية الوجود الإنساني التي حددها الله ذاته للإنسان فقال- تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذا النص يحتوي على الحقيقة الكبرى التي لا تستقيم حياة الإنسان بدون إدراكها والعمل بها وأول جانب من هذه الحقيقة أن الله حدد غاية لوجود الجن والإنس، وهي وظيفة من قام بها وأداها؛ فقد حقق غاية وجوده، وهذه الوظيفة هي العبادة، التعبد لله، وهي وظيفة الإنسان في الأرض، أن تستقر في نفسه حقيقة معنى العبودية لله، وأن يتوجه له بكل حركة في الضمير وفي الجوارح وفى الحياة، يتوجه بها لله وحده، خَالِصَةً، وأن يتجرد من كل شعور

(١٥٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٥٧، ٥٨ .

(١٥٤) المصدر السابق، ج ١ ،ص ٥٨ .

آخر، ومن كل معنى آخر، غير معنى العبودية(١٥٥).

جـ- ولتحقيق هذا الركن أنزل الله شريعة الإسلام، فقد قرر الشاطبي في نص جامع: «إن الشريعة: إنما جاءت لتخرج المكلفين عن دواعي أهوائهم، حتى يكونوا عبادًا لله (...) المقصد الشرعي من وضع الشريعة: إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارا. والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله، والدخول تحت أمره، ونهيه، كقوله- تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق، وبتفاصيلها على العموم، فذلك كله راجع إلى الرجوع إلى الله في جميع الأحوال، والانقياد إلى أحكامِهِ على كل حال، هو معنى التعبد لله(...)»(١٥٦).

د- وهذا الركن، والذي يتأسس عليه من توحيد المعرفة والأسماء والصفات، هو الذي أرسل الله به جميع الرسل، ودعا إليه كل نبي مرسل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال الله- تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ..﴾ [النحل: ٣٦]، فدعوة كل رسول هي: «أن نعبد الله وحده، وأن نجتنب الطاغوت، وهو كما يعرفه الطبري: كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمنْ عبده، وإمَّا بطاعة ممن عبده له؛ إنسانا كان ذلك المعبود أو

---

(١٥٥) ملخصا من: سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٦، ط ٣١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م، ص ٣٣٨٦، ٣٣٨٨ ويرجع لهذا النص كله، ويدرس فإنه مهم، وعليه نور.

(١٥٦) أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، المجلد الثاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ٣٨، ص ١٦٨، ١٦٩ .

شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء»[١٥٧].

وقال ابن القيم: «والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه، غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله: فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتَها وتأملتَ أحوال الناس معها؛ رأيت أكثرهم خرجوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول، إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته»[١٥٨].

وقال الشوكاني: «والطاغوت: فعلوت: من طغى يطغى، ويطغو، إذا جاوز الحد، وقال أبو على الفارسي: إنه مصدر، كرهبوت، وجبروت، يوصف الواحد والجمع، (...) قال الجوهري والطاغوت: الكاهن والشيطان، وكل رأس في الضلال(...) وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس قال: الطاغوت: ما يعبد من دون الله»[١٥٩].

هـ- وقد أمر الله أن نعبده وحده، ونخلص له الدين، ولا نشرك به أحدا؛ فقال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٩٢]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وهذا هو الإسلام العام والدين الذي لا يقبل الله سواه «ودين الله الذي هو الإسلام مبنى على أصلين: على أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيء وعلى أن يعبد بما شرعه، على لسان رسوله ﷺ، وهذا هما حقيقة قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فالإله: هو الذي تؤلهه القلوب؛ عبادة واستعانة

---

(١٥٧) ابن جرير الطبري: جامع البيان، ج ٣، ص ٢٥.

(١٥٨) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج١، ص ٤١.

(١٥٩) الشوكاني: فتح القدير، ج١، مصدر سابق، ص ٤٧١-٤٧٣.

وتعظيما، ومحبة، وخوفا، ورجاء، وإجلالا، وإكراما، والله- عز وجل- له حق لا يشاركه فيه غيره، فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يطاع إلا الله»(١٦٠).

و- وهذا الركن هو الكلمة السواء، العدل التي دعا إليها رسول الله ﷺ: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٦٤]، قال ابن كثير: «والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال ها هنا، ثم وصفها بقوله: **﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾** أي: عَدْل ونَصف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: **﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾**، لا وثنا، ولا صليبا، ولا صنما، ولا طاغوتا، ولا نارا، ولا شيئا، بل نفرد العبادة لله، وحده، لا شريك له، (...) ثم قال الله- تعالى: **﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾**، وقال ابن جريج: يعنى: يطيع بعضنا بعضا في معصية الله(...) **﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** أي: فإن تولوا عن هذا النَّصفِ وهذه الدعوة؛ فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم»(١٦١).

ز- وهذا الركن هو حق الله وحده، وأول واجب على العاقل،أخرج البخاري عن أبي معبد سعيد مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عباس يقول: لما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى نحو أهل اليمن؛ قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله- تعالى- فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات**».. الحديث(١٦٢).

---

(١٦٠) ابن تيمية: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ص ١٦٢، ونفس المعنى في: العبودية (ط المكتب الإسلامي)، ص ٧٤.

(١٦١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص ٣٧١.

(١٦٢) فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٣٧٢، ص ٣٤٧ .

ورواه في الزكاة بلفظ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله...**»(١٦٣). وأخرج البخاري عن معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ: «**يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. أتدرى ما حقهم عليه؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**ألا يعذبهم**»(١٦٤).

ح- ومن تحقق بهذا الركن فقد جعل الدين كله لله، ومن لم يتحقق به، ولم يكن مستوفيا له، لم يكن مؤمنا، ولا مسلما، ولا موحدا، وكان مخلدا في النار إذا مات على ذلك، قال الله- تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ**﴾ [الزمر: ١١- ١٨] ويقول الله- تعالى: ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٤- ٦٦].

ط- وتوحيد العبادة هو المقوم الأساسي في ملة إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [العنكبوت: ١٦، ١٧]، وهي الملة التي

---

(١٦٣) المصدر السابق، ج٣، رقم ١٤٥٨، ص ٣٢٢، وأخرجه مسلم: إكمال المعلم، ج١، رقم ٣١، ص٢٣٩.

(١٦٤) فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٣٧٣، ص ٣٤٧. وأخرجه مسلم: إكمال المعلم، ج١، أرقام ٤٨ – ٥١، ص ٢٥٩ – ٢٦٢.

هدى الله محمدًا إليها: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١- ١٦٣]، وهي الملة التي أمر الله أن نتبعها: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا..﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا..﴾ [النحل: ١٢٣] وهذا هو أحسن الدين: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء:١٢٥]، والمؤمنون هم أولى الناس بإبراهيم ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨]، ولهذا كان هو الإمام للناس، والأمة، وخير البرية، كما روى مسلم عن النبي ﷺ: «**إن إبراهيم خير البرية**».

فالذي يحقق توحيد العبادة بأركانه الآتية هو من أولى الناس بإبراهيم، أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ.

ي-إذا كان هذا الركن بهذه الأهمية والخطورة، فإن الواجب الذي يلزمنا ويتعين علينا- فورا – هو أن نفقه ونعي جيدا (معنى العبادة) وأركانها، وآثارها، في القلب والسلوك، ففرض عين على كل منا أن يعلم ذلك؛ لأن توحيد العبادة يعتمد عليه نجاحنا في أداء وظيفتنا في الحياة، وإلا كيف نعبد الله، ونحن نجهل معنى العبادة وأركانها، وشروطها؟

وقد بحثت، ودرست، طويلا، فتبين لي أن حد العبادة يتركب من مقومات خمسة لا بد منها مجتمعة، حتى يتحقق الإنسان بحد العبادة لله، والإسلام له، وبحقيقة الإيمان، وقبل أن أذكرها محددة مقررة أثبت بين يديها هذه النصوص المهمة عن مفهوم العبادة.

د- مفهوم العبادة:

١ – قال ابن منظور: «وأصل العبودية: الخضوع والتذلل(...) وعَبَدَ اللهَ،

يعبده، عبادة: تَأَلَّه لهُ.. والتعبد: التنسُّك، والعِبَادة: الطاعة (...) وقوله- عز وجل: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾؛ أي: أطيعوا ربكم (...) والمُعَبَّدُ: المُذَلَّلُ، والتَّعَبُّد: التذلُّل (...) والتعْبيد: التذليل، وبعير مُعَبَّد: مُذَلَّل، وطريق مُعَبَّد: مسلوك مذلل»(١٦٥).

فمادة العبادة تعني: الخضوع والتذلل، والانقياد والطاعة.

يقول الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة: أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا مَنْ له غاية الإفضال، وهو الله- تعالى (...) ويقال: «طريق مُعَبَّدٌ: أي: مُذَلَّلٌ بالوطء، وبعير مُعَبَّد: مُذَلَّلٌ بالقطِران وعَبَّدتُ فلانا: إذا ذلَّلْتُه، وإذا اتخذته عَبْدًا»(١٦٦).

إذن العبادة هي غاية التذلل والخضوع، والانقياد والطاعة، والتأله، وقد بنى علماء التفسير تحديدهم لمفهوم العبادة على هذا المفهوم اللغوي، يقول الطبري في تفسير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]: «وتأويل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: لك اللهم نخشع، ونذل ونستكين؛ إقرارا لك يا ربنا بالربوبية، لا لغيرك، كما حدثنا أبو كريب (وذكر السند) عن عبد الله بن عباس ؛ قال: قال جبريل لمحمد ﷺ: قل، يا محمد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: إياك نوحد ونخاف، ونرجو يا ربنا، لا غيرك. وذلك من قول ابن عباس بمعنى ما قلنا، وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نخشع، ونذل ونستكين، دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونخاف، وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة، أن العبودية عند جميع العرب، أصلها: الذلة..إلخ»(١٦٧). وعليه بنى ابن كثير، فقال: «والعبادة في اللغة: من الذلة، يقال: طريق معبد، وبعير معبد، أي: مذلل، وفي الشرع:

---

(١٦٥) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، دار المعارف، ص ٢٧٧٦- ٢٧٧٩.

(١٦٦) الراغب: المفردات، ص ٣١٩، ٣٢٠.

(١٦٧) ابن جرير الطبري: جامع البيان، ج١، ص ٩٥، ٩٦.

عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وقدم المفعول؛ وهو: إياكَ، وكرر؛ للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين»(١٦٨).

٢- وهذا ما قرره ابن القيم، يقول في المدارج: «والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب، بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد؛ أي: مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أَحْبَبْتَه، ولم تكن خاضعا له، لم تكن عابدا له، ومن خضعت له، بلا محبة، لم تكن عابدا له، حتى تكون محبا خاضعا»(١٦٩).

وقد حلل شيخه ابن تيمية حَدّ العبادة في رسالة العبودية، يقول: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم، والمسكين وابن السبيل، والمملوك من (...)البهائم، والدعاء، والذِّكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك: هيَ من العبادة لله.

وذلك: أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها (...)، فالدين كله داخل في العبادة(...)، والدين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دِنْتُه؛ فَدَانَ؛ أي: أذللته فَذَلَّ، ويقال: يَدِين اللهَ، ويدين لله، أي: يعبد الله ويطيعه، ويخضع له، فدين الله: عبادته وطاعتهُ والخضوع له.

---

(١٦٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم؛ ج ١، ص ٢٥.

(١٦٩) ابن القيم: مدارج السالكين، ج١، ص ٥٩.

والعبادة: أصل معناها: الذل أيضا، يقال: طريق معبد: إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام.

لكن العبادة المأمور بها: تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله- تعالى- بغاية المحبة له (...)، ومن خضع لإنسان، مع بغضه له، لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا، ولم يخضع له، لم يكن عابدا له؛ كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله- تعالى- بل يجب أن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله، (...)، وهذه العبادة: متعلقة بالإلهية لله- تعالى- ولهذا كان عنوان التوحيد: «لا إله إلا الله»، بخلاف من يقر بربوبيته، ولا يعبد معه إلها آخر .

فالإله: هو الذي يؤلهه القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، ونحو ذلك، وهذه العبادة: هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين من عباده، وبها بعث رسله. (...) «والعبادة، والطاعة، والاستقامة، ولزوم الصراط المستقيم، ونحو ذلك من الأسماء، مقصودها واحد، ولها أصلان: أحدهما: أن لا يعبد إلا الله. الثاني: أن لا يعبده إلا بما أمر وشرع، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع (...) وجماع الدين: أصلان: أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع(...) وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدا رسول الله:

ففي الأولى: ألا نعبد إلا إياه.

وفي الثانية: أن محمدا هو رسوله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره، وقد بين لنا ما نعبد الله به»[١٧٠].

---

(١٧٠) شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: العبودية، ط المكتب الإسلامي، ط ٦، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣، ص ٣٨، ٤٣، ٤٤، ٥١، ٧٤، ١٧٠، ١٧١.

وتأمل نص ابن تيمية يكشف عن تحليل دقيق يبين أن العبادة تتركب من أربعة مقومات:

-كمال الخضوع والتذلل، باطنا، وظاهرا، لله وحده.

-كمال المحبة له.

-أداء ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

-الانقياد والتزام الطاعة للشريعة المنزلة على سيدنا محمد ﷺ.

فالعبادة تعني: التدين بدين الله، وتشمل الدين كله، وتشمل الحياة كلها، والسلوك الإنساني كله، ظاهرا وباطنا.

٣- وهذا ما بينه سيد قطب كذلك، قال في تفسير: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، في نص عليه نور الحق؛ يقول: «وإن هذا النص(...) ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها.

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة.

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة: هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفة، مَنْ قام بها، وأداها؛ فقد حقق غاية وجوده، ومن قصَّرَ فيها، أو نَكَل عنها؛ فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به من الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق الذي يصيب كل كائن ينقلب من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء.

هذه الوظيفة المعينة، التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود: هي العبادة لله، أو هي العبودية، من أن يكون هناك عبد ورب، عبد يَعْبُدُ، ورب يُعْبَدُ، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار.

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة؛ ويتبين أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم. وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن: من قول الله-تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فهي الخلافة في الأرض – إذن- عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وتربية الحياة فيها..كما تقتضي الخلافة، القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي(...).

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة، التي هي غاية الوجود الإنساني، (...) أوسع وأشمل من مجرد الشعائر؛ وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا، وأن حقيقة العبادة تتمثل – إذن – في أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي: استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا، عبدا يتعبد، وربا يعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس(...) إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد، والكل له عبيد.

والثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله، خالصة، والتجرد من كل شعور

آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة؛ ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد، والرضا بقدر الله..كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خاضع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه»(١٧١).

٤- ويشرح ابن القيم مفهوم توحيد العبادة، عندما بَيَّنَ كلمة الجنيد المضيئة في حد التوحيد: إفراد القديم من المحدث، وقد ذكرنا النوع الأول من الإفراد في توحيد المعرفة والإثبات، قال: «والنوع الثاني من الإفراد: إفراد القديم عن المحدَثِ: بالعبادة؛ من التأله، والحب، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والإنابة، والتوكل، والاستعانة، وابتغاء الوسيلة إليه، فهذا الإفراد، وذلك الإفراد، بهما بعثت الرسل، وأنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، ولأجل ذلك خلقت السموات والأرض، والجنة والنار، وقام سوق الثواب والعِقاب، فتفريد القديم- سبحانه- عن المحدث في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وفي إرادته وحده، وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والاستعانة، والحلف به، والنذر له، والتوبة إليه، والسجود له، والتعظيم والإجلال، وتوابع ذلك»(١٧٢).

وهذا هو التوحيد الذي ينفي الشرك الأعظم.

فالعبادة تعني التوبة لله- تعالى- بأعمال القلب والجوارح وبكل ما يسمى عبادة ونسكا. قال في المدارج: «فالله- تعالى- إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له، والانقياد لأمره. فأصل العبادة: محبة الله، بل

---

(١٧١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٦، مصدر سابق، ص ٣٣٨٦، ٣٣٨٧، من الضروري الرجوع للنص كاملا، ودراسته، وعلى نفس المنهج سار يوسف القرضاوي في كتابه النافع: العبادة في الإسلام، فيدرس هو الآخر، وهو مبني- في الواقع - على رسالة العبودية لابن تيمية.

(١٧٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٣، ص ٤٦٥.

إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله، وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله، وملائكته، وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل- تعالى- اتباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها، وشاهدا لمن ادَّعاها؛فقال- تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله مشروطا بمحبتهم لله، وشرطا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، وتحققُه بتحققه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل، إذًا، ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ، هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما ،فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومن كان عنده شيء أحب إليه منهما؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتةَ، ولا يهديه الله، قال الله- تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو

خوف أحد منهم ورجاءه، والتوكل عليه، على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه؛ فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله، فذلك المقدم عنده أحب إليه من الله ورسوله (...) وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، مِن قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح. فالعبودية اسم جامع لهذا المراتب الأربع، فأصحاب (إياك نعبد) حقا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله- سبحانه- به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته، وأفعاله، وملائكته، ولقائه، على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه (الدفاع..) وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به، وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه (والتواضع والخشوع..) والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أَفْرَضُ من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها: إما عديم المنفعة، أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها..»[١٧٣].

---

(١٧٣) ابن القيم: مدارج السالكين ج ١، ص ٧٧ – ٧٩.

٥- ويبني المودودي على نفس الأصل اللغوي، متبعا منهج علماء السلف، وهو أن العبادة مشتقة من لفظ (عَبَدَ) فيذكر أنها مثل لفظ: عَبْد، فالعبادة: أن نعمل ونؤدي واجباتنا كما يعمل ويؤدي العبد واجباته والشخص يكون عبدا لشخص آخر؛ حين يعيش (كل حياته) يؤدي الخدمة والطاعة له، ويسلك نحوه كما يسلك العبد نحو سيده، فإذا لم يفعل ذلك كان متمردا على سيده.

الواجب الأول على العبد: أن يأخذ مالكه- وحده- سيدا له وربا، ينبغي عليه أن يخلص له وحده، لأنه الذي يرزقه ويحميه، ولا يعطي: إخلاصه وخضوعه لأحد آخر.

الواجب الثاني على العبد: أن يكون- دائما- مطيعا لسيده؛ أن يؤدي كل أوامره، على الفور، وبدقة، وأن يتخلص من اتباع رغباته الخاصة، ومن اتباع آراء أي شخص آخر؛ تتعارض مع رغبات سيده، وذلك في كل لحظة،وفي كل الأحوال والظروف. فليس للعبد حق الاختيار في أن يطيع أمرا، أو لا يطيع آخر، أو أن يقول: إنه سيكون عبدا مطيعا إذا كان الأمر مناسبا له وموافقا لمزاجه، ويتجاهل أوامر سيده في الأحوال الأخرى

الواجب الثالث للعبد نحو سيده: أن يقدر سيده، وأن يحبه، وأن يعبر عن تبجيله، وذلك بأن يتبع الطرق التي وضعها سيده نفسه للتعبير عن المحبة والتبجيل، وأن يحضر نفسه أمام سيده، وقتما يدعوه سيده للحضور.

هذه هي الخصائص الثلاث التي يتكون منها- معا – مفهوم العبادة: الإخلاص والخضوع لسيد واحد، والطاعة له، والاحترام والتبجيل.

وما يريده الله منَّا؛ حين قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هو أننا: ينبغي أن نخضع ونخلص له وحده، دون غيره، وأن نتبع أوامره وحده دون غيره، وأن نبجله وحده بأن نستسلم له حين يدعونا، وليس هناك إلا سيد واحد ينبغي أن نخضع له، وليس هناك إلا قانون واحد ينبغي أن نطيعه، وهو

قانون الله- تعالى.

فحد العبادة: هو أن تتبع في كل خطوة من حياتك- قانون الله، وترفض أن تطيع كل القوانين التي تتعارض مع قانون الله، وأن تفعل أيَّ شيء تفعله طبقا للإرشاد الذي أنزله الله، وبهذا تصبح حياتك كلها عبادة لله، سواء نمت أو استيقظت، وعندما تأكل وتشرب، وتنام أو تعمل، عندما تتكلم أو تصمت كلها تكون أفعال عبادة، حتى عندما تذهب لزوجتك، وتقبل أطفالك، فإنك تعبد الله، بهذه الأعمال، وتصبح متدينا له حين تلتزم الحدود التي وضعها الله، وتبقى واعيا – في كل لحظة – بالحلال الذي أحله الله، والحرام الذي يحرمه الله، ويقظ الضمير بما يرضي الله وما يغضبه، ففي كل لحظة تفعل ما يريده وما يرضيه، وتجتنب ما يغضبه: فأنت عابد لله- تعالى- عندما ترفع حجرا أو شوكا من الطريق، عندما تعود مريضا، أو ترشد أعمى، أو تغيث إنسانا من كرب، عندما تجتنب الكذب، والغيبة، والنميمة، والسخرية بالناس، وعندما تتحرر من إيذاء الناس، وعندما تلتزم بالصدق والأمانة.

إن العبادة الحقيقية- إذن- هي أن نتبع الطريق الذي شرعه الله، وأن نعيش طبقا لأوامره وشرائعه، وهذه العبادة: يجب أن تؤدى في كل وقت، وفي كل شيء، نقوله، أو نفعله، يجب أن تعبد الله، وكما أنك لا يمكن أن تقول: أنا عبد لله في كل وقتٍ معين، ولست له عبدا في وقت آخر؛ فكذلك: لا يمكن أن تقول: أطيع قانون الله، في وقت دون آخر.

إذا كنت – حقيقة – تحب الله، وتخاف منه، فإن كل أفعالك يجب أن تنبثق من هذه المشاعر، وبالتالي تكون أعمالك كلها عبادة مستمرة(١٧٤).

---

(١٧٤) ص ١٣٥-١٤٠ / let,s be muslins.p.p

وهذا الكتاب مترجم إلى العربية بعنوان: خطب الجمعة: ولكن ليس بحوزتي إلا النسخة الإنجليزية الآن، وقد قرأت الاثنين، معا.

وهذا كلام عليه نور الحق.

وقد بين المودودي- رحمه الله- في المصطلحات الأربعة هذا المفهوم استنادا إلى الاستعمالات اللغوية لمادة: عَبَدَ. وتأسيسًا عليه: فالعبادة أن يذعن المرء لعلو أحد، وغلبته، وينزل له عن حريته واستقلاله، ويترك إزاءه كل عصيان، وينقاد له انقيادا، .. وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي طاعة سيده، واحترام وامتثال أوامره، فحتما ينبع تصور العبادة، تصور الإطاعة، ومع الطاعة والتذلل فإن العبد يعتقد بعلاء سيده، ويعترف بعلو شأنه، وقلبه مفعم بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، وبالتالي فإنه يبالغ في تمجيده وتعظيمه وشكره، وأداء شعائر العبودية له، كل ذلك تنسكا وتعبدا وتألها، فالعبد لا يخضع رأسه لسيده فحسب، بل يخضع من قلبه أيضا(١٧٥).

إذن، عبادة الله تعني: الالتزام بما شرع الله، ودعت إليه رسله، أمرا ونهيا، وتحليلا وتحريما، وهذا هو الذي يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله «فليس عبدا ولا عابدا لله مَنْ رفض الاستسلام لأمره، واستكبر عن اتباع نهجه، والانقياد لشرعه، وإن أقر بأن الله خالقه ورازقه، فقد كان مشركو العرب يقرون بذلك، ولم يجعلهم القرآن بذلك مؤمنين، ولا عبادا لله طائعين، فخضوع الإقرار بالربوبية لا يكفي، وخضوع الاستعانة والاستغاثة في الشدائد لا يكفي، ولابد من خضوع التعبد والانقياد والاتباع، الذي هو حق الألوهية، وبهذا يتحقق معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأساس الخضوع لله- تعالى- هو الشعور الواعي بوحدانية الله- تعالى- وقهره لكل من في الوجود وما في الوجود (...) ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦] أساس الخضوع لله الواحد القهار هو الشعور الذاتي بالحاجة إلى من يملك الضر والنفع، والموت، والحياة، ومن له الخلق والأمر،

(١٧٥) أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في القرآن، دار الأنصار، ص ٩٧.

ومن بيده ملكوت كل شيء، ومن إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون.. شعور العبودية المخلوقة الفانية الفقيرة، بالذات، أمام الربوبية الخالقة الأزلية، الأبدية المالكة لكل شيء، والمدبرة لكل أمر.

وكلما ازداد الإنسان معرفة بنفسه، ومعرفة بربه، ازدادت هذه المشاعر وضوحا وقوة، فقوي اعتماده على الله، واتجاهه إليه، وتوكله عليه، واستعانته به، وتذلله له، ومد يد الضراعة إليه، ووقوفه ببابه؛ سائلا داعيا منيبا إليه..»(١٧٦).

أما العنصر الثاني الذي لا بد منه في العبادة فهو أن يصدر هذا الالتزام من قلب يحب الله- تعالى- فليس في الوجود من هو أجدر من الله- تعالى- بأن يحب. فهو صاحب الفضل والإحسان(...) فمن أولى من الله بأن يحب؟ ومن يحب الإنسان إذن – إن لم يحب الله- تعالى؟(١٧٧).

«فهذه هي حقيقة العبادة في الإسلام، إنها معنى مركب من عنصريه: غاية الخضوع لله- تعالى- مع غاية المحبة له- سبحانه»(١٧٨).

فالعبادة تشمل الدين كله، والحياة كلها، والكيان الإنسانية كله ظاهرا وباطنا، فهي انقياد لمنهج الله وشرعه، ومن اتبع غير منهج الله فقد أشرك في عبادته(١٧٩).

ونختم هذه الفقرة بنصين مهمين للشيخ حسن البنا في تحليل مفهوم العبادة وأركانها، يقول؛ في معنى قول الله- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]:

(١٧٦) يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص ٣٢، ٣٣.
(١٧٧) المرجع السابق ص ٣٣، ٣٤.
(١٧٨) المرجع السابق ص ٤٦.
(١٧٩) المرجع السابق، ص ٤٩- ٩٢ وهو فصل مهم جدًا، أوصى بدراسته بعمق.

«﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ولم يقل: وحّدوا؛ لأن العبادة عمل: لا يكون إلا عن نظر واعتقاد، ففيها النظر والإيمان والاعتقاد، والعمل، مع التبجيل (التعظيم)؛ وذلك بتنفيذ الأوامر واجتناب النواهي. ﴿رَبَّكُمُ﴾: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾(...) فإذا كان الله- سبحانه تعالى- هو المنعم بكل ذلك فكيف تتجه لغيره وكيف تجعل له أندادًا وأشباها- تعالى الله عن ذلك- وهذا المعنى بارز جدًا في القرآن في مواضع كثيرة؛ فالإيجاد والرعاية والرزق، كل هذه دلائل تجعلنا لا نتجه إلا لله، ولا ندين إلا له، فكيف تجعل له أشباها وأندادا؟»(١٨٠).

وقال تحت عنوان: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾:

«تفسر العبادة – لغةً – بأنها: الطاعة مع غاية الخضوع، ولكن هذا التفسير اللغوي لا يؤدي المعنى المقصود بالعبادة بالضبط ولا يزال المرء يشعر بأنه في حاجة إلى تعريف أوفى وأدق، وأشفى للنفس (ثم بعد ذلك نقل عن تفسير المنار كلامًا جيدًا، ومنه) : «تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود ولا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له، لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه. للعبادة صور كثيرة شرعت؛ لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى، الذي هو روح العبادة وسرها، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها، وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا: إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وجدت صور العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا.

---

(١٨٠) حسن البنا: سلسلة من تراث الإمام البنا، الكتاب الثاني: التفسير ط دار الدعوة، إسكندرية، ٢٠٠٥م، ص ١٦٢، ١٦٣.

هذا قوله ملخصا، هو كلام بديع - كما ترى - يجعل حقيقة العبادة مبعثها التعظيم في القلب، لا صورتها التي تمثلها الجوارح، والاستعانة: طلب المعونة لإزالة العجز، والمساعدة على إتمام ما يعجز المستعين عن أدائه، أو إتمامه بنفسه، وهي في الأمور العادية التي تدخل في حيز قدرة الإنسان وتصرفه، جائزة بين الناس، بل هي من القربات التي يتقرب بها المرء إلى الله- تبارك وتعالى- «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»؛ لأنها من الأعمال المشروعة المسنونة، لإقامة الأعمال وأدائها.

«ولكن الاستعانة في الأمور الخاصة بالله- تبارك وتعالى- والتي لا يصح أن تطلب من أحد سواه، وهي ما يجاوز حد القدرة البشرية كطلب الشفاء بعد استخدام الدواء، وكطلب النصر على الأعداء، بعد إعداد العدة، وبذل المستطاع، وكالاستعاذة بالله من الحوائج والآفات، وصنوف البلاء، إلى غير ذلك مما هو في يد الله وحده، (...) .

العبادة، والاستعانة، بهذا المعنى، لا تكونان إلا لله، وبالله (وحده)- تبارك وتعالى- ولهذا قدم الضمير «إياك- وإياك» ليدل على الاختصاص ،.. وكل المظاهر التي تدل على العبادة، شرعا؛ حِسِّيَّةً أو معنوية، لا يجوز أنْ تكون إلا لله، كالصلاة، والركوع، والسجود، والنذر، والقربان، والحلف، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والمحبة، والرغبة، والرهبة، والتأله، والتذلل،.. إلخ، كما أن مظاهر الاستعانة التي اختصها الشرع بالله- تبارك وتعالى- لا يصح أن تصرف لغيره؛ كالدعاء، والاستعانة، واستمداد الحول والقوة، وطلب قضاء الحاجات..إلخ.

وبذلك يسلم للمؤمن دينه، ويكمل إيمانه ويقينه، ويسلم من لوثات الشرك الأكبر والأصغر، ويجتمع له توحيد الألوهية والربوبية معًا، والتوفيق بيد الله.

والآية من جوامع الكلم؛ لأنها أشارت إلى خلاصة ما جاءت له الرسالات كلها، وبعث به الرسل جميعًا، من حقوق الله وجميل فضله على خلقه، وليس الدين أكثر من إياك نعبد وإياك نستعين..» إلخ النص كله[١٨١].

ل- وهكذا تتفق جميع تحليلات علماء المسلمين على مفهوم العبادة، ومقوماتها.

٣-المقومات الخمسة لعبادة الله وحده:

من التحليل السابق يتبين أن حد العبادة التي خلقنا الله من أجلها، والتي هي حد الإسلام الذي لا يقبل الله سواه، يتركب من الأركان الخمسة الآتية:

أ- **الركن الأول**: كمال الخضوع والاستسلام والتذلل لله وحده الناشئ عن شعور تعظيم الله، باطنًا وظاهرًا، والرضا به إلها، معبودا، فيصدق القلب كل ما أخبر به الوحي عن الله، وحقوقه، وشرائعه، ويذل لذلك كله، ويستسلم له، دون شك أو زيغ.

ب - **الركن الثاني**: كمال المحبة والتأله لله وحده، بلوازم هذه المحبة.

جـ - **الركن الثالث**: إفراد الله وحده بالنسك والعبادات، والتوجه له وحده، بها، فالله- وحده- هو الذي يُخَافَ منه، ويتوكل عليه، ويستعان به، ويستغاث به، ويخاف ويرجى، وتنيب إليه القلوب، وتخشع، وتخبتُ، وهو الذي يُدعى ويُسأل، ويُذبح له، ويُتقرب إليه بأنواع النُّسك، ويطلب منه كشف الضر وجلب النفع، وهو الذي يركع له، ويسجد، ويسعى إليه ويُحْفد، وترجى رحمته، ويخاف عذابه، ولا يتم هذا إلا «بالبراء مما سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب»[١٨٢].

---

(١٨١) حسن البنا، المصدر السابق، ص ٢٣٨-٢٤٠، كتبه ١٤ ديسمبر ١٩٤٧م.

(١٨٢) أبو عبيد القاسم بن سلام: الإيمان، تحقيق الألباني، ص ٨٠.

فلابد من نفي النسك عن غير الله، والبراءة بالقلب، واللسان، والبغض بالقلب واللسان، والإنكار بالقلب واللسان، على كل من عبد غير الله، فتوجه بأي نوع من أنواع العبادة لغير الله، كالسجود لغيره، أو الطواف بغير الكعبة، بيت الله الحرام، أو الاستغاثة بميت، أو الاستعانة به، أو دعائه، أو الذبح له، أو النذر له، أو اتخاذ شفيع له دون الله، وبغير إذنه، يدعوه، ويعظمه، بأوجه التعظيم، وأنواع التنسك[١٨٣].

«وقد زين الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم، واستذلهم عن إخلاص الدين لربهم إلى أنواع من الشر، فيقصدون بالسفر والزيارة رضا غير الله والرغبة إلى غيره، ويشدون الرحال إما إلى قبر نبي أو صحابي أو صالح، أو من يظنون أنه نبي أو صاحبي، أو صالح، داعين له، راغبين إليه (...) وأكثرهم يسأل الميت (...) كما يسأل الحي الذي لا يموت، فيقول: يا سيدي فلان.. انصرني على فلان، وأنا في حبك، وجوارك(...) ويسيبون السوائب من البقر والغنم، وغيرها، كما كان المشركون يسيبون السوائب لطواغيتهم(...) ومن السدنة من يضلل الجهال فيقول: أنا أذكر حاجتك لصاحب الضريح، وهو يذكرها للنبي، فيذكرها لله، ومنهم من يعلق على القبر المكذوب، أو غير المكذوب، من الستور والثياب، ويضع عنده من مصنوع الذهب والفضة، مما قد أجمع المسلمون على أنه من دين المشركين وليس دين الإسلام»[١٨٤].

---

(١٨٣) من الضروري دراسة الكتب الآتية: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، كله. الشيخ حافظ بن أحمد حَكَمي: معارج القبول، الجزء الأول، ص ٨٥، إلى آخره. كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، كشف الشبهات، وغيرها، وعامة رسائل مجموعة التوحيد، ورسالة العبودية، وكتاب الاستغاثة والرد على ابن البكري لابن تيمية. الشيخ عبد المجيد الشاذلي: حد الإسلام وحقيقة الإيمان، ط١، ص ١٢٥ – ١٦٨، فإنه مهم جدًّا، وهو تجميع كتابات ابن تيمية وابن القيم في توحيد العبادة، مع بعض تعليقات للشاذلي تحتاج لتدقيق.

(١٨٤) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، نقله الشاذلي في: حد الإسلام، ص ١٥٣، ١٥٤.

فلابد من التبرؤ من ذلك كله، وأمثاله، والتخلص منه، وبغضه، وخلع كل ند، من دون الله واعتقاد أن ذلك كله وأمثاله: شرك أكبر بالله، قد جاءت الآيات والأحاديث القاطعة في ذلك بأبلغ بيان وأحكم حجة، وأكتفي بنص واحد عن الدعاء، فالدعاء، عبادة، فانظر ماذا قال الله عن الذين دعوا غيره: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، فتأمل قوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ فدعاء غير الله: شرك بالله، وسوف يكفر المدعون المعبودون بهذا الشرك يوم القيامة.

ولابد من إحكام هذا الركن، لأنه يقابله شرك النسك، وهو شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام.

د- **الركن الرابع**: إفراد الله بالطاعة، والتزام شريعته، وذلك: بقبول شرعه، والتزام طاعته والتحاكم إليه، والتبرؤ من كل شرع وحكم يخالفه، فابتداء يتوجب الإذعان لحكم الله وشريعته، جملة وعلى الغيب، وبالإضافة إلى ما قررناه في حد العبادة؛ فإن الأدلة على هذا الأصل كثيرة جدًّا من القرآن والسنة.

١- فَسَّر النبي ﷺ العبادة بأنها اتباع التشريع، وطاعة الأمر والنهي، والتحليل والتحريم؛ قال الله- تعالى- عن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] .

يقول الطبري: «يقول جل ثناؤه: اتخذ اليهود أحبارهم، وهم العلماء (...) والنصارى رهبانهم، وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم(...) عن الضحاك: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾ قال: قراؤهم وعلماؤهم، ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يعني: سادة لهم، من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما

يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم (...) عن عدي بن حاتم، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وفي عنقي صليب من ذَهَبٍ، فقال: «**يا عدي، اطرح هذا الوثن من عنقك**»، قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم، فقال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: قلت: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**» (...)، عن أبي البختري قال: قيل لحذيفة: أرأيت قول الله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم، ولا يصلون لهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا أحله الله؛ حرموه، فتلك كانت ربوبيتهم(...)، عن أبي البختري..قال: انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراما، وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالا، فأطاعوهم في ذلك، فجعل الله طاعتهم عبادتهم(...). قال عبد الله بن عباس: لم يأمروهم أن يسجدوا لهم، ولكن أمروهم بمعصية الله، فأطاعوهم، فسماهم الله بذلك أربابا.(...) عن الربيع بن أنس..قال: قلت لأبي العالية: كيف كانت الربوبية التي كانت في بني إسرائيل؟ قال: قالوا: ما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا؛ لقولهم، وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه، فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم (...).

وأما قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ فإنه يعني به: وما أُمِرَ هؤلاء اليهود والنصارى، الذين اتخذوا الأحبار والرهبان والمسيح أربابا- إلا أن يعبدوا معبودا واحدا، وأن يطيعوا إلا ربا واحدا دون أرباب شتى؛ وهو الله، الذي له عبادة كل شيء. وطاعة كل خلق، المستحق – على جميع خلقه – الدينونة له بالوحدانية والربوبية، ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول تعالى ذكره: لا تنبغي الألوهية إلا لواحد: الذي أمر الخلق بعبادته، ولزمت جميع العباد طاعته

﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: تنزيها وتطهيرا لله عما يشرك في طاعته وربوبيته القائلون: عزير ابن الله، والقائلون: المسيح ابن الله، المتخذون أحبارهم أربابا من دون الله»(١٨٥).

وساق ابن كثير حديث عدي، وتفسير حذيفة وابن عباس وغيرهما، ثم قال: «ولهذا قال- تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما خلق فهو الحلال، وما شرعه: اتبعَ، وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تعالى وتنزه عن الشركاء، والنظراء والأعوان، والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه»(١٨٦).

وقال الشوكاني: «ومعنى الآية: أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه، كانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابا، لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب»(١٨٧).

ويقول حسن البنا في معنى هذه الآية: «ربوبية الأحبار والرهبان»:

«الأحبار: جمع حبر، وهو العالم بالدين، والرهبان: جمع راهب، وهو المتبتل المنقطع للعبادة».

«والمقصود باتخاذهم أربابا: أحد أمرين، والله أعلم؛ أولهما: التعظيم الزائد عن الاحترام المعتاد، والذي يؤدي إلى اعتقاد أنهم مصدر نفع أو ضرر (...) وثانيهما: اعتقاد أن لهم حق التشريع والتحريم والتحليل وفق أهوائهم، فالحلال ما أحلوه، والحرام ما حرموه، بغير سلطان أتاهم، أو حجة من الله

---

(١٨٥) ابن جرير الطبري: جامع البيان مجلد ٦، ج١٠، ص ١٣٣- ١٣٦، والحديث رواه الترمذي، وقال: غريب، ورواه الطبراني في الكبير: المعجم الكبير، ج ١٧، رقم ٢١٨، ص ٩٢، ومداره على غطيف بن أَعْيَن، وهو ضعيف.

(١٨٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٣٤٩.

(١٨٧) محمد بن على بن محمد الشوكاني: فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج٢، دار الوفاء، ص ٥٠٥ ثم قال بعد ذلك كلاما نفسيا جدا في رفض التقليد المذهبي..ص ٥٠٥، ٥٠٦ فارجع إليه، فإنه نفيس غال، وعض عليه.

بين أيديهم، وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين. روى الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،.. والبيهقي في السنن، وغيرهم، عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة ﴿ **ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ فقال: «**أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه**» (...) وساق الرواية الثانية، وفيها: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**» وقال رسول الله ﷺ: «**يا عدي، ما يفرك؟ أيفرك أن يقال: الله أكبر فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ ما يفرك؟ أيفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلها غير الله**» ثم دعاه إلى الإسلام؟ وشهد شهادة الحق، قال: «**فلقد رأيت وجهه استبشر**».

«وكلا المعنيين: نهى الإسلام عنه وحذر منه، وهذا رسول الله ﷺ نهى أشد النهي عن أن يتمثل له الرجال قياما، أو أن يقولوا عنه أكثر من أنه عبد الله ورسوله، ثم هو بعد ذلك يجهر بأن لا يحل ولا يحرم ولا يأمر ولا ينهى إلا بما أوحي إليه ﴿**إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [يونس: ١٥]، فكيف بغيره من العلماء أو العُبّاد ؟»(١٨٨).

ويقول سيد قطب في كلام مضيء عليه نور الحق: «ومن النص القرآني الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله ﷺ، وهو فصل الخطاب، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين، تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة، نشير إليها هنا بغاية الاختصار:

* **أن العبادة**: هي الاتباع في الشرائع، بنص القرآن، وتفسير رسول الله ﷺ، فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى: الاعتقاد

---

(١٨٨) حسن البنا سلسلة من تراث الإمام البنا، الكتاب الثالث، من وحي القرآن، دار الدعوة، الإسكندرية، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

بإلوهيتهم، أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم،.. ومع هذا فقد حكم الله- سبحانه- عليهم بالشرك في هذه الآية. وبالكفر في آية تالية في السياق - لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها- فهذا وحده- دون الاعتقاد والشعائر - يكفي لاعتبار من يفعله شركا بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين، ويدخله في عداد الكافرين.

* أن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه، واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بإلوهية المسيح اعتقادا، وقدموا إليه الشعائر في العبادة، فهذه كتلك في اعتبار فاعلها مشركا بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

* أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده، ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته، ولا تقديم الشعائر التعبدية له(...).

وهذه الحقائق(...) هي كذلك حقائق مطلقة تفيدنا في تقرير «حقيقة الدين» عامة.

إن دين الحق الذي لا يقبل الله من الناس كلهم دينا غيره، هو الإسلام.. الإسلام لا يقوم إلا باتباع الله وحده في الشريعة، بعد الاعتقاد بألوهيته وحده، وتقديم الشعائر التعبدية له وحده، فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله، صح فيهم ما صح في اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله، مهما كانت دعواهم في الإيمان - لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه وقع بهم، لا طاقة لهم بدفعه، وأنهم لا يقرون هذا الافتئات على الله.

إن مصطلح «الدين» قد انحسر في نفوس الناس اليوم، حتى باتوا يحسبونه

عبدة في الضمير، وشعائر تعبدية تقام، وهذا ما كان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم ويقرر تفسير رسول الله ﷺ، أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله، وأنهم أشركوا به، وأنهم خالفوا عن أمره، بأن لا يعبدوا إلا إلها واحدا، وأنهم اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله».

١-إن المعنى الأول للدين هو الدينونة- أي: «الخضوع والاستسلام والاتباع – وهذا يتجلى في اتباع الشرائع، كما يتجلى في تقديم الشعائر، والأمر جد.. إلخ»(١٨٩).

ونخلص من ذلك إلى ما قررناه من أن اتباع شريعة الله، وطاعة أمره، والبراءة من كل تشريع مخالف، هو ركن أساسي في العبادة، وأن الذي يشرع ما لم يأذن به الله، هو رب، وأن الذي يرضى بذلك، ويقبل، ويطيع، ويتبع، هو مشرك قد اتخذ غير الله ربا.

٢- جعل الله شرط الإيمان به، وبرسوله وباليوم الآخر: طاعة الله ورسوله، والتحاكم إليها، والرضا بحكم الرسول ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن جرير: «يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ربكم فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله محمدا ﷺ، فإن في طاعتكم إياه؛ لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه لأمر الله إياكم بطاعته (...).

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ والصواب من القول في ذلك أن يقال: هو أمر من الله بطاعة رسوله في حياته فيما أمر ونهى، وبعد وفاته في اتباع سنته، وذلك أن الله عم بالأمر بطاعته، ولم يخصص ذلك في حال دون حال، فهو على

---

(١٨٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثالث، ص ١٦٤٢، ١٦٤٣ وارجع إلى بقية النص فإنه مهم جدًا في فقه الحركة.

العموم(...)».

﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾: وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والولاة، لصحة الأخبار عن رسول ﷺ بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعةً، وللمسلمين مصلحة (...)، فإذا كان معلوما أنه لا طاعة واجبة لأحد غير الله أو رسوله أو إمام عادل، وكان الله قد أمر بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ بطاعة ذوي أمرنا، كان معلوما أن الذين أمر بطاعتهم- تعالى ذكره- من ذوي أمرنا هم الأئمة، ومن ولاه المسلمون، دون غيرهم من الناس، وإن كان فرض القبول من كل من أمر بترك معصية الله، ودعا إلى طاعة الله، وأنه لا طاعة تجب لأحد فيما أمر ونهى- فيما لم تقم حجة وجوبه- إلا للأئمة الذين ألزم الله عباده بطاعتهم فيما أمروا به رعيتهم مما هو مصلحة لعامة الرعية، فإن على من أمروه بذلك طاعتهم، وكذلك في كل ما لم يكن لله معصية، وإذا كان ذلك كذلك ؛ كان معلوما بذلك صحة ما اخترنا من التأويل دون غيره..(...) ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ يعني بذلك- جل ثناؤه: فإن اختلفتم- أيها المؤمنون- في شيء من أمر دينكم أنتم، فيما بينكم، أو أنتم وولاة أمركم فاشتجرتم فيه، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني بذلك: فارتادوا معرفة حكم الله الذي اشتجرتم أنتم بينكم، أو أنتم وأولو أمركم – من عند الله؛ يعني بذلك: من كتاب الله، فاتبعوا ما وجدتم، وأما قوله: ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾؛ فإنه يقول: فإن لم تجدوا إلى علم ذلك في كتاب الله سبيلا؛ فارتادوا معرفة ذلك أيضا من عند الرسول، إن كان حيا، وإن كان ميتًا؛ فمن سنته ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ يقول: افعلوا ذلك إن كنتم تصدقون بالله واليوم الآخر، يعني: بالمعاد الذي فيه الثواب والعقاب، فإنكم إن فعلتم ما أمرتم به من ذلك، فلكم من الله الجزيل من الثواب، وإن لم تفعلوا ذلك فلكم الأليم من العقاب(...) عن مجاهد في قوله:

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال: إلى الله: إلى كتابه، وإلى الرسول: إلى سنة نبيه(...) ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾: (ذلك): فَرَدُّ ما تنازعتم فيه من شيء إلى الله والرسول خير لكم عند الله في معادكم، وأصلح لكم في دنياكم، لأن ذلك يدعوكم إلى الألفة، وترك التنازع والفرقة، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾؛ يعني: وأَحْمَدُ مَوئِلًا ومغبة، وأجمل عاقبة، (...) عن قتادة..يقول: ذلك أحسن ثوابا وخير عاقبة»(١٩٠).

وقال ابن كثير(١٩١): «﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتبعوا كتابه، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خذوا بسنته ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ أي: فيما أمروكم به من طاعة الله، لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله(...)، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: قال مجاهد وغير واحد من السلف: «أي إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ» وهذا أمر من الله- عز وجل- بأن كل شيء تنازع الناس فيه(...) أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال الله- تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به الكتاب والسنة، وشهدا له بالصحة، فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ولهذا قال- تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليها فيما شجر بينكم، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك؛ فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾: أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة ورسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع؛ خير، ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة ومآلا ..».

فشرط الإيمان هو طاعة الله ورسوله، والتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، ولهذا جعل الله الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، أي إلى من

---

(١٩٠) ابن جرير الطبري: جامع البيان، مجلد ٤، ج ٦، ص ١٨٤ – ١٩٠.

(١٩١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٥١٨.

يحكمون بغير حكم الله ورسوله، جعلهم الله داعين للإيمان، وأن الشيطان يريد أن يضلهم ضلالًا بعيدًا، وأنهم منافقون نفاق اعتقاد، وذلك في الآيتين اللتين بعد الآية السابقة.

ويقول سيد قطب: «وفي هذا النص القصير يبين الله- سبحانه- شرط الإيمان وحد الإسلام، في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة، وقاعدة الحكم، ومصدر السلطان؛.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده؛ والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا، من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس، على مدى الأجيال، مما تختلف فيه العقول والآراء والأزمان..ليكون هنالك الميزان الثابت الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام، إن «الحاكمية» لله وحده، في حياة البشر، ما جل منها وما دق، وما كبر منها وما صغر، والله قدس شريعة أودعها قرآنه، وأرسل بها رسولا يبينها للناس، ولا ينطق عن الهوى، فسنته ﷺ، من ثَم شريعة من شريعة الله، والله واجب الطاعة، ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة، فشريعته واجبة التنفيذ، وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله- ابتداء- وأن يطيعوا الرسول؛ بما له من هذه الصفة؛ صفة الرسالة من الله، فطاعته، إذن، من طاعة الله، الذي أرسله بهذه الشريعة، وبينها للناس في سنته، وسنته وقضاؤه- على هذا- جزء من الشريعة واجب النفاذ، والإيمان يتعلق- وجودا وعدما- بهذه الطاعة وهذا التنفيذ- بنص القرآن: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فأما أولي الأمر فالنص يبين من هم: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أي: من المؤمنين، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان، وحد الإسلام المبين في الآية: من طاعة الله وطاعة الرسول، وإفراد الله- سبحانه- بالحاكمية، وحق التشريع للناس – ابتداء – والتلقي منه وحده، فيما نص عليه، والرجوع إليه أيضا، فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء، مما لم يرد فيه نص؛ لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه، والنص

يجعل طاعة الله أصلًا، وطاعة الرسول أصلًا كذلك، بما أنه مرسل منه، ويجعل طاعة أولي الأمر.. منكم.. تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله، فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم(...) ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله، بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه.

وطاعة أولي الأمر.. منكم.. بعد هذه التقريرات كلها: في حدود المعروف المشروع من الله، والذي لم يرد نص بحرمته، ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادئ شريعته، عند الاختلاف فيه، والسنة تقرر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين: في الصحيحين من حديث الأعمش: «**إنما الطاعة في المعروف**»، وفيهما من حديث يحيى القطان: «**السمع والطاعة على المرء المسلم، فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة..**» وأخرج مسلم من حديث أم الحصين: «**ولو استعمل عليكم عبد: يقودكم بكتاب الله؛ اسمعوا له وأطيعوا**».

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينا على شريعة الله، وسنة رسوله، أمينا على إيمانه هو ودينه، أمينا على نفسه وعقله، أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة، ولا يجعله بهيمة في القطيع، تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع، فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة، والشريعة التي تطاع، والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد، ولا تتفرق، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون.

ذلك فيما وَرَدَ فيه نص صريح، فأما الذي لم يرد فيه نص، وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية، على مدى الزمان، وتطور الحاجات واختلاف البينات، ولا يكون فيه نص قاطع، أو لا يكون فيه نص، على الإطلاق مما تختلف عن تقديره: العقول والآراء والأفهام؛ فإنه لم يترك كذلك تيهًا، ولم يترك بلا ميزان، ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع،.. ووضع هذا النص القصير: منهج الاجتهاد كله، وحدده بحدوده، وأقام «الأصل»

الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضًا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.. ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنا؛ فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو؛ فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته(...).

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ تلك الطاعة له والطاعة للرسول؛ ولأولي الأمر المؤمنين، القائمين على شريعة الله وسنة الرسول.. ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول، هذه وتلك: شرط الإيمان بالله واليوم الآخر، كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود، ولا يوجد الإيمان ثم يتخلف عنه أثره الأكيد.

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي، يقدمها مرة أخرى في صورة «العِظة» والترغيب والتحبيب(...)﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾. وحين ينتهي السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية في شرط الإيمان، وحد الإسلام، وفي النظام الأساسي للأمة المسلمة، وفي منهج تشريعها وأصوله، يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة، ثم يزعمون- بعد ذلك - أنهم مؤمنون؟ وهم ينقضون شرط الإيمان وحد الإسلام؛ إذ يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله.. إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به(...).

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء: ٦٠].

ألم تر إلى هذا العجب العاجب.. قوم- يزعمون- الإيمان، ثم يهدمون هذا الزعم في آن؟ قوم ﴿يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك؟ إنما يريدون أن يتحاكموا إلى شيء آخر وإلى منهج آخر، وإلى حكم آخر.. يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذي لا يستمد مما أنزل إليك.. ولا ضابط له ولا ميزان، مما أنزل

إليك وما أنزل من قبلك، ومن ثم فهو طاغوت؛ طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية، وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضًا!

وهم لا يفعلون هذا عن جهل، ولا عن ظن، إنما من يعلمون يقينا ويعرفون تماما، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾.. فليس في الأمر جهالة ولا ظن، بل هو العمد والقصد، ومن ثم لا يستقيم هذا الزعم؛ زعم أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك إنما هو الشيطان الذي يريد بهم الضلال الذي لا يرجى منه مآب ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه، بإرادتهم التحاكم إلى الطاغوت..»(١٩٢).

والخلاصة: أن شرط الإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله، وقبولها، وطاعتها، وأن هذا معنى عبادة الله، ومعنى الإيمان به.

٣- وقد قرر الله ذلك بنص قاطع، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] .

قال ابن جرير: «يعني- جل ثناؤه- بقوله: ﴿فلا﴾ فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك. وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك؛ إذا دعوا إليك، يا محمد، واستأنف القسم، جَلّ ذِكره – فقال: ﴿وَرَبِّكَ﴾ يا محمد، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بي وبك، وبما أنزل إليك، ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: حتى يجعلوك حكما بينهم، فيما اختلط بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه..﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا

---

(١٩٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٦٩٠ – ٦٩٤ ويرجع إلى النص ذاته ليدرس بعناية.

﴿قَضَيْتَ﴾؛ يقول: لا يجدوه في أنفسهم ضيقا مما قضيت، وإنما معناه: ثم لا تحرج أنفسهم مما قضيت؟ أي: لا تأثم؛ بإنكارها ما قضيت، وشكها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حق لا يجوز لهم خلافه(...) ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يقول: ويسلموا لقضائك وحكمك؛ إذعانا منهم بالطاعة، وإقرارا لك بالنبوة – تسليما»[١٩٣].

وقال ابن كثير: «يقسم- تعالى- بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به: فهو الحق، الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: أي: إذا حكّموك: يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**»[١٩٤].

ويقول الشوكاني: «﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾: أي: يجعلوك حكما بينهم في جميع أمورهم، لا يحكمون أحدا غيرك.. ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلف بينهم، واختلط(...) ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ والحرج: الضيق.. ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ينقادوا لأمرك وقضائك، انقيادا، لا يخالفونه في شيء، قال الزجاج: ﴿تَسْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد، أي: ويسلمون لحكمك تسليما، لا يدخلون على أنفسهم شكا ولا شبهة فيه. والظاهر أن هذا شامل لكل فرد في كل حكم(...) وهذا في حياته ﷺ، وأما بعد موته: فيحكم الكتاب والسنة، ويحكم الحاكم بما فيهما؛ من الأئمة والقضاة، إذا كان لا يحكم بالرأي المجرد،

---

(١٩٣) ابن جرير الطبري: جامع البيان، مجلد ٤، ج ٦، ص ١١٧.

(١٩٤) ابن كثير: تفسير.. ج١، ص ٥٢٠.

مع وجود الدليل في الكتاب والسنة أو في أحدهما، وكان يعقل ما يرد عليه من حجج الكتاب والسنة، بأن يكون عالما باللغة العربية، وما يتعلق بها من نحو وتصريف ومعان وبيان، عارفا بما يحتاج إليه من علم الأصول، بصيرا بالسنة المطهرة، مميزا بين الصحيح وما يلحق به. والضعيف وما يلحق به، منصفا، غير متعصب لمذهب من المذاهب، ولا لنحلة من النحل، ورعًا لا يَحِيفُ ولا يميل في حكمه، فمن كان هكذا فهو قائم في مقام تعلم النبوة، مترجم عنها، حاكم بأحكامها. وفي هذا الوعيد الشديد ما تقشعر له الجلود وترجف له الأفئدة، فإنه أولا أقسم سبحانه بنفسه مؤكدا لهذا القسم بحرف النفي بأنهم لا يؤمنون، فنفى عنهم الإيمان الذي هو رأس مال صالحي عباد الله؛ حتى تحصل لهم غاية؛ هي تحكيم رسول الله ﷺ، ثم لم يكتف- سبحانه- بذلك حتى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ فضم إلى التحكيم أمرا آخر، وهو عدم وجود حرج، أي جرح في صدورهم؛ فلا يكون مجرد الحُكْم والإذعان كافيا حتى يكون من صميم القلب: عن رضا، واطمئنان، وانثلاج قلب، وطيب نفس، ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾: أي: يُذعنوا، ظاهرا وباطنا. ثم لم يكتف بذلك، بل ضم إليه المصدر المؤكّد: فقال: ﴿تَسۡلِيمٗا﴾ فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه هذا التحكيم، ولا يجد الحرج في صدره بما قضى عليه، ويسلم لحكم الله وشرعه تسليما لا يخالطه رد، ولا مخالفة»(١٩٥).

ويضيف سيد قطب في كلام عليه نور الحق: «وأخيرا يجيء ذلك الإيقاع الحاسم الجازم: إذ يقسم الله- سبحانه- بذاته العلية: أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ في أمره كله، ثم يمضي راضيا بحكمه، مسلما بقضائه؛ ليس في صدره حرج منه، ولا في نفسه تلجلج في قبوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ

(١٩٥) الشوكاني: فتح القدير مجلد، مصدر سابق، ص ٧٧١، ٧٧٢.

يُحَكِّمُوكَ ..﴾، ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام، يقرره الله-سبحانه- بنفسه، ويقسم عليه بذاته، فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام، ولا تأويل لمؤوّل(...) فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام، جاءت في صورة قسم مؤكد؛ مطلقة من كل قيد، وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله ﷺ هو تحكيم شخصه، إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه(...) وإذا كان يكفي لإثبات الإسلام أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله، فإنه لا يكفي في «الإيمان» هذا، ما لم يصحبه الرضا النفسي، والقَبول القلبي، وإسلام القلب،.. في اطمئنان. هذا هو الإسلام، وهذا هو الإيمان، فلتنظر نفس أين هي من الإسلام؛ وأين هي من الإيمان؟ قبل ادعاء الإسلام، وادعاء الإيمان»(١٩٦).

٤- ومثل هذه الآية قوله- تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾** [الأحزاب: ٣٦] قال ابن كثير: «فهذا الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه: إذا حكم الله ورسوله بشيء؛ فليس لأحد مُخَالَفَتُه، ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول»(١٩٧).

٥- وقد نفى الله- تعالى- الإيمان كلية عمن يتولى ويعرض عن طاعة الرسول ﷺ ووصفهم بالظاعنين، فقال عن المنافقين نفاق اعتقاد: **﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾** [النور: ٤٧]، نفى الله عنهم الإيمان نفيا كليا وأكد النفي بحرف الباء في قوله – بعد النفي بها – بالمؤمنين، يؤكد النفي، ثم وصفهم بقوله: **﴿بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾** [النور: ٥٠]، ثم بين أن المؤمنين يسمعون ويطيعون لحكم الرسول ويتحاكمون إلى شريعته، فقال: **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا**

---

(١٩٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٦٩٦، ٦٩٧.

(١٩٧) ابن كثير: تفسير، ج٣، ص ٤٩٠.

وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

٦-وقال الله- تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فالله- تعالى- يأمر كل أحد، من خاص وعام، أن يطيع الله ورسوله، أي: يطيع شريعة الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: خالفوا عن أمره، وأعرضوا من تحكيم شريعته، والتحاكم إليها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم لنفسه أنه محب لله، ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول ويدخل في طاعته، ويتبع شريعته(١٩٨).

فالتزام طاعة الشريعة الموحاة على سيدنا محمد ﷺ، هو حد العبادة، وشرط الإيمان بالله ورسوله.

٧-وقال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]: «ينكر- تعالى- على من خرج على حكم الله، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال، بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم، وآرائهم، وكما تحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان، الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى؛ من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه، فصارت في بيته شرعا متبعا، يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه

---

(١٩٨) انظر: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٨.

في قليل ولا كثير»[١٩٩].

وبالطبع قتال هؤلاء (الياسقيين) له شروط، وليس هذا موضوع بحثنا، وإن الذي نقرره أن التزام شرائع الله، والتزام طاعة الرسول ﷺ، فيما أحل الله، وما حرم، هو ركن من أركان الإيمان، وتوحيد العبادة، من لم يأت به فليس بمؤمن من حيث الأصل، وهذا غير الدخول في الطاعات، فابتداء: لابد من التسليم والانقياد لحكم الله، ولكن قد يخالف الإنسان حكم الله في أمر، ويعلم أنه مخالف وعاص، ولم يستحل المخالفة، فهذا مؤمن له حكم المؤمنين، وأما من يتولى عن طاعة الله ورسوله، في كل ما حكم، وما أحل، وما حرم، في أمور الحياة، ويحكم العقل البشري، وحده، أو الأهواء والمصالح، مثل الشيوعيين والعلمانيين وأمثالهم، أو يحكمون (الياسقات) وأشباه الياسقات، ويقبلون ذلك، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين، من حيث الأصل حتى لو أخذوا من الإسلام بعض قيمه، والتزموا بعض شرائعه أو شعائره، فليسوا على شيء، حتى يلتزموا اتباع شرع الله، فيحكموه في الصغير والكبير، ويرفضوا سواه، لأن (سواه)، الذي يخالفه، هو (جاهلية).

وهنا مفرق الطريق: فإنه: إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية، ولا وسط بين الطرفين، ولا بديل.. «حكم الله يقوم في الأرض،.. وشريعة الله تنفذ في حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر..أو أنه حكم الجاهلية، وشريعة الهوى ومنهج العبودية..فأيهما يريدون؟ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص، فالجاهلية- كما يصفها الله، ويحددها قرآنه- هي حكم البشر للبشر؛ لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من

---

(١٩٩) ابن كثير: تفسير، ج ٢، ص ٦٧.

(العبودية لله)، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر، وبالعبودية لهم من دون الله.

إن الجاهلية- في ضوء هذا النص- ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام.

والناس- في أي زمان وفي أي مكان- إما أنهم يحكمون بشريعة الله، دون فتنة عن بعض منها، ويقبلونها، ويسلمون بها تسليما، فهم إذن في دين الله، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر، في أي صورة من الصور، ويقبلونها، فهم إذن في جاهلية، وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال في دين الله.

والذي لا يبتغي حكم الله؛ يبتغي حكم الجاهلية، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية وهذا مفرق الطريق، يقف الله الناسَ عليه، وهم بعد ذلك بالخيار.

ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية، وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله (...) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إن مفرق الطريق، الذي لا معدى- عنده- من الاختيار(...).

إما إسلام وإما جاهلية، إما إيمان وإما كفر، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية.

والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون. والذين لا يقبلون حكم الله، من المحكومين – ما هم بمؤمنين.

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة، في ضمير المسلم، وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة،

ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء..»(٢٠٠).

إذن طاعة الله ورسوله وتحكيم شرعه هو حد الإيمان والدين، والعبادة، والإسلام، وذلك «أن الطاعة نوعان :

١- نوع هو قبول التكليف من الله- عز وجل- وضد هذا ونقيضه: هو رفض التكليف من الله- عز وجل- ورد أمر الله عليه، وهو المستكبر، أو: قبول التكليف من الله، ومن غير الله- معه، وهذا هو المشرك، وكلاهما: كافر.

٢-ونوع آخر: هو فعل المفروضات، والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، وضد هذا ونقيضه: هو انتهاك حرمة الأمر والنهي، وبالمعصية والمخالفة،(...) وقبول التكليف شيء، والدخول في الأعمال شيء آخر، والذي يقبل التكليف: هو الذي قبل الطاعة وأقر بها، وعلى مقتضى هذا يؤمر ويُنهى، ومن لم يقبل فلا يخاطب بأمر ولا نهي (...) وعندما تأتي الطاعة في صدد الفصل بين الإيمان والكفر، وبيان حد الإسلام من غيره؛ يفسرها القرآن بهذا المعنى: قبول شرع الله، ورفض ما سواه»(٢٠١).

٨- فلابد من قبول أحكام الله، جملةً وعلى الغيب، وتصديقها، والتزام طاعتها:

وهذا الأصل يقابله، ويناقضه أن نقر لغير الله ورسوله، بأن يكون له حق التشريع- ابتداء- دون إذن من الله، وتقديمه على شرع الله- سبحانه- فهذا شرك أكبر، واتخاذ ند دون الله، أو مع الله- تعالى.

فواجب المؤمن:

١-أن يقبل شرع الله، فلا يرده، فيحل ما أحل الله، ويحرم ما حرمه، اعتقادا والتزاما.

---

(٢٠٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٩٠٤، ٩٠٥، ويرجع إلى النص كله، لدراسته بعناية.

(٢٠١) عبد المجيد الشاذلي: حد الإسلام.. ص ٣٧٨، ٣٧٩، وانظر تفصيلا مهما في نفس المرجع، ص ٣٨٥- ٣٨٧.

٢-أن يرد شرع غيره، أي: الجاهلية، من حيث الأصل، فلا يقبله، ولا يطيعه، ولا يتبعه، وعلامة ذلك: ألا يرضاه، ولا يتابعه، ولا يشايع أهله، ويبغضهم، بقلبه، ويتبرأ منهم إلى الله.

٩- وهذا الأصل هو تحقيق للرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

يقول ابنُ القيم في (المدارج) في شرح هذا الأصل العظيم: «وقال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان: مَنْ رضي بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا**» وقال: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، غفرت له ذنوبه**» وهذان الحديثان: عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته- سبحانه- وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة؛ فهو الصديق حقا، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند حقيقة الامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقا، فهو على لسانه، لا على حاله.

فالرضا بإلهيته: يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه؛ فِعْلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يُقَدَّر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولا: فيتضمن: كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أوْلى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا

يحاكم إلا إليه، ولا يُحكّم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتةَ لا في شيء من أسماء الرب وصفاته، وأفعاله، ولا في شيء من أذوات حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره، وباطنه. ولا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، (...).

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم، أو أمر، أو نهى، رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرم من حكمه، وسلم له تسليما، ولو كان مخالفا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلِّده وشيخه وطائفته»(٢٠٢).

١٠- ويبين حسن البنا أبعاد هذا المقوم في مجال الحكم في الدولة الحديثة بنص مهم جدا، عليه نور الحق، وبهاؤه، فيقول بعنوان: «معركة المصحف – أين حكم الله؟»، ﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا**﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿**وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠]، ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ [النور: ٥١].

والإسلام دين ودولة، ما في ذلك شك، ومعنى هذا التعبير بالقول الواضح: أن الإسلام شريعة ربانية، جاءت بتعاليم إنسانية، وأحكام اجتماعية، وكلت حمايتها، ونشرها، والإشراف على تنفيذها بين المؤمنين بها، وتبليغها للذين لم يؤمنوا بها- إلى الدولة؛ أي: إلى الحاكم الذي يرأس جماعة المسلمين، ويحكم أمتهم، وإذا قصر الحاكم في حماية هذه الأحكام لم يعد حاكما إسلاميا، وإذا أهملت شرائع الدولة هذه المهمة لم تعد دولة إسلامية، وإذا رضيت الجماعة، أو الأمة الإسلامية بهذا الإهمال، ووافقت عليه؛ لم تعد هي

---

(٢٠٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ١٧٩، ١٨٠.

الأخرى إسلامية، مهما ادعت ذلك بلسانها، وإن من شرائط الحاكم المسلم: أن يكون في نفسه: متمسكا بفرائض الإسلام، بعيدا عن محارم الله، غير مرتكب للكبائر، وهذا وحده لا يكفي في اعتباره حاكما مسلما حتى تكون شرائط دولته ملزمة إياه بحماية أحكام الإسلام بين المسلمين، وتحديد موقف الدولة منهم بناء على موقفهم هم من دعوة الإسلام.

هذا الكلام لا نقاش فيه، ولا جدال. وهو ما تفرضه هذه الآيات المحكمة من كتاب الله، ولقد كانت آيات النور صريحة كل الصراحة، واضحة كل الوضوح في الرد على الذين يتهربون من الحكم بما أنزل الله، وإخراجهم من زمرة المؤمنين، فالله- تبارك وتعالى- يقول فيهم: ﴿ **وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النور: ٤٧] وذكر الآيات إلى قوله: ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٥١] كما جاءت آيات المائدة تصف المهملين لأحكام الله بالكفر، والظلم والفسق، فتقول: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾[المائدة:٤٤] ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾[المائدة:٤٥] ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ**﴾[المائدة: ٤٧] ﴿**أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة:٥٠] .

ولا يكفي في تحقيق الحكم بما أنزل الله أن تعلن الدولة في دستورها أنها دولة مسلمة، وأن دينها الرسمي: الإسلام، أو أن تحكم بأحكام الله في الأحوال الشخصية، وتحكم بما يصطدم بأحكام الله في الدماء والأموال والأعراض، أو يقول رجال الحكم فيها: إنهم مسلمون، سواء أكانت أعمالهم الشخصية توافق هذا القول أم تخالفهُ، لا يكفي هذا بحال، ولكن المقصود بحكم الله في الدولة: أن تكون دولة دعوة، وأن يستغرق هذا الشعور الحاكمين، مهما علت درجاتهم، والمحكومين مهما تنوعت أعمالهم، وأن يكون هذا المظهر صبغة ثابتة للدولة، توصف بها بين الناس، وتعرف بها في المجامع

الدولية، وتصدر عنها في كل التصرفات، وترتبط بها في القول والعمل(...).

فلماذا لا تكون مصر- وهي دولة مستقلة ذات سيادة- معروفة في المجامع الدولة بتمسكها بهذه الصبغة الإسلامية، وحرصها عليها، ودعوتها إليها، وارتباطها بها في كل قول أو عمل؟ ذلك هو أساس الحكم بما أنزل الله ومتى وجد هذا المعنى، وارتبطت الدولة بهذا الاعتبار، واصطبغت بهذه الصبغة، فستكون النتيجة- ولا شك- تمسك الحاكمين بفرائض الإسلام، واتصافهم بآدابه وكمالاته، ثم صدور كل التشريعات وخضوع كل النظم الاجتماعية في الدولة لتوجيهاته وأحكامه، فيحقق حكم الله فرديا واجتماعيا ودوليا، وهو المطلوب. أين نحن من هذا كله؟

الحق: أننا لسنا منه في شيء. وكل حظنا منه: نص.. من الدستور، ثم ما بقي في نفوس هذا الشعب من مشاعر وعواطف، وتقدير، وأعمال وعبادات. أما الحكومة والدولة ففي واد، وحكم الله في واد آخر(...).

ويا أيها الأمة أنت المسؤولة عن الرضا بهذا الخروج عن حكم الله(...) فناضلي حكامك، وألزميهم النزول على حكم الله، وخوضي معهم معركة المصحف، ذلك النصر بإذن الله»(٢٠٣).

---

(٢٠٣) حسن البنا: معركة المصحف، أين حكم الله؟ جريدة الإخوان المسلمون اليومية، السنة الثالثة، العدد ٦٢٧، الأحد ٧ رجب سنة ١٣٦٧هـ- ١٦ مايو ١٩٤٨م، ص ٣، ٥. وانظر له أيضا: معركة المصحف، القضاء والتشريع والمحكمة من حكم الله، نفس المصدر، عدد ٦٣١، ١١ رجب ١٣٦٧ هـ- ٢٠ مايو ١٩٤٨، ص ٣، وأقرر أن حسن البنا كان يقرر هذا الأصل ويدعو إليه من فترة مبكرة في حياة الدعوة، وليس كما قال محمد قطب: «لم يكن واضحا تماما في مبدأ الطريق أو كان خافيا وراء الحماسة العاطفية للجماهير، فقد اتضح في حسن البنا الإمام الشهيد في أيامه الأخيرة..إلخ». انظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر، ط ١، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦، ص ٤٢٧، ص ٤٣٠.

أقول: لقد كان واضحا في حسِّ حسن البنا ووعيه، ودعوته منذ البداية، وباستمرار. انظر مثلا: حسن البنا: أفحكم الجاهلية يبغون؟ (رسالة إلى مصطفى النحاس) مجلة النذير، السنة=

وفي ١١ يوليو عام ١٩٣٩م كتب حسن البنا تحت عنوان: «الحاكمية لشرع الله»:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

في صدر هذه الآية الكريمة أمر من الله للمؤمنين أن يقوموا بالطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر منهم؛ الذين يشاركونهم إيمانهم، ويحرسون دينهم وعقيدتهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإلا انتفت عنهم صفة الولاية: إذا خالفوا هذه القواعد، لأنهم حينئذ لا يكونون من المؤمنين.

ثم يبين- تبارك وتعالى- أن الخلاف إذا وقع بين الراعي والرعية، أو بين ولي الأمر والمأمور؛ رُدّ ذلك الخلاف إلى الله ورسوله؛ إلى القانون العام؛ إلى الدستور الخالد الذي تركه فينا رسول الله ﷺ، إلى كتاب الله وسنته محمد ﷺ، ثم كان الحكم في ذلك الخلاف، لذلك الدستور، فإذا قضى لأحد الفريقين؛ لزمه القضاء.

هذه هي القاعدة(...) التي يجب أن يسلم بها كل مؤمن اعتقد صدق الرسول، وأحقية القرآن سواء أكان حاكما أو محكوما.

=الأولى، العدد ٦ (٦ جمادى الأولى ١٣٥٧ هـ) ص ٣ – ٥ (يعني قبل عشر سنوات من مقال معركة المصحف).

حسن البنا: «مذكرة الإخوان المسلمين إلى وزير العدل، في وجوب: العمل بالشريعة الإسلامية. مجلة النذير، السنة الأولى، العدد ٧ (٣ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ) ص ٣ -٨.

أقول: وهذه المقالات الأربعة، وما في معناها في رسائل: (تحت راية القرآن، ورسالة المؤتمر الخامس) تحدد بجلاء عقيدة الحكم بما أنزل الله، ومن الضروري جمعها ونشرها في كتاب مستقل.

وإنما قلت هذا لأنصف الرجل، ولأذكر بأصل من أصول الإيمان، أوضحه هذا الرجل بجلاء، رحمه الله.

وانظر دراستنا: التربية السياسية عند جماعة الإخوان المسلمين، ط ١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩٠، ص ٢٥٤.

ولكن قوما مرضى القلوب من المنافقين أبوا هذا التسليم، ولجؤوا إلى أحكام الجاهلية، وتمردوا على حكم رسول الله بينهم، واعترضوا عليه فعاقبهم الله عقابا مرا، ويبين أن ذلك لا يتفق مع الإيمان، فذلك قوله- تعالى: ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، ويبين أن ذلك هو النفاق، الذي يورث الصدود عن الهدى، (...). ثم يبين أن مهمة الرسول تستلزم طاعته، وأقسم- تبارك وتعالى- بذاته مضافا إلى رسول ﷺ تعزيزا وتكريمًا، أن الإيمان لا يتحقق لأحد حتى يجعل الرسول أميرا (حاكما) على نفسه، ويحكمه فيما شجر بينه وبين غيره، ويتقبل حكمه بالرضا التام والتسليم المطلق، بغير حرج في الصدر ولا غضاضة في النفس حتى ولو كان هذا الحكم قتلًا لنفسه أو هَجْرًا لوطنه وبلده في سبيل الله(...) ثم يبين- تبارك وتعالى- أنهم لو أطاعوا لنالوا الظفر بالأجر العظيم والهداية إلى الصراط المستقيم، ولكان ذلك خيرا لهم وأشد تثبيتا.

ليقرأ الذين يعترضون المطالبة بأحكام الله في أمة تدعي الإسلام، ثم يوردون الشبهات على حدود الله، التي أمر بها، زجرا عن المعصية، ومحاربة للجريمة.. هل هم لا يزالون بعد هذا مصرين على دعوى الإيمان»[٢٠٤].

هذا هو الركن الرابع للعبادة، وتوحيد الله، والإيمان به إلها واحدا.

هـ - الركن الخامس: تحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين، وتحقيق البراء من المشركين والكافرين ومن الشرك والكفر، وخلف الأنداد والشركاء من القلب:

هذا الأصل ذو فروع عدة: فهو يعني: التزام موالاة الله، أي محبته، ونصرة دينه، ومحبة من يحب، ونصرته، وبغض ما يبغض، وإفراده بكمال المحبة له،

---

(٢٠٤) حسن البنا: مجلة النذير، السنة الثانية، عدد ٢١ (جمادي الأولى ١٣٥٨هـ - ١١ يوليو ١٩٣٩م) ص ١٢. وهو منشور في: سلسلة من تراث الإمام البنا، الكتاب الثالث، من وحي القرآن، دار الدعوة، الإسكندرية، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ٢٣١، ٢٣٢.

وفيه، والتزام محبة المؤمنين، ونصرتهم، وربط المصير بالمصير، وبغض الشرك والكفر، والمشركين، وخلع الأنداد من القلب، وبغضهم، وإعلان البغض والعداوة لهم، وقطع ولايتهم، محبة، ونصرة، وأتناول جملة ذلك في إيجاز وتحديد، فيما يلي:

١- مفهوم الولاء:

يتركب مفهوم الولاء: من المحبة، والمتابعة، والنصرة، والقرب، والإقبال على الشيء، وربط المصير بالمصير. يقول الراغب: «الولاء، والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعدا، حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُسْتعاد ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة، والنصرة، والاعتقاد، والولاية: النّصْرة..»[٢٠٥] فالموالاة تعني « القرب، والصداقة، والنصرة».

ويقول ابن منظور: «والوَلاية، والوِلاية: النصرة، (...) قال: والولاية على الإيمان: واجبة، المؤمنون بعضهم أولياء بعض.. قال: والمولى: الحليف، وهو من انضم إليك، فعز بعزك، وامتنع بمنعتك.. والمولى: الناصر.. ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] أي تنصروهم.. ووالى فلان فلانا؛ إذا أحبه، (...) والولي: الصديق، والنصير.. الولي: التابع، المحب (...) والموالاة: ضد المعاداة، والولي: ضد العدو، ويقال منه: تولاَّه،(...) قال ثعلب: كل من عبد شيئا من دون الله فقد اتخذه وليا، وقوله- عز وجل ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧] (...) في نصرهم على عدوهم، وإظهار دينهم على مخالفيهم(...) وتولاه: اتخذه وليًا(...) والْوَلْي: القرب والدنو(...) وتوالى الشيء: تتابع، والموالاة: المتابعة»[٢٠٦].

---

(٢٠٥) الراغب الأصفهاني: المفردات، ص ٥٣٣.

(٢٠٦) ابن منظور: لسان القرب، ج ٦، دار المعارف، ص ٤٩٢٠- ٤٩٢٥.

فالموالاة: تعني: الحب، والقرب، النفسي والعاطفي، والاتباع، والنصرة والمظاهرة، والتأييد، فقوله- تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] أي: من يتبعهم وينصرهم(٢٠٧). فموالاة الله؛ تعني: محبته بالقلب، واتباع شرعه، ونصرته، وتأييده والتقرب إليه، والإقبال عليه وتبجيله ظاهرا وباطنا، ومحبة ما يحب، ونصرته ومظاهرته، وبغض ما يبغضه، والتبرؤ من أعدائه، المحادين له، وإظهار البغض والعداوة للشرك، والأنداد، والمشركين.

فالولاء يقتضي البراء.

والولاء يعني أيضًا: ربط المصير بالمصير، وهو ما يدل عليه قول النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية للمؤمنين الأنصار الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، ففي المسند من حديث كعب بن مالك، وكان ممن شهد العقبة: قال: «فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، حليف بني عبد الأشهل، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها- يعني: العهود – فهل عسيت، إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»(٢٠٨).. إلخ. وفي المعجم الكبير: «فأجابه البراء بن معرور فقال: نعم والذي بعثك بالحق، فبايعنا يا رسول الله(...) فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين قومه حبالًا، وإنا قطعوها، فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قدمك، وتدعنا: فقال رسول الله ﷺ: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم**» فقال البراء بن معرور: ابسط يدك

---

(٢٠٧) محمد بن سعيد القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام، من مفاهيم عقيدة السلف، ص ٨٧- ٨٩.
وانظر: ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، في: مجموعة التوحيد، ص ٤٦٩.

(٢٠٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٧٣٨، ص ٣٢٠ – ٣٢٤.

أبايعك»(٢٠٩).

فالولاء يعني: ربط المصير بالمصير، فدم المسلم هو دم أخيه، وهدمه هو هدم لكل مسلم، وهو منه يسالم من يسالم، ويحارب من يحارب، هذا ما أعنيه بربط المصير بالمصير.

إن الولاء يعني: حب المؤمن للمؤمن، ونصرته، وتأييده، لأنه مؤمنٍ بالله، ويحبه الله، فهو يحب الله، ويحب من يحبه الله، وينصره، ويربط مصيره بمصيره.

٢-مفهوم البراء:

قال الراغب: «أصل البُرْء والبراء والتبرِّي: التَّفَصّي مما يكره مجاورته..»(٢١٠) أي: الانفصال والابتعاد الناشئان عن الكراهية، وقال ابن الأعرابي: «برئ: إذا تخلص، وبرئ: إذا تنزه وتباعد، وبرئ إذا أعذر وأنذر(...) والبراء، والبريء: سواء(...) وبارأتْ شريكي: إذا فارقته(...) البريء: المتفصي من القبائح، المتنحِي عن الباطل والكذب، البعيد من التهم، النقي القلب من الشرك»(٢١١).

فالبراء: يعني: البغض، والابتعاد، والمفارقة، والتخلص، والتباعد، والمعاداة بعد الإعذار والإنذار(٢١٢)، وخلع الشرك، والمشركين، والأنداد من القلب، ونزع حبهم والميل إليهم تماما.

٣-الولاء والبراء من مقومات التوحيد:

٣-١: يقول ابن القيم: «وكمال هذا التوحيد: هو ألا يبقى في القلب شيء

---

(٢٠٩) الطبراني: المعجم الكبير، ج١٩، رقم ١٧٤، ص ٨٧ - ٩٠، قال محققه: «رواه أحمد، وهو في سيرة ابن هشام، قال في المجمع: ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحق، وقد صرح بالسماع. قلت: صرح بالسماع عند الثلاثة..».

(٢١٠) الراغب: المفردات، ص ٤٥.

(٢١١) ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٢١٢) القحطاني: الولاء والبراء.. ص ٩٠.

لغير الله، أصلا، بل يبقى العبد مواليا لربه في كل شيء، يحب من أحب، وما أحب، ويبغض من أبغض، وما أبغض، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه».

ويربط ابن القيم- مستندا إلى القرآن الكريم - بين الولاة والربوبية والألوهية، مقررا أن ولاية الله هي ركن من أركان الرضا به، فيقول شارحا للرضا: «وهو الرضا بالله ربا، وتسخط عبادة ما دونه، وهذا قطب رحى الإسلام، وهو يطهر من الشرك الأكبر» الرضا بالله ربا: ألاَّ يتخذ ربا غير الله تعالى، يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله- تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (سيدا وإلها)؛ يعني: فكيف أطلب ربا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ١٤] يعني: معبودا وناصرا، ومُعينا، وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه: سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلا، مبينا كافيا شافيا؟

وأنت إذا تأملت هذه الآيات حق التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا. ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربا ولا يبغي ربا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرا، بل يوالي من دونه أولياء، ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: ألاَّ يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان، ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه: لون، واتخاذ الولي من دونه: لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة: أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما: يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربا، ولا إلها، ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربا: أن يسخط عبادة ما دونه؛ هذا هو الرضا بالله إلها، وهو من تمام الرضا بالله ربا، فمن أُعْطِي الرضا به ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعا؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته، يستلزم تجريد عبادته(...).

قال: وهو يصح بثلاثة شروط: أن يكون الله- عز وجل- أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة.

يعني: أن هذا النوع من الرضا إنما يصح بثلاثة أشياء أيضا:

أحدها: أن يكون الله- عز وجل- أحب شيء إلى العبد، وهذه تعرف بثلاثة أشياء أيضا:

أحدها: أن تسبق محبته إلى القلب كل محبة، فتتقدم محبتهُ المحاب كلها.

الثاني: أن تقهر محبته كل محبة، فتكون محبته إلى القلب سابقة قاهرة. ومحبة غيره..منطوية في محبة.

الثالث: أن تكون محبة غيره تابعة لمحبته، فيكون هو المحبوب بالذات، والقصد الأول، وغيره محبوبا تبعا لحبه، كما يطاع تبعا لطاعته. فهو في الحقيقة: المطاع المحبوب.

وهذه الثلاثة في كونه أولى الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضا.

فالحاصل: أن يكون الله وحده المحبوب، المعظم المطاع. فمن لم يحبه، ولم

يطعه، ولم يعظمه؛ فهو متكبر عليه، ومتى أحب معه سواه، وعظم معه سواه، وأطاع معه سواه؛ فهو مشرك. ومتى أفرده وحده بالحب، والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد (...)»(٢١٣).

٣-٢: إذن ولاية الله، واتخاذه وليا: أساس من أسس التوحيد، ولذلك قال تعالى على لسان محمد رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الأعراف: ١٩٦].

وفي رسالة العبودية يقول ابن تيمية: «وإنما عبد الله: من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، وهذا هو الذي استكمل الإيمان، (...) فهذا وافق ربه فيما يحبه ويكرهه، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواها، وأحب المخلوق لله، لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأولياء الله؛ لأجل قيامهم بمحبوبات الحق، لا لشيء آخر؛ فقد أحبهم لله، لا لغيره(...) وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله، وذلك لأن الجهاد حقيقته: الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله: من الكفر، والفسوق والعصيان(...) فحقيقة المحبة: لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض»(٢١٤).

إذن من العبادة، والتوحيد: أن نفرد الله بالولاية، فنواليه، ونوالي فيه، فنحب الله ورسوله، ونحب المؤمنين، وننصرهم، ونربط مصيرنا بمصيرهم، ونحب الخير، وكل ما يحبه الله ورسوله، وننصره. ونبغض الشرك،

---

(٢١٣) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ١٨٩- ١٩١.

(٢١٤) ابن تيمية: العبودية، ط المكتب الإسلامي، ص ١٠٢- ١٠٥.

والمشركين، وأعداء الله ورسوله والمؤمنين، ونبرأ منهم، ونجاهدهم، ونعلن العداوة والبغضاء لكل من يحاد الله ورسوله، ويشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى.

٤- وهذا الأصل مقرر في القرآن الكريم؛ والحديث الصحيح، وسوابق السيرة النبوية، بما لا نزيد عليه؛ ومن ذلك: قول الله- تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[المائدة: ٥٥].

فالذين نواليهم: هم الله، ورسوله، والمؤمنون الموصوفون بأوصاف الإيمان.

وقال- تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ويربط ابن كثير بين هذه الآية وما يماثلها في القرآن، فيقول: «نهى- تبارك وتعالى- عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء؛ يسرون إليهم بالمودة، من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾؛ أي: ومن يرتكب نهي الله في هذا؛ فقد برئ من الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الممتحنة: ١]، وقال- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٤٤]، وقال- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؛ وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ أي: من خاف في بعض البلدان، والأوقات، من شرهم؛ فله أن يتقيهم بظاهره، لا بباطنه ونيته، كما قال البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: «**إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم(...)**»، ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ؛ أي: يحذركم نقمته من مخالفته، وسطوته

وعذابه، لمن والى أعداءه، وعادى أولياءه»(٢١٥).

وقال- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، فهذا نص على أن من شرط الإيمان أن نحرر ولاءنا لله ورسوله والمؤمنين، ونحرره من المستهزئين بديننا من الكفار بالله.

ويبين الله- تعالى- أن موالاة المحادين لله ورسوله: مجانبة للإيمان، ومخالفة له، وليست من صفات المؤمنين، فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال ابن كثير: «أي لا يوادون المحادين، ولو كانوا من الأقربين»(٢١٦).

والمحادون لله: هم المعاندون له، والذين هم في حد، والشرع في حد، أي: مجانبون للحق، مشاقون له، هم في ناحية، والهدى في ناحية(٢١٧).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: مَن اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله، ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان.

فالبراء والمعاداة للمحادين لله، ودينه، ركن في الإيمان، وموالاتهم شرك، وكفر، بالله، واليوم الآخر.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

---

(٢١٥) ابن كثير: تفسير، ج ١، ص ٣٥٧.

(٢١٦، ٢١٧) السابق، ج ٤، ص ٣٢٩.

يقول حسن البنا: «هذا هو امتحان الله لعباده، لا بد منه، حتى يتميز الشجاع المؤمن من الجبان المنافق، ولن يترك الناس هكذا؛ بل لا بد من التميز، ولا يكون التميز إلا بالشدائد والاختبارات، فلا يحس الناس أنه يكفيهم دعوى الإيمان حتى يقيموا عليها الحجة والبرهان فيخلصوا لله، ولرسوله، ولدعوته الحق، ويجاهدوا في سبيلها ولا يتخذوا المشركين والمنافقين أصدقاء ولا أحباء ولا إخوانا»(٢١٨).

ويقول حسن البنا في معنى قول الله- تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤]:

«التجرد: (...) جاءت هذه الآيات تبيانا لواجبات المسلمين في مجتمعهم الجديد، أو القواعد الأساسية التي يجب أن يقوم عليها هذا المجتمع، وأول هذه الواجبات: «التجرد»: التجرد للفكرة التي آمنوا بها، والتضحية في سبيلها بكل شيء؛ بولاية الآباء، وهم أقرب الناس إلى القلب، والإخوة، وهم السناد في هذه الحياة، ومن هنا اشترط الله على المؤمنين أن يبرؤوا من الآباء والإخوة إذا وقفوا في طريق الدعوة، واستحبوا الكفر على الإيمان، فإذا لم يحقق أحد المسلمين هذا الشرط، فقد ظلم نفسه بادعاء الإيمان، وظلم الحق في هذه الدعوى غير الصادقة (...).

وهذا المعنى أوضح ما يكون في الآية التالية؛ فقد جمع القرآن الكريم مباهج الحياة، ومجامع زينتها، وقوام شؤونها، من الآباء، والأبناء والإخوان

---

(٢١٨) حسن البنا: من تراث الإمام البنا، الكتاب الثالث من وحى القرآن دار الدعوة، ص٢١٧.

والأزواج والعشيرة والأموال والمتاجر، والمساكن، وليس في الدنيا إلا هذه الثمانية – في كفة واحدة، ووضع قبالتها حب الله ورسوله والجهاد في سبيله: فأيما مؤمن رجح عنده حب الله ورسوله على هذه المحبوبات، فهو قوي صادق الإيمان، قوي اليقين. وأيما رجل كانت هذه الثمانية مجتمعة، أو كان بعضها أحب إلى نفسه وأقرب إلى قلبه من حب الله ورسوله، كان ناقص الإيمان، ضعيف العقيدة، والله لا يهدي القوم الفاسقين (...).

وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟

ولا يمكن أن يتم إيمان عبد أو يتحقق إلا إذا أحب الله ورسوله من كل قلبه وظهرت آثار هذا الحب في تصرفاته، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقد روى الشيخان عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**» (...) إلخ[219].

٥- والبراء أصل في ملة إبراهيم التي أمرنا باتباعها، ويعني البراء:

٥-١: اجتناب عبادة الأوثان، واعتزالها: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

٥-٢: البراءة، وإظهار البغض والعداء لكل شرك وعبادة لغير الله، ولكل معبود من دون الله، يرضى بذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، أي: إنني بريء؛ مبغض، معاد، متخلص، متباعد، مما تعبدون، إلا الله، فإنني أواليه، وأحبه وأنصره، وأعبده وحده.

---

(٢١٩) حسن البنا: المصدر السابق، ص٢٦٦ – ٢٦٩.

٥-٣: قال: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٧٥ – ٧٧]، فكل ما يعبد من دون الله يجب أن نظهر لـه العداوة والبغض.

٥-٤: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأنبياء:٦٧].

٥-٥:﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، فأنا بريء من شرككم، وبريء من أندادكم التي تشركونها مع الله.

٥-٦: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[التوبة : ١١٤] إذن كل ما تبين لنا، وبالدليل والحجة أنـه عـدو لله، بمحادته لله ولدينه، بعد ما عرف الحق، وقامت عليه الحجة الرسالية التي يكفر تاركها، وبعد تحقق الشروط وانتفاء الموانع، كل ما تبين لنـا أنـه عـدو لله فيجب أن نتبرأ منه، ونطبق عليه مفهوم البراء: البغض والابتعاد، والمفاصـلة، وإظهار العداوة.

٥-٧: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[الممتحنة: ٤-٦]. فجعل الله لنا أسوة حسنة في كل ذلك إلا في استغفار إبراهيم لأبيه المشرك.

فهذه ملة إبراهيم: أن نعلن البراءة: أي البغض، والإنكار عـلى المـشركين، وعلى الشرك، والكفر بهم، والسخط عليهم، وإبداء – أي: إظهـار- العـداوة والبغضاء دائما لهم، حتى يؤمنوا بالله.

٥-٨: فضح الشرك، وتعرية تفاهة المشـركين: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

وهكذا: ينبغي ألا يكون في قلوبنا هوادة للشرك، والمشركين، وأعداء الله والمحادين.

٦- وقد قررت الأحاديث الصحيحة هذا الأصل، وأكتفي منها بما يلي:

٦-١ : أخرج البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(٢٢٠).

وأخرجه في الأدب عن أنس، بلفظ: قال النبي ﷺ: «**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحبُّ إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»(٢٢١).

ورواه النسائي ولفظه: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها، وأن يحب في الله، وأن يبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا**»(٢٢٢).

وأخرجه ابن أبي الدنيا ولفظه: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، وحلاوته: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب في الله،**

---

(٢٢٠) فتح الباري، ج ١، رقم ١٦، ص ٦٠، ورقم ٢١، ص ٧٢، ورواه مسلم، إكمال المعلم، ج ١، رقم ٦٧، ص ٦٧، ص ٢٧٨.

(٢٢١) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٤١، ص ٤٦٣.

(٢٢٢) سنن النسائي، ج ٨، رقم ٤٩٨٧، ص ٦٩- ٧٠.

ويبغض في الله، وأن لو أوقدت نار عظيمة لو وقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله»(٢٢٣).

فالمسلم لن يجد طعم الإيمان وحلاوته حتى يتحقق بالحب في الله، والبغض في الله، وأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لغيرهما، وأن يحب التوحيد.

يقول الشيخ حسن البنا – رحمه الله- في شرح هذا الحديث: «العقيدة إذا تمكنت من النفوس، واستولت على القلوب وتغلغلت بين الجوانح، واستقرت في أعماق الأفئدة، ودانت بها الأرواح واعتقدتها، لابد أن يكون لها مظاهر وآثار تدل عليها وتنتج عنها، فإذا لم تترك أثرًا ظاهرًا، ولم تحمل على عمل واضح كان ذلك لأحد أمرين، لا ثالث لهما:

إما لأنها عقيدة عقيمة لا تأتي بخير. وإما لأن الإيمان بها ناقص، وسلطانها على القلب ضعيف.

وكثير من أولي (أصحاب) العقائد قضوا (ماتوا) وهم أثبت من شم الجبال، لم يتزحزحوا عن مبادئهم ولم يفارقوا عقائدهم ولم يبيعوا إيمانهم رغبة أو رهبة(...) فلم ينحرفوا عنه فيه شعرة ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦].

هذه بعض آثار العقيدة الصحيحة في نفوس من يعتقدونها، وقد حدثنا النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف عن علامات ثلاث لقوة العقيدة وثبات الإيمان:

---

(٢٢٣) صحيح: ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، تحقيق محمد عبد الرحمن طوالبة، دار الاعتصام، رقم ١٦، ص ١٠٢ وللحديث روايات كثيرة في المسند لأحمد، وسنن ابن ماجه، وابن المبارك، والمعجم الكبير، وغير ذلك.

أولها: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»: فيسمو بعقيدته عن أن يزينها بعرض من أعراض الحياة، أو يبيعها بغاية من غاياتها، وإنما تكون هذه العقيدة محور أعماله، ومعقد آماله، هي له كفاء، وكل شيء لها فداء قد تحدث بها نفسه (...) يقف عليها كل مواهبه، ويخضع لها جميع مطالبه(...) فما أسمى أن تكون غايتك الأولى في حياتك حب لله ورسوله، وأن الله لا يرضى من عباده الصادقين بغير ذلك، واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] على هذه المبادئ تربى رجال الإسلام الأولون؛ فباعوا لله ورسوله نفوسهم وأموالهم (...).

وثانية هذه الخصال: «أن يحب المرء لا يحبه إلا لله»: وذلك أن النسب والصلة والأخوة، والقرابة بين أولي العقائد(...) أمتن وأخلد وأبقى من الصلة الرحمية والنسبية الدموية (...) وها أنت رأيت أن السلف الصالح- رضوان الله عليهم- فهموا ذلك من كتاب الله، فكانت العقيدة، كل شيء عندهم، بها تقرب الأنساب المتباعد، (...) وتجتمع القلوب المتخاصمة، ذلك إن اتحدت، فإن اختلفت فقد تباعدت الأنسابُ، وتعطلت الأنساب ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤]، وحتى هذه الصلة بين إبراهيم وبنيه قد انقطعت حين اليأس من هدايته، والقنوط من إيمانه ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾.

ولقد بارز أبو عبيدة أباه في غزوة أحد، «وضرب أمثلة رائعة».

ومنها الصلة والمحبة الاندماجية بين المهاجرين والأنصار»، ثم قال: «كذلك إذا استولت العقيدة على قلب صاحبها: كان كل شيء يتصل بها حبيبًا إلى نفسه، أثيرًا لديه، مقربا عنده، وكان كل شيء يخالفها أمامه بعيدًا عن نفسه:

أيا ساكني أكتاف دجلة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

فإذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة – مرتبة حب إخوانه في العقيدة والإيمان- كان ذلك دليل تغلغل العقيدة في نفسه، وتمكين الإيمان من فؤاده.

وكذلك قل في البغض في الله – أيضا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢]، وفي الحديث: «**وهل الإيمان إلا الحب، البغض**» ولهذا كانت **العلامة الثالثة**:

«**أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار**»، فهو ثابت على عقيدته، قوى في إيمانه، يكره كل ما يخالفها، ويمقت أن يعود إلى نقيضها (...) كما يكره أن يلقى في النار.

إذا وجدت هذه الدلائل الثلاث: دل ذلك على وصول العبد إلى ذروة الإيمان وكمال اليقين، وهناك يجد سعادة المؤمنين، ولذة الموقنين، التي دونها كل لذة(...) وما السعادة إلا عقيدة تنبع من القلب، ولا تأتي من خارجه أبدا.

وإن المؤمنين ليجدون من نعيم إيمانهم، وحلاوة يقينهم – ما يجعلهم يحقرون كل لذة، ويستقلون كل سعادة إلا سعادتهم، مهما أوذوا في سبيلها، ومهما وجدوا من عَنَتٍ وإرهاق.

(وساق أمثلة عظيمة، في ذلك ثم قال):

وبعد: فاقرأ هذين البيتين بتفهم وتدقيق، لترى إلى أي حد يستشعر

المؤمنون لذة إيمانهم ويغالون بها فوق كل شيء:

أيا صاحبي قف لي مع الحق وقفة أموت بها وجدا، وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يُهدى»(٢٢٤)

ويقول حسن البنا في نفس الحديث أيضا في (٢٠ يونيو ١٩٣٩): «للإيمان حلاوة وطعم ولذة، يتذوقها القلب، وتنعم بها الروح، وتظهر آثار ذلك على الجوارح وفي الأعمال، ومن أراد أن يظفر بهذه اللذة الروحية فعليه بهذه الثلاث خصلات:

- أن يحب الله ورسوله فوق كل شيء، وآية ذلك، وعلامته: أن يقدم مرضاتهما وطاعتهما على كل عزيز في الحياة.

- وأن يحب إخوانه من المسلمين، لله، فيسلم صدره..من كراهتهم، ومن بغضهم، وحسدهم، والحقد والعدوان عليهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه، ويؤثرهم إن استطاع سبيلا إلى الإيثار، حتى تقوى الرابطة الإسلامية؛ فلا يجد العدو ثغرة ينفذ منها إلى صفوف المسلمين.

- وأن يكره الكفر ومظاهر الكفر، وأعمال أهل الكفر، والعودة إليها؛ كما يكره أن يقذف في النار.

تلك هي صفات المؤمن الحق الذي يحرص على أن يتذوق حلاوة الإيمان.

أما إذا كانت طاعة الله ورسوله بغيضة إليه، وهو يسارع دائما إلى العصيان، والهزء بأحكام الله؛ وأما إذا كان يمنح مودته وعطفه وصلته وبره لغير إخوانه من المسلمين، من أجانب وكفار، وأما إذا كانت عاداته وأعماله أعمال أهْل الكفر، ورضا بقانون أهل الكفر، وتعليم أهل الكفر في نفسه وفي بيته وفي كل شأنه؛ فهذا محروم مطرود من رحمة الله.

---

(٢٢٤) حسن البنا: حلاوة الإيمان، في: من تراث الإمام البنا، الكتاب الأول العقيدة والحديث، دار الدعوة، اسكندرية، ٢٠٠٤م، ص ٢١٣ - ٢١٨ وقد كتب هذا في ٥ أكتوبر ١٩٣٤.

فأي الفريقين أنتم يا مسلمي هذا الزمان؟ انظروا – واعترفوا. وتوبوا إلى الله»(٢٢٥).

٦-٢: روى الطبراني في الكبير عن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»(٢٢٦).

٦-٣-أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول ﷺ لأبي ذر: «**أيُّ عرى الإيمان**»- أظنه قال: أوْثق؟ قال: الله ورسوله أعلم: قال: «**الموالاة في الله، والمعاداة في الله ، والحب في الله، والبغض في الله**»(٢٢٧).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس- موقوفا- قال: «أحب في الله، وأبغض في الله، ووالِ في الله، وعاد في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولا يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك»(٢٢٨).

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد: قال: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغضُ في الله»(٢٢٩).

إذًا نجد أن ولاية الله لا تنال إلا بالموالاة فيه، والمعاداة فيه، والحب فيه

---

(٢٢٥) حسن البنا: حلاوة الإيمان، مجلة النذير ـ السنة الثانية، العدد١٨ (١ جمادى الأولى ١٣٥٨ هـ ٢٠ يونيو ١٩٣٩م) ص ١٥ وهو منشور في المصدر السابق، ص ٢١٩ – ٢٢٠.

(٢٢٦) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٨، رقم ٧٦١٣، ص ١٣٤، ١٣٥ ورواه برقم ٧٧٣٧، ص ١٧٧. وحسنه الألباني – في الصحيحة (رقم ٣٨٠) وصححه في صحيح الجامع من رواية أبي داود والضياء في المختارة، انظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٥٩٦٥، ص ١٠٣٤ ورواه ابن أبي الدنيا موقوفا على أبي الدرداء، كتاب الإخوان، رقم ١٧، ص ١٠٢ – ١٠٣، وقال عبد القادر الأرنؤوط: هو حديث صحيح بشواهده. فتح المجيد ص ٣٩٧ هامش رقم (١) أخرجه أبو داود في السنة، والبيهقي في الاعتقاد، ص ١٧٨.

(٢٢٧) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١١، رقم ١١٥٣٧، ص ١٧١- ١٧٢. وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج١، ط٣، رقم ٢٥٣٩، ص٤٩٧، وأخرجه في الصحيحة رقم ١٧٢٨، وحسنه عبد القادر الأرنؤوط في تخريج فتح المجيد، ص٣٩٦، هامش رقم (١).

(٢٢٨) ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم ٢٢، ص ١٠٦، ١٠٧. وأخرجه ابن المبارك: الزهد، ص ١٢٠، ١٢١، رقم ٣٥٣.

(٢٢٩) إسناده صحيح، كتاب الإيمان لابن أبى شيبة، رقم ١١١، ص ٣٧.

والبغض فيه.

٧- **من ذلك كله يتبين:** أن تحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين، هو أساس من أسس الإيمان والتوحيد والعبادة، والدين، وذلك بأن نحقق حد الولاء لله، ورسوله، والمؤمنين، وأن نحقق حد البراء بشروطه مع المحادين لله ورسوله ودينه.

ومما سبق نستنتج أن الولاء لله ورسوله والمؤمنين ركن في الإيمان، وأنه محظور على كل المسلمين:

«أن يتولوا الكافرين، فولاية الكافرين: كفر صريح بواح.

أن يتولى المرء غيره بغير ولاية الإسلام»(٢٣٠).

فولاية المسلم لغيره ليست بسبب الأرض أو العنصر أو اللغة، أو القومية، أو الطائفية، أو المصلحة، أو الجنس، أو اللون، بل هي ولاية لأجل الدين والإيمان، فالرابطة بين المسلم وغيره هي الإيمان، والمفاصلة تكون على هذا الأساس وحده، وحب المسلم لغيره يكون داخل هذا الإطار. يقول الشاذلي: «وداخل هذا الإطار وليس خارجه، يكون حب الإنسان لأسرته، وذوي رحمه، وعشيرته، ووطنه، وعصبته، من غير تعد ولا توهين لعرى التجمع الإسلامي، ولا تغليب لهذه الروابط على رابطة الإسلام (...) هذه الروابط، داخل رابطة الإسلام، عن غير تفريق لجماعة المسلمين، فلا بأس بها، بل أمر بصلة الرحم، وحق الجار، وورّث العصبة.. وما إلى ذلك»(٢٣١).

---

(٢٣٠) عبد المجيد الشاذلي: حد الإسلام، ص ٥٢٠.

(٢٣١) المرجع السابق، ص ٥٢٠، هامش رقم (١)، ويرجع إلى: كتاب: الولاء والبراء، وحد الإسلام (الباب الرابع) وشرح كتاب التوحيد [فتح المجيد]، ص ٣٨٥ - ٣٩٩، ومجموعة التوحيد.
تفسير الطبري وابن كثير وسيد قطب للآيات التي ذكرناها في هذا المبحث، ودراسة كل ما سبق بعناية وتركيز.

٨- وننبه إلى أن البغض للمشركين والشرك، والأنداد لا بد منه دائما، وإعلان البغض لعبادة غير الله لا بد منها دائما، وإظهار البغض والمعاداة، والكفر بالمشركين، وخلعهم له شرطان:

الأول: أن يكونوا مشركين، محادين لله قد قامت عليهم الحجة التي يكفر تاركها، وأعذرنا فيهم إلى الله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة:١١٤] والتبرؤ العلني مشروط بتبين أنهم مشركون محادون أعداء لله، وثبت فيهم ذلك بالدليل، وأن تكون قد قامت عليهم الحجة، كما سنبين في الأصل الأخير من هذا الفصل.

والشرط الثاني: ألاَّ نتقي منهم تقاة، وألا يترتب على إظهار البغضاء والعداوة لهم منكر يفوق إعلان البراءة.

ونشير إلى أن تحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين، لا يعني الجلافة وعدم القسط، ولا يعني ارتكاب خيانة، فلا بد من القسط في المعاملة، وحسن الخلق ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وعدم سب الذين يعبدون ويدعون من دون الله، ولا بد من إحسان الجوار، وحسن المعاملة، وكل هذا في المشركين المحادين، أما غير المحادين من المشركين؛ فلهم- مع كل ذلك- البر: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾.

كما أن تحرير الولاء عن الكافرين لا يعني عدم الاستفادة بما عندهم من علوم وتقدم مدني، بل هذا شيء، وهذا شيء آخر.

أما عصاة الموحدين فهم يحبون ويوالون بما معهم من الإيمان والتوحيد والطاعة، ويبغضون لما معهم من المعصية، دون إظهار البراءة والعداوة والبغضاء، وفي كل الحالات لا بد من (حسن الخلق) (والشفقة عليهم) ولهذا شروح ومحل آخر. والله الموفق.

و- توحيد العبادة تحرير كامل للإنسان:

وهذه حقيقة نفسية، والتحليل التالي برهنة عليها:

١- مفهوم التحرر والحرية:

التحرر: هو التخلص والانعتاق من قيد الشهوات، وقيد الجهل، وقيد التقاليد والأعراف والأوضاع الاجتماعية الفاسدة، وقيد التحكم من الآخرين، وقيد الخوف من ذوي السلطة خوف يشل الإرادة.

والحرية: هي أن تكونْ متحررا من أي قيد خارج رضاك، واختيارك أنت، وأن تعمل طبقا للعقيدة والقيم التي اخترتها برضاك وعبادة الله وحده: تحقيق لهذا الحد، فنحن نترك اختيارنا لمراد الله، باختيارنا.

وقد جاءت تعريفات للحرية والتحرر، يقول الراغب: «والحر: خلاف العبد(...) والحرية: ضربان: الأول: مَنْ لم يَجْر عليه حكم الشيء(...) والثاني: من لم تتملكه الصفات الذميمة؛ من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضاد ذلك: أشار النبي ﷺ بقوله: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار**».

وقول الشاعر:

وَرِقّ ذَوي الأَطماعِ رِقٌّ مُخَلَّد (...)

وحررت القوم: أطلقتهم، وأعتقتهم عن أسر الحبس..»(٢٣٢).

٢-وقد بنى القشيري تحديده للحرية على هذا الأساس، قال:

«**الحرية**: ألاَّ يكون العبد تحت رق المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المُكَوَّنات(...) واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية، فإذا صَدَقَتْ لله- تعالى- عبوديتُه: خلصت عن رق الأغيار حريتُه(...) الذي أشار إليه القوم

(٢٣٢) الراغب: المفردات، ص ١١١.

من الحرية: هو ألاَّ يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات، لا من أعراض الدنيا، ولا من أعراض الآخرة، فيكون فردا لفرد، لم يسترقه عاجل دنيا، ولا حاصل هوى، ولا آجل مُنًى، ولا سؤال ولا قصد، ولا أرب، ولا حظ(...) سمعت الجنيد يقول: إنك لا تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقيقة العبودية بقية»(٢٣٣).

أي: إذا نقصتَ من عبوديتك لله شيئا، فإنك لا تصل إلى صريح الحرية.

٣-وقد حلل ابن تيمية مفهوم العبودية، والحرية، وجاء تحليله تقريرا دقيقا ورائعا كما سبق، يقول بعد كلام:

«إذا تبين هذا فكمال المخلوق: في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله، وعلَت درجتُه، ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل؛ فهو من أجهل الخلق، بل من أضلهم(...) وفي (الصحيح) عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط**» (رواه البخاري وابن ماجه، وغيرهما).

فسماه النبي ﷺ: عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاءً وخبرا، وهو قوله: «**تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتُقش**»، والنقش: إخراج الشوكة من الرِّجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإذا مُنِع سخط (...).

---

(٢٣٣) القشيري: الرسالة، ص ١٠٩.

وهكذا حال من كان متعلقا برئاسةٍ أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه؛ إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رِق القلب وعبوديتُه، فما استرق القلب واستعبده؛ فالقلب عبده. ولهذا يقال:

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

ويروى عن عمر بن الخطاب ﷺ، أنه قال: «الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يَئس من شيء: استغنى عنه».

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه؛ فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيرا إليه، وأما إذا طمع في أمر من الأمور، ورجاه؛ فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيرا إلى حصوله، وإلى من يظن أنه سبب في حصوله وهذا في المال، والجاه، والصور، وغير ذلك(...) فالعبد لا بد له مِن رزق، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله؛ صار عبدا لله، فقيرًا إليه، وإذا طلب من مخلوق؛ صار عبدا لذلك المخلوق، فقيرا إليه(...) والإنسان من لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فلا يسأل رزقه إلا من الله، ولا يشتكي إلا إليه، (...) وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته؛ لقضاء حاجته، ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته؛ فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: «استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على ما شئت؛ تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره»؛ فكذلك طمع العبد في ربه، ورجاؤه له، يوجب عبوديته له(...).

وكل من علّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه، أو يرزقوه، (...) خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرا لهم،

مدبرا لأمورهم، متصرفا فيهم، فالعاقل: ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل: إذا تعلق قلبه بامرأة، ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيرًا لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها(...) ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولاسيما إذا علمت بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر، الظالم، في عبده المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإن أسر القلب أعظم من أَسْرَ البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه، واسترق، وأسر، لا يبالي ؛ إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأمّا إذا كان القلب- الذي هو ملك الجسم- رقيقا، فالحرية: حرية القلب، والعبودية عبودية القلب. كما أن الغنى غنى النفس(...) وهذا- لعمر الله- إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة امرأة أو صبى، فهذا هو العذاب الذى لا يدانيه عذاب.

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أَحْلى من ذلك، ولا ألذ، ولا أمتع، ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبا إلا لمحبوب آخر، يكون أحب إليه منه،أو خوفا من مكروه. فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر(...).

وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض: قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات(...) فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم(...) .

ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه،

الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض شيئا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فكلما قوي إخلاص دين لله؛ كملت عبوديته، واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله تكمل تبرئته من الكبر والشرك.

وإذا كان العبد مخلصا لله: اجتباه ربه، فأحيا قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك؛ من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك؛ بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبا وإرادة، وحبا مطلقا؛ فيهوى كل ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغُصْن: أيُّ نسيم مرَّ به عَطَفَهُ وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة، وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبا ونقصا، وذمًّا.

وتارة يجتذبه الشرف والرياسة؛ فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه، ولو بالباطل، ويعادي من يذمه، ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار.

وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه، بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصا لله، عبدا له، قد صار قلبه مُعْبَّدًا لربه وحده، لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلًا له، خاضعًا؛ وإلا استعبدته الكائنات(...) وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه»(٢٣٤).

وحين نعيد قراءة هذا النص، ونفككه، ونعيده بناءه في وعينا، يتبين أن التحرر الحقيقي هو في عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وتحقيق الأركان

---

(٢٣٤) ابن تيمية: العبودية، ص٨٠، ٨١، ٨٧، ٨٨، ٩٢، ٩٣، ٩٤- ٩٩، ١٠١، ١١٤، ١٤٠، ١٤٢.

الخمسة لتوحيد العبادة، التي أشرنا إليها سابقًا.

٤- وقد أكد سيد قطب - مرارا - هذه الحقيقة، فالتوحيد هو إعلان لتحرير الإنسان، يقول: «فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه.. وتحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم.. وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم.. وتحرروا من العبودية للعبيد من أمثالهم(...) واستحيوا أن يغضبوا الله، بعمل أو نية، وهم يتجهون إليه في الشدة، ويتضرعون، واستقاموا على الطريقة التي تحررهم وتطهرهم وتزكيهم، وترفعهم في العبودية للهوى، والعبودية للعبيد(...) إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان: تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله، تحريره من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر، وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله، ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس»[٢٣٥].

ويقول عن موقف المؤمنين الذين كانوا سحرة لفرعون، ثم آمنوا، وتَحَدَّوْا تعذيبه.. يقول: «إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية: هذا الذي كان بين فرعون وملئه، والمؤمنين من السحرة السابقين؛ إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بانتصار العقيدة على الحياة، وانتصار العزيمة على الألم، وانتصار «الإنسان» على «الشيطان».

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية. فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة، والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استغلال القلوب والأرواح، ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال

(٢٣٥) سيد قطب: في ظلال القرآن مجلد ٣، ص ١٣٣٧ وص ١٣٤٦.

القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب..»(٢٣٦).

٥- ومن هنا ندرك قيمة النصح الذي قدمه الإمام الشافعي؛ قال رجل له: أوصني. فقال: إن الله خلقك حرا، فكن كما خلقك(٢٣٧).

وقال الربيع: كان الشافعي يتمثل بهذين البيتين:

لَعَمركَ ما الرَّزِيَّةُ هَدْم دَارٍ ... وَلا شَاةٌ تَمُوتُ وَلا بَعِيرُ

وَلكنَّ الرَّزيةَ: فَقْدُ حُرٍّ ... يمُوتُ بِمَوْتِهِ بَشَرٌ كَثِيرُ(٢٣٨)

٤- الركن الثاني في الإيمان: شهادة أن محمدا رسول الله، وتجريد المتابعة له:

أ- تقدم أن الله- تعالى- خلقنا لعبادته: أن نعبده وحده، وأن نعبده بما شرع، لا نعبده بالأهواء، وبالبدع، ولكن نعبده بما شرع؛ فإنه أرسل رسوله محمدًا ﷺ بشريعته التي نعبده بها، فلا طريق لذلك إلا بتحقيق الركن الثاني في الشهادتين، اللتين هما باب الدخول في الإسلام، وهو شهادة أن محمدًا رسولُ الله.

ومن لم يؤمن بمحمد نبيا ورسولا وخاتما للرسل، لم يدخل في الإيمان؛ أخرج ابن أبي شيبة عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربع لن يجد رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بهن: لا إله إلا الله وحده، وأني رسول الله بعثني بالحق، وبأنه ميت ثم مبعوث من بعد الموت، ويؤمن بالقدر كله**»(٢٣٩).

يقول أبو عبيد: «ولم يجعل لأحد إيمانا إلا بتصديق النبي ﷺ، في كل ما جاء به، فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ**﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ [النساء: ٦]»(٢٤٠).

---

(٢٣٦) المصدر السابق، ص ١٣٥٢.
(٢٣٧) الرازي: مناقب الإمام الشافعي، ص ٣٣٩.
(٢٣٨) المصدر السابق، ص ٣١٩.
(٢٣٩) ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، رقم ٣، ص ٢ ، ٣.
(٢٤٠) أبو عبيد القاسم بن سلام: الإيمان، ص ٧٩، ٨٠.

ب- فالإيمان – كما يقرر ابن القيم: «حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، والتصديق به؛ عقدا، والإقرار به، نطقا، والانقياد له؛ محبة وخضوعا، والعمل به، باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه، والدعوة إليه بحسب الإمكان. وكماله: في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبودَه. والطريق إليه: تجريد متابعة رسوله، ظاهرًا وباطنًا، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله. وبالله التوفيق»(٢٤١).

وقال رباني الأمة ابن تيمية في «الفرقان»: «فلا بد، في الإيمان، من أن تؤمن أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين؛ الجن والإنس، فكل من لم يؤمن بما جاء به؛ فليس بمؤمن، فضلا عن أن يكون من أولياء الله المتقين. ومن آمن ببعض ما جاء به، وكفر ببعض؛ فهو كافر، ليس بمؤمن(...) ومن الإيمان: الإيمان بأنه هو الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره، ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه، فالحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام: ما حرمه الله ورسوله. والدين: ما شرعه الله ورسوله ﷺ.

فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى الله، غير متابعة محمد ﷺ؛ فهو كافر من أولياء الشيطان»(٢٤٢).

ويقول رباني الأمة، رحمة الله عليه: «فإن أصل الأصول: تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، فلا بد من الإيمان بأن محمدًا رسول الله إلى جميع الخلق: إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، وعُلَمائهم وعُبَّادهم، ملوكهم وسُوقتهم، وأنه لا طريق إلى الله- عز وجل – لأحد من الخلق إلا بمتابعته؛ باطنا

---

(٢٤١) ابن القيم: الفوائد، ص ٩٧ .

(٢٤٢) ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، في مجموعة التوحيد، ط دار الفكر، القاهرة، ص ٤٧٦، ٤٧٧.

وظاهرا»(٢٤٣).

ويقول في التَّدْمُرِية: فحق الرسول: «أن نؤمن به، ونطيعه، ونرضيه، ونحبه، ونسلم لحكمه، وامتثال ذلك»(٢٤٤).

جـ- والإيمان بمحمد ﷺ، هو الذي قرره ابن القيم وابن تيمية في النصوص السابقة، وهو معنى: أن تشهد أن محمدًا رسول الله، وقد فصل القاضي عياض- رحمه الله- حقوق المصطفي ﷺ، في القسم الثاني من (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) «فيما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ»، وعقد لذلك أربعة أبواب مهمة جدًّا.

الباب الأول: «في فرض الإيمان به، ووجوب طاعته، واتباع سنته» قال:

«إذا تقرر- بما قدمناه- ثبوت نبوته، وصحة رسالته؛ وجب الإيمان به، وتصديقُه فيما أتى به، قال- تعالى: ﴿**فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا**﴾ [التغابن: ٨] (...) فالإيمان بالنبي ﷺ واجب متعين لا يتم إيمان إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه، قال- تعالى: ﴿**إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا**﴾ [الإنسان: ٤] (...) والإيمان به ﷺ: هو تصديق نبوته ورسالة الله له وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله ﷺ(...) (ج٢، ص ٢،٣).

«وأما وجوب طاعته: فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به؛ وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به، قال الله- تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ**﴾ [النساء: ٥٩]، وقال: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ**﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء:٨٠]، وقال: ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟**﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ**

---

(٢٤٣) المصدر السابق، ص ٥٥١.

(٢٤٤) ابن تيمية: الرسالة التدمرية، ص٨٥.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[النساء: ٦٤]، فجعل- تعالى – طاعةَ رسولهِ طاعَتَهُ، وقرن طاعته بطاعته(...) وأوجب امتثال أمره، واجتناب نهيه، قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول: في التزام سنته، والتسليم لما جاء به، وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦] فتمنوا طاعته، حيث لا ينفعهم التمني. وفي حديث أبي هريرة ﷺ، عن ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»(٢٤٥). وفي الحديث الآخر الصحيح عنه ﷺ: «**مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما؛ فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أن النذير العريان، فالنجاءَ، فأطاعهُ طائفة من قومه؛ فأدلجوا، فانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبت طائفة منهم؛ فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئتُ به، ومثل من عصاني، وكذب بما جئتُ به من الحق**»(٢٤٦) (ج٢ – ص ٨٠٦).

«وأما وجوب اتباعه، وامتثال سنته، والاقتداء بهديه، فقد قال- تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أي: ينقادوا لحكمك (...)، وقال- تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الآية [الأحزاب:٢١]. قال محمد بن

---

(٢٤٥) أخرجه البخاري، فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٢٨٣، كتاب الاعتصام رقم ٧٢٨٠، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به**» ص ٢٤٩.

(٢٤٦) أخرجه البخاري، فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٢٨٣، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به ..**» ص ٢٥٠.

علي الترمذي: الأسوة في الرسول: الاقتداء به، والاتباع لسنته، وترك مخالفته في قول أو فعل(...) وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها**»(٢٤٧) .

(ج٢، ص ٨، وانظر بقية الفصل فإنه مهم، ص ٨-١٦).

«ومخالفة أمره، وتبديل سنته: ضلال وبدعة، متوعد من الله عليه بالخذلان والعَذَابِ، قال- تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور:٦٣] .. وقال أبو بكر الصديق ﷺ: لست تاركا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به، إلا عملت به؛ إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره: أن أزيغ» (ج ٢، ص ١٦، ١٧، ١٨).

الباب الثاني: «في لزوم محبته ﷺ» واستدل بآية قرآنية، وبأحاديث، منها: عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده، والناس أجمعين**»(٢٤٨).

(ج٢، ص ١٨ – ١٩ – وانظر باقي الباب، وادرسه فإنه نفيس جدًّا، ص ١٩ – ٣٤).

قال: «فصل في ثواب محبته ﷺ: عن أنس ﷺ أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكن أحب الله ورسوله، قال: «**أنت مع**

---

(٢٤٧) الحديث رواه البخاري في الأدب، باب الهدي الصالح، موقوفا على عبد الله بن مسعود، رقم ٦٠٩٨، ص ٥٠٩، وانظر ص ٥١١ من الفتح. وكذلك رواه في الاعتصام موقوفا على عبد الله ابن مسعود، رقم ٧٢٧٧، ص ٢٤٩، وله روايات كثيرة عند مسلم وأحمد، وغيرهما.

(٢٤٨) هذه رواية لمسلم، إكمال المعلم، ج ١، رقم ٧٠، ص ٢٨٠ ورواه بلفظ: «**لا يؤمن عبد**- وفي حديث عبد الوارث «الرجل»- **حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**» رقم ٦٩ ص٨٠، ورواه البخاري في الإيمان، بتقديم والده عن ولده، رقم ١٥، ص ٥٨ ورواه عن أبي هريرة، رقم ١٤ ص ٥٨، فتح الباري، ج ١ .. وللحديث روايات كثيرة.

من أحببت»[٢٤٩] (ج ٢، ص ١٩ – ٢١).

قال: فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له) (...) عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أشد أمتي لي حبًّا ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**» (رواه مسلم، وقد خرجناه في فصل: قلوب تحنّ إلى رسول الله) (ج ٢، ص ٢١- ٢٤، وهو مهم جدًّا).

قال: «فصل في علامة محبته ﷺ:

اعلم أن من أحب شيئًا آثره، وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقا في حبه، وكان مُدَّعيا؛ فالصادق في حب النبي ﷺ: مَنْ تظهر علامة ذلك عليه، وأولها: الاقتداء به، واستعمال سننه، واتباع أقواله، وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه.. وإيثار ما شرعه وحَضَّ عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته (...) وإسخاط العباد في رضا الله- تعالى (...) فمن اتصف بهذه الصفة؛ فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور، فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها(...).

ومن علامات محبة النبي ﷺ: كثرة ذكره له، فمن أحب شيئًا أكثر ذكره، ومنها: كثرة شوقه إلى لقائه، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه، وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة: أنهم كانوا يرتجزون (غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وحزبه).

ومن علاماته- مع كثرة ذكره- تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه، قال إسحاق التجيبي: كان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلا خشعوا، واقشعرت جلودهم، وبَكَوْا، وكذلك كثير من التابعين؛ منهم من يفعل ذلك: محبة له وشوقًا إليه، ومنهم من يفعله تهيبا

(٢٤٩) متفق عليه، البخاري: صحيحه، ج٩، رقم ٣٦٨٨، ص٢٢٤، ومسلم: صحيحه، ج٤، رقم ٢٦٣٩، ص٢٠٣٢، وغيرهما.

وتوقيرًا.

ومنها: محبته لمن أحب النبي ﷺ، ومن هو بسببه؛ من آل بيته، وصحابته، من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم، وبغض من أبغضهم وسَبَّهم، فمن أحب شيئًا: أحب من يحب(...).

ومنها: بغض من أبغض الله ورسولَه، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته، وابتدع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته، (...).

ومنها: أن يحب القرآن الذي أتى به ﷺ، وهدى به، واهتدى، وتخلَّق به، حتى قالت عائشة -رضي الله عنها: كان خلقه القرآن. وحبه للقرآن: تلاوته، والعمل به، وتفهمه. ويحب سنتَه ويقف عند حدودها، (...).

ومن علامات حبه للنبي ﷺ: شفقته على أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم. ورفع المضار عنهم..» (ج ٢، ص ٢٤-٢٨).

قال: «فصل في وجوب مناصحته ﷺ» «..والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له؛ فيما أمر به، ونهى عنه(...) وقال أبو إبراهيم إسحاق التجيبي: نصيحة رسول الله ﷺ: التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته، ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله، وإلى كتابه، وإلى رسوله، وإليها، وإلى العمل بها(...) (ج ٢ ص ٣١- ٣٤).

الباب الثالث: «في تعظيم أمره، ووجوب توقيره وبره» قال:

«قال الله- تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨، ٩]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢] الآيات الثلاث، (...) فأوجب- تعالى: تعزيره، وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه. قال ابن عباس: تعزروه: تجلوه، وقال المبرد: تعزروه: تبالغوا في تعظيمه. وقال الأخفش: تنصرونه (...)، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول،

وسوء الأدب (...). قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه (...) ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك. فقال: (...) وقال السلمي: اتقوا الله في إهمال حقه، وتضييع حرمته، إنه سميع لقولكم، عليم بفعلكم، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته..» (ج ٢، ص ٣٤، ٣٥).

قال: «واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته، وتوقيره، وتعظيمه: لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ، وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه، وسيرته، ومعاملة آله (...) قال أبو إبراهيم التجيبي: واجب على كل مؤمن - متى ذَكَرَهُ، أو ذُكِرِ عنده - أن يخضع ويخشع، ويتوقر، ويُسَكّن حركته، ويأخذ في هيبته، وإجْلاَلِه، بما كان يأخذ به نفسه، لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به» (ج ٢، ص ٤٠).

قال: «ومن توقيره وبره ﷺ: توقير أصحابه وبرهم، ومعرفة حقهم، والاقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار جهلة الرواة، وضُلالِ الشيعة والمبتدعين، القادحة في أحد منهم.. ولا يُذْكَر أحد منهم بسوء ولا يُغْمَصُ عليه أمر، بل تذكر حسناتهم وفضائلهم، وحميد سيرتهم، ويسكت عما وراء ذلك..» (ج ٢، ص ٥٢، ٥٣).

الباب الرابع: في حكم الصلاة عليه والتسليم، وفرض ذلك، وفضيلته»، قال:

«قال الله- تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٦] (...) اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ: فرض على الجملة، غير محدد بوقت، لأمر الله- تعالى- بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماءِ له على الوجوب،

وأجمعوا عليه» (ج٢، ص ٦٠،٦١) (وفي هذه المسألة خلاف بين الوجوب والاستحباب في التشهد في الصلاة، وفي خارج الصلاة، لكن الحد الأدنى أنها مستحبة، ومن أحب النبي ﷺ أكثر من ذكره، والصلاة عليه ﷺ).

إن النبي ﷺ يستحق من المسلم ذلك كله، وأن يلين قلبه له، كما أخرج أحمد عن أبي أمامة ﷺ قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ، فقال لي: يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلين لي قلبه»(٢٥٠). وقد وفينا الكلام عليه في فصل مستقل، وانظر ما بعده:

د- الهجرة إلى محمد رسول الله:

والقلب: إذا عرف الرسول ﷺ، وآمن به؛ سافر إليه، وهاجر إليه، حُبًّا ومتابعة؛ يقول في المدارج: «إن كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص؛ فإنه من المهاجرين، فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة، بل ينبغي أن يصحبها سرمدا حتى يلحق بالله- عز وجل:

فما هي إلا ساعة، ثم تنقضي وَيَحْمَدُ غِبَّ السَّيرِ مَنْ هُوَ سَائِرُ

ولله على كل قلب هجرتان: وهما فرض لازم له على الأنفاس:

- هجرة إلى الله -سبحانه: بالتوحيد؛ والإخلاص، والإنابة، والحب، والخوف، والرجاء، والعبودية.

- وهجرة إلى رسوله ﷺ: بالتحكيم له، والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته(...)

فمن لم يكن بقلبه هاتان الهجرتان؛ فَلْيَحْثُ على رأسه الرماد، وليراجع الإيمان من أصلِه، فيرجع وراءه لِيقتبس نورا، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له

---

(٢٥٠) الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا (الساعاتي): الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني، ج١، ص ١١٠، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح. قلت: هو حديث صحيح، خرجناه في فصل «قلوب تحن إلى الحبيب ﷺ» فارجع إليه.

ذلك على الصراط، من وراء السور، والله المستعان»(٢٥١).

وقد شرح هذا في كتابه الفريد «طريق الهجرتين، وباب السعادتين» وقال في مقدمته:

«مَنْ قَرَّتْ عينُه بالله- سبحانه- قرت به كل عين، وأنس به كل مستوحش، وطاب به كل خبيث، وفرح به كل حزين، وأمن به كل خائف، وشهد به كل غائب، وذكَّرَتْ رؤيتُه بالله، فإذا رؤي ذُكِر الله، فاطمأن قلبه إلى الله، وسكنت نفسه إلى الله، وخلصت محبته لله، وقصر خوفَه على الله، وجعل رجاءه كله لله، فإن سمع سمع بالله، وإن أبصر أبصر بالله، وإن مشي مشي بالله، فبه يسمع وبه يبصر.. وبه يمشي، فإذا أحب فلله، وإذا أبغض فلله، وإذا منع فلله، قد اتخذ الله وحده معبوده، ومرجوه، ومخوفه، وغاية قصده، ومنتهى طلبه، واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه، وقائده وسائقه، فَوَحَّدَ الله بعبادته ومحبته وخوفه، ورجائه، وإفراد رسوله بمتابعته، والاقتداء به، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه. وله في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله: بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه، وصدق اللجأ والافتقاد في كل نَفَسٍ إليه. وهجرة إلى رسوله: في حركاته وسكناته، الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقة لشرعه، الذي هو تفصيل محاب الله ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد دينا سواه، وكل عمل سواه فَعَيْش النفس، وحظها، لا زاد المعاد(...) وقال بعض العارفين: كل عمل بلا متابعة فهو عيش النفس، ولما كانت السعادة دائرةً، نفيًا وإثباتًا – مع ما جاء به، كان جديرًا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفا على معرفته، وإرادته مقصورة على محابه، وهذا أعلى همةٍ شَمَّرَ إليها (السابقون)

(٢٥١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٨٢، ٤٨٣.

وتنافس فيها المتنافسون»[٢٥٢].

هـ - موجز عن تربية الإيمان بمحمد رسول الله ومحبته:

١ - قال الحليمي: «أصل هذا الباب: أن نقف على مدائح رسول الله ﷺ، والمحاسن الثابتة له، في نفسه، ثم على حسن آثاره في دين الله، وما يجب له من الحق على أمته؛ شرعًا، وعادة. فمن أحاط بذلك، وسَلِمَ عَقْلُه علم أنه أحق بالمحبة من الوالد الفاضل في نفسه، البر الشفيق على ولده»[٢٥٣].

إذن، طريق تربية الإيمان برسول الله، ومحبته هو الإحاطة بمحاسنه ومدائحه، وأخلاقه، وآثاره، وحقوقه.. فالإيمان، والمحبة لرسول الله، ينشآن من المعرفة به، وبما أوحاه الله إليه، قرآنا وسنة، والمعرفة به تشمل معرفة ذاته: أي: صفاته، وأخلاقه، ومعجزاته، وسيرته، وحركته في الحياة، وفي الدعوة، وفي الدولة، وفي كل المجالات الاجتماعية، ومع الله، ومع الأشياء، ومع الناس، ومع الصغار والكبار، والرجال والنساء، والحيوان.. إلخ.

فدراسة ذلك تبرهن للعقل ببراهين قطعية ملزمة أنه رسول الله حقًا، وأنه أعظم إنسان في التاريخ.

كما تشمل المعرفة به معرفة رسالته: مصادرها: القرآن والسنة، وأهدافها، وجوانبها، وخصائص منهجها، وكيف قام بها، وكيف تمثلها، وطبقها، وحققها في الواقع.. وكيف كان هو النموذج الكامل للتمسك بها في كل شيء؟

وهذه المعرفة ضرورية؛ إذ كيف نؤمن به، ونحبه ونحن لا نعرفه؟

إذن يتوجب حد أدنى لذلك، فالمعرفة به- بجانبيها السابقين- فرض عين على كل مسلم ومسلمة، بحدها الأدنى، وإلا كيف (نشهد) أنه رسول الله،

---

(٢٥٢) ابن القيم: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ط٣، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٤٠٠هـ، ص٦،٧.
(٢٥٣) حاشية السيوطي على سنن النسائي، بهامش السنة، ج ٨، ص ٨٣.

ونحن لا نعرفه؟ فالعلم قبل القول والعمل، والمعرفة قبل الإيمان، قال البخاري: «باب العلم قبل القول والعمل، لقوله الله- تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]»(٢٥٤). فبدأ بالعلم.

٢- إذن من الضروري أن ينظم المسلم لنفسه برنامجا تربويا ليدرس ما يكسبه من المعرفتين السابقتين برسول الله، محمد ﷺ، فيدرس ما يلي أو ما يقوم مقامه:

- الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي.
- الشمائل النبوية للترمذي.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض.
- السيرة النبوية لابن كثير.
- السيرة النبوية لابن هشام.
- الرحيق المختوم للمباركفوري.
- الرسول لسعيد حوى.
- كتاب أخلاق النبوة وآداب المعيشة من إحياء علوم الدين.
- الأدب المفرد للإمام البخاري، بتحقيق الألباني.
- كتاب (كان) من صحيح الجامع الصغير للألباني.
- دلائل النبوة للبيهقي أو لأبي نعيم.
- كتاب الاعتصام بالسنة، وكتاب الأنبياء، وكتاب المغازي، وكتاب المناقب من صحيح البخاري، وكذا كتاب بدء الوحي.
- أحاديث أخلاق النبي ﷺ من صحيح مسلم، ومسند أحمد، وأحاديث سيرته كذلك.
- باب القول في إثبات نبوة محمد المصطفى ﷺ من الاعتقاد والهداية إلى

(٢٥٤) فتح الباري، ج ١، ص ١٥٩.

سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، تصنيف البيهقي (دار الآفاق الجديدة) (ص ٢٥٥ – ٣٠٦).

- الوحي المحمدي لرشيد رضا.
- المدخل إلى القرآن الكريم – عرض تاريخي وتحليل مقارن- محمد عبد الله دراز.
- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي.
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لزغلول النجار.
- نظرات في القرآن لمحمد الغزالي.
- منتخب من صحيح الأحاديث النبوية مثل (صحيح الترغيب والترهيب، ورياض الصالحين).

وإنما اخترت ما عرفت، وما درست، وبه قد استفدت، وتربيت؛ لا بد من معرفة محمد في القرآن، وفي الحديث، وفي السيرة، وفي الأخلاق والشمائل، والمعجزات.. لتؤمن بأن القرآن كلام الله حقا، أوحي إلى محمد رسول الله، حقًا، عن طريق جبريل عليه السلام، ولا بد من تحصيل قدر من المعرفة يجعلنا نصدق بالبرهان القاطع أنه كلام الله، وأنه معجز للبشر وأن محمدًا- حاشاه ﷺ- لم يتقوّله، وأنه كان أميًّا لم يخط بالقلم، ولم يجلس إلى معلم، حتى فجأه الحق، بغار حراء، فأنزل عليه القرآن الكريم، ولا مفر في عصرنا من دراسات تبرهن بالأدلة القاطعة على هذه الحقائق.

٣- تحويل المعرفة السابقة إلى فعل دراسة لأحاديثه، دراسة محب لحبيبه الكبير، يريد أن يعرف ماذا يحب ليفعله، وماذا يكره، ليجتنبه، وما حركته وسيرته، ليتأسى ويقتدي، وما أخلاقه، ليتخلق.. فيحول المعرفة إلى فعل حب، واقتداء... فيأخذ نفسه باتباع رسول الله ﷺ في عقيدته، وأخلاقه، وصلاته، وصومه، وهيئته، ومعاملاته..إلخ.

وهنا تتحول دراسة سيرته وسنته، إلى دورة تربوية تغير القلب، والعقل، والعاطفة، والباطن والظاهر..أي تحدث هذه المدارسة لسنة محمد ﷺ وسيرته – تحدث ثورة حقيقية في الضمير المؤمن، والقلب، والنفس، وهنا نقول كما قال عثمان بن مظعون: «فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمدًا».

إن المسلم بهذا العملية التربوية يحدث عمليات تغيير جذرية، وشاملة، في أحاسيسه، ومشاعره، في ضميره، واعتقاده، في أخلاقه، في مظهره، في شكله، في طريقة كلامه، وتحركه، وتصرفاته، في عاداته، في تعاملاته، في صداقاته، في طريقة مشيه، في التعامل مع الأشياء من حوله.. في كل شيء.. لأنه يريد أن يتبع سنة محمد ﷺ في ذلك كله، بحب، ووعي، ومعرفة، وإخلاص، وصدق.

وهنا يصبح الإيمان بمحمد رسولا، منهجية للتربية العقدية، والخلقية على السواء.

٤- يدرس فصل: قلوب تحن إلى الحبيب، ويعمل بما فيه.

٥- عمل دورة تربوية يتناول فيها مواقف الصحابة والتابعين من رسول الله ﷺ: إيمانا وحبا، واتباعا، وحنينا، وشوقا لملاقاته، والشرب من حوضه ﷺ.

٦- تذوق مجموعة قصائد شعرية في رسول الله ﷺ مثل قصيدة: كعب بن زهير (بانت سعاد) وقصيدة محمد إقبال:

إن في قلبك محبوبا ثوى	أَقْبلَنْ أنبيكَ عن هذا الجَوَى
حبه في القلب نور أسفرا	للثريا يرتقي منه الثرى
ترب نجد منه قد خف وضاء	طار وَجْدًا مُصْعِدًا نحو السماء
مهجة المسلم مثوى المصطفى	عزة المسلم ذكرى المصطفى

مع الحذر من بعض القصائد التي فيها أمور شركية وبدع، في التوسل برسول الله، والاستغاثة به، فذلك شرك أكبر يجب الكفر به، والشعر الصالح،

والطيب، كثير، طيب، والمهم هو تقوية المحبة القلبية لرسول الله ﷺ.

وأختم هذه الفقرة بتأمل تفسير الشوكاني وحسن البنا لقول الله- تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

يقول الشوكاني: «ثم ذكر- سبحانه- لرسوله مزية عظيمة، وخصوصية جليلة، لا يشاركه فيها أحد من العباد ؛ فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هو أحق بهم في كل أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفُسِهِم، فضلًا عن أن يكون أولى بهم من غيرهم. فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبوه، زيادة على حبهم أنفسَهُمْ، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم.

وبالجملة: فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء، ودعتهم أنفسهم إلى غيره، وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، وتطلبه خواطرهم..»(٢٥٥).

ويقول حسن البنا، بعنوان ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة : ٥٤]: «تَعَالَ معي- أيها الأخ القارئ- لنقف برهة أمام هذه الآية الكريمة، فنستجلي ما فيها من روائع الجمال اللفظي وبدائع التفصيل المعنوي، ثم نقول بعد ذلك: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لطائف الآية الكريمة:

١- أرأيت كيف عبر القرآن الكريم عن محمد ﷺ بالنبي؟ وهل تذوقت ما في هذا اللفظ الكريم من معاني التعظيم والتكريم والشرف العالي، والمنحة الخاصة، والمقام السامي الرفيع الذي نبا عن تقدير الناس وسما عن مفاهيمهم وموازينهم؟

---

(٢٥٥) الشوكاني: فتح القدير، ج ٤، ص ٣٤٤.

٢- وأرأيت كيف عبر القرآن الكريم عن الاستحقاق بالولاية، فوقعت كلمة أَوْلَى، موقع كلمة (أحق) لما في الأولى من الشعور بأن ذلك الاستحقاق، إنما كان عن الحب والولاء والرغبة، والرجاء، لا عن خوف ولا إرهاب، ولا إلزام، ولا إكراه.

٣- وأرأيت كيف عبر القرآن بكلمة المؤمنين، ولم يقل: «الناس» أو «المسلمين» لما في هذه الكلمة من الإشارة إلى أن هذه الأولوية ثمرة التصديق ونتيجة الإيمان واليقين، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»، «**ومن نفسه التي بين جنبيه**».

وهناك لطيفة أخرى: هي أن هذه الفضيلة؛ فضيلة موالاة النبي ﷺ، إنما كتبها الله لأشرف طبقات الخلق؛ وهم المؤمنون، تعظيمًا لقدر نبيه ﷺ، وتقديرًا لتصديق عباده المؤمنين.

٤- وأرأيت كيف عبر «بالأنفس»؛ ليدخل في هذه الأولوية كل ما دونها، وهو كل شيء من مناهج الحياة ومظاهرها، فالأهل دون النفس، والمسكن دون النفس، والزوج دون النفس، والعشيرة دون النفس، وإنما يكون حب الإنسان لهذه العوارض نتيجة حبه لنفسه وثمرة حرصه على إسعادها(...) فإذا جاد الإنسان بنفسه، وسخا بزوجه، فقد جاد بكل شيء، والجود بالنفس أقصى غاية الجود(...).

وبعد أن ملأت سمعك وقلبك من روائع هذا الجمال، هلم نتفهم الآية الكريمة:

إن ربك يقول لك: النبي أحق بك من نفسك، فنفسك وكل ما تملك فداء لنبيك(...) ووقف على مناصرة دعوته وحماية شريعته، ليس لك أن ترغب بنفسك عن نفسه، أو تحتجز روحك أو مالك أو كل ما تملك عن مناصرته، وفي هذا المعنى وردت الآية الكريمة: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا**﴾[الأحزاب: ٣٦]

والآية الكريمة: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢] والحديث الصحيح: **«تالله لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**.

وإذا كان ﷺ قد اختار الرفيق الأعلى، وفارق الحياة الدنيا؛ فإن هذا المعنى ثابت لسنته، ولشريعته الباقية الخالدة، فهي أولى بكل مؤمن من نفسه وأحق به من أهله وماله وأرضه ومسكنه وقومه وعشيرته، والناس أجمعين (...).

فهم المسلمون الأولون- رضوان الله عليهم- هذا المعنى، فسمعنا حسان ﷺ يقول: «فإن أبي، ووالده، وعرضي لعرض محمد منكم وفاء».

(...) فهل يفهم المسلمون الآن هذا؟ فليعلموا أن دينهم أولى بهم من أنفسهم وأموالهم، فيعملوا على مناصرته وإنقاذه، أم هم في غمرة ساهون؟

اللهم فقهنا في دينك، وعلمنا من أسرار كتابك»(٢٥٦).

٥- أعمال الإيمان منظومة شاملة للقيم الملزمة:

أ- لست أضيف إلى ما قاله علماؤنا شيئًا في هذا الأصل، فقد أفاضوا في أن الإيمان قول وعمل، وأنه شعب، وأنه يزيد وينقص(٢٥٧). وسوف أثبت في

---

(٢٥٦) حسن البنا: سلسلة من تراث الإمام البنا، الكتاب الثالث: من وحي القرآن، ط١، دار الدعوة، ٢٠٠٥م ص٥٢- ٥٤ والمقال نشر في مجلة الإخوان المسلمين، السنة الثانية، العدد ٨ (٩ ربيع الأول ١٣٥٣هـ ٢ يونيو ١٩٣٤م) ص١٩-٢٠، وقد قرأته في مصدرين.

(٢٥٧) انظر: مثلا – الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الأول، باب جماع الإيمان، سياق ما روى عن النبي ﷺ في أن الإيمان لفظ باللسان واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، ص ٧٣٠ – ٧٤٩، وتمامه في المجلد الثاني؛ ص ٧٥٣ – ٧٥٦ وسياق ما دل أو فسر من الآيات من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين من بعدهم، من علماء أئمة الدين أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، مجلد٢، ص ٧٥٧- ٧٧٢.

وانظر: معارج القبول ج ٢، وقطف الثمر، وغير ذلك من كتب العقيدة الإسلامية عند أهل السنة المحمدية، وذلك بالإضافة إلى كتاب الإيمان من صحيح البخاري، ومن صحيح مسلم، ومن كتب السنن (النسائي- مثلًا).

هذا الأصل ما يبرهن على أن الإيمان ينتظم بضعا وسبعين قيمة واجبة، ملزمة، يجل على كل مسلم أقر بالإيمان أن يلتزمها، جملة، وعلى الغيب، فمن أتى - عمل- بواحدة زاد إيمانه، بحسبها، ومن تركها- غير مستحلّ للترك- نقص إيمانه الواجب، بحبسها، أي: ارتكب إثما كبيرًا، وإن استحل تركها؛ كفر، إن قامت عليه الحجة الرسالية التي يكفر تاركها.

فالإيمان، حين ينزل في جذر القلب، يلزم المؤمن بأن «يعمل» بمنظومة شاملة للقيم، ويبني في قلبه (ضميرًا) يشعر بالذنب إن ترك قيمة منها، فيحزن، ويستاء، ويشعر بالسرور والرضا والفرح إذا عمل بقيمة منها، من هنا، قررنا- سابقا- أن الإيمان، إذا تربى في القلب ؛ حدث التغير الجذري في الوجدان والسلوك، والمواقف، والولاءات؛ لأن الإيمان التزام شامل بمجموعة كاملة من القيم: توجه وتضبط سلوك الإنسان مع ربه، ومع الناس- جميعا- ومع نفسه، ومع البيئة الطبيعية وعالم الشهادة، وعالم الغيب، وتعمل له واعظا، ورقيبا ذاتيا، ومعيارا لمراجعة ذاته ، وتقويمها .

وهذا كلام دقيق نبرهن عليه في السياق التالي.

ب- **ابتداءً نثبت هذا النداء للشيخ القدوة عبد القادر الجيلاني**، يقول: (يا غلام) ما خلقت للبقاء في الدنيا، والتمتع فيها، فَغَيِّر ما أنت فيه من مكاره الحق -عز وجل. قد قنعت من طاعة الله ـ عز وجل ـ بقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»! هذا لا ينفعك حتى تضيف إليه شيئا آخر؛ الإيمان قول وعمل، لا يقبل منك ولا ينفعك؛ إذا أتيت بالمعاصي والزلات، وخالفت الله- عز وجل- وأصررتَ على ذلك، وتركت الصلاة والصوم والصدقة، وأفعال الخير، أي شيء ينفعك الشهادتان، إذا قلت: لا إله إلا الله فقد ادَّعَيْتَ، يقال: أيها القائل، ألك بينة؟ ما البينة؟ امتثال الأمر، والانتهاء عن النهي، والصبر على الآفات، والتسليم إلى القدر، هذه بينة هذه الدعوى، وإذا عملت

هذه الأعمال؛ ما تقبل منك إلا بالإخلاص للحق، ولا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة»(٢٥٨).

وكلام الشيخ: دعوة للتحقق بأعمال الإيمان؛ لِنُوافِي الله بما ينفعنا عنده، أما النطق بالشهادتين، ما لم يظهر ما يناقضهما فهو يُدخل الإنسان في الإسلام، ويصير له حكم المسلمين في الظاهر، في الدنيا، ويلزم بأعمال الإسلام والإيمان، فإن جحد أو أنكر، أو استحل ترك عمل من أعمال الإيمان الواجب، فقد ارتد؛ إذا تحققت شروط، وانتفت موانع، ويصير له حكم المرتد، فلنترك هذا إلى ما نحن فيه من تربية القلب.

جـ- قال الثقة العالم، مولى عمر؛ زيد بن أسلم: «لا بد لأهل هذا الدين من أربع: دخول في دعوة الإسلام، ولا بد من الإيمان، وتصديق بالله وبالمرسلين أولهم وآخرهم، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، ولا بد من أن تعمل عملا تصدق به إيمانك، ولا بد من أن تعلم علمًا تحسن به عملك، ثم قرأ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢](٢٥٩).

د- وفي أول كتاب الإيمان من الصحيح، قال البخاري: «وهو قول وفعل، ويزيد وينقص»، ثم قال: «والحب في الله، والبغض في الله من الإيمان. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِي بن عدي: إن للإيمان فرائضَ وشرائع وحدودًا وسننا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم؛ حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص»(٢٦٠).

وقول عمر؛ وصلهُ ابن أبي شيبة بسند صحيح عن عدي بن عدي؛ قال: كتب إليّ عمر بن عبد العزيز: «أما بعد، فإن الإيمان فرائض وشرائع

(٢٥٨) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص ١٠.
(٢٥٩) ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، رقم ١٣٦، ص ٤٥ بإسناد صحيح إليه.
(٢٦٠) فتح الباري، ج ١، ص ٤٥.

وحدودٌ وسنن..إلخ»(٢٦١).

ثم عقد البخاري أبوابًا عديدة، كلها برهنة على هذا الأصل؛ قال: «باب دعاؤكم إيمانكم» (ص ٤٩) «باب أمور الإيمان وقول الله- تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنين: ١] (ص٥٠) ثم ذكر حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**»(٢٦٢).

وبلفظ: «**الإيمان بضع وسبعون- أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(٢٦٣).

ورواه أبو عبيد عنه: أن الرسول ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون جزءًا، أفضلها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»(٢٦٤).

ثم بوب البخاري الأبواب الآتية- على ما ذكره من آيات وأحاديث: (باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (ص ٥٣) باب إطعام الطعام من الإسلام (ص ٥٥)، باب من الإيمان: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (ص ٥٦)، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (ص ٥٨)، باب علامة الإيمان حب الأنصار (ص ٦٢)، باب الحياء من الإيمان (ص ٧٤)، باب من قال: إن الإيمان هو العمل (ص ٧٧)، باب إفشاء السلام من الإسلام (ص ٨٢)، باب قيام ليلة القدر من

---

(٢٦١) ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، رقم ١٣٥، ص ٤٥.
(٢٦٢) فتح الباري، ج١، ص ٥١ (حديث رقم: ٩).
(٢٦٣) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٥٧، ٥٨، ص ٢٧١.
(٢٦٤) قال الألباني: صحيح على شرط مسلم،.. إلخ، كتاب الإيمان، ص ٦١، هامش رقم ١٨، والحديث رقم ٤، ص ٦٠.

الإيمان (ص ٩١)، باب الصلاة من الإيمان (ص ٩٠)، باب اتباع الجنائز من الإيمان (ص١٠٨).. إلخ، فأعمال البر من الإيمان. وفي صحيح مسلم أبواب عديدة أخرى في كتاب الإيمان، منها: باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا من الخير، وكون ذلك من الإيمان (إكمال المعلم- ج ١، ص ٢٨٤)، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبات (إكمال، ج ١، ص ٢٨٨)، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان،.. (ص٣٠٤)..إلخ.

هـ- فالإيمان ليس قولًا واعتقادًا فقط، بل هو عمل بواجبات، أي: بقيم ملزمة، هي شعب وأجزاء الإيمان، أيضًا، وأساسًا.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «فإن قال لك قائل: فما هذه الأجزاء الثلاثة والسبعون؟ قيل له: لم تسم لنا مجموعة فنسميها، غير أن العلم يحيط أنها من طاعة الله، وتقواه، وإن لم تذكر لنا في حديث واحد، ولو تُفُقِّدَتِ الآثار لَوُجِدَتْ متفرقة فيها (ثم ساق جملة أحاديث، ثم قال) وكلها يشهد- أو أكثرها- أن أعمال البر من الإيمان، فكيف تعاند هذه الآثار بالإبطال والتكذيب؟ ومما يصدق تفاضله بالأعمال، قول الله- جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]، فلم يجعل الله للإيمان حقيقة إلا بالعمل، على هذه الشروط. والذي يزعم أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنًا حقًا، وإن لم يكن هناك عمل؛ فهو معاند لكتاب الله والسنة. (ثم قال- بعد أدلة أخرى) فأي شيء يتبع بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومنهاج السلف بعده، الذين هم موضع القدوة والإمامة؟(...)، فالأمر الذي عليه السنة: أن الإيمان بالنية والقول، والعمل جميعًا، وأنه درجات بعضها فوق بعض(...) فالإيمان- على هذا التناول- إنما هو كله

مبني على العمل، من أوله إلى آخره، إلا أنه يتفاضل في الدرجات على ما وصفنا»(٢٦٥).

وقد عقد الطبري اللالكائي فصلا هو «ذكر الخصال المعدودة من الإيمان المروية في الأخبار..» ذكر فيه اثنتين وسبعين خصلة، أو شعبة، أو جزءا، أو قيمة واجبة ملزمة، مستدلا لكل خصلة(٢٦٦).

والعمل الذي بني عليه الإيمان: هو التزام طاعة الله ورسوله في الأمر، والنهي، وهذا هو الإيمان الملزوم كما قال ابن مسعود؛ فيما أخرجه ابن المبارك عن أبي عمران أن رجلًا أعتق مائة رقبة في ماله، فذكر ذلك بعض جلساء ابن مسعود له، فدعا له بخير، وقال: «ألا أخبركم بأفضل من ذلك؟ إيمان ملزوم بالليل والنهار، وألا يزال لسان أحدكم رطبا من ذكر الله»(٢٦٧).

و- وقد استدل ابن رجب، وغيره، بأحاديث كثيرة على أن أعمال البر تدخل في مسمى الإسلام والإيمان، منها حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«إن للإسلام صوى ومنارا كمنار الطريق، من ذلك: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسليمك على بنى آدم إذا لقيتهم، وتسليمك على أهل بَيْتِكَ إذا دخلت عليهم. فمن انتقص منهن شيئًا: فهو سهم من الإسلام تركه، ومن يتركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره»**(٢٦٨).

---

(٢٦٥) أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الإيمان..تحقيق الألباني، ص ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٦.

(٢٦٦) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج٢، ص ٧٧٣ – ٨٠٠.

(٢٦٧) ابن المبارك: الزهد، رقم ٩٥٩، ص٣٤٠ قال محققه حبيب الرحمن الأعظمي: أخرجه أبو نعيم(..) عن أبي الدرداء، وإسناده جيد، (ص١/ ٢١٩) وهو في الزهد لأحمد (ص ١٣٦).

(٢٦٨) رواه أبو عبيد في الإيمان، رقم ٣، وقال الألباني: «أخرجه جمع، منهم الحاكم (١/ ٢١) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، على ما حققتُه في سلسلة الأحاديث الصحيحة» هامش ١٧، ص ٦٠ من كتاب الإيمان لأبي عبيد.
والصوى: الأعلام التي يستدل بها على الطريق، ويهتدى بها.

ثم قال ابن رجب: «وكذلك ترك المحرمات داخل في مسمى الإسلام أيضًا» ثم استدل بحديثين، وقال بعد كلام نفيس: والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: «قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مُسَمَّى الإيمان»، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم.

وأنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان إنكارًا شديدًا (..ثم قال) قد تقدم أن الأعمال تدخل في مسمى الإسلام ومسمى الإيمان أيضًا، وذكرنا ما يدخل في ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة، ويدخل في مسماها أيضًا أعمال الجوارح الباطنة، فيدخل في أعمال الإسلام: إخلاص الدين لله، والنصح له، والعبادة، وسلامة القلب لهم؛ مِن الغش والحسد والحقد، وتوابع ذلك من أنواع الأذى.

ويدخل في مسمى الإيمان: وَجَل القلوب من ذكر الله، وخشوعه عند سماع ذكره، وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التوكل على الله، وخوف الله سرًّا وعلانية، والرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، واختيار تلف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر، واستشعار قرب الله من العبد، ودوام استحضاره وإيثار محبة الله ورسوله، على محبة ما سواهما، والمحبة في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن تكون جميع الحركات والسكنات لَهُ، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية، والاستبشار بعمل الحسنات، والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وكثرة الحياء، وحسن الخلق، ومحبة ما يحبه لنفسه لإخوانه من المؤمنين، ومواساة المؤمنين، خصوصًا الجيرانَ، ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم،والحزن بما يحزنهم»(٢٦٩).

ز- وقد لَخَّص ابن حجر شعب الإيمان في نص جامع نثبته؛ لأنه يبين

---

(٢٦٩) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٦، ٣٧، ٤٣،٤٤، واستدل لكل ذلك من ص ٤٤-٤٨.

أسماء منظومة القيم الإيمانية الملزمة، وهي التي تسمى أعمال الإيمان، أو أعمال البر، أو الإيمان الواجب، فهي (قيم) يجب أن تتحول إلى (عمل) وسلوك، إلى ممارسة، بهذا يتغير الإنسان، ويتغير المجتمع نحو الأحسن، إن الإيمان ينشئ- بإذن الله- إنسانًا جديدًا ملتزمًا بقيم في واقع الحياة، وهذا يؤكد ما قررنا في الفصل السابق من أن نقطة البدء في التغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي والحضاري هي: تربية الإيمان في القلب، فإذا تربى؛ أي: تكوّن ونما، وزاد، انصبغت به الكينونة الإنسانية برمتها، فتغيرت ميول واتجاهات، وتصورات وأخلاق، ومواقف، ومشاعر الإنسان- تلقائيًّا- صَوْبَ ما يحبه الله ويرضاه، فيظهر الإيمان في شكل سلوكيات واختيارات، وممارسات قلبية وجارحية، باطنة وظاهرة. فإذا تحقق هذا التغيير تحقق تغيير الله لما بالمجتمع من أوضاع، هذا قانون اجتماعي، وسنة من سننه في الأنفس والمجتمعات، فلنثبت منظومة قيم الإيمان الواجب، لكي نقايس بينها وبين ما نحن عليه من حيث التصور، والاعتقاد، والممارسة.

يقول ابن حجر: «إن هذه الشعب: تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن:

فأعمال القلب: فيه المعتقدات والنيات: وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله- ويدخل فيه الإيمان بذاتِه وصفاته، وتوحيده- بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد وحدوث ما دونه، الإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر؛ ويدخل فيه المسألة في القبر، والبعث والنشور والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار.. ومحبة الله، والحب فيه والبغض فيه، ومحبة النبي ﷺ، واعتقاد تعظيمه؛ ويدخل فيه الصلاة عليه، واتباع سنته. والإخلاص؛ ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق. والتوبة، والخوف، والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء،

والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير، وترك الكبر، والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

وأعمال اللسان: وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلّم العلم، وتعليمه، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه الاستغفار، واجتناب اللغو.

وأعمال البدن: وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة: منها ما يختص بالأعيان، وهي خمس عشرة خصلة: التطهر حسًّا وحكمًا، ويدخل فيه اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضا ونفلا، والزكاة، كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه إطعام الطعام وإكرام الضيف، والصيام: فرضا ونفلا، والحج، والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك. والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمانِ، وأداء الكفارات. ومنها ما يتعلق بالأتْباعِ؛ وهي ست خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، (...) ومنها ما يتعلق بالعامة؛ سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة، مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس(...) والمعاونة على البر، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه المرابطة، وأداء الأمانة(...) والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المال من حِلِّه، وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو وإماطة الأذى عن الطريق،..»[٢٧٠].

(٢٧٠) ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٥٢ – ٥٣. وقد شرح البيهقي هذه الشعب، واستدل لها في الجامع لشعب الإيمان. وانظر ابن القيم: مدارج السالكين، ج١ (ط دار التراث) ص٨٥ – ٩٤ (في مراتب العبودية الواجبة والمستحبة) ويدرس هذا الجزء دراسة متأنية، ويقايس بين ما ندرسه وما نحن عليه.

ح- وهذه الشعب ليست بمنزلة واحدة فهي- بنص الحديث الصحيح- لها أعلى، ولها أدنى، ولها ما بين ذلك، فهي سُلَّم من القيم ينبغي مراعاة أولوياته، في التصور والتطبيق، ولابد من فقه أولويات هذا السُّلَّم القِيمِي الواجب، يقول ابن حجر تعقيبًا على رواية مسلم السابقة: «**أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»: «وفي هذا إشارة إلى أن مراتبها متفاوتة»(٢٧١).

ويقول ابن القيم: «ولما كان الإيمان- أصلًا- له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيمانًا: فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء، والتوكل، والخشية من الله، والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه شعبة من شعب الإيمان، «وهذا الشعب: منها ما يزول الإيمان بزوالها؛ كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها، كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، ومنها ما يلحق بشعبة الشهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى، ويكون إليها أقرب، وكذلك الكفر: ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان، فشعب الكفر كفر. فالحياء شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر(...) والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان..»(٢٧٢).

إذن الإيمان منظومة قيمية تتكون من بضع وسبعين شعبة، وهي تتجزأ، ولها سُلّم، له أعلى وله أدنى، وله ما بين ذلك، وهي تتفاوت تفاوتا عظيما.

ط- ولأن الأمر كما قررنا، فإن الإيمان يزيد وينقص، حتى التصديق، في

---

(٢٧١) ابن حجر: فتح الباري، ج ١، ص ٥٣.

(٢٧٢) ابن القيم: كتاب الصلاة، المطبعة السلفية، ص ٢٥، ٢٦.

القلب، يزيد وينقص، يقول النووي: «الأظهر - والله أعلم - أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر، وتظاهر الأدلة..»[٢٧٣].

ومن هنا يأتي دور (التربية)؛ فالتربية: تنمية وتزويد، وتكبير، وتبليغ الشيء إلى كماله الممكن. فنحن نريد تزويد الإيمان، وهذا لا يكون إلا بفعل(التربية).

١- وقد استدل البخاري على زيادة الإيمان بثماني آيات[٢٧٤]. وما يقبل الزيادة يقبل النقصان، وعقد بابا لتفاضل أهل الإيمان في الأعمال، (ص٧٢-٧٣، فتح ج١). وقال في الباب ٣٣: «باب زيادة الإيمان ونقصانه، وقول الله- تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فإذا ترك شيئًا من الكمال؛ فهو ناقص. (ص ١٠٣ ج ١، فتح الباري).

وفي صحيح مسلم (باب تفاضل أهل الإيمان فيه..) (إكمال المعلم، ج ١، ص٢٩٤) باب (بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن التلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله) (السابق، ج١، ص ٣٠٩) (باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات..) (السابق، ص ٣٣٦).

٢- وقد ساق الطبري اللالكائي أقوال الصحابة والتابعين والأئمة في زيادة الإيمان، وكذلك ابن أبي شيبة وغيرهما، فأخرج الطبري عن عبد الله بن عكيم: سمعت ابن مسعود في دعائه يقول: «اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا»[٢٧٥].

وأخرج الطبري عن الأسود بن هلال قال: قال معاذ بن جبل لرجل:

---

(٢٧٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١، (ط مناهل العرفان) ص ١٤٨، ١٤٩ وانظر: باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، ج٢، ص١٨٣، حديث ١٥١.

(٢٧٤) فتح الباري، ج ١، ص ٤٥.

(٢٧٥) إسناده صحيح، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج٢، رقم ١٧٠٤، ص ٨٠٢.

«اجلس بنا نؤمن ساعة، يعني: نذكر الله- عز وجل»(٢٧٦).

وأخرجه ابن أبي شيبة «كان معاذ يقول للرجل من إخوانه: اجلس بنا فلنؤمن ساعة، فيجلسان، فيذكران الله، ويحمدانه»(٢٧٧).

وأخرج ابن أبي شيبة عن علقمة «ثقة، ثبت، فقيه، عابد، من أصحاب ابن مسعود أنه كان يقول لأصحابه: امشوا بنا نزداد إيمانًا»(٢٧٨).

فهؤلاء الراغبون في رضوان الله كانوا يحرصون على تربية الإيمان، أي: تزويده بذكر الله، وبالتفقه، وبقراءة القرآن، وبفعل الخير.. إلخ؛ لأنهم كانوا يؤمنون أن الإيمان يزيد وينقص، وهذه هي عقيدة الإسلام حقًا رواها مجموع من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء، قال سهل بن المتوكل: أدركت ألف أستاذ، أو أكثر – كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. وقال عبد الرزاق: لقيت اثنين وستين شيخا، منهم معمر الأوزاعي والثوري.. ومالك ابن أنس،.. كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. وسئل الأوزاعي عن الإيمان؛ فقال: الإيمان يزيد وينقص، فمن زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فهو صاحب بدعة. وعن عقبة بن علقمة قال: سألت الأوزاعي عن الإيمان: أيزيد؟ قال: نعم حتى يكون كالجبال. قلت: فينقص؟ قال: نعم، حتى لا يبقى منه شيء»(٢٧٩).

(٢٧٦) سنده صحيح، رواه البخاري معلقا في الإيمان (فتح، ج ١، ص ٤٥) قال ابن حجر: وصله أحمد، وأبو بكر أيضا بسند صحيح إلى الأسود بن هلال» (فتح، ج ١، ص ٤٨)، وانظر الطبري: شرح أصول.. كلها رقم ١٧٠٧، ص ٨٠٣.

(٢٧٧) ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان رقم ١٠٧، ص ٣٥ (قال الألباني: إسناده صحيح على شرط الشيخين).

(٢٧٨) إسناده حسن، ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان، رقم ١٠٤، ص ٣٥ والطبري اللالكائي: شرح أصول.. رقم ١٧٣٠، ص٨١١.

(٢٧٩) أخرج كل ذلك، وكثيرًا غيره: الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج٢، ص ٨١٤- ٨١٧.

٣-وإذا كان الإيمان يزداد، وينمو، ويتربى.. بكثرة النظر، وتظاهر الأدلة، وذكر الله، وخشيته، وطاعته، فإن ينقص بالغفلة، وتضييع الطاعات، وفعل المعصية، وارتكاب الذنب، فكلما ارتكب ذنبا، نقص نور قلبه، ونكت فيه نكتة سوداء، ورفعت الأمانة من قلبه، كما فصلنا ذلك في فصول ثلاثة سابقة.

وقال عروة: ما نقصت أمانة عبد قط إلا نقص إيمانه(٢٨٠).

وهكذا كل فعل من أفعال الذنوب، بفعل محرم، أو بترك طاعة.

إذن، يزداد الإيمان بسبب الزيادة في أعمال البر، وينقص الإيمان بسبب النقص في أعمال البر، وبسبب حب الذنوب، وفعل المعصية.

أي: أن طريق تربية الإيمان ذو شقين:

الأول: فعل الخير، واكتساب الطاعات، وممارسة الإيمان.

والثاني: التوبة، والتخلص من الذنوب والآثام والكبائر، والمحرمات.

وإلى هنا نكتفي، من الحديث في مقومات الإيمان، وباقي هذه المقومات داخل في المقومات السابقة، ويرجع لدراستها، إلى ما ذكرناه من كتب الإيمان والعقيدة، وسيأتي إشارة لها أيضًا فيما بعد، وذلك لأن أمامنا- هنا- مهمة هي بيان الأساليب التربوية لاكتساب الإيمان وتوحيد العبادة.

٦- الأساليب التربوية لاكتساب الإيمان وتوحيد العبادة:

إذا كان وضع الإيمان بالله، ورسوله، بهذه الأهمية والخطورة، في الدنيا والآخرة، والشمول؛ فإننا (يجب) أن نسعى لتحصيله، علما وعملًا وتكوينه وإيجاده في القلب، أولًا، وتنميته، وتزويده، وتكبيره، وتكثيره، ثانيًا. أي: يجب تربية الإيمان في قلوبنا وأرواحنا، ونفوسنا، وسلوكنا، وهذه مقترحات تربوية تبين الطريق التربوي لذلك.

---

(٢٨٠) ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان، رقم ١٠، ص ٦.

أ- تربية إرادة التوحيد – محبة الإيمان والتوحيد- أولًا :

فمن هنالك نبدأ، من تربية الحب والرغبة في الإيمان، في التوحيد، في العبادة لله.

١- يقول ابن تيمية في كتاب التوحيد: «وأصل الحركات: الحب»(٢٨١). ويفصل في قاعدة في المحبة، يقول: «وَأَصْلُ كل فعل وحركة في العالم: من الحب والإرادة، فهو أصل كل فعل ومبدؤه، كما أن البغض والكراهة: مانع وصاد لكل ما انعقد بسببه ومادته، فهو أصل كل ترك»(٢٨٢). ويضيف: «هذا يندرج فيه كل حركة وعمل..فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة»(٢٨٣). ولكنه يضيف: «الحب يتبع الإحساس»(٢٨٤). والإحساس: شعور مبني على معرفة، يقول ابن القيم: «فإن الحكمة..هي التي تجعل المريد مريدًا، فإنه إذا علم بمصلحة الفعل ونفعه وغايته انبعثت إرادته إليه..»(٢٨٥).

فإذن، لكي نتحرك نحو التوحيد يلزم أن نعرفه، ونعرف أهميته، وآثاره النافعة، وأن نحبه، وأن نميل إليه، ونرغب فيه، وأن نريده، ونعزم على اكتسابه والتحقق به، ولا يتحقق ذلك بدون أن نحس ونشعر بأهميته وضرورته لنا، في الدنيا والآخرة، فتنبعث إرادتنا لطلبه، ونتحرك لاكتسابه. ومن هنا يتوجب أولًا معرفة قدر الإيمان والتوحيد والعبادة، وما يترتب على الاتصاف به، أو هجره، أو التفريط في ذلك، من هنا يحدث الإحساس بأهمية التوحيد والإيمان، فتنشأ المحبة، والإرادة، له، فيتحرك الإنسان لتحصيل الإيمان وتعلمه، والتوحيد، والتحقق بمقوماته السابقة، وتنميته في قلبه، وأخلاقه.

---

(٢٨١) شيخ الإسلام ابن تيمية: كتاب التوحيد، تحقيق ودراسة: محمد السيد الجليند، ص ١٩٣.

(٢٨٢) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: قاعدة في المحبة، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، ص ٧.

(٢٨٣) المصدر السابق، ص ٩.

(٢٨٤) المصدر السابق ص ٢١٣.

(٢٨٥) ابن تيمية: شفاء العليل..، ص ٤٠٤.

٢- والذي يجعلنا نحس ونعرف ذلك أمران: الأول: أن نفكر في أنفسنا ومصيرنا: هل خُلِقْنَا عبثًا في هذا العالم؟ هل لنا غاية، ولوجودنا مهمة ورسالة؟ من خلقنا؟ ما حقه علينا؟ ما مصيرنا؟ هل سيتركنا بلا حساب ولا جزاء؟ على أي أساس سيجازينا؟ وما نوع الجزاء؟ وما كيفيته؟ علينا أن نفكر في هذا العالم: هل خلق عبثًا؟ هل له حكمة؟ وما مصيره؟ وما علاقتنا به؟ وما علاقته بخالقه؟

هذا التفكير ضروري؛ لاستنقاذ فكرتنا من ركام الغفلات، وشهوات الأكل والشرب واللبس والنوم واللهو، والركض في الدنيا،..هو ضروري لننفض الرماد والسواد عن قلوبنا، لكي نستيقظ، وننهض، ونترك الكسل، ونركض ركضة إلى الفردوس الأعلى؛ بالتفكير والمحاسبة، فنحسب عمرنا؛ وفي أي شيء نقضيه؟ ونتفكر في (الخاتمة) وفي (المصير) وفي (الرُّجْعَى) إلى الخالق، للحساب والمجازاة على أعمالنا، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨] وهل فعلنا ما أوجبه خالقنا علينا؟

هذا تفكير.

وتفكير آخر: ما واجب المخلوق نحو الخالق؟ هل خلقنا أنفسنا؟ لا. هل خلقنا الطبيعة العمياء الصماء البكماء؟ لا. هل خلقنا من غير شيء؟ لا.. إذن، حتمًا - حتمية عقلية- لنا خالق. فهل خلقنا عبثًا؟ لا. ما واجبنا نحو خالقنا الحكيم؟

٣- إنك لو تفكرت في قصة زيد بن عمرو بن نفيل- رحمه الله- لنهضت إلى التوحيد، بحب وجد، انظر لهذا الرجل المفكر، الحقيقي، هو ذا يبحث، ويتفكر، ويقرر، ويأخذ الأمر بجد، ولم يكن الوحي قد نزل على سيدنا محمد، هو ذا يبحث عن الدين الصحيح، وأحس أنه مخلوق لخالق حكيم، من حقه

أن يعبده، فظل يبحث عن الدين، سافر البلدان، وعاشر أهل المعرفة ليبحث عن الطريق الموصل إلى الله، أخرج البخاري، عن ابن عمر أن زيد بن عمرو ابن نُفَيْل خرج إلى الشام يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالمًا من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إنّي لَعَلِّي أن أدين دينكم فأخبرني. فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا، وأنَّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم: لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام؛ خرج، فلما بَرَزَ؛ رفع يديه فقال: اللهم إني أَشْهَدُ أني على دين إبراهيم»(٢٨٦).

وأخرج البخاري: «قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.. وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله!! إنكارا لذلك وإعظامًا له..»(٢٨٧).

وأخرج عن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما - قال: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي الموؤودة..»(٢٨٨).

إنه فكر وبحث، ووصل إلى دين إبراهيم، على حد علمه، واستطاعته، والتزم بذلك، حتى رآه النبي ﷺ في الجنة، وغفر الله له ورحمه، كما أخرج البزار والطبراني، لأنه عرف التوحيد، والتزم به، وكان يقول: لبيك حقًا حقًا،

---

(٢٨٦) فتح الباري، ج ٧، رقم ٣٨٢٧ (باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل)، ص ١٤٢.
(٢٨٧) المصدر السابق، رقم ٣٨٢٦، ص ١٤٢.
(٢٨٨) المصدر السابق، رقم ٣٨٢٨، ص ١٤٣، وانظر: شرح ابن حجر، ج ٧، ص ١٤٣ - ١٤٥.

تعبدا ورقا، ثم يخر فيسجد لله»(٢٨٩).

هذا زيد بن عمرو- رحمه الله- في زمن الجاهلية، لأنه بحث، وفكر، وسأل عن دين التوحيد، فهل يكون أفضل منك، وأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟ وتؤمن باليوم الآخر؟ أين فكرك؟ أين بحثك؟ أين سفرك واهتمامك بالتوحيد؟ أين فرارك من غضب الله؟ أين فرارك من لعنة الله؟ أنّى تستطيع ذلك؟!

فكر، وتعقل، فالطريق من هنا، يبدأ، إن التوحيد ينقذنا من الحيرة وغضب الله، ولعنته.

٤- أما الأمر الثاني الذي يجعلنا نحس بقيمة التوحيد، فهو أن نعرف ماذا يحقق لنا؟ وأن نعرف أن مصيرنا متعلق به: سعادتنا متوقفة على التحقق به، اذهب إلى ابن القيم ليعطيك درسًا في طريق الهجرتين وباب السعادتين، هو ذا يعلمك: «أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب؛ أعظم من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به؛ فإن حقيقة العبد: روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره(...) ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له، ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله – ما حصل، لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، ثم يعذب، ولابد في وقت آخر(...) وهكذا، ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو

---

(٢٨٩) انظر: ابن حجر: المصدر السابق، ص ١٤٣ – ١٤٥ وابن كثير البداية والنهاية، ج٢، دار الفكر، ص ١٨٦ – ١٩٤.

عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة(...) والعاقل يوازن بين الأمرين، ويؤثر أرجحهما وأنفعهما..»[٢٩٠].

تأمل هذا، وارجع إلى ما كتبناه عن حرية القلب، بعبادته لله وحده، فهل تكون حرا وتركض معنا إلى الفردوس الأعلى، فيا لها من ركضة، ويا سرورك، وسعادتك؛ لو دخل معك التوحيد والإيمان الصحيح، قبرك، ثم جاءا معك يوم الدينونة، ووافيت الله بالإيمان الحق.

ففكر في حسن التوحيد الذي ذكرناه أول هذا المبحث. وتأمل في آثار الإيمان في النفس والأخلاق والحياة[٢٩١]، فإن هذا التفكير وهذه الدراسة لأهمية التوحيد وحسن آثاره، وقبح الشرك ومضاره، يؤسسان الإحساس بالتوحيد، والمعرفة به، فتنشأ المحبة له، وإرادته، فيتحرك الإنسان لتحصيله واكتسابه.

إن معرفة التوحيد، والاهتداء إليه هو أهم نعمة ينعمها الله على الإنسان.

٥- دراسة أمثال القرآن والسنة، التي وردت في قبح الشرك، وعبادة الله، وكون ذلك مناقضًا لمنطق العقل، وكيف أن المشرك مخرف، غبي، مستعبد للأوهام: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٩]، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٤١].. وأمثال ذلك.

---

(٢٩٠) ابن القيم: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص ٥٥.

(٢٩١) قد درست مجموعة مهمة من الكتب في هذا الصدد: المودودي: الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادئها. القرضاوي: الإيمان والحياة، والعبادة في الإسلام، والخصائص العامة للإسلام، وسيد قطب: خصائص التصور الإسلامي، ومقومات التصور الإسلامي. محمد المبارك: نظام الإسلام في العقيدة والعبادة، وذلك بالإضافة إلى كتب ابن تيمية وابن القيم في الموضوع.

٦- التفكر في قصص التوحيد، القصص القرآني والنبوي الذي يبين حسن التوحيد، وحسن عاقبته، وقبح الشرك، وقبح عاقبته، وأسباب الانحراف عن التوحيد، مثل قصة نوح مع قومه الذين عبدوا رجالًا صالحين، و إبراهيم مع قومه، ومع النمرود، خصوصًا، مما يثير التفكير، ويربي الإحساس القوي بحلاوة التوحيد، وقبح الشرك بالله.

ب- التبصر في الآيات والدلائل، مع طلب الهداية والتوفيق من الله:

وذلك يكون بأسلوبين:

١-الأسلوب الأول: دراسة نصوص من القرآن الكريم دراسة منظمة، ومنهجية ومبرمجة، ومحددة زمنيا على شكل دورات، أو برامج تعلم ذاتي مقصود تدرس فيها- بتأن، وإخلاص، وجدية- سورة الزمر، والرعد، وفاطر والأنعام والأعراف وقصة نوح، وقصة إبراهيم، وربع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ [النساء: ٥٨]، وربع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]، وسورة النحل، وسورة الإسراء، بشهود عقلي، واستسلام قلبي لكلام الله، مستشعرًا أن الله يخاطبك أنت، وأنزل القرآن إليك أنت. وإنه لكذلك ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

فتذكر أنت هذه الحقيقة، فالله أنزل القرآن إليك، يخاطبك به، ليعلمك دينك، ويبين لك منهاج حياتك، ويهديك، فسلم نفسك لله، واجلس بين يديه بعقل مدقق، شاهد، حاضر، يستمع إلى الله، يكلمه، وبقلب مستسلم مفتوح لكلمة الله، ورغبة قوية في معرفة الحق، والعمل به- إذا كنت كذلك، ولم تدخل على القرآن بمقررات مسبقة، بل كنت تلميذا نجيبًا للقرآن، الذي يخاطبك الله به، فهو كلامه، ورسالته، وخطابه إليك، ليرشدك، إلى سبيل النجاة، إذا كنت كذلك، كنت قد فتحت للقرآن قلبك وتركته يغسلك،

ويطهرك، ويغرس فيه شجرة الإيمان، ويربيها، حتى ترسخ، وتثمر فعل الخير في الحياة.

اسأل نفسك ما سأله مالك بن دينار لأهل زمانه، «ماذا زرع الإيمان في قلوبكم؛ فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض (الماء الذي يروي الأرض) وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش. فيكون فيه الحبة، فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسنُ، فيا.. ماذا زرع الإيمان في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟»(٢٩٢).

التلقي عن القرآن بشعور المحتاج إلى هدايته، وبشعور المحب لله، وبشعور العبد، الذي جاءه خطاب ربه ليهديه، ويرشده، وينير له الطريق. هذا النهج في تلقي القرآن هو الذي يربي الإيمان: «تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا»، «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن ثم علموا من السنة» إلخ، هذا هو النهج المربي: أن تقرأ القرآن لتتعلم الإيمان، لتتلقي أمر الله في شأنك، وشأن الحياة، وشأن الناس، لتعمل له، نورا، فتحول- فيك- معاني القرآن إلى حركة، إلى منهجية بناء، للذات، إلى تيار دافق مطهر، دافع للعمل، إلى موجه، إلى مرب حكيم حازم تخوض به معركة في داخل نفسك، لتخلص من بقايا الشرك، والإثم، ولتتحقق بمعاني الإيمان وعبادة الله وحده، لا شريك له .

هذا ما أقصد بالدرس المتبصر للقرآن، ذكر ابن كثير«عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن. وقال أبو عبد الرحمن السلمي:حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا

(٢٩٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة، مجلد٢، ج٣، ص١٥٧.

بما فيها، من العمل؛ فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا»(٢٩٣).

ولكي نعرف المعاني، والأعمال في الدرس القرآني، فمن الأنسب دراسة السور والآيات المختارة في تفسير مناسب (الطبري وابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، وفي ظلال القرآن لسيد قطب) والفتوحات الإلهية، المعروف بحاشية الجمل).

بهذا يزداد الإيمان، أي: يتربى، بآيات القرآن، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: علمًا وعملًا، باطنًا وظاهرًا (٢٩٤).

- وهذا الأسلوب في التبصر بالقرآن يمكن أن يكون فرديًا، أو ثنائيًا، أو ثلاثيًا، أو أكثر، ويكون مبرمجًا زمنيا، وما يدرس: تعلما، يصلى به تعبدًا، ويحاسب عليه المرء نفسه، قبل العمل وبعده، وفي كل الأحوال - يجب تجنب أي رأي للمفسر؛ يخالف فيه قواعد أهل السنة والجماعة التي قررناها في هذا الفصل .

٢- **أما أسلوب التبصر الثاني فهو:** إعمال العقل في صنعة الله، في الكون، في خلق السموات والأرض، بشهود عقل، وحضور قلب، فلا يكون الإنسان ممن يمر على آيات الله في السموات والأرض، وهم عنها معرضون، بل يجيب الإنسان نداء الله بالتفكر، والنظر، والتعقل، فيتبصر في الشواهد، والدلائل الكونية، وهي فيه، وفيك، وفي كل الآفاق الكونية، وانتقل من الصنعة إلى الصانع، ومن الكون إلى المكون، ومن الخلق إلى الخالق، فإذا أجبت وتبصرت، وسألت نفسك: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل:١٧] نما إيمانك وزاد توحيدك ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

---

(٢٩٣) ابن كثير: تفسير، ج١، ص٣.

(٢٩٤) ادرس فصل: جيل قرآني فريد من «معالم على الطريق»، سيد قطب، ومقدمة تفسير سورة الأنعام من: في ظلال القرآن.

فيا حبذا عقل مفكر، وقلب يقطع المسافة إلى الله، إنها عبادة الأكياس، أهل الفطنة الذين ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، قال ابن كثير: «أي: يفهمون ما فيهما مِنَ الحِكَم الدالة على عظمة الخالق، وقدرته، وحكمتِه، واختياره، ورحمته. وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة(...) وقال سفيان بن عينية: الفكر نور يدخل قلبك(...) وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، ولا فهم امرؤ قط إلا علم، ولا علم امرؤ إلا عمل(...)، وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه(...)، وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه، وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد، ولا اثنين، ولا ثلاثة، من أصحاب النبي ﷺ، يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان: التفكر»(٢٩٥).

- وهذا الأسلوب يمكن ممارسته بالتفكر الذاتي في ظواهر طبيعية وبيئية وإنسانية، وفي الآيات الخاصة بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وعَبْر تخصيص رحلة أسبوعية في مجالس الطبيعة (حدائق، أنهار، حقول..) لممارسة التفكر، وقد يمارس عبر رحلة تفكر جماعية يفكر فيها المشاركون لمدة زمنية في أي ظاهرة طبيعية يرونها ثم يتجمعون ليتحدث كل واحد عن تفكره، والعبر التي استنبطها، وربط ذلك بآيات القرآن الكريم، وبمقومات التوحيد.

بهذا وذاك تتحقق القراءتان: قراءة كلام الله، وقراءة كتاب الكون، فيربو الإيمان.. ويزيد.

جـ- الدراسة المتأنية لحديث النبي ﷺ في الإيمان والتوحيد والعبادة:

فحديث النبي نور، وقد رَبَّى جيلًا لا مثيل له، ويمكنك أن تعيد التجربة

---

(٢٩٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٣٨.

مرة ثانية، فاعمل مع حديث رسول الله ﷺ ما عملتَه، وتعمل مع القرآن، فهو وحي الله كذلك، ولا أقترح عليك إلا ما طبقته أنا بنفسي فوجدت فيه الشفاء النافع، درست كتاب الإيمان وكتاب بدء الوحي، وكتاب الأنبياء وكتاب الرقاق، وكتاب الفتن، وكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، وكتاب الأدب، وكتاب التوحيد من صحيح البخاري، وكتاب الإيمان، وكتاب صفة الجنة، وكتاب البر والصلة من صحيح مسلم، وكتاب الإيمان من شرح السنة للبغوي، والإيمان لابن أبي شيبة، وأبي عبيد، والإيمان لابن عبد الوهاب، وكتاب التوحيد وشروحه له، وكتاب السنة لابن أبي عاصم، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للطبري اللالكائي، والتوحيد لابن خزيمة، وأحاديث الإيمان والتوحيد والعبادة من مسند أحمد، ومن المعجم الكبير للطبراني، ومن السنن الأربعة، وموطأ مالك، وغير ذلك مما لا أحب التطويل به مثل الاعتقاد للبيهقي، وسلّمت نفسي للنبي، ليزرع الحديث النبوي في قلبي زرعه الطيب، ويرويه، وينميه، فجرّب أنت، تذق ما ذقت.

وكنت أتابع الدرس للكتاب الواحد حتى أتمه، ثم آخذ في الذي يليه، وكنت أقرأ على زواري مما أدرسه، فكان النور يتدفق على قلبي، وأزداد علمًا بالإيمان والدين والتوحيد والعبادة، فأزداد إيمانًا، والحمد لله.

وإن لم تستطع ذلك فادرس كتاب الإيمان من صحيح مسلم، والإيمان لابن منده، والنهاية لابن كثير، واطلب من بعض أهل العلم أن يشرح لك مجموعا من حديث رسول الله ﷺ في الإيمان والتوحيد (١٠٠- مائة حديث في ذلك) تحفظها وتدرسها وتعمل بها (فليكن منتخبا من البخاري ومسلم ومسند أحمد والمعجم الكبير للطبراني- مثلًا).

د- إحكام تربية توحيد المعرفة والأسماء والصفات:

فهو الطريق إلى توحيد العبادة، وقد أوضحنا أساليب هذه التربية في

المبحث السابق، فيرجع إليه، ويُعْمَلُ به.

هـ - الدرس المنهجي المنظم للإيمان والتوحيد:

في عصرنا لابد من دراسة منهجية منظمة لبعض كتب ومقررات أهل العلم من أهل السنة المحمدية، فمع ضرورة وأهمية الأساليب السابقة يتوجب وجوبًا دراسة كتاب واحد على الأقل نتعلم فيه، ومنه حقائق الإيمان والتوحيد والعبادة، وواجبات الإيمان وشروطه، ونقائضه. فلا مفر – إذن – من التثقيف الذاتي، أو المشترك، الجاد، بغرض العمل، أقول: العمل، لا مجادلة الآخرين، أو الاستكثار من المعرفة، بل: العمل، فأمامنا سبع وسبعون قيمة، وشعبة من شعب الإيمان، فمن يعمل بها إن لم نعمل نحن بها؟ والذي نقترحه- بعد دراسة وخبره وممارسة- من مراجع لمقرر منظم منهجي في التربية الإيمانية التوحيدية:

١- دراسة كتاب الإيمان وكتاب التوحيد من صحيح البخاري(دون شرح ابن حجر للكتاب الثاني- أو الحذر من تأويله).

٢- دراسة شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان، الجزء الأول والثاني.

٣- دراسة كتاب الإيمان وكتاب صفة الجنة من صحيح مسلم بشرح النووي.

٤- دراسة كتاب الإيمان لابن أبي شيبة، وكتاب الإيمان لأبي عبيد، وكتاب الإيمان لابن منده، وكتاب الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب.

٥- دراسة كتاب فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب، ومفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، له.

٦- دراسة كتب: العبودية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، والتوحيد، والإيمان الكبير لابن تيمية.

٧- دراسة كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم لابن تيمية.

٩- دراسة كتاب: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (مجلدان) للطبري اللالكائي.

١٠- دراسة كتاب معارج القبول للحكمي، مجلدان.

١١- دراسة شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، تحقيق الألباني.

١٢- دراسة كتاب: الإيمان: أركانه- حقيقته- نواقضه لمحمد نعيم ياسين.

١٣- دراسة مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب (خصوصًا: فصل ألوهية وعبودية).

١٤-دراسة كتاب: خطب الجمعة، والحضارة الإسلامية، أسسها ومبادئها، والمصطلحات الأربعة في القرآن لأبي الأعلى المودودي.

١٥- دراسة رسالة: أوثق عرى الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب.

١٦- دراسة كتاب: الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف لمحمد سعيد سالم القحطاني.

١٧- دراسة كتاب: الإيمان والحياة، والعبادة في الإسلام، والخصائص العامة للإسلام ليوسف القرضاوي.

١٨- دراسة كتاب: حد الإسلام وحقيقة الإيمان لعبد المجيد الشاذلي (دون الباب الخامس، ففيه بعض الأخطاء فيما يختص بالإعذار بالجهل، وما سوى ذلك فهو مهم جدًا).

وكل كتاب يتفق مع هذا الإطار القائم على أصول أهل السنة والجماعة.

ويمكن عقد دورات متتابعة لدراسات منظمة لعدد معين، تلخص فيها

هذه الكتب، أو ما يقوم مقامها، وإنما ذكرناها لأننا درسناها هي وغيرها، وخبرناها، فاقترحناها عن خبرة بعقيدة أهل السنة والجماعة.

و- ممارسة شعب الإيمان، عمليًا: سواء القلبية أو اللسانية أو الأعمال البدنية:

فكل شعبة نمارسها هي تربية للإيمان؛ لأنها تزويد للإيمان، فالإيمان يزيد بالطاعة: بالصلاة، والصيام، وذكر الله، وقراءة القرآن، والتفكر، وبر الوالدين، والعطف على اليتيم، والمسكين، وإماطة الأذى عن الطريق، وخدمة الناس، والإحسان إلى الجار، والسعي في حوائج المحتاجين..إلخ والتوبة، والاستغفار، والاحتماء من الذنوب،..إلخ، فكما سبق أن ذكرنا أن الإيمان يزيد بفعل الطاعات وأعمال البر، وترك المعاصي، فممارسة شعب الإيمان هي إيمان، وتربية للإيمان.

ولابد من الحذر أن يكون إيماننا على الظاهر، واللسان، ولا يجاوز الملابس، والحناجر، فهذا خطر شديد، أي: لابد من غرس الإيمان، في القلب، وزرعه في العمق، والبدء من تحت، وخلطه بالأعصاب وبكل نبضة قلب، وقطرة دم، ودفعة إحساس وشعور، وقد جاءنا مدد الله ونورُه، ورضاه، واذهب إلى الشيخ عبد القادر لينبهك: «يا غلام، فقه اللسان بلا عمل القلب لا يدنيك من الحق خطوة، السير: سير القلب»، فمارس أعمال الإيمان القلبية، واللسانية، والبدنية، ففي هذه الممارسة تربية متكاملة متوازنة للإيمان. واستعن بدراساتك المذكورة سابقًا في حسن الممارسة.

«المداومة على ذكر الله بالقلب والعقل واللسان»، يقول الشعبي: «إن الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع»[٢٩٦].

---

(٢٩٦) إسناده حسن، انظر محمد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصلاة، رقم ٦٩١، ص ٣٨٠.

فيقرأ الدارس بتمعن صحيح الكلم الطيب لابن تيمية والألباني، والوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم، وتحفة الذاكرين للشوكاني، والأذكار للنووي، وأبواب الذكر والدعوات من كتب البخاري ومسلم، والمجتبى للنسائي، وباقي السنن، ويجعل له وردا في الصباح والمساء، وفي الأحوال المختلفة.. ويداوم على هذا الذكر، ويتفهم معاني ما يقول، ويجريه على قلبه، والله يفتح له.

ز- الاغتراب المعنوي:

بهجرة القلب إلى الله ورسوله، فتكون مع الناس بجسدك، ومع الله بقلبك، (كن مع الله بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس..) وخض معركة مع النفس الأمارة بالسوء، في داخلك، بهدف تصحيح تصوراتك وأفكارك، وقيمك، وموازينك- طبقا لميزان الحق، واستمر في المعركة مع نفسك حتى تستسلم لله، ويكون هواها ورضاها في اتباع محمد رسول الله ﷺ، واستعن عليها بالله تعالى، وبالدعاء في السحر، وبالتفكر والنظر، وبالدراسة العلمية، والصوم، والصلاة الخاشعة. والله يهدينا ويهديك.

ح- التجديد المستمر للإيمان:

وقد ذكرنا ذلك في أول هذا الفصل، فالقلب يحتاج لتجديد الإيمان فيه، لأنه سريع الدثور، والإيمان يخلق فيه كما يخلق الثواب، وهذا التجديد بالدعاء، والتضرع لله أن يجدد الإيمان في قلوبنا، ويكون بالإكثار من ذكر الله بكلمة التوحيد،ويكون بتحديث القلب بكلام الله، وكلام رسوله ﷺ ويكون بدراسة هذا الفصل دراسة متأنية دقيقة، ويكون بالتفكر، وبالدراسة الواعية لجوانب الإيمان ومقوماته، ويكون بالتعبد بأسماء الله الحسنى..إلخ، وإحسان الصلة به، ويكون بتلاوة القرآن بالتفكر ونية العمل.

ط- الارتباط الوجداني بسيدنا محمد ﷺ:

وقد بينا ذلك في فصل (قلوب تحن إلى الحبيب)، وفي مبحث: الركن الثالث في الإيمان؛ من هذا الفصل.

هذا الارتباط ينشأ – كما قدمنا – من معرفته، ودرس مدائحه وشمائله، وسيرته..إلخ، وقد بينا النهج التربوي لذلك – هناك.

قال الحليمي: «أصل هذا الباب: أن تقف على مدائح رسول الله ﷺ والمحاسن الثابتة له، في نفسه، ثم على حسن آثاره في دين الله، وما يجب له من الحق على أمته شرعًا، وعادة. فمن أحاط بذلك، وسلم عقله؛ علم أنه أحق بالمحبة من الوالد الفاضل في نفسه، البَرّ الشفيق على ولده»(٢٩٧).

ولعل قراءة حديثه، وسيرته، والأشعار الصحيحة التي صيغت فيه، تحرك القلوب للهجرة إليه.

بهذا كله، يتربى الإيمان في قلوبنا، ونكون شخصيات مسلمة فاعلة في الحياة.

ونختم هذه الفقرة بكلمات مضيئة:

قال ابن رجب: «قال المروزي: قلت لأحمد: في معرفة الله بالقلب؛ تتفاضل فيه؟ قال: نعم، قلت: ويزيد؟ قال: نعم.

ذكره الخلال عنه، وأبو بكر عبد العزيز في كتاب السنة، أيضًا، عنه، وهو الذي ذكره القاضي أبو يعلى، من أصحابنا في كتاب الإيمان، وكذلك ذكره، أبو عبد الله بن حامد(...).

وتفسر زيادة المعرفة بمعنيين:

أحدهما: زيادة المعرفة بتفاصيل أسماء الله وصفاته وأفعاله، .. وتفاصيل

---

(٢٩٧) حاشية السيوطي على النسائي، ج ٨ ص ٨٣.

اليوم الآخر، وهذا ظاهر لا يقبل نزاعًا.

والثاني: زيادة المعرفة بالوحدانية بزيادة معرفة أدلتها، فإن أدلتها لا تحصر، إذ كل ذرة من الكون فيها دلالة على وجود الخالق ووحدانيته.

فمن كثرت معرفته بهذه الأدلة زادت معرفته على من ليس كذلك.

وكذلك المعرفة بالنبوات، واليوم الآخر، والقدر، وغير ذلك من الغيب الذي يجب الإيمان به»[٢٩٨].

ويقول: «فزيادة الإيمان بالذكر من وجهين: أحدهما: أنه يجدد من الإيمان والتصديق في القلب ما درس منه بالغفلة، كما قال ابن مسعود: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع(...). والثاني: أن الذكر نفسه من خصال الإيمان، فيزداد الإيمان بكثرة الذكر»[٢٩٩].

---

(٢٩٨) ابن رجب: كتاب الإيمان من فتح الباري شرح صحيح البخاري، ص ٤،٥.
(٢٩٩) المصدر السابق، ص ٧ وانظر ص ٢٦، ٢٧ نفس المصدر.



الفصل السادس عشر

تربية القلب المخموم

تربية القلب المخموم

أولا: نص الحديث النبوي:

أ- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قلنا: يا نبي الله، من خير الناس؟ قال: «**ذو القلب المخموم واللسان الصادق**» قال: قلنا: يا نبي الله، قد عرفنا اللسان الصادق، فما القلب المخموم؟ قال: «**التقي، النقي، الذي لا إثم فيه، ولا بغي ولا حسد**» قال: قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال: «**الذي يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة**» قلنا: ما نعرف هذا فينا إلا رافع، مولى رسول الله ﷺ، فمن على أثره؟ قال: «**مؤمن في خلق حسن**» قلنا: أما هذه ففينا[١]. رواه البيهقي.

ب- وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد**»[٢].

جـ- قال الألباني في الصحيحة: رواه ابن ماجه (٤٢١٦)[٣]، وابن عساكر (١٧/ ٢٩/ ٢) من طريقين: عن يحيى بن حمزة؛ حدثني زيد بن واقد عن مغيث بن سمي الأوزاعي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب..**» قلت: وهذا إسناد صحيح،

---

(١) هذا لفظ البيهقي في السنن، وهو أتم، انظر: المنذري: الترغيب والترهيب، ج ٥، ص ٢٠٠ ، ٢٠١، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ٣٢٩١، ص ٦٢٣.

(٢) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤١٦، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ وقال في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح. رواه البيهقي في سننه من هذا الوجه، انظر: الشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج ٣، رقم ١٥٠٤، ص ٢٩٩.

(٣) هذا ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي في السنن؛ انظر: سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ٤٢١٦، ص ١٤٠٩، ١٤١٠.

رجاله ثقات، وتابعه القاسم بن موسى عن زيد بن واقد به (..).

قلت: وزاد ابن عساكر عن طريق القاسم بن موسى، وفي إحدى الطريقين، عن يحيى بن حمزة: قالوا: فمن يليه يا رسول الله؟ قال: «**الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة**»، قالوا: ما نعرف هذا فينا إلا رافع مولى رسول الله ﷺ. قالوا: فمن يليه؟ قال: «**مؤمن في خلق حسن**»(٤).

د- وصحح الحافظ العراقي ما جاء في الإحياء بلفظ: وما مخموم القلب؟ فقال: «**التقي النقي، الذي لا غش فيه، ولا بغي، ولا غدر، ولا غل، ولا حسد**»(٥).

ثانيا: تمهيد:

١- يبين هذا الحديث الصحيح أن خير الناس، وأفضل الناس هو صاحب القلب المخموم واللسان الصادق، وأنه في أعلى درجات سلم القيم الإسلامي، الذي يحبه الله تعالى، فأعلى درجات هذا السلم القيمي: نظافة القلب، وصدق اللسان، ثم بعد ذلك: حب الآخرة، وبغض القلب للدنيا، ثم بعد ذلك: الخلق الحسن مع الناس، وهذا ترتيب دقيق، يتسق مع قاعدة: «إنما الأعمال كالوعاء، فإذا طاب أسفله طاب أعلاه..»، فإذا كان القلب، وهو أسفل الوعاء.. وعاء الأعمال.. مخموما؛ أي: منظفا، مطهرا، تقيا، نقيا؛ من كبائر القلب؛ صدق اللسان، ومال القلب إلى الدار الآخرة، وهاجر إليها، وأبغض الدنيا - كما سنوضح - وخالق الناس بخلق حسن، ففي البدء يكون القلب النظيف.

٢- وهذا ما ينبغي أن يكون سلم القيم عليه عند المسلم: نظافة القلب،

---

(٤) الألباني: السلسلة الصحيحة، رقم ٩٤٨، ص ٥٤٦، ٥٤٧.

(٥) الإحياء، ج ٢، ص ١٣٦٤، وعزاه إلى ابن ماجه بإسناد صحيح، قلت: الذي في ابن ماجه أثبتناه فوق، فتأمله.

وصدق اللسان، أولا؛ لأن ثمرة ذلك: هو حب الآخرة، وعمل حساب لها في التعامل، مما يؤدي إلى نظافة الخلق، فهذا هو الطريق للخيرية، والأفضلية، عند الله تعالى، على مستوى الفرد، والأمة.

٣- والطريق إلى ذلك: هو تربية القلب المخموم بخصائصه التي بينها الحديث.

فهذا الحديث يحدد ويرسم جملة قيم تربوية، تحدد بدورها منظومة أهداف يسعى إلى اكتسابها المسلم، وإلى إكسابها كل مرب مسلم؛ أي: العمل على أن يكون القلب المسلم: تقيا نقيا، نظيفا من الإثم، والبغي، والغل، والغدر، والغش، والحسد، فيا لها من أهداف تربوية كبيرة!

٤- هكذا تتضح بعض معالم تربية القلب في الخطاب الإسلامي، إن الإسلام يريد القلب المخموم واللسان الصادق ومراعاة الآخرة، ومخالقة الناس بخلق حسن، والسبيل لذلك هو الجهد التربوي الجاد، والفعل التربوي الرشيد، المتبصر.

٥- ويبين هذا الحديث أن الصحابة كانوا حريصين على معرفة أعلى درجات الخيرية والأفضلية عند الله، بدليل أنهم سألوا النبي ﷺ عن ذلك، وهذا يبين علو هممهم، وحرصهم على الخير، والفضل، والرقي الخلقي، والفوز بسعادة الدنيا والآخرة التي تتحقق للأخيار الفضلاء.

كما يكشف هذا الحديث عن واقعية الصحابة وتواضعهم، ففي رواية الحكيم في النوادر؛ بعد قوله: ولا حسد، قالوا: «ما نعرف هذا فينا يا رسول الله، فمن يليه؟»[٦]. وفي رواية البيهقي وابن عساكر بعد قوله: **«ويحب الآخرة»** قالوا: ما نعرف هذا فينا إلا رافع - أو إلا في رافع مولى رسول الله، وفي رواية البيهقي بعد قوله: في خلق حسن، قالوا: أما هذا ففينا.

---

(٦) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ١، ص ٦٨٩، ولم يذكر السند لنعرف درجته.

إن هذه التعليقات من الصحابة تكشف عن ثلاثة أمور:

الأول: حرصهم على معرفة أعلى درجات سلم الأخلاق الإسلامي.

الثاني: تواضعهم وإقرارهم بالواقع، والاعتراف بالفضل لأهله.

الثالث: مقايستهم ما يعرفونه بما يمارسونه لتمييز الموقف، وتحديد مناطق النقص لاستكماله، ومعالجته.

فهم قد أخذوا خطاب النبي ﷺ ليطبقوه على أنفسهم، وليصلحوا أنفسهم، وليكملوها، ونقطة البدء هي: معرفة موضع النقص والخلل، لعلاجه، والاعتراف به للتركيز عليه، وتجاوزه، حتى لا نبني على غش.

ثالثا: مفهوم القلب المخموم:

أ- يقول ابن الأثير: «وهو من خَمَمْتُ البيتَ: إذا كَنَسْتُهُ، ومنه قول مالك: وعلى الـمُسَاقي خَمُّ العين: أي: كَنْسُها وتنظيفها»[٧] والخَمُّ: التنقية، «وفي حديث مالك بن أنس- رحمه الله: يشترط صاحب الأرض على المساقي: خم العين..» أي: تنقية أنهاره وسواقيه[٨].

وقال في لسان العرب: «خَمَّ البيتَ، والبئر؛ يَخُمُّهما خما: كَنَسَهُما.. والمِخمة: المِكْنَسَة، وخُمَامَة البيت والبئر: ما كسح عنه، من التراب، (..) وقلب مخموم: أي: نقي من الغل والحسد، ورجل مخموم القلب: نقي من الغش والدغل، وقيل: نقيه من الدنس، وفي الحديث عن سيدنا رسول الله ﷺ: «**خير الناس: المخموم القلب(..) قال: الذي لا غش فيه ولا حسد(..)**» وهو: من خممتُ البيت؛ إذا كنسته(..) والخَمُّ: الثناء الطيب، (..) يقال: خَمَّهُ بثناء حسن، يخمه(..) إذا أتبعه بقول حسن»[٩].

(٧) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٢، ص ٨١.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٦٤.

(٩) ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، دار المعارف، ص ١٢٦٩، ١٢٧٠.

فالمفهوم المعجمي للمخموم: المكنوس، المنقى، المنظف، الذي وصل إلى حال من النظافة والنقاء بحيث يثنى عليه بالقول الحسن.

ب- ويقول الحكيم في نوادر الأصول: «فالمخموم: مؤمن وَلَجَ (دخل) النور في قلبه، فأخرج ما فيه من شهوة النفس، والخُمامة: قمامة البيت، وما يكنس عن وجه الأرض»(١٠).

جـ- فالقلب المخموم: هو القلب الذي نزل فيه الإيمان، والفرقان، والأنوار، فأضاء القلب، وكشفه، وكنسه من الشهوات الحرام، ومن الدنس، والشرك، وحب الإثم، ومن الغل، والغش والغدر، والحسد، فنظفه، ونقاه، وطهره، وغسله من كل أنواع الدغل، والدنس، وأخلاق الذئاب والعقارب، وطيبه بالتقوى وبحب الله، وحب الآخرة، وحب الخير، فكان مخموما، مكنوسا، نظيفا، طيبا، نقيا، مطهرا، مطيبا، فصاحب هذا القلب هو أفضل الناس، وهو خير الناس، عند الله، وعند عباده المؤمنين.

د- وقد فسر النبي ﷺ مخموم القلب بأنه: التقي، النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد، ولا غش فيه، ولا غدر.

وهذه- حقا- محددات هوية القلب المخموم، كما جاءت في روايات الحديث الذي معنا.

وأتناول هذه المحددات في الفقرة الآتية:

رابعا: محددات هوية القلب المخموم:

أ- التقي:

أي: المتصف بالتقوى، الذي أصبحت التقوى خلقا ذاتيا له، بحيث أصبحت صفة محددة مميزة له، من طول اتصافه بها.

---

(١٠) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ١، ص ٦٨٩.

١- ومحل التقوى من حيث الأصل والمنبع، والمستقر: هو القلب. ولذلك قال النبي ﷺ: «**التقوى ها هنا**» ويشير إلى صدره ثلاث مرات[(١١)]. وأخرج أحمد عن واثلة بن الأسقع - من حديث - قال فيه رسول الله ﷺ: «**والتقوى ههنا**» وأومأ بيده إلى القلب..[(١٢)]. وأخرجه عنه الطبراني.

ولفظه: «**والتقوى ها هنا**» وأشار بيده إلى القلب..[(١٣)]. وفي رواية أبي هريرة: «**التقوى ها هنا**» وأشار إلى القلب..[(١٤)].

فمحل التقوى، ومنبعها؛ القلب.

٢- والتقوى مأخوذة من الوقاية، وهي: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره؛ «والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف..هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف- تارة - تقوى، والتقوى خوفا، (..) وصارت التقوى في تعارف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور؛ ويتم ذلك بترك بعض المباحات، (..) ويقال: اتقى فلان بكذا؛ إذا جعله وقاية لنفسه»[(١٥)].

٣- وفي النهاية: «وقيت الشيء، أقيه: إذا صنته، وسترته عن الأذى، وفي حديث معاذ: «**وتوق كرائم أموالهم**» أي: تجنبها(..) وتوقه:.. تحرز من الآفات»[(١٦)].

---

(١١) صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب البر والصلة..) رقم ٦٥٨٢، ج ١٦، ص ١٢١ (ط المصرية) ورواه أحمد في المسند، ج ٨، رقم ٨٧٠٧، ص ٣٩٩.

(١٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٩٦١، ص ٤١٧، ٤١٨، وقال في المجمع: وإسناده جيد، ورجاله ثقات.

(١٣) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٢، رقم ١٨٣، ص ٧٤.

(١٤) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٦٧٠٦، ص ١١٣٦ ونسبه للترمذي، والذي فيه ليس فيه هذه الجملة (وأشار إلى القلب) فلعلها في غير نسختي، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩٣٤، ص ٣٧٢.

(١٥) الراغب: المفردات، ص ٥٣٠، ٥٣١.

(١٦) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٥، ص ٢١٧.

٤- وفي اللسان: «ووقاه: صانه، (..) ووقاه الله وقاية..أي: حفظه(..) قال أبو بكر: رجل تقي..معناه: أنه موقٍ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح..»(١٧).

فالتقوى: تحرز النفس من الآفات، ووقايتها، وصيانتها، وحمايتها، وسترها من الأذى، وتجنبها الهلاك.

٥- وعلى هذا الأصل اللغوي سار المفسرون، فقد روى الطبري في تفسيره عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أي: الذين يحذرون من الله- عز وجل- عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به.

وروي عن ابن مسعود: هم المؤمنون. وعن ابن عباس: الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعته. ثم قال الطبري: «وأولى التأويلات بقول الله- جل ثناؤه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ : تأويل من وصف القوم بأنهم الذين اتقوا الله تبارك وتعالى في ركوب ما نهاهم عن ركوبه، فتجنبوا معاصيه، واتقوه فيما أمرهم به من فرائضه فأطاعوه بأدائها»(١٨).

٦- وقال ابن كثير: وأصل التقوى: التوقي مما يكره؛ لأن أصلها..من الوقاية(..) وقد قيل: إن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أبي بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت، واجتهدت، قال: فذلك التقوى، وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

---

(١٧) ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٤٩٠١، ٤٩٠٢.

(١٨) ابن جرير الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ١٣٦، ١٣٧ مع المعطيات السابقة.

لا تحقــــرن صـــــغيرة إن الجبال من الحصى[١٩]

فالتقوى: هي حال الحذر الدائم، والتشمير لـصيانة القلـب والـنفس مـن الإثم، حبا لله، وخوفا منه، ومراعاة ليوم الجزاء.

٧- وهذا ما رواه ابن أبي شيبة عن عاصم قـال: قلنـا لطلـق بـن حبيـب: صف لنا التقوى، فقال: «التقوى: عمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، عـلى نـور من الله، والتقوى: ترك معصية الله، مخافة الله، على نور من الله»[٢٠].

وهذا تعريف بالثمرة والنتيجة، والأثر البارز، فـالتقوى: حـال نـابع مـن المعرفة بالله، وباليوم الآخر، والإيمان الصادق بذلك، فينـشأ مـن ذلـك حـال الحذر، والتوقي مما يغـضب الله، فينـشأ مـن ذلـك العمـل بطاعـة الله، وتـرك معصية الله.

«إن تقوى الله: عاطفة من خـوف الله وإعظامـه، وخـشيته، تتملـك قلـب العبد، وتستولي على نفسه، فتوقظ ضميره، وتحيي شعوره، وتجعـل مـن نفسه لنفسه وازعا، وتقيم عليه منه حارسا.

فيكون من ذلك ما علمتَ: من بُعـد عـن معـصيته، ومبـادرة إلى طاعتـه، ولعله إلى هذا أشار رسول الله ﷺ في قوله: «**التقوى ها هنا**» ويشير إلى صدره الشريف ﷺ.

وهي بهذا المعنى: أثر من آثار معرفة الله تبـارك وتعـالى، وتقـدير عظمتـه، وحسن مراقبته(..) وإنما يتفاوت الناس في التقوى بحسب مراتبهم في معرفـة الله تبارك وتعالى، وحسن مراقبته، ودوام ذكره(..).

ولأن عواطف الإنسان جزء لا ينفصل عنه، كانت التقوى مطلوبة منـه في

---

(١٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٠.

(٢٠) ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، رقم ٩٩، قال الألباني: هذا الأثر صحيح السند إلى طلق بـن حبيـب، وهو تابعي عابد، ص ٣٣، وهامش رقم ٩٢.

كل وقت، وعلى أية حال(..).

التقوى(..) عاطفة نفسية تترقى في النفس، وتنمو بدوام المراقبة، وإنما يكون ذلك عن جهاد النفس وكفها عن الشرور، وتوجيهها إلى الخيرات(..) إن العبد إذا أخذ نفسه بتقوى الله: تهذبت أخلاقه وتطهرت طباعه، وزكت شمائله، وسجاياه، وكان من مظاهر ذلك: أن يخالق الناس بخلق حسن»[٢١].

فالتقوى: «حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق،..طريق الحياة، الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعا ولا ضرا، وعشرات غيرها من الأشواك(..) فالتقوى شعور في الضمير، وحالة في الوجدان، تنبثق منها اتجاهات وأعمال، وتتوحد بها المشاعر الباطنة، والتصرفات الظاهرة، وتصل الإنسان بالله، في سره وجهره، وتشف معها الروح..»[٢٢].

٨- وبأخذ كل المعطيات السابقة في الاعتبار يتبين أن التقوى حال يتركب من:

- معرفة الله بأسمائه وصفاته، وحقوقه، ومحبوباته، ومساخطه، وجزائه للعامل بطاعته ورضاه، وللعامل بمعصيته.

- معرفة ما بعد الموت من حساب، وجزاء، ومصير للمطيعين وثوابهم في الجنة، ومصير المشركين، والآثمين، والعصاة، وعقابهم في النار.

- اليقين في ذلك، والإيمان الجازم به، وأنه واقع، حقا، وصدقا، وأن

---

(٢١) حسن البنا: نظرات في السنة، الجزء الأول، ط ١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ١٠٩ - ١١٦.

(٢٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٢، ط ٣١، دار الشروق، ص ٣٩، ٤١.

الإنسان سيلقى أحد هذين المصيرين بناء على اختياره وعمله، وموقفه من منهج الله، وما يحبه وما يرضاه، وما يكرهه وما يغضبه.

- الخوف المزعج الذي يمنع القلب، والبدن من فعل ما يسخط الله، ويؤدي إلى عذابه.

- الرجاء الحق في رحمة الله ورضاه إذا فعل ما يرضي الله.

- إشراق القلب بأنوار المعارف السابقة، وبنور الخوف، والرجاء لله.

- الحذر الدائم من الوقوع في شوك المعاصي والآثام.. ومن ترك محبوبات الله.

- العمل بطاعة الله، أي: فعل الخير، ابتغاء وجه الله، واتجاه الإرادة لإرضاء الله باستمرار.

- تعظيم شعائر الله، وتعظيم حرماته، فإنها من تقوى القلوب.

- اجتناب المعاصي، وتجنب النفس الآثام، وبغضها بالقلب، والفرار منها، ابتغاء وجه الله.

- الشعور المستمر بأنه موقوف بين يدي الله للجزاء على كل فعل أو قول.

من ذلك كله تنشأ حالة التقوى في القلب، فتنبع منها سلوكيات التقوى الصالحة.

٩- هذه هي مكونات حالة التقوى، وأنقل بعضا مما ذكره ابن رجب في شرحه لقول النبي ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت..**» (رواه الترمذي وحسنه)(٢٣) قال:

«وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه.

فتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه

(٢٣) قال الألباني: حسن، انظر تخريجه في: صحيح الجامع، ج ١، ط٣، رقم ٩٧، ص ٢٨١.

وسخطه وعقابه، وقاية تقيه من ذلك؛ وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه.

وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله- عز وجل- كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦] (..) فإذا أضيفت التقوى إليه- سبحانه وتعالى- فالمعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب، ويجل ويعظم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس، (..)، وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله، وإلى مكانه (أي: مكان العقاب) كالنار، أو إلى زمانه، كيوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [آل عمران: ١٣١] (..) وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

ويدخل في التقوى الكاملة: فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك: فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى(..). وقال عمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرا، فهو خير إلى خير، وقال طلق ابن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله، وعن أبي الدرداء قال: تمام التقوى: أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال؛ خشية أن يكون حراما، يكون حجابا بينه وبين الحرام؛ فإن الله قد بين للعباد الذي يصيرهم إليه؛ فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله، ولا شيئا من الشر أن تتقيه (..) وقال ابن مسعود؛ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: أن يطاع فلا يعصي، ويذكر فلا ينسي، وأن يشكر فلا يكفر (..) ومعنى ذكره، فلا ينسي، ذكر العبد بقلبه لأوامر الله، في حركاته، وسكناته، وكلماته، فيتمثلها، ولنواهيه في ذلك كله، فيتجنبها.

«وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات (..) وأصل التقوى: أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى (..) وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خنيس، قال: كيف يكون متقيا من لا يدري ما يتقى؟ ثم قال معروف: إذا كنت لا تحسن تتقى؛ أكلت الربا، وإذا كنت لا تحسن تتقى، لقيتك امرأة فلم تغض بصرك..»(٢٤).

فالعلم بما نتقى هو جزء من مركب التقوى؛ أن نعرف ماذا نتقى؟ ماذا نتجنب؟ ونحذر منه، ونصون أنفسنا منه.

١٠- وتقوى الله إنما تكون في السر والعلانية، حيث يراه الناس، وحيث لا يرونه، في الغيب والشهادة، ثم يبين ابن رجب السبب الموجب لخشية الله في السر، وهو الاستحياء من الله، والهيبة منه، والإيمان بأن الله يراه، ومطلع عليه.

قال: فإن من علم أن الله يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره، وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته، أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر، وإلى هذا المعنى الإشارة(..) بقوله- عز وجل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] (..). وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: «أما بعد، أوصيك بتقوى الله؛ الذي هو نجيك في سريرتك، ورقيبك في

(٢٤) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ١٩٠- ١٩٣.

علانيتك، فاجعل الله من بالك، على كل حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه؛ ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك.. والسلام» (..) قال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب(..) وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تُخفي عليه يغيب

والمقصود: أن النبي ﷺ لما وصى معاذا بتقوى الله سرا وعلانية، أرشده إلى ما يعينه على ذلك؛ وهو أن يستحي من الله، كما يستحي من رجل ذي هيبة من قومه، ومعنى ذلك: أن يستشعر دائما بقلبه: قرب الله منه، واطلاعه عليه، فيستحي من نظره إليه.

«وقد امتثل معاذ ما وصاه به النبي ﷺ، وكان عمر قد بعثه على عمل، فقدم، وليس معه شيء فعاتبته امرأته، فقال: كان معي ضاغط، يعني: من يضيق عليّ ويمنعني من أخذ شيء، وإنما أراد معاذ ربه عز وجل(..) ومن صار له هذا المقام حالا دائما، أو غالبا، فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم»(٢٥).

١١- إذن الطريق لتحقيق التقوى في القلب: هي: اكتساب المعرفة بأسماء الله الحسنى والتعبد بها، خصوصا اسمه: العليم، والرقيب، والشهيد، والسميع، والعدل.. والمحيي، و.. واكتساب المعرفة بالحلال والحرام، وباليوم الآخر، واستشعار رقابة الله على الإنسان، واستشعار إحاطة علم الرب به، حيث كان، وأنه مجازيه على كل شيء.

---

(٢٥) المصدر السابق، ص ١٩٤ – ١٩٦.

وأن يمارس الإنسان الحذر، والخوف من أشواك الطريق، ويدخل في عبادة ربه، ويترك ما يؤدي إلى الحرام، ويعمل بحديث النبي ﷺ: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس**»(٢٦).

أي: حتى يترك بعض المباح إن أوقع في الحرام، أو الشبهة.

١٢- فإذا تحقق القلب بالتقوى: تحققت وحدة السر والعلانية، والباطن والظاهر، لأن القلب قد طاب، أي: أن أسفل العمل قد طاب، فإن أعلاه يصير طيبا، فتحسن الأخلاق؛ لأن سريرة القلب الطيب تنعكس في سلوك خلقي حسن، فصلاح الجواني ينعكس في صلاح البراني، ولذلك تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين، فما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية؛ إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا.

فالتقوى حال يتربى في القلب، وتظهر آثاره السلوكية في الصلة بالله، وحسن الأخلاق في الحياة، فهي تزكية للقلب، وتنمية للخير في كينونته، ولهذا كان النبي ﷺ يدعو الله، ويتضرع إليه بهذا الدعاء: «..**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»(٢٧).

هذا هو المحدد الأول للقلب المخموم؛ الذي يتقى الله في السر والعلانية، وهذا هو المؤهل الأول للخيرية، والأفضلية.

وقد رأينا أن تربية التقوى إنما هي في الواقع تربية للإيمان بالله، ورسوله، واليوم الآخر، تربية لواعظ الله في القلب، فما ذكرناه في هذين الفصلين يذكر هنا في تربية التقوى في قلب المؤمن.

---

(٢٦) رواه الترمذي: سننه (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب.

(٢٧) رواه مسلم، انظر: إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٢٢، ص ٢١٦، ٢١٧، والحديث رواه أحمد وغيره، انظر: صحيح الجامع، ج ١، ط٣، رقم ١٢٨٦، ص ٢٧٦، وسنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٤٥٨، ص ١٨٩، ١٩٠.

ب- النقي:

١- هذه هي الخاصية الثانية للقلب المخموم، وهي: النقاء، أن يكون نقيا؛ أي: مغسولا نظيفا متخلصا من كل دنس، قال ابن منظور: «نقي: أي: نظيف،(..) وأنقاه، وتنقاه، وانتقاه: اختاره.. نُقَاوَة الشيء: خياره، (..) والتنقية: التنظيف،(..) والنقاء: النظافة»(٢٨).

فالقلب النقي هو المغسول، حتى نظف، وتخلص من كل عيب، ونقص، وشَيْن، ونجس خلقي، وإثم، وحب للخطيئة، فهو مغسول من ذلك، نظيف، متطهر، مصفى، صاف.

وهذه قيمة تربوية للقلب المؤمن: أن يكون نقيا من كبائر القلوب، وإرادة الشر والفساد.

٢- ولهذا كان النبي ﷺ يتضرع إلى الله أن يرزقه نقاء القلب:

أخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان يقول (من حديث في التعوذ والدعاء): «**اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب**»(٢٩)، ورواه عنها وفيه: «**ونق قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس..**»(٣٠)، ورواه عنها بلفظ: «**اللهم اغسل قلبي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس..**»(٣١).

ورواه أحمد: «**ونق قلبي من الخطايا كما نقيت..**»، «**ونق قلبي من الخطايا كما**

---

(٢٨) ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٤٥٣٢، ٤٥٣٣.

(٢٩) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٣٦٨، ص ١٧٦، ورواه مسلم، كتاب إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٠٥، ص ٢٠٢.

(٣٠) فتح الباري، ج١١، رقم ٦٣٧٥، ص ١٨١.

(٣١) المصدر السابق، رقم ٦٣٧٧، ص ١٨٢.

ينقى..»(٣٢).

وأخرجه النسائي عنها؛ قالت: كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يدعو بهؤلاء الكلمات: وساق الدعاء، وفيه «**وأنق قلبي من الخطايا كما أنقيت الثوب الأبيض من الدنس..**»(٣٣). ورواه بلفظ: «**ونق قلبي..**»(٣٤).

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن أبي أوفى؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم برد قلبي بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم نق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس**»(٣٥). وأخرج عن عائشة مثل رواية النسائي: «**وأنق قلبي من الخطايا كما أنقيت الثوب الأبيض من الدنس**»(٣٦).

وروى الطبراني عن أم سلمة: «**اللهم نق قلبي من المأثم كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس..**»(٣٧).

ونلاحظ من هذه الروايات أن النبي ﷺ كان يكثر الدعاء بهذه الدعوات، أن يغسل الله قلبه بالماء، والثلج والبرد، حتى ينقيه من الخطايا والإثم كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وهذا كله تعبير عن غاية المحو والإنقاء والتنظيف، والتصفية؛ «فإن الثوب الذي يتكرر عليه ثلاثة أشياء منقية يكون في غاية النقاء»(٣٨). فالنبي ﷺ يريد قلبه في غاية النقاء، ولهذا أيضا طلب غسل قلبه بثلاثة أنواع من الماء الطيب الطاهر الطهور الذي لم تمسه الأيدي.

---

(٣٢) وإسنادهما صحيح، المسند، ج١٧، رقم ٢٤١٨٢، ص٢٨٧، والمسند، ج١٨، رقم ٢٥٦٠٣، ص٣٨.

(٣٣) سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٤٦٦، ص ١٩١.

(٣٤) المصدر السابق، رقم ٥٤٧٧، ص ١٩٣.

(٣٥) سنن الترمذي: ج ٥، رقم ٣٥٥٨، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ص ٣٢١.

(٣٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٥٠٦، ص ٢٩٨.
ورواه ابن ماجه بإسناد صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣١١٠، ص ٢٥٥، ٢٥٦، وصححه في صحيح أبي داود، رقم ١٣٨٠.

(٣٧) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٣، رقم ٨٢٥، ورواه برقم ٧١٧، بلفظ: «**.. نق قلبي من الخطايا**».
قال الهيثمي: «وأحد إسنادي الكبير ورجال الأوسط: ثقات» ص ٣١٦، ٣٥٢.

(٣٨) ابن حجر: فتح الباري، ج ٢، ص ٢٣٠.

إن الغاية عظيمة، والوسيلة عظيمة كذلك، وهذا الدعاء صدر منهﷺ مبالغة في إظهار العبودية لله- تعالى- وعلى سبيل التعليم لأمته؛ فأولا هو ﷺ يكمل حاله في كل حين، ويعلم أمته، وقال في إكمال المعلم: «والنبي ﷺ في كل هذا معلم لأمته هذه الأدعية»(٣٩).

فالنبي ﷺ يعلمنا أن نتضرع إلى الله، ونسأله أن ينقي قلوبنا من الخطايا والآثام، أي: أن يغسلها، ويمحو الذنوب وحبها، وآثارها من القلب، إنه يريد لنا قلوبا نقية.

٣- وأخرج ابن ماجه وابن أبي عاصم وأحمد وغيرهم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**رب أعني ولا تعن لي**- وساق الدعاء، وفي آخره: **رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي**»(٤٠).

فالنبي ﷺ كان يدعو الله أن يغسل حوبته: والحوبة: الإثم والخطيئة، أي: اغسل الذنب من قلبي، وكان يسأل الله أن يسلل سخيمة صدره، أو قلبه، أي: ينزع الحقد والسواد من القلب، وهذا تعليم لأمته، وبيان أن القلب المؤمن هو قلب نقي مغسول من الحقد والإثم وكل الشرور، ونيات السوء.

إن النبي ﷺ يعلمنا أن نتضرع إلى الله لينقي قلوبنا، لأن هذا طريق الخيرية والأفضلية، إن هذا الدعاء، والإكثار منه، هو تربية للقلب ليكون نقيا من

---

(٣٩) القاضي عياض: إكمال المعلم، ج ٨، ص ٢٠٤.

(٤٠) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣١٠٣، ص ٢٥٣، وصحيح الجامع الصغير، ج١، ط ٣، رقم ٣٤٨٥، ص ٦٥٦. ابن أبي عاصم: كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة، رقم ٣٨٤، ص١٨٠ دون هذا الجزء من الدعاء، وأخرجه أبو داود: السنن، ج ١، رقم ١٥١٠، ص٥٦٠. وأخرجه الترمذي، في السنن، رقم ٣٥٦٢، ص ٣٢٣، ٣٢٤، وفيه: «**واسلل سخيمة صدري**» وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أحمد، قال شاكر: إسناده صحيح، انظر: المسند، ج٢، رقم ١٩٩٧، ص ٤٧٨، ٤٧٩، والحديث: صححه الحاكم (١/ ٥١٩، ٥٢٠) ووافقه الذهبي، ورواه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٦٦٥، ص ٢٨٩، قال محققه الألباني: صحيح.

الأحقاد، واشتهاء الحرام، والآثام.

قال سعيد بن المسيب: «نق قلبك، والبس ما شئت»(٤١).

٤- وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن شُتَيْرِ بن شَكَل بن حميد، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، علمني دعاء أنتفع به؟ قال: «**قل: اللهم عافني من شر سمعي، وبصري، ولساني، وقلبي، وشر مَنِيِّي**» قال وكيع: منيي: يعني: الزنا والفجور(٤٢). وأخرجه الترمذي عنه، قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، علمني تعوذا أتعوذ به، قال: فأخذ بكفي فقال: «**قل: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي**» يعني: فرجه(٤٣). وأخرجه أبو داود عنه، قال: قلت: يا رسول الله، علمني دعاء، قال: «**قل: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي**»(٤٤).

وأخرجه النسائي بروايات منها: قال أتيت النبي ﷺ فقلت: يا نبي الله، علمني تعوذا أتعوذ به، فأخذ بيدي، ثم قال: «**قل: أعوذ بك من شر سمعي، وشر بصري، وشر لساني، وشر قلبي، وشر منيي**» قال: حتى حفظتها، وفي رواية: «**قل: اللهم عافني من شر سمعي (..) وقلبي، ومن شر منيي**» يعني: ذَكَره(٤٥).

ورواه الطبراني في الكبير عنه، وفيه: «**ثم قال لي: احفظها**»(٤٦).

ففي هذا الحديث يعلم النبي ﷺ أحد أصحابه أن يتعوذ بالله من شر قلبه،

---

(٤١) المحاسبي: أعمال القلوب، ص ١٠٨.

(٤٢) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٦٦٣، ص ٢٢٩ ورواه أحمد في المسند، بإسناد صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٤٧٨، ص ٢٢٣.

(٤٣) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب..، السنن، ج ٥، رقم ٣٥٠٣، ص ٢٩٧.

(٤٤) سنن أبي داود، ج ١، رقم ١٥٥١، ص ٥٧٣.

(٤٥) سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٤٥٥، ٥٤٥٦، ٥٤٨٤، ص ١٨٩، ١٩٤.

(٤٦) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٧، ط ٢، رقم ٧٢٢٥، ص ٣١٠ والحديث أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٢، ٥٣٣) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح: الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ١٢٩٢، ص ٢٧٧.

فللقلب شر، والمسلم مطالب أن يتخلص من هذا الشر، وأن يتضرع إلى الله ليخلصه، ويعافيه منه، وقد طلب النبي من الصحابي أن يحفظ هذا الدعاء، وحفظه الصحابي.

٥- وقد مدح النبي ﷺ، وأثنى على الأزد، لاتصافهم بقيم؛ منها: نقاء القلوب: فقد أخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعم القوم الأزد؛ طيبة أفواههم، برة أيمانهم، نقية قلوبهم**»[٤٧].

فنقاء القلوب قيمة إيمانية يستحق المتصف بها: الثناء من رسول الله ﷺ.

هكذا يهدف الإسلام إلى تربية القلب النقي، الطيب، وهذا النقاء يصل إليه الإنسان بالمجاهدة، بأن يتوب، ويجاهد قلبه حتى يتخلص من الخطايا، ويبغضها، وبالتضرع لله أن يغسل قلبه، وأن ينقيه، وبالاستغفار، بالقلب واللسان (يرجع إلى فصل تربية القلب التائب المصقول).

جـ- لا إثم فيه:

١- الصفة الثالثة للقلب المخموم، النظيف أنه (لا إثم فيه) أي: لا يستقر فيه الإثم، وليس فيه حب الإثم، أو اشتهاؤه، فلأنه تقي، فهو يخاف الله، ويحذر الآخرة، ويحذر من المعصية والشر، ولأنه نقي، فهو مغسول من الخطايا، ومتضرع إلى الله أن ينقيه، من المآثم، والخطيئة، ولأنه مخموم - مكنوس، منظف، من الدنس، وتقي، حذر، كالطير الحذر الذي يرى له في كل موضع شركا يريد أن يأخذه، ولأنه مشمر في طاعة الله، ولأنه نقي، فهو منير بنور الحق، يحب الله، ويحب فيه، ويبغض ما يبغض الله، فإذا عرض عليه الذنب، أو الفتنة، أنكرها، وأبغضها، ورفضها، فلا تستقر فيه الخطيئة، ولا يستجيب أبدا للمة الشيطان ودعوته إلى الشر، والمعصية لوجود نور الحق والفرقان والإيمان في قلبه، فتراه دائما يبصر، ويمشي بالنور، وفي النور: ﴿إِنَّ

---

(٤٧) إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٨٦٠٠، ص ٣٦٥.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢]، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، فالقلب التقي منير، مبصر، يبصر الخطيئة، فيكرهها، ويرفضها، ويحاربها، ويخرجها من قلبه.

هكذا هو القلب المؤمن المخموم، في حركة جهادية مستمرة للحفاظ على هويته: التقوى والنقاء.

٢- والإثم: قال مجاهد: «الإثم: المعاصي كلها»[٤٨] وله ظاهر وباطن؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾[الأنعام: ١٢٠] أي: اتركوا معصيته في السر والعلانية، واتركوا سر الإثم، وعلانيته، وقليله وكثيره، إثم القلوب، وإثم الجوارح.. وهو كقوله- تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣][٤٩].

يقول الطبري: «ودعوا، أيها الناس، علانية الإثم، وذلك ظاهره، وسره، وذلك باطنه (..) عن مجاهد: معصية الله في السر والعلانية (..) إن الله- تعالى ذكره- تقدم إلى خلقه بترك ظاهر الإثم، وباطنه، (..) والإثم: كل ما عصي الله به من محارمه.. وكل معصية لله ظهرت أو بطنت..»[٥٠].

«وباطن الإثم: ما كان لا يظهر، كأثقال القلب»[٥١].

وقد ذكرنا في حديث النواس قول النبي ﷺ: **«الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»**.

فالإثم: هو ما يتردد في قلب المؤمن التقي، ويشعر معه بالحرج، وعدم

---

(٤٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٢١١.
(٤٩) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٨.
(٥٠) ابن جرير الطبري: جامع البيان، مجلد ٥، ج ٨، ص ١٧، ١٨.
(٥١) الشوكاني: فتح القدير، ج ٢، دار الوفاء، ص ٢٢٠.

راحة البال، ويكره أن يراه عليه الناس، وينكره القلب.

٣- فالقلب المخموم: لا إثم فيه، بمعنى: أنه لا يميل إلى المعصية، ويكرهها، وينكرها، ويحاربها بقلبه، ولا يشتهيها، سواء كانت فاحشة باطنة، لا يراها الناس، كالحقد، والغل، والرياء، أو الزنا الباطن، المستور، أو كانت فاحشة ظاهرة، أو يمكن أن يطلع عليها الناس، كالسرقة، والكذب، والزنا، والاختلاس، وأكل الربا، وشتم الناس، فهو قلب ينكر الفتنة - الذنب، الإثم، ويستاء منها، وينفر، ويفر بقلبه وبدينه من الفتن.

لقد تربى في قلب المؤمن اتجاه مضاد، اتجاه نفسي قوي يبغض الإثم، ويحب الطاعة، لأنه عرف بركة الطاعة، وشؤم المعصية والإثم في قلبه، وفي نفسه، وفي دنياه، وآخرته، فأخرج حب الإثم منه، بعملية التنقية، السابقة، وبعملية الإنكار القلبي التي شرحناها في فصل (قلوب تنكر الفتن)[٥٢].

د- ولا بغي:

أي: أن القلب المخموم هو الذي لا بغي فيه، مغسول من البغي، نقي منه.

١- **البغي**: هو طلب تجاوز الحد المقرر: تَجَاوَزَه أو لم يتجاوزه، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو ما فيه شبهة باطل، وهو الاتجاه إلى الفجور، وتجاوز الحد والمنزلة، فالتكبر بغي، وطلب ما ليس لك بغي[٥٣]، وإيذاء حيوان أو طير، أو شجر أو نبات، بغي.

والبغي: كما قال ابن منظور: التعدي، وبَغَى الرجل علينا بَغْيًا: عدل عن الحق واستطال، الفراء: .. قال: البغي: الاستطالة على الناس، وقال الأزهري: معناه: الكبر، والبغي: الظلم والفساد (..) قال: ومعنى البغي: قصد الفساد، ويقال: فلان يبغي على الناس؛ إذا ظلمهم وطلب أذاهم (..) وأصل البغي:

---

(٥٢) انظر أيضا: ابن قيم الجوزية: الداء والدواء، ط ٣، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، ص ١٦٥- ١٧٠ ومن الضروري دراسة هذه الصفحات، بعمق.

(٥٣) الراغب: المفردات، ص ٥٥، ٥٦.

مجاوزة الحد (..) وبغي الوالي: ظلم، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء: بغي، (..) والبغي: أصله: الحسد، ثم سمي الظلم بغيا؛ لأن الحاسد يظلم المحسود جهده (..) وبغى بغيا: كذب(٥٤).

فالبغي: هو التعدي على حقوق الآخرين، والاستطالة عليهم، وطلب تملك ما ليس له، ولا من حقه، وهو التكبر على الآخرين، وظلمهم، وطلب أذيتهم، وهو الاستعلاء بغير حق(٥٥).

٢- **وأصل البغي**: الكبر، والحسد، ويبين الحكيم الترمذي: ذلك، فالبغي: هو أن تبغي بتطاولك على غيرك: أن تحط من قدره ومرتبته، فأصله من الحسد، والغيرة، وكبر النفس، فإذا تكبرت: تطاولت، واحتقرت صاحبك، تريد أن يكون تحت قدمك ترابا حتى تطأه، وتستصغر صاحبك؛ ازدراء، واحتقارا، فهذه مبارزة للحق، والباغي يرجع عليه بغيه: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣] والله يقهر الباغي وينصر المبغي عليه، فالبغي: أن ترفع قدرك، وأن تحط من قدر الآخرين، وتعتدي على ما لهم من حقوق، وأصله: من الكبر والغيرة والحسد، وهو الذهاب بالنفس، والتطاول على عباد الله، والاستحقار لهم(٥٦).

٣- فالقلب المخموم يلزم نفسه الحق، والوقوف عند الحدود، إنه قلب يحترم حق الله، وحقوق الناس، وحقوق الحيوان، وحقوق الشجر، والنبات، والزهور، والبحار، والأنهار، والمياه.. والبيئة الطبيعية، لا يبغي على أي من ذلك، ويحذر منه، لأنه تقي، نقي، يخاف البغي، لأنه يبصر مآل البغي، وقبح نتائجه، فينقي قلبه منه، فيصير سلما للناس، والحيوان، والطير، والشجر

---

(٥٤) ابن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٣٢٣.

(٥٥) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٨٠.

(٥٦) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٠٥، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢.

والأشياء.. في البيئة التي يعيش فيها.

٤- وكما قلنا: فإن البغي: ظلم، وافتئات على حقوق الغير، وهو إفلاس خلقي، له مصير مشؤوم في الدنيا والآخرة:

إن القلب المخموم درس مصير البغي والظلم- بالمفهوم السابق- فنفر منه، وأبغضه، وأخرجه من قلبه، وغير سلوكه، والتزم بالحق، والعدل، إنه درس قول النبي ﷺ فيما أخرجه ابن ماجه عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة؛ من البغي، وقطيعة الرحم**»(٥٧).

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد بلفظ: «**ما من ذنب أحري أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا- مع ما يدخر له في الآخرة- من قطيعة الرحم والبغي**»(٥٨).

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة..**»(٥٩).

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة، وفيه: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا**» ويشير إلى صدره ثلاث مرات، «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم..**»(٦٠) الحديث.

---

(٥٧) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤١٣، ص ٣٧٣، وفي الصحيحة برقم ٩١٧، ٩١٨، ٩٧٨.

(٥٨) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٦٧، ص ٣٦.

والحديث رواه أبو داود، سننه، ج ٤، حديث ٤٩٠٢، ص ٢٩٩، ورواه الترمذي: سننه، ج ٤، رقم ٢٥١٩، ص ٢٢٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥٩) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٧٨، ص ٤٨.

(٦٠) المصدر السابق، رقم ٢٥٦٤، ص ٣١، ورواه ابن ماجه مختصرا بلفظ: «**حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**» صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤١٤، ص ٣٧٣.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أنس: قال النبي ﷺ: «**إن الله- عز وجل- أوحى إليَّ أن تواضعوا، ولا يبغ بعضكم على بعض**»(٦١).

وأخرج مسلم والبخاري في الأدب المفرد عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد..**»(٦٢).

إن مصير الباغي هو الإفلاس يوم القيامة، والقصاص لا محالة، فكل شتم وسب، وضرب، وسوء ظن بغير حق، سوف يقتص من الإنسان بها يوم القيامة، وكل قرش، وكل شبر أرض، وكل قدر من المال، أخذته من غيرك- بغيا- سوف يقتص به منك يوم القيامة، والقصاص من الحسنات، فيؤخذ منها ويعطي لمن بغيت عليهم، فإن فنيت حسناتك، أخذت من سيئات المظلومين، الذين بغيت عليهم، ووضعت على سيئاتك، ثم يطرح الإنسان في النار، عائذا بالله من ذلك.

أخرج مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته- قبل أن يقضي ما عليه- أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»(٦٣).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدون الحقوق إلى**

---

(٦١) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٤٢٦، ص ١٤٧ وصححه في صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤١٥، ص ٣٧٣.

(٦٢) هذا لفظ البخاري، قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٤٢٨، ص ١٤٨.

(٦٣) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٨١، ص ٤٩ – ٥٠ والحديث أخرجه أحمد، والترمذي وقال: حسن صحيح، انظر: سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٤٢٦، ص ١٨٩.

أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[٦٤]، الجلحاء: التي لا قرن لها.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه، فليتحلله منها، فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات أخيه، فطرحت عليه»**[٦٥]. ورواه الترمذي بلفظ: «**رحم الله عبدا كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال، فجاءه فاستحله، قبل أن يؤخذ، وليس ثم (هناك) دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته..»**[٦٦].

فمعرفة هذا المصير، والحذر من مآل الباغي، تنير صاحب القلب المخموم، فيكنس البغي من قلبه، ويحرق شهوة البغي فيه، إنه يتأمل هذه الأحاديث، وما في معناها، ويتأمل قول ابن عباس: «لو أن جبلا بغى على جبل لدك الباغي»[٦٧].

ويتفاعل مع كل هذه المعطيات، فيشعل النار في قلبه، ليحول الباغي إلى رماد، ثم يغسله، ويمسحه، وينظفه، ليصير نقيا من البغي.

٥- وهكذا، فالإسلام يصلح الأخلاق الاجتماعية – من تحت، من أسفل وعاء الأعمال.. من القلب، إنه يوجه المؤمن ليخلع البغي، والكبر، والاستطالة على خلق الله، من جذورها، من القلب.

والسبيل التربوي لذلك: هو أن يدرس مفهوم البغي، ومآله في الدنيا،

---

(٦٤) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٨١، ص ٥١ وأخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح، سننه، ج ٤، رقم ٢٤٢٨، ص ١٩٠، ورواه أحمد وابن حبان.

(٦٥) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٥٣٤، ص ٣٩٥.

(٦٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن، غريب. وقد رواه مالك بن أنس.. نحوه، سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٤٢٧، ص ١٨٩.

(٦٧) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٨٨، ص ٢٠١.

حيث يصم الإنسان بالشر، ومآله في الآخرة.

حيث القصاص من الباغي، ويتأمل ذلك، ويجاهد نفسه ليطهر قلبه، وينقيه من البغي، وهذا يتطلب تربية الإيمان باليوم الآخر، تربية عميقة، وتربية الإحساس بالآخرين.. وتربية التقوى في الضمير المؤمن.

هـ- ولا حَسَدَ:

أي: ليس في القلب المخموم حسد، فهو نقي منه، نظيف من هذا الخلق السيئ، الكريه.

قال الجوهري: «الحسد: أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك» وحَسَدَهُ، يحسده، إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبهما هو، وأصل الحسد: القَشْر، فالحسد يقشر القلب كما تقشر القُرَاد الجلد، فتمتص دمه(٦٨).

وأصل الحسد من شدة الحرص: «والحسد: أن تغتم بالنِّعم، إذا كانت لغيرك، تود لو أنها كانت مصروفة عنه»، والذي يبعث على الحسد: شدة الشَّرَه والحرص(٦٩).

ويعرفه الراغب قريبا من ذلك؛ يقول: «الحسد: تمني زوال نعمة مِنْ مستحق لها، وربما كان ذلك سعي في إزالتها»(٧٠). وقال في الفتح: «الحسد: تمني الشخص زوال النعمة عن مستحقٍّ لها، (وهو) أعم من أن يسعى في ذلك أولا، فإن سعى كان باغيا»(٧١).

٢- ويقول ابن رجب: «والحسد: مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من بني جنسه في شيء من الفضائل، ثم ينقسم الناس بعد

---

(٦٨) المعطيات السابقة في: ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، ص ٨٦٨.

(٦٩) المعطى السابق في: المحاسبي: أعمال القلوب، ص ٥٩.

(٧٠) الراغب: المفردات، ص ١١٨.

(٧١) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٨٢ - ما بين القوسين زيادة مني لتوضيح المعنى.

هذا إلى أقسام: فمنهم من يسعى في زوال نعمة المحسود؛ بالبغي عليه بالقول والفعل، ثم منهم من يسعى في نقل ذلك إلى نفسه، ومنهم من يسعى في إزالته عن المحسود فقط، من غير نقلٍ إلى نفسه، وهو شرهما وأخبثهما، وهذا هو الحسد المذموم المنهي عنه، وهو كان ذنب إبليس حيث حسد آدم(..) وقد وصف الله اليهود بالحسد (..).

وقسم آخر من الناس: إذا حسد غيره، لم يعمل بمقتضى حسده، ولم يبلغ على المحسود بقول ولا فعل، (..) وقسم آخر إذا حسد لم يتمن زوال نعمة المحسود، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله، ويتمنى أن يكون مثله (..) وإن كانت فضائل دينية فهو حسن (..) وهذا هو الغبطة»[٧٢].

٣- فالحسد منه حرام، وهو المفهوم السابق الذي ذكرناه، وقد حرمه النبي ﷺ لقبحه في نفسه، ولخطورة آثاره في النفس، والمجتمع والحضارة، حتى سماه النبي ﷺ داء الأمم، كما سيأتي.

قال البخاري: «باب ما ينهي عن التحاسد والتدابر، وقوله تعالى:﴿ **وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ (..) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا**»(..) عن الزهري قال: حدثني أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا..**»[٧٣].

قال في الفتح: «أشار بذكر هذه الآية أن النهي عن التحاسد ليس مقصودا على وقوعه بين اثنين فصاعدا، بل الحسد مذموم، ومنهي عنه، ولو وقع من

---

(٧٢) ابن رجب: جامع العلوم، ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٧٣) فتح الباري، ج١٠، رقم ٦٠٦٤، ٦٠٦٥، ص٤٨١، وأخرجه مسلم، باب تحريم التحاسد والتباغض.. إكمال، ج ٨، رقم ٢٥٥٩، ص٢٣، ٢٤، ورقم ٢٥٦٣، ص٢٨، ورقم ٢٥٦٤، ص٣١.

جانب واحد»[٧٤].

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**- أو قال: العشب»[٧٥]. وهذا هو الحسد المحرم، وهو- كما يحلل المحاسبي: «كراهة النعم أن تكون بالعباد، ومحبة زوالها (..) أن يكون العبد: إذا رأى بعبد مسلم نعمة في دين أو دنيا، أو بلغه أنها به: كرهها، وساءته، وأحب زوالها عنه»[٧٦]. وهذا غش للمسلم وكراهية أن يرى به خيرا[٧٧].

قال المحاسبي: «ومن الحسد، وليس به بعينه: المحبة ألا يصير إلى من يحسده خير، (..) فالمحبة بألا يصير إليه خير، والتمني له البلاء؛ فعل من العبد يكون عن الحسد، فإن طلب علما لم يحب أن يتم له، وكذلك إن طلب خيرا من خير الدنيا والآخرة، لم يحب أن يتم له من ذلك شيء، وذلك قبل نزول النعم بالعبد.

«وأما الحسد: فكراهة النعم، وحب زوالها، بعد ما يمن (الله) بالنعم على العبد، فيعلم الحاسد بالنعم عليه من الله عز وجل، فيغتم لها حينئذ ويحب زوالها»[٧٨].

هذا هو الحسد المحرم، وليس الحسد الذي هو غبطة، ومنافسة ومسابقة في الخير، وهو: «أن يرى بغيره نعمة في دين أو دنيا، فيغتم ألا يكون أنعم الله عليه بمثل تلك النعمة، فيحب أن يلحق به، ويكون مثله لا يغتم من أجل المنعم عليه؛ نفاسة منه عليه، ولكن غما ألا يكون مثله (..) وهو كراهة التقصير عن

---

(٧٤) فتح الباري، ج١٠، ص ٤٨١.
(٧٥) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٩٠٣، ص ٢٩٩.
(٧٦) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٣٩١.
(٧٧) المصدر السابق، ص ٣٨٩.
(٧٨) المصدر السابق، ص ٣٩٣.

منزلة غيره، ومحبة المساواة واللحوق به، مع تـرك التمني أن يـزول عـن مَـنْ نافسه حاله التي هو عليها»[٧٩].

٤- ويحلل المحاسبي العلل النفسية التي تسبب الحسد المحرم، في الحـوار الآتي:

«قلت: فمم يكون الحسد المحرم؟

قال: يكون من الكبر والعجب، والحقد للعداوة والبغضاء، والرياء، وحب المنزلة والرياسة، أن يعلوه غيره، وشح النفس عما يجده العبد على قلبه، إذا رأى النعم بغيره في كثير من الناس؛ من قرابته، أو أشكاله، أو أمثاله، وغيرهم ممن هو مثله، وفوقه، ودونه لا تسخو نفسه بالخير لهم.

قلت: فبين لي ذلك كله؟

قال: أما ما كان من الكبر فإنه يأنف أن يعلوه من كان دونه أو يساويه، أو يعلوه من هو مثله في دين أو دنيا (..) فإذا أنف منه وازدراه؛ ورثه ذلك الحسد له، فأحب أن تزول عنه نعمة الله، عز وجل، غما أن يراها بمن لا يستأهلها- عنده- وأنفا أن يكون من دونه مثله أو فوقه، فيحب لذلك أن تزول عنه النعمة، التي فضل بها،.. حقرية له، وازدراء له، (..) ويحمله الحسد له أن يرد الحق؛ حسدًا أن يعلوه به فيرفعه عليه..إلخ»[٨٠].

فالحسد شبكة ومركب من الأمراض النفسية، يلوث القلب والنفس، ويمحق الخير فيها، ويدمر الوجدان الإنساني.

٥- وعلى المستوى الاجتماعي والحضاري فإن الحسد والبغضاء هو داء الأمم.

---

(٧٩) المصدر السابق، ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٨٠) المصدر السابق، ص ٣٩٣ - ٣٩٤، ثم فصل كل الأسباب، فادرسها من ص ٣٩٥ - ٤٠٠. وانظر: أبا حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، (ط. الشعب) ص ١٦٨٦ - ١٦٨٩.

أخرج الحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**سيصيب أمتي داء الأمم**» قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «**الأشر والبطر، والتكاثر، والتشاحن في الدنيا، والتباغض، والتحاسد حتى يكون البغي**»(٨١).

فالتحاسد هو أحد مكونات مركب داء الأمم، الذي يفكك شبكة العلاقات الاجتماعية، ويمزق التماسك الاجتماعي، فإذا حدث ذلك بدأ المجتمع ينسحب من التاريخ، فيتفكك، ويتمزق، ويزول، وتنتهي حضارته، لأن المجتمع كشبكة علاقات، وكتماسك، وكفعل مشترك، في التاريخ قد انتهى.

وقد أخرج هذا الحديث برواية أخرى عن أبي هريرة؛ وفيه: «**إنه سيصيب أمتي داء الأمم.. والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج**»(٨٢).

وهذا الداء هو المسبب لسوء ذات البين، أخرج الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إياكم وسوء ذات البين؛ فإنها الحالقة**» قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، غريب من هذا الوجه، ومعنى قوله: وسوء ذات البين: إنما يعني به العداوة والبغضاء، وقوله: الحالقة؛ يقول: إنها تحلق الدين (..)، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**» قالوا: بلى، قال: «**صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**». قال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**هي الحالقة؛ لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين..**»(٨٣).

---

(٨١) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط ٣، رقم ٣٦٥٨، ص ٦٨٢.

(٨٢) قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد، والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد، انظر: الإحياء ج ٣، ص ١٦٧٧ مع هامش رقم (٤).

(٨٣) سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٥١٦، ص ٢٢٨، وحسنه الألباني، صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط ٣، رقم ٢٦٨٣، ص ٥٢٢، وحديث الترمذي الثاني، السنن، ج ٤، رقم ٢٥١٧، ص ٢٢٨، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ٣٩١، قال الألباني: صحيح، ص ١٣٦، وأخرجه أبو داود، سننه، ج ٤، رقم ٤٩١٩، ص ٣٠٤.

ففساد ذات البين هي الحالقة التي تزيل الدين، كما تزيل الحضارات؛ لأنها هي التي تفكك المجتمعات وتمزقها من تحت، وقد روى أحمد والترمذي عن الزبير بن العوام أن النبي ﷺ قال: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم؛ الحسد، والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين..**»[٨٤]. وسنده: ضعيف، لكن المعنى كما رأيت صحيح، يشهد له حديث الحاكم والحديثان السابقان.

٦- فاتصاف القلب بالنقاء من الحسد، ليس إصلاحا خلقيا للفرد -فقط- بل هو حفاظ على التماسك الاجتماعي في الأمة حتى لا تتفكك، ولا تزول، حضاريا، واجتماعيا.

٧- وإذا كان الأمر كذلك، فإن المسلم ذا الضمير الديني اليقظ يسعى، لعلاج قلبه من الحسد، وتنقيته منه حتى يكون مخموما نقيا، نظيفا.. من هذا الداء الخطير، فرديا واجتماعيا.

والسبيل التربوي لذلك: هو مركب من العلم والتصور الصحيح، والاتجاه القلبي الوجداني، والعمل، أي:

٧- ١ : أن يعرف، ويتصور الحسد تصورا صحيحا، فيعرف الحسد المحرم، وأنه مرض من أمراض القلوب عظيم، وأن يتصور خطره، وآثاره في النفس والمجتمع، وفي الدنيا، وفي الآخرة، ويعرف ضرره في دينه، وعقله، ونفسه وضميره، إنه تلويث للنفس، وتفكيك للمجتمع، وحرق للذنوب، ولا يضر المحسود شيئا.. ومشاركة للكافر ولإبليس في حد المؤمنين.. إلخ، فهذه المعرفة، والتفكر فيها ينشئان بغضا في القلب للحسد، فيعتبر الإنسان أنه وقع في ورطة عظيمة بالحسد، فيكرهه، ويعرض عنه، ويبدأ في تنقية قلبه منه،

---

(٨٤) سنن الترمذي، ج٤، رقم ٢٥١٨، ص٢٢٨، ٢٢٩، وانظر: ابن حجر المكي الهيثمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج ١، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م ص ٩٨، وهامش رقم ٥٨.

لتخليصه من خبثه ودنسه.

ويقوي هذا العلم، والبغض بأن يعلم أن الحسد: غش للمسلم، وترك لنصيحته، ومشاركة لأعدائه، وسخط لقضاء الله، وقسمته للعبد، فيردعه ذلك عن الحسد، إن كان مؤمنا بالله- عز وجل- وخائفا على نفسه من غضبه وعقابه(٨٥).

٧- ٢: أن يتفكر في عواقب ومآلات الحسد الفردية والاجتماعية، والأخروية، يقول المحاسبي: «ولا يقيم على الحسد- بعد هذا الوصف- لبيب، إذا تفكر؛ فعقل ما يضره مما ينفعه، إذا كان مؤمنا، بل الكفار لو تدبروا هذا الوصف لردعهم ذلك عن الحسد؛ وإن كانوا لا يؤمنون بالبعث والحساب، إن علموا أن قلوبهم معذبة بالغموم لنعم الله – على خلقه، والنعم على المنعَم عليه جارية غير زائلة، فلم يعطوا ما أرادوا، وعذبوا أنفسهم بالغم، وتنعم أولئك بما يتعذبون به، فما من كافر لا يؤمن بالبعث، يعرف هذا الوصف، إلا ردعه عن الحسد، إن كان له عقل، من أجل دنياه، دون آخرته، فكيف بمن آمن بالبعث، وعلم أن في الحسد الإثم الكبير، وأنه لا يأمن غضب الله.. في ذلك؟ فذلك أولى ألا يعترض الحسد بقلبه؛ لخطره، فضلا عن القبول له، إذا كان بهذه المنزلة؛ فذلك ينفي الحسد، حين يعترض (أي: يعرض على القلب)، ومن كان معترضا له: عرفه، وأعطى العزم ألا يعود فيه، ويحذر فيما يستقبل»(٨٦).

٧- ٣: تربية الإيمان بالله، والبعث بعد الموت، والجزاء، والثواب والعقاب يوم القيامة – مع التصورات السابقة، مما ينشئ البغض والكراهة للحسد،

---

(٨٥) يرجع إلى: المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص٤٠٠ – ٤٠٢. ابن حجر الهيثمي: الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١، ص١١١ – ١١٢، الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٦٩٣– ١٧٠٠.

(٨٦) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٤٠٢.

وحب التخلص منه، والعزم على طرده من القلب.

مع إعمال التفكر في أضراره، يقول المحاسبي: «ولقد عجل لك بعض عقوبة الحسد في الدنيا؛ بما لزم قلبك من الغم وضيق الصدر، وكثرة الهم، بغير اجتلاب دنيا، مع ذهاب الدين بغشك بنفسك للعباد، وبسخطك قَسْم الله عز وجل لهم، وغمك بفرحهم»(٨٧).

هذا التفكر ينشئ الكراهية العقلية للحسد، والإباء النفسي له، فينجو الإنسان من كبيرة الحسد، وإذا كان الحسد فعلا قلبيا فإن كراهيته القلبية هي منشأ الفعل التربوي لتركه، فالبغض والكراهية، أصل كل ترك، فمن أبغض الحسد، نزع إلى تركه، والتخلص منه.

٧- ٤: أن يسعى في مودة الذي يحسده، فيحب له الخير، ولا يستعمل بالحسد جوارحه، يقول الهيثمي: «وأما العمل النافع لذلك المرض فهو: أن تكلف نفسك أن تصنع بالمحسود ضد ما اقتضاه حسدك، فتبدل الذم بالمدح، والتكبر عليه، بالتواضع له،.. وهكذا.. فبهذا يضعف داء الحسد، وكلما زدت من ذلك، زاد تناقص الحسد إلى أن ينعدم»(٨٨).

فتربية القلب النقي من الحسد تتطلب ممارسة مضادة للحسد، حتى يتعود الإنسان على حب الخير للناس، (والخير عادة) كما ذكرنا في الأثر الصحيح.

٧- ٥: عمل تحويل نفسي للحسد من الحسد المحرم، الخطر، إلى الغبطة: وهذا يتطلب فعلا نفسيا إراديا، عقلانيا، فبدل أن يحسد غيره، يقنع نفسه أن يغبطه، كما شرحنا، فيحول الحسد إلى مسابقة في الخير، وتنافس فيه، فيسعى لاكتساب مثل فضائله.

٨- فالقلب المخموم عرف ذلك كله، فأبغض الحسد؛ حبا لله، وتزكية

---

(٨٧) المصدر السابق، ص ٤٠٥.

(٨٨) ابن حجر الهيثمي: الزواجر، ج ١، ص ١١٢.

لقلبه، وحبا لصلاح الأمة، وخوفا أن يصيبها داء الأمم، فتنهار بنيتها الاجتماعية، ويتفكك تماسكها، وينهار ولاء بعضها لبعض فتصير غثاء كغثاء السيل، من هنا يسعى المؤمن لتنقية قلبه من الحسد، بل وقد يحوله إلى أن يحب له ما يحب لنفسه من الخير، بل قد يحب أن يكون أخوه أفضل منه في الدنيا.. وهذا من كمال الإيمان في القلب.

إن المسلم يتأمل قول أبي الخير الأقطع التيتاني: «القلوب ظروف (أوان، أوعية)، فقلب مملوء إيمانا، وعلامته: الشفقة على المسلمين، والاهتمام بما يهمهم، ومعاونتهم على مصالحهم، وقلب مملوء نفاقا؛ وعلامته: الحقد، والغل، والغش، والحسد»(٨٩).

و- ولا غِلَّ:

جاء في رواية ابن ماجه أن القلب المخموم هو التقي النقي، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا حسد، فهو قلب نقي من الغل.

والغِلُّ: الضِّغْنُ والعداوة، والحقد والشحناء(٩٠). قال في لسان العرب: «والغِلُّ(..): الغش والعداوة، والضغن والحقد والحسد، (..) غَلَّ صَدْرُهُ يَغِلُّ.. غِلًّا: إذا كان ذا غِش أو ضغن، وحقد»(٩١).

وقال ابن كثير في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر:١٠] أي: بغضا وحسدا(٩٢).

والغل: الحقد الكامن في الصدور(٩٣).

---

(٨٩) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١٠، ص ٣٧٨.
(٩٠) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٣، ص ٣٨١. والراغب: المفردات، ص ٣٦٣.
(٩١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢٨٥.
(٩٢) ابن كثير: تفسير، ج ٤، ص ٣٣٩.
(٩٣) الشوكاني: فتح القدير، ج ٢، ص ٢٩٠.

وقال الشوكاني في الآية السابقة: أي: غشا وبغضا وحسدا[٩٤].

٢- فالقلب المخموم - لما فيه من الإيمان بالله، والتعبد بأسمائه الحسنى، والتقوى، والنقاء، ونور العلم - نظيف من البغضاء والعداوة، والضغينة على المسلم، كل مسلم ثبت له عقد الإسلام، وحد الإيمان، وقد نهانا النبي ﷺ عن التباغض فقال: «**ولا تباغضوا..**»[٩٥]. فالمؤمنون إخوة، يوالي بعضهم بعضا بالحب، والمؤاخاة، والنصرة، وسلامة الصدر، والرحمة، والرقة لهم، والذلة عليهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد وقوة على من سواهم[٩٦].

وهم كالبنيان يشد بعضه بعضا، والمؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم لألمهم، ويفرح لفرحهم، فكيف يغل قلبه على المسلم؛ وكيف يبغضه؟ وهذه البغضاء هي الحالقة، التي تحلق الدين، وتفكك المجتمع، وتزيل قوة التماسك الاجتماعي، وتفرق بين المؤمنين.. إنها داء يزيل الحضارات.

٣- من هنا كان القلب المؤمن نقيا من الغل، ويعلم أثر الغل في النفس والمجتمع فينزع البغضاء من ذاته، على أخيه المسلم، ويحبه في ذات الله،

---

(٩٤) الشوكاني: فتح القدير، ج ٥، ص ٢٦٨.

(٩٥) ورد هذا النهي بهذه الصيغة سبع مرات في أحاديث عدة، في صحيح مسلم، انظر: إكمال المعلم، ج ٨، أرقام ٢٥٥٩ - ٢٥٦٤، ص ٢٣ - ٣١، وانظر: فتح الباري، ج ١٠، أرقام ٦٠٦٤، ٦٠٦٥، ٦٠٦٦، ٤٨١، ٤٨٤.

(٩٦) أخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**يد المسلمين على من سواهم، تتكافأ دماؤهم وأموالهم، ويجير على المسلمين أدناهم، ويرد على المسلمين أقصاهم**» قال الألباني: حسن صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ٢١٩١، ص ٣٥٨.

وفي رواية له عن ابن عباس: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم..**» صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، رقم ٢١٨٩، ص ٣٥٨.

وأخرج أحمد في المسند بإسناد حسن: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**» وقال محققو المسند: صحيح، وهذا إسناد حسن، المسند، حديث رقم ٦٧٩٧ انظر: شرح السنة بتحقيق الأرنؤوط (١١/ ٩٠).

ويزوره، ويجالسه، ويضاحكه، ويعطف عليه، ويشاركه أفراحه، ويفرح له، وأحزانه، ويحزن لحزنه، ويربط مصيره بمصيره؛ لأن المؤمن ولي لله تعالى، وولي للمؤمنين، يحب الله، ويحب أولياءه المؤمنين، من هنا يتحقق التماسك، والبنيان الاجتماعي الذي يشد بعضه بعضا، من هذا الجذر؛ من خلع الغل من القلب.

٤- ولهذا كان النبي ﷺ يدعو، ويعلمنا أن ندعو الله، بهذا الدعاء: «**واسلل سخيمة قلبي**» أي: انزع الحقد والغل والسوء من قلبي.

٥- وقد ورد في أحاديث صحيحة أعمال تنفي الضغينة والغل من قلب المسلم:

٥- ١: أخرج أحمد عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «**نضر الله عبدا سمع مقالتي..**» (وساق الحديث).

وفيه: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله- عز وجل- ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»(٩٧). ورواه أحمد عن جبير بن مطعم، وفيه: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون من ورائه**»(٩٨). ورواه الطبراني عن زيد بن ثابت عن النبي ﷺ ولفظه: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم أبدا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»(٩٩). ورواه الترمذي بلفظ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم**»(١٠٠). وأخرجه ابن

---

(٩٧) إسناده حسن، المسند، ج ١١، رقم ١٣٢٨٣، ص ١٥٥، ١٥٦.

(٩٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٦٦٨٣، ص ١٣٩، ورواه برقم ١٦٦٩٩، ص ١٤٤.

(٩٩) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٥، رقم ٤٨٩٠، ص ١٤٣.

(١٠٠) الترمذي: السنن، ج ٤، رقم ٢٦٦٧، ص ٢٩٩.

ماجة عن زيد بن ثابت، وفيه: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**»[١٠١].

ومعنى قوله: لا يغل؛ بفتح الياء، وكسر الغين: لا يضطغن[١٠٢]، لا تدخله الضغينة بسبب فعله لهذه الثلاث؛ قال ابن الأثير: «ويروى يغل: بفتح الياء، من الغِلّ، وهو الحقد، والشحناء، أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق،(..) والمعنى: أن هذه الخلال تُسْتَصْلح بها القلوب: فمن تمسك بها طهر قلبُه من الخيانة والدَّغَل والشر»[١٠٣].

عليهن: حال، أي: لا يدخل الغل حالة كون القلب متصفا بهن، وقال ابن منظور: «أي: لا يكون معها في قلبه: غش، ودغل ونفاق»[١٠٤].

فاتصاف المسلم بهذه الصفات الثلاث يخلص القلب من الغِلِّ.

٥- ٢: التهادي والتصافح والتباذل:

- فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال: «**تهادوا تحابوا**»[١٠٥].

وأخرج مالك عن عطاء الخراساني، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا، وتذهب الشحناء**»، قال ابن عبد البر: هذا يتصل من وجوه شتى؛ حسان كلها[١٠٦]. والشحناء: العداوة.

---

(١٠١) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١٨٨، ص ٩٤، وانظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط ٣، رقم ٦٧٦٦، ص ١١٤٥ - ١١٤٦، والحديث رواه الحاكم، ورواه البزار بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري، انظر: الترغيب للمنذري، ج ١، رقم ٦، ص ٣٤.

(١٠٢) الراغب: المفردات، ص ٣٦٣.

(١٠٣) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ٣، ص ٣٨١.

(١٠٤) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢٨٦.

(١٠٥) قال الألباني: حسن، الأدب المفرد، رقم ٥٩٤، ص ٢٠٣، وحسنه في صحيح الجامع، ج١، رقم ٣٠٠٤، ص ٥٧٧.

(١٠٦) الإمام مالك بن أنس: الموطأ، كتاب حسن الخلق، رقم ١٦، ص ٥٦٦.

وأخرج الترمذي بسند ضعيف عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال: «**تهادوا فإن الهدية تذهب وَحَر الصدر..**»(١٠٧). أي: غله، وضغينته، وحقده، وفي رواية أحمد: «**تهادوا؛ فإن الهدية تذهب وَغَر الصدر**».

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن ثابت؛ قال: كان أنس يقول: «يا بني، تباذلوا بينكم، فإنه أود لما بينكم»(١٠٨). وأخرج عن ثابت البناني: «أن أنسا كان إذا أصبح ادهن يده، بدهن طيب، لمصافحة إخوانه»(١٠٩).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن قال: المصافحة تزيد في المودة (١١٠).

فالتصافح، والتهادي، والتباذل، والتزاور.. كلها تؤدي إلى ذهاب الغل من القلب، وتقوي المودة، والمؤاخاة، بين المؤمنين، وتدعم، التماسك الاجتماعي بينهم، قال عياض: «والهدية أصلها المودة، وتطيب النفوس»(١١١).

٥- ٣: ومما أوصى به النبي ﷺ لإزالة وحر الصدر، أي: الحقد والغيظ، والعداوة، والغش، والغضب الشديد- أن يصوم المسلم ثلاثة أيام من كل شهر، فقد قال النبي ﷺ: «**ألا أخبركم بما يذهب وحر الصدر؟ ثلاثة أيام من كل شهر**»(١١٢).

٥- ٤: ومما يدفع المسلم للتخلص من الغل والشحناء، أي: العداوة، والتباغض: أن يتصور، ويدرك بعمق ما يدل عليه الحديث الذي رواه مسلم ومالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين،**

---

(١٠٧) الترمذي: السنن، ج ٤، رقم ٢١٣٧، ص ٤٩، وقال: غريب من هذا الوجه.
وقال محقق المسند حمزة الزين: إسناده حسن، ج ٩، رقم ٩٢٢٢، ص ١٥١ – ١٥٢.

(١٠٨) قال الألباني: صحيح الإسناد، الأدب المفرد، رقم ٥٩٥، ص ٢٠٣.

(١٠٩) صحيح الإسناد، المصدر السابق، رقم ١٠١٢، ص ٣٦٥.

(١١٠) ابن أبي الدنيا: كتاب الإخوان، رقم ١٢٠، ص ١٨٠.

(١١١) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٦٣٤.

(١١٢) النسائي: سننه، ج ٤، رقم ٢٣٨٥، ص ١٥٥، قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ٢٦٠٨، ص ٥٠٩.

ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»(١١٣).

فالشحناء؛ أي: البغضاء وعداوة القلب، أي: الغل، تمنع مغفرة الله للمسلم الموحد، وهذا دافع قوي للتخلص من الغل والبغضاء.

٥- ٥: وكذلك يتجه المسلم إلى التخلص من الغل والحقد، تأسيا برسول الله، الذي كان سليم الصدر لكل مسلم، وكان حريصا على أن يخرج لأصحابه وهو سليم الصدر، أخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»(١١٤).

أي: سليم من الآفات، فالصدر السليم افتقد صاحبه الغل والحقد، والحسد، والخداع، والدهاء، والمكر والفخر، والخيلاء، والكبر، والتعظم، والشح، والبخل.. وأخلاق النفاق(١١٥).

٥- ٦: وتخلص القلب من الحقد والغل والحسد هو طريق مستقيم إلى الجنة، فقد أخرج أحمد وابن المبارك وغيرهما عن أنس بن مالك قال: كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فطلع رجل من الأنصار تنطَفّ لحيته من وضوئه، (وساق الحديث، وفيه أن عبد الله بن عمرو تبعه ليعرف سبب ذلك، فبات وسأله عن عمله) فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد

---

(١١٣) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٦٥، ص ٣٣، مالك بن أنس: الموطأ، رقم ١٧ كتاب حسن الخلق، ص ٥٦٦ – ٥٦٧.

(١١٤) أبو داود: السنن، رقم ٤٨٦٠، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ وأخرجه أحمد، من حديث قال أحمد شاكر: إسناده حسن على الأقل، المسند، ج ٤، رقم ٣٧٥٩، ص ٢٠ – ٢١.

(١١٥) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٣٩.

أحدا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك[١١٦].

وفي رواية ابن المبارك: «ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلا لأحد من المسلمين، ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه»[١١٧].

وفي رواية للحكيم الترمذي: «وأبيت، وليس على أحد في قلبي غل، ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه..»[١١٨].

وفي رواية: «آخذ مضجعي، وليس في قلبي غِمْر على أحد» أي: حقد مكنون[١١٩].

فتخلص القلب من الغل والحقد والضغينة هو طريق إلى الجنة؛ لأن الجنة دار الطيبين، والله رب الطيبين، وهذا قلب طيب، طاب من تحت، فطابت أخلاقه وأعماله.

ز- ولا غَدْرَ:

القلب المخموم لا ينطوي على غدر.

١- والغدر: «ترك الوفاء.. غدر: إذا نقض العهد..»[١٢٠]. فالغدر: خيانة، وإخلاف للوعد، والعهد.. وهو: خداع للآخرين بالعهود، أو بالكلام حتى يتمكن منهم، فيؤذيهم، أو يفتك بهم، ويقال للذئب: غادر.

فالقلب المخموم لا ينطوي على نية الغدر، ولا نية الخيانة، ولا نية الفتك؛ لأن الإيمان قيد الفتك «لا يفتك مؤمن»، كما خرجنا سابقًا في الحديث الصحيح، وكذلك الإيمان قيد الغدر وقيد الخيانة.

---

(١١٦) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١٢٦٣٣، ص ٥٣٦، ٥٣٧.

(١١٧) ابن المبارك: الزهد، رقم ٦٩٤، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(١١٨) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ج ١، ص ٦٨٩.

(١١٩) المنذري: الترغيب والترهيب، ج ٥، رقم ٤١٨٥، ص ١٧٨، ١٧٩، والحديث صححه الحاكم (٣/ ٧٣) ووافقه الذهبي.

(١٢٠) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٢١٦.

٢- ومما يدفع المسلم إلى التخلص من هذا الخلق القبيح: أن يدرس نتائج الغدر، وعاقبته، يوم القيامة، فليقدم المسلم- أولا- الإيمان بالبعث والجزاء، ثم يتأمل ما يأتي:

- عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَة فلان**»(١٢١). وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته**»(١٢٢).

وأخرج الحاكم بإسناد صحيح عن عمرو بن الحمق، أن النبي ﷺ قال: «**إذا اطمأن الرجل إلى الرجل ثم قتله، بعد ما اطمأن إليه؛ نصب له يوم القيامة لواء غَدْرٍ**»(١٢٣).

وأخرج مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان**»(١٢٤).

فالغدر- فضلا على أنه شر في ذاته، وخلق من أخلاق الذئاب- هو فضيحة يوم القيامة(١٢٥).

وتأمُّل هذا المصير يدفع المسلم لتخليص قلبه وتنقيته من نية الغدر، حتى يكون أهلا للفضل والستر، والتخلص من سمات المنافق الذي: «**إذا عاهد غدر**»(١٢٦).

---

(١٢١) صحيح متواتر، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ٢٣٣٩ ص ٤١٤.

(١٢٢) المصدر السابق، صحيح، رقم ٢٣٤٠، ص ٤١٤، وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ٢٦٤٢، ص ٥١٦.

(١٢٣) صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ٣٥٧، ص ١٢٦. وانظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ٢١٩٤، ص ٣٥٩.

(١٢٤) انظر: المصدر السابق، ج ١، رقم ٤٨٣، ص ١٤٥.

(١٢٥) انظر : ابن حجر الهيثمي، الزواجر، ج١، ص١٤٧، ١٤٨.

(١٢٦) جزء من حديث رواه مسلم، باب بيان خصال المنافق، كتاب الإيمان، من إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٠٦، ص ٣١٣.

وتأمل في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قال ابن كثير: «أي: حتى ولو في حق الكافرين، لا يحبها أيضا.

روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء، لا غدرا، إن رسول الله ﷺ قال: «**ومن كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عقدة، ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء**» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع وإذا الشيخ عمرو بن عبسة ﷺ. ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح(١٢٧).

ح- ولا غِشَّ فيه:

١- القلب المخموم نقي من الغش، وهو تغطية الحق، وهو الخديعة، ونقيض النصح، فالغاش: «يعامل الخلق على الخداع، يظهر من نفسه شيئا، ويضمر على شيء آخر، يظهر النفع، ويضمر الضرر(..) ويبدي النصح ويكتم الخيانة»(١٢٨).

٢- ويقول المحاسبي: إنه الفرح بالبلية تنزل بالغير، فالغش يكون مع البلية: «والذي يبعث على الغش: مهانة النفس مع شدة الحرص، وقلة الرحمة، واستبطان القسوة، والذي يدفع به الغش: استبطان الرحمة، ولين العريكة(..) ولا يخرج العبد من الغش حتى يخرج من الذل.. وإذا نفي عنه الغش؛ صار إلى السلامة، وحل به اليقين والرقة»(١٢٩).

---

(١٢٧) أحمد شاكر وأنور الباز: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، ج ٢، دار الوفاء، ص ١١٩.

(١٢٨) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٢٧، وهدي الساري، مقدمة فتح الباري، ص١٦٢.

(١٢٩) المحاسبي: أعمال القلوب، ص ٦٠ - ٦١ .

فالغش هو مؤشر لمهانة النفس وقسوة القلب.

٣- والذي يبعث القلب للتخلص من الغش هو تصور مفهوم الغش، الذي هو مخادعة، ومذلة نفس، وشره، وقسوة، ثم تصور وضعه بالنسبة إلى جماعة المسلمين، فالنبي ﷺ يقول: «**ومن غشنا فليس منا**»(١٣٠).

وأخرج مسلم، من حديث: «**من غش فليس مني**»(١٣١). أي: ليس بمتبع هدي الرسول، ولا أخلاق المسلمين.

وأخرجه ابن ماجه وفيه: «**ليس منا من غش**»(١٣٢).

وأخرجه الترمذي، وفيه: «**من غش فليس منا**»(١٣٣)، وهو حديث متواتر من رواية بضعة عشر صحابيا(١٣٤).

وفي رواية للطبراني: «**من غشنا فليس منا، والمكر والخداع في النار**»(١٣٥).

وروى الطبراني بسند رجاله ثقات من حديث: «**من غش المسلمين فليس منهم**»(١٣٦).

فالقلب المؤمن يتأمل في هذا الحديث، فيحذر أن يخرج عن دائرة أخلاق المسلمين، فينقي قلبه من الغش، ليكون سليما منه، فيتصف بقيم الفضل والخير.

ط- وأختم هذه الفقرة في مقومات هوية القلب المخموم بما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم: لا**

---

(١٣٠) رواه مسلم، من حديث عن أبي هريرة، إكمال المعلم، ج ١، رقم ١٠١، ص ٣٧٥ .

(١٣١) إكمال المعلم، ج ١، ص ٣٧٥، رقم ١٠٢ .

(١٣٢) صحيح سنن ابن ماجه، رقم ١٨٢٣، ج ٢، ص ٢٢٩ .

(١٣٣) قال الترمذي: حسن صحيح، سننه، ج ٣، رقم ١٣١٩، ص ٥٧ .

(١٣٤) انظر: ابن حجر الهيثمي: الزواجر، ج ١، ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(١٣٥) صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٦٤٠٨ ص ١٠٩٤ .

(١٣٦) انظر: ابن حجر الهيثمي: الزواجر، ج ١، ص ٤٥٦ مع هامش المحقق.

يخونه، ولا يكذبه، ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام؛ عرضه، وماله، ودمه، التقوى ها هنا- وأشار إلى القلب- **بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم»**(١٣٧).

هذه هي قيم القلب المخموم: النظافة، التقوى، النقاء، التخلص من الإثم والغل والحسد والغدر والغش، إنه قلب نظيف صاف من ذهب حقيقي، وهذا هو القلب الذي تستهدفه التربية الإسلامية الحقة.

ي- والقلب المخموم بقيمه تلك على رأس سلم القيم، وأما الذي يليه فهو الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة، والقلب المخموم يستوعب هذه القيمة كذلك، فالأعلى يستوعب ما هو تحته من القيم، ولهذا فسأتناول هذه القيمة في الفقرة التالية، وأفصلها، لخطورتها، وسوء الفهم لها، ولأهميتها في البناء التربوي للمسلم بالتصور الصحيح الذي سأحدده للتو، بعون الله.

خامسا: يَشْنَأ الدنيا ويحب الآخرة:

أي: يبغض الدنيا، ويحب الآخرة، وهذه الخاصية تستدعي منا أن نلقي عليها ضوءا يبين وجه الحق فيها، فإن هناك دنيا محمودة مطلوبة، ولابد منها، ودنيا مذمومة. الأولى: يباح حبها، والثانية: واجب بغضها، وعدم التمييز يوقع اللبس، والغلط في التصورات، والمواقف، والنتائج الخلقية والحضارية، وسألتزم النصوص الصحيحة في هذا البيان اللازم.

أ- مفهوم الدنيا:

الدنيا: مفهوم يتركب من ثلاثة مقومات:

١- العالم الذي نعيش فيه الآن؛ بأرضه وما تشتمل عليه من حقول

---

(١٣٧) رواه الترمذي بدون «وأشار إلى القلب»، وقال: حسن غريب، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩٣٤، ص ٣٧٢ - وقال الألباني: صحيح بالزيادة المذكورة، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج٢، ط ٣، رقم ٦٧٠٦، ص ١١٣٦.

وأشجار وزروع، وأودية، وطرق، وأنهار، وبحار، وجبال، وصحاري، وحيوان، وطيور، وبيوت ومراكب، والجو: وما يشتمل عليه من كواكب ونجوم، وهواء ورياح، وسحاب ومطر، وزينة، وطيبات.

٢- الزمن الذي يعبر عنه بالليل والنهار، وما يشتمل عليه من سنين وشهور، وأيام، وساعات، ودقائق، وثوان ولحظات.

٣- وجود الإنسان بما يشتمل عليه تكوينه من جسم له شهوات وحاجات وميول، ونفس: وما فيها من رغبات وشهوات وطموحات، وعقل وقدرات، وعمل، وكسب في هذا العالم، مدة وجوده فيه.

فالقول: إن الدنيا اسم لمدة بقاء هذا العالم، أو أنها اسم لما بين السماء والأرض؛ فما فوق السماء ليس من الدنيا، وما تحت الأرض ليس منها، فعلى التعريف الأول: تكون الدنيا زمانا، وعلى الثاني: تكون مكانا[١٣٨].

أقول: هذه تعريفات جزئية؛ فالزمن وحده ليس دنيا، والمكان وحده ليس دنيا، وكلاهما لا يسمى دنيا بدون وجود الإنسان وفعله فيهما، بل إن الدنيا هي مجموع الزمان والمكان والوجود الإنساني وفعله فيهما، حسب المعادلة الآتية:

الحياة الدنيا = الإنسان + الكون المادي + الزمن.

ب- ولأي مقوم يتجه المدح، أو يتجه الذم؟

يقول ابن رجب[١٣٩]: «واعلم أن الذم الوارد في الكتاب والسنة ليس هو راجعا إلى زمانها الذي هو الليل والنهار، المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله جعلهما خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا(..) وقد أنشد بعض السلف:

(١٣٨) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤٦٣ .

(١٣٩) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٣٥١ .

إنمـا الدنيا إلى الـجنة والنـار طريـق
والليالي مَتْجَرُ الإنسان والأيام سوق

وليس الذم راجعا إلى مكان الدنيا الذي هو الأرض التي جعلها الله مهادا ومسكنا، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار، والمعادن، ولا إلى ما أنبته فيها من الشجر والزرع، ولا إلى ما بث فيها من الحيوان، وغير ذلك، فإن ذلك كله: من نعمة الله على عباده؛ بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانية صانعه، وقدرته وعظمته.

«وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا؛ لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته، بل يقع على ما تضر عاقبته، أو لا تنفع».

فالذم راجع إلى تصور الإنسان للدنيا، ووزنها، وإلى فعله فيها، وموقفه منها.

جـ- وهذه الدنيا: مكانا، وزمانا، ووجودا كونيا وإنسانيا، وزينة وطيبات، ليست دائمة لا متناهية، بل لها مبدأ، ونهاية، وليست كبيرة في ذاتها، وليست هي الوجود الوحيد، وإنما هناك: وجود خالقها، فالله هو الأول قبل كل شيء، وليس قبله شيء، والآخر، ليس بعده شيء، والظاهر ليس فوقه شيء، والباطن ليس دونه شيء، والكبير المتعال، الذي وسع كرسيه السموات والأرض، والكرسي موضع قدميه- سبحانه- والكرسي في العرش، كحلقة في فلاة، والرحمن على العرش استوى، ففي البدء: كان الله، أخرج البخاري عن عمران بن حصين من حديث ذكر فيه أن ناسا من أهل اليمن دخلوا على النبي ﷺ، وقبلوا البشرى التي بشرهم بها النبي ﷺ، ثم قال عمران: قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر؛ قال: «**كان الله، ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**»(١٤٠).

---

(١٤٠) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣١٩١، ص ٢٨٦ (كتاب بدء الخلق).

وأخرجه في التوحيد عن عمران بن حصين، وفيه: جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر: ما كان؟ قال: «**كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء..**»[١٤١].

فهناك وجود الله، قبل أن يخلق هذه الدنيا، وهو الحي الباقي أبدا.

وهناك- بعد هذه الدنيا، وزوال هذا العالم: الآخرة، الدائمة، التي هي بقاء دائم، ممتد، كما شاء الله، فالجنة- فيه- عرضها كعرض السموات والأرض، خالدين فيها أبدا، عطاء غير مجذوذ، غير منقطع، بل دائم.

وهناك فوق هذه الدنيا، فوق السماوات: الله العلي العظيم.

فالدنيا- بالنسبة إلى الله، وفي ميزان الله- هينة جدا، ومحدودة جدا، وما تكون الدنيا بالنسبة إلى الله ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وما تكون الدنيا بالنسبة إلى ما خلق الله من ملائكة لا يعلم عددها وحجمها إلا الله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

وقد صور النبي ﷺ الدنيا بالنسبة إلى الله، في أحاديثه؛ فقد أخرج مسلم عن جابر أن النبي ﷺ مر بالسوق، والناس كنفيه (على جانبيه) فمر بجدي أَسَكّ (صغير الأذنين) ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، فقال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**والله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[١٤٢].

---

(١٤١) فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٤١٨، ص ٤٠٣.

(١٤٢) إكمال المعلم، ج٨، رقم ٢٩٥٧، ص ٥١١، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وقال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٩٦٢، ص ٣٤٥-٣٤٦، ورواه أبو داود، وصححه الألباني (صحيح أبي داود ١٨١).

وأخرج الترمذي عن المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: **«أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها؟»** قالوا: من هوانها ألقوها، يا رسول الله، قال: **«الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»**(١٤٣).

وأخرج ابن ماجة عن سهل بن سعد قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فإذا هو بشاة ميتة، شائلة برجلها؛ فقال: **«أترون هذه هينة على صاحبها، فوالذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سَقَى كافرا منها قطرة أبدا»**(١٤٤).

وأخرج الترمذي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء»**(١٤٥).

فالدنيا- بالنسبة إلى ما عند الله، وفي ميزانه- أهون من شاة ميتة على أهلها، ولا تعدل، ولا تزن جناح بعوضة، فهي إذن هينة جدا، وهذا هو واقع الحال.

أما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة؛ فهي كقطرة ماء بالنسبة إلى اليم، فقد أخرج مسلم عن المستورد بن شداد الفهري: يقول: قال رسول الله ﷺ: **«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه-** وأشار يحيى بالسبابة- **في اليَمِّ، فلينظر بم يرجع؟»**(١٤٦). ورواه أحمد عنه بروايات منها: **«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع**

---

(١٤٣) قال أبو عيسى: حديث حسن، سننه، ج ٤، رقم ٢٣٢٨، ص ١٤٤، وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٣٥، ص ٣٤٨ ورواه أحمد في المسند، ج ١٤، رقم ١٧٩٣٦، ص ٣٦، بإسناد حسن، ورواه برقم ١٧٩٤٣، و ١٧٩٤٤، نفس المصدر، ص ٣٨.

(١٤٤) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٣٤، ص ٣٤٧.

(١٤٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه، السنن، ج ٤، رقم ٢٣٢٧، ص ١٤٤.

(١٤٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٨٥٨، ص ٣٨٩ ورواه أحمد بإسناد صحيح، ج ١٤، رقم ١٧٩٣١، ص ٣٤ – ٣٥ ورقم: ١٧٩٣، ص ٣٥، ورقم ١٧٩٣٥، ص ٣٦.

إليه؟»[١٤٧]. ورواه الترمذي عنه بلفظ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بماذا يرجع؟**»[١٤٨]. ورواه ابن ماجه عنه بلفظ: «**ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع؟**»[١٤٩].

ورواه في الزهد: قال رسول الله ﷺ- وأشار بإصبعه: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه السباحة أو السبابة في اليم، فلينظر بما يرجع؟**»[١٥٠]. ورواه ابن أبي الدنيا عنه بلفظ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر ما يرجع إليه**»[١٥١]. ورواه الطبراني في الكبير ثماني مرات، من طرق، عن المستورد، منها: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في البحر، فلينظر بم يرجع؟**»[١٥٢].

فالقدر الذي يتعلق بالإصبع إذا غمس في ماء البحر هو كقدر الدنيا بالنسبة إلى الآخرة. والحاصل أن الدنيا كالماء الذي يتعلق بالإصبع من البحر، والآخرة كسائر البحر[١٥٣]. فهو قدر ضئيل جدا، وهذا هو الواقع، والرسول بهذا التمثيل يشرك المسلم في تجربة عملية تبني له تصورا صحيحا عن وزن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة.

والقرآن الكريم يبين هذا الوزن، يقول الله تعالى: ﴿**وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ**﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ**

---

(١٤٧) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٧٩٣٧، ص ٣٦.

(١٤٨) قال أبو عيسي: هذا حديث حسن صحيح، السنن، ج ٤، رقم ٢٣٣٠، ص ١٤٥.

(١٤٩) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٣٢، ص ٣٤٧.

(١٥٠) ابن المبارك: الزهد..، رقم ٩٩٢، ص ٣٥٢.

(١٥١) إسناده صحيح؛ ابن أبي الدنيا: ذم الدنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، رقم ١٢، ص ١٦.

(١٥٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٠، رقم ٧١٣، ص ٣٠١ بإسناد صحيح.

(١٥٣) ابن حجر: فتح الباري، ج ١١، ص ٢٣٢.

ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

يقول سيد قطب: «فالدنيا في التصور الإسلامي هي مزرعة الآخرة، والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة، ورفع الشر والفساد عنها، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا.. كل أولئك هو زاد الآخرة، وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل، وما أصابهم من الأذى.

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن، أو تفسد وتختل؛ أو يشيع فيها الظلم والطغيان، أو تتخلف عن الصلاح والعمران،.. وهم يرجون الآخرة، وينتظرون فيها الجزاء من الله؟

إن الناس، إذا كانوا في فترات من الزمن يعيشون سلبيين، ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة، تعمر حياتهم الدنيا- مع ادعائهم الإسلام- فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف، ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف، لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة، فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة، وهو يعي حقيقة هذا الدين، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيا، أو متخلفا، أو راضيا بالشر والفساد والطغيان.

إنما يزاول المسلم هذه الحياة، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى، ويستمتع بطيباتها، أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة، ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقتها وقواها، وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة فيها، ويكافح الشر والفساد والظلم، محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة، وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة.

إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا، وأن الدنيا صغيرة زهيدة، ولكنها من نعم الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى(..).

وفي ظلال هذا المشهد.. يجيء الإيقاع الأخير في هذا المقطع؛ بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة في ميزان الله، وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة في هذا الميزان الصحيح: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة..وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار على هذا الكوكب الصغير؛ إلا على هذا النحو، حين توازن بذلك الأبد الأبيد في ذلك الملك العريض، وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه (الحياة) إلا لعبا ولهوا، حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم.

هذا تقييم مطلق، ولكنه في التصور الإسلامي لا ينشأ- كما قلنا- إهمالا للحياة الدنيا، ولا سلبية فيها، ولا انعزالا عنها، وليس ما وقع عن هذا الإهمال والسلبية والأحزان- وبخاصة في بعض حركات «التصوف» و«الزهد»- بنابع من التصور الإسلامي أصلا، إنما هو عدوى من التصورات الكنسية الرهبانية، ومن التصورات الفارسية، ومن بعض التصورات الإشراقية الإغراقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي.

والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة، لم تكن سلبية ولا انعزالية، فهذا جيل الصحابة كله(..) كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة، وطاقة فائضة، في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة.

إنما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة أنهم لم يصبحوا عبيدا للدنيا، لقد ركبوها ولم تركبهم، وعبدوها؛ فذللوها لله ولسلطانه، ولم تستعبدهم، ولقد قاموا بالخلافة فيها- بكل ما تقتضيه الخلافة- من تعمير وإصلاح، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله، ويرجون الدار الآخرة، فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة»(١٥٤).

وهذا كلام نافذ في الحق، وسنزيده بيانا بعون الله.

وقال البخاري في الصحيح: «باب مثل الدنيا في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

(..) عن سهل قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»(١٥٥).

وأخرج الترمذي هذا الحديث بروايات، منها: عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**غدوة في سبيل الله، خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(١٥٦). وأخرج عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»(١٥٧).

وأخرج عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**لغدوة في سبيل الله، أو روحة، خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده في الجنة خير من**

---

(١٥٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٢، ج ٧، ط ٣١، دار الشروق، ص ١٠٧١، ١٠٧٢.
(١٥٥) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤١٥، ص ٢٣٢.
(١٥٦) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سننه، ج ٣، رقم ١٦٥٤، ص ٢٤٤.
(١٥٧) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، سننه، ج ٣، رقم ١٦٥٥، ص ٢٤٤.

الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما: ريحا، ولنصيفها (خمارها) على رأسها خير من الدنيا وما فيها»(١٥٨).

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موضع سوطٍ في الجنة لخير من الدنيا وما فيها**»، اقرؤوا إن شئتم: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥](١٥٩).

إن القرآن والحديث الصحيح، يقرران حقيقة أن الدنيا محدودة، وقليلة جدا بالنسبة إلى الآخرة، فهي أقل من قطرة ماء بالنسبة إلى البحر، وهي أقل من موضع كف في الجنة.. إلخ.

د- وهذه الدنيا- بهذا الوزن، بالنسبة إلى ما عند الله، وبالنسبة إلى الآخرة- متناهية، ومحدودة بطبيعتها الزمانية، والمكانية، وطبيعة عناصرها، فهي ليست ثابتة، ولا دائمة، بل لها أجل مسمى، محدد، ستفنى حين ينتهي، كما أن للإنسان أجلا سيموت عند نهايته، والله خلق الدنيا وخلق ما على الأرض ليبلونا، ويختبرنا، فقال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**﴾ [الكهف: ٧-٨]. أي: أرضا لا شيء عليها.

وقد ضرب الله الأمثال للحياة الدنيا ليبين لنا أنها متناهية، غير دائمة فقال: ﴿**وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

---

(١٥٨) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سننه، ج ٣، رقم ١٦٥٧، ص ٢٤٥، وانظر: حديث رقم ١٦٧٠ وهو صحيح، سننه، ج ٣، ص ٢٥٠ – ٢٥١.

(١٥٩) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سننه، ج ٥، رقم ٣٠٢٤، ص ١٤، وصححه الحاكم على شرط مسلم وأقره الذهبي.

فالدنيا مثل النبات الذي شرب الماء فترعرع، ونضج، ثـم أصبح هـشيما، مفتتا، تبعثره الرياح.. إذًا الدنيا ليست دائمة وليست هي قيمة في ذاتها، بل مـا على الأرض هو زينة.

وليس في هذا التمثيل حكم على الدنيا بالتفاهة، والحقـارة، بـل هـو بيـان لحقيقة وضعها، ووزنها وطبيعتها.

وفي الآيـة التـي استـشهد بهـا البخـاري: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، قال ابن عطية: «المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية: ما يختص بـدار الدنيا من تصرف، وأما ما كان فيها من الطاعة، وما لابد منه، (..) ويعين على الطاعة فليس مرادا هنا»(١٦٠).

وقال ابن كثير: «إنما حاصل أمرها عند أهلها..»(١٦١)، ثم بـين الله طبيعـة الزوال الدنيوي، والموقوتيـة الدنيويـة المحـددة، فـضرب المثـل بأنهـا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد يأس النـاس في حالـة جـدب، ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبـت بالغيـث، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يكبر، ويعلـو، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ فـتراه مـصفرا بعـد مـا كـان أخضر نضيرا ثم يصير بعد ذلك كله حطاما يابسا متحطما(١٦٢).

«ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها، وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير، فقـال: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: هـــي متاع، فان، غار لمن ركن إليها، فإنه يغـتر بهـا، فتعجبـه حتـى يعتقـد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي.. قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة»(١٦٣).

---

(١٦٠) ابن حجر: فتح الباري، ج ١١، ص ٢٣٢.
(١٦١) ابن كثير: تفسير، ج ٤، ص ٣١٢.
(١٦٢) ملخصا من: ابن كثير: تفسير، ج ٤، ص ٣١٢ – ٣١٣.
(١٦٣) المصدر السابق، ص ٣١٣.



والدار الآخرة هي الحياة الدائمة التي لا زوال ولا فناء فيها: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، هذه هي العقيدة التي يقررها القرآن والحديث في وعي المسلم، دون تهوين أو مغالاة، ليقرر حقيقة أخرى كبيرة هي:

هـ - أن هذه الدنيا بمقوماتها، ومحدوديتها، وتناهيها، وصغرها بالنسبة إلى الآخرة، هي الدار التي استخلفنا الله فيها، أي: جعلنا خلفاء فيها، فالله خلق آدم ليكون خليفة في الأرض: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فنحن خلفاء بجعل الله، فلا إرادة لنا أن نكون أولا نكون، بل نحن مستخلفون بطبيعة خلقنا في هذا العالم، ومطلوب من ذرية آدم أن يعمروا في الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

أي: طلب أن تعمروا في الأرض؛ بالزراعة، والبناء، والصناعة، وغير ذلك، والله خلق العالم، وخلقنا فيه ليبلونا وليخرج أحسن ما عندنا من عمل، وفعل، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

فالعالم مخلوق ليكون محلا للاستخلاف، وموضوعا لشغلنا وفاعليتنا، ونحن مخلوقون لنعمل أحسن العمل، ثم نحاسب على أعمالنا، وقد قرر الحديث الصحيح هذا المفهوم: فقد أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة، بني إسرائيل كانت في النساء**»[١٦٤]. وأخرجه الترمذي عنه، من حديث، في أوله: «**إن الدنيا خضرة**

---

(١٦٤) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٤٢، ص ٢٣٥.

حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون..»[١٦٥]. وأخرجه أحمد عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله- عز وجل- مستخلفكم فيها لينظر كيف تعلمون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء..»**[١٦٦].

فالدنيا: حلوة؛ تطيب بها النفس، وتلذ بها، وهي خضرة: مبهجة، جذابة، وقد يكون ذلك باعثا على الركون إليها، ونسيان الوظيفة التي خلقنا لأجلها في الدنيا، وهي أن الله: مستخلفكم فيها، جعلنا فيها خلفاء لنعمر، ونعمل، لينظر كيف تعملون، فاجعلوا هذه الوظيفة في بالكم، واحذروا من روعة الدنيا وجمالها.. وحلاوتها، حتى لا تلهيكم عن وظيفتكم.. ولا عن العمل الذي هو أحسن، تعميرا في الأرض، وقياما بمنهج الله، واستعداد للحساب عن مدة الاستخلاف في الأرض، واتقوا النساء؛ اتقوا الزنا، وما يقرب إليه، واتقوا التبرج، وتحويل النساء إلى عارضات أزياء، وذاهبات لمراقص.

و- الله جعلنا خلفاء في الدنيا، وفي الأرض، لنعمر، ولنحسن العمل، ولنعيده بالتعمير على منهج الله، وشرطه، وأعطانا مقومات الاستخلاف: أعطانا الجسم والعقل، وأعطانا الشهوات الضرورية للتعمير، والقدرات التي يتطلبها الاستخلاف، الذي يستلزم علما، ومالا، وصناعات، وزراعة، وإدارة، وتقنيات، وقوة في الجسوم والعقول، فتحصيل عمل ذلك ضروري للقيام بمهمات الاستخلاف، والتعمير وإحسان العمل، وقد أنزل الله الإسلام ليوجه، ويرشد، ويضبط كل أبعاد مرحلة الاستخلاف في الأرض، استعدادا للحساب عن هذه المرحلة، بعد الموت، وبعد البعث.

ز- وقد سخر لنا الله كل مقومات الدنيا: زمانا، ومكانا: فالدنيا بكل

---

(١٦٥) قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح، سننه، ج ٤، رقم ٢١٩٨، ص ٨١، وصححه الألباني في: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٢٤٨، ص٣١١ (أعني: الجزء الذي ذكرناه هنا).

(١٦٦) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١١١٢، ص ٧٣.

مقوماتها مسخرة لنا، فلا يصح أن تصبح هي سيدا لنا، قال- تعالى:

- ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾[الأعراف: ١٠].
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].
- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية: ١٣].
- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[إبراهيم:٣٣].
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾[الملك: ١٥].

فالدنيا وما فيها كلها، مسخر لنا، نعم من الله، مكننا الله فيها، وسخرها لنا، وسلَّطنا عليها، ليبلونا أينا يحسن العمل، فهي: نعم حلال، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إذن المذموم هو أمر غير هذا، قد بيناه سابقا، ونزيده بيانا فنقول:

ح- إن الله طلب منا أن نعبده (ارجع لفصل تربية الإيمان في القلب) وحده، ونحن نعمر في الأرض، وأن نعمل لعيش الآخرة، كما نعمل للعيش في الدنيا، كلا بحسبه، وطبقا لقيمه، ولكن الدنيا حلوة خضرة، مبهجة، فحذرنا أن تفتننا زهرة الدنيا عن عبادة الله وعن الدار الآخرة، والجزاء والثواب والعقاب فيها، وأن نتنافس، ونتحاسد في الدنيا للدنيا، فنلهو عن وظيفتنا في العالم، وهذا هو الذي خاف منه النبي ﷺ فلنتأمل بعمق عقلي، وقلبي فيما يلي:

١- أخرج البخاري في الرقاق، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أكثر ما أخاف عليكم: ما يخرج الله لكم من بركات الأرض**»، قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «**زهرة الدنيا**» فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح جبينه، فقال:

«أين السائل؟» قال: أنا (قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع؛ لذلك) قال: «**لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطًا أو يُلِمَّ، إلا آكلة الخضرة؛ أكلت، حتى إذا امتدت خاصرتاها؛ استقبلت عين الشمس، فاجترت وثلطت، وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوة، من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه؛ كان كالذي يأكل ولا يشبع**»(١٦٧). وفي رواية للبخاري: «**وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه، فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين، ومن لم يأخذها بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة**»(١٦٨).

وأخرجه مسلم عنه يقول: قام رسول الله ﷺ فخطب الناس، فقال: «**لا والله، ما أخشى عليكم، أيها الناس، إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا**» فقال رجل: يا رسول الله، أيأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ ساعة، ثم قال: «**كيف قلت؟**» قال: قلت: يا رسول الله، أيأتي الخير بالشر؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**إن الخير لا يأتي إلا بخير، أو خير هو؟ إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم، إلا آكلة الخضر، أكلت، حتى امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس، ثلطت أو بالت، ثم اجترت، فعادت فأكلت؛ فمن يأخذ مالا بحقه يبارك له فيه، ومن يأخذ مالا بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع**». وأخرجه مسلم عنه وفيه: «**لا يأتي الخير إلا بالخير، لا يأتي الخير إلا بالخير، لا يأتي الخير إلا بالخير، إن كل ما أنبت الربيع يقتل أو يلم، إلا آكلة الخضر، فإنها تأكل حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس، ثم اجترت، وبالت وثلطت، ثم عادت فأكلت، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقه، ووضعه في**

---

(١٦٧) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٢٧، ص ٢٤٤.

(١٦٨) فتح الباري، ج ٦، رقم ٢٨٤٢، ص ٤٩.

حقه، فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع».

ورواه عنه بلفظ: «جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» فقال رجل: أو يأتي الخير بالشر، يا رسول الله؟ قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ فقيل له: ما شأنك؟ تكلم رسول الله ﷺ ولا يكلمك؟ قال: ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح عنه الرحضاء، وقال: «أين هذا السائل؟» وكأنه حمده – فقال: «إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع: يقتل أو يلم، إلا آكلة الخضر، فإنها أكلت، حتى إذا امتلأت خاصرتاها، استقبلت عين الشمس، فثلطت وبالت ثم رفعت، وإن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل- أو كما قال رسول الله ﷺ- وإنه من يأخذه بغير حقه؛ كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة»(١٦٩).

ورواه أحمد في المسند، بروايات منها: فقال رسول الله ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير، إن الخير لا يأتي إلا بالخير، ولكن الدنيا خضرة حلوة، وكأن ما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم، إلا آكلة الخضر؛ فإنها أكلت حتى امتدت خاصرتاها، واستقبلت الشمس، فثلَطَت وبالت، ثم عادت فأكلت، فمن أخذها بحقها بورك له فيه، ومن أخذها بغير حقها؛ لم يبارك له، وكان كالذي يأكل ولا يشبع»(١٧٠). ورواه أيضا وفيه: «وإن المال حلوة خضرة، ونعم صاحب المرء المسلم هو؛ لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل – أو كما قال ﷺ- وإن الذي آخذه بغير حقه كمثل الذي يأكل ولا يشبع فيكون عليه شهيدا يوم القيامة»(١٧١).

---

(١٦٩) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ١٠٥٢ (ثلاث روايات) ص ٥٨٧ – ٥٩٠.

(١٧٠) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١٠٩٧٦، ص ٢٣ – ٢٤.

(١٧١) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١١٠٠، ص ٦٩.

ورواه عنه بلفظ: «.. **وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه اليتيم والمسكين وابن السبيل.. الخ**»[(١٧٢)]. وأخرجه النسائي وفيه: «**وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم هو إن أعطى منه اليتيم، والمسكين، وابن السبيل، وإن الذي يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة**»[(١٧٣)].

فهذا الحديث عظيم الشأن جدا في توضيح هذه المسألة، فهو يحسم لنا الموقف من الدنيا:

١-١: فالنبي ﷺ كان يخبر أصحابه- في تعليم حواري فاعل- أن أكثر ما يخاف عليهم هو الغنى، وما في الدنيا من أنواع المتاع والثياب والزروع، وما يخرج الله لهم من بركات الأرض وزهرة الدنيا، وسأبين لماذا كان يخاف عليهم ذلك – في فقرة آتية «وسمى متاع الدنيا زهرة؛ تشبيها بزهر النبات؛ لحسنه عند الناس، وإعجاب النفوس به»[(١٧٤)]. فهي بركات يخرجها الله، وهي حسنة ومبهجة، ومن هنا خطرها، فسأله صحابي سؤال استرشاد قائلا: أو يأتي الخير بالشر؟ فبركات الأرض، والغنى، والمال – خير، فهل يأتي هذا الخير بالشر؟

١-٢: فصمت النبي ﷺ، وظن الصحابة أن الوحي ينزل عليه في هذه اللحظات، فقال بعض الصحابة للسائل: ما شأنك؟ تكلم رسول الله، ولا يكلمك؟ أي: إنهم ظنوا أن النبي ﷺ سكت غضبا على السائل، ثم بعد قليل، أفاق النبي ﷺ، وجعل يمسح الرحضاء- أي: العرق الكثير الذي يغسل الجلد؛ من الشدة..[(١٧٥)] عن جبينه، ثم قال: «**أين السائل؟**» وذلك ليسمعه جواب سؤاله، وكأنه حمد له ذلك، وفي بعض الروايات أنه استعاد من السؤال.

---

(١٧٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٨٠٤، ص ٢٨٧ – ٢٨٨.

(١٧٣) سنن النسائي، ج ٥، رقم ٢٥٨١، ص ٦٥ – ٦٦.

(١٧٤) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٩١.

(١٧٥) حاشية السيوطي وحاشية السندي على سنن النسائي، ج ٥، ص ٦٥.

١-٣: ثم قال النبي ﷺ: «**لا يأتي الخير إلا بالخير**»، وفي رواية مسلم وغيره أنه كرر ذلك ثلاث مرات، وفي رواية مرتين، وفي رواية قال: «**لا يأتي الخير بالشر**»، أي: أن بركات الأرض، وزهرة الدنيا: خير، ولا يأتي الخير- بذاته- إلا بالخير، وإنما الشر: عارض، لسبب من تصور الإنسان، وفعله - ذاته، قال ابن حجر: «ويؤخذ منه: أن الرزق- ولو كثر- فهو من جملة الخير، وإنما يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه، والإسراف في إنفاقه فيما لم يشرع، وأن كل شيء قضى الله أن يكون خيرا فلا يكون شرا، وبالعكس، ولكن يخشى على من رزق الخير أن يعرض له في تصرفه فيه ما يجلب الشر»[١٧٦]، فالدنيا والمال: خير، ولكن موقف الإنسان، وتصرفه فيه قد يحوله إلى شر، كما سيأتي في المثالين الموضحين.

١-٤: ثم قال النبي ﷺ: «**إن هذا المال خضرة حلوة**» ويعني بالمال: الدنيا، بدليل تأنيث الخبر، ورواية أحمد في المسند «**ولكن الدنيا خضرة حلوة**» وفي حديث للترمذي، وابن ماجه: «**إن الدنيا خضرة حلوة..**» ذكرناه سابقا، أي: غضة ناعمة طرية، جذابة.

ثم بين النبي ﷺ موقف الناس من الدنيا، والمال، وبركات الأرض من خلال تشبيه دقيق رائع، فشبه الدنيا بالنبات الذي ينبته الربيع، أي: ماء المطر، أو ماء الجداول، الذي يروي النبات والزروع، وشبه إقبال الناس على الدنيا والمال بإقبال الماشية على الأكل، من هذا النبات.

وضرب مثلين:

الأول: للمفرط في الجمع بنهم، المانع من الحق، غير المنتفع بما يجمع، وإليه الإشارة بقوله: «**وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم**» وذلك أن الربيع ينبت أحرار البقول، فتستكثر منه الماشية، وتأكل منه بنهم، دون حساب،

---

(١٧٦) فتح الباري، ج ١١، ص ٢٤٦.

فتمعن في الأكل حتى التخمة، ولا تقدر على تصريفه، فتنتفخ بطنها انتفاخا شديدا، فتموت قتيلة بالحبط: وهو انتفاخ البطن لمجاوزة حد الاحتمال، فتنشق الأمعاء، فتهلك، (أو يلم) أي: يقارب الهلاك، أي: يكاد يقتلها ما تأكل، فهذا مثل المفرط في جمع الدنيا، من غير حلها، ويمنعها من مستحقها، يتعرض للهلاك في الآخرة، بعذاب النار، وفي الدنيا بأذى الناس له، والغم والهم، وحسد الناس له، فحالة الحبط أو ما يقاربه، هي حالة البطر، الذي يجمع ولا يصرف، وأشار بهذا إلى أن الاعتدال والتوسط في الجمع، والانتفاع به في وجوه الخير، أحسن، فهذا مثال المقبل- بلا حساب- على الدنيا(١٧٧).

مثل الماشية: التي أكلت بنهم ولم ترفع رأسها «حتى أثقلها ذلك، ولم ينهضم لها؛ لكثرة ما رعته منه، ووباله، فماتت تخمة وحبطا، كذلك الحريص على الجمع، المكثر الذي لا يملأ عينه شيء، ولا يصرف ما جمعه منه في وجوهه، وتكثيره حتى يأتيه أجله، وقد بقيت عليه تباعاته، فكان سبب هلاكه في آخرته»(١٧٨).

أما المثل الثاني: فهو للمعتدل في جمع المال واكتسابه، المنتفع بما يجمع، المصرف له في وجوه الخير، المستعمل له على وجه صحيح، وإليه الإشارة بقوله: «**إلا آكلة الخضر..**» وهو استثناء منقطع، أي: لكن آكلة الخضر، تنتفع بأكلها، فإنها تأخذ الكلأ والعشب على الوجه الذي ينبغي، وتستعمله بما لا يضر، والآكلة: هي المواشي، والخضر: نبات الصيف، الكلأ الذي يغوص سيقانه في الأرض، فترعاه الماشية باعتدال، فتأكله بما لا يضرها، «**أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها**»، أي: امتلأ جانبا بطنها، توقفت عن الأكل، واستقبلت عين الشمس، لتساعدها حرارتها على هضم الطعام، وعلى تصريفه، وهي

---

(١٧٧) انظر: إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٨٧ – ٥٨٨، حاشية السيوطي، والسندي على النسائي، ج ٥، ص ٦٥ – ٦٦.

(١٧٨) إكمال المعلم، ج ٣، ص ٥٩٠.

تستمرئ ذلك، وتستحليه، فثلطت؛ أي: ألقت رجيعها سهلا رقيقا، وبالت، ثم عادت فأكلت، ورتعت؛ باعتدال، وتعقل، وهكذا.. فإذا ثلطت وبالت: زال عنها الحبط، وإنما تحبط الماشية لأنها تملأ بطونها، ولا تثلط، ولا تبول، فتنتفخ أجوافها، فيعرض لها المرض، فتهلك.

فهذه الماشية آكلة الخضر: تسير سيرا معتدلا صحيا لا ضرر فيه، فهي تأكل، لأول شبعها، ثم تتوقف، وتستقبل عين الشمس، وتستمرئ ذلك، وتثلط وتبول، وتجتر: أي: تخرج من جوفها إلى فمها، مما رعته قبل، وتعيد مضغه، وأكله.. ثم تعود فترتع، أي: ترعى من جديد على هذا الأسلوب.

وهذا مثال المتعقل، المنتفع بالدنيا، «الذي إذا جمع كفايته، استغنى بها.. ونظر في استعمال ما جمعه، وإنفاقه في مصالحه ومنافعه، وسقط بَقَاءُ التباعات فيه، بخروجه من يده في وجوهه، كهذه التي اجْترت ما جمعته قبل في كرشها، ليسهل لها هضمه، وتجري منفعته في جسمها، ثم امتدت للشمس ليستريح جسمها، ويصلح هضمها، وتنضج أخلاط جسمها، حتى تم لها مرادها، وبقي في جسمها منفعته، وخرج عنها تفله، ومضرته»[١٧٩].

١-٥: ثم قال النبي ﷺ ببيان عظيم: «**وإن هذا المال حلوة**»، «**إن هذا المال خضرة حلوة**»، «**وإن هذا المال خضر حلو**»، «**وإن المال حلوة خضرة**» وهذا مدح للمال، «**من أخذه بحقه**» أي: اكتسبه من الحلال، «**ووضعه في حقه**» أي: أنفقه في الحلال، في المصالح والمنافع ووجوه الخير، «**فنعم المعونة هو**»، وهذا مدح، فالمال- بهذين الشرطين- نعم المعونة. وفي رواية مسلم: «**ونعم صاحب المسلم هو**» وهذا تعبير جميل، فالمال الحلال نعم الصاحب للمسلم، إن فعل فيه ما يرضي الله، «**لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل**». وفي رواية أحمد: «**ونعم صاحب المرء المسلم هو؛ لمن أعطى منه..**». وفي رواية النسائي:

(١٧٩) المصدر السابق، ص ٥٩٠.

«**ونعم صاحب المسلم هو؛ إن أعطي منه اليتيم والمسكين وابن السبيل**» وفي رواية البخاري: «**ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين**» فهذا هو الذي يأخذ الدنيا بحقها، ويبارك له فيها، وفي رواية مسلم: «**فمن يأخذ مالًا بحقه يبارك له فيه**» فالله يبارك في المال الحلال، الذي هو نعم الصاحب للمسلم.

وأما الذي يأخذه بغير حقه، فلا يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل، ولا يشبع، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة.

٢- إذًا، الدنيا المذمومة هي ليست بركات الأرض، وزينة الحياة، ليست الغني، والمال الكثير، وإنما هي أن نأخذها من حرام وننفقها في حرام، أو نمنع حقوق الغير، أو نأخذها من حلال، وننفقها في حرام، أو نقبل عليها بِنَهَمٍ، دون حساب، ونهتم بها وحدها، حتى تكون محور حياتنا، فنتحول إلى كيانات اقتنائية تؤمن بالمباراة التنافسية الدنيوية، وتمارسها، فتتحاسد النفوس، وتتباغض، وتتلاهى عن الغاية التي خلقت من أجلها.

٣- وهذا هو مصدر الخوف على المسلمين، ولهذا أعلن النبي ﷺ للصحابة أنه يخاف عليهم من هذه الجهة، فلنتأمل:

٣-١ : قال البخاري: «باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها» ثم روي بسنده أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين، وساق الحديث إلى قوله: فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «**أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء**»، قالوا: أجل، يا رسول الله، قال: «**فابشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما**

أهلتهم»[١٨٠].

ورواه مسلم كذلك، ورواه بلفظ: «**فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[١٨١]. وفي رواية أحمد: «**ولكن إذا صبت عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم**»[١٨٢].

٣-٢: وأخرج مسلم وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟**» قال عبد الرحمن بن عوف: نقول: كما أمرنا الله، قال رسول الله ﷺ: «**أو غير ذلك: تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض**»[١٨٣]. لفظ مسلم.

٣-٣: وأخرج البخاري ومسلم وأحمد والطبراني وأبو يعلى- وهذا لفظ البخاري- عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»[١٨٤].

وفي رواية للبخاري: «**وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني**

(١٨٠) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٢٥، ص ٢٤٣.

(١٨١) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٩٦١، ص ٥١٣، ورواه ابن ماجه بإسناد صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٢٤٦، ص ٣١٠.

(١٨٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٨١٨، ص ٣١١ - ٣١٢.

(١٨٣) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٩٦١، ص ٥١٣ - ٥١٤، وصحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٢٤٥، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

(١٨٤) فتح الباري، ج ٣، رقم ١٣٤٤، ص ٢٠٩، ورواه بأرقام ٣٥٩٦، ٤٠٤٢، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠.

أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها» قال: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ(١٨٥).

وفي رواية للطبراني: «**أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»، وفي ثانية له: «**ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوا فيها، فتفشلوا، فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم**»، فكان آخر ما رأيت رسول الله ﷺ في المسجد(١٨٦).

ففي هذه الأحاديث يبين النبي ﷺ أنه يخاف على المسلمين، ليس من الغنى، ولكن من التنافس في الدنيا، وما يترتب على ذلك من تقاطع، وتباغض، وتلهي عن منهج الله، فيفشلوا، ويهلكوا. قال في الإكمال: «أصل التنافس: التسابق إلى الشيء، أيهم يأخذه أولا، وكأنه كثرت الرغبة في الشيء، وهو أول أبواب التحاسد»(١٨٧). ويبين ابن حجر فيقول: «والتنافس: من المنافسة، وهي الرغبة في الشيء، ومحبة الانفراد به، والمغالبة عليه.. ونَفُسَ الشيءُ نَفَاسَةً: صار مرغوبا فيه، ونَفِسْتُ به: بَخِلْتُ، ونفست عليه: لم أره أهلا لذلك»(١٨٨).

فالنبي ﷺ يخشى هذا التنافس الدنيوي، والتغالب على الدنيا، فهو يؤدي إلى التحاسد، وهو يؤدي إلى التدابر؛ أي: التقاطع، وهو يؤدي إلى التباغض، والتعادي، فتتفكك الجماعة المسلمة، وشبكة العلاقات الاجتماعية تتناثر، فيدب الهلاك الاجتماعي، وينسحب المجتمع من الفعل التاريخي، والفعالية الحضارية، والوجود الاجتماعي الصالح.. وتصبح الأمة غثاء كغثاء السيل، ليس لها وزن أو ثقل في الميزان الاجتماعي، والدولي.

---

(١٨٥) فتح الباري، ج ٧، رقم ٤٠٤٣، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .
(١٨٦) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٧، رقم ٧٦٧، ٧٦٩ .
(١٨٧) إكمال المعلم، ج ٨، ص ٥١٣ .
(١٨٨) فتح الباري، ج ١١، ص ٢٤٥ .

من هنا ندرك سر خوف النبي ﷺ ليس من الدنيا والغنى والمال، وإنما من التنافس بالمفهوم السابق، وقد ظل هذا الخوف حتى آخر لحظة التقى فيها النبي ﷺ بالمسلمين في المسجد، قبل وفاته؛ لأن التنافس والمباراة الدنيوية يعني إحلال الفردية الأنانية محل روح الولاء والتماسك الاجتماعي الإسلامي، ويعني نشر التحاسد والتباغض في المجتمع، ويعني الالتهاء عن الوظيفة التي خلقنا الله لها، ويعني تحويل الوسائل إلى غايات، ويعني في النهاية هلاك المسلمين كمجتمع متماسك، له رسالة: «**فتلهيكم كما ألهتهم**» «**فتهلككم كما أهلكتهم**».

٤- والعلة الثانية لخوف النبي ﷺ من الدنيا على المسلمين: هي نتاج للعلة السابقة، فالتنافس ونتائجه النفسية والاجتماعية يعني أنه حدث زيغ (ميل وانحراف) عن منهج الله، وهداه، وهذا هو السبب الثاني بعينه؛ أخرج ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال: «**الفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صبا، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هي، وايم الله، لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء..**»[١٨٩].

فهذه علة الخوف من الدنيا، لا من الفقر: أن يؤدي التنافس فيها إلى زيغ القلوب عن منهج الله.. وهذه هي الفتنة التي ذكرها في الحديث الصحيح: أخرج الترمذي وأحمد، والطبراني، والحاكم وغيرهم عن كعب بن عياض: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال**»[١٩٠].

---

(١٨٩) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ٥، ص ١٨ – ١٩ وانظر: مصباح الزجاجة، حديث رقم (١) ص ٤٤ وفيه: ونحن نتذاكر.

(١٩٠) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث معاوية بن صالح، السنن ج ٤، رقم ٢٣٤٣، ص ١٥٠، والطبراني: المعجم الكبير، ج ١٩، رقم ٤٠٤، ص ١٧٩، الألباني: الصحيحة، رقم ٥٩٢، وصححه على شرط مسلم، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

٥- ففتنة الانحراف عن منهج الله الواضح في ذاته هي علة الخوف من المال.. وفي حديث آخر يبين النبي ﷺ علة أخرى هي: الطمع، والإقبال على الدنيا بإشراف نفس نهمة، وهذا هو المذموم أيضا، قال البخاري: «باب قول النبي ﷺ: «**هذا المال خضرة حلوة**»، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] قال عمر: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه.

(..) عن حكيم بن حزام قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني؛ ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**إن هذا المال**- وربما قال سفيان: قال لي: يا حكيم، إن هذا المال- **خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس؛ لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»(١٩١). ورواه في الزكاة بلفظ: ثم قال: «**يا حكيم؛ إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه..**»(١٩٢). ورواه في الوصايا بلفظ: «**يا حكيم إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه..**»(١٩٣).

فالأخذ بطيب نفس وسخاوة نفس، وليس بإشراف نفس: وهو التطلع، إلى المال والتعرض له، بطمع، وشره، وحرص، وإلحاح، ولهذا قال: «**بطيب نفس**» «**بسخاوة نفس**» أي: بإجمال طلب، ونزاهة نفس، وبغير شره، ولا حرص، ولا طمع، ولا إلحاح، ولهذا قال النبي ﷺ لعمر: «**إذا جاءك من هذا المال شيء،**

---

(١٩١) فتح الباري، ج ١١، ص٢٥٨، ورواه مسلم: إكمال المعلم، ج ٣، رقم ١٠٣٥، ص ٥٦٨، والنسائي، السنن ج ٥، رقم ٢٥٣١، ص ٤٤ .

(١٩٢) فتح الباري، ج ٣، رقم ١٤٧٢، ص ٣٣٥.

(١٩٣) فتح الباري، ج ٥، رقم ٢٧٥٠، ص ٣٧٧، ورواه الترمذي، بسند صحيح، السنن، ج ٤، رقم ٢٤٧١، ص ٢١٠ .

وأنت غير شرف ولا سائل، فخذه، وما لا، فلا تتبعه نفسك»(١٩٤).

هذا هو الوضع النفسي الذي نأخذ به المال، فإذا كنا كذلك انتفعنا به، وصرفناه في وجوهه الصحيحة، ولم نتنافس، ولم نتباغض، ولم نزغ عن منهج الله.

ط- إذًا، وصف الدنيا بالذم أو المدح، يتحدد بطبيعة إقبال الإنسان عليها، وكيفية أخذه لها، وتصرفه فيها فالدنيا تصبح مذمومة، محرمة، يتوجب بغضها بالقلب كما جاء في حديث الفصل: فمن على أثره؟ قال: «**الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة**» حين تتحقق الأوصاف الآتية:

١- إرادة الحياة الدنيا وحدها، وإيثارها، وتفضيلها على الآخرة، والرضا بها، والاطمئنان إليها، والتمتع بها دون مراعاة للحساب والثواب والعقاب يوم القيامة: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، ﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ**﴾ [يونس: ٧، ٨].

٢- الالتهاء بالدنيا، وإرادة العلو في الأرض: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣].

٣- الفرح بالدنيا لكونها دنيا، وأخذها باستشراف نفس، والتنافس فيها، والتحاسد، والتقاطع، والتباغض والالتهاء، بسبب الدنيا، وترك الجهاد في سبيل الله، وكل ذلك يؤدي إلى كراهية الموت، حبا للبقاء في الدنيا، وسنزيد هذا بيانا في الفصل القادم، بعون الله.

٤- الوقوف مع زهرة الدنيا، وأخذها من غير حلال، وصرفها في غير

---

(١٩٤) البخاري، انظر: فتح الباري، ج ٣، رقم ١٤٧٣، ص ٣٣٧ وطرفاه في رقم ٧١٦٣، ٧١٦٤.

حلال، والوقوف منها كالماشية التي تأكل حتى يصيبها الحبط، فتهلك، أو تكاد.

٥- تعبيد النفس للدنيا، والمال، حتى تتحول النفس إلى كيان اقتنائي، فقير القلب، عبد للمال، والمظاهر، والاستعراض الطاووسي، فتتحول الدنيا إلى رب معبود من دون الله.

قال البخاري: «باب ما يتقى من فتنة المال(..) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعس عبد الدنيا، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**»(١٩٥). ورواه ابن ماجه وفي رواية له: «**تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(١٩٦)، وهي رواية للبخاري في الجهاد: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش..**»(١٩٧) أي: شقي وهلك، وبعد عن رحمة الله، وعن السعادة وراحة البال، تعس عبد الدينار، أي: طالبه: الحريص على جمعه، القائم على حفظه، الخادم له، وهذا بيان لانغماسه في الدنيا، كالأسير الذي لم يجد خلاصا، ولم يقل: مالك الدينار ولا جامع الدينار، لأن هذا مباح، والمذموم هو التعبد لما نجمع، وهو عبد الدينار، جعله عبدا لشغفه وحرصه، وهو عبد للخميصة، والقطيفة، أي: عبد الثياب، عبد المظاهر، تعس وانتكس؛ أي: انقلب، وعاوده السقوط كلما قام من سقطته، وإذا شيك: أي: إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش، فهو دعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة؛ لأنه قصر عمله على جمع الدنيا، واقتناء المال، والاستعراض المظهري، واشتغل بذلك، عن رسالته ووظيفته التي خلق من أجلها، فهذا قد عبد نفسه للدنيا، يوالي عليها ويعادي عليها، ويرضى

---

(١٩٥) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤٣٥، ص ٢٥٣.
(١٩٦) صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٣٥٣، ص ٣٥٥ .
(١٩٧) فتح الباري، ج ٦، رقم ٢٨٨٧، ص ٨١ .

ويسخط على أساسها، فهي قد أصبحت القيمة العليا الحاكمة لضميره، وحركته.

ي- فالدنيا المذمومة التي يتوجب الزهد فيها، وبغضها هي: توظيف نعم الله، والشهوات، والقدرات، فيما حرمه الله، وفيما يغضبه، وإرادة للعلو بالقلب، وإرادة البقاء فيها، وعدم إرادة الله والدار الآخرة، والالتهاء بالمال، والدنيا عن الله ومنهجه، وعن الإعمار في الأرض بمنهج الله وشرطه، وعن الحساب يوم الدينونة، عن مدة الاستخلاف في الأرض حينئذ تصبح الدنيا: متاع الغرور، ولهوًا، وعبثًا، وتفاخرًا، وتكاثرًا، وتنافسًا، ويكون صاحب هذه الحال عبدا للدنيا، كصاحب الجنتين، الذي قال لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: ٣٤ - ٣٦] وفي النهاية؛ بسبب هذا الالتهاء والتفاخر بالدنيا: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٢]، فهو أشرك بالله، أشرك الدنيا مع الله، لأنه أرادها، ورضي بها، ونسي الآخرة، والتهى بالدنيا عنها وعن الله.

أي: أن الدنيا المذمومة المحرمة: هي أن تتحول الدنيا المحدودة، المتناهية، المسخرة لنا- في ضمائرنا- إلى بقاء أبدي لا متناه، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ..﴾ نطمئن إليه، فنحول ما استخلفنا الله فيه، من دنيا، ومال، وقوة، إلى ملكية خاصة بنا لا نلتزم فيها بضوابط الله في الاكتساب والاستهلاك، أي: الالتزام بقيم الحلال، ولا نجتنب الحرام، وتتضخم الشهوات، فنعبدها، ونتنافس، ونتلاهى، حتى يطغى بعضنا على بعض، وننس الله والدار الآخرة.

هذا هو ما يجب بغضه، والاغتراب عنه، والزهد فيه، أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت

فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك(١٩٨).

ورواه ابن ماجه بلفظ: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، فقال: «**يا عبد الله، كن في الدنيا كأنك غريب، أو كأنك عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور**»(١٩٩).

قال النووي: «معنى الحديث: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطنا، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه(..) وقال غيره: المراد: أن ينزل المؤمن نفسه في الدنيا، منزل الغريب، فلا يعلق قلبه بشيء من بلد الغربة، بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه، ويجعل إقامته في الدنيا، ليقضي حاجته، وجهازه، للرجوع إلى وطنه..»(٢٠٠).

فحيّ على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

فهذا هو الموقف من الدنيا: نعمر فيها ونحسن العمل، مع اليقين بأننا راحلون، ومغتربون عنها، يقول ابن رجب: هذا الحديث أصل في(...) أن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنا ومسكنا، فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر: يهيئ جهازه للرحيل(...) وكان النبي ﷺ يقول: «**ما لي وللدنيا؛ إنما مثلي ومثل الدنيا، كمثل راكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها..**»(٢٠١).

ك - وهذا هو ما يُكوِّن مفهوم الزهد في الدنيا: فالزهد هو استقلال

---

(١٩٨) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤١٦، ص ٢٣٣.

(١٩٩) قال الألباني: صحيح دون قوله: «وعد..» صحيح الجامع الصغير، ج ٣، رقم ٣٣٣٨، ص٣٤٨- ٣٤٩ ورواه الترمذي، ج ٤، رقم ٢٣٤٠، ص ١٤٩.

(٢٠٠) ابن حجر: فتح الباري، ج ١١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢٠١) ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٤٥٠. ويرجع لشرح ابن رجب لهذا الحديث، ويدرس دراسة عميقة، ص ٤٥٠ - ٤٥٩.

الشيء، وارتفاع الهمة عنه[٢٠٢]، وهو سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة، وليس هو رفض الملك، بل هو تجريد القلب عن التعلق بالدنيا، والطمأنينة إليها[٢٠٣].

وقد حلل ابن تيمية مفهوم الزهد، وبين حقيقته، قال: «والزهد المشروع: هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، كما أن الورع المشروع: هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة(...) فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه، أو يعين على الدار الآخرة: فالزهد فيه ليس من الدين، بل صاحبه داخل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وإن الزهد هو عما لا ينفع، إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحا، لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه، وأما المنافع الخالصة أو الراجحة؛ فالزهد فيها: حمق.

وأما الورع: فإنه الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات، والشبهات؛ لأنها قد تضر، وأما الورع عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة؛ لما تقترن به من جلب منفعة راجحة، أو دفع مضرة أخرى راجحة- فجهل وظلم، وذلك يتضمن ثلاثة أقسام لا يتورع عنها: المنافع المكافئة، والراجحة، والخالصة، كالمباح المحض، أو المستحب، أو الواجب، فإن الورع عنها ضلالة(...) الزهد: خلاف الرغبة، يقال: فلان زاهد في كذا، وفلان راغب فيه، والرغبة: هي من جنس الإرادة، فالزهد في الشيء: انتفاء الإرادة له(...) وكل من لم يرغب في الشيء ويريده: فهو زاهد فيه(...) وأما الورع: فهو اجتناب الفعل وانتفاؤه، والكف والإمساك عنه، والحذر منه، وهو يعود إلى كراهة الأمر، والنفرة منه، والبغض له(...).

---

(٢٠٢) المرجع السابق، ص ٣٤٦.

(٢٠٣) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، دار الحديث، ص ١٠ – ١٥.

فتلخص أن الزهد من باب عدم الرغبة، والإرادة في المزهود فيه، والورع: من باب وجود النفرة والكراهة، للمتورع عنه، وانتفاء الإرادة: إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة، وأما وجود الكراهة: فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة(...).

وبهذا يتبين أن الواجبات والمستحبات: لا يصلح فيها زهد، ولا ورع، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع، وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع.

وهذا القدر: ظاهر، تعرفه بأدنى تأمل.

وإنما الشأن: فيما إذا تعارض في الفعل: هل هو مأمور به، أو منهي عنه، أو مباح؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأمورا به، أو منهيا عنه، أو اقترن بالمأمور به ما يجعله منهيا عنه، وبالعكس: فعند اجتماع المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، وتعارضها: يحتاج إلى الفرقان(...).

الزهد المشروع: هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله، (...) فهذا صفة القلب، وأما في الظاهر: فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله، من مطعم وملبس ومال، وغير ذلك.

وجماع ذلك: خُلُق رسول الله ﷺ (...) وكان عادته في المطعم: أنه لا يرد موجودا، ولا يتكلف مفقودا، ويلبس من اللباس ما تيسر؛ من قطن، وصوف، وغير ذلك، وكان القطن أحب إليه، (...) وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا: فأصوم فلا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم فلا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقال ﷺ: «**لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٢٠٤].

---

(٢٠٤) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج١٠، ص ١٦، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٦١، والحديث أخرجه البخاري في النكاح (رقم ٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (١٤٠١).

هذا كلام عليه نور، فالزهد لا يعني ترك الدنيا.. بل هو ترك الرغبة فيما لا ينفع، والزهد لا يعني أبدا بغض منافع الدنيا، ولا مباحاتها، بل يقول ابن تيمية، في حب الدنيا: «فالذي يعاقب الرجل عليه: الحب الذي يستلزم المعاصي، فإنه يستلزم الظلم، والكذب، والفواحش، ولا ريب أن الحرص على المال والرئاسة يوجب هذا، كما في الصحيحين أنه قال: «**إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»(٢٠٥). وعن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(٢٠٦). قال الترمذي: حديث حسن، فحرص الرجل على المال والشرف يوجب فساد الدين.

فأما مجرد الحب الذي في القلب، إذا كان الإنسان يفعل ما أمر به، ويترك ما نهى الله عنه، ويخاف مقام ربه، وينهى النفس عن الهوى؛ فإن الله لا يعاقبه على مثل هذا؛ إذا لم يكن معه عمل.

وجمع المال إذا قام بالواجبات فيه، ولم يكتسبه من الحرام، لا يعاقب عليه، لكن إخراج فضول المال، والانتصار على الكفاية: أفضل، وأسلم، وأفرغ للقلب، وأجمع للهم، وأنفع في الدنيا والآخرة»(٢٠٧).

وجاء في سير أعلام النبلاء: عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ قلت لأبي حازم: إني لأجد شيئا يحزنني، قال: وما هو يا ابن أخي؟ قلت: حبي للدنيا، قال: اعلم أن هذا لشيء، ما أعاقب نفسي على بعض شيء حببه الله إلي، لأن الله قد حبب هذه الدنيا إلينا، لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا؟ ألا يدعونا

---

(٢٠٥) مسلم في البر والصلة (رقم ٢٥٧٨) بنحوه، وأبو داود في الزكاة، (رقم ١٦٩٨).

(٢٠٦) الترمذي في الزهد (٢٣٧٦) وقال: حسن صحيح، والدارمي في الرقاق (٢/ ٣٠٤).

(٢٠٧) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ج ١١، ص ٦٣ – ٦٤.

حبها إلى أن نأخذ شيئا، من شيء يكرهه الله، ولا أن نمنع شيئا من شيء أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك؛ لم يضرنا حبنا وإياها(٢٠٨).

فالزهد في الدنيا ليس هو بغض الدنيا الحلوة الخضرة، المباحة، النافعة، الحلال، وليس هو بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، إنما الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، يقينا في الله، وثقة فيه، وأن يكون حالك في المصيبة في دنياك، ومالك، وصحتك، وحالك إذا لم تصب بها: سواء، وأن ترغب في ثواب الله على هذه المصيبة أكثر من رغبتك في الشيء الذي أصبت فيه، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء، وأن يستوي عندك إقبال الدنيا وإدبارها، وزيادتها ونقصها، فلا الزيادة تطغيك، ولا نقصا منها يحزنك.

وهذا كله من المباح، والحلال، أما الدنيا المحرمة المحدودة سابقا فالزهد فيها: إخراجها من القلب، وبغضها، واجتنابها تماما.

والزهد- كما رأينا- عمل قلبي، قال أبو سليمان الداراني: لا تشهد لأحد بالزهد؛ فإن الزهد في القلب(٢٠٩).

ل- أما الدنيا الحلال التي يحب المسلم البسطة فيها- كما سأثبت من النصوص الصحيحة والمواقف العملية- فهي النعم المسخرات لنا في البر والبحر والجو، بكل ما فيها، وهي الزمان الذي جعله الله خلفة، وظرفا للعمل، وطلب عمارته، بالعمل في الأرض، والسعي، والكدح، قياما بوظيفة الاستخلاف، في الدنيا، والأرض، وقياما بالتعمير الذي طلبه الله منا، فجعله جزءا من العبادة، حين يقصد به وجه الله، ويتبع منهجه، وهي إصلاح الجسم والنفس والعقل، وهي العافية، والغنى حتى نتمكن من التعمير والعبادة،

---

(٢٠٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢٠٩) ابن رجب: جامع العلوم، ص ٣٤٧ والمعطى السابق ص ٣٤٦ - ٣٥٠.

وتربية الأولاد والإنفاق عليهم بما يصلحهم ليكونوا معمرين في الأرض، عابدين لله، وهي إصلاح المال، والثروة، وتنميتها تحقيقا للقوة، والتمكن واستغلالا لها من الإعمار، وتحقيق منهج الله في الأرض، وتربية عباد الله، وإصلاحهم، وكشف الكرب عنهم، وهي التمتع بالحلال الطيب، والترويح عن النفس، استجماما؛ واستعدادا لنَصَب جديد في رضا الله.. وهي استغناء القوي، وعزته، وتحرره من هم الفقر، وقلق الحاجة.

كل هذا، وما يلحق به، دنيا محبوبة لله ولرسوله وللمؤمنين، إذا التزم المسلم بما أحله الله، اكتسابا وإنفاقا وأراد به وجه الله، وراعى الآخرة، في عمله الدنيوي، «**إن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحق فجعله في سبيل الله، واليتامى والمساكين**»، «**نعم صاحب المرء المسلم هو..**».

والآن نركز فكرنا، ونفرغ وعينا لتأمل النصوص، والمواقف الآتية المبرهنة- بغزارة- على القرارات السابقة، وذلك بالإضافة إلى كل ما أوردناه:

١ - أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**»(٢١٠). وفي رواية الأدب المفرد: عن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**أيكم..؟**» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه..، فقال رسول الله ﷺ: «**اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت**»(٢١١).

فالصحابة يحبون المال، والرسول يبني على هذه الحقيقة، فيوجه هذا الحب نحو الخير، نحو تقديم المال في مصالح الأمة، بأن يبذلوا جزءا منه في البر،

---

(٢١٠) فتح الباري: ج ١١، رقم ٦٤٤٢، ص ٢٦٠.

(٢١١) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ١٥٣، ص ٦٣. قلت: ورواه النسائي: المجتبى من السنن، ج ٦، رقم ٣٦١٢، ص ١٧٣ - ١٧٤.

والقربات، ليجدوا ماهم- حسنات- يوم القيامة بها أن مالك ما قدمت.. لتجده يوم القيامة، فأنفق، وقدم، من منطلق حبك لمالك.

٢- قال البخاري: «باب من أحب البسط في الرزق» قال ابن حجر: «البسط: أي: التوسع، ويستفاد منه: جواز هذه المحبة خلافا لمن كرهها مطلقا»(٢١٢).

وقال البخاري: «باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله،(..) عن أنس ﷺ قال: قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله له، قال: «**اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته**»(٢١٣).

وأخرجه في باب «الدعاء بكثرة المال والولد، مع البركة»(٢١٤). وأخرجه في الصيام، وفيه: فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت أم سليم: يا رسول الله، إن لي خويصة، قال: «**ما هي؟**» قالت: خادمك أنس، فما ترك خير آخرة ولو دنيا إلا دعا لي به: «**اللهم ارزقه مالا وولدا وبارك له**» فإني لمن أكثر الأنصار مالا،..إلخ(٢١٥).

قال أبو العالية: «وكان له بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين، وكان فيها ريحان يجيء منه ريح المسك»(٢١٦).

وأخرج مسلم عن أنس من حديث: فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده**»، قال أنس: فوالله، إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة اليوم(٢١٧).

---

(٢١٢) فتح الباري، ج ٤، ص ٣٠١.
(٢١٣) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٣٤٤، ص ١٤٤.
(٢١٤) المصدر السابق، رقم ٦٣٧٨، ص ١٨٢.
(٢١٥) المصدر السابق، ج ٤، رقم ١٩٨٢، ص ٢٢٨.
(٢١٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن، سننه، ج ٥، رقم ٣٨٥٩، ص ٤٥١ - ٤٥٢.
(٢١٧) إكمال المعلم، ج٧، باب من فضائل أنس، رقم٢٤٨١، ص٥١٨، ورواه مسلم مثل رواية البخاري الأولى، وبروايات أخرى، نفس المصدر، ص٥١٨-٥١٩، والحديث رواه أحمد في المسند، ج١٠، رقم ١١٩٩٢، ص٣٤٤، ٣٤٥، وإسناده صحيح، ورواه برقم ١٢٨٨٨، المسند، ج١١، ص٤٨ وهو صحيح، ورواه الطبراني: المعجم الكبير، ج٢٥، رقم٣٠٠، ص١٢٣، ورقم ٣٠٣، ص١٢٤.

وفي هذا الحديث - يقول ابن حجر: «الدعاء بخير الدنيا والآخرة، وبكثرة المال والولد، وأن ذلك لا ينافي الخير الأخروي»(٢١٨). وهذا يبين أن كثرة المال وكثرة الولد، مرغوب فيهما، ومحبوبان لله، ولرسوله، بدليل دعاء النبي ﷺ بهما لأنس، واستجابة الله لهذا الدعاء.

٣- أخرج البخاري عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير، أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»**(٢١٩). ورواه مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزقه أحد إلا كان له صدقة»**(٢٢٠). قال النووي: «في هذه الأحاديث: فضيلة الغرس، وفضيلة الزرع، وأن أجر فاعل ذلك: مستمر؛ ما دام الغراس والزرع، وما تولد منه إلى يوم القيامة»(٢٢١).

وهذا ترغيب قوي في تعمير الدنيا.

٤- أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «**إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة** (شتلة النخل، نخلة صغيرة) **فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها؛ فليغرسها**»(٢٢٢).

ورواه أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن قامت الساعة، وبيد**

---

(٢١٨) فتح الباري، ج ٤، ص ٢٢٩.

(٢١٩) فتح الباري، ج ٥، رقم ٢٣٢٠، ص ٣، ورواه مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي (ط مناهل المعرفة) ج ١٠، رقم ١٥٥٣، ص ٢١٥.

(٢٢٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٠، رقم ١٥٥٢، ص ٢١٣.

(٢٢١) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٢٢٢) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٤٧٩، ص ١٩٣، وانظر: الصحيحة رقم ٩، وصحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ١٤٢٤، ص ٣٠٠.

أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»(٢٢٣). ورواه أحمد بلفظ: «**إن قامت على أحدكم القيامة، وفي يده فسيلة فليغرسها**»(٢٢٤).

فهذا الحديث يظهر حب الرسول ﷺ، وحرص الإسلام على تعمير هذه الدنيا في كل زمان ومكان، بالعمل والغرس، حتى في أعصب وأحلك الظروف، وهذا حث على التعمير في الدنيا لآخر لحظة، بل ودعوة لانتهاز فرص التعمير، بزراعة فسيلة نخل.

وقال البخاري في الأدب المفرد: باب اصطناع المال: حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا حنش بن الحارس، عن أبيه، قال: كان الرجل منا تنتج فرسه فينحرها، فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذا؟ فجاءنا كتاب عمر: «أن أصلحوا ما رزقكم الله، فإن في الأمر تنفسا»(٢٢٥).

٥- أخرج البخاري في الأدب المفرد عن عمرو بن العاص قال: بعث إلى النبي ﷺ فأمرني أن آخذ على ثيابي وسلاحي، ثم آتيه، ففعلت، فأتيته وهو يتوضأ، فصعد إليَّ البصر ثم طأطأ، ثم قال: «**يا عمرو، إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله، وأرغب لك رغبة من المال صالحة**» قلت: إني لم أسلم رغبة في المال، إني أسلمت رغبة في الإسلام فأكون مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح**»(٢٢٦).

فالنبي ﷺ يمدح المال الصالح للمرء الصالح، ويرغب فيه لأحد أصحابه.

٦- أخرج البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه في الحث على المكاسب،

---

(٢٢٣) صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٢٩١٦، ص ٥٥.

(٢٢٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٢٨٣٧، ص ٣٤.

(٢٢٥) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٤٧٨، ص ١٦٣.

(٢٢٦) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٢٩٩، ص ١٠٧ – ١٠٨، ورواه ابن أبي الدنيا في: إصلاح المال (تحقيق مصطفى مفلح القضاة) ط ١، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٠م، ١٤١٠ هـ رقم ٤٣ (الجملة الأخيرة منه فقط) ص ١٦٤.

وابن أبي الدنيا في إصلاح المال عن عبد الله بن خبيب؛ عن عمه، قال: كنا في مجلس، فجاء النبي ﷺ، وعلى رأسه أثر ماء، فقال له بعضنا: نراك اليوم طيب النفس، فقال: «**أجل، والحمد لله**» ثم أفاض القوم في ذكر الغنى، فقال: «**لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم**»(٢٢٧) هذا لفظ ابن ماجه، ولفظ البخاري قريب وفيه: «**وطيب النفس من النعم**» وكذا في إصلاح المال(٢٢٨).

٧- أخرج أحمد والطبراني والترمذي وأبو داود والنسائي، والحاكم من طرق عن مالك بن فضلة قال: رآني رسول الله ﷺ، وعليَّ أطمار (ثياب رثة) فقال: «**هل لك مال؟**» قلت: نعم، قال: «**من أي المال؟**» قلت: من كل المال، قد أتاني الله عز وجل، من الشاء والإبل، قال: «**فلتر نعم الله وكرامته عليك**» وفي رواية: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قشف الهيئة، فقال: «**هل لك مال؟**» قلت: نعم، قال: «**من أي المال؟**» قلت: من كل المال؛ من الإبل(...) والخيل والغنم، فقال: «**إذا آتاك الله مالًا فلير عليك..**». وفي رواية: «**فإذا آتاك الله- عز وجل- خيرًا فلير عليك**»، وفي رواية: «**فإن الله- عز وجل- إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن ترى عليه**»(٢٢٩).

وفي رواية للطبراني: فرآني سيئ الهيئة، فقال: «**هل عندك مال؟**» قلت: نعم، من كل المال قد آتاني الله، (...) قال: «**فإذا آتاك الله خيرًا فلير عليك نعمة الله، وكرامته عليك..**»، وفي رواية: «**فلير عليك أثر نعمته وكرامته..**» وفي رواية فقال: «**هل لك من مال؟**» قلت: نعم، من كل المال، قال: «**فلير عليك**

---

(٢٢٧) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ١٧٥٤، ص ٢٠٧.

(٢٢٨) البخاري: الأدب المفرد، رقم ٣٠١، ص ١٠٩ قال الألباني: صحيح. وابن أبي الدنيا: إصلاح المال، رقم ٤٤، ص ١٦٥.

(٢٢٩) هذه كلها روايات أحمد، وهي جميعا بأسانيد صحاح، المسند، ج ١٩، أرقام ١٥٨٣٠ – ١٥٨٣٥، ص ٣٥٨ – ٣٦٠ (ست روايات لأحمد).

نعمة الله» فغدوت عليه في حلة حمراء. وفي رواية «**فلير عليك ما رزقك الله**». وفي رواية: «**فإذا آتاك الله مالًا**- أو قال: خيرًا- **فلير عليك، فإن الله إذا أكرم عبدا أحب أن يرى كرامته عليه**»(٢٣٠).

وفي رواية للنسائي: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ فرآني رث (بالي) الثياب، فقال: «**ألك مال؟**» قلت: نعم، يا رسول الله، من كل المال، قال: «**فإذا آتاك الله مالا، فلير أثره عليك**»(٢٣١).

فالمال: نعمة الله، وكرامته، وهو خير، والله يحب أن يرى أثره على الإنسان، فليلبس، ولينفق، وليأكل، بالمعروف، فهذا أمر محبوب لله.

٨- أخرج البخاري عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فنادى ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى، يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك**»(٢٣٢). وفي رواية إصلاح المال: «**أرسل الله- عز وجل- على أيوب رجل جراد من ذهب، فجعل ينثر- نَفْضًا في ثوبه، فنودي: يا أيوب، ألم يكفك ما أعطيناك؟ قال: رب، ومن يستغني عن فضلك**»(٢٣٣). رجل جراد: جماعة جراد. يحثي: يأخذ بيديه جميعا، ويجعله في ثوبه، «**فكلما امتلأت ناحية نشر ناحية**» وفي رواية قال: «**ومن يشبع من رحمتك؟**» ورد في الحديث: جواز الحرص على الاستكثار من الحلال، في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال.. بركة»(٢٣٤) وفضلا ورحمة.

---

(٢٣٠) هذه روايات الطبراني (١٧ رواية)، انظر: المعجم الكبير، ج ١٩، أرقام ٦٠٦ - ٦٢٤، وهي روايات صحيحة الإسناد، ص ٢٧٦ - ٢٨٣.

(٢٣١) النسائي: المجتبى من السنن، ج ٨، رقم ٥٢٢٣، ص ١٣٢، ورقم ٥٢٢٤، ص ١٣٢ - ١٣٣، ورقم ٥٢٩٤، ص ١٤٣ والحديث رواه أبو داود، ج ٤، رقم ٤٠٦٣، ص ١٦ - ١٧، ورواه الترمذي، ج ٣، رقم ٢٠١٣ وقال: حسن صحيح، ص ٤٠٥.

(٢٣٢) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣٣٩١، ص ٤٢٠.

(٢٣٣) ابن أبي الدنيا: إصلاح المال، رقم ١١٢، ص ١٩٧.

(٢٣٤) فتح الباري، ج ٦، ص ٤٢١.

٩- أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»(٢٣٥).

وروي في إصلاح المال عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي**»(٢٣٦).

وكان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظْلِم، أو أُظْلَم**»(٢٣٧).

ومن دعاء النبي ﷺ لأنس: «**اللهم أكثر ماله، وولده، وأطل حياته، واغفر له..**» وإن ثمرتي لتطعم في السنة مرتين، وطالت حياتي حتى استحييت من الناس، وأرجو المغفرة»(٢٣٨).

فهذه الدعوات- وغيرها كثير- تدل على طلب إصلاح الدنيا، وكثرة المال، والولد، وطول الحياة، وعلى النفور من الفقر، والقلة، والذلة.

١٠- أخرج ابن أبي الدنيا في إصلاح المال «دخل ابن عامر على ابن عمر فقال: الرجل يصيب المال فيصل منه الرحم، ويفعل فيه ويفعل، قال ابن عمر: إنك، ما علمت، لمن أجدرهم أن تفعل ذلك، ولكن: انظر ما أوله؟ فإن كان أوله خبيثا؛ فإن الخبيث كله خبيث»(٢٣٩).

وقال عبد الله بن عمر: ما أبالي، لو كان لي أحد ذهبا، أعلم عدده وأزكيه،

---

(٢٣٥) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٢٠، ص ٢١٥ – ٢١٦.

(٢٣٦) ابن أبي الدنيا: إصلاح المال، رقم ١١٣، ص ١٩٨.

(٢٣٧) صحيح، رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ١٢٨٧، ص ٢٧٦.

(٢٣٨) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٦٥٣، ص ٢٢٥.

(٢٣٩) ابن أبي الدنيا: إصلاح المال، رقم ٢٢، ص ١٥٢.

وأعمل فيه بطاعة الله- عز وجل[(٢٤٠)].

١١- أخرج البخاري ومسلم، وأحمد وأبو داود وابن ماجه، والنسائي، والترمذي، وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص من حديث الوصية، وهذا لفظ البخاري في باب: «أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكفَّفوا الناس»، وأخرج الحديث وفيه: «**إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى فيّ امرأتك..**»[(٢٤١)].

وفي رواية الترمذي: «**إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس..**»[(٢٤٢)]. فمن الخير: أن نكون أغنياء، وأن يكون ورثتنا أغنياء، وفي رواية لمسلم: «**إن صدقتك من مالك صدقة، وإن نفقتك على عيالك صدقة، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صدقة، وإنك أن تدع أهلك بخير**- أو قال: بعيش- **خير من أن تدعهم يتكففون الناس**» وقال بيده[(٢٤٣)]. فالغنى خير، وفضل.

١٢- وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن عمر؛ قال: «**احرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا**»[(٢٤٤)]. وروي عن عمرو بن العاص قال: «**اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدًا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدًا**»[(٢٤٥)].

---

(٢٤٠) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ١٤٥٨، ص ٩٧ (آخر الحديث).

(٢٤١) فتح الباري، ج ٥، رقم ٢٧٤٢، ص ٣٦٣ (وهو في البخاري بإحدى عشرة رواية) وانظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ٢٢٠٦، ص ٣٦٥.

(٢٤٢) قال أبو عيسي: وهو حديث حسن صحيح، السنن، ج ٤، رقم ٢١٢٣، ص ٤٠ – ٤١ وهو في صحيح مسلم: إكمال المعلم، ج ٥، رقم ١٦٢٨ ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

(٢٤٣) إكمال المعلم، ج ٥، ص ٣٦٨.

(٢٤٤) ابن أبي الدنيا: إصلاح المال، رقم٤٩، ص ١٦٨.

(٢٤٥) المصدر السابق، هامش ص ١٦٨.

١٣- وأخرج أن سعد بن عبادة كان يدعو: «اللهم هب لي حمدا، وهب لي مجدا، لا مجد إلا بفعال، لا فعال إلا بمال، اللهم لا تصلحني بالقليل، ولا أصلح عليه»(٢٤٦).

وكان طلحة يقول في دعائه: «اللهم ارزقني مجدًا ومالًا، فإنه لا يصلح المجد إلا بالمال، ولا يصلح المال إلا بمراعاة المجد»(٢٤٧).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب أنه يقول: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه»(٢٤٨).

وفي رواية له: «لا خير فيمن لا يحب المال، ليؤدي عنه أمانته، ويصل رحمه، ويستغني به عن خلق ربه- عز وجل»(٢٤٩). وأخرجه أبو نعيم عنه قال: لا خير فيمن لا يحب هذا المال،..إلخ.

١٤- وفي الحلية: قال أبو قلابة: يا أيوب، الزم سوقك، فإن الغنى من العافية، وقال أبو قلابة: لن تضرك دنيا شكرتها لله- عز وجل(٢٥٠).

وأخرج ابن أبي الدنيا: عن محمد بن المنكدر قال: «نعم العون على الدين: الغنى»(٢٥١).

وأخرج عن عمر؛ قال: «عليكم بالجمال، واستصلاح المال، وإياكم وقول

---

(٢٤٦) المصدر السابق، رقم ٥٤، ص ١٧٠.

(٢٤٧) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة (تحقيق د. أبو اليزيد العجمي) دار الوفاء، ص ٣٩٢.

(٢٤٨) إصلاح المال: رقم ٥٥، ص ١٧١ (الرواية الأولى) ورقم ١٠٣، ص ١٩٣ (الرواية الثانية)، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٧٣.

(٢٤٩) إصلاح المال: رقم ٥٥، ص ١٧١ (الرواية الأولى) ورقم ١٠٣، ص ١٩٣ (الرواية الثانية) وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٧٣.

(٢٥٠) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٢٥١) إصلاح المال، رقم ٥٨، ص ١٧٢، ورواه في حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٤٩.

أحدكم: ما أبالي»(٢٥٢).

وروى عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب أنه ترك دنانير كثيرة فلما حضرته الوفاة قال: اللهم إنك تعلم أني لم أجمعها إلا لأصون بها ديني، وأصل بها رحمي، وأكف بها وجهي، وأقضي بها ديني، لا خير فيمن لا يجمع المال؛ ليكف به وجهه، ويصل به رحمه، ويقضي به دَيْنَهُ، ويصون به دِينَهُ(٢٥٣).

وأخرج في إصلاح المال قال: اشترى مالك بن دينار سويقًا وتمرًا، كأنه أكثر، فقيل له: يا أبا يحيى، ما هذا؟ قال: هذا صوم وصلاة(٢٥٤).

١٥- أخرج ابن سعد عن سفيان بن عيينة قال: قلت لابن عون: إني أراك تحب الدراهم، قال: إنها تنفعني(٢٥٥).

وقال سفيان الثوري: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس(٢٥٦).

وقال مؤمل: دخلت على سفيان وهو يأكل طباهج (اللحم المشرح) ببيض، فكلمته في ذلك، فقال: «لم آمركم أن لا تأكلوا طيبا، اكتسبوا طيبا، وكلوا»(٢٥٧).

وكان ابن المبارك الإمام الثقة الثبت يقول للفضيل: لولاك وأصحابك ما اتجرت، وقال له الفضيل: أنت تأمرنا بالزهد، والتقلل، ونراك تأتي بالبضائع، كيف ذا؟ قال: يا أبا على إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأكرم عرضي، وأستعين

---

(٢٥٢) إصلاح المال، رقم ٦٤، ص ١٧٥.

(٢٥٣) السابق، رقم ٦٨، ص ١٧٧.

(٢٥٤) السابق، رقم ٩٣، ص ١٨٨.

(٢٥٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٥، دار الفكر، ص ٢٨٧.

(٢٥٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٢٤١ (قال الإمام أحمد: أتدري من الإمام؟ الإمام: سفيان الثوري، لا يتقدمه أحد في قلبي) السير، ج ٧، ص ٢٤٠.

(٢٥٧) المصدر السابق، ج ٧، ص ٢٧٧.

به على طاعة ربي، قال: يا بن المبارك: ما أحسن ذا إن تم ذا(٢٥٨).

ويقول الشيخ القدوة عبد القادر الجيلاني: «فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، أود لو أن الدنيا بيدي فأطعمها الجياع، كفي مثقوبة لا تضبط شيئا، لو جاءني ألف دينار لم أبيتها..»(٢٥٩).

١٦- وأختم هذه الفقرة بما رواه الطبراني عن كعب بن عجرة قال: مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياءً ومفاخرة؛ فهو في سبيل الشيطان**»(٢٦٠).

ن- ونخلص من ذلك كله إلى أن قول النبي ﷺ في الذي على أثر مخموم القلب صدوق اللسان: «الذي يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة» لا يعني: ترك الدنيا وهجرها، بل يعني: بغض الدنيا المذمومة- كما حددناها- بالقلب، وأن يكون الإنسان في الدنيا على جناح سفر للآخرة، وأن يهاجر بقلبه إلى الدار الآخرة ليشهد ما فيها من جزاء، وأن يحب الآخرة، لأنها العيش الأبدي، كما قال النبي ﷺ: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»(٢٦١). فالآخرة هي الحية الدائمة الحياة، وفيها نلقى الله، ونرى وجهه الكريم في الجنة.

وقد توسعنا قليلا في هذا المبحث لنبين حقيقة العقيدة الإسلامية في الدنيا، والمال، والغنى، وحب ذلك كله؛ لأن هناك آراء وتصورات غير إسلامية

---

(٢٥٨) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٨٦، ٣٨٧.

(٢٥٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٤٧.

(٢٦٠) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٩، رقم ٢٨٢، ورواه في الصغير والأوسط، قال الهيثمي: ورجال الكبير رجال الصحيح، وقال المنذري في الترغيب: ورجاله رجال الصحيح. ص ١٢٩.

(٢٦١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، رقم ٦٤١٤، ص ٢٢٩.

تشيع في الأفق الإسلامي، فقررنا حقيقة ذلك من كتاب الله والحديث الصحيح، والتطبيق الصحيح.

سادسا: مؤمن في خلق حسن:

أ- هذا الوصف هو المحدد للمرتبة الثالثة في درجات الخيرية والأفضلية، في حديث هذا الفصل، وهو الحد الأدنى للمسلم الصحيح، أن يكون مؤمنا متخلقا بمحاسن الأخلاق من بر الوالدين، وصلة الأرحام، والكرم، والإحسان إلى الجار، والصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، وإتقان العمل، ورحمة الخلق، وعمارة الوقت، وإماطة الأذى عن الطريق، وطيب الكلام، وإفشاء السلام، وبشاشة الوجه، وإغاثة الملهوف، وقضاء حوائج المحتاجين، والعفو عند المقدرة، وبذل الجميل، وكف القبيح، وإطعام الطعام، والصبر، وحسن العهد، والإحسان إلى الأولاد.. الخ

وصاحب القلب المخموم فيه هذه الخاصية، فلأن قلبه نظيف، طيب، تقي، نقي، فإن ذلك يفيض على وجهه، وقوله، وفعله، وتصرفاته فيعمل بوصية الرسول ﷺ لأبي ذر، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»(٢٦٢).

فالقلب المخموم طاب أسفله، فطاب أعلاه؛ أي: الأعمال والأخلاق التي تصدر عنه.

ب- والمؤمن صاحب القلب المخموم يتخلق بأحسن الأخلاق لأنه يعلم أن محاسن الأخلاق، وصالحها هي قوام الرسالة المحمدية، فقد أخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(٢٦٣).

---

(٢٦٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، سننه، ج ٣، رقم ١٩٩٤، ص ٣٩٧ – ٣٩٨ (ادرس شرح هذا الحديث في جامع العلوم والحكم لابن رجب، ص ١٨٩ – ٢٢١).

(٢٦٣) ابن أبي الدنيا: مكارم الأخلاق، رقم ١٣، ص ٣ .

ورواه في الأدب المفرد: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(٢٦٤).

ورواه مالك في الموطأ- بلاغا- أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»(٢٦٥).

وحسن الخلق هو جماع البر، فقد أخرج مسلم وغيره: «**البر حسن الخلق**»(٢٦٦).

والله يحب حسن الأخلاق ومعاليها، أخرج ابن أبي الدنيا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها**»(٢٦٧). وأخرجه الحاكم عن سهل بن سعد: «**إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها**». وأخرج الطبراني عن الحسين بن علي: «**إن الله تعالى يحب معالي الأمور، وأشرافها، ويكره سفسافها**»(٢٦٨).

وهي خاصة رسول الله ﷺ: أخرج مسلم عن أنس بن مالك، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا»(٢٦٩). وأخرج البخاري عن مسروق قال: كنا جلوسا عند عبد الله بن عمرو، يحدثنا إذ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: «**إن خياركم أحسنكم أخلاقًا**»(٢٧٠).

---

(٢٦٤) صحيح، الأدب المفرد، رقم ٢٧٣، ص ١٠٠ – ١٠١، وهذا لفظ أحمد أيضا بإسناد صحيح، المسند، ج ٩، رقم ٨٩٣٢، ص ٥٦ .

(٢٦٥) قال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح، متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره، انظر: الموطأ: كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم ٨، ص ٥٦٤.

(٢٦٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٣، ص ١٧ – ١٨.

(٢٦٧) ابن أبي الدنيا: مكارم الأخلاق، رقم ١٠، ص ٣.

(٢٦٨) كلاهما: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ١٨٨٩، ١٨٩٠، ص ٣٨٤ وانظر: السلسلة الصحيحة، رقم ١٣٧٨.

(٢٦٩) إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٣١٠، ص ٢٧٥ (يدرس كتاب الفضائل من صحيح مسلم، من رقم ٢٢٧٦ – ٢٣٦٤) من الصحيح.

(٢٧٠) فتح الباري، كتاب الأدب، ج١٠، رقم ٦٠٣٥، ص٤٥٦، والأدب المفرد، رقم ٢٧١، ص١٠٠، ورواه مسلم، كتاب الفضائل (إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا) رقم ٢٣٢٠، ص٢٨٤، ٢٨٥.

وكان «يأمر بمكارم الأخلاق»(٢٧١).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق**»(٢٧٢).

ورواه الترمذي بلفظ: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء**»(٢٧٣).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أخبركم بأحبكم إليّ؛ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟**» فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثا، قال القوم: نعم يا رسول الله، قال: «**أحسنكم خلقًا**»(٢٧٤).

وأخرج أبو داود عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»(٢٧٥).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل**»(٢٧٦).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «**خيركم إسلاما أحاسنكم أخلاقا؛ إذا فقهوا**»(٢٧٧).

وقد كان النبي ﷺ يدعو: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت..**»(٢٧٨).

---

(٢٧١) فتح الباري، في ترجمة الباب، ج١٠، ص ٤٥٥.
(٢٧٢) صحيح، الأدب المفرد، رقم ٢٧٠، ص ١٠٠.
(٢٧٣) حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ٢٠٠٩، ص ٤٠٤.
(٢٧٤) صحيح، الأدب المفرد، رقم ٢٧٢، ص ١٠٠.
(٢٧٥) سنن أبي داود، ج ٤، كتاب الأدب، رقم ٤٧٩٨، ص ٢٧٠.
(٢٧٦) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٢٨٤، ص ١٠٣ – ١٠٤.
(٢٧٧) قال الألباني: صحيح، المصدر السابق، رقم ٢٨٥، ص ١٠٤.
(٢٧٨) ابن أبي الدنيا، مكارم الأخلاق، رقم ٩، ص ٣.

«..**واهدني لصالح الأعمال والأخلاق، فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت**»(٢٧٩). «**اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي**»(٢٨٠).

وعندما سئل: أي المؤمنين أكمل إيمانا؟ قال: «**أحسنكم خلقا**»(٢٨١).

هكذا يدرس صاحب القلب المخموم، ويتعلم، ويعلم منزلة حسن الخلق، وأنها طريق للجنة، فعندما سئل النبي ﷺ: ما أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: «**التقوى وحسن الخلق**»(٢٨٢).

ويقول أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «**تدرون ما أكثر ما يدخل النار؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**الأجوفان: الفرج والفم، وأكثر ما يدخل الجنة: تقوى الله وحسن الخلق**»(٢٨٣).

فصاحب القلب المخموم يوقن بذلك، ويؤمن مع ابن القيم بأن: «الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق؛ زاد عليك في الدين»(٢٨٤).

جـ - فإذا آمن القلب بذلك، وسلم للرسول ﷺ فإنه يجب الاتصاف بحسن الخلق، ومعالي الأخلاق مثل: الحلم عن الجاهل، والشجاعة، وصدق البأس، والتذمم للصاحب، والمعاونة، والمؤاخاة، والعفة، والعدل، والحياء..إلخ.

يقول ابن أبي الدنيا: «ليس من خلق كريم، ولا فعل جميل إلا وقد وصله

---

(٢٧٩) حسن، صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، ط ٣، رقم ١٢٦٦، ص ٢٧٢.

(٢٨٠) صحيح، رواه أحمد عن ابن مسعود، صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ١٣٠٧، ص ٢٨٠.

(٢٨١) جزء من حديث رواه ابن أبي شيبة في الإيمان، رقم ٤٣، ص ١٤ قال الألباني: «حديث صحيح، رجاله ثقات، لولا عنعنة الحسن،.. لكن له شاهد من حديث عمرو بن عبسة في المسند.. وآخر من حديث عبادة بن الصامت..» فهو صحيح لغيره.

(٢٨٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، قال الألباني: حسن، صحيح، سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤٤٣ ص ٣٨٢.

(٢٨٣) قال الألباني: حسن، الأدب المفرد، رقم ٢٨٩، ص ١٠٤.

(٢٨٤) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٢٠.

الله بالدين»(٢٨٥).

والتخلق بأي خلق حسن يتطلب الإجراءات التربوية الآتية:

١- الإيمان بإمكانية تزكية الأخلاق، وتحسينها، واكتساب مكارم الأخلاق، فمع صعوبة تغيير الأخلاق، إلا أنها ممكنة التغيير وذلك؛ بمنهج التزكية الإيمانية، وليس بتغيير الطبيعة الإنسانية:

فنستعمل قوة الحب والاشتهاء والإرادة، وذلك لتربية اتجاه قوي في حسن الخلق، والرغبة في الاتصاف به، ونستعمل قوة الغضب للنفور من سفاسف الأخلاق الذميمة القبيحة.

ونسلم أنفسنا للنبي ﷺ ليزكينا، وذلك بالانقياد له، ومعرفة ما يدعونا إليه من الأخلاق الحسنة.

فالخلق الحسن يمكن أن نكتسبه بالإيمان به، والرغبة فيه، والعزم على الاتصاف به، وتكلف التخلق به، والتعود عليه حتى يصير ملكة، وخلقا راسخا(٢٨٦).

٢- الشعور بالحاجة إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق؛ لتكميل الذات ولاستحقاق دخول الجنة.. إلخ ما ذكرناه سابقا وإدراك أهمية الأخلاق الحسنة، وضرورتها للمسلم في الدنيا، وفي الآخرة.

٣- اشتهاء التخلق بمكارم ومحاسن ومعالي الأخلاق، وتربية الرغبة القوية في هذا التخلق، مما يكون عزما قويا على الاتصاف، والتخلق..أي: تربية إرادة الأخلاق الحسنة، ومحبتها محبة تدفع إلى الحرص على الخلق الحسن.

ويساعد على تربية هذه المحبة دراسة كتاب الأدب المفرد للبخاري، والأدب من صحيحه، وكتاب البر والصلة من صحيح مسلم، وكتاب

---

(٢٨٥) مكارم الأخلاق، ص ٩.

(٢٨٦) انظر: ابن القيم: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٣٢٨.

الفضائل من صحيحه، وكتاب مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، وكتاب البر والصلة من سنن الترمذي، والجزء الأول من الشفا لعياض، ومنزلة الخلق من مدارج السالكين، وكتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائفها ومرضيها، للخرائطي، وصحيح الترغيب للمنذري والألباني، وما هو مثل ذلك؛ لمعرفة آثار كل خلق، وثوابه، مما ينمي حب الاتصاف به، والرغبة فيه، ولمعرفة منظومة الأخلاق التي يريدها الله من المسلم.

ومن المهم أن نستفيد بتراث المسلمين في هذا الجانب، وخصوصا: تراث المحاسبي، الذي يعتبر رائد الفكر التربوي الخلقي عند المسلمين، وخصوصا كتبه: الرعاية لحقوق الله، آداب النفوس، أعمال القلوب والجوارح، القصد والرجوع إلى الله، شرح المعرفة وبذل التضحية، رسالة المسترشدين، المكاسب، الوصايا، العقل.

فالمربون عليهم استخراج آليات التربية الخلقية من هذا التراث النافع، مثل آليات: المعرفة، التعقل، المحاسبة، المفاتشة، العناية المتحركة، التوهم، المصاحبة.. إلخ، وتعليمها لكل من يريد تغيير أخلاقه نحو الأحسن.

٤- أن نتصور كل خلق تصورا صحيحا، فنعرف حده، ومضمونه، وأبعاده التطبيقية، والثابت، والمتغير فيه، والصور التطبيقية التي يمكن إضافتها في عصرنا.. بدقة، ووضوح، والتزام.. فالوضوح الفكري هو أساس حسن التطبيق، والبعد عن الخلط واللخبطة، وهذا يستدعي دراسة منظومة الأخلاق، الإسلامية، من المصادر المذكورة عالية، ومن القرآن الكريم مع الاهتمام بمعرفة حدود كل خلق، ومضمونه، ومما يساعد على ذلك دراسة كتابنا هذا، ومدارج السالكين، والآداب لابن مفلح، والذريعة للراغب، وما يماثل ذلك، إننا نريد تعقل الخلق، والاقتناع به، مع الإيمان به، ومعرفة آثاره في النفس والمجتمع.

٥- تكلف ممارسة الخلق، واستطعام حلاوته، وحمل النفس على الاتصاف به، مهما كلف المسلم ذلك، بقصد أن يصبح ذلك عادة وهيئة راسخة، وجزءا من التكوين القلبي والنفسي للمسلم.

٦- التعود على الخلق، حتى يصبح خاصة من خواص الهوية الذاتية، فمن يتحر الخير يعطه، والخير عادة.

فمن تعود الخير، أصبح خيِّرًا.. أي: الشروع في ممارسة الخلق الحسن.. واستشعار السرور بهذه الممارسة؛ لأنك تتقرب إلى الله، وتتحول إلى إنسان فاضل حقيقي، يحبه الله، ويحبه الرسول.

٧- توفير بيئة ثقافية، واجتماعية خيرة، أي: مصاحبة أشخاص ذوي خلق حسن، لأن المرء على دين خليله، وعلى خلق صاحبه.. وهنا يحدث تعاون مشترك على الالتزام بمكارم الأخلاق.

٨- تحويل الشهوات والقوى النفسية إلى مجرى خلقي حسن.

إذا طبقنا هذه المنظومة الإجرائية في كل خلق، وإذا توفر الاهتمام الحقيقي القلبي بذلك، فإن المسلم قد بدأ يدخل في أصحاب القلب المخموم، بهذا النهج التربوي.

د- بهذا تكتمل هوية المسلم الحق، صاحب القلب المخموم واللسان الصادق، كما ينبغي أن يتربى، وأن نربيه؛ ليكون:

١- مخموم القلب: تقيا، نقيا، لا إثم فيه، ولا بغي، ولا غل، ولا غدر، ولا فحش، ولا حسد.

٢- يشنأ الدنيا الحرام، ويحب الآخرة، ويتصورهما تصورا إسلاميا صحيحا، ويسلك السلوك الصحيح.

٣- أن يكون مؤمنا في خلق حسن، يخالق الناس بمعالي الأخلاق.

وقد بينت في الجزء الأول والثالث من هذا الفصل نهجا تربويا لذلك، أما مبحث (يشنأ الدنيا) فقد فصلناه، ليتصوره المسلم تصورا صحيحا، ويؤمن به، ويعمل طبقا لذلك.

سابعا: نتائج واستنباطات:

١- يتبين مما سبق أن الإسلام يريد من المسلم أن يكون مخموم القلب، صدوق اللسان، تقيا، نقيا.. يشنأ الدنيا الحرام، ويحب الآخرة، ويعمل بمحاسن الأخلاق.

وقد حدد هذا الحديث منظومة قيم الخيرية والأفضلية وهي: الإيمان، نظافة القلب، التقوى، النقاء، حب الآخرة، الالتزام بمحاسن الأخلاق، الخلاص من الغل والحسد، والغش، والغدر، والحقد.

فتربية الإنسان لا تصح، ولا تتم، بدون أن تعمل على اكتساب الإنسان لهذه القيم.

والشخصية المسلمة لا تتحقق في الوجود الواقعي الحق، بدون اكتساب هذه القيم.

ومن هنا يصبح في رأس أولويات حركة الإصلاح الإسلامي تربية المؤمن صاحب القلب المخموم المتصف بالمنظومة القيمية السابقة.

بدون ذلك لا نصل إلى شخصية إسلامية، ومن ثم لا يحدث التغيير الإسلامي المنشود في الواقع المجتمعي، أي: أنه يحدث الفشل في الحركة، لأن هناك خللا خطيرا في المنهج؛ لأنه أغفل تربية القلب المخموم بخصائصه السابقة، التي هي قيم أساسية للإنسان المسلم.

ومن هنا يمكننا الحكم على تربيتنا الشخصية، والرسمية، والمنزلية، والتربية القائمة في حركات البعث الإسلامي، بناء على هذا المعيار المتضمن في مقومات القلب المخموم.

٢- إن الالتزام بحسن الأخلاق هو نتاج تربية القلب وإكسابه القيم المحددة في هذا الفصل، فتربية الإيمان، والتقوى، والنقاء، والنظافة، في القلب، وتخليصه من حب الإثم، والغل، والحقد، والحسد، والغدر..إلخ، هي تربية للأخلاق القلبية من تحت، وهي عملية تطييب أسفل وعاء العمل، فإذا طاب أسفله، طاب أعلاه.

فالتربية الخلقية تنبني على تربية القلب ليكون مخموما نظيفا تقيا نقيا، طيبا، سليما، خالصا، متخلصا من كبائر القلوب، إذًا- وحسب ترتيب السلم القيمي في هذا الحديث- تربية القلب في أعلى السلم.

٣- من الضروري التأكيد على التصور الإسلامي الصحيح للدنيا والآخرة، لأنه تصور فعال، ومنتج، لنؤمن به، ونسلك على أساسه، ونتخذ قراراتنا، ونقف مواقفنا بناء عليه، وبدون هذه العقيدة في الدنيا والآخرة ستحدث آثار خطيرة في النفوس، وفي الأمة، كما سيظهر أيضا في الفصل الآتي.

ثامنا: أسئلة وتكليفات لتعميق الفهم، وتسهيل الممارسة:

١- حلل المفاهيم الآتية:

أ- المخموم.

ب- التقوى.

حـ- النقاء.

د- الإثم.

هـ- الغل.

و- الحسد.

ز- يشنأ الدنيا.

٢- حدد منظومة قيم القلب المخموم، كما درستها في هذا الفصل، ثم

حولها إلى قائمة تقويم ذاتي، واحكم على نفسك: هل تلتزم بهذه القيم أم لا؟ وما حدود الالتزام؟

٣- حدد عناصر العقيدة الإسلامية في الدنيا والآخرة، وبين مدى التغيير الذي تحدثه في تصوراتك.

٤- ما الدلالات التربوية لهذه المنظومة القيمية، على مستوى التصور التربوي لبناء المسلم المعاصر، وعلى مستوى أهداف تربيته، وطبيعة عملية التربية الإسلامية؟

٥- كيف يمكن تربية القلب المخموم، قيمة قيمة؟

٦- كم حديثا صحيحا في هذا الفصل؟

٧- ما رأيك في بنية هذا الفصل، وبهذا التفصيل؟ هل كان يمكن الاختصار؟ هل كان يمكن كتابته بشكل آخر؟ هل كان يمكن التفصيل في الأساليب التربوية؟

٨- اخترت لتنظيم دورة تربوية في قيم القلب المخموم: حدد الأهداف المعرفية، والوجدانية والسلوكية المهارية لهذه الدورة، وحدد المحتوى الذي يتم دراسته، وحدد الأنشطة القرائية والتعبدية لهذه الدورة؟ فما الآيات التي يصلي بها؟ وما الأحاديث التي تحفظ؟ وما برنامج تقويم الدورة؟

٩- قم بعمل قائمة بقيم القلب المخموم في ثلاثة أبحر: الأول على اليمين: القيمة، والثاني في الوسط: الأدلة عليها من القرآن والسنة، الثالث على الشمال: هل أتصف بها أم لا؟ واطبع منها عشرين نسخة، ووزعها على بعض أصحابك، وعلق بعضها في بعض المساجد.

١٠- لماذا كان النبي ﷺ يخاف علينا من زهرة الدنيا؟ حدد الأسباب التي تجعل الدنيا مذمومة.

١١ - بيِّن علاقة قيم القلب المخموم بالخلق الحسن في التعاملات. هل

تجد علاقة بين هذا الفصل وفصل (صلاح القلب..) ؟ وضح ذلك.

١٢- هل تمت تربيتك لتلتزم بقيم هذا الفصل؟ هل التربية التي مورست معك في حركة الدعوة، وفي الأسرة، وفي المدرسة، وفي المسجد، تحقق هذه القيم؟

١٣- ماذا يجب أن نفعل نحو هذا الفصل؟

١٤- كم مرجعا رجع إليه المؤلف؟ هل تعلم مراجع أخرى يمكن أن تضاف؟ هل درست بعض هذه المراجع؟ هل كان المؤلف أمينا في الرجوع إليها؟

١٥ - قم باستخراج الأدعية الواردة في هذا الفصل، وتضرع إلى الله بها.

١٦- ما رأيك في هذه القصيدة؟

سَأُعْمِلُ نَصَّ الْعِيسِ حَتَّى يَكُفَّنِي ... غِنَى المَالِ يَوْمًا أَوْ غِنَى الحَدَثَانِ

فَلَلْمَوتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى لَهَا ... عَلَى المَرْءِ بِالْإِقْلَالِ وَسْمُ هَوَانِ

مَتَى يَتَكَلَّمْ يُلْغَ حُكْمُ كَلَامِهِ ... وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمُ بَيَانِ

كَأَنَّ الْغِنَى عَنْ أَهْلِهِ بُورِكَ الْغِنَى ... بِغَيْرِ لِسَانٍ نَاطِقٌ بِلِسَانِ

(إصلاح المال، رقم ٤٤٩، ص ٣٥٦) .

تم الجزء الثاني – بحمد الله تعالى

فهرس الجزء الثاني

الموضوع | الصفحة

الفصل الثامن
تربية القلوب المصقولة

الفصل العاشر
الله ينظر للقلوب والأعمال

الفصل الحادي عشر
القلوب أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانا

الفصل الثاني عشر
مقلب القلوب ومثبتها هو الله ـ عز وجل

الفصل الثالث عشر
تربية القلب المؤمن السليم المنير المزهر

الفصل الرابع عشر
تربية الإيمان في جذر قلوب الرجال والنساء

الفصل الخامس عشر
تربية تجديد الإيمان في القلب

الفصل السادس عشر
تربية القلب المخموم